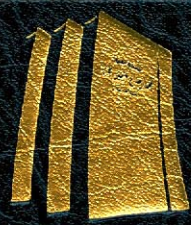


سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ١٥٠



تفسير

# القرآن الكريم

سورة غافر

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

حفظه الله له ولوالديه والمسلمين

من إصدارات  
مؤسسة التبن محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تفسير  
القرآن الكريم  
سورة غافر

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

© مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة غافر. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٧ هـ

٥٨٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٥٠)

ردمك: ٠ - ٧٤ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - سورة غافر - تفسير.

أ - العنوان

١٤٣٧/١٨٥١

ديوي: ٢٢٧،٦

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٨٥١

ردمك: ٠ - ٧٤ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ

يطلب الكتاب من :

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimen.com

info@binothaimen.com

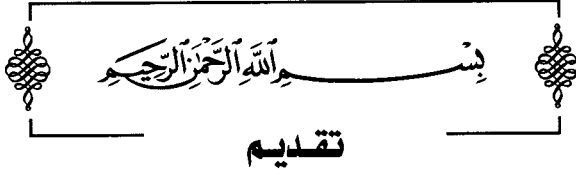
الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سويف ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤





إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا  
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ  
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ  
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ  
جِهَادِهِ، حَتَّىٰ آتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ  
تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَمِنْ الدَّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُسَجَّلَةِ صَوْتِيًّا، وَالَّتِي كَانَ يَعْقِدُهَا صَاحِبُ  
الْفَضِيلَةِ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ الْوَالِدُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي  
جَامِعِهِ بِمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ أثنَاءَ الْإِجَازَاتِ الصِّفِيَّةِ؛ حَلَقَاتٌ فِي تَفْسِيرِ  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَانَتْ بِدَايَةِ التَّسْجِيلِ الصَّوْتِيِّ لَهَا مِنْ سُورَةِ النُّورِ وَمَا بَعْدَهَا؛ حَتَّى  
بَلَغَ فَضِيلَتَهُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا  
أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٤٥﴾.

وَقَدْ اعْتَمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي تَفْسِيرِهِ لِتِلْكَ السُّورِ كِتَابًا بَيْنَ يَدَيْ الطُّلَابِ هُوَ  
(تَفْسِيرُ الْجَلَالَيْنِ) لِلْعَلَّامَةِ جَلالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَحَلِّيِّ،

المُتَوَقَّى سَنَةً (٨٦٤هـ)<sup>(١)</sup>، والعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الحَضْرِي السُّيُوطِي، المُتَوَقَّى سنة (٩١١هـ)<sup>(٢)</sup>. تَعَمَّدَهُمَا اللهُ بِوَأَسْعِ رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأَسْكَنَهُمَا فِسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَجَزَّاهُمَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

وَسَعِيًّا - بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى - لِتَعْمِيمِ النَّفْعِ بِتِلْكَ الْجُهُودِ الْمُبَارَكَةِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ بِأَشْرِ الْقِسْمِ الْعِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُنَيْنِيِّ الْحَيْرِيِّ وَاجِبَاتِهِ فِي شَرَفِ الْإِعْدَادِ وَالتَّجْهِيزِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ لِإِخْرَاجِ ذَلِكَ الثَّرَاثِ الْعِلْمِيِّ؛ إِنْفَادًا لِلقَوَاعِدِ وَالضَّوَابِطِ وَالتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي قَرَّرَهَا فَضِيلَةُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذَا الشَّأْنِ.

نَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ نَافِعًا لِعِبَادِهِ، وَأَنْ يَجْزِي فَضِيلَةَ شَيْخِنَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيُضَاعِفَ لَهُ الْمُثُوبَةَ وَالْأَجْرَ، وَيُعَلِّي دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

### القِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُنَيْنِيِّ الْحَيْرِيِّ

١٤ مُحَرَّم ١٤٣٧ هـ



(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٣٩/٧)، حُسن المحاضرة (١/٤٤٣).

(٢) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/٣٠١).

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه  
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن العلم يحتاج إلى مُكابدة وإلى مُثابرة وإلى دأبٍ وكلّما عوّد الإنسان نفسه  
على ذلك اعتاده وصار أمرًا سهلاً عليه.

أمّا إذا ركنَ إلى الكسل والدعة والشكون فإنه يصعب عليه جدًّا أن يكون  
مُجتهدًا؛ لأن النفس وما تعودت، والإنسان في طلب العلم كالمُجاهد في سبيل الله  
في إعداد العُدّة؛ لأن الله تعالى جعل الجهاد في سبيل الله والعلم عدليّين؛ حيث قال الله  
تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] يعنني: لا يمكن أن  
يُخرجوا جميعًا في الجهاد، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعنني: وقعدت طائفة  
﴿لِيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿لِيَنْفَقَهُوا﴾  
الفاعل هم الفرقة الباقية ﴿لِيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ  
يَحْذَرُونَ﴾، بل قال بعض العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ: إن طلب العلم أوكد من الجهاد في سبيل  
الله؛ لأن طلب العلم ينبتني عليه الجهاد والعلم لا ينبتني على الجهاد، بل إن المُجاهد  
لا يمكن أن يُجاهد على الوجه الصحيح إلّا بطلب العلم؛ فلهذا كان أوكد.

إذن: فبقاء الإنسان يُطالع ويُراجع ويُذاكر ويحفظ في العلم الشرعي هو  
كالمُجاهد في سبيل الله سواء بسواء.

ولو سُئِلْنَا: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ طَلَبُ الْعِلْمِ؟

قُلْنَا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ نُفَضِّلَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ نَقُولُ لَهُ: طَلَبُ الْعِلْمِ فِي حَقِّكَ أَفْضَلُ. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ نَقُولُ: الْجِهَادُ فِي حَقِّكَ أَفْضَلُ؛ وَهَذَا تَجِدُونَ أَجْوِبَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّفَاضُلِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ أَنَّهُ يُخَاطَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُ، وَهَذَا يَنْفَكُ الْإِشْكَالُ الَّذِي يَرِدُ عَلَى النَّفْسِ؛ حَيْثُ يَقُولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ كَذَا وَكَذَا»، وَفِي بَعْضِهَا: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ كَذَا وَكَذَا»، فَيُقَالُ: إِنَّ هَذَا الْإِخْتِلَافَ هُوَ عَلَى حَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِ نَقُولُ: بَعْضُ النَّاسِ طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِمْ، وَبَعْضُ النَّاسِ الْجِهَادُ فِي حَقِّهِمْ أَفْضَلُ، فَمَنْ كَانَ وَعَاءً لِلْعِلْمِ حَافِظًا فَاهِمًا مُكَابِدًا لِلْعِلْمِ، فَهَذَا طَلَبُ الْعِلْمِ فِي حَقِّهِ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ أَكْثَرَ، وَيَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ، وَمَنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْحَالِ قَلِيلَ الْحِفْظِ، قَلِيلَ الْفَهْمِ وَلَكِنَّهُ شُجَاعٌ قَوِيٌّ بَطُلٌ فَهَذَا الْجِهَادُ فِي حَقِّهِ أَفْضَلُ، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾.

وقبل البدء بالتفسير نُقدِّم مُقدِّمة - نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَنْفَعَنَا بِهَا -،  
فَنَقُولُ:

إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُجِبَّ إِلَيْهِ الْعِلْمُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ مِفْتَاحَ كُلِّ خَيْرٍ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ يَرِدِ اللَّهَ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ»<sup>(١)</sup> وهذه بُشْرَى لِكُلِّ مَنْ فَقَّهَهُ اللَّهُ فِي دِينِهِ وَعَلَّمَهُ، أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، وَالْفِقْهُ فِي الدِّينِ هُوَ مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ أَدْلَتِهَا، ثُمَّ تَطْبِيقُ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الَّتِي عَلَّمَهَا؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



لأن من لم يُطبَّق فليس بفيقيه؛ بل هو قارئ؛ ولهذا حذّر عبدُ الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أن يكثرُ القُرَاءَ وَيَقِلَّ الفُقَهَاءَ<sup>(١)</sup>، فالفيقيه في دين الله هو الذي يَعْلَمُ شريعة الله ثُمَّ يُطَبِّقُهَا على نفسه وعلى غيره، بقَدْرِ استطاعته.

وطالب العِلْمِ عليه مَسْئُولِيَةٌ كَبِيرَةٌ؛ لأنه واسِطَةٌ بين الخَلْقِ وبين الرَسُولِ ﷺ إِذْ إِنَّهُ يَنْقُلُ شريعة الرَسُولِ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- إلى أُمَّتِهِ؛ ولهذا يَجِبُ أن يَكُونَ أُسُوةً حَسَنَةً في عِبَادَاتِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ؛ لأنه إِذَا كَانَ أُسُوةً حَسَنَةً في ذَلِكَ، فَقَدْ أَتَمَرَ العِلْمُ في حَقِّهِ ثَمَرَاتِهِ الجَلِيلَةَ، ولأنه إِذَا كَانَ أُسُوةً لِلنَّبِيِّ ﷺ في ذَلِكَ أَحَبَّهُ النَّاسُ وَأَلْفَوْهُ، وَاقْتَدَوْا بِهِ، وَصَارَ إِمَامًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِمَامًا كَبِيرًا؛ لَكِنَّهُ إِمَامٌ بِحَسَبِ حَالِهِ، وَكَلِمًا أَزْدَادَ الْإِنْسَانَ عِلْمًا وَتَمَسُّكًا بِمَا عِلِمٌ، أَزْدَادَ احْتِرَامِ النَّاسِ لَهُ، وَاقْتِدَاؤُهُمْ بِهِ، وَجَعَلَهُمْ إِيَّاهُ أُسُوةً.

ثُمَّ إِنْ طَالِبُ العِلْمِ يَجِبُ عَلَيْهِ الإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ في طَلَبِهِ؛ لِأَنَّ الإِخْلَاصَ هُوَ أَهْمُ شَيْءٍ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ تَحْقِيقُ مَا أَرَادَهُ العَبْدُ، وَالإِخْلَاصُ لِلَّهِ في طَلَبِ العِلْمِ أَشَارَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَالَ: العِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ لَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ. قَالُوا: وَبِمَ تَصِحُّ النِّيَّةُ؟ قَالَ: يَنْوِي بِذَلِكَ رَفَعَ الجَهْلَ عَنِ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ تَصْحِيحُ النِّيَّةِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ كُلُّهُ، أَوْ لَيْسَ كُلُّهُ تَصْحِيحُ النِّيَّةِ، بَلْ هُنَاكَ أَشْيَاءٌ تَجِبُ مُلَاحَظَتُهَا أَيْضًا، وَذَلِكَ بِأَنَّ يَنْوِي بِطَلَبِ العِلْمِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالعِلْمِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/١٧٣)، رقم (٧٧)، والدارمي في السنن رقم (١٩١، ١٩٢).

(٢) انظر الفروع لابن مفلح (٢/٣٣٩).

وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ ﴿ [محمد: ١٩]، وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وهذا شيء مُشَاهِد، بَيْنَا لِي تَاجِرًا مِنْ أَكْبَرِ التُّجَّارِ فِي عَهْدِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ حَصَلَ لَهُ مِنْ رَفْعِ الذِّكْرِ مَا حَصَلَ لَهُوَلَاءِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، لَنْ تَجِدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا؛ فَأَهْلُ الْعِلْمِ مَرْفُوعُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَرْفُوعُونَ عِنْدَ الْعِبَادِ، مَرْفُوعُونَ فِي حَيَاتِهِمْ وَمَرْفُوعُونَ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، حَتَّى وَإِنْ نَالَ أَحَدًا مِنْهُمْ مَا يَنَالُهُ مِنَ التَّعْذِيبِ أَوْ الْمُضَايِقَةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَزِدَادُ بِذَلِكَ رِفْعَةً عِنْدَ اللَّهِ وَرِفْعَةً عِنْدَ الْعِبَادِ.

فَأَنْتَ إِذَا نَوَيْتَ بَطْلَبَكَ لِلْعِلْمِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ، صَارَتْ كُلُّ حَرَكَةٍ تَتَحَرَّكُهَا فِي هَذَا الْمَجَالِ عِبَادَةً، إِنْ رَاجَعْتَ الدَّرْسَ فِعْبَادَةً، وَإِنْ حَفِظْتَ فِعْبَادَةً، وَإِنْ مَشَيْتَ فِعْبَادَةً، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>.

وهذه مسائل تَغِيبُ عَنَّا كَثِيرًا:

الأولى: كَثِيرًا مَا نُرَاجِعُ الْكُتُبَ لِتَحْقِيقِ مَسْأَلَةٍ مَا، وَلَكِنْ يَغِيبُ عَنَّا أَنَّنَا الْآنَ فِي عِبَادَةٍ نَرَجُو بِهَا ثَوَابَ اللَّهِ؛ لَكِنْ إِذَا اسْتَحْضَرَ طَالِبُ الْعِلْمِ أَنَّهُ يَمْتَثِلُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِطَلَبِ الْعِلْمِ، صَارَ طَلَبُهُ لِلْعِلْمِ عِبَادَةً.

الثانية: أَنْ يَنْوِيَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ حِفْظَ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ تُحْفَظُ بِرِجَالِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتِرَاعًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، معلقاً مجزوماً به، ووصله مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ صُدُورِ الرَّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يَجِدِ النَّاسُ عُلَمَاءَ  
يَسْتَفْتُونَهُمْ، اسْتَفْتَوْا أَنَا سَا جُهَالًا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»<sup>(١)</sup>.

إِذَنْ: حِفْظُ الشَّرِيعَةِ يَكُونُ بِالْعُلَمَاءِ، بِرِجَالِهَا فَانُو بِذَلِكَ -أَي: بِطَلَبِكَ الْعِلْمِ-  
حِفْظُ الشَّرِيعَةِ، وَنَعَمَ الرَّجُلُ أَنْتَ؛ إِذَا كُنْتَ خِزَانَةَ لِشَّرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ!.

الثالثة: أَنْ يَنْوِيَ هَذَا -أَي: بِطَلَبِهِ الْعِلْمِ- حِمَايَةَ الشَّرِيعَةِ وَالذُّودَ عَنْهَا؛ لِأَنَّ  
الشَّرِيعَةَ لَهَا أَعْدَاءٌ، أَعْدَاءٌ مُعْلِنُونَ بَعْدَاوَتِهِمْ، وَأَعْدَاءٌ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا  
يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، فَلِهَا  
أَعْدَاءٌ؛ فَأَنْتَ أَنْوِ بِطَلَبِكَ الْعِلْمِ حِمَايَةَ الشَّرِيعَةِ، وَالذَّفَاعَ عَنْهَا؛ وَإِذَا كَانَ هَذَا  
مَقْصُودَ طَالِبِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَخْتَارُ الْجِهَةَ الَّتِي يَكُونُ غَزْوُ أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ  
نَاحِيَّتِهَا، وَعَلَى هَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَجْرِي فِي السَّاحَةِ مِنَ الْأَفْكَارِ  
الرَّدِيئَةِ أَوْ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ.

وَنَضْرِبُ مِثْلًا بَوَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مَرَّ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَذَاهِبَ أَهْلِ  
التَّعْطِيلِ، وَلَا يَعْرِفُونَ الْأَفْكَارَ الْمُتَحَرِّفَةَ الْهَدَامَةَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ بِلَادِهِمْ، وَلَمْ يَفِدْ  
إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَهَمَّ مُلْتَمِّتُونَ عَلَى عُلَمَائِهِمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الْحَقَّ، هُوَ لَآءِ  
لَا يُهْمُهُمْ أَنْ يَسْتَعْلَمُوا بِأُمُورٍ أُخْرَى مِنْ وَسَائِلِ الْعِلْمِ، أَوْ الذَّفَاعَ عَنِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ  
آمِنُونَ، لَكِنْ إِذَا جَاءَ الْعَدُوُّ فَلَا بُدَّ أَنْ نَسْتَعِدَّ لَهُ، وَأَنْ يَكُونَ اسْتِعْدَادُنَا بِسِلَاحٍ مُنَاسِبٍ  
لِسِلَاحِهِ، فَمِنْ الْمَعْلُومِ مِثْلًا أَنْ مَنْ هَاجَمَكَ بِالْمَدَافِعِ وَالصُّوَارِيخِ، لَا يَصِحُّ وَلَا يَسْتَقِيمُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ كَيْفِ يَقْبِضُ الْعِلْمَ، رَقْمٌ (١٠٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ  
رَفْعِ الْعِلْمِ وَقَبْضِهِ وَظُهُورِ الْجَهْلِ وَالْفِتَنِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، رَقْمٌ (٢٦٧٣)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَنْ تُدَافِعَهُ بِمَا يُسَمَّى بِالسَّلَاحِ الْأَبْيَضِ بِالْحَتَّاجِ وَالسِّيُوفِ وَمَا أَشْبَهَهَا؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ أَنْ تَسْتَعِدَّ لِكُلِّ عَدُوٍّ بِمَا يُنَاسِبُ سِلَاحَهُ.

فَالآنَ صَارَ فِي السَّاحَةِ أَفْكَارَ رَدِيئَةٍ خَبِيثَةٍ، إِنْ لَمْ تَكُنْ مُلْحِدَةً فَهِيَ إِلَى الْإِلْحَادِ أَقْرَبُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّخْصِيصِ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْكُمْ.

فَنَحْتَاجُ أَنْ نَعْرِفَ هَذِهِ الْأَفْكَارَ وَكَيْفَ نُبْطِلُهَا، وَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ جَمِيعَ الْأَفْكَارِ الْمُتَحَرِّفَةِ إِبْطَالُهَا سَهْلٌ جِدًّا، حَتَّى وَإِنْ هَوَّلُوا الْأَمْرَ، وَإِنْ ضَخَّمُوا فَهْمَهُمْ كَالِإِسْفِنَجِ، اعْضُرْهُ بِيَدِكَ يَخْرُجُ كُلُّ مَا فِيهِ، وَلَا تَتَهَيَّبُوا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ مَسْمُوعٌ وَلَا عَقْلٌ مَصْنُوعٌ، فَلَا بُدَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ قَدْ نَوَى بِطَلْبِ الْعِلْمِ حِمَايَةَ الشَّرِيعَةِ وَالذِّفَاعِ عَنْهَا، لَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَكُونُ فِي السَّاحَةِ؛ حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يُدَافِعَ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلِكُلِّ مَكَانٍ مَا يُنَاسِبُهُ.

وَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ حِمَايَةُ الشَّرِيعَةِ وَالذِّفَاعُ عَنْهَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِرِجَالِهَا، لَوْ أَنَّكَ كُنْتَ فِي مَكْتَبَةٍ، وَمَعَكَ جَمَاعَةٌ وَدَخَلَ رَجُلٌ مُلْحِدٌ يُقَرِّرُ الْإِلْحَادَ، وَأَنْتُمْ لَا عِلْمَ عِنْدَكُمْ، لَكِنِ الْمَكْتَبَةُ مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تَرُدُّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ، وَتُبَيِّنُ زَيْفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقْفِزَ كِتَابٌ مِنْهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرُدَّ عَلَى هَذَا الْمُلْحِدِ؛ فَالْكَتُبُ وَإِنْ كَثُرَتْ لَا تُفِيدُ، لَا بُدَّ مِنْ عُلَمَاءَ، وَإِذَا كَانَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي ذَكَرْتِ إِذَا كَانَ فِيهِ عَالِمٌ، فَسَوْفَ يَتَكَلَّمُ بِمَا يَرُدُّ قَوْلَ هَذَا الْمُلْحِدِ، حَتَّى يَنْكِصَ عَلَى عَقْبِيهِ. هَذِهِ أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ كُلُّهَا تَتَرْتَّبُ عَلَى إِخْلَاصِ النِّيَّةِ.

الرَّابِعَةُ: مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَنْوِيَ رَفْعَ الْجَهْلِ عَنِ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ، وَمَتَى كَانَ يَنْوِي ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَجِدَّ فِي الطَّلَبِ، لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ الْغِنَى لَا بُدَّ أَنْ يَكْتَسِبَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّجِرَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَحْوِضَ جَمِيعَ مَيَادِينِ التَّجَارَةِ؛ فَإِذَا كَانَ يُرِيدُ

رَفَعِ الْجَهْلُ عَنْ نَفْسِهِ فَلَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ، وَلَا مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَجْلِسَ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَجِدَّ فِي الطَّلَبِ.

وإذا كان يُريدُ رَفَعِ الْجَهْلُ عَنْ غَيْرِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَحْرِصَ غَايَةَ الْحِرْصِ عَلَى نَشْرِ الْعِلْمِ بِالْوَسَائِلِ الْمُنَاسِبَةِ، الْوَسَائِلِ الْقَوِيَّةِ فِي كُلِّ مَجَالٍ:

أولاً: يُمكنُ أَنْ يَنْشُرَ الْعِلْمَ عَنْ طَرِيقِ الْحَدِيثِ فِي الْمَجَالِسِ الْعَادِيَّةِ؛ جَلَسَ مَجْلِسًا فِي وَالِيمَةٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ، يُمكنُ أَنْ يَنْشُرَ عِلْمَهُ، وَذَلِكَ بِالطَّرِيقَةِ اللَّبِيقَةِ الْمُحِبَّةِ لِلنُّفُوسِ، وَالتِّي لَا تُوجِبُ الْمَلَلَ وَالِاسْتِثْقَالَ، يُمكنُ أَنْ يُورِدَ مَسْأَلَةً مِنَ الْمَسْأَلِ فِي هَذَا الْجَمْعِ الَّذِي عِنْدَهُ يُورِدُ مَسْأَلَةً يَقُولُ: مَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، أَوْ قَالَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ يَأْتِي بِمَسْأَلَةِ الْغَازِ حَتَّى يَفْتَحَ الْأَذْهَانَ، وَحَيْثُ يَدْخُلُ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ.

لَسْتُ أَقُولُ: افْرِضْ نَفْسَكَ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ؛ لِأَنَّ هَذَا صَعْبٌ عَلَى النَّفُوسِ، لَكِنْ اجْلِبْهُمْ إِلَى الْعِلْمِ بِالطَّرِيقِ الْمُحِبَّةِ الْمُنَاسِبَةِ، حَتَّى يَشْتَغَلَ الْمَجْلِسُ بِالْعِلْمِ مُنَاقَشَةً، أَوْ إِقَاءً، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ثانيًا: كَذَلِكَ أَيْضًا يَنْشُرُ عِلْمَهُ عَنْ طَرِيقِ الْأَشْرِطَةِ، وَالْأَشْرِطَةُ - وَاللَّهُ الْحَمْدُ - نَفَعَ اللَّهُ بِهَا نَفْعًا كَثِيرًا، خُصُوصًا وَأَنَّ النَّاسَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ - وَخَاصَّةً مِنَ الشَّبَابِ - يَتَلَقَّوْنَ هَذِهِ الْأَشْرِطَةَ بِشَعْفٍ وَلَهْفٍ، لَا تَكَادُ تَخْرُجُ إِلَّا وَالنَّاسُ يَتَلَقَّوْنَهَا وَيَتَنَفَّعُونَ بِهَا، فَهَذِهِ الْأَشْرِطَةُ - وَاللَّهُ الْحَمْدُ - فِيهَا مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ وَنَشْرٌ لِلْعِلْمِ، وَلَيْسَ فِي مَكَانِكَ أَوْ بَلَدِكَ، أَوْ مَنْطِقَتِكَ، بَلْ إِنَّهُ يَتَعَدَّى إِلَى خَارِجِ بِلَادِكَ، كَمَا سَمِعْنَا أَنَّ أَشْرِطَةَ الدُّعَاةِ وَالْعُلَمَاءِ تَذْهَبُ إِلَى أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ. هَذِهِ مِنْ وَسَائِلِ نَشْرِ الْعِلْمِ.

ثالثًا: يُمكنُ أَنْ تَنْشُرَ الْعِلْمَ عَنْ طَرِيقِ الْكِتَابَةِ، كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ، تَأْلِيفَ كُتُبٍ، نَشْرَةَ وَرَقِيَّةٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بِقَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ؛ حَتَّى تَنْشُرَ عِلْمَكَ، وَتَنْفَعُ وَتَنْتَفِعَ.

وهناك نَشْرُ لِلْعِلْمِ بِطَرِيقِ خَفِيٍّ، يَخْفَى عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ، أَوْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، أَلَا وَهُوَ نَشْرُ الْعِلْمِ عَنْ طَرِيقِ الْعَمَلِ بِهِ، كَثِيرًا مَا يَرْقُبُ النَّاسُ هَذَا الْعَالِمَ، وَيَرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ، فَيَقْتَدُونَ بِهِ، قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي. فَقَالَ بَعْضُ الَّذِينَ شَاهَدُوهُ: إِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا فِي صَلَاتِكَ. فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ النَّاسُ يُرَاقِبُونَ أَعْمَالَ طَالِبِ الْعِلْمِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْتَدُوا بِهِ، وَهَذَا مِنْ طَرِيقِ نَشْرِ الْعِلْمِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَتَأَثَّرُ بِهَا النَّاسُ؛ لِأَنَّ تَأَثَّرَ النَّاسِ بِالْفِعْلِ قَدْ يَكُونُ أَشَدَّ وَأَقْوَى مِنْ تَأَثَّرِهِمْ بِالْقَوْلِ؛ وَهَذَا نُكْرَرُ مَا أَسْلَفْنَا مِنْ أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ فَقِيهًا إِلَّا إِذَا عَمِلَ بِعِلْمِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ قَارِئٌ وَلَيْسَ بِفَقِيهٍ.

وبهذه المناسبة أودُّ أَنْ أُحَثِّكُمْ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، مِنْ: السَّمَّاحَةِ، وَبَذْلِ السَّلَامِ، وَبَذْلِ الْمَعْرُوفِ، وَالتَّسَامُحِ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَمُلاَقَاةِ النَّاسِ بِالْبِشْرِ، وَطَلَاةِ الْوَجْهِ، فَقَدْ كَانَ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ دَائِمَ الْبِشْرِ كَثِيرَ التَّبَسُّمِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ دَائِمَ الْبِشْرِ لَا تَجِدُهُ مُنْغَلِقًا وَلَا مُكْفَهَرًا، كَثِيرَ التَّبَسُّمِ فِي مَحَلِّهِ، فَلَنَا فِيهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَسْوَدَ حَسَنَةً؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وَمَا يَنْبَغِي لَطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَحْفَظَ وَقْتَهُ عَنِ الضِّيَاعِ، وَضِّيَاعِ الْوَقْتِ يَكُونُ بِأَسْبَابٍ، أَوْ يَكُونُ لَهُ وَجُوهٌ:

الوجهُ الأوَّلُ: أَنْ يَدَعَ الْمَذَاكِرَةَ وَمُرَاجَعَةَ مَا قَرَأَ.

الوجهُ الثَّانِي: أَنْ يَجْلِسَ إِلَى أَصْدِقَائِهِ، وَأَجْبَائِهِ، وَيَتَحَدَّثَ مَعَهُمْ بِحَدِيثِ لَعْوٍ، لَيْسَ فِيهِ فَايِدَةٌ.

الوجهُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَضْرُّهَا عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ، أَلَّا يَكُونُ لَهُ هَمٌّ إِلَّا تَتَّبَعَ أَقْوَالَ

الناس، وما قيل وما يُقال، وما حصل وما يحصل في أمر ليس معنيًا به، وهذا لا شك أنه من ضعف الإسلام؛ لأن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال: «مَنْ حُسِنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»<sup>(١)</sup>.

والاشتغال بهذا القيل والقال وكثرة السؤال مضيعة للوقت، وهو في الحقيقة مرض إذا دب في الإنسان - نسأل الله العافية - صار أكبر همّه، ورُبّما يُعادي مَنْ لا يستحقُّ العدا، أو يوالي مَنْ لا يستحقُّ الولاء، من أجل تشاغله في هذه الأمور، التي تشغله عن طلب العلم، بحجة أنه يقول له فكرة. هذا من باب الانتصار لصاحب الحق، وليس كذلك، بل هذا من إشغال النفس بما لا يعني الإنسان.

أما إذا جاءك الخبر بدون أن تتلقفه، وبدون أن تطلبه، فكل إنسان يتلقى الأخبار، لكن لا ينشغل بها، لا تكون أكبر همّه؛ لأن هذا يشغل طالب العلم، ويفسد عليه أمره، ويفتح في الأمة باب الحزبية والولاء والبراء، فتتفرق الأمة فنسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم لما فيه الخير والصلاح، وأن يجمع القلوب على طاعته، ويرزقنا علمًا نافعًا، وعملاً صالحًا، ورزقًا طيبًا، واسعا يغنينا به عن خلقه.

فإن قال قائل: كثير من المشايخ يهتمون بالعلم ويهملون فقه الواقع، وكثير من الطلاب ينكرون إنكارًا شديدًا على مَنْ اهتم بالواقع ويقولون: العلم قال الله قال الرسول.

فالجواب: النَّاسُ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: طَرَفَانِ وَوَسْطٍ، طَرَفٌ مُفْرَطٌ، وَطَرَفٌ مُفْرَطٌ، وَوَسْطٌ. مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَغِلُ بِمَا يُسْمُونَهُ فِقْهَ الْوَاقِعِ،

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣١٧)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يكون له همٌّ إلا تتبّع الناس، وقيل وقال وكثرة السؤال، وهذا لا شك أنه مضيعة وتشاغل بالمهمّ إن كان مهمّما عن الأهمّ، وهذا غلط.

ومن الناس من يتشاغل بالفقه الشرعيّ ويحرص عليه، لكنه لا يلتفت إلى أحوال الناس إطلاقاً، بل ربّما ينكر من الفقه الشرعيّ ما يظنُّ أنّ الدليل لا يدلُّ عليه، وهذا أيضاً طرف خطأ.

ومن الناس من يُحاول الجمع بين هذا وهذا، ونحن إذا سبّرنا سيرة النبيّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وجدنا أنه عليه الصلاة والسلام يفهم الواقع، ويفهم الناس، ويفهم الخير من الشرير، لكنه ﷺ يهتم بالأمر الثاني، الذي هو الفقه في الدين، ولهذا قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»<sup>(١)</sup> لم يقل: يفقهه في الواقع، فقه الواقع وسيلة للتطبيق فقط، فلا بُدّ لطالب العلم من هذا ومن هذا، لا تجنح إلى طرف الفقه في الواقع، ولا تغلّ في الفقه في الدين، فتعرض عن كل شيء، فالإنسان يجب أن يكون وسطاً.

فإن قال قائل: لكن لو نظرنا إلى واقعنا المعاصر الآن بعض وسائل الإعلام تدعو إلى الكفر والإلحاد والشرك، وما أشبه ذلك، الواقع الحقّ يمنع من ذلك، فكيف تكون حماية الشريعة؟

فالجواب: أنت انو بذلك حماية الشريعة، أمّا كونك تطبّق ذلك في المجتمع، هذا ليس إليك، هذا إلى الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ومعلوم ما جرى للإمام أحمد وغيره من الأئمة من المحن، في

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.



مُحاوَلَة تَطْبِيق الشَّرِيعَة فِي النّاسِ، وَمَعَ ذَلِكَ هُم صَبَرُوا وَاحْتَسَبُوا حَتَّى ظَهَرَ الْحَقُّ،  
وَاللّٰهُ الْحَمْدُ.

فَتَطْبِيق الشَّرِيعَة لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ طَالِبِ الْعِلْمِ إِذَا نَوَى تَطْبِيقَ الشَّرِيعَة وَحِمَايَتِهَا،  
أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، قَدْ لَا يَسْتَطِيعُ، لَكِنْ هُوَ يَنْوِي هَذَا، وَيَجْعَلُ طَلَبَهُ لِلْعِلْمِ مُرْكَزًا عَلَى  
هَذِهِ النِّيَّةِ، وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُبَسِّرُ لَهُ الْأَمْرَ، ثُمَّ إِذَا أُؤْذِيَ فِي اللَّهِ، فَهُوَ رِفْعَةٌ لِدَرَجَاتِهِ،  
وَرِفْعَةٌ لِذِكْرِهِ، لَوْ تَأَمَّلْتَ مَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ إِيْذَاءً مِنَ الْعُلَمَاءِ لَوَجَدْتَ أَنَّهُمْ الْعُلَمَاءُ  
الْكِبَارُ هُم الَّذِينَ يَلْحَقُهُمُ الْأُذَى مِنْ حَبْسٍ وَضَرْبٍ وَإِهَانَةٍ، وَرَبًّا قَتْلًا، فَيَكُونُ هَذَا  
مِنْ رِفْعَةِ اللَّهِ لَهُمْ.

مسألة: ما هي العلوم التي يحسن لطالب العلم البدء بها؟

الجواب: نرى أن أهمّ المهمّات هو العلم بهذا الكتاب العزيز، كتاب الله قبل كل  
شيء؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من  
العلم والعمل، ثم العناية بما صحّ من السنّة، ثم العناية بما كتبه أهل العلم وأخذوه  
من هذين المصدرين الأساسيين؛ الكتاب والسنّة، ولا يعني إذا قلنا: إنك تحرص على  
معرفة كلام الله، وكلام رسوله، أن تُعرض عن كل شيء، لا بدّ أن تنتفع بأفكار  
العلماء الذين كرسوا جهودهم لخدمة العلم، وإلا لضعنا؛ ولهذا كتب العلماء رحمهم الله  
في أصول الفقه، وفي أصول الحديث، وفي قواعد الفقه، وفي قواعد التحديث، وغير  
ذلك من أجل الضبط؛ حتى ينضبط الناس ويكونوا ماشين على قواعد معلومة.

فإن قال قائل: حفظ المتون فيه صعوبة، بعض الناس يقول: أنا أكرّر مسائل  
مرّات، وأفهمها وأكتفي بذلك عن حفظ المتون، حفظ المتون مثل الفقه مثلاً يقول:  
هذه إنما كلام أناس نحن نأتي بمثله، فما رأيك؟

فالجواب: أنا رأيي أن حفظ المتون هو الأساس، وما انتفعت بشيء من انتفاعي بها حفظت من الكتب؛ لأن حفظ المسائل يطيل إلا مسائل تتكرر على الإنسان يومياً فهو لا ينساها من قبل العمل، فحفظ المتون هو العلم في الواقع، وكونه صعباً على بعض الناس هذا صحيح، فبعض الناس يصعب عليه جداً أن يحفظ، تجده يكرر المتن تكراراً كثيراً، ولكن لا يحفظه، لكن احرض على هذا، وكلما تقدمت السن بالإنسان قوي فهمه وضعف حفظه، يعني: فهمه يقوى ويتفتح عليه من الفهوم ما لم يكن يعرفه من قبل، لكن يقل حفظه؛ ولهذا ننصح الشاب إلى الحفظ، وأول ما يجب أن يحفظ هو كتاب الله، الذي هو أساس كل شيء.

فإن قال قائل: هل ينصح طالب العلم أن يسير في فن من الفنون مثل فن الفقه، أو أنه يتنقل في الفنون من فن العقيدة إلى فن الفقه؟

فالجواب: العلوم ليست سواء، بعضها أهم من بعض؛ فأنت كرس جهودك على الأهم، ولا تحل نفسك من العلوم الأخرى المساندة للأهم، يعني مثلاً: رجل قال: أنا أهوى النحو، أكرس جهودي على النحو ولا أتعرض لغير هذا. نقول: غلط، كرس جهودك على ما تهواه نفسك؛ لئلا يضيع عليك الوقت؛ لأن الإنسان إذا حاول أن يرغم نفسه في دراسة شيء لا يختاره سيضيع عليه الوقت، لكن لا تنس العلوم الأخرى.

وكذلك أيضاً لا تكثر على نفسك من العلوم؛ لأن كثرة العلوم تضعف الإنسان في همته، وفي فهمه والذين درسوا في المدارس النظامية يعرفون هذا، نجد مثلاً في المعاهد أو المدارس الثانوية نجد فيها مثلاً خمس عشرة مادة تضيع على الإنسان، لو أردت أن تبحث معه في شيء عميق من المواد التي درسها ما وجدت

عنده شيئاً، فإذا ركّز الإنسان على العلوم واختصرها بقدر ما يستطيع، صار هذا أجودَ له، وأكثر استفادةً.

ويذكر أن بعض الناس يقول: إن من أتقن علماً من العلوم إتقاناً جيداً استغنى به عن سائر العلوم، وهذا لا شك أنه غلط، لو أنك أدركت النحو جيداً، لا يُغنيك عن معرفة الفقه. وما يُذكر عن أبي يوسف والكسائي أنّهما تناظرا في حاضرة الرشيد، وقال الكسائي: إن الإنسان إذا أتقن العلم -أي علم أتقنه- يستغني به عن غيره، وأنّ أبا يوسف أوردَ عليه الرجل يسهو في سُجود السهو، فقال الكسائي: ليس عليه سُجود. قال: ومن أين يُوجد هذا في علمك. لأنّ الكسائي إمام في النحو، قال: من قواعد علمي أن المصغّر لا يُصغّر<sup>(١)</sup>. هذا لا يصحُّ دليلاً في حكم شرعيّ أبداً. وأنا أظنُّ أنّ هذه القصة مصنوعة، ليست صحيحة.

لكن الإنسان ينبغي له أن يُركّز، وأنا في نظري أن أهمّ ما أركّز عليه هو القرآن الكريم، القرآن كنوز عظيمة، كلّها أخذت آية وصرّت تتأمّلها انفتح لك من العلوم فيها ما لا يعلمه إلا الله، ثم القرآن سند يعيني: ليس القرآن كتاب أيّ عالم من العلماء، هو سند يحتاج به الإنسان أمام الله عزّ وجلّ؛ لأنه كلام الله سبحانه وتعالى؛ فلهذا أنا أرى أن تُركّز على علم التفسير، ثم على معرفة ما صحّ عن النبي ﷺ، وأنتم تعرفون أنّ ما نُسب للرسول ﷺ يحتاج إلى جهد قبل أن يكون دليلاً، الجهد هو أن نعرف صحّته إلى الرسول؛ لأنه ما أكثر الأحاديث التي رواها ضعاف الناس روايةً! إمّا لقلّة أمانتهم، أو لسوء حفظهم، أو ما أشبه ذلك.

(١) ذكرها الجويني في نهاية المطلب (٢/ ٢٧٥)، وابن مفلح في النكت على المحرر (١/ ٨٢)، وانظر: الموافقات للشاطبي (١/ ١١٨).

بل ما أكثر الأحاديث الموضوعة المكذوبة على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! لأنَّ الأهواء كثرت، فصار مَنْ لا يحاف الله يَضَع ما شاء من الأحاديث، وينسبها للرسول ﷺ، تحتاج السنَّة إلى عناية كبيرة في ثبوت صِحَّتِها عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أمَّا القرآن فلا يحتاج إلى هذا؛ لأنه ثابت بالنقل المتواتر الذي ينقله الأصاغر عن الأكابر؛ فالعناية بالكتاب والسنَّة هو أهمُّ شيء، لكن لا يعني ذلك الإعراض عمَّا كتبه العلماء، لا بدُّ من الاستعانة بأراء العلماء، وكيفية استنباطهم للأحكام من القرآن والسنَّة.

وَيَبْغِي أَنْ نُلِمَّ بِنَيْءٍ مِنْ قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ، فَنَقُولُ:

أولاً: التفسير مأخوذ من الفسر، فسرت الثمرة عن قشرها؛ أي: اتضحت وبانت، وهو عبارة عن توضيح كلام الله عزَّ وجلَّ، والتفسير يُراد به التفسير اللفظي، يعني: أن تُفسر اللفظة بقطع النظر عن سياقها، ويُراد به التفسير المعنوي، بأن تُفسر اللفظة بحسب سياقها، فمثلاً قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، إذا فسرنا القوة التفسير اللفظي، صار معناها ضدَّ الضعف، لكن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّةُ»<sup>(١)</sup>، وعلى هذا فنقول: معنى القوة ضدَّ الضعف، هذا باعتبار اللفظ، والمراد بها الرمي، هذا باعتبار المعنى المراد.

ومثله أيضاً: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، الزيادة معناها: الفضل، زيادة الشيء على الشيء، هذا من حيث اللفظ؛ لكن المراد النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ كما فسره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إِذِنَ: التَّفْسِيرُ اللَّفْظِيُّ غَيْرُ الْمُرَادِ، الْمُرَادُ يُعَيِّنُ السِّيَاقَ، أَوْ يُبَيِّنُ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ ذَلِكَ، وَأَمَّا اللَّفْظُ فَأَنْ تُفَسَّرَ الْكَلِمَةُ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا، مُنْفَرِدَةً دُونَ النَّظَرِ إِلَى سِيَاقِهَا، وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُفَسَّرُ بِالْمَعْنَى الثَّانِي، أَي: بِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ.

ثَانِيًا: هَلِ الْمُرَادُ يُجَالِفُ الظَّاهِرَ أَوْ هُوَ الظَّاهِرُ إِلَّا بِدَلِيلٍ؟ الْمُرَادُ هُوَ الظَّاهِرُ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ بِكَلَامِهِ ظَاهِرَهُ، وَلَا بُدَّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَعْدِلَ عَنِ الظَّاهِرِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، فَمَنْ عَدَلَ عَنِ الظَّاهِرِ إِلَى غَيْرِهِ بِدُونَ دَلِيلٍ، كَانَ مِمَّنْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنِ مَوَاضِعِهِ.

مثال هذه القاعدة: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِن رَّبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فظاهر قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ أي: علا عليه، علوًّا يليقُ بجلاله وعظمته، وهو علوٌّ خاصٌّ بالعرش، وليس هو العلوُّ العامُّ على جميع المخلوقات، فإذا جاء الإنسان، وقال: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني: استولى عليه، فإننا لا نقبل منه؛ لأنَّ هذا خلاف الظَّاهر بلا دليل، فإذا كان خلاف الظَّاهر بلا دليل؛ فإنه من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وإن تسمَّى أهله بأنهم مؤوِّلة، فإنَّما يُسمَّون أنفسهم بذلك من أجل قبول قولهم، وتسهيل خطئهم على الناس؛ لأنه فرق بين أن تقول: هذا مؤوِّل، أو هذا مُحَرِّف. وإلَّا فالحقيقة أنهم مُحَرِّفون.

ولهذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عِبْرًا بِالْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ بقوله: من غير تحريف<sup>(١)</sup>. ولم يقل: من غير تأويل؛ لأنَّ التَّحْرِيفَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ حَالٍ، وَالتَّأْوِيلُ مِنْهُ صَاحِحٌ وَمِنْهُ فَاسِدٌ.

(١) العقيدة الواسطية (ص: ٥٧).

فإن دَلَّ دليل على أن المراد خلاف الظاهر، فَسَّرناه بالمراد، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، معنى قرأت، يعني: أَرَدْتُ أن تَقْرَأَ، وليس المعنى: إذا فرغت، لو أننا فَسَّرنا اللَّفْظَ بظَاهِرِهِ، لقلنا: إذا قرأت. يعني إذا انتهيت من القراءة فاستعذ بالله، ولكن هذا غير مراد، والذي يُبَيِّن أن هذا غير مراد فِعْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه كان يستعذ قبل أن يبدأ القراءة. هاتان قاعدتان.

القاعدة الثالثة: إلى من يرجع في تفسير القرآن؟ هل يرجع إلى اللغة والحقيقة اللغوية، أو يرجع إلى الحقيقة الشرعية، أو ماذا؟ نقول: أولاً يرجع في التفسير إلى تفسير من تكلم به، وهو الله عزَّجَلَّ فيرجع في التفسير:

أولاً: إلى كلام الله، فإذا كانت الكلمة مجملة في موضع من القرآن ومفصلة في موضع؛ فإنه يرجع إلى ما فصل بالقرآن نفسه، إذا كانت مبهمه في موضع لكنها مبيَّنة في موضع آخر نرجع إلى الموضع الآخر.

يفسِّر القرآن أولاً بالقرآن؛ لأن المتكلم به أعلم به من غيره، ففي قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدرِيكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣]، ما هي القارعة؟

نقول: بيَّنها الله بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَدرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨] فسرها بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَسَنَفَعُكَ بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، أي ناصية هي؟ كل ناصية يسفَع الله بها؟ لا ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]، وعلى هذا فقس.

فَنَرَجِعْ أَوْلاً إِلَى تَفْسِيرِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَهُوَ اللَّهُ؛ أَي: إِلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ؛  
ثُمَّ بَعْدَ هَذَا نَرَجِعْ إِلَى:

ثَانِيًا: تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِكَلَامِ اللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
فَنَرَجِعُ إِلَى تَفْسِيرِهِ، وَلَا نَقْبَلُ تَفْسِيرَ غَيْرِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فَقَدْ فَسَّرَهَا  
رَبُّنَا ﷺ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ؛ فَلَوْ جَاءَنَا جَاءٍ وَقَالَ: وَزِيَادَةٌ؛ أَي: زِيَادَةٌ فِي الْحُسْنِ،  
قُلْنَا لَهُ: لَا نَقْبَلُ قَوْلَكَ. وَإِنْ كَانَتِ الْكَلِمَةُ مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهَا اللَّفْظِيُّ تَحْتَمِلُ مَا قُلْتَ  
لَكِنَّا لَا نَقْبَلُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَسَّرَهَا بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ  
بِمُرَادِ رَبِّهِ، فَلَا نَقْبَلُ قَوْلَهُ.

ثَالِثًا: نَرَجِعُ إِلَى تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ، يَعْنِي: إِذَا لَمْ نَجِدْ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ،  
رَجَعْنَا إِلَى تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ حَيْثُ  
إِنَّهُمْ فِي عَضْرِ التَّنْزِيلِ، وَشَاهَدُوا الْأَحْوَالَ وَالْقَرَائِنَ الدَّالَّةَ عَلَى الْمُرَادِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ  
الْمُشَاهِدَ لِلشَّيْءِ لَيْسَ كَالْغَائِبِ عَنْهُ؛ فَالآنَ رَبِّمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِكَلَامِ، مُنْفَعِلٌ فِيهِ، وَأَقُولُ:  
أَتَفْعَلُونَ كَذَا؟ وَلَمْ كَذَا؟ وَتَجِدُونَنِي مُنْفَعِلًا وَالَّذِي يَسْمَعُ كَلَامِي وَلَمْ يُشَاهِدْنِي يَظُنُّهُ  
كَلَامًا عَادِيًّا، وَلَا يَعْرِفُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ قَرِينَةٌ.

وَلِهَذَا نَقُولُ: الصَّحَابَةُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِتَفْسِيرِ كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ  
شَاهَدُوا الْأَحْوَالَ، وَعَرَفُوا الْقَرَائِنَ؛ فَيُرْجَعُ إِلَى تَفْسِيرِهِمْ.

مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ  
أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢]، فَهَذَا فَسَّرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْكَلَالََةَ

بأنه من ليس له ولد ولا والد<sup>(١)</sup>، بأنه الميت يموت ليس له ولد ولا والد، يعني: لا أصول ولا فروع. هنا نأخذ بتفسير أبي بكر؛ لأنه من الصحابة، والصحابة أعلم الناس بتفسير كلام الله عز وجل.

ومعنى قولنا هذا: أنه لو جاء أحد من المتأخرين، وفسر القرآن بخلاف ما فسرت به الصحابة، فإننا لا نرجع إلى قوله أبداً.

رابعاً: إذا لم نجد في القرآن ولا في السنة، ولا في كلام الصحابة، نرجع إلى أقوال التابعين، ولا سيما من عرف منهم بالتلقي عن الصحابة، مثل مجاهد بن جبر رحمه الله؛ فإنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس مرتين أو أكثر أقف عند كل آية وأسأله عن معناها<sup>(٢)</sup>. فمثل هذا يؤخذ بقوله؛ لأنه أخذ عن الصحابة، وإن كان بعض التابعين قد لا يتال هذه المرتبة؛ لعدم أخذه عن الصحابة، لكن التابعون أقرب إلى المعنى الصحيح ممن بعدهم إلا أنهم - كما عرفتم - يقلون مرتبة عن الصحابة.

خامساً: نرجع إلى المعنى الحقيقي للكلمة، وهو المعنى اللغوي، يعني: نرجع إلى معنى الكلمة في اللغة العربية، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]؛ يعني: تفهمون المعنى، وهذا إحالة من الله عز وجل إلى اللغة العربية، وأن عقل القرآن يكون بمقتضى اللغة العربية، ولنا حجة.

فإذا قال قائل: ما دليلك على أن معنى هذه الكلمة هو كذا؟

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/٣٠٤)، وسعيد بن منصور في التفسير من السنن رقم (٥٩١)، وابن أبي شيبة (١٦/٣٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/٧٧، رقم ١١٠٩٧).



قلنا: هذا معناها في اللغة، والقرآن نزل باللغة العربية، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الواضحة.

فإن اختلفت الحقيقة اللغوية والحقيقة الشرعية، رجعنا إلى الحقيقة الشرعية، يعني: الحقيقة الشرعية واللغوية لا شك أنها تتفق في أشياء كثيرة؛ فالسما سماء لغة وشرعاً، والأرض أرض لغة وشرعاً، والإبل إبل لغة وشرعاً، وما أشبه ذلك، فإن تعارضت الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية فنقدم الحقيقة الشرعية؛ لأن هناك كلمات نقلها الشرع من المعنى الأصلي اللغوي إلى المعنى الشرعي.

مثال ذلك: «الإيمان» الإيمان في اللغة هو: الإقرار والاعتراف، أو التصديق، على خلاف بين العلماء في التفسير. لكنه في الشرع غير ذلك، الإيمان في الشرع أوسع من هذا؛ يشمل المعنى اللغوي، ويشمل ما سواه، مثل: الأعمال، الأقوال، الأفعال، التروك. كل هذه من الإيمان شرعاً، ومثل: الصلاة، وجدنا في القرآن: ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ على أي شيء نحمل الصلاة، على المعنى اللغوي الذي هو الدعاء أو على المعنى الشرعي؟ على المعنى الشرعي؛ لأن الشرع نقل بعض الألفاظ العربية إلى معنى جديد، ليس مستعملاً في اللغة العربية فتأخذ بها أقره الشرع.

إذن: نرجع في التفسير إلى القرآن، السنة، الصحابة، التابعين، معنى الكلمة، وإذا تعارضت اللغة والشرع، قدمنا المعنى الشرعي، وهذا هو المبحث الثالث.

المبحث الرابع: هل يجوز لنا أن نفسر القرآن دون الرجوع إلى كلام العلماء المكتوب أو المسموع؟ هذا يُنظر إذا كانت الكلمة لها معنى لغوي، ولم نعلم أن

لها معنى شرعياً يُعارضه؛ فلنا أن نُفسر القرآن بمقتضى اللغة، إذا لم نعلم أن لها معنى شرعياً نُقلت إليه؛ لأن القرآن - كما قلنا واستدللنا - نزل باللغة العربية، فإذا فسّره بمقتضى اللغة العربية فلا بأس، لكن بشرط أن يكون لي علمٌ باللغة العربية، ليس أيّ عامّي يجيء يُفسر القرآن.

أمّا إذا فسّرت القرآن بما يُوافق رأيي مع مخالفته للقواعد السابقة، فهذا جاءت الأحاديث بالوعيد فيه، وأن «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(١)</sup> ولهذا أمثلة كثيرة عقدية وفقهية.

كثير من العلماء فسّروا القرآن بأرائهم؛ أي: بما يُناسب مذاهبيهم، وهذا في العقائد مشهور معروف، مثل يُفسر قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]؛ أي: جاء أمر ربك، يُفسر قوله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ بأنه الكلام المخلوق، يُفسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني: استولى عليه، يُفسر قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقَتْ بِيَدَيَّ﴾؛ أي: بقدرتي، وما أشبه ذلك، هذا قارئٌ في القرآن برأيه لا شك؛ لأنه لا فسره بمقتضى اللغة، ولا بمقتضى الشرع، وإنما بمقتضى رأيه، الذي يطابق ما هو عليه من المذهب أو من الطريقة.

فالتفسير بالرأي إذن مُحَرَّم ومن كبائر الذنوب، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]؛ لأن هذا المفسر يقول: إن الله أراد بهذا هذا. فيكون كاذباً؛ فيكون ممن افترى على الله كذباً حيث قال: إن الله أراد كذا.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٣/١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم (٢٩٥١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم هو بمن اعتدى في حق الله؛ حيث قال: لم يُرد كذا. انظر الخطر، إذا قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قال: أراد الله: وجاء أمر ربك، فيكون كذب على الله. قال: ولم يُرد أنه جاء بنفسه، يكون اعتدى على كلام الله، وتجاوز حدّه، من قال لك: إن الله لم يُرد هذا، وهذا ظاهر كلامه؛ فيكون هذا مُعتدياً محرّفاً، والعياذ بالله.

وكذلك أيضاً في المسائل الفقهية، مثلاً: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، قال الرافضة: يعني أن الله أمرنا أن نمسح الأرجل بدل الغسل؛ فيقال: هؤلاء قالوا برأبيهم؛ لأنهم أهملوا قراءة النصب ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ ولم يعملوا بها، ثم خالفوا المراد بقراءة الجز، وهي أنها تمسح الرجل على الوجه الذي بيته السنة، والذي بيته السنة أن الرجل تمسح إذا كان عليها خفان، أو جوربان، أو ما أشبه ذلك؛ فتبين الآن أن التفسير بالرأي من كباير الذنوب؛ لأنه يتضمّن مفسدتين عظيمتين: إحداهما: تحريف الكلم عن مواضعه، والثاني: الكذب على الله، والتعدي في حقه؛ حيث قالوا: إنه لم يُرد كذا، وأراد كذا.

المبحث الخامس: أهميّة التفسير: التفسير من أجل العلوم وأعلها قدرًا؛ لأن الإنسان يُحاول أن يفهم به معنى كلام الله عزّ وجلّ والعلوم تُشرف بحسب موضوعها، ولا أشرف من موضوع تفسير كلام الله عزّ وجلّ، فيكون التفسير من أجل العلوم إن لم نقل: هو أجل العلوم وأعظمها قدرًا؛ لأنه عناية بكلام الله عزّ وجلّ؛ ولأنه أتباع لطريق السلف الذين لا يتجاوزن عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، ولأن الإنسان إذا فهم كلام الله ذاق له طعمًا، وصار يقرؤه وهو يجد حلاوة معناه، والأنس به، أكثر من إنسان أمي لا يعلم الكتاب إلا أمانيًا.

ففي علم التفسير يطمئن القلب، وفي علم التفسير يعرف الإنسان قدر هذا القرآن العظيم، الذي وصفه الله بعدة أوصاف عظيمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وأكثرنا - عفا الله عنا - لا يعنني بالتفسير، ولا يهتم به، ربما يستشرق كتاب عالم من العلماء، يُخطئ ويصيب، ويتأمل هذا الكتاب منطوقًا ومفهومًا وإشارة وإيماءً، وغير ذلك من أنواع الدلالة، لكن كلام الله لا يعنني به، ولولا أنه يتبرك به في أجره لما عرج عليه أصلاً إلا أن يشاء الله. وهذا غلط، حتى في طلبه العلم الآن من لا يهتم بالتفسير، مجده يهتم بكتب الفقه، يهتم في كتب الحديث، يهتم في كتب الرجال؛ ويُعرض عن هذا الذي هو أصل الأصول، الذي يجب علينا أن نعرفه، والذي سنحاسب عليه. «القرآن حجة لك أو عليك».

استوقف شخصاً من أكبر طلبة العلم عند آية من القرآن؛ قل له: ما معناها؟ ماذا يقول؟ إما أن يكون جريئاً فيقول: أراد الله بهذا كذا وكذا. وهو لم يرد ذلك، أو أنه يكون ورعاً، ويقول: لا أدري.

لكن لو أن طلبة العلم أخذوا القرآن من أوله يقرؤونه ويتدبرونه ويتأملونه، لوجدوا خيراً كثيراً، وانفتح لهم من أبواب المعرفة ما لا يحظر على البال، والله عز وجل يقول في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، ليس هو صعباً، القرآن إذا أفبلت عليه حقيقة بقلب ونية جازمة؛ فهو سهل، أسهل من جميع الكتب؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

هذه بُدْ تكلّمْتُ بها - أسأل الله تعالى أن ينفع بها - في مُقدِّمة التفسير، ومثل هذه القواعد سوف تُفيد، إن شاء الله تعالى.

فإن قال قائلٌ: يقول بعضهم: إنه هناك شيئان ليس لهما سند: التفسير والتاريخ، فما صحّة هذا القول؟

فالجواب: نعم، هذا يُذكر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وقال فيه ثلاثة: المغازي، والسّير، والتفسير<sup>(١)</sup>. ومُرادُه بأنها ليس لها سند، أنَّ الناس يتناقلونها بدون إسناد، فمثلاً يقول: قال مجاهد كذا، قال ابن عباس كذا، بدون إسناد هذا المعنى.

كذلك التواريخ تُحدِّث مثلًا الناس يتكلمون بهذا في غزوة أحد، لكن لا تُحدِّث الرجل يقول؛ حدّثني فلان عن فلان حتّى يصل إلى الغزوة، وكذلك يُقال في السّير، هذا مُراد الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، فصدّه بذلك أنك إذا سمعت مثل هذا الذي اشتُهر ونُقِل أن تتأكّد منه.

فإن قال قائلٌ: لو أن شيخاً أو مُدرّساً عرّض على طلابه تفسير آية، وقال: ما تقولون في هذه الآية؟ وهو عالم بها فجلس التلاميذ يقولون، هذا بقوله، وهذا بقوله، هل يدخلون في ضمن من يُفسّر القرآن برأيه؟

فالجواب: لا، هذا لا يدخل في ضمنه؛ لأن هذا الذي قال: معنى الآية كذا. لا يُريد أن هذا المعنى مُستقرٌّ، لكن يعرضه على شيخ أعلم منه، فكأنه حينما يقول: أراد الله كذا. كأنه يقول بلسان الحال: هل أراد الله بهذا كذا؟ فهذا لا يُعتبر تفسيراً للقرآن بالرأي ولا محرّماً.

فإن قال قائلٌ: بعض الناس يتركون التفسير ويتبعون الشنّة وآثار الرجال، وما أشبه ذلك، ويُعلّلون ويقولون: إن أهل البدع يستدلّون بالعمومات من القرآن،

(١) أخرجه عنه ابن عدي في الكامل (١/٢١٢)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٦٢/٢).

فَنَقْرَأُ السُّنَّةَ لِكَيْ نُبَيِّنَ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ مِنَ السُّنَّةِ، فَمَا رَأَيْكُمْ فِي هَذَا؟

فالجواب: رأينا: صحيح أننا لا نُزهدُ في السُّنَّةِ، ولا في مَعْرِفَةِ الرِّجَالِ، ولا في مَعْرِفَةِ الْمُصْطَلَحِ، لَكِنَّا نَرَى أَنَّ هُنَاكَ أَوْلِيَايَاتٍ، وَهُنَاكَ أَهْمِيَّاتٍ قَبْلَ الْمَهْمَاتِ. وَأَمَّا مَا ادَّعَاهُ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يُبَيِّنِ الرَّدَّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ، وَالسُّنَّةَ بَيَّنَّتْهُ، فَهَذَا غَيْرُ صَاحِحٍ، الْقُرْآنَ لَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ وَاحِدٌ لِأَيِّ بِدْعَةٍ مِنَ الْبِدْعِ أَبَدًا، بَلْ إِنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ فِي كِتَابِهِ دَرْءَ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ قَالَ: «أَيُّ دَلِيلٍ يَسْتَدِلُّ بِهِ شَخْصٌ عَلَى بِدْعَةٍ، فَأَنَا أَجْعَلُ هَذَا الدَّلِيلَ دَلِيلًا عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup>، وَصَدَقَ، أَضْرِبْ مِثْلًا لَكُمْ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ يَرَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَى، وَالْحَقِيقَةَ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَرَى، انظُرْ اسْتَدَلَّ بِهَا وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْأَخْصِ يَسْتَلْزِمُ وَجُودَ الْأَعْمِ، ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ إِذْنًا تَرَاهُ، وَلَوْ كَانَتْ لَا تَرَاهُ لَقَالَ: لَا تَرَاهُ الْأَبْصَارُ، أَمَّا أَنْ يُعْبَرَبَ: لَا تُدْرِكُهُ. عَنْ: لَا تَرَاهُ، فَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ تَعْمِيَةٌ وَالْغَازِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي كَلَامِ اللَّهِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ مُوسَى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرَنِي ﴿[الأعراف: ١٤٣]﴾ قَالُوا: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَى، نَقُولُ: هَذَا دَلِيلٌ عَلَيْكُمْ. فَمُوسَى سَأَلَ الرُّؤْيَةَ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ تَنْقُلُونَهَا أَنْتُمْ إِلَى الْآخِرَةِ؟! وَهَذَا قَالَ اللَّهُ: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ يَعْنِي: الْآنَ لَيْسَ بِكَ قُدْرَةٌ عَلَى أَنْ تَتَحَمَّلَ رُؤْيَتِي، وَرُؤْيَةُ اللَّهِ مُسْتَحِيلَةٌ فِي الدُّنْيَا، لَا لِأَمْرِ يَتَعَلَّقُ بِالرُّؤْيَةِ، لَكِنْ لِأَمْرِ يَتَعَلَّقُ بِالرَّائِي، فَالرَّائِي لَا يَتَحَمَّلُ.

وَلِهَذَا ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا لِمُوسَى فَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ فَلَمَّا جَعَلَى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴿جَلَّ وَعَلَا، مَاذَا صَارَ؟﴾ جَعَلَهُ دَكًّا ﴿

(١) انظر: درء التعارض (١/ ٣٧٤)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٠٤-١٠٥).

[الأعراف: ١٤٣] هذا الجبل العظيم الذي لا تدُّكُّه القنابل صار دَكًّا بِمُجَرَّدِ أَنَّ اللَّهَ تَجَلَّى لَهُ، ولهذا خَرَّ موسى صَبِعًا، عَجَزَ أَنْ يَتَحَمَّلَ الْمَوْقِفَ فَضْلًا عَنْ رُؤْيَةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

فالمهمُّ: أَنَّ الْآيَةَ الْآنَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ مُوسَى إِنَّمَا سَأَلَ الرُّؤْيَةَ فِي الدُّنْيَا لَا فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ إِنَّ مُوسَى سَأَلَ الرُّؤْيَةَ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: رُؤْيَةَ اللَّهِ مُسْتَحِيلَةٌ، إِذَنْ أَنْتُمْ أَعْلَمْتُمْ بِاللَّهِ مِنْ مُوسَى، يَعْنِي: إِمَّا أَنْ تَكُونُوا أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ مُوسَى؛ لِأَنَّ مُوسَى سَأَلَ شَيْئًا مُسْتَحِيلًا، يَرَى أَنَّ اللَّهَ يُرَى، لَكِنَّ الْبَشَرَ لَا يَتَحَمَّلُونَ ذَلِكَ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِقَدْرِ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُعْتَدِيًا عَلَى اللَّهِ؛ حَيْثُ سَأَلَ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ سُؤَالُهُ.

فأقول لكم يا إخواني: مَنْ قَالَ: إِنْ الْبِدْعَ لَا تُدْفَعُ إِلَّا بِالسُّنَّةِ، أَوْ لَا يَتِمُّ دَفْعُهَا إِلَّا بِالسُّنَّةِ، فَقَدْ أَخْطَأَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ لِلْقُرْآنِ، أَوْ عَلَى تَقْصِيرِ فِي تَفْهَمِ الْقُرْآنِ، وَإِلَّا فَالْقُرْآنُ نَفْسُهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ بِدْعَةٌ إِلَّا رَدَّ عَلَيْهَا أَبَدًا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، هَذِهِ الْآيَةُ قَاضِيَةٌ عَلَى كُلِّ بِدْعَةٍ، فَكُلُّ بِدْعَةٍ تَبْطُلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، سِوَاءَ كَانَتْ عَقْدِيَّةً أَوْ قَوْلِيَّةً أَوْ فِعْلِيَّةً.

مسألة: التَّقْلِيدُ فِي التَّفْسِيرِ يَعْنِي: أَنْ يُمَسِكَ بِتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ، أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ، هَذَا تَقْلِيدٌ؛ لَكِنْ أَنَا أُرِيدُ التَّفْسِيرَ الْمُجْتَهِدَ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا مِئْتَةَ فَيَأْكُلُ مِئْتَةَ لِلضَّرُورَةِ؛ وَهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ التَّقْلِيدَ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ الْمِئْتَةِ إِنْ اضْطُرِرْتَ إِلَيْهَا فَقَلِّدْ»<sup>(١)</sup>. وَإِلَّا فَاجْتَهِدْ أَدِلَّ إِلَى الْبِئْرِ بِمِثْلِ مَا أَدْلَى بِهِ النَّاسُ، أَدْلَى بِدَلْوِكَ.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/٢٠٣-٢٠٤)، وإعلام الموقعين لابن القيم (٢/١٨٥).

والحقيقة أن التقليد لا يجوز إلا عند الضرورة وعند العجز، وإلا من أمكنه أن يأخذ الأحكام أو العقائد من كتاب الله وسنة رسوله فليفعل؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥] هذه تحتاج إلى جواب، ولولا قول الله تعالى: ﴿ فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، لقلنا: يجب على كل إنسان أن يجتهد، وأن يأخذ الحكم من القرآن والسنة، لكن الحمد لله وسع الله علينا، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿ فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وإلا لقلنا: كل واحد يجب أن يأخذ من الكتاب والسنة؛ لأننا سنسأل عن القرآن والسنة.

مسألة: ما هي أفضل كتب التفسير التي تمشي على القواعد التي ذكرت، حتى يتبين للطالب ويتمرن عليها؟

الجواب: أحسن شيء فيما أرى من التفاسير التي تعتنى بالآثر، تفسير ابن كثير، من أحسن ما يكون من الكتب التي تعتمد على التفسير بالآثر، لكن القرآن - سبحانه الله - واسع، لو اجتمع الناس كلهم على أن يدركوا معناه ما استطاعوا، نجد مثلا هذا يبحث في القرآن من الناحية اللغوية، وهذا من الناحية العقدية، وهذا من الناحية الفقهية، وهذا من ناحية البلاغة، فهناك علوم شتى كثيرة في القرآن الكريم، ابن كثير مثلا في الآثر لا شك أنه جيد، لكن في كثير من أمور اللغة يكون قاصرا، أيضا في استنباط الأحكام قليل جدا أن يتكلم في الأحكام، نجد مثلا القرطبي يعتنى بالأحكام، ويفرغ الآية وما أشبه ذلك.

المهم: كل عالم له منهج في تفسير كلام الله عز وجل.

فإن قال قائل: إذا كان القرآن الكريم تفسيره مبني على اللغة، هل نقول:



إن وجه تفسیر القرآن باللُّغة هو الوجهُ الصحيح؟

فالجواب: إذا وجدنا كلمة لم تُفسَّر بالقرآن ولا بالسُّنة، ولا بأقوال الصحابة،

فمرجع إلى اللغة؛ لأن القرآن - كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ [الزُّخْرُف: ٣] أي: صيَّرناه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: باللُّغة العربية ﴿لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ﴾ انظر الآيات الثانية ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾

[الشعراء: ١٩٨-١٩٩] أكمل ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّهم لا يفهمون معناه.

فإن قال قائل: قلتُ: إن من فسَّر القرآن برأيه، ولو كان من العلماء كيف

تجمَع بين هذا وحديث النَّبِيِّ ﷺ: «إذا اجتهد فأصاب...» إلخ<sup>(١)</sup>.

فالجواب: إذا اجتهد، والذي يُفسَّر القرآن برأيه لم يجتهد، وأنا ضربت لكم

عدَّة أمثلة من التفسير بالرأي، ليس معنى التفسير بالرأي أن تُفسَّر القرآن حسب

ما تقتضيه اللُّغة العربية، التفسير بالرأي أن تحمِل معنى القرآن على رأيك، وهذا

إنما يكون في المتعصِّبين لمذاهبهم، الذين يُحاولون أن يُلوا أعناق النُّصوص إلى ما

كانوا عليه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب

الحدود، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

سورة غافر

•••••

سورة غافر هي مَكِّيَّة، وكل السُّور المُبتدأة بحروف الهجاء مَكِّيَّة إلا البقرة وآل عمران.

والمَكِّي ما نزل قبل الهجرة، وما نزل بعدها فهو مدني، هذا هو أرجح الأقوال حتى وإن نزل بمكة.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ البسْملة: آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ مُستقلَّة، ليست من السُّورة التي قبلها، ولا من السورة التي بعدها، ولكن يُؤتى بها في ابتداء السور، إلا سورة واحدة وهي سورة براءة، فإنه لم يرد عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنه جعل فيها بسملة، ولهذا تركها الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بدون بسملة؛ لعدم ثبوت ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وأما ما قيل: إنها تُركت بلا بسملة؛ لأنها نزلت بالسيف؛ فإنه قول باطل، ليس هذا هو السبب، والسيف إذا كان رحمة فإنه غنيمة، ومعلوم أن السيف على الكفار رحمة، يُقصد به إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ البسملة جُملة ليس فيها فعل ولا اسم فاعل، لكنها جارٌّ ومجرور، ومُضاف، ومُضاف إليه، وصِفة وموصوف.

الجارُّ: هو الباء، والمجرور اسم، والمُضاف اسم، والمُضاف إليه لفظ الجلالة، وموصوف وهو الله، وصِفة وهو الرحمن الرحيم، فأين المتعلق؛ لأنه لا بُدَّ لكل جارٍّ

وَجَرُّرٍ، أَوْ ظَرْفٍ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُتَعَلِّقٍ، كَمَا قَالَ نَازِمٌ الْجَمَلُ (١):

لَا بُدَّ لِلْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ      بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي  
وَاسْتَشْنُ كُلِّ زَائِدٍ لَهُ عَمَلٌ      كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلْ

فَأَيْنَ مُتَعَلِّقُ الْبِسْمَلَةِ؟

أَحْسَنُ مَا يُقَالُ: إِنْ مُتَعَلِّقُهَا فِعْلٌ مُتَأَخِّرٌ مُنَاسِبٌ لِمَا ابْتَدَى بِالْبِسْمَلَةِ مِنْ أَجْلِهِ، فَنَحْنُ الْآنَ نُرِيدُ أَنْ نَقْرَأَ فَنَقُولُ: الْمُتَعَلِّقُ تَقْدِيرُهُ: بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ، نُرِيدُ أَنْ نَتَوَضَّأَ نَقُولُ: التَّقْدِيرُ، بِاسْمِ اللَّهِ أَتَوَضَّأُ، نُرِيدُ أَنْ نَذْبَحَ نَقُولُ: التَّقْدِيرُ، بِاسْمِ اللَّهِ أَذْبَحُ، وَإِنَّمَا قَدَّرْنَاهُ فِعْلًا لِأَنَّ اسْمَ فَاعِلٍ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعَمَلِ هُوَ الْفِعْلُ، وَإِنَّمَا قَدَّرْنَاهُ مُتَأَخِّرًا لَوْجِهَيْنِ:

الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: التَّيْمُنُ بِالْبَدَاءَةِ بِاسْمِ اللَّهِ.

وَالثَّانِي: إِفَادَةُ الْحَضَرِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَخَّرْتَ الْعَامِلَ وَقَدَّمْتَ الْمَعْمُولَ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْحَضَرِ، إِذْ إِنَّ الْقَاعِدَةَ الْمَعْرُوفَةَ فِي الْبَلَاغَةِ هِيَ أَنْ تَقْدِيمُ مَا حَقَّهُ التَّأخِيرُ يُفِيدُ الْحَضَرَ، وَإِنَّمَا قَدَّرْنَاهُ مُنَاسِبًا لِمَا ابْتَدَى بِهِ؛ لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ، فَمَثَلًا لَوْ قُلْتَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ بِاسْمِ اللَّهِ ابْتَدَى. صَحَّ، لَكِنْ ابْتَدَى بِأَيِّ شَيْءٍ؟ فَإِذَا قُلْنَا: نُقَدِّرُهُ فِعْلًا خَاصًّا مُنَاسِبًا لِمَا ابْتَدَى بِهِ، صَارَ ذَلِكَ أَدَلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا كَانَ أَدَلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ كَانَ أَيْنَ فِي الْمُرَادِ.

فِيهِ أَيْضًا وَجْهٌ آخَرٌ تَبَيَّنَ لَنَا، وَهُوَ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ ابْتَدَى صَارَتِ الْبِسْمَلَةُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ فَقَطُّ، إِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ، صَارَتِ الْبِسْمَلَةُ عَلَى كُلِّ الْفِعْلِ، وَهَذِهِ فَائِدَةٌ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ مُنَاسِبَةِ التَّعْيِينِ، إِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ ابْتَدَى صَارَتِ الْبِسْمَلَةُ عَلَى

(١) انظر: كشف النقاب على نظم قواعد الإعراب للسعدي (ص: ٥٧).

الابتداء فقط، إذا قلت: باسم الله أقرأ، صارت البسملة على كل الفعل، وكذلك باسم الله أتوضأ صارت البسملة على كل الفعل من أوله إلى آخره، بخلاف ما إذا قلت: باسم الله أبتدي. فإن البسملة تكون على الابتداء فقط.

هذا هو إعراب هذه البسملة.

أما معناها: فإن (اسم) مفرد مضاف، وكل مفرد مضاف فإنه للعموم، رأيتم قول الله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨]؟ فإن ﴿نعمة﴾ مفرد مضاف لكن ليست نعمة واحدة؛ لأن النعمة الواحدة محصى، لكنها نعم كثيرة، فتشمل كل ما أنعم الله به على العبد، إذا كان المفرد المضاف يفيد العموم فما معنى قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم؟ معناها: بكل اسم من أسماء الله أعمل كذا وكذا، بكل اسم، فتكون أنت الآن مستعيناً بكل اسم من أسماء الله على هذا الفعل الذي بسملت من أجله.

وأما (اسم) فقول: إنه مشتق من السمو، وهو الارتفاع؛ وذلك لأن الاسم يرفع المسمى ويبيئه، وقيل: إنه مشتق من السمة، وهي العلامة، قال الله تعالى: ﴿سماهم في وجوههم﴾؛ أي: علامتهم في وجوههم، وأياً كان فالاسم يعين مسماه، ويميزه من غيره.

وأسماء الله سبحانه وتعالى غير محصورة بعدد، كما جاء في الحديث الصحيح: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما (الله) فهو علمٌ على الذات المقدَّسة العليَّة، وهو الله سُبحانه وتعالى، قال التَّحَوُّيُّون: «وهو أَعْرَفُ الْمَعَارِفِ» أَعْرَفَ الْمَعَارِفِ هو هذا الْعَلَمُ، وقد رَبَّبُوا الْمَعَارِفَ بَأَن أَعْرَفَهَا: الضَّمِيرُ، ثُمَّ الْأَعْلَامُ، لكن هذا الْعَلَمُ هو أَعْرَفَهَا؛ إذ لَا تُحْتَمَلُ الْمَشَارَكَةُ فِيهِ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَعَارِفِ يُمَكِّنُ الْمَشَارَكَةَ فِيهِ.

وأما قوله: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ فهو اسْمٌ من أسماء الله دالٌّ على الرحمة الواسعة؛ و﴿الرَّحِيمِ﴾ اسْمٌ من أسماء الله دالٌّ على الرحمة التي تَقَعُ بِالْفِعْلِ، فالرحمن للوصف، والرحيم للفعل، يَعْنِي: أَنَّهُ رَحْمَنٌ يَرْحَمُ، وبذلك تَبَيَّنَ فائِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ فائِدَةَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا هُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنِ﴾؛ لِأَنَّ فَعْلَانَ يَدُلُّ عَلَى الْإِمْتِلَاءِ وَالسَّعَةِ، كَمَا تَقُولُ: شَبَعَانُ، وَرِيَّانُ، وَمَا أَشْبَهَهَا، وَأَمَّا ﴿الرَّحِيمِ﴾ فهو بِاعْتِبَارِ الْفِعْلِ، أَي: إِيْصَالِ الرَّحْمَةِ إِلَى مَنْ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ.

والبَسْمَلَةُ لَهَا أَحْكَامُ:

منها أَنَّهُا تَكُونُ أَحْيَانًا شَرْطًا فِي الْحِلِّ؛ كَالتَّسْمِيَةِ عَلَى الذَّبِيحَةِ، فَإِنَّ التَّسْمِيَةَ عَلَى الذَّبِيحَةِ شَرْطٌ لِحِلِّهَا، حَتَّى إِذَا لَوْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ وَلَوْ نِسْيَانًا لَمْ تَحِلَّ الذَّبِيحَةُ.

وقد تكون واجبة لا شرطًا كما في الوضوء عند بعض العلماء، فإنَّ التَّسْمِيَةَ فِي الْوَضُوءِ وَاجِبَةٌ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ شَرْطًا لِلصَّحَّةِ، إِذْ لَوْ تَرَكَهَا نِسْيَانًا صَحَّ وَضُوءُهُ، وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَحَبَّةً فِي كُلِّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرٌ» أَوْ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ - يَعْنِي: ذِي شَأْنٍ مُهِمٍّ - لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرٌ»<sup>(١)</sup>، أَي: مَنْزُوعِ الْبَرَكَةِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».

ولهذا كان النبي ﷺ يبتدئ بها في المكاتبات إلى الملوك وغيرهم، وكذلك الأنبياء من قبله، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠-٣١].



## الآيات (١-٣)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١-٣].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَمَّ﴾ هذه كلمة مُكوَّنة من حَرْفَيْنِ مُهْمَلَيْنِ هِجَائِيَّيْنِ: الحاء، والميم. ولهذا نَطَقَ بِهَا بِاسْمِهَا لَا بِلَفْظِهَا، فَلَا نَقُولُ: حَمَّ. بل نَقُولُ: «حَامِيمٌ» بِاسْمِهَا، فَهِيَ إِذَنْ حَرْفَانِ مُهْمَلَانِ هِجَائِيَّانِ يَتَرَكَّبُ مِنْهُمَا كَلَامُ النَّاسِ، فَهَلْ لِهَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ مَعْنَى؟

يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>: [اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ] يَعْنِي لَا نَدْرِي مَاذَا أَرَادَ، هَلْ أَرَادَ إِثْبَاتَ مَعْنَى، أَمْ لَمْ يَرِدْ إِثْبَاتَ مَعْنَى، وَهَلْ أَرَادَ مَعْنَى مُعَيَّنًا أَمْ مَاذَا؟  
المُهِمُّ: أَنَا نُفَوِّضُ، فَمَوْقِفْنَا مِنْ هَذَا التَّفْوِيزِ كغیره من الحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ الَّتِي ابْتَدَأَتْ بِهَا بَعْضُ السُّورِ.

ولكن مُقْتَضَى كَوْنِ الْقُرْآنِ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُمَا حَرْفَانِ هِجَائِيَّانِ مُهْمَلَانِ لَيْسَ لِهَذَا مَعْنَى، يَعْنِي نَجْزِمُ بِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِهَذَا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لَا تَجْعَلُ لِلْحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ مَعْنَى، وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ مُجَاهِدٍ<sup>(٢)</sup> إِمَامِ

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/٣٩)، حسن المحاضرة (١/٤٤٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٧٠).

المفسرين في زمانه، زمن التابعين.

وهو الحق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

فإن قال قائل: يرد على هذا القول أن في القرآن ما ليس له معنى، وليس له فائدة، وإنما هو حروف مقطعة ليس لها فائدة!!.

قلنا: الجواب عن هذا الإيراد أن الله سبحانه وتعالى تكلم بذلك لمغزى لا لمعنى؛ أي: لحكمة بالغة، وهي أن هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء من العرب لم يكن أتى بشيء جديد من حروف، بل أتى بالحروف التي تُركَّبون منها كلامكم، ومع ذلك أعجزكم، فعجزتم عن صف الحروف حتى تكون مثل القرآن، فإذا كنتم عجزتم عن ذلك، فعجزكم عن معنى هذه الكلمات من باب أولى.

وهذا الذي ذكره الزمخشري<sup>(١)</sup> في تفسيره وارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٢)</sup> رحمة الله وذكروه أيضًا إما ابتداءً أو تقليدًا.

المهم: أن هذا هو الصواب عند المحققين، وهو أن الله تعالى أنزلها لتتام التحدي لهؤلاء البلغاء الذين عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل بعضه، وأيدوا قولهم هذا بأن الله تعالى لم يبتدئ سورة بحروف هجائية إلا ذكر بعدها القرآن إلا نادرًا.

فإن قال قائل: ما نقول في الحروف المقطعة هذه في أوائل السور، هل تدخل فيما قال ابن عباس<sup>(٣)</sup> أن القرآن أربعة أقسام: القسم الرابع أنه ما لا يعلمه إلا الله؟

(١) الكشاف (١/٢٦).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/٧١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/٢٥٣).



فالجواب: لا، هذه تدخل على رأي المفسر، أمّا على القول الذي رجّحنا فإنّه معلوم أنه ليس لها معنى، يعني ممّا يدخل تحت علمنا أنه ليس لها معنى.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ القرآن، مُبْتَدَأٌ [يعني: المراد بالكتاب هنا القرآن، مع أنّ الكتاب اسم جنس يُحتمل أن تكون فيه (أل) للجنس، فيشمل كل كتاب، ولكن الظاهر ما ذهب إليه المفسر؛ لأنّ المقصود بذلك تقرير كون هذا القرآن الذي نزل على المكذّبين من عند الله عزّ وجلّ.

وقوله: [مُبتدأ] يُريد قوله: ﴿تَنْزِيلُ﴾؛ أي: أنّها مُبتدأ، والمُبتدأ يحتاج إلى خبر، والخبر قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ ولهذا قال المفسر: [﴿مِنَ اللَّهِ﴾ خبره] تنزيل الكتاب من الله لا من غيره.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه] العزيز: ذو العِزَّة، وقد سبق أن عِزَّة الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- عِزَّة القَدْر.

٢- وعِزَّة القَهْر.

٣- وعِزَّة الامتِناع.

وهو كذلك في كل موضع جاء فيه «العزيز» فهذا هو معناه، أي: أنّه ذو عِزَّة.

أمّا عِزَّة القَدْر: فمعناها: أنه ذو شَرَف وسيادة.

وأمّا عِزَّة القَهْر فمعناها: أنه ذو غلبة وسُلطان.

وأمّا عِزَّة الامتِناع: فمعناه: أنه ذو امتِناع عن كل نقص وعيب.

وقد سبق الاستشهاد على هذه المعاني الثلاثة وبيان اشتقاقها؛ فيكون قول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿الْعَزِيزِ﴾ في مُلْكِهِ [فيه قُصُور؛ لَأَنَّهُ جَعَلَهُ بِمَعْنَى الْغَالِبِ فَقَطُّ، والصواب ما ذكرنا لكم.

وقوله تعالى: ﴿الْعَلِيمِ﴾ قال رَحْمَةُ اللَّهِ: [بِخَلْقِهِ] والعليم أي: ذو العِلْمِ، وَعِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ بِمَحْدُودٍ لَا أَوَّلًا، وَلَا آخِرًا، وَلَا مِقْدَارًا، فَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَاسِعٌ شَامِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى أَرْزِيٌّ؛ أَي: لَمْ يَسْبِقْهُ جَهْلٌ، عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى أَبَدِيٌّ؛ أَي: لَا يَلْحَقُهُ نِسْيَانٌ، فَصَارَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَاسِعًا شَامِلًا زَمَنًا وَكَيْفًا، زَمَنًا أَي: فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَفِي الْمَاضِي، وَكَيْفًا أَي: أَنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْلَمَ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ لَهُمْ ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لِلْكَافِرِينَ، قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ الْغَفْرُ هُوَ السَّرُّ مَعَ الْوِقَايَةِ، وَمِنْهُ الْمِغْفَرُ: مَا يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ عِنْدَ الْحَرْبِ؛ لِاتِّقَاءِ السَّهَامِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمِغْفَرَ سَاتِرٌ، فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ السَّرِّ وَالْوِقَايَةِ، وَالذَّنْبُ: الْمَعْصِيَةُ، يُقَالُ: أَذْنَبَ الرَّجُلُ. إِذَا عَصَى، وَمَعْنَى غَافِرِ الذَّنْبِ؛ أَي: سَاتِرِهِ الْمُتَجَاوِزِ عَنْهُ.

وقول المفسر: [لِلْمُؤْمِنِينَ] فِيهِ نَظَرٌ وَاضِحٌ؛ لِأَنَّ مَغْفِرَةَ الذَّنْبِ شَامِلٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فَهُوَ غَافِرِ الذَّنْبِ لِكُلِّ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ وَسَأَلَ الْمَغْفِرَةَ.

وقوله: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ قَابِلُهُ: مَعْنَاهَا: أَنْ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ، وَ﴿التَّوْبِ﴾ بِمَعْنَى: الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ.

وقال المفسر: [لهم] أي: للمؤمنين، وهذا أيضاً ليس بصحيح، فالتوبة مقبولة من المؤمنين والكافرين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن المشركين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٧-١٨].

فقال: ﴿يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ إذن: لو تابوا قبل ذلك لتُقبلت، فتبين بهذا أن ما ذهب إليه المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ من تخصيص ذلك بالمؤمنين يُعتبر قصوراً.  
قال: [مصدر] ﴿وَقَابِلٍ﴾ اسم فاعل، إذن فالمصدر هو ﴿التَّوْبِ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ للكافرين [كأن المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ خصَّ الغافر والقابل بالمؤمنين؛ لقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾؛ لأنَّ شِدَّةَ الْعِقَابِ إِنَّمَا هِيَ لِلْكَافِرِينَ، وَلَكِنَّ فِي هَذَا نَظْرًا؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا ذِكْرَ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ، بَيْنَ الْفَضْلِ فِي كَوْنِهِ غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ، وَالْعَدْلَ فِي كَوْنِهِ شَدِيدَ الْعِقَابِ؛ لِأَنَّ شِدَّةَ الْعِقَابِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا اسْتَحَقَّهَا عَدْلٌ، إِذِ إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَنَا وَبَيَّنَّ لَنَا أَنَّ مَنْ فَعَلَ كَذَا عَاقَبَهُ بِالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ، فَإِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ مَا تَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ فَهُوَ الَّذِي اخْتَارَ لِنَفْسِهِ هَذَا، فَيَكُونُ مُعَامِلَةً اللَّهُ لَهُ بِهِ تَكُونُ عَدْلًا.

وقوله: [أي: مُشَدِّدُهُ] وليُتَبَّه لهذا التفسير! فقد عدل عن ظاهر الآية التي تُفيد أنه نفسه شديد العقاب؛ لأنهم - الأشاعرة - ينفون الصفات، والتشديد فعل بائن عن الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي مثل القادر، يعني تعود الصفة على مذهب الأشاعرة إلى القدرة،

وتعود على مذهب المأثرية إلى الخلق؛ لأن المأثرية يُثبتون الخلق والتكوين بخلاف الأشاعرة.

فلننظر الآن: فعلى كلام المفسر تكون ﴿شديد﴾ بمعنى مُشدّد، ولنا أن نطالب فنقول: هل «فعل» تأتي بمعنى «مُفعل»؟ الجواب: نعم، تأتي «فعل» بمعنى مُفعل كقول الشاعر:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ      يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ<sup>(١)</sup>

«السَّمِيع» هنا بمعنى المُسْمِع، «الدَّاعِي» الذي يُسمِعُه، «يُورِّقُنِي» فلا أنام، «وأصحابي هُجُوع» نائمون.

فمن حيث اللفظ لا اعتراض على المفسر؛ أي: من حيث جعله (فعل) بمعنى (مُفعل) لا اعتراض عليه؛ لأن ذلك وارد في اللغة العربية، لكن من حيث المعنى فيه نظر؛ لأن ظاهر قوله: ﴿شديد العقاب﴾، أنه هو نفسه عقابه شديد، وهو كذلك، فإذا كان العقاب شديداً لزم أن يكون الألم - ألم من عوقب - شديداً أيضاً، والعقاب مأخوذ من المعاقبة، وهي المجازاة، وسميت المجازاة عقاباً؛ لأنها تعقب العمل، لكنها تُذكر غالباً فيما يسوء لا فيما يسر.

قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

قوله: ﴿ذِي﴾ بمعنى صاحب، وهي مجرورة بالياء نيابة عن الكسرة؛ لأنّها من الأسماء الخمسة.

(١) البيت لعمر بن معدى كرب (ت ٢١هـ)، انظر: الأصمعيات (ص: ١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

﴿الطَّوْلِ﴾ يَقُولُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [أَي: الإِنْعَامِ الوَاسِعِ] هَذَا الطَّوْلُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:  
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥] إِلَى  
 آخِرِهِ؛ فَالطَّوْلُ هُوَ الْغِنَى الوَاسِعُ، وَمِنْ تَمَامِ الْغِنَى أَنْ يَكُونَ مُنْعِماً، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى  
 مُنْعِمٌ، وَاسِعُ الْغِنَى.

وَقَوْلُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿ذِي الطَّوْلِ﴾] وَهُوَ مَوْصُوفٌ عَلَى الدَّوَامِ بِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ،  
 فِإِضَافَةِ الْمُشْتَقِّ مِنْهَا لِلتَّعْرِيفِ كَالْأَخِيرَةِ [فِيهِ عِدَّةٌ صِفَاتٍ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ  
 شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ هَذِهِ أَرْبَعَةٌ، وَالْأَخِيرَةُ غَيْرُ مُشْتَقَّةٍ، فَإِنَّ ﴿ذِي﴾ بِمَعْنَى  
 صَاحِبٍ غَيْرِ مُشْتَقَّةٍ، لَكِنَّهَا مُؤَوَّلَةٌ بِمُشْتَقٍّ، أَمَّا مَا قَبْلَهَا ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، ﴿وَقَابِلِ  
 التَّوْبِ﴾، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾، فَهِيَ مُشْتَقَّةٌ، وَوَصَفٌ؛ وَلِهَذَا جَاءَتْ بِاسْمِ الْفَاعِلِ، وَجَاءَ  
 «الْغَفُورُ» الَّذِي هُوَ اسْمُهُ عَلَى صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ.

وَجَعَلَ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَا يُرَادُ بِهَا إِثْبَاتُ الْمَعْنَى الْمُشْتَقَّةِ مِنْهُ، وَلَكِنَّهَا  
 لِلتَّعْرِيفِ فَقَطُّ، وَلَا يَحْفَى مَا فِي هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْقُصُورِ التَّامِّ، فَكَيْفَ نَجْعَلُ الْمُشْتَقَّ  
 لِمُجَرَّدِ التَّعْرِيفِ؟ كَيْفَ نَقُولُ: إِنَّ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ الْمُرَادُ بِذَلِكَ التَّعْرِيفُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،  
 لَا أَنَّهُ غَافِرٌ، وَلَا أَنَّهُ قَابِلٌ، وَلَا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ؟! فَهُوَ قَاصِرٌ جَدًّا، وَلَا يَصِحُّ أَنْ  
 تُفَسَّرَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذَا الْكَلَامِ، بَلْ نَقُولُ: ﴿غَافِرٍ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الْغَفْرِ، وَهُوَ صِفَةٌ  
 مَقْصُودَةٌ، لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهَا التَّعْرِيفُ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ فِي ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، وَفِي ﴿شَدِيدِ  
 الْعِقَابِ﴾.

وَقَوْلُ الْمَفْسَّرِ: [مَوْصُوفٌ عَلَى الدَّوَامِ بِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ] قَالَ ذَلِكَ هَرَبًا  
 مِنْ إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ، فَانْتَبَهَ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: غَافِرٌ بِمَعْنَى يَغْفِرُ، صَارَتْ صِفَةٌ  
 فِعْلٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمَشِيئَةِ!. وَعِنْدَ الْأَشَاعِرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ يَمْتَنَعُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ

تعالى بوصف هو فعل، لا يُمكن، قالوا: لأن الفعل يدلُّ على الحدث، والحدث لا يكون في القديم، لا يكون الحدث إلا لحادث!

وقد سبق لنا بيان بطلان هذا القول، فالصواب إذن: أن ﴿غَافِرٍ﴾ ﴿وَقَائِلٍ﴾ صفتان من صفات الأفعال، وأما ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ فهي أيضًا صفة من صفات الأفعال؛ لأن التقدير: عقابه شديد، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ أي: أن عقابه شديد، فتكون كما سبق من الصفات الفعلية.

وأما ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ فإذا قلنا: إن معناه ذي الغنى الواسع، فهي من صفات الذات، وإذا قلنا: إنَّها بمعنى الإنعام الواسع؛ فهي من صفات الأفعال.

فإن قال قائل: هل ﴿شَدِيدٍ﴾ صفة فعل لله عزَّ وجلَّ؟

فالجواب: لا هي صفة لفعله، ليست صفة فعل، وإنما هي صفة لفعل الله، يعنى نفس العقاب شديد، وهو جعلها مُشدِّدًا شيئًا مُنفصلًا عن الله عزَّ وجلَّ.

فإن قيل: عقاب الله منه النار، فكأنها هي التي وُصفت بالشدة، فكيف وصفنا

بها الله سبحانه وتعالى؟

فالجواب: هو نفسه شديد العقاب، أنا مثلًا إذا قلت: فلان قويُّ الضرب.

يعني ضربه الواقع منه قويُّ، والعقاب الواقع منه شديد، والموصوف الله عزَّ وجلَّ شدة عقابه هو، أمَّا المُعاقب به فهذا شيء آخر، فعندنا عقاب ومُعاقب به ومُعاقب وارِد عليه العقاب، فإذا عاقبت شخصًا بالضرب فهذا الضرب مُعاقب به، وأمَّا ضرب الضارب فهو وصفه الذي هو عقابه.

فإن قال قائل: قلنا: إن المفسر يتهرَّب من إثبات الصفات الفعلية، ثم هو قال

هنا: [ذي الطَّوْلِ الإِنْعَامِ الوَاسِعِ، وهو مَوْصُوفٌ عَلَى الدَّوَامِ بِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ].  
فهو هنا أُثْبِتَ الصِّفَاتِ؟

فالجوابُ: أي لكن على أَنَّهَا صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ، ثُمَّ إِنَّ المَفْسَّرَ أَيْضًا لاحتَ شَيْئًا آخَرَ  
مِنْ جِهَةِ النَّحْوِ، وهو أَنَّ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ و﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ و﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ هَذِهِ  
صِفَاتٌ مُضَافَةٌ، وَإِضَافَتُهَا لَيْسَتْ مَحْضَةً، بَلْ إِضَافَتُهَا إِضَافَةٌ لَفْظِيَّةٌ، وَالإِضَافَةُ اللَّفْظِيَّةُ  
لَا تَقْتَضِي التَّعْرِيفَ.

فإن قال قائل: لكن سَمَّاهَا صِفَاتٍ!.

فالجوابُ: لا مُخَالَفَةٌ، هِيَ صِفَاتٌ لَكِنْ مَا قَصَدَهُ؟ انظُرْ عِبَارَةَ المَفْسَّرِ: [وهو  
مَوْصُوفٌ عَلَى الدَّوَامِ بِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ] إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِهَا عَلَى الدَّوَامِ فَتَكُونُ  
صِفَاتٍ ذَاتِيَّةً. ثُمَّ يَقُولُ: [إِضَافَةُ المُشْتَقِّ مِنْهَا لِلتَّعْرِيفِ كَالْآخِرَةِ] المُشْتَقُّ: ﴿غَافِرِ﴾  
و﴿وَقَابِلِ﴾ و﴿شَدِيدِ﴾، يَقُولُ: لِلتَّعْرِيفِ، يَعْنِي أَنَّ إِضَافَتَهَا أَفَادَتِ التَّعْرِيفَ كَالْآخِرَةِ:  
﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ الإِضَافَةَ أَفَادَتِ التَّعْرِيفَ لَا شَكَّ؛ لِأَنَّهَا إِضَافَةٌ اسْمٍ جَامِدٍ إِلَى  
مَعْرِفَةٍ، فَيَكُونُ مَعْرِفَةً.

وَأَسْمُ الفَاعِلِ وَأَسْمُ المَفْعُولِ وَالصِّفَةُ المُشَبَّهَةُ إِذَا أُضِيفَتْ فَإِنَّهَا لَا تُفِيدُ  
التَّعْرِيفَ، وَيُسَمَّوْنَ هَذِهِ الإِضَافَةَ: إِضَافَةٌ لَفْظِيَّةٌ، لَا مَعْنَوِيَّةٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: مَحْضَةٌ،  
وغير مَحْضَةٌ، وَأَتَى المَفْسَّرُ بِهَذَا الكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ يُورَدُ عَلَيْهِ مَسْأَلَةٌ: «اللَّهُ العَزِيزُ العَلِيمُ»،  
فَهَذِهِ مَعَارِفٌ، وَإِذَا قُلْنَا: غَافِرٌ صِفَةٌ لِلَّهِ. وَقُلْنَا: إِنَّ إِضَافَتَهَا لَفْظِيَّةٌ، وَرَدَّ عَلَيْنَا إِشْكَالٌ،  
الإِضَافَةُ اللَّفْظِيَّةُ لَا تَقْتَضِي التَّعْرِيفَ، فَتَكُونُ الصِّفَةُ نَكْرَةً وَصِفَ بِهَا مَعْرِفَةً، وَوَصَفَ  
المَعْرِفَةَ بِالنَّكْرَةِ غَيْرَ جَائِزٍ.

ولا يجوز أن تقول: جاء زيد فاضل. يجب أن تقول: جاء زيد الفاضل. فإذا كانت الإضافة في ﴿غَافِرٍ﴾ و﴿وَقَابِلٍ﴾ و﴿شَدِيدٍ﴾ لا تُفيد التعريف، وأعرَبناها على أنها صفة، فصار في هذا إشكال، وهو أننا وصفنا معرفة بنكرة، وهذا غير جائز، فأراد المفسر أن يُصحح الموضوع فقال: إن هذه الصفات لا يُراد بها الحدوث، وإنما هي صفات على الدوام، وإذا كانت الصفات على الدوام خرَّجت عن مُشابهة الفعل، وصارت الإضافة للتعريف؛ لأجل أن يصحَّ وصف اسم الجلالة، أو لفظ الجلالة بهذه الصفات لما كانت إضافتها محضة معنوية.

لكن للمُعربين قول آخر، بل قول ثالث: في القول الآخر يقولون: إن ﴿غَافِرٍ﴾ و﴿وَقَابِلٍ﴾ و﴿شَدِيدٍ﴾ بدل من الله، والبدل لا يُشترط فيه موافقة المُبدل منه، لكن القول بأنها بدل غير صحيح؛ لأن علامة البدل أن يحلَّ محلَّ المُبدل منه، وهذا لا يصحُّ، هذا وُصف زائد على الموصوف.

وهناك رأيٌ ثالث لإخواننا الكوفيِّين الميسرين يقولون: يجوز أن تُنعت المعرفة بمثل هذا التركيب، ولو كانت الإضافة لفظية غير محضة. يعني يقولون: ما أُضيف إلى المعرفة ولو كانت الإضافة غير محضة يجوز أن يكون نعتاً للمعرفة اعتباراً باللفظ؛ لأن لفظ: ﴿غَافِرِ الدُّنْيِ﴾ معرفة؛ لأنه أُضيف إلى معرفة، وإن كانت الإضافة عندهم غير حقيقية، وإنما هي لفظية.

فالنحويون يقولون: لا يُهمُّ لفظية أو معنوية، ما دام ظاهر اللفظ مُنسجم الصفة مع الموصوف، فهذا يكفي.

والقاعدة المتبعة عندنا فيما إذا ورد خلاف بين النحويين أن نتبع الأسهل اقتداءً بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أنه ما خيَّر بين أمرين إلَّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.



ونحن لا نأثم إذا اتبعتنا الكوفيين في رأيهم؛ لأنها ليست مسائل شرعية؛ فعلى رأي الكوفيين لا حاجة إلى كلام المفسر رحمه الله.

فنقول: الإضافة لفظية، لكن صورتها أنها إضافة معنوية؛ لأنها أضيف إلى معرفة، فصحح أن يوصف بها المعرفة؛ وهذا البحث لا يدركه الإنسان تمامًا إلا إذا عرف أن الإضافة نوعان: محضة معنوية، ولفظية غير محضة.

مسألة: كيف نجمع بين القول بأن أسماء الله تعالى لا تُحصى، وبين قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِّنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>؟

فالجواب على ذلك أن نقول - إذا كان السائل مُستفهِمًا فقل: الجواب على ذلك، وإذا كان مُوردًا أي مُناقضًا، فقل: الجواب عن ذلك؛ ولهذا يكون «الجواب عن ذلك» في مقام الردِّ على مَنْ اعترض عليك، و«الجواب على ذلك» في جواب مَنْ استرشد - أن كلام النبي ﷺ ككلام الله لا يتناقض أبدًا، فإذا كان قد ثبت عنه أنه قال: «أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»<sup>(٢)</sup> علمنا أن من أسماء الله ما لا يمكن الوصول إليه، ولا يمكن إدراكه؛ لأن ما استأثر الله به لا يمكن أن نعلمه، فحينئذ يتعين أن نقول: إن معنى قوله: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِّنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» أي: من أسمائه تسعة وتسعين مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، فتكون جملة «مَنْ أَحْصَاهَا» وصفًا لكلمة «اسمًا»، وليست جملة مُستقلة مُستأنفة، تكون معنى «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» موصوفة بأن «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وله أسماء أخرى لكن اختر

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

منها تسعة وتسعين فإذا أَحْصَيْتَهَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ.

ومعنى إحصائها: هو معرفتها لفظاً ومعنى، والتَّعَبَّدَ اللهُ بِمُقْتَضَاهَا، أي: معرفة لفظها ومعناها والتَّعَبَّدَ اللهُ تَعَالَى بِمُقْتَضَاهَا.

قال رَحْمَةُ اللهِ: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المرجع] الجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ مُكَوَّنَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، والخَبَرُ فِيهَا مُقَدَّمٌ، وَإِذَا قُدِّمَ الخَبَرُ أَفَادَ التَّخْصِيصَ وَالْحَضَرَ؛ إِلَيْهِ أَي: إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، الْمَصِيرُ: الْمَرْجِعُ، وَهَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي: الْمَرْجِعُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَوْ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ بَعْدَ الْمَوْتِ؟

الجواب: إِلَيْهِ الْمَصِيرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ، إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ فِي تَدْبِيرِ الْأُمُورِ، إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ بَعْدَ الْمَوْتِ، إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

### من فوائد الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حُرُوفٌ، تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ بِحُرُوفٍ، فِيهِ الرَّدُّ عَلَى الْأَشَاعِرَةِ، وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَتَكَلَّمُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، لَكِنْ يَخْلُقُ حُرُوفًا وَأَصْوَاتًا تُسْمَعُ تَعْبِيرًا عَمَّا فِي نَفْسِهِ.

وَحَقِيقَةُ هَذَا الْقَوْلِ نَفْيُ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّ مَا فِي النَّفْسِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الْمُرْتَبَةِ لَيْسَتْ كَلَامًا، وَلَكِنَّهَا مَعْلُومَاتٌ، عَلِمَ، وَلَيْسَتْ كَلَامًا.

وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ مَعْلُومٌ مِنْ كُتُبِ الْعَقَائِدِ: مِنْهَا أَنَّ الْقَوْلَ إِذَا أُطْلِقَ فَهُوَ قَوْلُ اللِّسَانِ، وَإِذَا أُرِيدَ بِهِ قَوْلُ النَّفْسِ حُدِّدَ، مِثْلَ: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَعْمَلُ﴾

[المجادلة: ٨] ومثل قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا»<sup>(١)</sup>.

الفائدة الثانية: علو الله عز وجل، يُؤخذ من قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾؛ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى.

الفائدة الثالثة: أن القرآن كلام الله، لا كلام غيره؛ لقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾، وذلك أن ما ذكر الله أنه نزله ينقسم إلى قسمين:

إما أن يكون أعياناً قائمة بنفسها، فهذه مخلوقة.

أو تكون أوصافاً لا تقوم إلا بالغير، فهذا غير مخلوق.

مثال الذي أضاف الله تعالى إنزاله إلى نفسه، وهو عين قائمة بنفسها، قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] فالحديد مخلوق، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نَمِيَّةً أَزْوَاجًا﴾ [الزمر: ٦] أعيان قائمة بنفسها مخلوقة، ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] مخلوق.

إذن: فما أضاف الله تعالى من إنزاله إليه، وهو عين قائمة بنفسه؛ فهو مخلوق، وإلا فهو غير مخلوق، والقرآن هو كلام لا يقوم إلا بالغير، إذن هو غير مخلوق.

الفائدة الرابعة: وصف القرآن الكريم بالكتاب، فلماذا وُصف بالكتاب؟

نقول: أولاً: لأنه يُكتب فهو مكتوب بالمصاحف التي بأيدينا.

ثانياً: أنه بصحف بأيدي الملائكة: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ﴿١١﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ

[عبس: ١٢-١٣].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وعليه فكِتَابٌ بِمَعْنَى مَكْتُوبٌ، وَهَلْ يَأْتِي «فِعَالٌ» بِمَعْنَى «مَفْعُولٌ»؟ نَقُولُ: كَثِيرًا، كَغِرَاسٌ بِمَعْنَى مَغْرُوسٌ، وَبِنَاءٍ بِمَعْنَى مَبْنِيٌّ، وَفِرَاشٌ بِمَعْنَى مَفْرُوشٌ، وَمَا أَشْبَهَهُ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: إِثْبَاتُ ثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ: اللَّهُ، وَالْعَزِيزُ، وَالْعَلِيمُ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وَإِثْبَاتُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ مِنَ الصِّفَاتِ، فَاللَّهُ دَلٌّ عَلَى الْأُلُوْهِيَةِ، وَالْعَزِيزُ عَلَى الْعِزَّةِ، وَالْعَلِيمُ عَلَى الْعِلْمِ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِصِفَةٍ، وَلَيْسَ كُلُّ صِفَةٍ يُشْتَقُّ مِنْهَا اسْمٌ؛ وَهَذَا قُلْنَا: إِنَّ الصِّفَاتِ أَوْسَعُ مِنَ الْأَسْمَاءِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذِكْرُ الْأَسْمَاءِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْمَقَامِ. يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَذْكَرُ مِنْ أَسْمَائِهِ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ، فَهَذِهِ السُّورَةُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْمُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْإِنْتِقَامِ، فَالَّذِي يُنَاسِبُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعِزَّةُ الَّتِي فِيهَا الْغَلْبَةُ وَالْأَخْذُ؛ فَلِهَذَا جَاءَتْ هُنَا الْعَزِيزُ، وَجَاءَ الْعَلِيمُ؛ لِيُفِيدَ أَنَّهُ لِعِزَّتِهِ أَخَذَ هَؤُلَاءِ الْمُكذِّبِينَ، وَلِعِلْمِهِ أَنْزَلَ الْكُتُبَ وَعَلِمَ كَيْفَ يَأْخُذُ هَؤُلَاءِ الْمُكذِّبِينَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِقَوْلِهِ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾، وَالذَّنْبُ هُنَا مُفْرَدٌ مُحَلَّى بِ(أَل) فَيَكُونُ عَامًّا؛ لِأَنَّ الْمُفْرَدَ الْمُحَلَّى بِ(أَل) يَكُونُ عَامًّا؛ مِثْلُ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ حَكِيمٌ﴾ [العصر: ٢] أَي: إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الْحَثُّ عَلَى كُلِّ مَا تَكُونُ بِهِ الْمَغْفِرَةَ، وَجِهَةٌ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُخَيِّرْنَا بِأَنَّهُ غَافِرِ الذَّنْبِ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ غَافِرٌ فَقَطُّ، لَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَتَعَرَّضَ لِمَغْفِرَتِهِ.

وما هي الأسباب التي تكون بها المغفرة؟

الجواب: الأسباب كثيرة؛ منها: الاستغفار، تقول: اللهم اغفر لي، ومنها: أعمال صالحة يكفر الله بها الخطايا، ومنها: إحسان إلى الخلق، حتى إن الله عز وجل غفر لامرأة بغي بسقيها كلبًا عطشان، وغفر لرجل وجد شجرة في الطريق تؤذي الناس فأزالها، فغفر الله له.

المهم: أن نتعرض لأسباب المغفرة؛ لأن ذلك مقتضى قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾. الفائدة التاسعة: أنه يقبل التوبة من عباده، ولكن لا يقبل الشيء حتى يكون جاريًا على مقتضى الشريعة؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(١)</sup>.

والتوبة الجارية على مقتضى الشريعة هي ما جمعت خمسة أمور، وهي ما يعرف بشروط التوبة:

الشرط الأول: الإخلاص لله عز وجل، بأن يكون الحامل للإنسان على التوبة هو إخلاصه لله عز وجل، حبُّ التقرب إليه والفرار من عقوبته، فلا يحمله على التوبة مراعاة الخلق، ولا حصول الجاه والرئاسة، وإنما يحمله الإخلاص لله.

الشرط الثاني: الندم على فعل المعصية أن يشعر الإنسان بانفعال ندم وحسرة على ما وقع منه، فلا بُدَّ من ندم؛ لأن الندم هو الذي يتبين به حقيقة رجوع الإنسان إلى الله، وأن هذه المعصية أثرت في نفسه، فندم على ما جرى منه، لا يقال: إن الندم

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

انفعال، والانفعال يأتي بغير الاختيار؛ كالغضب مثلاً، والحزن من الواقع، يُقال: المراد بالندم هنا تحسر القلب، فهو انفعال يقع من الإنسان ليس كالانفعال الذي يأتي سببه من الخارج، هذا ربّما لا يستطيع الإنسان أن يُغيّر ما وقع.

الشّرط الثالث: التّخلّي عن المعصية والانفصال عنها، فإن تاب وهو مُصرٌّ فإن توبته أشبه ما تكون بالاستهزاء، كيف يقول الذي يأكل لحم الخنزير: أستغفر الله تعالى، وأسأل الله أن يجعل طعامي طيباً؟! وهو يأكل هو يمضغ اللحم جيّداً، ويقول: أستغفر الله من أكل لحم الخنزير، وأسأل الله أن يجعل طعامي طيباً! هذا أشبه ما يكون بالمستهزئ. ولو أن رجلاً هتك عن شيء، ووجدك تعمل هذا الشيء، وأنت تقول: أرجو منك أن تعذرني، وما أشبه ذلك وهو يأكل، وقال له: لا تأكل، وهو يأكل، فإن هذا الذي يُحاطبه سوف يقول: إنك تستهزئ بي وتسخر بي. فلا توبة مع الإصرار، ولا بُدَّ أن يتخلّى عن الذّنب.

وإذا كان الذّنب لله عزّ وجلّ فالتّخلّي عنه سهل، لكن إذا كان الذّنب لغير الله -يعني: أذنب في حق غير الله- فكيف يتخلّى عنه؟

نقول: إذا كان مالاً فالتّخلّي عنه بإيصاله إلى صاحبه، بأيّ وسيلة كانت، فإن كان قد مات فألى ورثته، فإن جهلهم فألى بيت المال، أو إذا كان بيت المال غير منتظم، أو يُخشى عليه أن يضيع، فليتصدّق به هو لصاحبه، هذه أربع مراحل: لصاحبه، لورثته، لبيت المال، إن جهلهم، يتصدّق به. والغالب أن الصدقة أولى من بيت المال.

وإذا كان عدواناً على النفس ليس مالاً، فالتوبة منه أن يُمكن صاحب الحقّ من الاقتصاص منه، فمثلاً: إذا كان قد اعتدى على شخص بضرب، فليذهب إليه

ويقول: أنا اعتديت عليك بالضرب اضربني كما ضربتك. كما فعل النبي ﷺ مع الرجل الذي ضربه النبي ﷺ حينما رآه مُتقدِّمًا في الصفِّ فقال الرجل: أقدني يا رسول الله ﷺ. فكشف النبي ﷺ عن بطنه ليقيده، فماذا فعل الرجل؟ قبله<sup>(١)</sup>.

فهذا النبي ﷺ، وهو أشرف الخلق، وأحب الناس إلى أتباعه مكن من الاقتصاص منه، هذا اثنان: المال والبدن.

أما إذا كان في العِرض: بأن اعتديت على شخص في عِرضه، يعني بأن اغتبتته أو سببته، والفرق بين الغيبة والسب أن السبَّ مواجهة والغيبة مع الغيبة، فذكرك أخاك بما يكره إن كان غائبًا فهي غيبة، وإن كان حاضرًا فهو سبٌّ، فإن التوبة من هذا أن تستحله، فلو قلت: سبني كما سببتك فلا يصح؛ لأن هذا جناية على نفسك، ولكن استحلّه، وهذا إذا كان سبًّا؛ لأنه قد علم بذلك.

فأمَّا إذا كان غيبة فهل تستحلّه تذهب إليه وتقول: إني اغتبتك فاعذرني اسمح

لي؟

الجواب: قال بعض العلماء: نعم! يجب أن تذهب إليه وتقول: أنا اغتبتك فاعذرني، حلّني. وقال بعض أهل العلم: لا يلزم استحلاله بل يكفي أن تستغفر له كما جاء في الحديث، وإن كان ضعيفًا: «كفَّارَةٌ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»<sup>(٢)</sup> استغفر له وأثن عليه بما هو أهله في الأماكن التي اغتبتته فيها، يقول: ﴿الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/٦٢٦).

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده رقم (١٠٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٩١)، والبيهقي في الدعوات الكبير رقم (٥٧٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا القولُ أَصَحُّ؛ لأنَّ هذا فيه البراءة وعدم التشويش؛ لأنه ربما لو ذهبَتْ إليه تقول: اغتبتك فحلّني، مهما أتيت به من صيغة الغيبة قد لا يقتنع بها، إذا قلت: إني قُلتُ فيك: إنك بخيل. قد يقول: إنك قلت: بخيل وجبان. ربما يقول له الشيطان هكذا، ويأبى أن يُحلّلك، فإذا كان لم يعلم فاحمد الله على ذلك واستغفر له وأثن عليه بما هو أهله في الأماكن التي كُنت اغتبتته فيها، وبذلك تسلم من الإثم، هذه صفة التخلّي من الذنب إذا كان في حق غير الله.

وهنا سؤال: بعض الناس يكون عليه حق مالي لشخص، إمّا سرّقه، أو جحده، أو ما أشبه ذلك، ثم يتوب هذا الفاعل، ويذهب إلى صاحب الحق، ويقول: خذْ حقك. فيأبى صاحب الحق أن يأخذه، فماذا يصنع؟ وهذا يرد كثيراً: يكون صاحب الحق قد حمل في نفسه على هذا الظالم الذي ظلمه، ويأبى أن يقبل، فماذا يصنع؟ هل نقول: إنه حينئذ سقط حقه وصحّت توبة المعتدي، ويبقى إن طلب حقه مرّة أخرى أعطي، وإن لم يطلب فإن المعتدي برئ؟

نقول: نُنزّل هذه الحال على القواعد الشرعية، فالقواعد الشرعية تقتضي أن هذا الذي عليه الحق قد برئ؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا ما يسعه! قدّم الحق لصاحبه، وقال: خذ. قال: لا، لا أخذه، أنت اعتديت عليّ في الأوّل ولا أقبل منك، هذا الذي أبى أن يقبله هو الذي أخطأ وجنى؛ لأنه ينبغي للإنسان إذا اعتذر إليه أخوه أن يقبل عُذره، لكن هذا هو الذي جنى الآن، فهذا الرجل تقول: أنت الآن برئت ذمتك، حلّ الدراهم عندك إن جاء يوماً من الدهر أعطها إياه.

وإن مات: فهل يلزمه أن يُعطيه الورثة؟



الجواب: في هذا نظر، وذلك أن الرجل الذي اعتدي عليه لم يقبل هذا المال، ولم يدخل في ملكه، فإذا كان لم يقبله ولم يدخل في ملكه، فكيف ينتقل إلى الورثة؟! ومن شرط الإرث انتقال المال عن الموروث، وهذا الموروث لم يقبل هذا المال، وقد يقال: إن الأصل أنه ملكه فيلزم الرد إلى ورثته، وهذا الأخير أحوط، لكن في وجوبه نظر؛ لأن الذي اعتدى وأراد أن يرده، يقول: أنا أعطيت الرجل وأبى أن يتملكه، فكيف ينتقل إلى الورثة؟ ولكن نقول: الأحوط والأولى أن يرده إلى الورثة؛ ليسلم منه.

لكن لو فرض أنه لا ورثة له، أو أن ورثته مجهولون، فإن هذا التائب قد أدى ما عليه.

الشرط الرابع: أن يعزم على «الآ يعود إلى الذنب»، أو «أن لا يعود إلى الذنب»، الأول أو الثاني؟ الأول: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب، أو الشرط ألا يعود إلى الذنب؟ الأول، والفرق بينهما أننا إذا قلنا: الشرط ألا يعود ثم عاد بطلت التوبة الأولى، وإذا قلنا: الشرط العزم على ألا يعود، وقد عزم ألا يعود، ثم عاد، فالتوبة الأولى تبقى صحيحة، وعليه أن يتوب توبة ثانية للذنب الجديد، فالشرط هو: العزم ألا يعود في المستقبل، فإن عاد فعليه توبة أخرى، وهكذا.

فإن قال قائل: أليس قد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ أخبر: «أن رجلاً أذنب ذنباً فتاب، ثم أذنب فتاب، ثم أذنب فتاب، ثم قال الله عز وجل: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»<sup>(١)</sup>، فهل هذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، رقم (٧٥٠٧)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَكَرَّرَ مِنْهُ الذَّنْبُ وَهُوَ يَسْتَغْفِرُ يُغْفَرُ لَهُ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، مَهْمَا أَذْنَبُ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ يُغْفَرُ لَهُ.

لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» يَعْنِي: فَلْيَعَصِرِ اللَّهَ!

قُلْنَا: لَا يَسْتَقِيمُ هَذَا؛ لِأَنَّهُ يُجَالِفُ الْأَدِلَّةَ الْكَثِيرَةَ الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ ذَنْبٍ مِنْ تَوْبَةٍ إِلَّا طَائِفَةً وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ مِنَ الذَّنْبِ، وَهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»<sup>(١)</sup>.

فَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ أَطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَكَافَأَهُمْ مُكَافَأَةً لَمْ تَحْصُلْ لِغَيْرِهِمْ، أَطَّلَعَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، هَذِهِ الْحَسَنَةُ الْعَظِيمَةُ مَحْتٌ جَمِيعٌ مَا يَعْمَلُونَهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَنَفَعَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةَ لِمَنْ غَزَا، حَتَّى حَاطَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي كَتَبَ بِأَخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى قُرَيْشٍ قُبَيْلِ غَزْوَةِ الْفَتْحِ لَمَّا عُثِرَ عَلَى مَا صَنَعَ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلرَّسُولِ ﷺ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَقَدْ نَافَقَ. فَعُمِرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شُجَاعٌ لَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا السَّيْفُ، قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَيَّ أَهْلَ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»<sup>(٢)</sup> فَوَقَعَتْ هَذِهِ السَّيِّئَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ جُمْلَةِ مَا يُغْفَرُ لِأَهْلِ بَدْرٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ بَدْرٍ أَفْضَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، أَفْضَلُ لَمَّا حَصَلَ فِيهِ مِنَ النَّصْرَةِ الْعَظِيمَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ وَلِهَذَا يُسَمَّى يَوْمُ بَدْرٍ يَوْمَ الْفُرْقَانِ. قَالَ: فَأَهْلُ بَدْرٍ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ الْجَاسُوسِ، رَقْمُ (٣٠٠٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ،

بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَهْلِ بَدْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رَقْمُ (٢٤٩٤)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ الْجَاسُوسِ، رَقْمُ (٣٠٠٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ،

بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَهْلِ بَدْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رَقْمُ (٢٤٩٤)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقْبَلُ فيه التَّوْبَةُ، وهو أن تكون التَّوْبَةُ قبل طُلُوعِ الشَّمْسِ من مَغْرِبِهَا، وقبل حُضُورِ الْأَجْلِ.

فَالأَوَّلُ عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ، فَلَا تَوْبَةَ لِأَحَدٍ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»<sup>(١)</sup>، وَهَذَا يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا» [الأنعام: ١٥٨]، وَالْمُرَادُ بِبَعْضِ الْآيَاتِ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

وَالثَّانِي أَنْ تَكُونَ قَبْلَ حُضُورِ الْأَجْلِ، فَإِذَا حَضَرَ الْأَجْلَ لَمْ تَنْفَعِ التَّوْبَةُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ» [النساء: ١٨]، هَذَا لَيْسَ لَهُمْ تَوْبَةٌ، وَتَطْبِيقُ هَذَا عَمَلِيًّا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: «ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [يونس: ٩٠] فَقِيلَ لَهُ: «ءَالْكَفْرَ»؛ تُوْمِنُ «وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» ﴿١١﴾ فَأَلْوَمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنِكَ» [يونس: ٩١-٩٢]، لَا رَحْمَةَ بِكَ وَلَكِنْ «لِتَكُونَ لِمَنْ حَلَفَكَ ءَايَةً»، وَأَمَّا رُوْحُكَ فَلَا نَجَاةَ لَهَا، وَإِنَّمَا نَجَاةُ اللَّهِ بِيَدِنِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَرَعَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ هَلَكَ حَتَّى يُشَاهِدُوهُ فَيَطْمَئِنُّوْا؛ فَلِهَذَا نَجَاةُ اللَّهِ تَعَالَى بِيَدِنِهِ؛ لِيُشَاهِدُوهُ!.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يُشْتَرَطُ أَلَّا يَكُونَ مُصِرًّا عَلَى ذَنْبٍ آخَرَ؟ يَعْنِي: لِنَفْرِضَ أَنَّهُ تَابَ مِنْ شُرْبِ الْحَمْرِ، لَكِنِّه بَاقٍ عَلَى الزُّنَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَهَلْ تَصِحُّ تَوْبَتُهُ مِنْ شُرْبِ الْحَمْرِ؟

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤/٩٩)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ فِي الْهَجْرَةِ هَلْ انْقَطَعَتْ؟، رَقْمُ (٢٤٧٩)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكَبْرِيِّ رَقْمُ (٨٦٥٨)، مِنْ حَدِيثِ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجواب: في هذا خلاف، فمن العلماء من يقول: لا تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر، ومنهم من قال: بل تصح؛ لأن كل ذنب له جرمه. ومنهم من قال: إذا كان الذنب الذي أصر عليه من جنس الذي تاب منه، فإن التوبة لا تصح، كرجل تاب من الزنا، لكنه يطبق بصره في النظر المحرم، فإن توبته من الزنا لا تصح، أو رجل تاب من النظر المحرم، ولكنه لم يتب من المس المحرم، هذا أيضا لا تقبل توبته.

ومن العلماء من قال: تقبل مطلقا، إذا تاب من ذنب تاب الله عليه من هذا الذنب؛ لأن الله عز وجل حكّم عدل، ورحمته سبقت غضبه، وهذا الرجل عنده جنایات متعددة، تاب من واحدة منها، فليكن تائبا؛ وهذا القول أصح، ولكن لا يطلق على هذا التائب وصف التوبة المطلقة؛ لأن توبته هذه مقيّدة، يعني: لا يستحق وصف التائبين على الإطلاق، فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ لأن هذا الرجل لا يصدق عليه أنه تائب على وجه الإطلاق؛ لكنه تائب من ذنب واقع في ذنب آخر.

وهذا القول هو الذي تجتمع فيه الأدلة، فيقال: استحقاق الوصف المطلق فيمن تاب من ذنب مع الإصرار على غيره لا يكون، وأما وصفه بتوبة مقيّدة فهذا صحيح، كالسرقة فإنه إذا قطعت يده فلا بُد من ردّ المال إلى صاحبه، نقول: هذا بالنسبة لحق الله سقط في إقامة الحد عليه، لكن لا بُد من أن يوصل المال إلى صاحبه.

فإن قال قائل: من يشترك في الزنا؟

فالجواب: الواقع أن الزنا يشترك فيه الفاعل والمفعول به، حتى المفعول به يتلذذ ويمجد شهوة، أمّا إذا قلنا: بالإكراه فهذا صحيح أنه عدوان، لا بُد من استحلّاله؛

أَمَّا حَقُّ اللَّهِ فَتُقِيمُ عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَحَقُّ الْعِبَادِ - وَهُوَ الْإِكْرَاهُ وَالْعُدْوَانُ عَلَيْهِ - لَا بُدَّ مِنْ اسْتِحْلَالِهِ.

فإن قال قائل: رجل سرق من شخص مالا، ثم رده عليه وقال: هذه هدية. هل يبرأ منه؟

فالجواب: لا يبرأ، هو رده على أنه هدية، وهذا قبله على أنه هدية، وأن المهدي له عليه منة، وأنه يحتاج إلى مكافأة.

ولو وضع معها ريباً وقال: هذه هدية؛ لكان مُحَادِثاً، ولا بُدَّ، لكن - الحمد لله - يقول: والله أنا في حال السَّفَه، وهذه تقع كثيراً في حال الصَّغَر، وإلا فالكبير ليس بسارق - إن شاء الله -، لكن وهو صغير يسرق من دُكَّان، أو من صاحب له، يأخذ قلماً، أو يأخذ ساعة، فلا بُدَّ أن يوصله إليه ويقول: هذه حق لك عليّ.

ولكن لو قال مثلاً: هذه من إنسان تاب، وقد سرقها منك، ولم يقل: أنا أو غيره، فهذا يصحُّ، والظاهر أنه ينبني على استحلال المجموع.

مسألة: ورد في حديث النبي أن الإنسان يكتب في بطن أمه شقي أو سعيد<sup>(١)</sup>، فلماذا يعمل الإنسان؟

فالجواب: قد احتجَّ الصحابة بهذه الحجة على الرسول عليه الصلاة والسلام لما قال لهم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ففيم العمل؟ - أي: من أجل ماذا نعمل؟ - فقال: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُسَرَّرٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِمَا خُلِقَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

ونقول: أنت مكتوب أنك في الجنة أو في النار بسبب عملك، فاعمل عمل أهل الجنة لتكون من أهلها.

الفائدة العاشرة: أن عقاب الله تعالى شديد؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾. ويتفرع على هذه الفائدة: الحذر من التعرض لعقابه، وقد قال الله عز وجل لنبيه: ﴿نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٤٩)</sup> وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩-٥٠]، وقال في آية أخرى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

الفائدة الحادية عشرة: بيان كمال غنى الله؛ لقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾؛ أي: صاحبه، والطول هو: الغنى، كما شرّحناه.

الفائدة الثانية عشرة: انفراد الله تعالى بالألوهية؛ لقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو أحد أقسام التوحيد الثلاثة التي هي: توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، ويسمى توحيد العبادة، فهو باعتبار العبد توحيد عبادة، وباعتبار المعبود توحيد ألوهية.

الفائدة الثالثة عشرة: بيان أنه لا معبود حق إلا الله، ولا بُدَّ أن نُقَيِّدَ: لا معبود حق إلا الله؛ لأن هناك ما يُعْبَدُ من دون الله وتُسمَّى آلهة، وقد سماها الله تعالى آلهة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَنَفَى﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، لَكِنَّهَا آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ.

الفائدة الرابعة عشرة: أن المصير إلى الله عزَّجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: وجوب التَّحَاكُمِ إلى شريعة الله، تُؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ حيثُ قَدَّمَ الخَبَرَ، وتَقْدِيمُ الخَبَرِ يُفِيدُ الحَضَرَ والاختصاص.

الفائدة السادسة عشرة: الجَمْعُ بين الخَوْفِ والرجاء في السَّيْرِ إلى الله، وَجْهٌ ذلك: أَنَّ الإنسانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ المَصِيرَ إلى الله، وَأَنَّهُ غَافِرُ الذَّنْبِ، وَقَابِلُ التَّوْبِ، وَشَدِيدُ العِقَابِ، يَرَجُو مِنْ وَجْهِهِ، وَيَخَافُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، مَا دَامَ المَصِيرُ إلى مَنْ هَذَا وَصْفُهُ، فَإِنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَرَجُو تَارَةً، وَيَخَافُ أُخْرَى. وَأَيُّهُمَا يُغَلِّبُ؟

قال بعض العلماء: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا، لَا يُغَلِّبُ الرِّجَاءُ؛ فَيَقَعُ فِي الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَلَا يُغَلِّبُ الخَوْفُ؛ فَيَقَعُ فِي القُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، بَلْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا، قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا فَأَيُّهُمَا غَلَبَ هَلَكَ صَاحِبُهُ<sup>(١)</sup>.

وقال بعضهم: يَنْبَغِي أَنْ يَسِيرَ الإنسانُ إلى الله تَعَالَى سَيْرَ الطَّيْرِ، جَنَاحَهُ مُتَسَاوِيَانِ، فَإِنْ مَالَ أَحَدُ جَنَاحَيْهِ، جَنَحَ إلى الجَانِبِ الَّذِي مَالَ إِلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: يَنْبَغِي فِي جَانِبِ الطَّاعَةِ أَنْ يُغَلِّبَ جَانِبَ الرِّجَاءِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُهَا، وَفِي جَانِبِ المَعْصِيَةِ أَنْ يُغَلِّبَ جَانِبَ الخَوْفِ؛ لِثَلَاثِ أَسْبَابٍ فِيهَا، إِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ذَكَرَ شِدَّةَ العِقَابِ فَخَافَ فَارْتَدَعَ، وَإِذَا عَمِلَ صَالِحًا ذَكَرَ الثَّوَابَ والجَزَاءَ وَقَبُولَ اللهِ عَزَّجَلَّ فَغَلَبَ جَانِبَ الرِّجَاءِ.

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/٣٥٩).

وقال بعض العلماء: يَبْغِي أَنْ يُغْلِبَ جَانِبَ الْخَوْفِ فِي حَالِ الصَّحَّةِ، وَجَانِبَ الرَّجَاءِ فِي حَالِ الْمَرَضِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

فالأقوال إذن ثلاثة:

الأول: أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً.

والثاني: أن يُغْلِبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَجَانِبَ الْخَوْفِ إِذَا هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ.

والثالث: أن يُغْلِبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ فِي حَالِ الْمَرَضِ، وَجَانِبَ الْخَوْفِ فِي حَالِ الصَّحَّةِ.

هذه ثلاثة أقوال، والذي يَظْهَرُ أَنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ يُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ فِي حَالِ فِعْلِ الطَّاعَةِ، وَجَانِبَ الْخَوْفِ إِذَا هَمَّ بِمَعْصِيَةٍ هُوَ أَقْرَبُ الْأَقْوَالِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرَدَّعَ نَفْسَهُ إِذَا هَمَّ بِمَعْصِيَةٍ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يُؤَمِّلَ الْقَبُولَ مِنَ اللَّهِ وَالشُّوَابَ إِذَا فَعَلَ الطَّاعَةَ فَيُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ.

وهذا القول ليس جديداً، وهو بقطع النظر عن حالات تعرّض للإنسان، فكما نقول: هذا الشيء مُباحٌ. وقد يكون واجباً، وقد يكون حراماً، فنحن إذا رجحنا يعني ننظر إلى القول من حيث هو قولٌ، لكن قد تعرّض للإنسان حالات حتى إذا همَّ بالمعصية قد يكون يُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ، أَوْ بِالْعَكْسِ، فَالْقَوْلُ مِنْ حَيْثُ هُوَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قول القياس يقتضي أننا نغلب جانب الرجاء إذا فعلنا الطاعة، ونقول: إن الله تعالى لم يوفقنا للطاعة إلا وسيقبلها منا: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال بعض العلماء: مَنْ وَفَّقَ للدعاء فليُشِرْ بالإجابة. وإذا همَّ بالمَعْصِيَةِ فمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِذَا غَلَبَ جانب الخوف سوف يرتدع، لكن هناك حالات تطرأ على الإنسان شيء آخر، فالحالات العارضة نقول فيها: الإنسان طيب نفسه، أمّا القول من حيث هو قولٌ فهذا القول أقرب للقياس.

الفائدة السابعة عشرة: الحثُّ على التوكُّل على الله، والآية دليل على الحثُّ على التوكُّل على الله؛ لأنه لما كان المصير إلى الله، كان ينبغي أن يتعلَّق الإنسان برَّبِّه لا غيره، ما دام المصير إلى الله، فتوكَّل على الله لا على غيره.

الفائدة الثامنة عشرة: اللجوء إلى الله تعالى عند الشدائد، وعند طلب المحبوب، تُؤخذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، فإذا اشتدت بك شدة فلا تلتفت إلى زيد أو عمرو، عليك بالله عز وجل، حتى الشدائد التي أسبابها خفية لا ينفَعك إلا الله: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].



الآية (٤)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرُوكَ تَقَالِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ﴾ [غافر: ٤].

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [غافر: ٤]؛ «ما»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، والجملة هنا جملة خبرية حصرية، فهي خبرية لأنها منفية، وحصرية لأنه حصر الجدل في الذين كفروا: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، أمّا الذين آمنوا فلا يجادلون في آيات الله.

والمجادلة: المنازعة والمخاصمة، مأخوذة من الجدل وهو: قتل الحبل حتى يشتد ويقوى هكذا، هذا أصل الجدل: المنازعة، وهي مأخوذة من الجدل أي: قتل الحبل؛ لأن كل واحد من المتنازعين كأنما يقتل حبلًا لمنزعه، فيكون ذلك أشد في الأحكام.

وقوله: ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [القرآن]، وينبغي أن تُفسر الآيات بما هو أعم، وهذا الذي فسّر المفسر به الآيات يُعتبر قصورًا، ولا ينبغي أن تُفسر العام بأخص منه إلا إذا دلت قرينة قوية على ذلك، وهنا لا دلالة، فالمتنازعون في آيات الله منهم من يُنازع في القرآن، ومنهم من يُنازع في السنة، ومنهم من يُنازع في الخلق.

فمثلًا: الكسوف من آيات الله، وخسوف القمر من آيات الله، ومن الناس

مَنْ يُجَادِلْ فِيهِ، وَيَقُول: ليس هذا من باب تخويف العباد، وأيُّ رابطة بين هذا وبين التخويف، وسببه طبيعيٌّ معلومٌ يُدرك بالحساب؟! فيُجادل في شرع الله، وفي آيات الله، فيقول مثلاً: لماذا كان كذا، وكان في موضع آخر كذا وكذا؟ كقصّة المعريّ الذي جادل في كون اليد تُقطع في رُبع دينار وديتُها حُمس مئة دينار<sup>(١)</sup>، وكقول بعضهم: لماذا يتنقض الوضوء بالريح من أسفل، ولا يتنقض بالريح من أعلى؟ والريح من أعلى هو: الجُشاء، وما أشبه ذلك من المجادلات في الآيات الشرعية!.

ومنهم مَنْ يُجادل في القرآن، يقول: القرآن فيه تناقض! قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] هذا تناقض! فيُجادل.

فالمهمُّ: أن الجدل يكون في الآيات الشرعية الثابتة في القرآن والسنة، ويكون أيضًا في الآيات الكونية، فينبغي أن تُفسر الآيات بما هو أعمُّ ممَّا ذكر المفسر، فنقول: ﴿مَا يُجَادِلُ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ الكونية أو الشرعية ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وأمَّا المؤمنون فلا يُجادلون، المؤمنون يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ولا يُجادلون، عرفنا ذلك من كونه حصر المجادلة في الذين كفروا.

قال رحمه الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة [وهذا تخصيص آخر، فالله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمفسر يقول: من أهل مكة، سبحانه الله! القرآن يُعمم، ونحن نخص، فهذا خطأ وقصور في التفسير، فنقول: ﴿فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ أعمُّ من القرآن، ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعمُّ من أهل مكة، فالذي يُجادل في آيات الله: الذين كفروا من أهل مكة ومن غير أهل مكة، من أهل المدينة، من أهل الطائف، من أهل جدة،

(١) انظر: شرح اللزوميات لأبي العلاء المعري (٢/٢٠٣)، والذخيرة للقرافي (١٢/١٨٥).

من أهل القصيم، من كل مكان، كلهم يُجادلون في آيات الله، إذا كانوا كُفَرًا.

فإن قال قائل: كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ١٢٥] فأمر بالمجادلة؟ هنا أمر: ﴿وَجَدِلْهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿مَا يُجَدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟

فالجواب: مُجادلة الكُفَر تكون بالباطل لإبطال الحق، أما الذين آمنوا فمُجادلتهم تكون لبيان الحق. إذن: المُجادلة هنا غير المُجادلة هناك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَعْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ الفاء: للتفريع على ما سبق، والخطاب في قوله: ﴿فَلَا يَعْزُرُكَ﴾ إمَّا للنبي ﷺ؛ لأنه الذي نزل عليه القرآن، وإمَّا لعموم المخاطبين؛ لأن القرآن نزل للجميع، وأولاهما الثاني؛ لأن القاعدة التفسيرية عندنا: أنه إذا دار الأمر بين كون المعنى عامًا أو خاصًا؛ فإنه يُحمَل على العام؛ لأن الخاص يدخل في العام ولا عكس.

إذن: فلا يعزرك أيها المخاطب، وأول من يدخل في ذلك الرسول ﷺ، و﴿يَعْزُرُكَ﴾ يعني: لا يمددك، ولا تغتر به.

وقوله تعالى: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ التقلب هو: التردد من شيء إلى شيء، ومنه تقلب الإنسان في فراشه من جنب إلى جنب، المعنى: لا يعزرك ترددهم في البلاد يمينًا وشمالًا، وشرقًا وغربًا، للتجارة ولغير التجارة.

قال المفسر رحمه الله: [﴿فَلَا يَعْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ للمعاش سائلين فإن عاقبتهم النار]، ولكن لو قال: فإن عاقبتهم البوار لكان أحسن؛ لأن الله تعالى ضرب مثلًا بمن كان على حالهم بأن الله أهلكتهم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخره.

## من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّ الكُفَّارَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، لقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الفائدة الثانية: حِرْصُ الكُفَّارِ عَلَى إِبْطَالِ الحَقِّ بالمُجَادَلَةِ والمُجَادَلَةِ، فالمُجَادَلَةُ كما في الآية، والمُجَادَلَةُ: إِذَا عَجَزُوا عَنْ إِبْطَالِ الحَقِّ بِالْجِدْلِ أَبْطَلُوهُ بِالْقِتَالِ، كما في آيات أُخْرَى.

الفائدة الثالثة: الحَدَرُ مِنْ مُجَادَلَةِ الكُفَّارِ، إِذَا كَانَ لَيْسَ عِنْدَ الإِنْسَانِ سِلَاحٌ، أَي: لَا تَدْخُلُ مَعَ الكُفَّارِ فِي جِدْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ سِلَاحٌ؛ لِأَنَّكَ سَوْفَ تُهْزَمُ، وَهَزِيمَتِكَ لَيْسَتْ هَزِيمَةُ شَخْصِيَّةٍ لَكِنهَا هَزِيمَةُ للإِسْلَامِ.

الفائدة الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْرِفَ مَعَايِبَ الكُفَّارِ وَأَقْوَاهِمَ حَتَّى يُمَكِّنَنَا أَنْ نُجَادِلَهُمْ؛ لِأَنَّ الجِدْلَ كَمَا قُلْنَا فِيهَا سَبَقُ: المُنَازَعَةُ، كُلُّ وَاحِدٍ يُنَازِعُ الأُخَرَ لِيُقْتَلَ كَلَامُهُ أَمَامَهُ حَتَّى يَشْتَدَّ عَلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعْرِفَ مَا عَلَيْهِ مِنَ البَاطِلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُحَاجَّهُمْ فِيهِ، يَعْنِي: لَا يَكْفِي فِي مُجَادَلَةِ الكُفَّارِ أَنْ تَعْرِفَ الحَقَّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَعْرِفَ البَاطِلَ الَّذِي هَمَّ عَلَيْهِ.

والله عَزَّوَجَلَّ يُجَادِلُ الكُفَّارَ بِمِثْلِ هَذَا يَقُولُ: ﴿اللَّهُ أَذِكُّ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفَتَّرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] والآياتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، اعْرِفْ مَا عِنْدَ عَدُوِّكَ مِنَ البَاطِلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَدْخُضَ حُجَّتَهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا أَنَّهُ لَا يُجَادِلُ فِي الآيَاتِ إِلَّا الكُفَّارَ، وَيَبَيِّنُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ

أَحْسَنَ ۖ وَجَدَلْتُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥] فَأَمَرَ بِالْجِدَالِ مَعَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَمَّ الْجِدَالَ، وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يُجَادِلُ إِلَّا الْكُفَّارَ؟

فالجواب على هذا سهل: أن المجادلة التي أمرنا بها هي المجادلة لإبطال الباطل، وإحقاق الحق، أما الكفار فإتهم يُجادلون لإبطال الحق وإحقاق الباطل.. عكس ما أمرنا به.

الفائدة الخامسة: أن الله تعالى يميل للكفار ويمهلهم، ويمكّنهم من التقلب في البلاد حيث شاؤوا؛ لقوله: ﴿تَقَلَّبُوهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾.

الفائدة السادسة: تحذير المؤمن أن يغرّب بما أنعم الله به على هؤلاء الكفار من التقلب في الدنيا حيث شاؤوا؛ لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾.

الفائدة السابعة: بيان سفه أولئك الذين أغروا واغترّوا بالكفار، بيان سفههم في العقول وضلالهم في الدين، فإن بعض المسلمين ضعفاء الإيمان انبهروا بما عليه الكفار، وظنوا أن ما هم عليه من تحلل الأخلاق، وفساد العقائد والكفر، هو الذي أوجب أن يكونوا على هذا المستوى من التقدم المادّي، فانبهروا بذلك، وانفلتوا من الدين، وضيعوا مشيئتهم ومشيئة الحماة.. صاروا كالغراب، يقولون: إن الغراب أعجبه مشيئة الحماة - ومعروف الفرق بين مشيئة الحماة ومشيئة الغراب -، فقال: سأمشي مثل مشيئة الحماة. فأراد أن يفعل ولم يدرك شيئاً، أراد أن يعود إلى مشيئته الأولى، فعجز أن يعرفها، فضيع المشيئة الأولى والثانية!.

وهؤلاء المساكين الذين انبهروا بما عليه الكفار من القوة المادّية، وما زخرف لهم من الدنيا، ضيعوا دينهم ولم يصلوا إلى ما عليه هؤلاء من الدنيا، وقد قال الله

تعالى لَنَبِيِّهِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ مَهْمَا طَالَ الْأَمَدُ بِهِؤْلَاءِ الْكُفَّارِ، فَإِنْ مَا لَهُمُ الْهَلَاكُ وَالْبَوَارِ، وَانظُرُوا الْآنَ: كُلُّ الْكُفَّارِ السَّابِقِينَ ذَهَبُوا إِلَى النَّارِ؛ لِأَنَّنا نَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ فِي النَّارِ، فَهؤْلَاءِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ انْتَقَلُوا مِنَ الدُّنْيَا الَّتِي جُعِلَتْ لَهُمْ جَنَّةٌ إِلَى النَّارِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وقد كان ابن حجر العسقلاني كان قاضي القضاة في مصر -يعني: كبير القضاة- وكان إذا مشى يمشي على عربة تجرّها الخيول أو البغال في موكب، فمرّ ذات يوم بيهودي سمّان -يعني: يصنع السمن- أو زيات -ومعلوم أنّ الزيات والسمّان تكون ثيابه مملوثة بالزيت وأحواله سيئة- فأشار إلى الموكب فوقف، فقال لابن حجر: إنّ نبيكم يقول: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»<sup>(١)</sup>، وكيف يتفق هذا القول مع حالي وحالك، فأنت الآن مسلم وفي هذه الرفاهية، وفي هذا الموكب العظيم، وهو يهودي وتعمس، في زيت أو سمن يلوّث ثيابه ويديّه وكل شيء، فقال له ابن حجر رحمه الله تعالى: «نعم، لكن ما أنت فيه من البؤس هو جنة بالنسبة لما ستؤول إليه إذا مت». لأنه إذا مات يكون في النار، فهذا جنة بالنسبة للنار، «وأما أنا فنعيمي هذا بالنسبة للجنة يُعتبر سجنًا»؛ لأنّ نعيم الجنة أعلى بكثير من هذا، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله<sup>(٢)</sup>، سبحان الله! تبين له الأمر بكلمة بسيطة.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/٥٤٦).

فأقول: إن هؤلاء الكُفَّارَ مَهْمَا زُيِّنَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- سَيُؤْوِلُونَ إِلَى عَذَابٍ، وَكَمَا نَعْلَمُ جَمِيعًا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا آلَ إِلَى عَذَابٍ بَعْدَ النَّعِيمِ صَارَ الْعَذَابَ عَلَيْهِ أَشَدَّ، لَكِنْ لَوْ انْتَقَلَ مِنْ عَذَابٍ إِلَى عَذَابٍ صَارَ أَهْوَنَ، أَمَّا مَنْ نَعِيمَ إِلَى عَذَابٍ فَصَعَبٌ جِدًّا، ﴿فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾.

إِذَنْ: هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ وَيَجِيئُونَ كُلَّ هَؤُلَاءِ لَا يَغْرُنُكُمْ، لَا سِيَّيَا إِذَا كَانَ تَرُدُّهُمْ فِي الْبِلَادِ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ، وَعُلُوءًا عَلَى الْخَلْقِ، وَزَعْمًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيُدْبِرُونَ النَّاسَ، وَسَيَسْتُونُ نِظَامًا عَالَمِيًّا كَمَا يَقُولُونَ، فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ مَا لَهُمُ الْفُشْلُ إِذَا نَحْنُ صَدَّقْنَا اللَّهَ، إِذَا نَحْنُ صَدَّقْنَا اللَّهَ فَإِنَّ كَيْدَهُمْ لَا يَضُرُّنَا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿[الطارق: ١٥-١٦] يَعْنِي: كَيْدًا أَعْظَمَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكَيْدَ الْوَاقِعَ مِنَ اللَّهِ أَشَدُّ مِنَ الْكَيْدِ الْوَاقِعِ مِنَ الْبَشَرِ.

مسألة: بعض الناس يقول: لا يجوز للإنسان أن يقول: إن الكُفَّارَ كلهم في النار، نقول: الذي بلَّغته الدَّعْوَةُ نَشَهِدُ أَنَّهُ فِي النَّارِ، وَالَّذِي لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ لَا نَشْهَدُ لَهُ؟

فالجواب: لا، بل نقول: كلُّ كافرٍ في النار، لكن مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ فَلَا نَجْزِمُ لَهُ بَجَنَّةً وَلَا نَارًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَافِرٌ إِلَى الْآنِ، وَنَقُولُ: أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا بِخِلَافِ الَّذِي يَنْتَسِبُ لِلْإِسْلَامِ، وَفَعَلَ مَا يُكْفِرُ جَاهِلًا فَقَدْ سَبَقَ لَنَا الْقَوْلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَذَكَرْنَا لَكُمْ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا نَاطَرَ الْجَهْمِيَّةَ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ، وَأَصْرُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ قَالَ: «أَنَا أَعْلَمُ لَوْ أَنَّني لَوْ قُلْتُ بِمَا تَقُولُونَ لَكُنْتُ كَافِرًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ كُفَّارًا عِنْدِي لِأَنَّكُمْ مُتَأَوِّلُونَ»<sup>(١)</sup> هَذَا وَهُوَ يُنَاطِرُ الْجَهْمِيَّةَ وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ، ذَكَرَ هَذَا فِي كِتَابِ الْإِسْتِغَاثَةِ.

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ١٠).



وهذا يُدُلُّ على مَسْأَلَة يَشْتَدُّ فِيهَا بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ فِي مَسْأَلَة فِعْلٍ مَا يُكْفِّرُ،  
 حَيْثُ يُكْفِرُونَ النَّاسَ مُطْلَقًا بِلا بَيِّنَةٍ، وَالْمَسْأَلَة هَذِهِ كَمَا قُلْنَا فِيهَا سَبَقَ خَطِيرَةٌ، فَالآنَ  
 شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ قُلْتُ بِقَوْلِكُمْ لَكُنْتُ كَافِرًا؛ لِأَنِّي أَعْلَمُ  
 أَنَّ هَذَا خِلَافَ الْحَقِّ، أَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ تَكْفُرُونَ عِنْدِي لِأَنَّكُمْ مُتَأَوِّلُونَ؛ وَهُمْ جَهْمِيَّةٌ،  
 مَعَ أَنَّ إِطْلَاقَ الْكُفْرِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ عُمُومًا جَاءَ ذَلِكَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، وَكَمَا  
 نَقَلْتُ لَكُمْ أَيْضًا عَنِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا لَا نَكْفُرُ  
 الَّذِينَ اتَّخَذُوا صَنَمًا عَلَى قَبْرِ الْبَدَوِيِّ وَعَبْدِ الْقَادِرِ؛ لِجَهْلِهِمْ وَعَدَمِ مَنْ يُنَبِّهُهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ،  
 فَيَقُولُونَ: الْفَرْعُ يُعْذَرُ فِيهِ بِالْجَهْلِ، وَالْأَصْلُ لَا يُعْذَرُ، فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، أَوْلَى أَنْ  
 تَقْسِيمَ الدِّينِ إِلَى أَصْلِ وَفَرْعٍ يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ<sup>(٢)</sup>: هَذَا بَدْعَةٌ، لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ  
 وَلَا فِي السُّنَّةِ تَقْسِيمَ الدِّينِ إِلَى أَصْلِ وَفَرْعٍ، وَإِنَّمَا حَدَّثَ هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُتَكَلِّمِينَ بَعْدَ  
 الْقُرُونِ الْمُفْضَلَةِ، قَسَمُوا الدِّينَ إِلَى أَصْلِ وَفَرْعٍ، وَقَالَ: إِنْ هَذَا التَّقْسِيمُ يَنْتَقِضُ بِأَنَّ  
 الصَّلَاةَ عِنْدَهُمْ فَرْعٌ، وَهِيَ مِنْ أَصْلِ الْأَصُولِ، وَبِأَنَّ بَعْضَ الْمَسَائِلِ الَّتِي فِيهَا الْخِلَافُ  
 فِيهَا يُسْمَوْنَ أَصُولًا لَا يُكْفَرُ الْمُخَالَفُ فِيهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّرَاطِ، وَفِي الْمِيزَانِ، وَفِي  
 عَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِي رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ رَبِّهِ، كُلُّ هَذِهِ مِمَّا يُسْمَوْنَ أَصُولًا، وَمَعَ ذَلِكَ فَفِيهَا  
 الْخِلَافُ، وَإِنْ كَانَ الْخِلَافُ فِي الْأَصْلِ لَمْ يَرِدْ، لَكِنْ فُرُوعَ الْأَصُولِ فِيهَا الْخِلَافُ،  
 فَهَذِهِ الْمَسَائِلُ يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُحَرِّرَ فِيهَا الْقَوْلَ قَبْلَ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِمَا  
 لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ لَهُ.



(١) انظر: الدرر السننية في الأجوبة النجدية (١/١٠٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٦).

## الآية (٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [غافر: ٥] هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ﴾ [غافر: ٤] يَعْنِي: فَلْيَنْظُرْ عَاقِبَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ حِينَ كَذَّبُوا. وقوله: ﴿قَبْلَهُمْ ﴾ الضمير يعود على الذين كَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ.

وقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفُوا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ونوح بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ كَانُوا هُمْ قَوْمَهُ، أَمَّا حِينَ تَعَدَّدَتِ الْأَقْوَامُ فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ لَا يُبْعَثُ إِلَّا إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الذين ذكروا من الأنبياء في القرآن كلُّهم  
رُسل؟

فالجواب: الدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا  
عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، فكلُّ مَن قصَّه الله علينا فهو رسولٌ.

فإن قال قائل: هل يُوجد دليل على عدد الأنبياء والرُّسل؟

فالجواب: في حديث أبي ذرٍّ أنهم كانوا مئة وعشرين ألفاً منهم ثلاث مئة وبضعة  
عشر رسولاً والباقي أنبياء، لكن الحديث بعض العلماء قالوا: إنه غير صحيح. وإن  
كان ابن حبان صحَّحه<sup>(١)</sup>، فالله أعلم. ليس هناك شيء يركن إليه الإنسان في العقيدة  
بأن عددهم كذا أو كذا، لا الأنبياء ولا الرُّسل.

وقوله: ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ جمع حِزْب وهي الطائفة، يعني: الطوائف، ﴿مِن  
بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قوم نوح.

يقول المفسر رحمه الله: [كعادي وثمود وغيرهما] فماذا أغنى عنهم التكذيب،  
يقول الله عز وجل: ﴿فَأَخَذْتُمُ﴾.

وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يعني: كلُّ أمةٍ همَّت برسولهم،  
أي: بالذي أرسل إليهم، ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ هذه متعلقة بـ ﴿وَهَمَّتْ﴾، أي: همُّوا ليقتلوه،  
واللَّام هنا بمعنى الباء؛ أي: بأن يأخذوه فيقتلوه، ومنهم مَن قتلهم بالفعل مَن قتل  
النبيِّين بغير حق.

وقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ هذه تُفسر معنى الجِدال فيما

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٣٦١).

سبق في قوله: ﴿ مَا يُجَدِّدُ فِي عَائِنَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فجادلوا بالباطل؛ أي: جعلوا الباطل سلاحاً لهم ﴿ لِيُدْحِضُوا ﴾ [يزيلوا] به الحق، فكانوا يأتون بالباطل يَحْتَجُّون به على الحق لإدحاضه.

واعلم أن الذين يأتون بالباطل ليدحضوا به الحق لا يأتون بالباطل على وجهه، بل يُزخرفون القول له كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولهذا نجد الذين يُجادلون بالباطل يأتون بعبارات إذا رآها الإنسان ظنّها حقاً، كأنها السراب للظّمآن ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [النور: ٣٩].

وكما قال بعضهم:

حُجِّجُ تَهَافُتُ كَالزُّجَاجِ نَحَالُهَا      حَقًّا وَكُلُّ كَاسِرٍ مَكْسُورٌ<sup>(١)</sup>

فهم يأتون بزخرف القول، الزخرف يعنى: القول المنمق المحسن المزين لأجل إدحاض الحق.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ الفاء هنا للسببية؛ أي: فبسبب ما قاموا به من المجادلة بالباطل والتكذيب أخذتهم، والضمير الفاعل يعود على الله سبحانه وتعالى، والمفعول يعود على هؤلاء المكذبين.

فقوله: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [بالعقاب] ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ فسر المفسر الأخذ هنا بالعقاب لقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي: معاقبتي لهم، وكيف هنا للتعجب والتقرير وللتعظيم أيضاً، أي: فكان عقابي عظيماً في كفيته، وفي وقوعه

(١) عزاه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/٤) للخطابي.

مَوْقِعِهِ، وَفِي شِدَّتِهِ، فَإِنَّهُ عَذَابٌ لَمْ يُبْقِ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَالاسْتِفْهَامُ لَهُ عِدَّةٌ مَعَانٍ يُعَيِّنُهَا السِّيَاقُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَخْذِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؟

فَالْجَوَابُ: الْأَخْذُ يَأْتِي بِقَرِينَةٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أَيِ أَهْلَكْتُهُمْ، أَمَّا أَخْذُهُمْ هُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ يَكُونُ يَأْخُذُونَهُمْ لِيَحْبِسُوهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، يُثْبِتُوكَ يَعْنِي: يَحْبِسُونَكَ، فَتَكُونُ ثَابِتًا فِي مَكَانٍ لَا تَتَعَدَّاهُ، أَوْ يَقْتُلُوكَ، أَوْ يُخْرِجُوكَ مِنَ الْبَلَدِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ فَيَكُونُ إِهْلَاكُهُمْ فِي مُقَابِلِ مَا يُرِيدُونَهُ مِنْ إِهْلَاكِ الرَّسُولِ، الرَّسُولِ ﷺ لَمَّا هُمُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ أَشَارَ عَلَيْهِمُ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ قَالَ: لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْتُلُوا قُرْشِيًّا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشْرَةُ سُبَّانٍ أَقْوِيَاءَ وَأَعْطَوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَيْفًا، فَإِذَا خَرَجَ مُحَمَّدٌ فَلْيَقْتُلُوهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى يَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ فَلَا تَسْتَطِيعُ قُرَيْشٌ أَنْ تُطَالِبَ بِهِ، فَيَخْضَعُوا لِأَخْذِ الدِّيَّةِ<sup>(١)</sup>. إِذَنْ هُمُوا بِقَتْلِهِ، وَالْيَهُودُ هُمُوا بِقَتْلِهِ فِي قِصَّةِ بَنِي النَّضِيرِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلِهِ: ﴿عِقَابٍ﴾ قَدْ يُشْكَلُ عَلَى النَّاضِرِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ كَيْفَ كَانَ مَجْرورًا مَعَ أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ أَوْ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ لَيْسَ بِمَجْرورٍ، وَأَنَّ الْأَصْلَ عِقَابِي، فَحُذِفَتِ الْيَاءُ تَخْفِيفًا وَالْكَسْرَةَ قَبْلَهَا دَلِيلًا عَلَيْهَا.

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقِعِهِ] وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ الْاسْتِفْهَامَ تَقْرِيرِيٌّ،

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/٤٨٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/١٩٠).

وإذا قلنا: للتعظيم يكون المعنى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أعظم عقابي، وأشدّه حيث أزالهم عن آخرهم!

### من فوائد الآية الكريمة:

**الفائدة الأولى:** أن الله تعالى أعذر إلى الخلق بإرسال الرُّسل مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ؛ لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسل؛ لقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهذا يدلُّ على أن هناك قولاً قاله الأنبياء فكذَّبه هؤلاء.

**الفائدة الثانية:** أن نوحًا هو أوَّل الرُّسل؛ لقوله: ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، فجعل الأحزاب المكذِّبين كلهم من بعد قوم نُوح، وهذا يدلُّ على أن نوحًا هو أوَّل الرُّسل، وهذا أمر معلوم مُتَقَرَّرٌ في عدَّة آيات وفي الأحاديث أيضًا، وبه نعلم أن مَنْ زعم أن إدريسَ قبل نُوحٍ فإنه خاطيء، ولا وجه لقوله.

**الفائدة الثالثة:** بيان ما تنطوي عليه صدور المكذِّبين للرُّسل من الهَمِّ بقتلهم، يعني أن المكذِّبين للرُّسل لم يقتصرُوا على أن يكذبوا فقط، بل همُّوا بالقتل، والقتل والاعتيال وما أشبه ذلك هو سلاح العاجز، وكذلك السَّجن هو سلاح العاجز؛ ولهذا قال فرعونُ لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَا جَعَلْنَاكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال أبو إبراهيم (آزر): ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦].

فالسَّجن والقتل والاعتيال والسَّبُّ والشَّتْمُ كله سلاح العاجز؛ لأنَّ القادر على دَفْعِ الحُجَّةِ هو الذي يَدْفَعُ الحُجَّةَ بِمِثْلِهَا بِحُجَّةٍ، أمَّا أن يَسْتَعْمِلَ سُلْطَنَهُ فهذا يدلُّ على عجزه.

**الفائدة الرابعة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾؛ لأنَّ الفاء للسببية،

وإثبات الأسباب حَقٌّ، وهو مُقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ، فالإنسان لا يُؤَلِّدُ له مثلاً إلا بسبب إذا تزوج وجامع وأنزل وُلِدَ له، فالله عَزَّجَلَّ قَرَنَ الْمُسَبِّبَاتِ بِأَسْبَابِهَا، وهو مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ.

والناس في الأسباب ثلاثة أقسام: طرفان ووسط.

فقسّم أنكر الأسباب، وقال لا تأثير لها، وما يحصل بالسبب فإنه حاصل عنده لا به، والسبب أمانة على حلول وقت الحادث، وعلامة فقط على حصول الحادث، أو على حلول وقته، فانكسار الزجاج بالحقير إذا أرسل عليها ليس هو الذي كسرها، لكن الله قدر انكسارها عند وجود الصدمة فقط وليس للحجر أي تأثير! فالأشياء تحصل عند الأسباب بغير الأسباب، لكن السبب جعله الله أمانة وعلامة على حلول وقت الحادث؛ ولهذا يقولون: لو أن أحداً أثبت تأثير الأسباب لكان مُشْرِكاً؛ لأنه أثبت مع الله خالقاً فاعلاً.

والقسم الثاني، الطرف الثاني يقول: بل الأسباب ثابتة تأثيرها، وهي مؤثرة بنفسها؛ لأنها هي القوة الفاعلة، ولا علاقة لله بها، وهذا يشبه مذهب القدرية وهو قول الفلاسفة، يقولون: هكذا المسألة طبائع، من طبيعة هذا الشيء أن يحدث به هذا الشيء، وهذا لا شك أنه خطأ، وأنه نوع من الشرك.

والقسم الثالث: وسط يقول: إن للأسباب تأثيراً، ولكن لا بنفسها، بل بما أودع الله فيها من القوة المؤثرة، وهذا الذي دلّ عليه المنقول والمعقول وهو الحق.

والردُّ على الطبايعيين الذين يقولون: إن الأسباب مؤثرة بطبيعتها أن الله تعالى قال لنار إبراهيم، وهي محرقة، قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِنْبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً، فخرجت عن طبيعتها.

إِذَنْ: لَيْسَتْ الطَّبَائِعُ قُوَّةً مُؤَثَّرَةً بِنَفْسِهَا، وَلَكِنْ بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْقُوَى الْمُؤَثَّرَةِ، وَالْأَدَلَّةُ عَلَى تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ سَبَبٌ لِلْفَوْزِ، وَالْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ سَبَبٌ لِلخُسْرَانِ وَهَكَذَا، فَلْأَسْبَابُ ثَابِتَةٌ شَرْعًا وَلَا شَكَّ فِي الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ وَالْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، فَالْآيَةُ الَّتِي مَعَنَا: ﴿فَأَخَذْتُمُوهُمْ﴾ تَفِيدُ إِثْبَاتَ الْأَسْبَابِ وَتَأْثِيرِهَا، وَلَكِنْ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: تَحْرِيمُ الْمُجَادَلَةِ بِالْبَاطِلِ لِإِذْحَاقِ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وَيَنْفَرَعُ عَلَى هَذَا: أَنَّ هَذِهِ الْعَادَةَ مِنْ عَادَاتِ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ، وَمِنْ الْمُجَادَلَةِ بِالْبَاطِلِ لِإِذْحَاقِ الْحَقِّ أَنْ يُجَادِلَ الْإِنْسَانَ لِلانْتِصَارِ لِقَوْلِهِ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا فِي الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ وَغَيْرِهِمْ، يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ مِنْ أَجْلِ الْانْتِصَارِ لِلْقَوْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا كَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦]، فَمَنْ جَادَلَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْصُرَ قَوْلَهُ لَا أَنْ يَنْصُرَ الْحَقَّ فَفِيهِ شَبَهُ مِنَ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ.

ثُمَّ إِنَّ فِيهِ - أَيْ فِي الَّذِي يُجَادِلُ لِنَصْرِ قَوْلِهِ فَقَطْ - أَنَّهُ قَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ جَدًّا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْلَهُمْ وَانْبَصَرَهُمْ كَمَا لَرِ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْصُونَ ﴿[الأنعام: ١١٠]، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا جَادَلَ لِنَصْرَةِ قَوْلِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَحِينَئِذٍ يُبْتَلَى بِهَذِهِ الْعَاهَةِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ اللَّهَ يُقَلِّبُ فُؤَادَهُ وَبَصْرَهُ حَتَّى لَا يُبْصِرَ الْحَقَّ، وَلَا يَعْبِي الْحَقَّ وَيَكْتُمُ الْحَقَّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ قَبُولَ الْحَقِّ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، لَا يَتَرَدَّدُ فِي قَبُولِهِ، كَمَا كَانَ

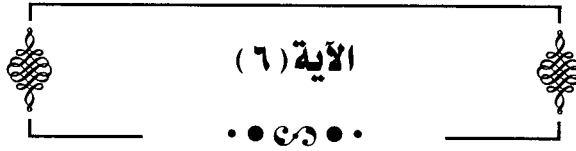


الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا حَرَامٌ؛ امْتَثَلُوا، وَكَفُّوا عَنْهُ فِعْلًا فِي الْحَالِ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَهَذَا شَيْءٌ لَهُ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ وَبِذَلِكَ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ عَقِيدَةً وَقَوْلًا وَعَمَلًا.

الفائدة السادسة: بيان شدة عقاب الله؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: ما أعظمه! وما أشده! وما أحسنه؛ لأنه وقع موقعه!.

الفائدة السابعة: أنه يُحْشَى من مُعَاجَلَةِ الْعُقُوبَةِ؛ لِأَنَّ الْعُقُوبَةَ جَاءَتْ بِالْفَاءِ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ، ولأن المُسَبَّبَ يَكُونُ بَعْدَ السَّبَبِ مُبَاشَرَةً، فالإنسان العاصي عليه الخطر من مُعَاجَلَةِ اللَّهِ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر: ٦].

•••••

قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾: أي مثل ذلك الأمر، وهو وقوع العقاب، ﴿ حَقَّتْ ﴾ ووجبت ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾.

قال المفسر رحمه الله: [أي: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ الآية] ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]، ففسر كلمة الله بذلك، ولكن في هذا نظراً واضحاً؛ لأن الله يقول: ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي: حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ التِي ثَبَّتَتْ أَرْزَاقاً هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ النَّارِ.

وقوله: ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: وجبت عليهم، والكلمة هي قوله: ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾، ولهذا قال المفسر إنها: [بدل من ﴿ كَلِمَتُ ﴾] وإذا كانت بدلاً من ﴿ كَلِمَتُ ﴾ كيف نقول: إن الكلمة هي قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾، إذا كانت هي البدل، فابن مالك يقول:

التَّابِعُ الْمُقْصُودُ بِالْحُكْمِ بِلَا  
وَإِسِطَةٍ هُوَ الْمَسْمِيُّ بَدَلًا<sup>(١)</sup>

(١) الألفية (ص: ٤٩).

فقوله: «التابع المقصود بالحكم بلا واسطة» هذا البديل.

إِذْنٌ: فالمقصود بالحكم المقصود بقوله: ﴿كَلِمَتٌ رَبِّكَ﴾ هو قوله: ﴿أَنْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ وإذا وَجَدت في القرآن أصحاب النار فالمراد بها أصحابها المُخَلَّدون؛ لأن الصُّحْبَةَ تَقْتَضِي المُلَازِمَةَ، ولا يُمكن أن تكون أصحاب النار لمن تُوَعَّدوا بدخول النار، ثم يُخْرَجون منها، إنما تكون لمن هم أهل النار الذين هم أهلها وأصحابها.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات تقدير الله عزَّجَلَّ الأشياء، أي: إثبات أن الأشياء قد كُتِبَتْ من قبل؛ لقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهذا لا يُنافي إرسال الرُّسُل، ولا يُنافي الأمر بما أمر به، ولا النهي عما نهى الله عنه؛ لأن الله تعالى أعطى الإنسان عقلاً ورُشداً وبصيرةً يَعْرِف كيف يتصرَّف، فإذا أُرْسِلت الرُّسُل مع الفِطْرَةِ الأولى ثم عاند فَقَدْ قامت عليه الحُجَّة.

الفائدة الثانية: إثبات الكلام لله عزَّجَلَّ؛ لقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: أن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع وبحرف، يعني أنه يُسْمَع ويُفْهَم بحروف مُرتَّبة، فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، نَعْلَم أن الهمزة قبل اللام، واللام قبل الحاء، والحاء قبل الميم، والميم قبل الدال، وهكذا، حروف مُرتَّبة لم تأتِ جُملة واحدة، وإذا كانت مُرتَّبة لزم من ذلك حدوث الكلمات؛ لأن ما بعد الأوَّل واقع بعده فيكون بهذا دليلاً على حدوث كلام الله عزَّجَلَّ، وليس المراد أصل الصِّفَّة؛ لأن أصل الصِّفَّة أزلِّيُّ لم تكن حادثه من قبل، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يزل بصفاته، لم يزل عليماً، لم يزل مُتكلِّماً، لم يزل سميعاً، لم يزل قديراً، لكن الصِّفَّة قد تُحْدِث شيئاً فشيئاً باعتبار آحادها وأفرادها.

أما ما كانت صفة معنوية فالحدث ليس لها، ولكن لتعلقها، فسَمِعُ الله عَزَّجَلَّ لا نقول: إنه حادث؛ لأنه لم يزل، لكن الذي يحدث هو المسموع؛ الكلام يحدث لأنه نوع من الفعل.

وعلى هذا فنقول: في الآية إثبات الكلام لله تعالى، ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بحرف مرتب وصوت مسموع.

فإذا قال قائل: لو قلت: إنه بحرف مرتب لزم أن يكون كلامه مشابهاً لكلام المخلوقين؟

فالجواب: لا يلزم؛ لأن الكلام لا يمكن أن يكون كلاماً إلا بهذا، لكن صوت الربِّ عَزَّجَلَّ الذي يُسمع ليس كأصوات المخلوقين؛ لأن الصوت هو صفة، لكن الحروف صفة الكلام الذي تكلم به، وهي لا يمكن أن تكون كلاماً إلا بترتيب بعضه بعد بعض.

فإن قال قائل: لماذا لا يكفر من يقول: إن القرآن محدث؟

فالجواب: لا يكون كُفراً لأن لهم تأويلاً، يقولون: محدث إنزاله، ليس الذُّكرُ المُحدث بل إنزاله، ولا شك أن هذا إقحام لكلمة إنزال في غير دليل، مثل قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] قالوا: المعنى: وجاء أمر ربك، فأقحموا أمر، فنظراً لهذا التأويل لا نحكم بكفرهم.

فإن قال قائل: لا يُنابي هذا كتابته في اللوح المحفوظ؟

فالجواب: لا يُنابي ذلك، لأنه ليس هناك دليل قطعي يطمئن الإنسان إليه بأن القرآن كتب أولاً في اللوح المحفوظ.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [الرُّخْف: ٤]، فإنه يُمكن أن يكون المراد به ذِكْر هذا الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، ومعلوم أن زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ليس فيها القرآن، وإنما فيها التَّحَدُّثُ عنه وذكْره، فليس هناك دليل قَطْعِيٌّ يَطْمَئِنُّ الْإِنْسَانُ إِلَيْهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وإذا ثَبَتَ هذا فلا يُنَافِي أن يكون كلام الله تعالى به مُحدَّثًا بمعنى أنه يَتَكَلَّمُ بِهِ لِيُلْقِيَهُ عَلَى جِبْرِيلَ، وإن كان مَكْتُوبًا مِنْ قَبْلُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

الفائدة الثالثة: عناية الله عزَّجَلَّ بِرَسُولِهِ ﷺ، وجهه قوله: ﴿ رَبِّكَ ﴾، حيث أضاف إليه الرُّبُوبِيَّةَ، وهذه الرُّبُوبِيَّةُ خَاصَّةٌ؛ لِأَنَّ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ عزَّجَلَّ نَوْعَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، فالعامةُ الشامِلةُ لكل شيء، والخاصةُ المُختَصَّةُ بما أُضِيفَتْ لَهُ، اسْتَمِعَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا ءَأَمَّنَّا رَبِّبِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١١٦) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] فِي هَذِهِ رُبُوبِيَّةَ عَامَّةٍ وَرُبُوبِيَّةَ خَاصَّةٍ، الْعَامَّةُ ﴿ رَبِّبِ الْعَالَمِينَ ﴾، وَالْخَاصَّةُ ﴿ رَبِّبِ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ عَبَدَ رَبِّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٩١]، الْأَوَّلُ: ﴿ رَبِّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ ﴾ يَعْنِي: مَكَّةَ الَّتِي حَرَّمَهَا، رُبُوبِيَّةَ خَاصَّةً، ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ هَذِهِ عَامَّةٌ.

إذْنُ: قَوْلُهُ: ﴿ رَبِّكَ ﴾ مِنْ بَابِ الرُّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ، وَلَا شَكَّ أَنْ أُخْصِرَ رُبُوبِيَّةَ تَكُونُ لِلْمَرْبُوبِينَ هِيَ رُبُوبِيَّةُ الرُّسُلِ، وَلَا سِيَّمَا أُولِي الْعِزْمِ مِنْهُمْ، وَهِيَ خَمْسَةٌ: مُحَمَّدٌ، إِبْرَاهِيمُ، مُوسَى، عِيسَى، نُوحٌ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الفائدة الرابعة: خُلُود الَّذِينَ كَفَرُوا فِي النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ أَنْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾،

وهذا الخلودُ أبديٌّ، جاء ذلك في آيات ثلاث في القرآن في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجنِّ.

الفائدة الخامسة: التحذير مما يُوجب غضب الله وسخطه؛ لئلا يكون الرجل قد حَقَّت عليه كلمة الله عزَّجَل؛ لأن قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي حصل لهؤلاء المكذِّبين يُحقُّ كلمة الله عزَّجَل.



(الآية ٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ [غافر: ٧].

•••••

قوله: ﴿الَّذِينَ﴾: مُبْتَدَأُ مُسْتَأْنَفٍ، وَيَجِبُ الْوُقُوفُ عَلَى مَا قَبْلَهُ ﴿أَنْتَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ وَوَصَلْتَ لظَنَّ الظَّانُّ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ هُمُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ، وَهَذَا فِسَادٌ لِلْمَعْنَى.

قال رحمه الله: [﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ مُبْتَدَأٌ]، وَجُمْلَةٌ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ العرش: هو عرش الرحمن عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ أَكْبَرُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَعْظَمُهَا، وَأَوْسَعُهَا، وَأَشْرَفُهَا فِيمَا عَدَا الْمُكَلَّفِينَ، هَذَا الْعَرْشُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّا لَمْ نُخْبَرَ عَنْ قَدْرِهِ، وَلَا نَعْلَمُ مِنْ أَيِّ مَادَّةٍ هُوَ، أَهْوَ مِنْ نُورٍ أَوْ خَشَبٍ أَوْ حَدِيدٍ؟ لَا نَعْلَمُ؛ لِأَنَّا لَمْ نُخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ نَعْلَمُ عَنْ لَوْنِهِ، وَلَمْ نَعْلَمُ عَنْ مَلَمَسِهِ، أَلَيْسَ هُوَ أَمْ قَاسٍ؟ كُلُّ هَذَا لَا نَعْلَمُهُ، إِنَّمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ عَرْشٌ عَظِيمٌ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ، اسْتَوَى عَلَيْهِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ، وَلَهُ حَمَلَةٌ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ حَمَلَتَهُ الْآنَ أَرْبَعَةٌ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ ثَمَانِيَةً، وَمِنْ جُمْلَةِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِسْرَافِيلُ الْمُوَكَّلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، فَإِنَّهُ أَحَدُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ.

ونحن لا نعلم صفات هؤلاء الذين يحملون العرش، لكن نعلم أنهم ملائكة،  
أما كيف هم فإن ذلك موقوف على ما جاء به السَّمْع.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ (من) معطوفة على ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ أي: والذين حوله.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ عطف عليه] على المبتدأ؛ لأن المفسر قال:

[مبتدأ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ عطف عليه] أي: على المبتدأ، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾.

قال المفسر رحمه الله: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبره] خبر المبتدأ وما عطف عليه، يعني:

حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالَّذِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَالتَّسْبِيحُ تَنْزِيهُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ  
عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ أَوْ مُمَاتِلَةٍ لِلْمَخْلُوقِينَ.

والباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للملابسة؛ أي: تسييحًا ممزوجًا بالحمد، فهم

مُسَبِّحُونَ حَامِدُونَ. قال المفسر رحمه الله: [أي: يقولون: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ]،

وقد بين الله عز وجل أن ذلك دائم مستمر، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩٠-٢٠٠]﴾، أما

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

[فصلت: ٣٨].

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾] تعالى ببصائرهم. أي: يُصَدِّقُونَ

بِوَحْدَانِيَّتِهِ [الإيمان في اللغة الإقرار بالشيء].

وأقول: بل الإقرار بالقلب واللسان وليس هو مجرد التصديق فقط، قد

لا يُعْرَضُ عَلَى الْإِنْسَانِ شَيْءٌ فَيُؤْمِنُ بِهِ، كَمَا إِذَا شَاهَدَ شَيْئًا بَعَيْنَهُ فَإِنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ وَإِنْ

لَمْ يُعْرَضْ عَلَيْهِ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ فِي اللُّغَةِ التَّصَدِيقُ. فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ تَفْسِيرَ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ



يلزم أن يكون مُطابقاً له، ومن المعلوم أنك تقول: آمَنْتُ به. وتقول: صدَّقْتُ به. وتقول: آمَنْتُ له. وتقول: صدَّقْتُ له. ولا تقول: آمَنْتُهُ. وهذا يدلُّ على أن الإيمان ليس هو التَّصديق.

وقد نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (الإيمان)، فقال: «إن الإيمان بمعنى التَّصديق ليس بصحيح»<sup>(١)</sup> وإن كان قد يأتي بمعناه، ولكن حقيقة أنه ليس إِيَّاه؛ فهو إقرار بالقلب، ونُطق باللسان.

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يُؤْمِنُونَ بوجوده عزَّجَلَّ ووحدانيته، وبكل ما يَسْتَحِقُّهُ من أسماء وصفات وغيرها إيماناً كاملاً؛ والإيمان بالله يتضمَّن: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، وانفراده بذلك.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يطلبون المَغْفِرَةَ للذين ءَامَنُوا، وقد تقدَّم مراراً أن المَغْفِرَةَ هي سِتْرُ الذَّنْبِ والتَّجَاوُزُ عنه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ جُمْلَةً ﴿رَبَّنَا﴾ مقول لقول محذوف فسره المفسر بقوله: [يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾] ربَّنَا؛ أي: يا ربَّنَا، وحذفت منه (يا) النداء لكثرة الاستعمال وتيمناً بالبداءة باسم الله عزَّجَلَّ، أو بوضفه بالربوبية.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك كل شيء وعلمك كل شيء]، فمعنى ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحطت به رحمة، وأحطت به علماً، فما بلغه علم الله بلغته رحمته، ولكن الرحمة إمَّا عامَّة، وإمَّا خاصَّة كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

(١) كتاب الإيمان (ص: ١٠١).

وَجُمْلَةٌ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هي عبارة عن تَوَسُّلٍ؛ أي: تَوَسَّلُوا بِسَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ إِلَى مَطْلُوبِهِمْ.

يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَأَعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ مِنْ الشُّرْكَ] وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ أَي: طَرِيقَكَ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، سِوَاهُ كَانَ إِسْلَامَ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ إِسْلَامَ مَنْ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ عَامٌّ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَوْلُ الْمَفْسِّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ: [دِينُ الْإِسْلَامِ] يُرِيدُ بِهِ الْإِسْلَامَ الْعَامَّ، فَالَّذِينَ اتَّبَعُوا الرُّسُلَ السَّابِقِينَ مُسْلِمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا ﷺ مُسْلِمُونَ، لَكِنْ لَا إِسْلَامَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا بِاتِّبَاعِ دِينِهِ.

وَهُنَا قَالَ: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، فَأَضَافَ السَّبِيلَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَكَذَلِكَ الصَّرَاطَ يُضَيِّفُهُ تَعَالَى أحيانًا لِنَفْسِهِ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وَأحيانًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِثْلَ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ اللَّهَ أَضَافَ السَّبِيلَ أَوْ الصَّرَاطَ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارَيْنِ:

الاعتبار الأول: أنه هو الذي وَضَعَهُ لِعِبَادِهِ يَسِيرُونَ عَلَيْهِ.

والاعتبار الثاني: أنه مُوَصِّلٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَنْ سَلَكَهُ أَوْصَلَهُ إِلَى رَبِّهِ.

أَمَّا إِضَافَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَوْ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فَلَأَنَّهُمْ سَالِكُوهُ، فَأُضِيفَ إِلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ سُلُوكِهِمْ إِيَّاهُ، وَحِينَئِذٍ لَيْسَ بَيْنَ الْآيَاتِ تَعَارُضٌ.

قَوْلِهِ: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَي: اجْعَلْ لَهُمْ وَقَايَةَ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، كَمَا فَسَّرَ بِذَلِكَ الْمَفْسِّرُ.

## من فوائد الآية الكريمة:

**الفائدة الأولى:** إثبات العرش، وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم في آيات عديدة، ووصفه بأنه كريم، وبأنه عظيم، وبأنه مجيد.

**الفائدة الثانية:** إثبات أن لهذا العرش حملة؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾، وإثبات الحملة له مع قدرة الله سبحانه وتعالى على إمساكه بدون حملة إشعار بتعظيمه، وأنه عظيم معتنى به؛ ولهذا نجد أن الله قال في السموات بغير عمد، ولم يذكر لها حملة، والعرش ذكر له حملة مع أن الذي أمسك السموات والأرض أن تزولا قادر على إمساك العرش بلا حملة، لكن هذا من باب التعظيم والتنويه بشرفه وعظمته.

**الفائدة الثالثة:** أن حول هذا العرش ملائكة، وأنهم كثيرون، ربما نستفيد كثرتهم من قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلُهُ﴾ [غافر: ٧]، كأن كل الذي حول العرش، ثم من الذي حول العرش هل يُقدر بمسافة عشرة أمتار، أو عشرين متراً، أو مئة متر، أو ألف متر؟ يُقال: الحَوْل في كل مكان بحسبه، فعندنا مثلاً الأرض صغيرة بالنسبة للعرش، والذي حول الإنسان فيها لا يتجاوز عشرة أمتار، ربما نقول: من حولك هو الذي يسمع كلامك المعتاد، لكن من حول العرش، لا نعلم! قد تكون مساحات كبيرة لا يعلمها إلا الله.

**الفائدة الرابعة:** تعظيم هؤلاء الذين يحملون العرش، والذين حول العرش، للرب عز وجل؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

**الفائدة الخامسة:** تنزيه الله عز وجل عن كل نقص، وعن مُمائلة المخلوقين؛ فإن قيل: مُمائلة المخلوقين من النقص، فلماذا نقول: وعن مُمائلة المخلوقين؟ أفلا يجدر بنا أن نقتصر على قولنا: تنزيه الله عن النقص؟

نقول: لا، مُرَادُنَا بِ«التَّنْزِيهِ عَنِ النَّقْصِ»: أَنَّ صِفَاتِهِ الْكَامِلَةَ مُنْزَهَةٌ عَنِ النَّقْصِ، فَقُوَّتُهُ لَا يَعْتَرِيهَا نَقْصٌ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] وَعِلْمُهُ لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾؛ أَي: لَا يَجْهَلُ ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:٥٢]، فَمُرَادُنَا بِالنَّقْصِ أَنْ كَمَالَهُ لَا يَعْتَرِيهِ النَّقْصُ، وَأَمَّا نَفْيُ الْمِثَالَةِ؛ فَلَأَنَّ اللَّهَ نَصَّ عَلَى نَفِيهَا، فَيَنْبَغِي أَنْ تَتَّبَعَ فِي ذَلِكَ الْقُرْآنِ أَنْ نَقُولَ: مُنْزَهَةٌ عَنِ مِثَالَةِ الْمَخْلُوقِينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وَصَفَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالْكَمَالِ وَالْإِفْضَالِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُحَمَّدِ رَبِّهِمْ﴾؛ لِأَنَّ الْحَمْدَ وَصَفَ الْمُحْمُودَ بِالْكَمَالِ وَالْإِفْضَالِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يُحَمَّدُ عَلَى كَمَالِهِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وَكَذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْخِذْ لِدَاؤِ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ [الإسراء:١١١]، كُلُّ هَذَا حَمْدٌ عَلَى الْكَمَالِ، وَيُحَمَّدُ عَلَى إِفْضَالِهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيُحَمِّدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيُحَمِّدُهُ عَلَيْهَا»<sup>(١)</sup> هَذَا حَمْدٌ عَلَى الْإِفْضَالِ.

إِذْنُ: يُسْتَفَادُ كَمَالُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَإِفْضَالُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُحَمَّدِ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ كَمَالَ الْكَمَالِ بِنَفْيِ النَّقْصِ، أَوْ بِالْجَمْعِ بَيْنَ نَفْيِ النَّقْصِ وَإِثْبَاتِ الْكَمَالِ، فَكَمَالُ الْكَمَالِ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فِي الْكَمَالِ، يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُسَيِّحُونَ﴾ هَذَا نَفْيُ النَّقَائِصِ، وَ﴿يُحَمَّدِ رَبِّهِمْ﴾ إِثْبَاتُ.

إِذْنُ: كَمَالُ الْكَمَالِ بِالْجَمْعِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضِيلَةُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ، تُؤْخَذُ مِنْ إِضَافَةِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وَإِضَافَةِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَيْهِمْ مِنْ عِدَّةٍ وَجُوهٍ: مِنْهَا اخْتِصَاصُ اللَّهِ لَهُمْ بِحَمْلِ الْعَرْشِ، تَسْبِيحِهِمْ بِحَمْدِ اللَّهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُكَلَّفُونَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُمْ لَوْلَا أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ قَامُوا بِمَا كُفِّلُوا بِهِ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَحِقِّينَ لِلثَّنَاءِ بِالْإِيمَانِ، لَوْ كَانَ هَذَا مِنْ طَبِيعَتِهِمْ وَسَجِيَّتِهِمْ لَمْ يَكُنْ لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كَبِيرَ فَائِدَةٍ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ لَهُمْ فَهْمٌ وَعَقْلٌ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مُكَلَّفِينَ.

فَائِدَةٌ: نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ فِي بَدْرِ تَثْبِيتِ لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُشَارَكَةِ لَهُمْ فِي هَذَا، مِنْ بَابِ التَّأْيِيدِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَنُصْرَةِ الْحَقِّ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ لَوْ قَالَ هُوَ لَاءَ الْكُفَّارِ: كُونُوا أَمْوَاتًا. لَمَاتُوا. الْمَسْأَلَةُ لَيْسَ مَعْنَاهَا مِنْ بَابِ الْعَجْزِ أَوْ الْقُدْرَةِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَسْخِيرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَلَيْسَ الْمَلَائِكَةُ مُطْلَقًا، بَلِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الْحَثُّ عَلَى الْإِيمَانِ حَتَّى تَدْخُلَ فِي ضِمْنِ مَنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَالْإِيمَانُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَسُرُورٌ وَنِعْمَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَنِعْمَةٌ فِي الْبَدَنِ، حَتَّى الْبِلَاءُ الَّذِي يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هُوَ لَهُ خَيْرٌ؛ فَلِهَذَا نَقُولُ: أَحْرِصْ عَلَى تَحْقِيقِ إِيْمَانِكَ بِفِعْلِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُنْمِي هَذَا الْإِيمَانَ وَتُغَدِّدِيهِ وَتُقَوِّدِيهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: التَّوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِصِفَاتِهِ، كَمَا يُتَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ، فَهَذَا تَوَسَّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَى اللَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا﴾ وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ بِسَعَةِ الرَّحْمَةِ ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً﴾ [غافر: ٧]، وَبِسَعَةِ الْعِلْمِ ﴿وَعِلْمًا﴾، وَالتَّوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، كَالْتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ.

وهنا يجدر بنا أن نتعرَّضَ لمعنى الوَسِيلَةِ وَحُكْمِهَا:

فالوَسِيلَةُ فِعْلٌ مَا يُوَصَّلُ إِلَى الْمَقْصُودِ يُسَمَّى وَسِيلَةً، وَرَبِمَا نَقُولُ: إِنَّهُ تَنَاوَبَتْ فِيهِ السِّينُ وَالصَّادُ، وَأَنْ أَضَلَّ الوَسِيلَةَ يَعْنِي: الوَصِيلَةَ، وَصِيلَةً بِمَعْنَى مُوَصِّلَةً، فَهِيَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ.

والوسائل لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً: إِمَّا بِالشَّرْعِ، وَإِمَّا بِالْحِسِّ، وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ لِدَفْعِ الوسائلِ المَوْهُومَةِ؛ كَالَّذِينَ يُعَلِّقُونَ عَلَى صُدُورِهِمْ أَشْيَاءَ لَمْ يَثْبُتْ شَرْعًا وَلَا حِسًّا أَنَّهَا مُفِيدَةٌ، لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ الوَهْمِ، أَوِ الَّذِينَ يُعَلِّقُونَ نُحَاسًا أَوْ خِيوطًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذِهِ وَسَائِلٌ لِلشِّفَاءِ ادْعَوْهَا، وَلَكِنَّهَا حَقِيقَةٌ لَيْسَتْ وَسِيلَةً؛ لِانْتِفَاءِ ثُبُوتِ ذَلِكَ شَرْعًا وَحِسًّا.

وَإِذَا كَانَتِ الوَسِيلَةُ هِيَ فِعْلٌ مَا يُوَصَّلُ إِلَى الشَّيْءِ فَالْعِلْمُ بِإِيصَالِ هَذَا إِلَى الْمَقْصُودِ - الْعِلْمُ بِكَوْنِهِ مُوَصِّلًا - يَأْتِي عَنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْحِسِّ، فَكُونَ الْعَسَلِ شِفَاءً وَتَنَاوُلُهُ وَسِيلَةً لِلشِّفَاءِ، هَذَا عَلِمْنَاهُ بِطَرِيقِ شَرْعِيٍّ، وَرَبِمَا حِسِّيٍّ أَيْضًا بَعْدَ التَّجَرِبَةِ، وَكَوْنِ السَّنَا مُحَرِّكًا لِلْبَطْنِ مُسَهِّلًا لَهُ هَذِهِ وَسِيلَةٌ حِسِّيَّةٌ، وَالسَّنَا بِاللُّغَةِ الْعَامِّيَّةِ يُسَمَّى السَّنَاوَيْنِ، وَهُوَ أَوْرَاقُ شَجَرٍ مَعْرُوفٍ يُحَمَّرُ بِالمَاءِ ثُمَّ يُشْرَبُ عَلَى الرِّيقِ، فَإِذَا شَرِبَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى الرِّيقِ فَإِنَّهُ يُسَهِّلُهُ وَيُنظِّفُ بَطْنَهُ، وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَعْمِلُونَهُ كَثِيرًا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ هَذِهِ الْأَدْوِيَّةُ، يُسَمَّى سَنَا مَكَّةَ، وَلَهُ أَسْمَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ.

فَالْوَسِيلَةُ إِذْنٌ هِيَ فِعْلٌ مَا يُوصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَالْعِلْمُ بِإِيصَالِهِ إِلَى الْمَقْصُودِ،  
يَأْتِي عَنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ وَعَنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ.

وَالْوَسَائِلُ هِيَ التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ، أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا يُوصِلُ إِلَى  
الإِجَابَةِ، وَلَا طَرِيقَ لَنَا إِلَى الْعِلْمِ بِإِيصَالِهِ إِلَى الإِجَابَةِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ.

إِذْنٌ: نَنْظُرُ التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ، هَذَا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فَتَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا غَفُورُ يَا رَحِيمُ اغْفِرْ  
لِي وَارْحَمْنِي. هَذَا تَوَسُّلٌ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ.

الثَّانِي: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِصِفَاتِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ  
عَلَى الْخَلْقِ أَحْيَيْنِي إِذَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي»<sup>(١)</sup> تَوَسُّلٌ بِ«عِلْمِكَ الْغَيْبِ» وَالْعِلْمُ صِفَةٌ  
«وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ» وَالْقُدْرَةُ صِفَةٌ، فَتَقُولُ: «اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى  
الْخَلْقِ أَحْيَيْنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي...» إِلَى آخِرِهِ.

القِسْمُ الثَّلَاثُ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِأَفْعَالِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:  
﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، إِنْ جَعَلْنَا قَوْلَهُ: ﴿فَلَنْ  
أَكُونَ﴾ مِنْ بَابِ الدُّعَاءِ، وَإِنْ جَعَلْنَا مِنْ بَابِ الْإِتِّزَامِ لَمْ تَكُنْ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَلَكِنْ مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ يُعَلِّمُنَا كَيْفَ نُصَلِّيَ عَلَيْهِ:  
«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»<sup>(٢)</sup>  
فَالْكَافُ هُنَا لَيْسَتْ لِلتَّشْبِيهِ، الْكَافُ لِلتَّلْعِيلِ، يَعْنِي: صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ؛

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٦٤)، وَالنَّسَائِيُّ (١٣٠٥) مِنْ حَدِيثِ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمٌ (٦٣٥٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ

الصَّلَاةِ، بَابُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ التَّشْهَادِ، رَقْمٌ (٤٠٦)، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنك صليت على إبراهيم، فتوسل إلى الله بفعله، يعني: كما مننت أولاً على إبراهيم وآله فامنن ثانياً على محمد وآله.

القسم الرابع: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان بالله، وهذا من فعلك أنت، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ هذه الوسيلة ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: بسبب ذلك اغفر لنا ﴿ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] هذا توسل إلى الله بالإيمان به.

القسم الخامس: التوسل إلى الله بالعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح سبب للمثوبة، ومن المثوبة حصول ما دعوت به، ودليله: قصة أصحاب الغار التي حدثنا بها رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>، أصحاب الغار ثلاثة، آوهم المبيت الليل، فلجؤوا إلى غار فدخلوا به، فتدخرجت عليهم صخرة عظيمة من الجبل فسدت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها ولا مغيث لهم إلا الله، ليس حولهم بشر، فتوسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة، أحدهم توسل إلى الله ببرِّ والدَيْه، والثاني توسل إلى الله بالعِفة التامة، والثالث توسل إلى الله بالأمانة التامة، فبرِّ الوالدين عمل صالح، والعِفة عمل صالح، والأمانة وأداء الأمانة عمل صالح، فلما توسل الأول منهم انفرجت الصخرة، لكن لا يستطيعون الخروج، توسل الثاني فانفرجت الصخرة، ولكن لا يستطيعون الخروج، توسل الثالث فانفرجت الصخرة مرة واحدة، فخرجوا يمشون.

هذا التوسل إلى الله بالعمل الصالح.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجييراً فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



السادس: التَّوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ بِحَالِ الشَّخْصِ، تَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِذِكْرِ حَالِكَ، أَنْكَ فَاقِرٌ، مُتَّحَاجٌ إِلَى اللَّهِ، مَرِيضٌ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَلِيلُهُ- وَإِنْ شِئْتَ قَلْتَ: مِثْلُ؛ لِأَنَّ هَذَا يَصْلُحُ دَلِيلًا وَتَمَثِيلًا-: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [الفصص: ٢٤]، لَمَّا سَمِعَى لِلْمَرَأَتَيْنِ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ؛ لِيَسْتَظِلَّ بِهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لَمْ يَقُلْ: أَعْطِنِي، لَكِنْ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِحَالِهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: أَنَا فَاقِرٌ، أَنَا مُتَّحَاجٌ، أَنَا مَسْنِي الضَّرِّ. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ يَعْنِي: فَأَعْطِنِي، أَشْفِنِي، وَقَدْ جَمَعَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَ ذِكْرِ الْحَالِ وَالتَّوَسُّلِ بِالأَسْمَاءِ فَقَالَ: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] الأَوَّلُ: ﴿مَسْنِي الضَّرِّ﴾ ذِكْرُ الْحَالِ، وَالثَّانِي بِالأَسْمَاءِ.

السابع من التَّوَسُّلِ الْجَائِزِ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِدُعَاءِ مَنْ تُرَجَى إِجَابَتُهُ، وَمِنْهُ تَوَسُّلُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهُ لَهُمْ، مِثْلُ: الِاسْتِسْقَاءِ، وَالِاسْتِصْحَاءِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ تَوَسُّلُ النَّاسِ عَمُومًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمْ. هَذِهِ سَبْعَةٌ.

وَقَوْلُنَا: «التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِمَنْ تُرَجَى إِجَابَتُهُ» يُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْ لَا تُرَجَى إِجَابَتُهُ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ هَذَا اسْتِهْزَاءٌ بِاللَّهِ، لَوْ أَنَّكَ أَتَيْتَ بِصَاحِبِ رَبِّبَا يَأْكُلُ الرِّبَا، وَيَأْكُلُ المَالَ بِالظُّلْمِ وَالعِشِّ وَالكِذْبِ وَقَلْتَ: ادْعُ اللَّهُ لِي. فَإِنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّكَ تَوَسَّلْتَ إِلَى اللَّهِ بِمَنْ تَبْعُدُ إِجَابَتَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ،

وَعُدِّيَ بِالْحَرَامِ قَالَ: «فَأَنِّي يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»<sup>(١)</sup> وهو سُخْرِيَّةٌ، لو أنك آتَيْتَ بِشَخْصٍ - والله المثل الأعلى - لِيَتَوَجَّهَ لَكَ إِلَى مَلِكٍ كَانَ الْمَلِكُ يُبْغِضُ هَذَا الشَّخْصَ وَيُبْعِدُهُ، يَكُونُ هَذَا اسْتِهْزَاءً بِالْمَلِكِ وَاسْتِهْتَارًا بِهِ، كُلُّنَا يَعْرِفُ هَذَا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدُعَاءٍ مَن لَّا تُرَجَى إِجَابَتُهُ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ السُّخْرِيَّةِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، هَذِهِ سَبْعَةٌ أَقْسَامٍ مِنَ التَّوَسُّلِ الْجَائِزِ.

فائدة: الوَسَائِلُ لَيْسَتْ هِيَ الْوَسَائِطُ، الْوَسَائِلُ لَيْسَ فِيهَا وَسَائِطٌ إِلَّا السَّابِعَةُ، وَهِيَ التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِدُعَاءٍ مَن تُرَجَى إِجَابَتُهُ.

وإن قيل: لماذا أخرج العلماء التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَنِ التَّوَسُّلِ بِالْإِيْمَانِ؟

فالجواب: لأن الإِيْمَانِ بِالْقَلْبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِالْجَوَارِحِ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦] فالإِيْمَانِ بِالْقَلْبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِالْجَوَارِحِ، وَلَكِنِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ مِنَ الْإِيْمَانِ.

فإن قال قائل: أيجوز أن أتوسَّلَ بِمَحَبَّةِ الرَّسُولِ، فأقول: اللَّهُمَّ بِمَحَبَّتِي لِرَسُولِكَ؟

فالجواب: يَجُوزُ، لِأَنَّ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ لَا شَكَّ أَنَّهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، فَإِنْ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ لَا يُؤْمِنُ الْإِنْسَانُ حَتَّى يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: ما حُكْم التَّوَسُّلِ إلى الله بِمَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ والعُلَمَاءِ؟

فالجوابُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ والعُلَمَاءِ هي عِبَادَةٌ تُقَرِّبُ إلى الله.

إِذْنٌ: هي عَمَلٌ صَالِحٌ تَدْخُلُ فِي التَّوَسُّلِ إلى الله بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

فإن قال قائل: ما حُكْمُ تَخْصِيسِ الْعَالَمِ بَعَيْنِهِ؟

فالجوابُ: الْأَحْسَنُ أَلَّا تُخَصِّصَ؛ لِأَنَّ الْعَالَمَ بَعَيْنِهِ - نَسَأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَحْمِينَا وَإِيَّاكُمْ، وَيَجْعَلَ ظَوَاهِرَنَا كِبَاطِنَنَا، أَوْ بَوَاطِنَنَا خَيْرًا مِنْهَا - لَا تَدْرِي حَقِيقَتَهُ، قَدْ تَغَتَّرُ بِإِنْسَانٍ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ عَلَى مَا تَظُنُّ، لَكِنْ عَمِّمَ: اللَّهُمَّ بِحُبِّي لِعُلَمَاءِ الشَّرْعِ احْشُرْنِي مَعَهُمْ، بِحُبِّي لِلصَّالِحِينَ اجْعَلْنِي مَعَهُمْ. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

أَمَّا التَّوَسُّلُ الْمَمْنُوعُ: كَأَنَّ يَتَوَسَّلُ إِلَى اللهِ بِمَا لَيْسَ بِوَسِيلَةٍ، مِثْلُ: تَوَسَّلَ الْمُشْرِكِينَ بِأَصْنَامِهِمْ؛ حَيْثُ يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَرُ: ٣]، فَهَذَا لَا يَنْفَعُ.

وَمِنْ ذَلِكَ التَّوَسُّلُ إِلَى اللهِ بِجَاهِ الرَّسُولِ ﷺ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ تَوَسَّلَ بِمَا لَيْسَ بِوَسِيلَةٍ، فَلَا تَسْتَفِيدُ مِنْ جَاهِ الرَّسُولِ عِنْدَ اللهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّ جَاهَ الرَّسُولِ عِنْدَ اللهِ إِنَّمَا يَنْفَعُ الرَّسُولَ فَقَطْ لَا عِلَاقَةَ لِي بِهِ، فَلِذَلِكَ يَكُونُ التَّوَسُّلُ بِجَاهِ الرَّسُولِ ﷺ مَمْنُوعًا حُرْمًا، أَوْ لَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ، وَالثَّانِي: لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَسِيلَةٍ، إِذْ إِنْ الْوَسِيلَةُ هِيَ فِعْلٌ مَا يُوَصَّلُ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَأَيُّ ارْتِبَاطٍ بَيْنَ جَاهِ الرَّسُولِ عِنْدَ اللهِ وَبَيْنَ مَطْلُوبِكَ؟!

فصار التَّوَسُّلُ الْمَمْنُوعُ شَيْئَيْنِ:

الأوَّلُ: التَّوَسُّلُ الشَّرْكَئِيَّ: تَوَسَّلَ الْمُشْرِكِينَ بِأَهْلِهِمْ لِتَقَرُّبِهِمْ إِلَى اللهِ، فَإِنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ وَسِيلَةٌ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، وَأَنَّهَا بَاطِلَةٌ، عَلَى أَنَّ تَسْمِيَتَنَا إِيَّاهَا وَسِيلَةً إِنَّمَا نُرِيدُ

مَنْ لَا يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، أَمَّا مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ وَلَمْ يَتَوَسَّلْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِشَيْءٍ.  
والثاني: التَّوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِجَاهِ الرَّسُولِ.

فإن قال قائل: ما هو الضابط في الفرق بين الوسيلة الشريكية والوسيلة البدعية؟  
فالجواب: الوسيلة البدعية هي التي لم ترد عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه،  
والشريكية هي ما تتضمن إشراك غير الله مع الله، مع أن البدعة تسمى شركاً بالمعنى  
العام؛ لأن المبتدع شرع شرعاً لم يشرعه الله، وقد سمي الله ذلك شركاً، فقال: ﴿أَمْ  
لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، لكن ما كان  
مظهره مظهر الشرك غلب عليه اسم الشرك، وما كان مظهره سوى ذلك فيسمى  
بالاسم الذي يختص به؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن جميع المعاصي شرك؛ لأن الإنسان  
أشرك فيها مع الله هو، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فإن قال قائل: هل يجوز تصنيف الشرك يعني: مثلاً من الآية ﴿اتَّخَذُوا  
أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَةً لَهُمُ آبَاءَهُمْ﴾، نسجل هذا شرك الطاعة أو شرك الاتباع؟  
فالجواب: هو شرك اتباع، أمّا شرك الطاعة هذا شرك عبادة؛ ولهذا من أحسن  
حدود الطاعات ما قاله ابن القيم رحمه الله: ما تجاوز به العبد حده من معبود،  
أو متبوع، أو مطاع<sup>(١)</sup>؛ فالمعبود: الأصنام، والمتبوع: العلماء، والمطاع: الأمراء.

وهذا أحسن ما يقال في حد الطاعات، لكن باعتبار الطاعي، أمّا باعتبار  
المعبود أو المتبوع أو المطاع؛ هؤلاء ليسوا طواغيت باعتبار ذواتهم؛ لأن العالم قد  
لا يرصى بهذا الشيء والأمير كذلك، والمعبود كذلك، لكن باعتبار الفاعل هي

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

طَوَاغِيْتُ - بِاعْتِبَارِ الْفَاعِلِ يَعْنِي: أَنَّهُ طَعَى فِيهَا هِيَ مَحَلُّ طُغْيَانِهِ - وَمَعْنَى كَوْنِهَا طَوَاغِيَّتَ أَنَّهَا مَحَلُّ طُغْيَانِهِ، وَلَيْسَتْ هِيَ طَاغِيَّةً. فَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعْبُودٌ، لَا نَقُولُ: إِنَّهُ طَاغُوتٌ، لَكِنَّهُ مَحَلُّ طُغْيَانِ الَّذِينَ عَبَدُوهُ، انْتَبَهُوا لِهَذِهِ النُّقْطَةِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اسْتَشْكَلَ كَلَامَ ابْنِ الْقَيْمِ، وَقَالَ: كَيْفَ نَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ؟ إِذْنِ عِيسَى طَاغُوتٌ؛ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ، فَيُقَالُ: مُرَادُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّ مَحَلَّ الطُّغْيَانِ يَكُونُ فِي الْمَعْبُودِ وَالْمَتَّبِعِ وَالْمَطَاعِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] كَيْفَ عُبِدَ سَيِّدُنَا عِيسَى وَغَيْرُهُ مِنَ الصَّالِحِينَ؟

فَالْجَوَابُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ ءِالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿[الأنبياء: ٩٨-١٠١].

وعِيسَى يَمُنُّ سَبَقَتْ لَهُمُ الْحُسْنَى؛ وَهَذَا ضَرَبَ الْكُفَّارِ عِيسَى مَثَلًا وَقَالُوا لِمَا نَزَلَتْ آيَةُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قَالُوا: إِذْنِ عِيسَى فِي النَّارِ جَدَلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿ءِالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمُّ هُوَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٥٨] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٥٨] وَأَبْعَضُ الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَكْدُ الْخَصِيمُ.

فَائِدَةٌ: الْفَتْرَةُ وَهِيَ امْتِدَادٌ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِحِكْمَةٍ؛ وَذَلِكَ حَتَّى يَعْرِفَ النَّاسُ شِدَّةَ ضَرُورَتِهِمْ إِلَى الرَّسَالَةِ.

مسألة: ذكر بعض أهل العلم أنه من تمام حُسن أدب الإنسان مع الله عزَّ وجلَّ، ومع رسوله ﷺ، ومع صحابته ومع العلماء إذا ذُكر الله تعالى قال: عزَّ وجلَّ. والنبِيُّ يُصَلِّي عليه، والعلماء يترحم عليهم، والصحابة يترضى عليهم، هل هذا على إطلاقه؟ وهل من تركه فاته خير عظيم؟

الجواب: أمَّا من جهة الصلاة على النبي ﷺ فإنه لا شك أنه إذا ذُكر فإن الإنسان مأمور بالصلاة عليه، إمَّا وجوبًا، وإمَّا استحبابًا، فمن العلماء من أوجب عليك إذا ذُكر عندك اسم الرسول أن تُصَلِّي عليه لحديث: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ»<sup>(١)</sup>.

وأمَّا الله عزَّ وجلَّ فليس بشرط الشاء عليه عند ذكره؛ ولهذا دائمًا يقول الرسول ﷺ قَوْلًا يُسِنْدُهُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يَذْكُرُ وَصْفًا بِالْعِزَّةِ، أَوِ الْجَلَالِ، أَوِ التَّعَالِي، أَوِ التَّبَارُكِ، أحيانًا يقول وأحيانًا لا يقول، فكونك أحيانًا تقول وأحيانًا لا تقول فهذا أحسن.

وكذلك بالنسبة للترضي عن الصحابة، أو الترحم على من بعدهم، كل هذا لا يتخذ سنة راتبه، ولكن إن ذُكر أحيانًا فهو حسن، أمَّا اتخاذه سنة راتبه فهو يحتاج إلى دليل.

الفائدة الثالثة عشرة: بيان الصيغة التي تقوها الملائكة في استغفارهم للمؤمنين، أنهم يتوسلون أولًا، ثم يطلبون ثانيًا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٠/١٩٢ رقم ٤٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه قوله: «قل: آمين». وأخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٥٩٢٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٩٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين».

لِلَّذِينَ تَابُوا ﴿ غافر: ٧. ]

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: سَعَةُ رَحْمَةِ اللَّهِ؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾.

فإن قال قائل: كيف يَصِحُّ ذلك وأكثرُ بني آدَمَ كُفَّارًا، فأين الرحمة؟

فالجوابُ: هم مَرَحُومُونَ بِالرَّحْمَةِ الْعَامَةِ، فَمَنْ يُخْرِجُ لَهُمُ النَّبَاتَ، مَنْ يُنْزِلُ لَهُمُ الْمَطَرَ، مَنْ يَجْعَلُهُمْ أَصْحَاءَ، مَنْ يُمَتِّعُهُم بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ إِلَّا اللَّهُ، وهذه رحمة، فَرَحْمَةُ اللَّهِ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

الفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: سَعَةُ عِلْمِ اللَّهِ؛ لقوله: ﴿وَعَلِمَاءُ﴾.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَاتَيْنِ الْفَائِدَتَيْنِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ مَتَى عَلِمَ ذَلِكَ تَعَرَّضَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ؛ لَعَلَّهُ يَكُونُ مِنَ الدَّاخِلِينَ فِيهَا، وَإِذَا آمَنَ بِسَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ اسْتَحْيَى مِنْ اللَّهِ أَنْ يَفْقِدَهُ حَيْثُ أَمْرُهُ، أَوْ يَجِدَهُ حَيْثُ نَهَاهُ، فَلَوْ قَالَ لَكَ أَبُوكَ: يَا بُنَيَّ لَا تَفْعَلْ كَذَا. فَأَنْتَ إِذَا غَابَ أَبُوكَ وَلَكَ هَوَى فِيهِ تَفَعَّلَهُ لَا شَكَّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ بِكَ، فَإِذَا كَانَ يُشَاهِدُكَ لَا تَفَعَّلَهُ. فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ لَا يَغِيبُ عَنْكَ، إِذَنْ لَا تَفَعَّلَهُ لَا فِي السِّرِّ وَلَا فِي الْجَهْرِ إِذَا كَانَ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا تَتْرُكُهُ إِذَا كَانَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، وَلِهَذَا نَقُولُ: لَا يَفْقِدُكَ اللَّهُ حَيْثُ أَمَرَكَ، وَلَا يَجِدُكَ حَيْثُ نَهَاكَ.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: فَضِيلَةُ التَّوْبَةِ؛ حَيْثُ عَلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ بِهَا فَقَالُوا: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْبَةِ اتِّبَاعَ سَبِيلِ اللَّهِ؛ لقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ وَلِهَذَا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْرُنُ دَائِمًا مَعَ التَّوْبَةِ ذِكْرَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ: ﴿إِلَّا مَنْ

تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴿[الفرقان: ٧٠].

الفائدة الثامنة عشرة: فضيلة الإسلام؛ لإضافته إلى الله عزَّجَلَّ.

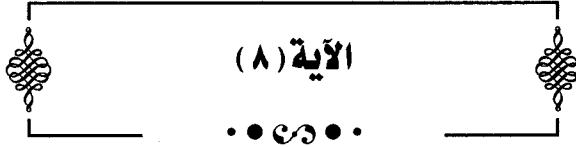
الفائدة التاسعة عشرة: كمال الإسلام بإضافته إلى الله، ففيه الفضيلة بإضافته إلى الله باعتباره مُوصِلًا إليه، وفيه الكمال بإضافته إلى الله باعتباره واضِعًا له، أنه هو الذي شرَّعه، وهو كامل، والكامل لا يشرع إلا كاملاً.

الفائدة العشرون: أن الملائكة أكدوا المغفرة بحصول أثرها، وهي قولهم: ﴿وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وذلك أن التوبة لا تكون إلا بالوقاية من الجحيم، ولكنهم أكدوا ذلك لعظم هذا العذاب -عذاب الجحيم- فنصَّوا عليه لهذا السبب، وإلا فإن التوبة في الحقيقة والمغفرة تُوجب الوقاية من عذاب الجحيم، ولكن النص عليه يكون في ذلك زيادة على ما يتضمَّنه المعنى العام.

الفائدة الحادية والعشرون: الرَّدُّ على الجبرية، تؤخذ من قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ فأضاف الاتباع إليهم ولو كانوا مجبرين على ذلك لم يصحَّ أن يُضاف الفعل إليهم، ولهذا إذا أُكِّره الإنسان على الكفر لا يكفر؛ لأن الفعل لا يُنسب إليه حقيقةً فهو مُكِّره عليه، والله أعلم.







﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [غافر: ٨].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ هذا من جملة دُعاء الذين يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ رَبَّنَا؛ أَي: يَا رَبَّنَا، وَكَّرَرُوا النَّدَاءَ بِالرَّبُّوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِالْأَوَّلِ يَسْأَلُونَ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ، وَوَقَايَةَ عَذَابِ الْجَحِيمِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّخْلِيَةِ؛ أَي: السَّلَامَةِ مِمَّا يَضُرُّ، أَمَّا الثَّانِي: فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّحْلِيَةِ؛ أَي: مِنْ بَابِ حُصُولِ الْمَطْلُوبِ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ فَتَرَى الْجُمْلَةَ الْأُولَى مِنَ الدُّعَاءِ فِيهَا النَّجَاةَ مِنَ الْمَرْهُوبِ، وَالثَّانِيَةَ فِيهَا حُصُولَ الْمَطْلُوبِ، وَهَذَا كَرَّرُوا قَوْلَهُمْ: رَبَّنَا.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ وَجَعَلُوا هَذِهِ الْجُمْلَةَ مَعْطُوفَةً عَلَى مَا سَبَقَ لَا مُسْتَأْنَفَةً؛ أَي لَمْ يَقُولُوا: رَبَّنَا أَدْخِلْهُمْ. قَالُوا: وَأَدْخِلْهُمْ؛ لِتَحَقُّقِ مَا قَبْلَهَا؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي ثُبُوتَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ وَكَوْنَهُ أَصْلًا، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا وَاجْمَعْ لَهُمْ مَعَ مَا سَبَقَ أَنْ تُدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ.

وقوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾ جَمْعُ جَنَّةٍ، وَالْجَنَّةُ تَأْتِي فِي الْقُرْآنِ مَجْمُوعَةً وَتَأْتِي مُفْرَدَةً، فَبِعَتِّبَارِ الْجِنْسِ هِيَ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَبِعَتِّبَارِ الْأَنْوَاعِ هِيَ جِنَانٌ، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا أَرْبَعَةَ

أنواع في موضع واحد: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فهي تُجَمَّع باعتبار الأنواع، وتُفْرَد باعتبار الجنس.

والجَنَّةُ في الأصل البُستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه يَجِنُّ مَنْ فِيهِ. أي: يَسْتُرُهُ لكثرة أشجاره. والمراد بها شَرُوعًا دار النعيم التي أَعَدَّهَا اللهُ تعالى لأوليائه، فيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، وَسَقَفُهَا عَرْشُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فهم أَقْرَبُ الناس إلى الله.

وقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ العَدْنُ بِمَعْنَى الإقامة، يُقال: عَدَنَ بِمَكَانٍ، أي: أَقام، ومنه سُمِّيَ المَعْدِنُ لمَعَادِنِ الأَرْضِ؛ لأنَّ المَعْدِنَ مُقِيمٌ ثابتٌ راسخٌ في الأَرْضِ، فَجَنَّاتٍ عَدْنٍ أي: جَنَّاتٍ إقامَةٍ، ووُصِفَتْ بِذلك؛ لأنَّ أَهْلَهَا لا يَبْعُونَ عنها حَوْلًا، ولأنَّها دائمة أَبَدًا لِأَبْدِينِ.

وقوله: ﴿الَّتِي وَعَدْتُهُمْ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿جَنَّاتٍ﴾، وإِنَّمَا قالوا ذلك اعْتِرَافًا بِفَضْلِ اللهِ تعالى أَوْلًا وَأَخْرًا، وتَوَسُّلًا إليه بِتَحْقِيقِ ما طَلَبُوا؛ لأنَّ اللهُ إِذا وَعَدَ شَيْئًا أَمَّمَهُ، فإنه لا يُخْلِفُ الميعاد، فصار ذِكْرُ قول: ﴿الَّتِي وَعَدْتُهُمْ﴾ له فائدتان:

الأولى: الاعْتِرَافُ بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث وَعَدَهُم هذه الجَنَّتِ.

الثانية: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تعالى بِإِجابةِ الدُّعاء، كأنهم يَقولون: أَدْخِلْهُمْ هذا؛ لأنَّكَ وَعَدْتَهُمْ إِيَّاهُ، فيكون من باب التَّوَسُّلِ بوَعْدِهِ إلى تَحْقِيقِ مَوْعودِهِ.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ مَنْ صَلَحَ يَقول المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [عَطَفَ على (هُم) فِي ﴿وَأَدْخَلَهُمْ﴾ أَوْ فِي ﴿وَعَدْتُهُمْ﴾]، فالواو حرف عَطْفٍ، و﴿وَمَنْ﴾ اسم مَوْصُولٌ مَبْنِيٌّ على السُّكونِ في مَحَلِّ نَصْبِ عَطْفًا على

﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو على ﴿وَعَدْتَهُمْ﴾، والأحسن أن يكون عطفًا على ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، فيكون الدعاء بالدخول شاملًا لهم ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

فقوله: ﴿وَمَنْ صَلَّحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا احترازٌ جيّد حيث قالوا: ﴿وَمَنْ صَلَّحَ﴾ ولم يقولوا: وآبائهم وأزواجهم وذرياتهم، قالوا: ﴿وَمَنْ صَلَّحَ﴾؛ لأنهم لو دعوا بالعموم لكان فيه نوع من الاعتداء في الدعاء؛ لأن الاعتداء في الدعاء هو أن يدعو الإنسان بما لا يمكن شرعًا أو حسًا، كل من دعا الله تعالى بما لا يمكن شرعًا أو حسًا فإنه معتدٍ في الدعاء، ولو زدنا أيضًا أو حسًا أو عادة فهو معتدٍ، فلو سأل الله تعالى أن يخرج له ولدًا من جدار بيته لكان هذا اعتداءً في الدعاء، ولو سأل الله تعالى أن يجعله نبيًا لكان هذا اعتداءً في الدعاء؛ لأن ذلك لا يمكن شرعًا، ولو سأل الله أن يجعل السموات والأرض بيده لكان هذا معتدًا في الدعاء؛ لأنه لا يمكن عقلاً، فما لا يمكن شرعًا، أو عقلاً، أو عادة، أو حسًا؛ فإنه لا يدعى الله به؛ لأن هذا اعتداءً في الدعاء.

فهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ صَلَّحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ لو قالوا: آباءهم لكان فيه نوع من الاعتداء حيث إن آباء هؤلاء قد يكونون مشركين كفارًا، لا يستحقون أن يدخلوا الجنة، فيقول: ﴿وَمَنْ صَلَّحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ جمع زوج، ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ جمع ذرية، فذكروا الأصول والفروع والمصاهرة، الأصول والفروع: آباء وذريات، والمصاهرة: أزواج.

أما إذا قال القائل في دعائه: اللهم اغفر لنا ولآبائنا وذرياتنا وإخواننا، وجدّاتنا وأجدادنا، وخالاتنا وأخوالنا، وعمّاتنا وأعمامنا، والأصول والفروع والحواشي، هذا ليس تكرارًا للدعاء، إنما هو تكرار للمدعو لهم، وأنت ترى الملائكة الآن ما دعت

إلا لثلاثة أصنافٍ فقط: الأصول، والفروع، والأصهار - الزَّوجات - لكن لا نقول في هذا شيئاً، لا نُنكِر عليه، لكن كونه يُطوّل على الناس بمثل هذه الأشياء قد يكون فيه مَضَرَّة على الناس وتعب.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه جُملة استِثْنائية يُراد بها التَّوَسُّل إلى الله تعالى بعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يُحَقِّقَ هذا الدُّعَاءَ أو هذا المدعوَّ به.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات أن الملائكة عباد مَرَبوبون؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إلى آخره.

الفائدة الثانية: أن الشيء لا يَتِمُّ إلا بانتفاء المؤذي وحصول المطلوب؛ وجه ذلك أنهم لما انتهوا من دعاء الله تعالى بانتفاء المؤذي سألوا الله تعالى حصول المطلوب، وهو إدخال الجنّات.

الفائدة الثالثة: أن الجنّات أنواع، نستفيد هذا من الجمع في قوله: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾. الفائدة الرابعة: أن الجنّات دارُ إقامة، لا يبغي ساكنها تحوُّلاً عنها، ولا يلحقه فناء؛ لقوله: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾.

الفائدة الخامسة: التَّوَسُّل إلى الله تعالى بفعله أو قوله؛ لقوله: ﴿الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ فإنَّ وَعَدَهُ قول، وهؤلاء الملائكة تَوَسَّلوا إلى الله بهذا القول.

الفائدة السادسة: بيان فضل الله عَزَّوَجَلَّ على أهل الجنة أوْلاً وَاخِرًا: أوْلاً: حيث وعدهم الجنة؛ لأن الوعد بالجنة يقتضي العمل لها. وَاخِرًا: بإدخالهم إيَّاهَا.

الفائدة السابعة: أن من تمام النعيم أن يجمع الله بين الإنسان وبين قرابته وزوجه؛

لقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ [غافر: ٨] إلى آخره.

فإن قال قائل: هل يلزم من ذلك أن يكونوا في درجة واحدة؟

قلنا: لا يلزم، ولكن الأزواج لا بُدَّ أن يكونوا في درجة أزواجهم، والذرية ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الطور أنهم في درجة آبائهم أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقَّانِيَّةِ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

وهذا يدلُّ على أنَّ الذرية الذين لم يبلغوا منازل آبائهم أنهم يُرفعون حتى يكونوا في منازل آبائهم، وأن ذلك لا يقتضي نقص الآباء من المنازل، يعني لا نقول: إنَّ الحلَّ الوسط أن نرفع هؤلاء قليلاً، وننزل هؤلاء قليلاً؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لئلا يظنَّ الظانُّ أنه إذا رفعت الذرية فإنها ترفع قليلاً، وينزل الآباء بمقدار ما رفع هؤلاء؛ ليلتقوا في نقطة الوسط، وهذا ليس كذلك؛ لأنه لو نزل الآباء قليلاً لزم من ذلك أن يُنقصوا، ولكن الله يقول: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ﴾؛ أي: ما نقصناهم، أي: الآباء ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلِّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ﴾ [الطور: ٢١].

الفائدة الثامنة: الاحتراز في الدعاء عن التعميم؛ لقولهم: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾، ومن ذلك قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾؛ أي: أهل المسجد الحرام، ﴿مَنْ الشَّرَبَتْ مِنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أهله، ثمَّ أبدل منها قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فاحترز.

ولكن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ يعني: ارزُقْ مَنْ في هذا البلد، ولو كانوا كفاراً، لكن: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ﴾ [البقرة: ١٢٦].

المهم: أنه ينبغي للإنسان في الدعاء أن يحترز من التعميم الذي قد يتناول مَنْ

لا يَسْتَحِقُّ الدُّعَاءَ، فيكون في دُعائه هذا نوع من الاعتداء.

الفائدة التاسعة: إثبات هذين الاسمين: العزيز والحكيم من أسماء الله، وإثبات ما تضمنناه من الوصف، أو من الصفة، فالعزيز مُتَضَمِّنٌ لِلْعِزَّةِ، والحكيم مُتَضَمِّنٌ لِلْحِكْمَةِ والحُكْمِ.

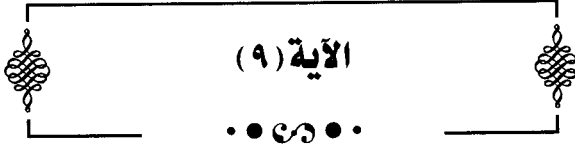
الفائدة العاشرة: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ بِأَسْمَائِهِ.

فإن قال قائل: سبق أن التَّوَسُّلَ بِالْأَسْمَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُطَابِقًا لِلسُّؤَالِ أَوْ لِلْمَسْئُولِ، وهنا ما مناسبة العِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ لِلدُّعَاءِ بِإِدْخَالِ هَؤُلَاءِ الْجَنَّةِ؟  
فالجواب: الظاهر - والله أعلم - أن المطابقة أنهم دعوا أن الله يُدْخِلَ مَنْ صَلَحَ مِنْ ﴿ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾، وهذا أمر يحتاج إلى عِزَّةٍ وَتَمَامِ سُلْطَةٍ، وَإِلَى حُكْمٍ وَحِكْمَةٍ؛ فلهذا ختموا هذا الدُّعَاءَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دون أن يقولوا: إنك ذو الفضل العظيم.

وإن قال قائل: إذا خالف الوصف الدعاء، هل يكون اعتداءً، يعنني إذا قلت: اللَّهُمَّ اهْدِ الْكُفْرَةَ وَالْمُشْرِكِينَ، أَوْ أَذِلَّ الشُّرْكَ وَالْمُشْرِكِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. فإن هذا اعتداء؟

فالجواب: لا، بل هذا غلط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ تَقَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾، فهذا زوال مكروه، وإذلال الشُّرْكَ لا شك أنه نعمة ورحمة.

الفائدة الحادية عشرة: التَّرتيب الوجودي في الأشياء؛ لقوله: ﴿ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾، فهذا هو التَّرتيب: أب، ثم زوج، ثم ذرية، فهذا ترتيب وجودي، ولا شك أن هذا من محسنات اللَّفْظِ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ. وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

• • •

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾، هذا معطوف على ما سبق، على قوله: ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ ﴾؛ أي: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ والجملة فعل أمر وفاعل ومفعول به، بل ومفعولان، الجملة تتضمن فعلاً وفاعلاً ومفعولين، الفعل (ق)، والفاعل مُسْتَبْرَ وجوباً، والمفعول الأوّل الهاء، والمفعول الثاني السيئات، و(ق) هنا فعل أمر، لكنه مكوّن من حرف واحد بعد أن حُذِفَ منه حرفان؛ الأوّل والثالث، وهكذا كل مثال ناقص إذا كان ثلاثياً فإن فعل الأمر منه على حرف واحد، هذه القاعدة، كل مثال ناقص ففعل الأمر منه إذا كان ثلاثياً على حرف واحد.

والمثال هو: الذي أوّله حرف علة، والناقص: الذي آخره حرف علة.

إذن: القاعدة هذه تشمل أمثلة كثيرة، وقد جمعها الخُضْرِيُّ في حاشية ابن عقيل على ألفية ابن مالك<sup>(١)</sup> جمعها في أبيات، منها: قِ فِ عِ يَعْنِي عَدَدًا، لكن الضابط هو هذا، كل ثلاثي كان مثلاً ناقصاً ففعل الأمر منه على حرف واحد.

وقوله: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [أي: عذابها]، وهذا إذا جعلنا

(١) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل (١/ ٣١).

السَّيِّئَاتِ بِمَعْنَى الْأَعْمَالِ السَّيِّئَاتِ، فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ أَنْ تُفَسَّرَ ذَلِكَ بِعَذَابِ السَّيِّئَاتِ؛ لِأَنَّ عَمَلَ السَّيِّئَاتِ الْآنَ قَدْ انْتَهَى وَقْتَهُ، وَإِنَّمَا الْمَوْجُودُ هُوَ الْجِزَاءُ، فَيُفَسَّرُ حِينَئِذٍ بِالْعَذَابِ. وَأَمَّا إِذَا فَسَّرْنَا السَّيِّئَاتِ بِمَا يَسُوءُ دُونَ الْعَمَلِ الَّذِي يَقَعُ مِنَ الْعَبْدِ، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نَقُولَ: عَذَابُهَا؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ مِمَّا يَسُوءُ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: وَقِهِمْ مَا يَسُوءُ وَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْقَاعِدَةُ فِي التَّفْسِيرِ فِي شَرْحِ الْأَحَادِيثِ: أَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ احْتِمَالِ التَّقْدِيرِ وَعَدَمِ التَّقْدِيرِ، فَالْأَوْلَى عَدَمُ التَّقْدِيرِ، وَعَلَى هَذَا فَتَقُولُ: السَّيِّئَاتُ هُنَا لَا يُرَادُ بِهَا الْأَعْمَالُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ قِطْعًا؛ لِأَنَّ هَذَا قَدْ انْتَهَى، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِالسَّيِّئَاتِ مَا يَسُوءُ مِنْ أَعْمَالٍ، وَمِنْ عُقُوبَاتٍ، وَمِنْ عَادَاتٍ، وَمِنْ غَيْرِ ذَلِكَ.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾] [ مَنْ شَرِطِيَّةً، وَجُمْلَةً ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ جواب الشرط، وإِنَّمَا اقْتَرَنَ جَوَابَ الشَّرْطِ بِالْفَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَبْدُوءٌ بِ(قَدْ)، وَجَوَابَ الشَّرْطِ إِذَا بُدِئَ بِ(قَدْ) وَجَبَ اقْتِرَانُهُ بِالْفَاءِ، وَلَهُ نَظَائِرٌ مِمَّا يَجِبُ اقْتِرَانُهُ بِالْفَاءِ.

المهم: أَنَّهُ يَجِبُ ارْتِبَاطُ جَوَابِ الشَّرْطِ بِالْفَاءِ إِذَا وَقَعَ وَاحِدًا مِنْ سَبْعَةِ أُمُورٍ، مَجْمُوعَةٌ فِي قَوْلِ النَّازِمِ:

اسْمِيَّةٌ طَلِيئَةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ<sup>(١)</sup>

التَّنْفِيسُ يَشْمَلُ سَوْفَ وَالسَّيْنِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ نَوْعِ قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾.

قوله: ﴿وَذَلِكَ﴾ المشار إليه وقاية السيئات والرحمة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿هُوَ﴾: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَأً، وَ﴿الْفَوْزُ﴾ خَبْرُهُ، وَالْجُمْلَةُ مِنَ الْمُبْتَدَأِ الثَّانِي وَخَبْرِهِ

(١) غير منسوب، وانظر النحو الوافي (٤/٤٦٣).



خَبْرُ الْمُبْتَدَأِ الْأَوَّلِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿هُوَ﴾ ضَمِيرَ فَضْلٍ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّهَا تَأْتِي بِهَذِهِ الصِّيغَةِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وَضَمِيرُ الْفَضْلِ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى فَلَهُ ثَلَاثُ فَوَائِدُ:

الفائدة الأولى: الحَضْر.

والفائدة الثانية: التَّوَكِيد.

والفائدة الثالثة: التَّمْيِيزُ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْحَبْرِ.

والتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحَبْرِ وَالصِّفَةِ يَظْهَرُ هَذَا فِي الْمِثَالِ.

إِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ الْفَاضِلُ. وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ (الْفَاضِلُ) خَبْرَ الْمُبْتَدَأِ، فَإِنَّهُ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (الْفَاضِلُ) صِفَةً، وَالْحَبْرُ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَيْدُ الْفَاضِلِ فَاهِمٌ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (الْفَاضِلُ) خَبْرَ الْمُبْتَدَأِ، فَإِذَا جَاءَتْ زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ، زَالِ الْإِشْكَالِ، وَتَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ (الْفَاضِلُ) خَبْرَ الْمُبْتَدَأِ.

أَمَّا التَّوَكِيدُ وَالْحَضْرُ فَظَاهِرٌ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ. أَكَّدْتَ أَنَّهُ فَاضِلٌ، وَحَضَرَتْ الْفَضْلُ فِيهِ.

وقوله: ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ الْفَوْزُ: حُصُولُ الْمَطْلُوبِ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ زُحْرَجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ فِي الْآيَةِ ﴿فَمَنْ زُحْرَجَ عَنِ النَّارِ﴾ وَحُصُولُ الْمَطْلُوبِ ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ وَلَا تَفْسِيرَ أَبْيَنُ وَأَوْضَحُ مِنْ تَفْسِيرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَالْفَوْزُ

هو: النَّجَاةُ من المَرْهوبِ وحُصولِ المَطْلُوبِ، والدليل ما سَمِعْتُمْ.

وقوله: ﴿الْعَظِيمُ﴾ وَصَفَ لَهُ بِالْعَظَمَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، لَا فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بِسُكْنَى هَذِهِ الدَّارِ - جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ سَاكِنِيهَا - الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، كُلِّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا - الْمُؤْمِنُونَ - يَسْعُونَ لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ؛ وَهَذَا لَمَّا قَالَ الْأَعْرَابِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا لَا أَحْسِنُ دُنْدَنْتَكَ وَلَا دُنْدَنَةَ مُعَاذٍ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَأَسْتَعِيذُ بِهِ مِنَ النَّارِ فَقَالَ: «حَوْهَمَا نُدُنْدُنٌ»<sup>(١)</sup>، نَحْنُ لَا نُرِيدُ إِلَّا هَذَا، وَهَذَا الْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ فِي صِحَّتِهِ مَا فِيهِ، لَكِنْ حَقِيقَةٌ هُوَ هَذَا، كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ يَعْمَلُونَ لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ، وَهُوَ - أَيُّ: الْعَمَلِ لَهَا - يَسِيرٌ، لَكِنْ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَتَى يُيسِّرَ اللَّهُ عَلَيْكَ ذَلِكَ؟ اسْمَعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، الْجَوَابُ: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، اَعْمَلْ أَنْتَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»<sup>(٢)</sup>.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله يسألون الله تعالى أن يقبلي الذين آمنوا السيئات؛ أي: عذابها حتى يتم لهم المطلوب.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٧٤/٣)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، رقم (٧٩٢)، من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ. وأخرجه ابن ماجه: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَى﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: أليس هذا حاصلاً مما سبق ﴿وَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، ﴿وَأَذْخَلَهُمْ جَنَّةٍ عَذْنٍ﴾؟

قلنا: بلى، ولكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط لعدة أسباب:

السبب الأول: أن الدعاء عبادة، فكُلَّمَا بَسَطْتَ فِيهِ اَزْدَدْتَ تَعَبُّدًا لِلَّهِ، وَازْدَدْتَ ثَوَابًا وَأَجْرًا.

الثاني: أن البسط فيه التفصيل، والتفصيل خير من الإجمال؛ لأن الإجمال قد ينسى الإنسان فيه أشياء مهمة، ولا تَطْرَأُ عَلَى بَالِهِ، لَكِنْ إِذَا فَصَّلَ تَبَيَّنَ الْأَمْرُ.

الثالث: أن التفصيل في الدعاء انبساط مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الداعي يُناجِي رَبَّهُ.

ومن المعلوم أن مُناجاةَ المَحْبُوبِ يُسْتَحَبُّ فِيهَا التَّطْوِيلُ، أَوْ نَقُولُ بِعِبَارَةٍ ثَانِيَةٍ: مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مُنَاجَاةَ الْمَحْبُوبِ مُحِبُّ الْحَبِيبِ أَنْ تَطُولَ الْمُنَاجَاةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَبِيبِهِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهِدٌ، إِذَا جَلَسَ إِلَيْكَ مَنْ تُحِبُّ، فَإِنَّكَ تَوَدُّ أَنْ يَطُولَ الْحَدِيثَ، وَيَطُولَ الْجُلُوسَ حَتَّى إِنْ الزَّمَنَ يَنْفَرِطُ بِسُرْعَةٍ، وَإِنْ جَلَسَ إِلَيْكَ الثَّقِيلَ، قُلْتَ:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِدَارِ قَوْمٍ فَمَا لِلْسَّاكِنِينَ سِوَى الرَّحِيلِ<sup>(١)</sup>

فأحياناً يجلس إليك الثَّقِيلُ، يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ، كُلَّمَا خَاطَبَكَ بِكَلِمَةٍ وَلَوْ كَانَتْ ثَنَاءً عَلَيْكَ كَأَنَّهَا صَفْعٌ وَجْهَكَ؛ لِأَنَّكَ يَكُونُ عِنْدَكَ كَأَنَّهُ جَالِسٌ عَلَى قَلْبِكَ، لَكِنْ الْحَبِيبُ إِذَا جَلَسَ إِلَيْكَ لَا تَوَدُّ أَنْ تُفَارِقَهُ، وَلَا تَمَلُّ حَدِيثَهُ، وَلَكِنْ مِنْ خَيْرِ الْجُلُوسِ؟

(١) انظر: روض الأبخار المنتخب من ربيع الأبرار لابن قاسم الأماصي (ص: ٣٤٤).

لَنَا جُلَسَاءٌ لَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ      أَلْبَاءٌ مَأْمُونُونَ غِيًّا وَمَشْهَدًا<sup>(١)</sup>  
يَعْنِي بِذَلِكَ: الْكُتُبُ.

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرَجٌ سَابِحٌ      وَخَيْرٌ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ<sup>(٢)</sup>  
هُوَ لِإِهْمِ الْجُلَسَاءِ الَّذِينَ لَا يَمَلُّونَ وَالَّذِينَ يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ.  
فَيَنْبَغِي الْبَسْطُ فِي الدُّعَاءِ لِثَلَاثَةِ أَسْبَابٍ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ، فَكُلَّمَا بَسَطْتَ فِيهِ ازْدَدْتَ تَعَبُدًا وَتَقَرُّبًا لِلَّهِ.  
الثَّانِي: أَنَّهُ تَفْصِيلٌ، وَالتَّفْصِيلُ خَيْرٌ مِنَ الْإِجْمَالِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي التَّفْصِيلِ مَا  
يَغِيبُ عَنكَ عِنْدَ الْإِجْمَالِ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ انْبِسَاطٌ مَعَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْكَ، وَالْحَدِيثُ مَعَ الْمَحْبُوبِ  
لَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُحِبُّ أَنْ يَطُولَ.

وَانظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةً وَجِلَّةً،  
عَلَانِيَةً وَسِرَّةً، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا  
أَسْرَرْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي»<sup>(٣)</sup>، يَكْفِي عَنِ هَذَا كُلِّهِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي،  
لَكِنَّ الْبَسْطَ لَهُ تَأْثِيرٌ عَلَى الْقَلْبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ مَنْ وَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَقَدْ دَخَلَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ:  
﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾.

(١) انظر: سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي (ص: ٢٠٧).

(٢) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص: ٤٧٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣)، من حديث أبي

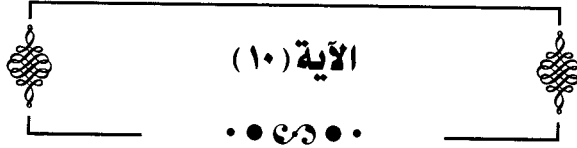
الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرَّحْمَةَ كما تَكُونُ في جَلْبِ المَحْبُوبِ تَكُونُ في دَفْعِ المَكْرُوهِ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ نَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هذا أعظم فوز؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ووجهه: أنه أشار إليه بإشارة البعيد؛ للدلالة على علو هذا الفوز، ووصفه بالعظمة، فيكون جامعاً بين علو المرتبة وعلو الماهية أنه عظيم.

فإن قال قائل: قلنا: هو الفوز العظيم في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ هل يدخل النظر إلى الله عَزَّجَلَّ في هذه الآية؟

فالجواب: أي نعم؛ لأن الجنة وما فيها فوز، دخول الجنة فوز، وأعظم النعيم في الجنة هو النظر إلى وجه الله؛ ولهذا ذكرنا أن قول الزمخشري: «أي فوز أعظم من هذا»<sup>(١)</sup> قلنا: هذه كلمة حقيقة، ولا يعترض عليها إلا لأننا نعلم أن الرجل لا يثبت النظر إلى وجه الله، وإلا لقلنا: متى دخلت الجنة فأنت دخلت الجنة بكل ما فيها من النعيم.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].



قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ والنداء: هو الكلام من بعيد، والمناجاة الكلام من قريب، ولم يُبين الله تعالى من يُناديهم، لكن المفسر رحمه الله قال: [من قبل الملائكة]، وذلك عند دخولهم النار، وهم يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت أكبر مقتٍ - والمقت: هو أشدُّ البُغض -، فهم في ذلك الوقتِ عند دخولهم النار يُبغضون أنفسهم بُغضاً شديداً؛ حيث لم يتوصلوا إلى النجاة منها، فينادون فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ اللام هنا لام الابتداء، وتدخل على المبتدأ توكيداً.

وقوله رحمه الله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ [إياكم]، هذا أحد الوجهين في الآية، وعلى هذا فيكون المقت مضافاً إلى فاعله لا إلى مفعوله، يعني: لبُغض الله إياكم أشدُّ من بُغضكم أنفسكم، وقيل: إنه مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله، وعلى هذا يكون المعنى: لَمَقْتُكُمْ اللهُ حين تُدْعَوْنَ إلى الإيمان أكبر من مَقَّتكم أنفسكم اليوم، أي: أنهم كرهوا ما دُعوا إليه في الدنيا من محبة الله، وأبدلوا ذلك بأشدُّ البُغض، وهذا المعنى أقرب مما مشى عليه المفسر رحمه الله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ [إياكم]، وعلى ما رجحنا يكون المعنى: لَمَقْتُكُمْ اللهُ، فهو مضاف إلى مفعوله.

متى مَقَتُوا الله؟ الجواب: ﴿إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿لَمَقَتُ اللهُ﴾، أي: أنكم حينما دُعِيتُم إلى الإيمان كرهتم ذلك، ولم تَقْتَنِعُوا به، بل أَبْغَضْتُمُوهُ أَشَدَّ الْبُغْضِ.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ حين قيل لهم: ادخلوا نار جهنم، فأبغضوا أَنْفُسَهُمْ، وقوله: ﴿مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ مَقَّتْ هُنَا مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى فَاعِلِهِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ هُم مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَنْفُسٌ مَفْعُولٌ مَقَّتْ.

وقوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تَدْعُونَ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَبِيهِم الدَّاعِي؛ لِأَنَّ دَعْوَتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ تَكُونُ مِنَ الرُّسُلِ، وَتَكُونُ مِنْ وَرَثَةِ الرُّسُلِ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ، فَالدَّاعِي لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا لَيْسَ وَاحِدًا، بَلْ هُمُ الرُّسُلُ يَدْعُونَهُمْ، وَوَرَثَةُ الرُّسُلِ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ يَدْعُونَهُمْ كَذَلِكَ.

وقوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدْرَ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ كَمَا فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ حين سَأَلَهُ جِبْرِيلُ قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ...» إِلَى آخِرِهِ (١).

فقوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ المراد بِالْإِيمَانِ هُنَا - كما ذَكَرْتُ لَكُمْ - هُوَ الْإِيمَانُ بِالْأَرْكَانِ السَّتَّةِ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ الْإِيمَانُ هَذِهِ الْأَرْكَانِ السَّتَّةِ؛ وَلِهَذَا هُم دُعُوا إِلَى الْإِيمَانِ الَّذِي فِي الْقُلُوبِ، وَدُعُوا إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ أَيْضًا وَهُوَ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ، وَكَفَرُوا بِذَلِكَ كُلِّهِ، ﴿إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

## من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان أن الكافرين يُوبَّخون يوم القيامة توبيخاً يزيدهم ألماً إلى أَلَمِهِمْ؛ لقوله: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

الفائدة الثانية: أنهم تَبَيَّنَ لهم ما هم عليه من الضلال والكفر حين رأوا العقاب، وجهه: أنهم مَقَّتُوا أَنْفُسَهُمْ في ذلك الوقت حين رأوا العذاب، وهذا يدلُّ على أنهم تَبَيَّنَ لهم الضلال في ذلك اليوم.

الفائدة الثالثة: إثبات المَقَّتِ لله؛ أي: أن الله يَمَقَّت. أي يُبَغِض. هذا على ما مَشَى عليه المفسر من أن (مَقَّت) مضافة إلى الفاعل.

وإذا قلنا بالقول الراجح: لم يكن في الآية دليل على أن الله يَمَقَّت، لكن الدلالة على أن الله يَمَقَّت وأن له مَقَّتاً من أدلة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقَّتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، والمَقَّت: أشدُّ البُغْض، والبُغْض هو من الصِّفَاتِ الفِعْلِيَّةِ التي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وإرادته.

الفائدة الرابعة: أن الإنسان قد يكره نفسه، ويكون ذلك إذا رأى من تصرُّفه ما يسوؤه، فإنه يكره نفسه ويقول: هذا من النفس الأمارة بالسوء.

الفائدة الخامسة: أن الحجة قد قامت على هؤلاء المكذبين المعديين؛ لقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وهل الدعوة دعوة بإفهام أو دعوة بمجرد البلاغ؟ الجواب: الأوَّل؛ دعوة بإفهام؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلا بُدَّ من فهم الحجة، ولكن إذا بلغت الإنسان فالواجب عليه أن يبيح عن الفهم، فإن لم يفعل كان مقصراً.



الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنْ هَؤُلَاءِ كَفَرُوا عَنْ عِنَادِ، يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ نَدَعُونَ  
إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ دَعَوْا فَكَفَرُوا، وَهَذَا كُفْرُ عِنَادِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.



## الآية (١١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١].

• • • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ ﴾ الإماتة هنا ما كان قبل الحياة وبعد الحياة، ما كان قبل الحياة أي وهم أجنَّة في بطن أمهاتهم، وما كان بعدها وهو الموت الذي يكون بعد الوجود في الدنيا، هاتان مِيتَتان، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ ﴾ الحياة وهم أجنَّة في بطن أمهاتهم، والحياة بعد البعث يوم القيامة، أو حين البعث يوم القيامة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] هذه أربعة: إماتتان، وإحياءتان، فهم يقولون - كما ذكر المفسر -: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ ﴾ إماتتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ ﴾ إحياءتين؛ لأنهم نُطِفَ أموات، فأُحْيُوا، ثم أُمَيِّتُوا، ثم أُحْيُوا للبعث]، هذا تفسير: ﴿آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ ﴾.

والإماتة الأولى ليست إماتة بعد حياة، ولكنها فقد حياة، فصَحَّ أن يُطَلَّقَ عليها اسمُ الموت، وقصدهم بهذا الإقرارِ بأن الأمر حَقٌّ، فكما أننا نُدرِك أنه مرَّت بنا هذه الأطوارُ الأربعة: مَوْتٌ فحياة، ثم مَوْتٌ فحياة، فإننا نَتَيَقَّن أننا أخطأنا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَاعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ يعني: فقد اعترفنا بذنوبنا.

فإن قال قائل: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْتَنَا أَتْنَيْنِ﴾ هل يقصد بالميتتين: الموت في الدنيا حين المنام، والموت في الأخرى في يوم القيامة؟

فالجواب: لا يصح؛ لأن ميتة الدنيا في المنام ليست هي مرتين، ولا ثلاثاً، ولا أربعاً، ولا مئة، الإنسان في الشهر ينام على الأقل ثلاثين مرة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ فإذا بعثنا من ميتة الليلة البارحة جاءت الليلة الثانية، متنا ثانية، والتي وراءها، والذي ينام بعد صلاة الفجر، والذي ينام في القيلولة، والذي ينام بعد العصر، أربع مبات في يوم واحد.

والذنوب جمع ذنب وهو: المعصية، والمراد بها هنا الكفر، كما قال المفسر رحمه الله: [بكُفْرنا بالبُعْثِ ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ من النار]، و(هل) هنا للتمني، يعني أننا نتمنى الخروج من النار ولكنه لا يحصل لهم ذلك.

قال المفسر رحمه الله: [﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ من النار والرجوع إلى الدنيا لنطيع ربنا ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ من طريق؟ وجوابهم: لا] وهذا من المفسر بناءً على أن الاستفهام على بابه، أنهم يسألون: هل لنا من طريق فنخرج؟ أمّا على ما قلنا: إنه للتمني فلا يحتاج إلى جواب، فهو كقوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات اعتراف هؤلاء المكذبين بأنهم كفروا بالله، وأنهم مستحقون لهذا العقاب.

الفائدة الثانية: إقرار الكفار بما كانوا ينكرونه من قبل من البعث، وهذا معنى قوله: ﴿فَاعترفنا بذنوبنا﴾.

الفائدة الثالثة: أنهم في ذلك اليوم تبين لهم الحق، وصحة القياس؛ لأنهم قالوا: ﴿أَمْتَنَا أَتْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَتْنَيْنِ﴾، فالميتة الأولى قبل أن تنفخ فيهم الروح قد أقرؤا بها، والحياة الدنيا قد أقرؤا بها في الدنيا وهم أحياء، لكن أنكروا البعث بعد الموت، وأمّا الآن فقالوا: نعم البعث بعد الموت كنفخ الروح في الجنين. يعني: أنا نيقنا الآن أن ما ذكره الله عز وجل من قياس الإعادة على الابتداء أمر حقيقي، وأنا أحيينا مرتين وأمتنا مرتين.

الفائدة الرابعة: شدة حسرة هؤلاء على ما فعلوا، وتمنيهم الخروج مما وقعوا فيه من العذاب؛ بقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

وفي هذه الآية إعرابٌ مُشكِل، وهو أن قوله: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ جملة خلت من أحد الركنين فيها وهو المبتدأ؛ لأن الذي أمامنا الآن جارٌّ ومجرورٌ في الخبر، وفيما هو محلٌّ للمبتدأ.

إذن: المبتدأ ﴿سَبِيلٍ﴾ دخلت عليه حرف (من) الزائدة إعراباً، ولهذا نقول في إعرابها: (من) حرف جر زائد، و﴿سَبِيلٍ﴾ مبتدأ مرفوع بضمّة مقدّرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.



## الآية (١٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

•••••

قال المفسر رحمه الله: [﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي: العذاب الذي أنتم فيه]، فالمشار إليه موجود، أي: أن العذاب الذي أنتم فيه بسبب كذا وكذا، وهنا قال: ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ وتأتي أحياناً بذلك، وتأتي أحياناً بذلكن، وتأتي أحياناً بذلكما، فما هو السبب في تغير الخطاب في هذه الإشارات؟ فيقال: اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب التي بعدها بحسب المخاطب.

فإذا أشرت إلى واحد مخاطباً اثنين فقل: «ذلِكُما»، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لصاحبي السجن: ﴿ ذَلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ [يوسف: ٣٧].

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطباً واحداً تقول: «ذَانِك»؛ كقوله تعالى: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَنَانٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٣٢].

وإذا أشرت إلى واحد مخاطباً جماعة ذكور، تقول: «ذَلِكُهم»، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٣].

وإذا أشرت إلى واحد مخاطباً جماعة إناث تقول: «ذَلِكُنَّ»، قالت: ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢].

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا اثنين تقول: «ذانكما».

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا جماعة ذكور تقول: «ذانكم».

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا جماعة إناث تقول: «ذانكن».

وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبًا جماعة ذكور تقول: «أولئكم».

وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبًا جماعة إناث تقول: «أولئكن».

وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبًا اثنين تقول: «أولئكما».

المهم: أن اسم الإشارة بحسب المشار إليه، والكاف بحسب المخاطب، إن كان مفردًا مذكرًا فالكاف تكون مفردة مذكّرة، وإن كان مفردًا مؤنثًا فكذلك، ومثنى، وجمعًا كذلك، هذا هو الأصح.

وربما تأتي الكاف مفتوحة للمخاطب المذكر مطلقًا، واحدًا كان أو مثنى أو جماعة، ومكسورة للمخاطب المؤنث مطلقًا، واحدة أو اثنتان أو جماعة.

وربما تأتي الكاف مفتوحة مفردة لكل مخاطب، فتقول: «ذلك». تُخاطب الرجل، والمرأة، والاثنين، والجماعة.

فهذه ثلاث لغات في كاف الخطاب المقترن باسم الإشارة، الأصح أن يكون بحسب المخاطب، ثم مفتوحًا في المذكر، ومكسورًا في المؤنث، ثم مفتوحًا على كل حال مفردًا مذكرًا.

هنا يقول عزّ وجلّ: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ﴾ المشار إليه واحد، والمخاطب جماعة ذكور ﴿ذَلِكُمْ﴾: فالمخاطبون جماعة ذكور.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [أي: العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِأَنَّهُ﴾ ❖ أي: بسبب أنه في الدنيا ﴿إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ ❖]، إذا دُعِيَ اللهُ وحده كفرتم وأشركتم، وقُلتُم: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ❖ [ص: ٥].

قال رَحِمَهُ اللهُ: [﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده ﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ﴾ ❖ يجعل له شريك ﴿تُؤْمِنُوا﴾ ❖ تصدقوا بالإشراك].

وهذا هو الواقع: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ❖ [الزمر: ٤٥]، فهم يصدقون بقلوبهم، ويستبشرون بألستهم، وهذا الإيذان في الواقع قد نقول: إنه إيذان حقيقي، وقد نقول: إنه إيذان دعوي، يعني: أنه دعوة، وأنهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله، وانظروا إلى أكفر أهل الأرض فرعون، كيف أنكر الخالق، وادّعى الربوبية، وقال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ❖ [القصص: ٣٨]، ومع ذلك كان مؤمناً في قرارة نفسه، قال له موسى وهو يحاوره: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ ❖ [الإسراء: ١٠٢].

هذه الآية أقول لك: تدلُّ على أن فرعون كان مؤمناً بربوبية الله، وذلك لأنه لما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ❖ لم يقل: لم أعلم، وهو في مقام يرى نفسه أعلى من موسى، يعني: يستطيع أن ينكر دعوى موسى لو كان ينكر ذلك، لكنه يُقرُّ بأن الله أنزل التوراة على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ❖ [النمل: ١٤]؛ ولهذا لا يمكن لأحد عاقل - وأريد بالعاقل من سوي المجنون - أن ينكر أن لهذا

العالم خالقًا أبدًا، كل إنسان عاقل إذا تدبّر أدنى تدبّر في هذا الكونِ علم أن له ربًّا مُدبّرًا، ولا يُمكن أن يُنكر.

فائدة: هناك قولٌ أن فرعونَ أصله عربيٌّ ويقولون: اسمه مُصعب بنُ رِيان. ونقول: من قال هذا؟ فرعونُ قِبطيٌّ وخبيث، وهو بريء من العرب، والعرب بريئون منه، لكن اليهود من المُمكن أنهم هم من قالوا هذا الكلام؛ لأن اليهود من بني إسرائيل، وفرعون عدوهم، والعرب الآن أعداؤهم، فأرادوا أن يضعوا آل فرعون معهم.

فقوله هنا: ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ الذي يظهر لنا أنه إيمان دعوى، يعني يقول: نُؤمن بأن هذا شريك مع الله، يقولونه بألسنتهم، أمّا في قرارة قلوبهم فلا نظنُّ أن أحدًا يُنكر أن الله سُبحانه وتعالى واحد، وقد يُقال: إن المراد بقوله: ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ توحيد الألوهية. يعني: يكفرون بتوحيد الألوهية، ويؤمنون بالشرك في الألوهية؛ لأنهم يؤمنون بأن هذه الآلهة تُقرّبهم إلى الله زُلْفَى، فإذن هم مؤمنون بالله ربًّا، ويؤمنون بالأصنام شُفَعَاءَ.

ولا شك أن عبادة الرهبان والأحبار بالمعنى الذي فسره الرسول ﷺ ليست كعبادة الأصنام، لأنَّ عبادة الأصنام عبادة تقرب وخضوع، وعبادة الأحبار والرهبان عبادة أتباع، ولا شك أنها عبادة كما جاء في الحديث.

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]، فإذا كانت عبادة الأحبار والرهبان كعبادة المسيح ابن مريم، لزم من هذا أنهم



يَعْبُدُونَهُمْ عِبَادَةَ التَّقَرُّبِ، لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لَعَدِيَّيْنِ بِنِ حَاتِمٍ: «أَلَيْسُوا يُجِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ؛ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟» قال: نَعَمْ. قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»<sup>(١)</sup> فهذه عِبَادَةُ أَتْبَاعِ، وَغَالِبِ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ تَقَرُّبٌ وَتَعْظِيمٌ.

فإن قال قائل: ماذا يُقصد بقول بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ، كَفَرْتُمْ؟ يقول: «فيه متروك استغني عنه بدلالة الظاهر عليه، ومجازه ألا سبيل إلى ذلك؟»

فالجواب: هذا قصده لما قالوا: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] كأنه قال: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم قدتمم لأنفسكم ما لا يمكن معه الخروج، وهو أنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم وإن يُشرك به تؤمنوا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَالْحُكْمُ﴾] فِي تَعْذِيْبِكُمْ ﴿لِلَّهِ الْعَلِيِّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿الْكَبِيرِ﴾ الْعَظِيمِ]. يَعْنِي: فَبِنَاءٍ عَلَى أَنَّكُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَكُونُ حُكْمُكُمْ إِلَى اللَّهِ، فَالْفَاءُ حَيْثُ تَكُونُ؛ إِمَّا لِلإِسْتِثْنَاءِ، وَإِمَّا لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَا سَبَقَ. يَعْنِي: فَبِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ يَكُونُ الْحُكْمُ فِي أَمْرِكُمْ إِلَى اللَّهِ، الْحُكْمُ فِي تَعْذِيْبِكُمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَاللَّامُ تَكُونُ بِمَعْنَى الْغَايَةِ أحيانًا، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ. بِمَعْنَى: إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا الْحُكْمُ لِلَّهِ. أَي: إِلَى اللَّهِ. أَي: أَنَّ حُكْمَكُمْ يَنْتَهِي إِلَى اللَّهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: الْحُكْمُ لِلَّهِ. أَي: مُسْتَحِقٌّ لَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿الْعَلِيِّ﴾] عَلَى خَلْقِهِ [عُلُوَّ ذَاتِ، وَعُلُوَّ صِفَةِ، فَالْحِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالٍ عَلَى خَلْقِهِ فِي ذَاتِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَالٍ عَلَى خَلْقِهِ فِي صِفَاتِهِ، قَالَ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] المثل يعنني: الوصف الأعلى في السموات والأرض.

وعُلُوُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عُلُوًّا مَعْنَوِيًّا، وهو عُلُوُّ الصِّفَةِ أَمْرٌ مُّجْمَعٌ عَلَيْهِ، لم يُخَالَفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ حَتَّى الْمَعْطَلُونَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، إِنَّمَا أَنْكَرُواهَا بِنَاءً عَلَى تَنْزِيهِهِمْ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَإِنْ كَانُوا أَخْطَؤُوا الطَّرِيقَ لَكِنْ هُمْ يَقُولُونَ: نَحْنُ نَقُولُ هَذَا تَنْزِيْهًا لِلَّهِ؛ وَهَذَا يُسَمُّونَ الَّذِينَ يُثَبِّتُونَ الصِّفَاتِ: الْمُشَبَّهَةَ، وَالْمُجَسِّمَةَ، وَالْحَشْوِيَّةَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَيَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ هُمْ أَهْلَ التَّوْحِيدِ!.

فَعُلُوُّ الصِّفَةِ لم يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ، حَتَّى أَهْلَ الْبِدْعِ يُقَرُّونَ بِذَلِكَ.

وَأَمَّا عُلُوُّ الذَّاتِ فَهُوَ مَحَلُّ الصَّرَاحِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ عَالٍ عَلَى خَلْقِهِ بِنَفْسِهِ، وَأَهْلُ التَّعْطِيلِ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ انْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ:

قِسْمٌ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فِي السَّمَاءِ، فِي الْأَرْضِ، وَفِي الْأَسْوَاقِ، وَفِي الْمَسَاجِدِ، وَفِي الْبُيُوتِ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَقِسْمٌ آخَرٌ قَالُوا: لَا يُوصَفُ أَنَّهُ فِي مَكَانٍ، فَلَا يُقَالُ: فَوْقَ الْعَالَمِ، وَلَا فِي الْعَالَمِ، وَلَا تَحْتَهُ، وَلَا يَمِينَهُ، وَلَا شِمَالَهُ، وَلَا مُتَّصِلٌ بِالْعَالَمِ، وَلَا مُمَاسِّسٌ لَهُ، وَهَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ الْمَحْضُ؛ لِأَنَّا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَصِفَ الْمَعْدُومَ لَمْ نَجِدْ أَبْلَغَ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ، إِذْ خَالَفَ فِي عُلُوِّ الذَّاتِ طَائِفَتَانِ:

الطَّائِفَةُ الْأُولَى، قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِنَفْسِهِ، وَهُوَ قَوْلٌ قَلِيلٌ حَقِيقَةٌ، وَلَكِنْ لَا تَظُنُّوا أَنَّهُ تَصَوُّرٌ، فَيُوجَدُ الْآنَ مَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِنْ جِئْتَ السُّوقَ

وَجَدْتَهُ فِي السُّوقِ، وَإِذَا قَالُوا: بِالْجَبْرِ قَالُوا: فِي السُّوقِ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي؛ لِأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ مَنسُوبٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا كَانَ الَّذِي فِي السُّوقِ هُوَ فِي السُّوقِ، وَفِعْلُ الْعَبْدِ فِعْلُهُ لَصَارَ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي!! وَإِذَا جِئْتَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ، يُصَلِّي أَوْ يَقْعُدُ! لَا نَدْرِي! إِذَا أَتَيْتَ فِي أَيِّ مَكَانٍ وَجَدْتَهُ فِيهِ. نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ! هَذَا مِنْ لَازِمِ قَوْلِهِمْ.

وَنَحْنُ نَفْصِلُ هَذَا عَنْ مَسْأَلَةِ الْجَبْرِ حَتَّى لَا نَصِلَ إِلَى نِهَايَةِ سَيِّئَةٍ جِدًّا، نَقُولُ: هُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى قَالَ لَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ: كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَقُولُوا: إِنَّهُ فِي أَمَاكِنِ الْقَدَرِ وَالْأُدَى؟ قَالُوا: نَقُولُ: إِذَا دَخَلْتَ أَنْتَ الْمَكَانَ صَارَ اللَّهُ مَعَكَ، أَيُّ مَكَانٍ تَدْخُلُهُ فَاللَّهُ مَعَكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ أَنْكَرُوا عُلُوَّ الذَّاتِ يَسْتَدِلُّونَ بِآيَةِ ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

فَالْجَوَابُ: ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] هَلْ هَذَا يُنَافِي الْعُلُوَّ حَتَّى يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى عَدَمِهِ؟ فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ فَوْقَكَ وَهُوَ أَمَامَكَ، هَذَا فِي الْمَخْلُوقِ، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ؟! ثُمَّ كَيْفَ تُورِدُ آيَةَ تُحْتَمَلُ عَلَى آيَاتٍ مُحْكَمَةٍ لَا تُحْتَمَلُ وَهُوَ الْعُلُوُّ؟ انْتَبِهُوا لِهَذَا؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ يُورِدُونَ الْمُتَشَابِهَ عَلَى الْمُحْكَمِ، وَلَا يَحْمِلُونَ الْمُتَشَابِهَ عَلَى الْمُحْكَمِ، يُورِدُونَ الْمُتَشَابِهَ عَلَى الْمُحْكَمِ؛ لِتِنَاقُضِهِ، وَلَيْسُوا يَحْمِلُونَ الْمُتَشَابِهَ عَلَى الْمُحْكَمِ لِيَكُونَ مُحْكَمًا، وَهَذَا هُوَ الْبَلَاءُ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ» هَكَذَا رَوْتُهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(١)</sup>.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ «مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَةٌ»، رَقْمٌ (٤٥٤٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، رَقْمٌ (٢٦٦٥).

وهذه مسألة أحبُّ أن أنبِّهكم عليها، وهو أنه إذا وردت آيات مُتعارضة، وأحاديث مُتعارضة، فلا تُوردوها على أنفسكم على أنها مُتعارضة، أو رُدوها على أنفسكم على أنكم تطلبون الجمع بينها؛ لتوفَّقوا للجمع، أمَّا إذا أُوردتم هذه على أنها مُتعارضة بقيت محلَّ إشكال، وأنا دائماً أنهاكم عن هذا، أقول: لا تُوردوا الآيات المُشابهة التي ظاهرها التَّعارض، أو الأحاديث كذلك على أنها مُتعارضة، أو رُدوها على أنكم تُريدون الجمع بينها، لا أن بعضها مُعارض لبعض، حتى تُهدُوا إلى الصُّراط المُستقيم؛ لأن هناك فرقاً بين الإيراد وبين الرَّدِّ، إيراد المُشابه على المُحكَّم معناه: أنه يُطلب التَّعارض، لكن رَدُّ المُشابه إلى المُحكَّم هذا معناه أنه حاول الجمع دون أن يتصوَّر التَّعارض، وهذه المسألة كما تكون في الأمور العِلْمية تكون أيضاً في الأمور العمليَّة.

أحياناً ترد عن النبي ﷺ صفاتٌ في عبادة واحدة، فيظنُّ الظانُّ أن هذا تعارض، لكن نقول: لا تقرُّها ولا تُوردُها على نفسك على أنها مُتعارضة، لا، أو رُدّها على أنك تجمِّع بينها، فتحمِل هذه على وجهٍ وهذه على وجهٍ، وأكثر ما يكون الشكُّ للطالب أنه يُورد الآيات المُتعارضة التي ظاهرها التَّعارض، أو الأحاديث التي ظاهرها التَّعارض على أنها مُتعارضة، لكن لو أُوردتها على أنه يرُدُّ بعضها إلى بعض، ويضُمَّ بعضها إلى بعض، لو جد وجهاً ومخرَجاً ممَّا كان يظنُّ، وهذا شيء إذا فعلتموه ستنتفعون به، إن شاء الله.

فالذين قالوا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجَّهُ لِيهِ﴾ [البقرة: ١١٥] يدلُّ على عدم العلوِّ فيعارض أدلة العلوِّ. نقول: من قال هذا؟! من قال: إنه يدلُّ على عدم العلوِّ؟! وإذا كان الشيء مُقابلاً لك فلا يلزم أن يكون مُحاذياً لك، قد تقول:

هذا عن يميني وهو أسفل شيء، لكن مع الجهة اليمينية، وهذا عن يساري وهو أسفل شيء، وهو عن الجهة اليسرى، كما جاء في حديث المعراج: «أن على يمين آدم أسودة وعلى يساره أسودة، فإذا رأى إلى اليسار بكى»<sup>(١)</sup> اليسار هي نسمة بينه الكفرة في النار، وهذا في الأسفل، فلا يلزم من كون الشيء على يمينك أن يكون محاذياً لك، ولا يلزم من كون الشيء فوقك أن يكون محاذياً لك، ولا من كونه أسفل منك أن يكون محاذياً لك، هذا ليس بلازم، لكن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه؛ لإيراد التشكيك.

القول الثاني: قالوا: لا يصح أن يوصف الله بأي مكان، لا فوق، ولا تحت، ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا اتصال بالعالم، ولا انفصال من العالم. وقد قال محمود بن سبكتين لمحمد بن فورك وهو يناظره في هذه المسألة<sup>(٢)</sup> قال له: إذا قلت هذا فأثبت لنا ربك، إذا كان لا هو فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا متصلاً ولا منفصلاً، ولا مبيناً ولا محاذياً أين يكون؟ لا يكون، وهذا العدم تماماً.

فليس بصحيح أنه ليس بيمين ولا بشمال، لكنه ووصف نفسه بما هو أحسن من هذا؛ لأنه لو قال: لا يمين ولا شمال صارت الصفة صفة سلبية، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ انتفى اليمين والشمال بوصف ثبوتي، لا بوصف سلبي، والوصف الثبوتي أكمل من الوصف السلبي؛ لأن دلالة الوصف السلبي على الإثبات دلالة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسرائ، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسرائ برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/٣٧).

التزام، قد يُنكرها مُنكر ولا يلتزم بها.

فإن قال قائل: نفي العدم يعني القول بأن الله لا فوق ولا تحته، ولا يمين ولا شمال، فيما إذا استدلل القائلون به؟

فالجواب: نقول: لأنك إذا أثبت أنه في جهة فقد جسمت -أي: جعلته جسمًا- إذا صار فوق معناه أنه جسم، ويمينا وشمالا كذلك، كل هذا فرارًا من التجسيم، والسبب أن الشيطان تلاعب بهم في الواقع، وإلا نقول لهم: ما هو التجسيم الذي تريدون أن تنفوه عن الله، تريدون أن الله ليس بشيء؟ فنحن لا نوافقكم، تريدون أن الله تعالى جسم موصوف بالصفات الكاملة؟ فهو كذلك هو موصوف بالصفات الكاملة، لكن لا نطلق لفظ جسم على الله أبدًا، وقد ورد في الحديث ما يدل على أنه يوصف بالشخص<sup>(١)</sup>، ومع ذلك لا نقول: إنه شخص كأشخاص المخلوقين أبدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فالحاصل: أن العلو قول المفسر رحمه الله: ﴿الْعَلِيِّ﴾ على خلقه [نقول: العلو نوعان: علو صفة، وعلو ذات].

أما علو الصفة: فهذا لم ينكر أحد من أهل القبلة حتى المبتدعة أنه منفي عن الله، كلهم يثبتون لله علو الصفة، لكن أهل التعطيل يرون التعطيل من باب التنزيه، ورفع الله عز وجل، وأهل التمثيل كذلك يرون هذا من باب تعظيم الله عز وجل وإثبات حقيقته.

وأما علو الذات: فهو الذي انقسم فيه الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة التي سمعتموها.

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٩)، بلفظ: «لا شخص أعير من الله».

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿الْكَبِيرِ﴾ العَظِيمِ] وهذا تفسير تقريبي، ولو قال: الكبير ذو الكبرياء لكان أقرب، فهو كبير عَزَّجَلَّ ذو كبرياء، وهو كبير أيضًا، كبير باعتبار ذاته، لا يُحيط به شيء من مخلوقاته، والسَّمَوَاتِ السَّبْعِ والأَرْضُونَ السَّبْعِ في يده كخَرْدَلَةٍ في يَدِ أَحَدِنَا.

مسألة: هل يجب على الإنسان أن يُبلغ الناس أنه يجب عليهم أن يبحثوا، ثم كيف تقول لهم هذا وهم أصلاً كُسالى، لا يبحثون وجهلة؟

فالجواب: نحن لا نتكلم عن العرب، العرب يفهمون الدعوة بمجرد أن تبلغهم، بل نتكلم عن قوم لا يفهمون المعنى، يجب عليهم أن يبحثوا، أما عوام الناس الآن فقد بلغتهم وفهموها؛ ولهذا يعرفون معنى لا إله إلا الله، ويعرفون معنى محمد رسول الله، وما أشبهها.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ﴾، فالباء للسببية، وقد تقدم كثيرًا أن أهل السنة والجماعة يُثبتون الأسباب للمسيبات، ولكن لا على أنها فاعلة بنفسها، بل بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة، يُؤخذ ذلك من قوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ﴾؛ لأن الباء للسببية.

الفائدة الثانية: بيان ما عليه هؤلاء الكفار من كوزهم إذا دُعي الله وحده كفروا، وإذا أشرك به أفروا هذا الشرك؛ لقوله: ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا﴾.

الفائدة الثالثة: أن الحكم لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ وليس لغيره.

وَحُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَوْنِيٌّ وَشَّرْعِيٌّ.

فَالكَوْنِيُّ: مَا قَضَى بِهِ عَلَى عِبَادِهِ كَوْنًا وَتَقْدِيرًا.

وَالشَّرْعِيُّ: مَا قَضَى بِهِ عَلَى عِبَادِهِ شَرْعًا وَتَنْظِيمًا.

وَالْحُكْمَانِ مَوْجُودَانِ فِي الْقُرْآنِ جَمِيعًا، فَمِنَ الْحُكْمِ الْقَدَرِيِّ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنَ

أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ بِأَخِي أَوْ يَخُكَّمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]، وَمِنَ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ قَوْلُهُ

تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَخُكِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٠].

وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا:

الفرق الأول: أَنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْحُكْمَ الكَوْنِيَّ يَتَعَلَّقُ بِمَا

يَرْضَاهُ وَبِمَا لَا يَرْضَاهُ.

وَالفَرْقُ الثَّانِي: أَنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ قَدْ يَقَعُ مِنَ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ وَقَدْ لَا يَقَعُ، وَأَمَّا

الْحُكْمَ الكَوْنِيَّ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعُ، فَإِذَا حَكَّمَ اللَّهُ عَلَى شَخْصٍ بِمَوْتٍ، أَوْ مَرَضٍ،

أَوْ فَقْرٍ، أَوْ عَاهَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَقَعُ، وَلَا بُدَّ، وَإِذَا حَكَّمَ اللَّهُ عَلَى شَخْصٍ بِأَنْ يُؤْمِنَ

وَيَعْمَلَ صَالِحًا فَقَدْ يَقَعُ وَقَدْ لَا يَقَعُ.

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ﴾ هُنَا يَشْمَلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْحُكْمُ بِالْقَوَانِينِ الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرِيعَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تُفِيدُ الْحَضْرَ؛ أَي: الْحُكْمُ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ، وَالْحُكْمُ بِالْقَوَانِينِ

الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرِيعَةِ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا، وَقَدْ يَكُونُ ظُلْمًا، وَقَدْ يَكُونُ فِسْقًا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ

عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَهِيَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ، فَإِنْ وُضِعَ

الْحُكْمُ الْقَانُونِيَّ شَرْعًا نَافِذًا فَهَذَا كُفْرٌ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي رَفْعَ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ وَإِحْلَالَ حُكْمِ



آخَرَ مَحَلَّهُ، وَهَذَا كُفْرٌ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مُحِبِّطٌ لِلْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرْفَعَ الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ إِلَّا بَعْدَ كِرَاهَتِهِ إِيَّاهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

وعلى هذا فالذين يحكمون أنفسهم بالقوانين المخالفة للشريعة يُعتبرون كُفَّارًا، يجب عليهم أن يتوبوا إلى الله، وأن يحكموا بشرية الله، وإلا ماتوا كُفَّارًا - والعياذُ بالله - ونحن لا نحكم بهذا الشيء لكل واحد بعينه، إذ قد يكون بعضهم مُلبسًا عليه، أو مُغرَّرًا به، أو تكلم عنده من يثق به فأصله، قد يكون هذا الذي وضع القانون غره من يقول: إن الحكم الشرعي إنما يكون فيما بين الإنسان وبين ربه في العبادات والأحوال الشخصية والموارث، وأما مسائل الدنيا فهي لأهل الدنيا، ويُسبَّه بقوله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»<sup>(١)</sup>.

فيأتي هذا الحاكم المسكين الذي لا يعرف عن الأمر شيئًا، والذي خدع بمظاهر الدنيا وزخارفها فيظن أن هذا هو الحق، فيضع القانون المخالف للشرع، فمثل هذا لا نحكم بكفره؛ لأنه مُغرَّر به مؤوَّل، لكن إذا بين له ثم أصرَّ حَكِيمٌ بكفره.

أما الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله الذي يكون ظلمًا، فهو ما كان الحامل عليه حُبُّ الاعتداء على الغير، لا كراهة الشرع، ولا الحكم بغير ما أنزل الله، لكن لكرهته للغير حكم على الغير بغير ما أنزل الله ظلمًا وعدوانًا، فهذا له حكم الظلمة، وليس له حكم الكافرين؛ لأنه لم يكفر، يقول: أعرف أن ما جاء به الشرع فهو الحق، لكن أريد أن أنتقم من هذا الرجل، وأعتدي عليه، فيكون هذا له حكم الظالم:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

أما القسم الثالث: فهو الذي حَكَمَ بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه، لا كراهةً للحق، ولا استبدالاً له بغيره، لكن يُريد شيئاً في نفسه فحَكَمَ بغير ما أنزل الله، مثل: أن يكون يهوى، أن تكون له هذه الأرض، أو هذه السيارة، أو ما أشبه ذلك فيحكّم بها لغرض، ليس قصده ظلم المحكوم عليه، ولكن قصده اتباع الهوى، فيحكّم، فيكون بهذا من الفاسقين.

الفائدة الرابعة: أن الحكم لله عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة.

ولهذا قسم بعض العلماء الحكم إلى ثلاثة أقسام: كونيّ، وشرعيّ، وجزائيّ.

والحكم الجزائيّ: ما يكون في الآخرة، ولكن الصحيح أن الحكم الجزائيّ لا يخرج عن كونه حكماً كونياً؛ لأنه فعل الله، وحينئذ لا حاجة إلى كثرة التقاسيم؛ لأنه كلما أمكن اختصار التقسيم كان أولى؛ ولهذا - والله أعلم - كان الرسول ﷺ يأتي أحياناً فيقول: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»<sup>(١)</sup>، مع أن هناك آخرين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم وهم عذاب أليم، لكن كون الشيء مجزأً وتقلل أقسامه يكون أقرب إلى الفهم.

ولهذا يفرّق بين أن تُعطِيَ الماء لشخص عطشان دفعة واحدة، أو أن تُعطِيَهُ إِيَّاهُ على دفعات، فالثاني أهنأ وأبرأ وأمرأ، كما جاء في الحديث أنه ينبغي للإنسان في شربه أن يتنفس ثلاث مرّات، الكأس مثلاً إذا كنت عطشان لا تشربه جميعاً، تنفس

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٧)، من حديث أبي

فيه ثلاث مرّات، اشرب، ثمّ أبن الكأس عن فمك، ثمّ رُدّه، ثمّ أبنه، ثمّ رُدّه، حتى يكون ذلك أهناً وأمرأً وأبرأً.

الفائدة الخامسة: إثبات العلوّ لله عزّ وجلّ؛ لقوله: ﴿الْعَلِيِّ﴾ وهو علوّ بنفسه، وعلوّ بصفته، فصفاته عليا، وهو نفسه سبحانه وتعالى فوق كل شيء.  
وأدلة علوّ الله سبحانه وتعالى الذاتي خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

أمّا الكتاب: فمملوء من ذلك، أي: من دلالاته على أن الله فوق كل شيء على وجوه متنوّعة، تارة يُصرّح بأنه في السماء، وتارة يُصرّح بأنه استوى على العرش، وتارة يُصرّح بأن الأشياء تنزل منه، وتارة يُصرّح بأن الأشياء تُرفع إليه، وتصدد إليه، وتعرّج إليه، وكل هذا يدلُّ على علوّ الله تعالى بذاته.

والسنة كذلك جاءت بأوجهها الثلاثة: قول، وفعل، وإقرار.

فالقول: ما كان الرسول عليه الصلوة والسلام يقول: «ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك، أمرك في السماء والأرض»<sup>(١)</sup>، وما كان يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»<sup>(٢)</sup>.

والفعل: إشارته ﷺ إلى السماء حين قال: «اللهم اشهد»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٨٠٩)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

والإقرار: إقراره للجارية حين قالت: إن الله في السماء. لما قال لها: «أين الله؟»<sup>(١)</sup>.

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على أن الله تعالى عال بذاته فوق كل شيء، ودليل هذا الإجماع أنه لم يرد عنهم حرف واحد ينافي ما دل عليه الكتاب والسنة من علو الله، وهذا يدل على أنهم كانوا يقولون به.

وهذا من الطرق التي ذكرناها لكم فيما سبق أنه لو قال قائل: اتُّوا لنا بحرف واحد من السلف يقول: إن الله عال بذاته. نقول: لا حاجة أن تأتي لكم بذلك؛ لأن ورود ذلك في الكتاب والسنة من غير أن يأتي عنهم ما يعارضه يدل على قولهم به، وهم مجمعون على هذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله كلاماً قال فيه: «والله يعلم أي بعد البحث التام، ومطالعتي ما أمكن من كلام السلف، لم أجد أحداً منهم صرح بأن الله ليس في السماء، وأن الأشياء لا تعرج إليه»<sup>(٢)</sup> وذكر نحو هذا.

وعلى هذا فنقول: إن علو الله بذاته قد أجمع عليه السلف، فمن قال بغير ذلك فقد شاق الرسول، واتبع غير سبيل المؤمنين، ولكن الله اشترط قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

وأما العقل: فدلالته على علو الله ظاهرة؛ لأننا لو سألنا: أيهما أعلى صفة العالی أو السافل؟ لقبل باتفاق العقلاء: إن العالی أكمل، وإذا ثبت أن العلو كمال وجب

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٥).

أن يكون ثابتاً لله عزَّجَلَّ؛ لأن الله تعالى موصوف بصفات الكمال.

وأما الفطرة: فاسأل عنها عجائز المسلمين، لا تسأل طلبة العلم، اسأل العجوز: أين الله؟ فتقول لك: في السماء. اسأل كل داع إذا دعا: أين يطير قلبه؟ فيقول لك: إلى السماء.

وهذه الفطرة هي التي أجمت أبا المعالي الجويني حين قال له أبو جعفر الهمداني: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، لما قال أبو المعالي: إن الله كان ولا شيء يعني: لا عرش ولا غيره، وهو الآن على ما كان عليه. يريد نفي الاستواء، إذا كان الله ولا عرش وهو الآن على ما هو عليه لزم ألا يكون مستويًا على العرش، فقال له: يا شيخ دعنا من ذكر العرش؛ لأن دليله - دليل استوائه على العرش - دليل سمعي، لكن أخبرنا عن هذه الفطرة التي نجدها في نفوسنا، ما قال عارف قط: يا الله. إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فلطم أبو المعالي على رأسه وقال: حيرني الهمداني<sup>(١)</sup>، تحير؛ لأن هذا أمر فطري لا يمكن إنكاره أبدًا، إن كان الإنسان ينكر أن يكون بشرًا أنكر ما دلت عليه الفطرة.

فالخاص: أن علو الله بذاته دل عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، وهو - والله الحمد - لا يحتاج إلى منازعة، ولولا أن أهل البدع والتعطيل أجزؤوا أهل السنة إلى الحديث عنه ما احتاج أن يتحدث الإنسان عنه؛ لأنه أمر فطري لا يحتاج إلى كبير عناء، لكن هؤلاء المتكلمين المتبدعين المعطلين المحرفين المنحرفين هم الذين أجزؤوا أهل السنة إلى أن يقولوا بمثل ذلك، وأن يحاولوا إثبات هذه الأمور بما يستطيعون من الأدلة.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/٢٢٠).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الكبرياء لله والكبر؛ لقوله: ﴿الْكَبِيرِ﴾، والله تعالى يجمع بين الكبرياء والكبر في غير ما آية، قال الله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وهنا يقول: ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾؛ لأن بذلك يحصل الكمال المطلق العلو والكبرياء، والكبر فيه كمال الكمال.



## الآية (١٣)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

•••••

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ﴾ أي: يُظهِرُ لَكُمْ آيَاتِهِ حَتَّى تَرَوْهَا، وَالضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ، فَهُوَ الَّذِي لَهُ الْحُكْمُ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَدْعُ عِبَادَهُ هَمَلًا، بَلْ أَرَاهُمْ آيَاتِهِ حَتَّى يُؤْمِنُوا.

فقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾؛ أي: يُظهِرُهَا لَكُمْ حَتَّى تَرَوْهَا عَيَانًا، وَالْآيَاتُ هُنَا: الْعَلَامَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَعْلُومِهَا، وَهِيَ أْبْلَغُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَمَا أَشْبَهَهَا.

وَآيَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَوْعَانِ: آيَاتُ كَوْنِيَّةٌ وَآيَاتُ شَرْعِيَّةٌ.

فَالْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ: هِيَ مَخْلُوقَاتُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَالْآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ: هِيَ الْوَحْيُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

كُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا

إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١]، ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾

[الشورى: ٢٥].

والأمثلة على هذا كثيرة، كلها تدلُّ على خالقها عزَّ وجلَّ، وعلى تفرُّده بالخلق، وعلى حكمته، وعلى رحمته، وعلى عزَّته إلى غير ذلك من معاني الربوبية التي تدلُّ عليها هذه الآيات، وقد تكون آية واحدة تدلُّ على عدَّة آيات، وعلى عدَّة أوصاف، هذه الآيات الكونية شاملة لكل المخلوقات، وفي هذا يقول القائل:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهِ؟!      أَوْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ  
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ      تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ<sup>(١)</sup>

كل شيء تتأمل فيه تجد الدلالة الكاملة على أن له خالقاً مديباً حكيمًا عليماً، إلى غير ذلك من معاني الربوبية.

أمَّا الآيات الشرعية: فهي ما جاءت به الرُّسل وقد أَرانا الله تعالى إياها، وأعطى الرُّسل عليهم الصلاة والسلام من الآيات ما يؤمن على مثله البشَر، فالرُّسل لم يأتوا هكذا يقولون للناس: نحن رُسل إليكم. بل أتوا بالآيات الدالة على ما أرسلوا به، وعلى مُرسِلهم.

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ ﴿إِذِ الْآيَاتُ تَشْمَلُ: الكونية والشرعية، البرق: آية كونية: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢].

وقوله: ﴿وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ التنزيل يكون من أعلى، وهنا قال: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو العلوُّ، وليس المرادُ بالسَّماء هنا السماء المحفوظة - السَّقْف المرفوع -، بل المراد به العلوُّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] فالمطر ليس ينزل من السماء المحفوظ، وإنما ينزل من العلوُّ،

(١) من شعر أبي العتاهية. انظر: ديوانه (ص: ١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).



من السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهذا أمر مُشاهد.

وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ أي: ماء يكون به الرزق، فالذي ينزل ماءً يكون به الرزق، فهو نفسه رزق: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩]، وبه يكون الرزق ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، والثمرات أزراق تُؤكل، والماء رزق يُشرب، فهو رزق بكل حال.

وفي تقديم الآيات على إنزال الرزق من السماء دليل على أن النعمة الدينية أهم وأكبر من النعمة الدنيوية.

قوله: ﴿وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

قال المفسر رحمه الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ [دلائل توحيده] يعني: التي تدل على توحيده وغير ذلك مما تدل عليه من معاني الربوبية، ﴿وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ بالمطر، فالمفسر رحمه الله يرى أن الرزق هو ما يخرج بالمطر. يعني: النبات وما أشبه ذلك، ولكن ما ذكرناه هو الأصوب، أن المطر نفسه رزق؛ لأن الله قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩]، وأحياناً يكون احتياج البدن إلى الماء أكثر من احتياجه إلى الأكل.

قال المفسر رحمه الله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ يرجع عن الشرك، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ قال المفسر رحمه الله: [يرجع عن الشرك]، وهذا لا شك أنه صحيح لكنه قاصر، فالصواب: ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ من يرجع إلى الله عز وجل من الشرك وغيره من المعاصي والفسوق، فهو أعم مما قاله المفسر.

## من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان قدرة الله عزَّجَلَّ؛ لأنه يُرِينَا آيَاتِهِ.

الفائدة الثانية: أن ما يُرِينَا اللهُ تعالى من آياته حُجَّةٌ مُلْزِمَةٌ؛ لئلاَّ يَقُولَ قَائِلٌ: نحن لم يَأْتِنَا آيَاتٌ حتى نَتَّعِظَ بِهَا.

الفائدة الثالثة: أنَّ المَخْلُوقَاتِ والمَشْرُوعَاتِ كُلِّهَا تُدُلُّ عَلَى الخَالِقِ المُشْرِعِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفائدة الرابعة: مِنَّةُ اللهِ عزَّجَلَّ بِإِنزَالِ المَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَنَّهُ رَزَقَ لَنَا.

الفائدة الخامسة: الحِكْمَةُ فِي أَنَّ المَطَرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاللهُ عزَّجَلَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ أَنْهَارًا تَسِيرُ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ، وَتَسْقِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَسْقِيَهُ، لَكِنِ المَطَرُ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّ المَطَرَ إِذَا نَزَلَ مِنْ أَعْلَى شِمَلِ قِمَمِ الجِبَالِ، فَيَشْمَلُ السَّهْلَ وَالوَعْرَ، وَالنَّازِلَ وَالْعَالِيَّ، وَهَذِهِ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ المَطَرُ يَنْزِلُ مِنْ فَوْقَ حَتَّى يَشْمَلَ الأَرْضَ كُلَّهَا.

الفائدة السادسة: أَنَّ مَا تَتَغَذَّى بِهِ الرُّوحُ أَهْمٌ مِمَّا يَتَغَذَّى بِهِ البَدَنُ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدَّمَ إِرَاءَةَ الآيَاتِ عَلَى الرِّزْقِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَهْمٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، هَذَا هُوَ الوَاقِعُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ فَقْدَ الغِذَاءِ البَدَنِيِّ لَا يَكُونُ فِيهِ إِلَّا شَيْءٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَهُوَ المَوْتُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ، حَتَّى لَوْ كَانَ الإِنْسَانُ فِي أُنْعَمَ مَا يَكُونُ مِنْ نَعِيمِ البَدَنِ، وَأَتَرَفَ مَا يَكُونُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَمُوتَ، لَكِنِ غِذَاءُ الرُّوحِ هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى مُعَانَاةٍ وَمُعَالَجَةٍ، وَبِفَقْدِهِ يَكُونُ الهَلَاكُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الرُّم: ١٥]،

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]، وقال تعالى:  
 ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

إِذَنْ: خسارة البدن دون خسارة الرُّوح بكثير، خسارة الدنيا دون خسارة الدين بكثير؛ ولهذا قَدَّمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نِعْمَتَهُ بِإِرَاءَةِ الآيَاتِ عَلَى نِعْمَتِهِ بِإِنزَالِ الْمَطَرِ.  
 الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الآيَاتِ وَالرِّزْقَ وَالْعَطَاءَ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا مَنْ أَنَابَ إِلَى اللهِ، أَمَا مَنْ لَمْ يُنِيبْ إِلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالتَّذْكَرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ كَلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ إِنْابَةً إِلَى اللهِ كَانَ أَقْوَى إِيْمَانًا بِالآيَاتِ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ الْمُعَلَّقَ عَلَى وَصْفٍ يَقْوَى بِقُوَّتِهِ وَيَضْعُفُ بِضَعْفِهِ، فَإِذَا كَانَ التَّذْكَرُ لِمَنْ يُنِيبُ، فَكَلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَقْوَى إِنْابَةً كَانَ أَقْوَى تَذْكَرًا.  
 الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِنْابَةٌ فَإِنَّهُ يُجْرَمُ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِالآيَاتِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ الْإِنْابَةَ إِلَى اللهِ سَبَبٌ لِكَثْرَةِ الرِّزْقِ، وَيَدُلُّ لِدَلِّكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نُجِيبُ عَلَى مَنْ يَقُولُ: قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْكُفْرُ؟

فنجيب بأنه غلط، كيف يُراد به شيء واحد ويكرّره الله بألفاظ مُتعدّدة؟! والأصل أنّ اختلاف اللفظ يدلُّ على اختلاف المعنى، لكن بعض العلماء قال: إنّ وصف الحاكم بالكُفر لا يمنع من وصفه بالفسق؛ لأن الله تعالى وصف الكُفّار بالفسق، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، ووصف الكافرين بالظلم، فقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فجعل هذه الأوصاف الثلاثة لموصوف واحد، ولا مانع من أن يُوصف الإنسان بعدة أوصاف، فالكافر لا شك أنه ظالم، ولا شك أنه فاسق خارج عن الطاعة، بل فسقه فسق مُطلق، وفسق المؤمن العاصي فسق مُقيّد، ولكننا إذا جعلنا اختلاف هذه الألفاظ مُنزلاً على أحوال كان أبلغ؛ لأننا نقول: الكُفر مُتضمّن للظلم والفسق، فدلالته عليه بالالتزام، فيكون مُجرّد وصفنا إيّاه بالكُفر هو وصف له بالظلم والفسق.

ثم نستفيد فائدة جديدة بالحكم بغير ما أنزل الله، حيث يكون ظلماً محضاً لا كُفراً أو فسقاً لا كُفراً.

وأقول: إن كوننا نجعل الاختلاف في اللفظ اختلافاً في المعنى أحسن؛ لأن هذا هو الأصل، وقد قال العلماء في هذه المسألة: حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد.

فإن قال قائل: العلماء يقولون في مثل من لم يحكم بما أنزل الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]: إذا استحلّه، أمّا إذا لم يستحلّه فهذا غير كافر؟

فالجواب: الذي يضع القانون بدلاً عن القانون السّمائي هل استحلّه أو لا؟

الجواب: بل رآه أفضل، فيكون كافراً، مع أن من استحلَّ الحُكْمَ بغير ما أنزل الله، وإن لم يحكم به فهو كافر، فمن قال: «إنه يحلُّ أن نحكم بغير ما أنزل الله»، فهو كافر وإن لم يحكم به.

وهذه مُشكلة، فكثيراً ما يلجأ بعض الناس إلى الاستحلال أو إلى الجُحود، فمثلاً يقول: من ترك الصلاة جاحداً فقد كفر. وهذا تحريف للكلم عن مواضعه.

وهذه مسألة يلجأ إليها المتعصب لقوله، فيحاول أن يلوي أعناق النصوص إلى ما يقول؛ فمثلاً: «من ترك الصلاة فقد كفر»<sup>(١)</sup> الذين قالوا: لا يكفر. قالوا: من تركها جاحداً لوجوبها فقد كفر، نحن نقول: سبحان الله! أنتم إذا فعلتم ذلك جئتم مرتين على كلام رسول الله ﷺ:

المرّة الأولى: حملكم الكلام على غير ظاهره.

والمرّة الثانية: إثبات أمر لم يقله الرسول عليه الصلاة والسلام.

الرسول ﷺ قال: «من تركها»، ولم يقل: من جحدها، هل في لسانه عيٌّ أن يقول: من جحدها.

ثم نقول لكم: الجحد كفر وإن صلى، والرسول ﷺ يقول: «من ترك الصلاة» لو أن الإنسان قال: إن الصلاة ليست بواجبة، ولكنه يواظب عليها، وهو أول من يأتي للمسجد، وآخر من يخرج؛ فإنه يكفر، كيف تُلغون وصف التُّرك، وتأتون بوصف جديد تُعلّقون به الحُكْم؟! وهذه مُشكلة.

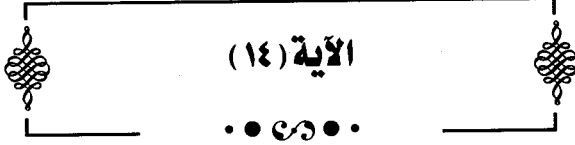
ولما قيل للإمام أحمد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا﴾

(١) أخرجه ابن حبان رقم (١٤٦٣)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

فَجَزَأُوهُ جَهَنَّمُ خَلِيدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣] قالوا له: إِنَّ فُلَانًا يَقُولُ: هَذَا فِيمَنْ اسْتَحَلَّ قَتْلَ الْمُؤْمِنِ؛ ضَحِكَ الإمامُ أحمدُ وقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ! مَنْ اسْتَحَلَّ قَتْلَ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ كَافِرٌ، قَتَلَهُ أَوْ لَمْ يَقْتُلْهُ»، وهذا تحريف لا شك أنه مُضْحِكٌ.

كذلك أيضًا مَنْ اسْتَحَلَّ الْحُكْمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ، سِوَاءِ حُكْمٍ بِهِ أَمْ لَمْ يَحْكَمْ، وَالآيَةُ عَلَّقَتْ الْحُكْمَ بِالْحُكْمِ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وهذه مسألة احذروها، احذروا تحريف الكلم عن مواضعه من أجل اعتقاد تعتقدونه، واجعلوا اعتقادكم وحكمكم على الشيء تابعًا للنصوص، لا تجعلوا النصوص تابعة، إذا جعلت النص تابعًا لما تعتقد فإن هذا هو اتباع الهوى تمامًا، اجعل نفسك بين يدي النصوص كالميت بين يدي الغاسل، تُقَلِّبُكَ النُّصُوصُ وَلَا تُقَلِّبُهَا، هَذَا هُوَ الْمُؤْمِنُ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ أَحْيَانًا النُّصُوصُ بَعْضُهَا يُقَيِّدُ بَعْضًا، أَوْ يُخَصِّصُ بَعْضًا، أَوْ الْفِقْهُ بِالشَّرِيعَةِ يَقْتَضِي تَقْيِيدَ الْمُطْلَقِ، أَوْ تَخْصِيسَ الْعَامِّ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَهَذَا لَا يَخْرُجُ بِنَا عَنِ اتِّبَاعِ النُّصُوصِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴾

[غافر: ١٤].

• • • • •

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ أَرَانَا آيَاتِهِ الْكُونِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ، أَمَرَنَا أَنْ نَدْعُوهُ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

فقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فاعبدوه] وهذا أحدُ مَعْنَيَيْنِ: الدعاء، والمعنى الثاني: دُعاء المسألة، يَعْنِي: اسألوهُ. والصوابُ: أنه شاملٌ للأمرين؛ أي: دُعاء المسألة، ودُعاء العِبادة، فالعِبادة تُسَمَّى دُعاءً كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] قال: ﴿ادْعُونِي﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

وَأَمَّا دُعاء العِبادة: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَدْعُو اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ لَا يَدْعُوهُ إِلَّا وَهُوَ يُؤْمِنُ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ فَلِهَذَا دَعَاهُ، فَصَارَ بِذَلِكَ عَابِدًا لَهُ.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من الواو في قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾، والإخلاص: التَّنْقِيَةُ، فَتَنْقِيَةُ الشَّيْءِ تُسَمَّى إِخْلَاصًا، وَالْمَعْنَى: نَقُّوا دِينَكُمْ مِنَ الشَّرْكِ.

وقوله: ﴿لَهُ الدِّينَ﴾، المراد بالدين العمل، سواء كان عبادة أم دعاء، والدين يُطلق على العمل، ويُطلق على جزاء العمل، فقوله تعالى: ﴿لَكَزِ دِينَكَزِ وَلِي دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] هذا من باب إطلاق الدين على العمل، وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] هذا من باب إطلاق الدين على الجزاء.

ويقال: (كما تدينُ تُدانُ) أي: كما تعملُ تُجازى، فالدين هنا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بمعنى: العمل.

قال المفسر رحمه الله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك كما قال المفسر رحمه الله، أن ندعو الله تعالى مُخْلِصِينَ له الدعاء، وأن نعبده مُخْلِصِينَ له العبادة من الشرك، فلا نُشرك به غيره، لا في دعائنا ولا في عبادتنا.

قال المفسر رحمه الله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [إخلاصكم] يعني: اذعوا الله مُخْلِصِينَ على كل حال، سواء رَضِيَ الكافرون أم سَخَطُوا، ومن المعلوم أنهم سوف يَسَخَطُونَ، لكن لا يُهمُّ أن يَسَخَطُوا علينا إذا أَخْلَصْنَا الدِّينَ لله، وقول المفسر: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [إخلاصكم] ينبغي أن يُقال: ولو كرهوا عملكم المُخْلِصَ؛ لأن الإخلاص نيَّة القلب، والكافر إنما يكره ما يظهر من عمل الإنسان، فالمعنى: ولو كره الكافرون عملكم الذي تُخْلِصُونَ فيه لله على رغم أنوفهم.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب الإخلاص لله تعالى في الدعاء؛ لقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، ودعاء غير الله فيما لا يقدر عليه المدعو يُعتبر من الشرك، ثم قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون شركًا أصغر بحسب الحال، فمن دعا قبرًا فهذا شرك أكبر،



وَمَنْ دَعَا غَيْرَهُ لِيَحْمِلَ مَعَهُ مَتَاعَهُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَالْغَيْرُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ فَهَذَا لَيْسَ بِشِرْكَ أَكْبَرَ، بَلْ هُوَ إِمَّا عَبَثٌ وَإِمَّا شِرْكَ أَصْغَرَ، وَمَنْ دَعَا غَائِبًا لِيُنْقِذَهُ مِنْ شِدَّةٍ فَهَذَا شِرْكَ أَكْبَرَ؛ لِأَنَّ هَذَا يُسَمَّى شِرْكَ السَّرِّ، إِذْ إِنْ الْغَائِبُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْعُوهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ تَصَرُّفًا فِي الْكُونِ، يَتَصَرَّفُ وَهُوَ بَعِيدٌ، بِخِلَافِ مَنْ دَعَا قَرِيبًا وَقَالَ: يَا فُلَانُ احْمِلْ مَعِيَ كَذَا، أَعْنِي عَلَى كَذَا، فَهَذَا يَدْعُوهُ لِيَقُومَ بِنَيْءٍ مَحْسُوسٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: وَجُوبُ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؛ لِأَنَّنا فَسَّرْنَا الدُّعَاءَ بِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءِ الْعِبَادَةِ، فَمَنْ تَعَبَّدَ لِغَيْرِ اللَّهِ اسْتِقْلَالًا فَقَدْ صَرَفَ شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشْرِكًا شِرْكًَا أَكْبَرَ، يَعْنِي: مَنْ صَلَّى لِشَخْصٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُشْرِكًا شِرْكًَا أَكْبَرَ، أَوْ ذَبَحَ لِشَخْصٍ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مُشْرِكًا شِرْكًَا أَكْبَرَ مُخْرِجًا عَنِ الْمِلَّةِ، وَأَمَّا إِذَا فَعَلَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ، لَكِنْ رَأَى فِيهَا أَوْ سَمِعَ، فَهَذَا لَا يَكُونُ مُشْرِكًا شِرْكًَا أَكْبَرَ، وَلَكِنَّهُ مُشْرِكٌ شِرْكًَا أَصْغَرَ، وَعِبَادَتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ عَنْ رَبِّهِ: «أَنَا أَعْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الرِّيَاءَ إِذَا طَرَأَ عَلَى الْقَلْبِ فَإِنْ كَانَ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي الْعِبَادَةِ أَبْطَلَهَا مِنْ أَصْلِهَا؛ لِأَنَّهُ دَخَلَ فِيهَا عَلَى شِرْكَ، وَإِنْ كَانَ فِي أَثْنَاءِ الْعِبَادَةِ فَإِنْ كَانَ آخِرَهَا يَنْبَنِي عَلَى أَوَّلِهَا بَطَلَتْ، وَإِنْ كَانَ لَا يَنْبَنِي عَلَى أَوَّلِهَا؛ بِحَيْثُ يَصِحُّ أَنْ يُمَيِّزَ الْأَوَّلَ عَنِ الثَّانِي فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ مَا فِيهِ الرِّيَاءُ، وَيَصِحُّ مَا سَبَقَ الرِّيَاءُ.

مِثَالُ الْأَوَّلِ: إِذَا دَخَلَهُ الرِّيَاءُ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الزَّهْدِ، بَابُ مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرِ اللَّهِ، رَقْمٌ (٢٩٨٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَبْطُلُ كُلِّهَا؛ لأنه إذا بَطَلَتْ الرُّكْعَةَ الثَّانِيَةَ لَزِمَ بَطْلَانُ الرُّكْعَةِ الْأُولَى؛ لأنَّ الصَّلَاةَ لَا تَتَّبَعُضُ.

ومثال الثاني: رجلٌ أَعَدَّ مِئَةَ صَاعٍ لِلصَّدَقَةِ بِهَا، فَتَصَدَّقَ بِخَمْسِينَ صَاعًا صَدَقَةً خَالِصَةً، ثُمَّ دَخَلَ الرِّيَاءَ فِي الْأَصْوَاعِ الْبَاقِيَةِ، فَهُنَا تَبْطُلُ الْأَصْوَاعُ الْبَاقِيَةُ، أَمَّا الْأُولَى فَتَصِحُّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ -أَعْنِي: الصَّدَقَةَ- تَتَّبَعُضُ وَلَا يَنْبَنِي آخِرُهَا عَلَى أَوْلِهَا، حَتَّىٰ لَوْ فُرِضَ أَنَّهُ مِمَّا عَيْنَهُ الشَّرْعُ، كإِطْعَامِ سِتِّينَ مِسْكِينًا مِثْلًا فِي الْكَفَّارَةِ، فَأَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مِسْكِينًا بِإِخْلَاصٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَ الرِّيَاءَ فَإِنِ مَا سَبَقَ الثَّلَاثِينَ الْآخِرَةَ يَكُونُ مُجْزِيًا؛ هَذَا إِذَا اسْتَرْسَلَ مَعَ الرِّيَاءِ، وَأَمَّا إِذَا طَرَأَ عَلَيْهِ الرِّيَاءُ فِدَاعًا، وَمَا زَالَ جَاهِدًا فِي مُدَافَعَتِهِ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْئًا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ نَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»<sup>(١)</sup>، وَهَذَا لَمْ يَعْمَلْ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ، بَلِ رَبُّهَا أَنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ، لَكِنْ هَاجَمَهُ الرِّيَاءُ.

فصار الآن من فعل العبادة لغير الله -يعني: تعبد لغير الله- فحكمه شرك أكبر، ومن فعل العبادة لله لكن دخلها الرياء، إن كان قبل الشروع في العبادة بطلت، وإن كان في أثنائها ففيه التفصيل، إن كان آخرها ينبي على أولها بمعنى أنها لا تتبع بطلت، وإن كان آخرها لا ينبي على أولها بأن كانت تتبع بطل الجزء الذي وقع فيه الرياء وما سبق فهو صحيح، وهذا إذا استرسل مع الرياء واستمر المرئي، فإن دافعه فلا شيء عليه، ولا يضره ذلك.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَسْأَلَةٌ: رَجُلٌ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ مُخْلِصًا، فَحَضَرَ إِنْسَانٌ فَرَّاهُ، ثُمَّ ذَهَبَ الْإِنْسَانُ  
فَعَادَ إِلَى الْإِخْلَاصِ؟

فالجواب: إذا بطلت العبادة لا تعود صحيحة، فهذا يبطل عبادته؛ لأن مراقبته  
لغير الله أشد من مراقبته لله عز وجل، لم يُراقب الله إلا حين ذهبَت مراقبة الناس، فهذا  
عبادته باطلة ولا شك، ولعله إن جاء آخر يُحدث رياء، وإذا ذهب ذهب الرياء،  
فإن جاء آخر يُحدث رياء.

فإن قال قائل: إذا دخل المرء في الصلاة مُرئياً، ثم دافع الرياء، فهل تصح؟  
فالجواب: إذا بدأ مُطمئناً للرياء فلا تنعقد عبادته، لكن هنا مسألة لو أن  
الرجل حسن عبادته لتعليم الناس، لم يقصد أن يمدحوه على عبادته، أو يتقرب  
إليهم بالعبادة، لكن من أجل أن يتخذ الناس منه أسوة، فهذا لا يدخل في الرياء،  
هذا يدخل في التعليم، وهو مأجور على ذلك، لكن فرق بين هذا وبين شخص يُريد  
أن يمدحه الناس على صلاته.

فإن قال قائل: هل من الرياء أن يُظهر الإنسان بعض ما عنده لأجل ألا يذم؟  
فالجواب: دفع الملامة فيه حديث: «رَحِمَ اللهُ امرأً كَفَّ الغيبةَ عن نفسه»<sup>(١)</sup>،  
وأيضاً الرسول عليه الصلاة والسلام لما خرج بصفية ليقلبها ليلاً، فمرَّ به رجلان من  
الأنصار فأسرعا، فقال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : «علَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا  
صَفِيَّةُ»<sup>(٢)</sup> دفعاً للملامة عن نفسه، هو مُخلص لله، لكن يُريد مع ذلك أن يدفع الملامة

(١) لا أصل له، وانظر: كشف الخفاء للعجلوني رقم (١٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم:  
كتاب السلام، باب يستحب لمن رئي خالياً بامرأة...، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

عن نفسه؛ لئلا يُقال: إنه بخيل. مثلاً، أو لئلا يُقال: إنه لا يُصلي مع الجماعة. وما أشبه ذلك، وأصل النية لله، لكن لدفع الملامة لا ليمدح، فبينهما فَرْقٌ بين مَنْ قَصَدَهُ المَدْحُ، أو مَنْ قَصَدَهُ دَفْعُ المَلَامَةِ.

فإن قال قائل: التَّمَنِّي هل يدخل في الرياء. يعني مثلاً لو كان يقرأ القرآن، وتمنّى في نفسه لو أن فلاناً يسمع قراءته؟

فالجواب: هذا رياءٌ لا شكّ -يعني: ليقول: إنه قارئ وإنه عابد- لأنه هو الآن في قلبه أنه لو كان فلان حاضرًا لراه، لكن يجب أن تعلم أن النية لا تصل إلى درجة العمل لا في الثواب، ولا في العقاب.

فإن قال قائل: بالنسبة لرجل عمل لوجه الله، لكن بعدما أنهى العمل مدحه الناس؛ فأحبّ ولم يقصده من الأوّل، وإنما سرّ بمدح الناس له؟

فالجواب: لا يضُرُّ هذا، بل هذا من عاجل بشرى المؤمن أن يجد الإنسان ثواب عمله مُقدِّمًا، والثواب الأخرى في الآخرة.

مسألة: هل يجوز أن أذهب إلى رجل عاصٍ لأدعوه؟ وكيف إذا ضاق صدري؟

فالجواب: اذهب، ما دُمت تُريد الذهاب للدعوة، فأذهب إليه، وإذا ضاق صدرك فاصبر؛ فحتى مَنْ يدعو الناس في المسجد وفي السوق، يَضيق صدره إذا رآهم على مُنكر. اصبر ما دُمت تُريد أن تدعوه، أمّا إذا ذهبْتَ تُريد أن تُكرمه فلا يجوز.

تنبيه: ممّا لا شكّ فيه أنّ الدعوة إلى الله برفق أقرب إلى النتائج الطيبة بالعنف؛ لقول النبيّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»

وكذلك قال: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي بِالرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»<sup>(١)</sup> يعني: لو لم يكن إلا أن استعملنا ما هو أولى، وما يُجِبُّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَكَفَى.

ونحن نُشَاهِدُ الْآنَ أَنَّ السَّائِجَ الطَّيِّبَةَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِرِفْقٍ، وَهَنَّاكَ وَقَائِعُ كَثِيرَةٌ؛ فَالرَّفْقُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَهَذَا شَيْءٌ مُجْرَبٌ لَكِن أحيانًا الْإِنْسَانُ لِلغَيْرَةِ الَّتِي عِنْدَهُ يَثُورُ، وَيَعْجِزُ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ، نَحْنُ نَقُولُ: هَدْيٌ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ مِثْلُ الطَّيِّبِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ الْجُرْحُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ بِهَدْوٍ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْمَطْلُوبُ.

الفائدة الثالثة: مُرَاعِمَةُ الْكُفَّارِ فِي الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَفِي الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، وَيَتَبَيَّنُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقُومَ بِالْوَاجِبِ وَلَوْ كَرِهَ ذَلِكَ غَيْرُهُ، وَلَا يُجَايِبُ أَحَدًا فِي هَذَا، فَمِثْلًا إِذَا كَرِهَ أَبُو الشَّابِّ أَنْ يُصَلِّيَ ابْنُهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ - كَمَا يُوجَدُ الْآنَ - فَلَا يُدَاهِنُ أَبَاهُ فِي ذَلِكَ، يُصَلِّيَ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَلَوْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِيهِ، وَلَوْ كَرِهَ ذَلِكَ.

ولو وصل الشاب رحمه - كعمه وخاله، وما أشبه ذلك - وكان بينه وبين أبيه عداوة شخصية، فكان يكره لابنه أن يصل أقاربه الذين يكرههم أبوه، فيواصلهم ولو كرهه، لكن في هذه الحال يُداري أباه، بمعنى أنه يكتُم عنه أنه وصلهم؛ لتحصل المصلحة بدون مفسدة.

وهناك فرق بين المداراة والمداهنة، المداراة: أن يفعل الإنسان ما يلزمه مع التكتُم عن الشخص الآخر الذي يكرهه؛ ولهذا سُميت مداراة من الدرء وهو الدفع.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وأما المداهنة: فإن يُوافق في ترك ما يجب مُداهنة له، مأخوذة من الدُّهن؛  
لأنه يلين، فنقول: يتفرَّع على هذه الفائدة: أن الإنسان يفعل ما يلزمه، ولو كره ذلك  
غيره، ولو كان الكارهُ أقربَ أهله إليه.



## الآية (١٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

•••••

ثم قال رحمه الله: [﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾؛ أي: الله عظيم الصفات، أو رافع درجات المؤمنين في الجنة]، قوله: ﴿رَفِيعُ﴾ من الرِّفْعَة وهي العُلُو، فسرها المفسر - رحمه الله وعفا عنه - بأحد معنيين:

المعنى الأوّل: أن المراد بالرِّفْعَة العظْمة، والمراد بالدرجات الصفات، أي: أن الله تعالى عظيم الصفات.

والمعنى الثاني: رَفِيع الدرجات؛ أي: رافع درجات غيره وهم المؤمنون في الجنة.

وكلا المعنيين تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأنَّ ﴿رَفِيعُ﴾ اسم فاعل أو صفة مُشَبَّهة، فاعلها يعود على الله عَزَّوَجَلَّ المذكور في قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وعلى هذا فلا يَصِحُّ أن تُفسَّر بأن المراد: رافع درجات المؤمنين؛ لأنه على هذا التفسير تكون الدرجات درجات غيره، درجات المؤمنين.

ولا يَصِحُّ أن تُفسَّر ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ بعظيم الصفات، لما بينهما من الفرق العظيم، لكن المفسر عفا الله عنه فسرها بهذا التفسير فراراً من إثبات العلو الذاتي؛

لأنه مَن لا يَرُونَ ذلك أنه عالٍ بذاته، فلهذا حَرَفَ القرآن إلى أَحَدِ هذينِ المَعْنِيَيْنِ، وكِلَاهِمَا باطِلٌ.

والصوابُ: أنه سُبْحَانَهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ، وَيَدُلُّ لهذا وَيُعَيِّنُهُ قوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾؛ أي: صَاحِبِ الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ هو أَعْلَى المَخْلُوقَاتِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهَذَا هو الْمُتَعَيَّنُ.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿ذُو الْعَرْشِ﴾: خَالِقُهُ] فِيهِ أَيْضًا إِشَارَةٌ إِلَى إِنكَارِ الِاسْتِوَاءِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾؛ أي: صَاحِبِ الْمُسْتَوِيِّ عَلَيْهِ، هَذَا هو الْمَعْنَى؛ وَلِهَذَا لَا يُقَالُ: ذُو الْأَرْضِ، وَلَا ذُو السَّمَاءِ، وَلَا ذُو الْجِبَالِ، وَلَا ذُو السَّحَابِ، مَعَ أَنَّهُ خَالِقُهَا، فَتَفْسِيرُهُ ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ بِخَالِقِهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ تَحْرِيفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ فِرَارًا مِنْ إِثْبَاتِ الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ.

وَتَفْسِيرُ الْآيَةِ الْمُتَعَيَّنِ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ؛ أَي: هُوَ نَفْسُهُ عَزَّجَلَّ مُرْتَفِعٌ، بَلْ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ أَتَى بِالصِّفَةِ الْمَشْبَهَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الثَّبُوتِ وَالِدَوَامِ، وَالدَّرَجَاتِ مِنْ الدَّرَجَاتِ الْمَعْرُوفَةِ؛ أَي: مَا كَانَ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْغَايَةِ، وَأَمَّا ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ فَمَعْنَاهُ صَاحِبُ الْعَرْشِ الْمُخْتَصُّ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَيْهِ، هَذَا هو الْمُتَعَيَّنُ مِنَ الْآيَةِ.

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿يُلْقَى الرُّوحَ﴾ الْوَحْيِ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ أَي: قَوْلُهُ ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾] إِلَى آخِرِهِ. ﴿يُلْقَى الرُّوحَ﴾ الرُّوحُ: الْوَحْيُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وَسَمَّى اللهُ تَعَالَى الْوَحْيَ رُوحًا؛ لِأَنَّ بِهِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ، وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ أَي: قَوْلُهُ] وَهَذَا جَيِّدٌ، هَذَا التَّفْسِيرُ يَعْنِي أَنَّ



الوحي من قول الله عَزَّوَجَلَّ، يقول: فَيَسْمَعُ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يَنْزِلُ بِهِ إِلَى مَنْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، ولم يُبَيِّنْ مَنْ هُوَ لَاءِ، ولكننا نَعْلَمُ أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ؛ لأنهم هم الذين يُلْقَى إِلَيْهِمُ الْوَحْيُ، سواءً كانوا رُسُلًا أم غير رُسُلٍ، ثم إنَّ قوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ إطلاقُ الْمَشِيئَةِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ مُقَيَّدًا بِالْحِكْمَةِ، كَلِمًا رَأَيْتُ اللهُ يَقُولُ: يَشَاءُ، فَإِنَّهُ مَشِيئَةٌ مَقْرُونَةٌ بِالْحِكْمَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]؛ ولقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وهؤلاء الذين يَشَاءُ اللهُ تعالى أَنْ يُلْقِيَ عَلَيْهِمُ الرُّوحَ بَيْنَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المراد بِالْعِبَادِ هُنَا: الْعِبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ مَا هُوَ أَخْصَصُ وَهُمْ الرُّسُلُ.

قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿لِيُنذِرَ﴾ يُخَوِّفُ الْمَلْقَى عَلَيْهِ النَّاسَ [وَاللَّامُ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، وَالْإِنْذَارُ هُوَ: الْإِعْلَامُ الْمَقْرُونُ بِالتَّخْوِيفِ، وَهَذَا قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [لِيُخَوِّفَ] تَفْسِيرًا بِإِلْزَامِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْإِنْذَارَ إِعْلَامٌ مَقْرُونٌ بِتَخْوِيفٍ، وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: [الْمَلْقَى عَلَيْهِ النَّاسَ] أَفَادَنَا الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ فَاعِلَ (يُنذِرُ) هُوَ الْمَلْقَى عَلَيْهِ وَهُوَ الرَّسُولُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ هُوَ الْمُنذِرُ مُبَاشَرَةً، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْفَاعِلَ يَعُودُ عَلَى فَاعِلِ ﴿يُلْقَى الرُّوحَ﴾ وَهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أَي: لِيُنذِرَ اللهُ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ عَدَمِ ذِكْرِ الْفَاعِلِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - لِيَصْلِحَ الْفِعْلُ لِلْأَمْرَيْنِ؛ أَي: لِيَكُونَ صَالِحًا لِأَنَّ يَعُودُ الْإِنْذَارُ إِلَى اللهِ،

وأن يعود إلى الرسول، فإن عاد إلى الله فلأنه الأصل، وإن عاد إلى الرسول فلأنه المبلغ المباشر للإنذار.

وقوله رَحْمَةُ اللَّهِ: [الناس] هذا تقدير للمفعول الأول الذي هو مفعول (يُنذِر)؛ لأنَّ (يُنذِر) تَصِبُ مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول يكون محذوفاً، أو المفعول الثاني يكون محذوفاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ [غافر: ١٨] هذا موجود فيه المفعولان جميعاً، ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٤] كذلك المفعولان جميعاً، وقد يُحذف أحدهما إمَّا الأول وإمَّا الثاني؛ للدلالة السياق عليه.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿يُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ بحذف الياء وإثباتها [أي: أن فيها قراءتين «التَّلَاقِ» بالياء، و«التَّلَاقِ» بحذف الياء، إمَّا إثبات الياء فلأنه الأصل، وإمَّا حذف الياء فللتخفيف، مثل قوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] أصلها المتعالي، لكن حُذفت الياء للتخفيف، فهنا التَّلَاقِ أصلها التَّلَاقِي وحُذفت الياء للتخفيف، ويوم التَّلَاقِ هو يوم القيامة، وعَلَّل المفسر ذلك بقوله: [لتلَاقِي أهل السماء والأرض، والعباد والمعبود، والظالم والمظلوم فيه] أي: في ذلك اليوم، ولو قلنا بمعنى أعم: لتلَاقِي الخلائق في ذلك اليوم؛ لأن كل شيء يُلاقِيه الآخر حتى الوحوش ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] فسُمِّي يوم التَّلَاقِي؛ لتلَاقِي الخلق فيه، يحشر الله عزَّوَجَلَّ الخلائق كلها في ذلك اليوم فيتلاقون.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات علو الله عزَّوَجَلَّ خلافاً للمفسر؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ ونقصد بالعلو علو الذات، إمَّا علو الصفة فقد أقرَّ به المفسر بقوله: [أي: عظيم الصفات] ففي هذه الآية إثبات علو الذات ذات الله عزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾.

وهذا مرّ علينا كثيراً، وبيننا أن الأدلة الخمسة كلها تدلّ على علو الله: الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة.

فإن قال قائل: هل هناك حجج أخرى غير السمعية والنظرية؟

فالجواب: ممكن أن يوجد على سبيل التحدي، بأن يتحدى الإنسان هؤلاء بشيء يُغضب آهتهم يفعلوه ولا يحدث شيء، هذا يمكن أن يكون من باب التحدي.

الفائدة الثانية: فضل العرش؛ لقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ فإن اختصاص العرش بالله عزّ وجلّ لا شك أنه فضل عظيم.

الفائدة الثالثة: إثبات العرش؛ لقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾.

الفائدة الرابعة: إثبات عظمة الله؛ لأن العرش يختص بالملك والسلطان، فلا يقال للرجل الجالس على الكرسي أنه على عرش، لكن يقال للملك أو السلطان الجالس على الكرسي الفخم العظيم، يقال له: صاحب عرش.

الفائدة الخامسة: إثبات منة الله سبحانه وتعالى على من يشاء بالوحي؛ لقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

الفائدة السادسة: أن الوحي روح نحا به القلوب؛ لقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾.

الفائدة السابعة: إثبات القول؛ لقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾، والله سبحانه وتعالى يقول ويتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء، لا نحجر على ربنا سبحانه وتعالى في الكلام، لا وقتاً ولا كيفية، بل له أن يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء.

الفائدة الثامنة: إثبات المشيئة؛ لقوله: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾.

الفائدة التاسعة: أن مرتبة النبوة لا تُنال بالكسب والفتوة كما قال السفاريني في العقيدة<sup>(١)</sup>، وإنما هي فضل من الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده.

الفائدة العاشرة: أن العلماء لهم حظٌ ونصيب من الروح التي يُلقِيها الله تعالى على الرُّسل؛ لأنهم ورثة الأنبياء، فلهم حظٌ ونصيب من هذه الروح التي يُلقِيها الله على من يشاء، لكن لهم حظٌ من هذه الهداية -هداية الدلالة والبيان- ثم قد يكون لهم حظٌ من هداية التوفيق وقد لا يكون؛ لأن العالم قد يعمل بعلمه فيكون له حظٌ من الهدايتين: هداية الإرشاد، وهداية التوفيق، وقد لا يعمل بعلمه فيكون له حظٌ من هداية العلم والإرشاد، لكنها صارت وبألا عليه؛ حيث خالف مع العلم بالحق، وهذا أشدُّ ممن خالف بدون علم بالحق.

الفائدة الحادية عشرة: أن الوحي الذي يُنزله الله عز وجل على من يُنزله من عباده الحكمة منه إنذارُ الناس يوم القيامة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات الحكمة لله، وأن أفعاله مقرونة بالحكمة؛ لقوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾، وما أكثر لام التعليل و(من) التعليلية في القرآن، وكذلك في السنة، وكلُّها تدلُّ على إثبات الحكمة لله.

وقد ذكر بعض العلماء أن الحكمة دلٌّ عليها ألف دليل من الكتاب والسنة، فلا تُحصى الأدلة المثبتة لحكمة الله سبحانه وتعالى فيما يفعل، خلافاً لمن قال: إنه يفعل لمجرد المشيئة لا للحكمة، فإن هذا يبطل لصفة من أعظم صفات الله؛ لأن هذا يستلزم أن يكون فعله عبثاً لغير غاية محمودة.

(١) العقيدة السفارينية (ص: ٨٣).

فإن قال قائل: الذين لا يُثبتون الحِكْمَةَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ هل نقول: هذا إنكار جُحود، أو إنكار تَأْوِيل؟

فالجواب: إنكار تأويل؛ لأنهم يقولون: إنه لو فعل الحِكْمَةَ لفعل لغرض، ولا يفعل للغرض إلا من كان محتاجاً للغرض، فهذه شُبْهَةٌ، فيقال: هل هذه الحِكْمَةُ لأمر يعود لنفسه، أو يعود لعباده؟ ثم إذا كان عائداً لنفسه، فهو أهل للثناء، إذا كانت الحِكْمَةُ صفة كمال في نفسه، فهو أهل للثناء عَزَّوَجَلَّ، وأيهما أكمل؟ من يفعل لا الحِكْمَةَ أو من يفعل الحِكْمَةَ؟ لا شك أن الثاني أكمل.

الفائدة الثالثة عشرة: أنه ينبغي لمن آتاه الله علماً أن يكون مُنذِراً، يعني: يجمع بين العلم والتفقيه في الدين وبين الإنذار؛ لأنه إن اقتصر على مجرد التعليم الفقهي مثلاً، أو التوحيد بدون أن يُحرِّك القلوب لم يستفيد الناس منه كثيراً، فلا بُدَّ أن يكون هناك إنذار من أجل تحريك القلوب، وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا خطب احمّرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه مُنذِرٌ جيش يقول: صَبَّحْكُمْ وَمَسَاكُم.

الفائدة الرابعة عشرة: التحذير من خزي يوم القيامة؛ لأنه يوم التلاق، ولا شك أن العقوبة إذا كانت لا يطَّلَعُ عليها إلا القليل أهونُ مما إذا اطَّلَعُ عليها الكثير، فكيف إذا اطَّلَعُ عليها الخلق كلُّهم؟! تكون أشدَّ وأعظم.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث يجمع الله الخلق كلُّهم على صعيد واحد بعد الموت، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء قديرٌ.



## الآية (١٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

•••••

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ هذه بدل من يَوْمِ الْأُولَى: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ، وقوله: ﴿هُم بَارِزُونَ﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وَالجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ جَرٍّ بِالِإِضَافَةِ، إِضَافَةٌ ﴿يَوْمَ﴾ إِلَيْهَا.

و﴿بَارِزُونَ﴾ قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [خارجون من قبورهم]، ولكن المعنى أَخْصُصَ مِمَّا قَالَ، بل المعنى ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون، ليس لهم ظِلٌّ يُظِلُّهُمْ، لا من شَجَرٍ، ولا حَجَرٍ، ولا بيت، ولا غيره؛ لأن البارز هو الظاهر الذي لا يَجُوبُ دُونَهُ شَيْءٌ، وهم بارزون في ذلك اليوم، وتدنو الشمس منهم مقدار ميل، وَيَعْرِقُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ: مِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِنْجَامًا، عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: لا يَسْتَرِ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ، ولا يُغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ، بل هو مُحِيطٌ بِهِمْ إِحَاطَةً تَامَّةً، كما أنه لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ أَيْضًا؛ لأن الله تعالى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، لكن قال هنا: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لِأَجْلِ تَمَامِ التَّخْوِيفِ.

قوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ﴾ هذه مقول قولٍ محذوف، التقدير: يُقال: لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ. والقائل هو الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه تعالى يَقْبِضُ السمواتِ بيمينه ويبيده الأخرى الأرض، وَيَهْرُثُنَّ ويقول: أنا الملك، أين ملوك الدنيا؟! ويقول أيضًا: لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

قال المفسر رحمه الله: [يقوله الله تعالى ويوجب نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ أي: خلّقه] فقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ خبرٌ مُبتدأٌ محذوف، التقدير: الملك لله الواحد القهَّار، والواحد يعني: الذي لا ثاني له، لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في أحكامه، ولا في صفاته سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿الْقَهَّارِ﴾ صيغة مُبالغة من القهر، وهو الغلبة، فهو قهَّارٌ لكلِّ شيء، والمفسر رحمه الله قال: [أي: خلّقه].

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الناس يبرزون يوم القيامة لا يُظْلَهُمْ شجر، ولا مدر، ولا بناء، ولا جبل، ولا غير ذلك؛ لقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرِزُونَ﴾.

الفائدة الثانية: أنهم في ذلك اليوم لا يخفى على الله منهم شيء؛ لأنه مُحِيطٌ بهم علمًا وقدرة وسلطانًا.

فإن قال قائل: هل يُسْتَنَى من قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرِزُونَ﴾ أحدٌ؟

فالجواب: نعم، يُسْتَنَى مَنْ يُظْلَهُمْ الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، وهم سبعة، بل هم أكثر، بلغوا إلى واحد وعشرين رجلًا، لكنَّ النَّبِيَّ ﷺ جمع سبعة في حديث واحد، وهو حديث مشهور معروف: «سَبْعَةٌ يُظْلَهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:

إِمَامٌ عَادِلٌ...»<sup>(١)</sup> إلى آخره.

الفائدة الثالثة: أن الملك بل جميع الأملاك تتلشى في ذلك اليوم، فلا فرق فيه بين مالك ومملوك، وسيّد ومسود، وحُرٌّ وعبد، وذكر وأنثى، ليس لأحد في ذلك اليوم مُلك؛ ولهذا قال: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيقول: ﴿لِلَّهِ﴾.

الفائدة الرابعة: أن من أسماء الله الواحد، والواحد هو المتفرد الذي لا ثاني له، قال الله تعالى: ﴿لَا نَخْذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

الفائدة الخامسة: أن من أسماء الله القهار؛ لقوله: ﴿الْقَهَّارِ﴾.

الفائدة السادسة: إثبات صفتين من صفات الله، دلّ عليهما قوله: ﴿الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الصفة في الواحد أنه واحد، وفي القهار القهر، ويترتب على ذلك من الناحية المسلكية أن الإنسان إذا اعتقد أن الله سبحانه وتعالى واحد لم يلتفت إلى أحدٍ سواه، وإذا اعتقد أن الله قهار خاف من قهره، واستعان بقهره على عدوّه؛ فيستفيد من هذه العقيدة أن يخاف من قهر الله، وأن يستعين بقهر الله على عدوّ الله وعدّوه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



## الآية (١٧)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿الْيَوْمَ﴾: ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿تُجْزَى﴾، وَالظَّرْفُ وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ لَا بُدَّ لهُمَا مِنْ مُتَعَلِّقٍ؛ لِأَنَّهَا لَا يَقَعَانِ إِلَّا مَعْمُولَيْنِ أَوْ مَعْمُولًا فِيهِمَا؛ لِذَلِكَ لَا بُدَّ لهُمَا مِنْ عَامِلٍ يَتَعَلَّقَانِ بِهِ.

قَالَ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿تُجْزَى﴾ أَي: تُكَافَأُ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ بِمَعْنَى الْمَكَافَاةِ، جَازِيَتُهُ عَلَى عَمَلِهِ؛ أَي: كَافَأْتُهُ عَلَيْهِ، فَمَعْنَى ﴿تُجْزَى﴾ أَي: تُكَافَأُ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلَكِنَّ هَذَا الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ يَخْتَلِفُ عَنْ جَزَاءَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي يُجَازَى بِهَا النَّاسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿لَا ظُلْمَ﴾ (لَا) نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، وَ﴿ظُلْمَ﴾ اسْمُهَا، قَالَ أَهْلُ النَّحْوِ: وَالنَّفْيُ لِلْجِنْسِ يَنْفِي هَذَا الْجِنْسَ مُطْلَقًا. أَي: قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ، وَاحِدُهُ وَمُتَعَدِّدُهُ، وَهُمْ (لَا) أُخْرَى يُسَمُّونَهَا نَافِيَةً الْوَحْدَةَ، وَنَافِيَةً الْوَحْدَةَ لَا تَعْمَلُ عَمَلًا (إِنَّ)، بَلْ تَعْمَلُ عَمَلًا (لَيْسَ)، تَقُولُ: لَا رَجُلٌ فِي الدَّارِ؛ أَي: لَيْسَ فِي الدَّارِ رَجُلٌ وَاحِدٌ، بَلْ ثَلَاثَةٌ رِجَالٌ مِثْلًا، أَمَّا إِذَا أَرَدْتَ الْجِنْسَ فَقُلْ: لَا رَجُلٌ فِي الدَّارِ؛ أَي: لَا وَاحِدٌ وَلَا مُتَعَدِّدٌ.

وهي -أي: «لا» النافية للجنس - نص في العموم؛ أي: أنها دالة على العموم بالنص، فيكون ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾؛ أي: لا ظلم واقع من الله، ولا ظلم واقع من الخلق بعضهم لبعض، بل كل واحد من الخلق يفر من الآخر، لا ظلم اليوم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ أي: سريع محاسبة الخلائق على أعمالهم، ويبيّن المفسر رحمه الله هذه السرعة فقال: [يُحَاسِبُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا؛ لِحَدِيثِ وَرَدَ فِي ذَلِكَ] يُحَاسِبُ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ فِي مِقْدَارِ نِصْفِ يَوْمٍ، لَكِنْ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا. هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْقِيقٍ؛ لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، يَفْرَغُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ فِي نِصْفِ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ومعلوم أن القيلولة تكون في نصف النهار، وهذا يدل على أنه لا يتنصف النهار إلا وقد فرغ الله سبحانه وتعالى من حساب الخلائق، وصار كل واحد إلى ما آل إليه، لكن هل هو كيوم الدنيا، أو هو يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة؟

فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الله يحاسب الناس في نصف يوم؟

فالجواب: أوله أحاديث وردت في هذا، والثاني قوله تعالى: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] قال: ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والمقيل لا يكون إلا في نصف النهار بأطرافه.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ﴾.

الفائدة الثانية: أن كمال الجزاء يكون ذلك اليوم، وذلك أن الجزاء قد يكون

في الدنيا قد يُجَازِي الله الإنسانَ في الدنيا؛ فيُعْطِيهِ بِالْحَسَنَةِ حَسَنَاتٍ، وَيُوَاخِذُ الظَّالِمَ بِظُلْمِهِ، وَهَذَا وَقَعَ كَثِيرًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُجَازِي فِي الدُّنْيَا عَلَى عَمَلِهِ، لَكِنِ الْجَزَاءُ الْأَكْمَلُ الْأَوْفَى يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ النَّفْسَ لَا تُجَازِي إِلَّا بِمَا كَسَبَتْ، وَيَكُونُ الْكَسْبُ إِمَّا بِالْقَوْلِ، وَإِمَّا بِالْعَمَلِ، أَمَّا مُجَرَّدُ النِّيَّةِ فَلَيْسَتْ كَسْبًا، أَوْ مُجَرَّدُ حَدِيثِ النَّفْسِ فَلَيْسَ بِكَسْبٍ، فَالْكَسْبُ قَوْلٌ أَوْ عَمَلٌ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَرَكْنَ إِلَيْهِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»<sup>(١)</sup>.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ إِهْدَاءَ الْقُرْبِ لَا يَصِحُّ، يَعْنِي: لَوْ عَمِلْتَ عَمَلًا صَالِحًا وَأَهْدَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ الْغَيْرَ الَّذِي أَهْدَيْتَهُ لَهُ لَمْ يَكْسِبْهُ، إِلَّا مَا دَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَيْهِ، فَهُوَ مُسْتَشْنَى، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ لَا يُهْدَى مِنَ الْقُرْبِ إِلَّا مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى جَوَازِ إِهْدَاءِ جَمِيعِ الْقُرْبِ، وَقَالُوا: إِنْ مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ قَضَايَا أَعْيَانٍ، إِذَا ثَبَّتَ الْحُكْمَ فِيهَا ثَبَّتَ فِي نَظِيرِهَا؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ مُتَمَاثِلَيْنِ، وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِإِجْزَاءِ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَةِ وَالْبَدَنِيَّةِ وَالْمُرَكَّبَةِ مِنْ مَالٍ وَبَدَنٍ.

أَمَّا الْعِبَادَاتُ الْمَالِيَّةُ: فَفِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمَّيْ افْتَلَيْتَ نَفْسُهَا، وَإِنَّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ لَتَصَدَّقَتْ. افْتَلَيْتَ يَعْنِي: أَخَذْتَ بَغْتَةً، وَإِنَّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لَتَصَدَّقَتْ، أَفَاتَصَدَّقَ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»<sup>(١)</sup>.

وكذلك سَعَدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ لَهُ مَخْرَافٌ؛ أَي: بُسْتَانٌ يُخْرِفُ، فَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى أُمَّهِ بِإِذْنِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -<sup>(٢)</sup>، هَذِهِ الْعِبَادَةُ الْمَالِيَّةُ.

أَمَّا الْعِبَادَةُ الْبَدَنِيَّةُ: فَقَوْلُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»<sup>(٣)</sup>، وَهَذِهِ عِبَادَةُ بَدَنِيَّةٌ مُحَضَّةٌ.

وَأَمَّا الْمُرْكَبَةُ مِنْهَا: فَالْحُجُّ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي سَأَلَتْهُ عَنْ أُمَّهَا أَنَهَا مَاتَتْ وَلَمْ تَحُجَّ، قَالَ: «حُجِّي عَنْهَا»<sup>(٤)</sup>، وَهَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ<sup>(٥)</sup>. أَعْنِي: جَوَازَ إِهْدَاءِ الْقُرْبِ إِلَى الْغَيْرِ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ الْمُهْدَى إِلَيْهِ مُسْلِمًا، أَمَّا إِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَوْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ لَا تُقْبَلُ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ لَا يُقْبَلُ لَهُ عَمَلٌ، لَا مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْمَنْعِ.

ولكن مع ذلك لا نُحِبُّدُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُهْدَى إِلَى أَمَوَاتِهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ السَّلَفِ، وَلَا سِيَّيَا الْإِكْتِثَارِ مِنْهُ، كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ، تَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ فِي رَمَضَانَ يَحْتِمُ الْقُرْآنَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَكُلَّ حَتْمَةٍ يَجْعَلُهَا لَوَاحِدٍ مِنْ أَقَارِبِهِ، هَذِهِ لِأُمَّهِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَوْتِ الْفَجْأَةِ الْبَغْتَةِ، رَقْمٌ (١٣٨٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الزَّكَاةِ،

بَابُ وَصُولِ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ عَنِ الْمَيْتِ إِلَيْهِ، رَقْمٌ (١٠٠٤)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوَصَايَا، بَابُ إِذَا قَالَ: أَرْضِي أَوْ بَسْتَانِي صَدَقَةَ اللَّهِ، رَقْمٌ (٢٧٥٦)، مِنْ

حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ، رَقْمٌ (١٩٥٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ

الصِّيَامِ، بَابُ قِضَاءِ الصِّيَامِ عَنِ الْمَيْتِ، رَقْمٌ (١١٤٧)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ جِزَاءِ الصَّيْدِ، بَابُ الْحُجِّ وَالنُّذُورِ عَنِ الْمَيْتِ، رَقْمٌ (١٨٥٢)، مِنْ حَدِيثِ

ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) انظر: المغني (٢/٤٢٣)، والشرح الكبير (٢/٤٢٥)، وكشاف القناع (٢/١٤٧).

وهذه لأبيه، وهذه لأخيه، وهذه لعمّه، وما أشبه ذلك، هذا في الحقيقة خلاف عادة السلف.

ونقول: إن أردت أن تنفع ميتك نفعاً محققاً فاعمل بها أرشد إليه النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حيث قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»<sup>(١)</sup> هذا هو الذي نُحِبُّهُ، ونقول: أكثر من الدعاء لأموالك، أمّا إهداء القرب فاجعلها لنفسك؛ لأن هذا هو السنّة، وأنت أيها الحيّ سوف تحتاج إلى هذه الأعمال الصالحة، كما أن الأموات أيضاً يحتاجون إلى زيادة الأعمال الصالحة، كما جاء في الحديث: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ أَزْدَادًا، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ اسْتَعْتَبَ»<sup>(٢)</sup>.

إذن نقول: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ استدلل بها بعض العلماء على أن من أهدى إليه شيء من القرب فإنه لا ينتفع به؛ لأنه ليس من كسبه، إلّا ما جاءت به السنّة، ولكن الصحيح أنه ينتفع به.

فإذا قلت: إن هذا هو الصحيح فالجواب عن الآية أنها تدلّ على أن النفس تُجزي بما كسبت، لكن لا تدلّ على إنها لا تنتفع بعمل غيرها، الشيء المضمون تمامًا هو ما كسبت، وأمّا ما أهداه الغير لها فهذا شيء آخر، وله أدلة أخرى.

الفائدة الخامسة: انتفاء الظلم في ذلك اليوم؛ لقوله: ﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾، ولكن الإنسان يُجازى بحسب عمله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿ طه:١١٢ ﴾، قال المفسرون: ظُلْمًا في زيادة سيئاته، وهَضْمًا في نقص حسناته.

الفائدة السادسة: إثبات المحاسبة: أن الله يُحاسب الخلائق، وهذا كما أنه مدلول النصوص فهو مقتضى الحكمة؛ إذ ليس من الحكمة أن يؤمر الناس ويُنهوا ثم يذهب هذا الأمر والنهي هدرًا لا يُحاسب عليه العبد، هذا في الحقيقة لو ثبت لكان عبثًا، والله تعالى مُنزّه عنه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُرَكَّ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، فلا بُدَّ من مجازاة، لا بُدَّ من محاسبة حتى يتبين ما للإنسان وما عليه.

الفائدة السابعة: تمام قدرة الله جَلَّ وَعَلَا وقوته، مأخوذة من قوله: ﴿ سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴾؛ لأن السرعة تدلُّ على القدرة والقوة، كيف يُحاسب هذه الخلائق التي لا يُحصيها إلا هو عَزَّجَلَّ في نصف يوم؟! هذا دليل على كمال القدرة وكمال القوة.

فإن قال قائل: كيف يكون الحساب؟

فالجواب: الحساب يُختلف باختلاف المحاسب:

أما المؤمن: فإن الله تعالى يضع عليه كنفه؛ أي: ستره، ويخلو به ويُقرِّره بذنوبه، ويقول: فعلت كذا وكذا في يوم كذا. حتى يُقرَّ، فإذا أقرَّ واعترف، قال الله تعالى: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيذهب طليقًا.

أما الكفار: فإنهم لا يُحاسبون حساب من تُوزن حسناته وسيئاته؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ولكن تُحصى أعمالهم فيوقفون عليها، ويُقرِّرون بها، ويُحزَّون بها، ويوبَّخون عليها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ﴿٨﴾ قالوا بل إن قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿ [الملك: ٨-٩]، فَيُوبِخُونَ زِيَادَةَ فِي حَسْرَتِهِمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -  
وَيَبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يُظَلِّمُوا، فَالْحِسَابُ إِذَنْ يَخْتَلِفُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُوكِيَّةِ: تَحْذِيرُ الْإِنْسَانَ  
مِنَ الْمُخَالَفَةِ، وَحَثُّهُ عَلَى الْمُوَافَقَةِ وَيُؤَخِّدُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا  
كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]، فَهَذَا يُوجِبُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا آمَنَ بِهِ أَنْ يَجْرُسَ عَلَى مُوَافَقَةِ الْأَمْرِ  
وَعَلَى طَاعَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ يَكْسِبُ.

وَأَنَا أَسْأَلُكُمْ كَمَا أَسْأَلُ نَفْسِي: هَلْ نَحْنُ إِذَا صَلَّيْنَا يَكُونُ فِي نَفْسِنَا شُعُورٌ بِأَنَّا  
سَنَأْخُذُ أَجْرًا عَلَى هَذِهِ الصَّلَاةِ، أَوِ الشُّعُورِ السَّائِدِ أُنَّا أَدَّيْنَا مَا يَجِبُ عَلَيْنَا فَقَطُّ؟  
الْجَوَابُ: الثَّانِي، وَلِهَذَا لَوْ كَانَ عِنْدَنَا الشُّعُورُ الْأَوَّلُ؛ إِنَّا سَنُجَازِي عَلَى هَذِهِ الصَّلَاةِ  
وَبِقَدْرٍ مَا أَتَقْنَا فِيهَا لَكِنَّا نُنْتَقِنُهَا جَيِّدًا؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ ابْدُلْ  
دِرَاهِمَ كَثِيرَةً يَأْتِيكَ سِلْعَةٌ طَيِّبَةً، لَكِنِ ابْدُلْ قَلِيلَةً يَأْتِيكَ سِلْعَةٌ رَدِيئَةً.

لِهَذَا يَنْبَغِي لَنَا - وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَنَا وَيُعِيدَنَا مِنَ الْعَقْلَةِ - أَنْ نَشْعُرَ حِينَ نَعْمَلُ  
الْعَمَلَ الصَّالِحَ أُنَّا سَوْفَ نُجَازِي عَلَيْهِ، حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ أَشْحَذَ لِهَمِّنَا فِي إِتْقَانِ  
الْعَمَلِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ عَمَلَهُ هَذَا هُوَ جَزَاؤُهُ فَسَوْفَ يُتَقِنُ الْعَمَلَ، سَوْفَ  
يَأْتِي بِهِ عَلَى حَسَبِ مَا يَرْضِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



## الآية (١٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينٌ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

•••••

قال تعالى: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [يوم القيامة من أَرْفِ الرَّحِيلِ: قَرُبَ].

﴿ وَأَنْذَرَهُمْ ﴾ الضمير الفاعل يعود على الرسول والمفعول به الناس، يعنني: أنذر الناس هذا اليوم، وهذا العامل استوفى مفعولين الهاء وهي المفعول الأول، و﴿ يَوْمَ الْأَزْفَةِ ﴾ المفعول الثاني.

وقوله: ﴿ يَوْمَ الْأَزْفَةِ ﴾؛ أي: اليوم الأرف، فهو من باب إضافة الموصوف إلى صفة؛ أي: أنذرهم اليوم القريب، وإن شئت فقل: ﴿ الْأَزْفَةُ ﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير: يوم القيامة الأرفة، والأرفة بمعنى: القريبة، قال الله تعالى: ﴿ أَرَفَتِ الْأَزْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٧-٥٨]، وقال الشاعر:

أَرْفَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنْ رِكَابَنَا      لَمَّا نَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ<sup>(١)</sup>  
أي: وكأن قد زالت.

(١) البيت للنابغة الذبياني، انظر: ديوانه (ص: ٨٩).



فالحاصلُ: أن الأزف بمعنى القُرب، فالآزفة القريبة، وهو يوم القيامة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

فهي قريبة مهما طال الوقت، لو تَبَقِيَ الدنيا ملايين الملايين من السنين فهي قريبة، وإذا شئت أن يَتَبَيَّنَ لك ذلك فانظر ما تَسْتَقْبِلُه الآن، إذا أَرَدْتَ أن تَعْرِفَ ذلك فانظر إلى المُسْتَقْبَلِ، المُسْتَقْبَلِ تَنْظُرُ إليه نظر البعيد فإذا به يَأْتِي وبسرعة، كأنه بَرَقَ خاطِطٌ، هكذا مُسْتَقْبَلِ الدنيا كلها قريب، فإن أدركته أدركته، وإن لم تُدركه قامت قيامتك قبلها، فقيامتك قريبة، وإن بقيت إلى القيامة الكبرى فهي أيضًا قريبة، إذن كل آتٍ قريب، وكل ماضٍ بعيد، الماضي ولو كان قبل وقتك بساعة بعيد؛ لأنه لا يُمكن أن يَرْجِعَ، والمُسْتَقْبَلِ قريب.

إذن: سُمِّيتِ القيامة آزفة لقربها، ووجه قُربها - وإن كان بيننا وبينها ما لا يعلمه إلا الله من السنين - أن المُسْتَقْبَلِ مهما بعد قريب.

فإن قال قائل: ما القول في اليوم الذي كآلف سنة؟

فالجواب: قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، لكن يوم القيامة لم يرد فيه إلا خمسون ألف سنة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وفي الحديث الصحيح في قصة مانع الزكاة<sup>(١)</sup>: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وعلى هذا فالْيَوْمُ الذي عند ربنا كآلف سنة لا ندرى ما هذا اليوم، فهو يوم مجهول لنا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]، فهذا لأن ما بين السماء والأرض خمس مئة سنة، فإذا كان ما بينهما خمس مئة سنة؛ فإن صعود الأمر إلى الله ثم رجوعه، يكون ألف سنة؛ فالأيام ثلاثة: يومٌ مقداره خمسون ألف سنة وهذا يوم القيامة، ويومٌ عند الله لا نعلم ما هو، مقداره ألف سنة، ويومٌ مقداره ألف سنة في تدبير الأمر من السماء إلى الأرض، ثم عروجه إلى الله عزَّ وجلَّ.

مسألة: ورد عن النبي ﷺ أن الله يُحاسب الخلائق في ساعة واحدة<sup>(١)</sup>، فهل الساعة تدخل في نصف يوم؟

فالجواب: الساعة تُطلق على الزمن القليل والكثير، إلا إذا فصلت، مثل: «من جاء في الساعة الأولى في يوم الجمعة.. ومن جاء في الثانية.. ومن جاء في الثالثة..».

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

[غافر: ١٨].

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ (إذ): بدل من ﴿يَوْمَ الْأَرْزَفَةِ﴾ يعني: أنذرهم يوم الأَرْزَفَةِ،

أنذرهم إذ القلوب لدى الحناجر.

(إذ): ظرف لما مضى من الزمان، وتأتي ظرفاً وتأتي تعليلاً على حسب ما

جاءت معانيها في اللغة العربية.

وقوله: ﴿الْقُلُوبُ﴾ (أل): هنا للاستغراق؛ أي: كل القلوب، وقوله: ﴿لَدَى﴾

يقول رحمه الله: بمعنى: عند.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٣)، من حديث لقيط بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ تَرْتَفِعُ خَوْفًا ﴿لَدَى﴾ عِنْدَ ﴿الْحَنَاجِرِ﴾ كَطِيمِينَ ﴿﴾، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وهذا شيء معلوم محسوس؛ أن الإنسان كلما اشتدَّ به الخوف ارتفع قلبه وانكمش وازداد خفقانًا، فيوم القيامة تَرْتَفِعُ القلوب حتى تصل إلى الحناجر، والحنجرة ما بين الترقوتين.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿كَطِيمِينَ﴾ مُتَمَلِّينَ غَمًّا، حال من ﴿الْقُلُوبُ﴾ عُوِمِلَتْ بالجمع بالياء والنون مُعَامَلَةٌ أصحابها]، لم يُقَلْ: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمَةً، لأنه لو جرى الوصف للقلوب؛ لقال: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمَةً، وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٨] ولا يُجْمَعُ المذكَرُ السَّالِمُ بالواو والنون إِلَّا لِلْعَاقِلِ.

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ القلوب جماد، هي نفسها جماد، والجماد لا يُجْمَعُ بالواو والنون؛ لأنه لا يُجْمَعُ بالواو والنون إِلَّا الْعَاقِلِ، عَلِمًا كَانَ أَوْ وَصْفًا، وقد مرَّ عليكم في شروط جمع المذكَرِ السَّالِمِ أن يكون عَلِمًا أَوْ وَصْفًا لِعَاقِلِ، فهنا القلوب ليست عاقلة، القلوب جزء من البدن ليست عاقلة، فكيف توجه الحال التي جاءت منها بجمع على صيغة جمع المذكَرِ السَّالِمِ؟!

يقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: لأن المراد بها أصحاب القلوب، القلوب لدى الحناجر والكاظم صاحبها، وهذا حقُّ أن ﴿كَطِيمِينَ﴾ حال من القلوب باعتبار أصحابها، والكاظم يقول: المُتَمَلِّئُ غَمًّا، وَيَمْتَلِئُونَ غَمًّا لِشِدَّةِ الْأَهْوَالِ، وَالْمَخَافَةِ قُلُوبٌ مُرْتَفِعَةٌ أَنْفُسٌ مُتَمَلِّئَةٌ غَمًّا.

قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] الظالمون هم الكافرون

هنا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وليس المراد مُطْلَقَ الظُّلْمِ، بل المراد الظُّلْمَ المُطْلَقَ، وهو ظُلم الكُفْر، فالظالمون في ذلك اليوم ليس لهم حميم، والحميم هو: المُحِبُّ، كما قال المُفسِّر، وقيل: القريب، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]؛ أي: قريب، ولا نقول: ولا صديق مُحِبٌّ؛ لأنه ما من صديق إلا وهو مُحِبٌّ، ولولا المُحبة ما صادقه.

وعلى هذا فنقول: إن الأولى أن تُفسَّر الحميم بالقريب، والغالب أن الذي يُجَامِي عنك ويُدافع عنك وَيَشْفَعُ لك هو القريب، هذا الغالب.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿شَفِيعٍ﴾ بِمَعْنَى: شَافِعٍ، فهي فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، كَسَمِيعٍ بِمَعْنَى: سَامِعٍ، والشافع: مَنْ شَفَعَكَ؛ أي: صار معك حتى تكون بعد الفرد شَفَعًا؛ ولهذا يُقال: الشافع هو مَنْ تَوَسَّطَ لك بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ، أو دَفَعِ مَضَرَّةً، هذا هو الشافع، التَّوسُّطُ للغير بِجَلْبِ الخير، أو دَفَعِ الضَّرِّ، يَعْنِي: الشفاعة هي التَّوسُّطُ للغير بِجَلْبِ الخير أو دَفَعِ الضَّرِّ، هذا إذا أَرَدْتَ أن تَأْتِيَ بها على سَبِيلِ السَّجْعِ؛ من أَجْلِ أن تكون أَرِيحَ، ففي يوم القِيَامَةِ ليس لهم شَفِيعٌ، فلا يَشْفَعُ لهم أَحَدٌ؛ لأن من شَرَطَ الشفاعة أن يكون الله راضياً عن الشافع وعن المَشْفُوعِ له.

ولجأنا إلى هذا التَّأْوِيلِ لوجود الآية الثابتة للشفاعة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠]، وانْتِفَاءُ الشَّفَاعَةِ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وهؤلاء لا يَرْتَضِيهِمُ اللهُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ لا مفهومٌ لِلْوَصْفِ، إذ لا شَفِيعَ هُمْ أصلاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أو له مفهومٌ بِنَاءٍ على زَعْمِهِم أن هُمْ شَفَعَاءُ،

أي: لو شفَعوا فَرَضًا لم يُقَبَلوا].

كلمة ﴿يُطَاعُ﴾ جملة فعلية في محلِّ جرِّ صفة لـ ﴿شَفِيعٌ﴾ ولو حوّلناها إلى اسمِ فاعِلٍ لكان التَّقدير: ولا شَفِيعٌ مُطَاع، فهل هذه الصِّفةُ قَيْدٌ، بمعنى: أنَّهُم شَفِيعًا لا يُطَاع، أو هي بيانٌ للواقع والمراد نَفْيُ الشَّفِيعِ؟ ذَكَرَ المفسِّرُ احتمالين:

الأوّل: أن يكون المراد ليس لهم شَفِيعٌ مُطلقًا، واستدلَّ لذلك بقوله تعالى عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَفِيعِينَ﴾ (١٠) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

أو أن المعنى: لو قُدِّرَ أنَّهُم شُفَعَاءُ، فإنَّ هُوَ لاءِ الشُّفَعَاءِ لا يُطَاعُونَ، وهذا بناءٌ على قولهم: إن الذي يَعْبُدُونَ من دون الله يَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُم، والآيةُ تَحْتَمِلُ ما قال المفسِّرُ، أمَّا إذا قُلْنَا بالوجهِ الأوّل، وهو نَفْيُ الشُّفَاعَةِ مُطلقًا فالأمر ظاهرٌ لا إشكالَ فيه.

أمَّا الثاني: أن يُقامَ لَهُمُ شُفَعَاءُ، ولكن تُرَدُّ شُفَاعَتُهُمْ، فهذا من أَجْلِ التَّخْجِيلِ لَهُم، أن يَحْجَلُوا حيث تُقامُ الشُّفَعَاءُ الذين يَدْعُونَ أَنَّهُم شُفَعَاءُ لَهُم، ثُمَّ تُرَدُّ الشُّفَاعَةُ، هذا أَبْلَغُ في حَجَلِهِمْ، وفي رَدِّهِمْ، وعدمِ انْتِفَاعِهِمْ بِأَهْلِهِمْ، واللهُ أَعْلَمُ.

فإن قال قائل: إذا قُلْنَا بالوجهِ الثاني ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ثُمَّ يُقامُ ثُمَّ يُرَدُّ، ما حال الشَّفِيعِ الذي يُقامُ ثُمَّ يُرَدُّ، هل هو مَنْ تُقَبَّلُ شُفَاعَتُهُ، هل أنه مِثْلُهُمْ أصلاً؟

فالجواب: لا، بل تُمَثَّلُ لَهُمُ أَصْنَانُهُمْ، حتى الذين يَعْبُدُونَ عِيسَى، يُمَثَّلُ لَهُمُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

### من فوائد الآية الكريمة:

**الفائدة الأولى:** وجوب الإنذار على رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -؛ لقوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ﴾ والأصل في الأمر الوجوب لا سيما أن الرسول ﷺ مكلفٌ بذلك.

**الفائدة الثانية:** أنه ينبغي للداعية أن يكون مخوفًا أحيانًا ومبشرًا أحيانًا، أما الإشارة أحيانًا ففي آيات كثيرة، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وما أشبه ذلك، وأما الإنذار فكذلك في مثل هذه الآية؛ فالداعية ينبغي أن يكون مُنذِرًا مبشرًا من أجل أن يُحرِّك القلوب.

**الفائدة الثالثة:** أنه ينبغي في الإنذار أن يُذكر الناس أحوال يوم القيامة وأهوالها؛ لقوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ﴾

**الفائدة الرابعة:** أن القيامة قريبة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ والقرب هنا يعني أن الوقت يمضي بسرعة؛ حتى لا يشعر الإنسان إلا وقد قامت القيامة، إما قيامته هو، وتسمى القيامة الصغرى، أو القيامة العامة.

**الفائدة الخامسة:** بيان هذا التمثيل العظيم في حال الناس ذلك اليوم، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾.

**الفائدة السادسة:** أن هذه الحال عامة للمؤمنين وللكافرين، دليل ذلك: عموم قوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾، ثم قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ﴾؛ فدل ذلك على أن الآية عامة، ولكن لا يلحق المؤمنين شرٌّ من ذلك اليوم؛ لقول الله تعالى: ﴿فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ١١]، ومجرد الغمِّ والهَمِّ لا يلزم منه الشرُّ والضرر.

الفائدة السابعة: أن القلوب عند شدة الخوف ترتفع حتى تبلغ الحناجر، وهذا يشهد به الواقع، قال الله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، والإنسان في نفسه أيضًا يحس أنه إذا خاف خوفًا شديدًا، وكأن قلبه قد علق في حنجرته.

الفائدة الثامنة: أن الناس في ذلك اليوم مع شدة الخوف يمتثلون غمًا؛ لقوله: ﴿كَظِيمِينَ﴾، والغم هو: التحزن، أو التهيؤ لما يستقبل، فالغم في المستقبل، والهمم والحزن في الماضي.

الفائدة التاسعة: تقطع الأسباب بالظالمين؛ فلا يجدون حميًا ولا شفيعًا؛ لقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، والمراد بالظالمين ما سبق، وهم الكافرون.

فإن قال قائل: الظلم أعم من الكفر، فكيف فسرتهم الظلم هنا بالكفر؟

قلنا: لأن الله تعالى قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ ولأن ما دون الكفر من المعاصي تمكن فيه الشفاعة؛ فإن الشفاعة ثابتة لأهل الكبائر من هذه الأمة.

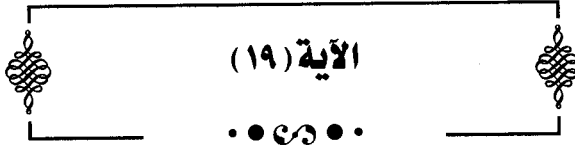
فإن قال قائل: هل تقع الكبائر من الأنبياء؟

فالجواب: تقع، لكن يتوبون منها، فإن موسى عليه السلام قتل نفسًا بغير حق، أو لم يؤذن له فيها، ويقع هذا سواء قبل النبوة أو بعدها؛ ولهذا فهو عليه السلام اعتذر بذلك في طلب الشفاعة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَحذِيرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ فَإِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا يَجِدُونَ مَنْ يُنَاصِرُهُمْ وَيُؤَالِيهِمْ، وَيُسَاعِدُهُمْ وَيُعَاوِنُهُمْ، وَلَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَا يَجِدُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.







﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].



قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ الفاعل هو الله عَزَّوَجَلَّ.

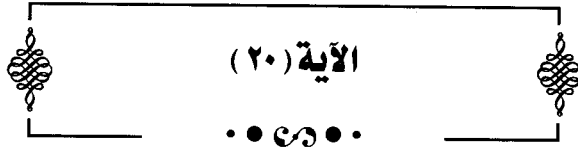
وقوله: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ هذا من باب إضافة الصِّفة إلى موصوفها؛ أي: الأعين الخائنة، وخيانة العين مُسَارَقَتُهَا النَّظْرَ إلى الشيء المحرَّم، يعني: أن الإنسان قد ينظر إلى شيء محرَّم، وجليسه إلى جنبه لا يشعر بذلك؛ لأنه يُسَارِقُه النَّظْرَ؛ كأنها يتحَيَّن الفرص في غفلة صاحبه؛ حتى ينظر إلى ما حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ، هذه واحدة.

ثانياً: قد ينظر الإنسان النظر بدون مُسَارَقَة بل بمُجَاهَرَة، ولا يُحْسُّ جليسه أنه ينظر نظراً محرَّماً، لذلك حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الحال.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ بِمُسَارَقَتِهَا النَّظْرَ إِلَى مُحْرَّمٍ ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: القلوب].

فسَّر المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ الصُّدُورَ بالقلوب؛ لأنَّها في الصُّدُورِ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ هنا دِقَّةَ عِلْمِهِ، ولُطْفَ عِلْمِهِ بأنه يَعْلَمُ حتى هذه الحال التي لا يَعْلَمُهَا النَّاسُ الَّذِينَ يُشَاهِدُونَ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿ [غافر: ٢٠].

•••••

قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ الجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أَي: يَحْكُمُ بِهِ شَرْعًا وَقَدْرًا؛ لِأَنَّ الْقَضَاءَ -أَعْنِي: قَضَاءَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ- عَلَى قِسْمَيْنِ: قَضَاءَ كَوْنِيٍّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنٍ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، وَقَضَاءَ شَرْعِيٍّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، «قَضَى» يَعْنِي: قَضَاءً شَرْعِيًّا، وَمَعْنَاهَا: وَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ؛ فَهَذَا يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ وَالْمُرَادُ هُنَا الْأَمْرَانِ جَمِيعًا؛ أَي: أَنَّهُ يَقْضِي قَضَاءً كَوْنِيًّا بِالْحَقِّ؛ فَلَيْسَ فِي قَضَائِهِ الْكَوْنِيِّ عِبْثٌ وَلَا لَعِبٌ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وكذلك يَقْضِي قَضَاءً شَرْعِيًّا بِالْحَقِّ؛ فَقَضَاؤُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشَّرْعِيُّ كُلُّهُ حَقٌّ؛ لِأَنَّهُ خَيْرٌ فَيَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ فَيَنْهَى عَنْهُ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ إِذْنِ اللَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ بِالنُّوعَيْنِ: الْقَضَاءَ الْكَوْنِيَّ، وَالْقَضَاءَ الشَّرْعِيَّ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ الواو هُنَا عَاطِفَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اسْتِثْنَائِيَّةً.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ؛ أَي: كُفَّارٌ مَكَّةَ، بِالْيَأْيِ وَالنَّاءِ،

هنا: تفسير لكلمة ﴿يَدْعُونَ﴾، وتفسير للضمير الواو، وقراءة؛ أمّا القراءة فذكر المفسّر أن فيها قراءتين: القراءة الأولى ﴿يَدْعُونَ﴾ [غافر: ٢٠] بالياء، والقراءة الثانية: «تَدْعُونَ» بالتاء على سبيل المخاطبة، وكلاهما قراءتان سبعتان، وأمّا ﴿يَدْعُونَ﴾ ففسّر ها بكلمة [يعبدون]، والصواب: أن المراد بها يعبدون ويسألون؛ لأنهم هم يعبدون الأصنام ويسألونها، يسألونها جلب المنافع ودفع المضار، ويعبدونها أيضًا بالركوع والسجود والتذور وغير ذلك.

وأما الواو ففسّر ها المفسّر بكُفَّار مَكَّة؛ فجعل الضمير عائداً إلى كُفَّار مَكَّة، وهنا نَسأل: هل لا يوجد أحدٌ يعبد الأصنام ويدعو الأصنام إلا كُفَّار مَكَّة؟ الجواب: يوجد منهم ومن غيرهم، وإذا كان كذلك فإن تفسير العامّ بالخاصّ نقص في التفسير، فالتفسير المطابق للواو، أن تكون عامّة لكلّ من يدعو من دون الله من كُفَّار مَكَّة، أو كُفَّار المدينة، أو كُفَّار الطائف، أو كُفَّار العراق، أو كُفَّار الشام، أو كُفَّار هذه الأمّة، أو كُفَّار من قبلها، عامّة، كل من يدعو من دون الله فإنه يدعو من لا يقضي بشيء.

فإن قال قائل: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ حملها المفسّر على أهل مَكَّة، وقد تقدّم أيضًا أن المشركين دائماً يحملها المفسّر على أهل مَكَّة، رُبما أن السورة نزلت في مَكَّة، ورُبما المفسّر حملها على هذا؟

فالجواب: لكن لا يصحّ هذا، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. هو له وجهة نظر، وأقوى من هذه الوجهة قوله: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ بعد الآية هذه، لكن نحن نقول: العبرة بعموم اللفظ، والسبب لا يُخصّص العامّ، وإذا ذُكر حكم يتعلق ببعض أفراد العامّ، لا يقتضي تخصيصه أيضًا. كما هي القاعدة.

وقوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾؛ أي: من دون الله، والدون هنا بما سوى؛ أي: ما سوى

الله عَزَّوَجَلَّ وَهُمْ الْأَصْنَامُ هُنَا، قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [وَهُمُ الْأَصْنَامُ] وَكَانَ مُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَقُولَ: وَهِيَ الْأَصْنَامُ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ لِغَيْرِ مَا يَعْقِلُ لَا يَعُودُ عَلَيْهِ ضَمِيرُ مَا يَعْقِلُ، وَ(هَمْ) لِلْعُقَلَاءِ، وَلَكِنَّ الْمَفْسِّرَ عَدَلَ عَنِ الْأَصْلِ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ لِمُرَاعَاةِ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ (الذين) هَذِهِ لِلْعَاقِلِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ نَزْهًا مَنَزِلَةَ الْعُقَلَاءِ، وَمَعَ كَوْنِهَا مُنَزَّلَةً مَنَزِلَةَ الْعُقَلَاءِ لَا تَقْضِي بِشَيْءٍ.

قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]، وَلَمْ يُقَابَلِ هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِالْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، بَلْ جَعَلَهَا أَعْمَ، فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، وَهُنَا قَالَ: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: لَا يَقْضُونَ بِالْحَقِّ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا لَا تَقْضِي لَابِحَقٍّ وَلَا بباطِلٍ؛ فَلَيْسَتْ أَهْلًا لِأَنَّ تَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ أَبَدًا، لَا شَرْعًا، وَلَا قَدْرًا، وَلَا حَقًّا، وَلَا بَاطِلًا.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾] فَكَيْفَ يَكُونُونَ شُرَكَاءَ اللَّهِ؟! هَذَا مَحْطُّ النَّفْيِ، يَعْنِي: إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَقْضِي بِشَيْءٍ فَكَيْفَ تُجْعَلُ شَرِيكَةً لِلَّهِ؟! وَهَذَا يَعْنِي: تَوْبِيخٌ هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾] لِأَقْوَاهِمُ ﴿الْبَصِيرُ﴾ بِأَفْعَالِهِمْ، وَ(هُوَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾، يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ضَمِيرُ فَضْلٍ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَأً، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ (إِنْ)، لَكِنَّ هِيَ ضَمِيرُ فَضْلٍ أَحْسَنُ مِنْهَا مُبْتَدَأً.

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبَاتُ أَنَّ قَضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّهُ حَقٌّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ سِوَاءً كَانَ الْقَضَاءُ كَوْنِيًّا أَمْ شَرْعِيًّا.

الفائدة الثانية: الثناء على الله عزَّجَلَّ بهذه الصِّفة الكاملة، وهي قضاء الحقِّ، وأنه لا يفعل شيئاً سُدِّي أو عبثاً، بل كلُّ ما يقضيه فإنه حقٌّ.

الفائدة الثالثة: التَّنديد بعُباد الأصنام؛ حيث عبدوا مع الله من ليس بشيء بالنسبة لله عزَّجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ﴾.

الفائدة الرابعة: أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها إطلاقاً؛ لقوله: ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ (شيء) نكرة في سياق النفي؛ فتعمُّ كلَّ شيء.

فإن قال قائل: إن من القوم الذين يدعون مع الله إلهاً آخر من إذا دعوا هذه الأصنام أجابتهم، فإذا دعوا بكشف الضُّرَّ انكشف الضُّرُّ عنهم، ومن الناس من إذا خالف هذه الأصنام أصيب ببلاء، فما هو الجواب؟

فالجواب: أن يُقال: هذا الذي يحصل، يحصل من الله عزَّجَلَّ، لا من هذه الأصنام، ابتلاءً وامتحاناً، ويُقال فيه: إنه حصل عند ذلك لا به، يعني: حصل هذا القضاء من الله عزَّجَلَّ عند دعاء هذه الأصنام، لا بدعاء هذه الأصنام.

فإن قال قائل: لماذا تعدلون عن السبب الظاهر إلى سبب آخر لا يعلم؟

قلنا: عدلنا إلى ذلك؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ [غافر: ٢٠]؛ ولقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنصِتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وإلا فإن العامي قد يأتي إلى صاحب القبر، ويقول: يا سيدي، يا وليَّ الله،

يا مَوْلَايَ، أَنْقِذْنِي مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، أَنْقِذْنِي مِنْ هَذِهِ الضَّائِقَةِ، فَيَذْهَبُ إِلَى بَيْتِهِ وَيَجِدُ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ انْفَرَجَ، وَسَوْفَ يُضِيفُ هَذَا الْانْفِرَاجَ إِلَى السَّبَبِ الظَّاهِرِ، الَّذِي قَامَ بِهِ، وَهُوَ دُعَاءُ هَذَا الْقَبْرِ حَتَّى انْفَرَجَتْ عَنْهُ الْعُمَّةُ؛ فنقول: هَذِهِ فِتْنَةٌ، وَنَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ -أَي: صَاحِبِ الْقَبْرِ- لَيْسَ هُوَ الَّذِي كَشَفَ الضُّرَّ، وَإِنَّمَا الَّذِي كَشَفَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنْ حَصَلَ الْكَشْفُ عِنْدَ دُعَاءِ صَاحِبِ الْقَبْرِ، لَا بِدُعَائِهِ.

انْتَهَوْا لِهَذَا؛ لِأَنَّهُ دَائِمًا يُورِدُ عَلَيْنَا أَصْحَابُ الْقُبُورِ هَذِهِ الشَّبْهَةَ، يَقُولُ: أَنَا دَعَوْتُ السَّيِّدَ الْفُلَانِيَّ فَاسْتَجَابَ لِي، وَانْكَشَفَتِ الْعُمَّةُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا يَحْصُلُ لِعِبَادِ الْقُبُورِ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْامْتِحَانِ، لَوْ قَلْنَا لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ كَذَا، وَيَقُولُ كَذَا؛ لَا يَقْتَنِعُونَ، وَالْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ الْمُقْرَأِ هَذَا يَقْتَنِعُ بِالْآيَاتِ، لَكِنْ هُوَ لَا يَقْتَنِعُونَ بِالْقُرْآنِ؟.

فالجوابُ: غَالِبُ أَصْحَابِ الْقُبُورِ مُسْلِمِينَ، يَرَوْنَ أَنَّهُمْ عَلَى إِسْلَامٍ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ.

المهمُّ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَجْعَلُ الشُّفَاءَ عَقِبَ دُعَاءِ صَاحِبِ الْقَبْرِ إِبْتِلَاءً وَامْتِحَانًا؛ فَيُصَدِّقُ الْإِنْسَانَ بِالْحَسِّ، وَيُكَذِّبُ الشَّرَّعَ، يُصَدِّقُ بِالْحَسِّ وَهُوَ بِنَاءِ هَذَا الْأَمْرِ عَلَى الشَّيْءِ الظَّاهِرِ، وَيُكَذِّبُ بِالشَّرِّعِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بَعْضُ النَّاسِ يَدْعُو وَيَقُولُ: هَذَا حَصَلَ بِدُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ؟

فالجوابُ: أِبْدَأَ لَمْ يَحْصُلْ، الرَّسُولُ لَا يَمْلِكُ هَذَا أَبَدًا فِي حَيَاتِهِ، رَبِّمَا يُرِيهِمُ اللَّهُ آيَةً مِنْ آيَاتِ الرَّسُولِ فَيَحْصُلُ مِثْلُ هَذَا، كَمَا حَصَلَ فِي عَيْنِ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ أُصَيَّبَ فَنِدِرَتْ حَتَّى صَارَتْ عَلَى خَدِّهِ؛ فَأَدْخَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فِي مَكَانِهَا، وَالتَّامَّتْ فِي الْحَالِ. وَهَذِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَكِنْ هَذِهِ فِي حَيَاتِهِ، أَمَّا بَعْدَ مَمَاتِهِ فَلَا.

فإن قال قائل: هل لهذا نظائر؟

قلنا: نعم، قد يتبلي الله الإنسان بتيسير أسباب المعصية، ابتلاءً؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب، كما ابتلى بني إسرائيل بالحيتان؛ حرّم الله عليهم صيد الحوت في يوم السبت، وابتلاهم، فكانت الحيتان في يوم السبت تأتي شرعاً على الماء بكثرة، وفي غير يوم السبت لا تأتي، فطال عليهم الأمد، وقالوا: لا بُدَّ أن نَصطاد هذا السمك، ولكن يوم السبت محرّم علينا، فماذا العمل؟ قالوا: هناك حيلة - واليهود أصحاب حيل - ضَعُوا شبكة يوم الجمعة، وتأتي الحيتان يوم السبت تدخل، وخذوا الحيتان يوم الأحد، وقولوا لله: إننا لم نَصطد يوم السبت؛ فماذا عوملوا به؟ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، قلبهم الله عزَّجَلَّ إلى شيء يشبه الإنسان وليس بإنسان؛ كما صنعوا شيئاً يشبه الحِلَّ وليس بحِلٍّ، جزاءً وفاقاً.

هذه الأُمَّة حرّم الله عليهم الصيد في حال الإحرام؛ فابتلاهم الله، بدأت الصيود تأتي بكثرة، الصيد الطائر يناله الرُّمَح، والصيد الزاحف تناله اليدُ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] فصارت الصيود الطائر يناله الإنسان برُمحه، مع أنه لا يُنال الطائر إلا بالسَّهْم، والزاحف باليد؛ فالصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تَجَنَّبُوا هذا، لا أمسكوا باليد، ولا صادوا بالرُّمَح.

فأنت احذِرْ يا أيُّها المسلم، واحذِرْ أن تنخدع، إذا تيسرت لك أسباب المعصية؛ فان الله تعالى قد يتبليك، ربّما يتبلي الله الإنسان بوظيفة، يستطيع أن يسرق فيها من بيت المال، إمّا سرقة حقيقية - يعني: يأخذ دراهم - وإمّا سرقة غير مباشرة، بأن

يَتَأَخَّرُ عَنِ الدَّوَامِ، أَوْ يَتَعَجَّلُ فِي الخُرُوجِ؛ لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ سَارِقٌ.

وَإِذَا قَدَّرْنَا أَنَّهُ يَتَأَخَّرُ عَنِ الدَّوَامِ بِمِقْدَارِ السُّدُسِ، أَوْ يَتَعَجَّلُ بِمِقْدَارِ السُّدُسِ، فَقَدْ سَرَقَ سُدُسًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَأَخَّرَ السُّدُسُ لَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الرَّابِتَةِ إِلَّا خَمْسَةَ أَسْدَاسٍ فَقَطْ، وَالبَاقِي يَأْخُذُهُ بغيرِ حَقٍّ، هُوَ مُطْمَئِنٌّ لِأَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ، هُوَ المُدِيرُ مِثْلًا، أَوْ مُطْمَئِنٌّ؛ لِأَنَّ مُدِيرَهُ يَتَأَخَّرُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ المُدِيرَ إِذَا كَانَ يَتَأَخَّرُ وَتَأَخَّرَ مَنْ تَحْتَهُ أَنَّهُ لَا يَقُولُ لَهُمْ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ لَهُمْ شَيْئًا فَضَحَّ نَفْسَهُ.

إِذْنِ: أَحْذَرُ أَنْ تَغْتَرَّ إِذَا يَسَّرَ اللهُ لَكَ أَسْبَابَ المَعْصِيَةِ، فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ، لَا تَغْتَرَّ بِهَذَا الشَّيْءِ.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: النِّدَاءُ الصَّارِخُ عَلَى سَفَاهَةِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؛ لِكُونِهِمْ عَدَلُوا عَنِ عِبَادَةِ مَنْ يَقْضِي بِالحَقِّ إِلَى عِبَادَةِ مَنْ لَا يَقْضِي بِشَيْءٍ، وَهَذَا فِي غَايَةِ السَّفَهَةِ.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْبَاتُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، هُمَا السَّمِيعُ وَالبَصِيرُ، وَإِثْبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ، وَإِثْبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرٍ، أَوْ مِنْ حُكْمٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَتِمُّ الإِيْمَانُ بِهَا إِلَّا بِالإِيْمَانِ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ، إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّيَةً، الأَوَّلُ: إِثْبَاتُ الاسْمِ، وَالثَّانِي: إِثْبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَةِ. وَالثَّالِثُ: إِثْبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرٍ، أَوْ مِنْ حُكْمٍ. هَذَا إِذَا كَانَ مُتَعَدِّيًّا، أَمَّا إِذَا كَانَ لَازِمًا، فَلَا يَتِمُّ الإِيْمَانُ بِهِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: إِثْبَاتُ الاسْمِ، وَإِثْبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ صِفَةٍ.

فَقَوْلُهُ: ﴿السَّمِيعُ﴾ مُتَعَدِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ﴾ [المجادلة: ١]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ حَوَارِكَمَا﴾ مُتَعَدِّ.

إِذْنِ: لَا بُدَّ أَنْ تُؤْمِنَ بِالسَّمِيعِ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ.



فإن قال قائل: ما الفرق بين اللازم والمتعدي؟

فالجواب: اللازم ما لا ينصب المفعول به، والمتعدي ما ينصب المفعول به. فـ(سَمِعَ) تَنْصِبُ المَفْعُولَ، مثل: «عَظُمَ» لا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَسَلَّطَ عَظْمٌ عَلَى شَيْءٍ، عَظْمٌ هُوَ بِنَفْسِهِ، أَمَّا «عَظَّمَ» صَاحِحٌ مُتَعَدٍّ، لَكِنْ «عَظَّمَ» لَازِمَةٌ لَاشِكِّ، «جَلَّ» لَازِمَةٌ، فَـ«العَظِيمُ» مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ اللّازِمَةِ، وَ«العَلِيُّ» مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ اللّازِمَةِ، وَ«الجَلِيلُ» مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ اللّازِمَةِ.

فإن قال قائل: ما هو الفرق بين الأفعال اللازمة التي تتعدى بحرف الجر والتي تتعدى بنفسها؟

فالجواب: يقولون: ما تعدى بنفسه فهو مُتَعَدٍّ، وما لم يتعد إلا بحرف جر فهو لَازِمٌ؛ يَعْنِي: الَّذِي يَنْصِبُ المَفْعُولَ بِهِ هُوَ المَتَعَدِّي. وَبَعْضُهُمْ أَيْضًا قَالَ: هُنَاكَ عِلَامَةٌ ثَانِيَةٌ. فَهُوَ لَهُ عِلَامَاتٌ مِنْهَا هَذِهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَصِحُّ مِنْهُ صَوْغُ اسْمِ المَفْعُولِ المَتَعَدِّي، وَهَذَا لَا يَصِحُّ مِنْهُ صَوْغُ اسْمِ المَفْعُولِ إِلَّا بِمُتَعَلِّقٍ.

فإن قال قائل: هل السميع صفة ذات أو صفة فعل؟

فالجواب: السميع صفة ذات، لكن الذي يحدث المسموع، أما السمع فلم يزل الله ولا يزال سميعًا، لا يتعلّق بِمَشِيئَتِهِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ الفَرْقَ؛ فَإِنْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّى اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ فَهِيَ صِفَةٌ فِعْلٍ، وَإِذَا كَانَ لَا يُمَكِّنُ فَهِيَ صِفَةٌ ذَاتٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّى اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَنْ صِفَةِ السَّمْعِ؛ فَيَكُونُ أَصَمًّا، فَإِنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، لَكِنْ الَّذِي يَحْدُثُ هُوَ المَسْمُوعُ.

ولكن هل هناك أحد أنكر الأسماء؟

الجواب: نعم، هناك من المعطلة المتسبين للملة الإسلامية من يُنكر أسماء الله تعالى.

الأمر الثاني: أن تؤمن بما دَلَّ عليه من صفة وهي السَّمْع، فليس الله تعالى سَمِيعًا بلا سَمْع، بل هو سَمِيع بِسَمْع، وهل أحدٌ أثبت الاسم دون الصفة؟

الجواب: نعم، المعتزلة، وقاعدتهم: إثبات الأسماء وإنكار الصفات التي دلت عليها هذه الأسماء؛ فيقولون: إن الله سَمِيع بلا سَمْع، بصير بلا بصر. سبحان الله! كيف بصيرٌ بلا بصر؟! قال: نعم بصير بلا بصر، لأنك إذا أثبت البصر فالبصر صفة زائدة على الذات. أي: نعم الصفة غير الموصوف زائدة على الذات.

فإن قلت: إنها قديمة. أثبت تعدد القدماء، وصرت أكفر من النصراني، فالنصارى أثبتوا ثلاثة آلهة، أنت الآن تريد أن تثبت خمسين إلهًا أو أكثر، بقدر الأسماء التي أثبت لها الصفة، وهذا كُفر، فإذا كفرنا النصراني بثلاثة وقلنا: كافر. نقول: أنت كافر، كافر، كافر. اضرب ثلاثة حتى تصل إلى الأسماء، أنت أكفر من النصراني إذا أثبت صفة قديمة، وإن أثبتتها حادثة لزم من ذلك قيام الحوادث بالله، والحوادث لا تقوم إلا بحدوث، فتكون أنت أثبت أن الله مخلوق، وأنه حادث.

فما بالكم إذا صيغ هذا الكلام بكلام أفصح من كلامي وأبلغ؛ أفلا ينخدع به الجهال؟ ينخدعون به لا شك، لكننا نقول: إن الله تعالى سَمِيع بِسَمْع، ولا يُعقل أن يكون مُشْتَقُّ بدون ما اشتق منه أبدًا، إذ لا يصح أن تقول للأصم: إنه سَمِيع. ولا للأعمى: إنه بصير. لا يمكن أن يوجد اسم مُشْتَقُّ في جميع لغات العالم إلا والأصل المُشْتَقُّ منه سابق عليه.

وأما قولكم: إن الصِّفة غير الموصوف، فإننا نقول: إن الله تعالى لم يزل ولا يزال بصفاته، ولا يوجد ذات بلا صفاتٍ إطلاقاً، من ادَّعى أنه يوجد ذات بلا صِفةٍ، فقد ادَّعى المُحال، ما من موجودٍ إلَّا وله صِفة، لو لم يكن من صفاته إلَّا صِفة الوجود، والقيام بالذات، وما أشبه ذلك، فما من موصوفٍ إلَّا وله صِفة، لكن الموصوف صفاته ليست شيئاً بائناً منه؛ ولهذا لا نقول: إن صفات الله هي الله، ولا نقول: إنها غير الله. بل نقول: إن الله بصفاته. لأنك إذا قلت: إن الصفات هي الله، صار معناه: أنه لا صِفة له، وإذا قلت: إنها غيره. أبنت الصِّفة عن الموصوف، وهذا مُستحيل.

إذن: الإيـان بالاسم لا بُدَّ أن تُؤمن بما تضمَّنه من صِفة، وتضمَّنه للصِّفة قد يكون تضمُّناً وقد يكون التزاماً، فنؤمن بالصِّفة التي دلَّ عليها تضمُّناً والتزاماً، فمثلاً: الخالق اسمٌ دلَّ على صِفة الخلق، فدلالته على صِفة الخلق بطريق التضمُّن، ودلالته على العِلم التِّزام؛ لأنه لا خلقٍ إلَّا بعِلم، ودلالته على القدرة التِّزام أيضاً؛ لأنَّه لا خلقٍ إلَّا بقُدرة.

إذن: تُؤمن بما دلَّ عليه الاسم من صِفة سواء كانت تضمُّناً أو التِّزاماً.

الأمر الثالث: إذا كان الاسم مُتعدِّياً الأثر أو الحُكم، فمثل السَّميع ذو السَّمع، الذي يَسْمع، لا بُدَّ أن تُؤمن بسَّمع يتعدَّى للغير، فيسْمع كلَّ قول، البصير كذلك مُتعدِّ، تُؤمن بالبصير اسماً وبالْبَصْر صِفةً، وبأنه يُبصر حُكماً أو أثراً، أمَّا إذا كان الاسم لازماً؛ فإنه يُؤمن بأمرين: الأوَّل الاسم، والثاني: الصِّفة.

الحَيُّ: وَصِف لازِم، والحياة وَصِف لازِم لا يتعدَّى لغير الله؛ فالحيُّ إذن اسمٌ من الأسماء اللازمة، فتؤمن بالحيِّ اسماً من أسماء الله، وتؤمن بالصِّفة التي دلَّ عليها الحيُّ وهي الحياة.

إذا آمَنَّا بهذا خالفنا كل أهل التَّعْطِيلِ، خالفنا مَنْ لَا يُسَمِّي اللهُ بِاسْمِهِ، وَلَا يَصِفُهُ بِصِفَةٍ، وهؤلاءُ غُلَاةُ الْجَهْمِيَّةِ، وخالفنا مَنْ يُؤْمِنُ بِأَنَّ لِهَذَا أَسْمَاءً وَلَكِنْ لَا صِفَاتٍ لَهُ، مثل: الْمُعْتَزِلَةِ، وخالفنا مَنْ يَقُولُ: لَهُ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ، لَكِنْ لَيْسَ لَهَا حُكْمٌ، لَا يَتَعَدَّى؛ لِأَنَّهُ لَوْ تَعَدَّى إِلَى الْغَيْرِ لَزِمَ قِيَامُ الْحَوَادِثِ بِهِ، إِذْ إِنَّ الْمَسْمُوعَ حَادِثٌ، فَإِذَا تَعَلَّقَ السَّمْعُ بِحَادِثٍ صَارَ السَّمْعُ حَادِثًا حُدُوثَ الْمَسْمُوعِ، فَلَزِمَ قِيَامُ الْحَوَادِثِ بِهِ، إِذْ نُوِيَ قُلُّ: هُوَ سَمِيعٌ لَهُ سَمْعٌ، لَكِنْ لَا يَسْمَعُ بِهِ، لِئَلَّا تَقُومَ بِهِ الْحَوَادِثُ؛ فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ الثَّلَاثَةِ:

١- الإيِّانُ بِالْأَسْمَاءِ.

٢- بِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ صِفَةٍ.

٣- بِالْأَثَرِ أَوْ الْحُكْمِ.

صَحَّ إِيمَانُنَا بِالْأَسْمَاءِ.

أَمَّا السَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ فَقَدْ سَبَقَ لَنَا مَعْنَاهُمَا، وَذَكَرْنَا أَنَّ السَّمِيعَ يَدُلُّ عَلَى السَّمْعِ، وَأَنَّ سَمْعَ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:

الأول: سَمْعٌ بِمَعْنَى: الْإِجَابَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وَالسَّمْعُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْإِسْتِجَابَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالذَّلِيلُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أَي: لَا يَسْتَجِيبُونَ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُصَلِّيِّ - وَأَنْتُمْ كُلُّ يَوْمٍ تُصَلُّونَ عَلَى الْأَقَلِّ سَبْعَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، وَتَقُولُونَ -: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. وَمَعْنَاهَا: اسْتِجَابَ. لَيْسَ الْمَعْنَى مُجَرَّدَ سَمَاعِهِ لِمَنْ حَمِدَهُ، لِأَنَّ هَذَا لَا يُفِيدُ شَيْئًا، لَكِنْ مَعْنَاهَا اسْتِجَابَ، هَذَا سَمْعٌ بِمَعْنَى الْإِسْتِجَابَةِ.

الثاني: سَمِعَ بِمَعْنَى إدراك المسموع، وهذا يَنْقَسِمُ إلى ثلاثة أقسام: الأول: ما يُراد به التَّهْدِيدُ، والثاني: ما يُراد به التَّأْيِيدُ، والثالث: ما يُراد به بَيَانُ شَمُولِ سَمْعِ الله؛ يَعْنِي: سَمْعَ الإِحَاطَةِ.

مِثَالُ الأَوَّلِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّهْدِيدُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٨٠]؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

وَمِثَالُ سَمْعِ التَّأْيِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وَمِثَالُ مَا يُرَادُ بِهِ سَمْعُ الإِحَاطَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكُرِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يَشْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ سَمْعَ إِحَاطَةٍ؟

فالجواب: السَّمْعُ هُنَا سَمْعُ إِحَاطَةٍ، لَكِنَّهُ يُرَادُ بِهِ النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ الإِحَاطَةِ حَتَّى فِرْعَوْنَ يَسْمَعُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فصَارَ يُقَسَّمُ السَّمْعُ إِلَى قِسْمَيْنِ: سَمْعٌ إِجَابَةٌ وَسَمْعٌ إِدْرَاكٌ؛ وَالإِدْرَاكُ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ؛ لِثَلَاثَةِ تَدَاخُلِ الأَقْسَامِ: سَمْعٌ يَقْتَضِي التَّهْدِيدَ، وَسَمْعٌ يَقْتَضِي التَّأْيِيدَ، وَسَمْعٌ لِبَيَانِ الإِحَاطَةِ. وَكُلُّ هَذَا ثَابِتٌ لَلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الَّذِي يُعَيِّنُ أَنَّ هَذَا السَّمْعَ لَلتَّأْيِيدِ أَوْ لَلتَّهْدِيدِ أَوْ لِلإِحَاطَةِ؟

قُلْنَا: سِيَاقُ الكَلَامِ وَقَرَائِنُ الأَحْوَالِ؛ وَهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا

السَّمْعَ للتَّيِيدِ والتَّهْدِيدِ؛ تَأْيِيدِ مُوسَى وَهَارُونَ، وَتَهْدِيدِ فِرْعَوْنَ، لَكِنْ يَمْنَعُ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ مِنْ تَهْدِيدِ فِرْعَوْنَ، أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ مِنَ اللَّهِ، فَكَيْفَ يُهَدِّدُ مَنْ لَا يَسْمَعُ التَّهْدِيدَ؟! وَهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنْ السَّمْعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلتَّيِيدِ، وَلَمْ أَرَهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ لِلتَّهْدِيدِ، وَلَا لِتَهْدِيدِ فِرْعَوْنَ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ الْآنَ لَيْسَ يَسْمَعُ مَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَكَيْفَ يُهَدِّدُ مَنْ لَا يَسْمَعُ التَّهْدِيدَ?!.

أَمَّا الْبَصِيرُ فَهُوَ بِمَعْنَى: ذُو الْبَصَرِ الثَّاقِبِ، الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْ نَظَرِهِ شَيْءٌ عَزَّجَلَّ أَيُّ حَرَكَةٍ وَأَيُّ فِعْلٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْصِرُهُ.

وَإِذَا كَانَ يُبْصِرُ كُلَّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ مَوْقِفِنَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ»<sup>(١)</sup> قَالَ: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» فَفَنَى النِّظْرَ إِلَيْهِمْ، نَقَوْلُ: النِّظْرَ الْمُبْتَدِئَ غَيْرَ النِّظْرِ الْمَنْفِيِّ، الْمَنْفِيُّ هُوَ نَظْرُ الرَّحْمَةِ، وَالْمُبْتَدِئُ نَظْرُ الْإِحَاطَةِ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يَنْظُرُ كُلَّ شَيْءٍ نَظْرَ إِحَاطَةٍ، حَتَّى الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، مَنْظُورُونَ أَمَامَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَكِنْ نَظْرَ إِحَاطَةٍ، وَأَمَّا الْمَنْفِيُّ فَهُوَ نَظْرُ الرَّحْمَةِ، «لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» وَبِهَذَا تَلْتَمِسُ الْأَدْلَةَ وَيَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا.

وَهُنَاكَ بَصَرَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ، لَكِنْ الْمُبَادِرُ مِنْهُ الرَّؤْيَةُ كَمَا سَبَقَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: نَظْرُ الرَّحْمَةِ هَلْ هُوَ نَفْسُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَمَا الْمَقْصُودُ بِالنِّظْرِ؟ فَالْجَوَابُ: الْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرًا يَرَحِّمُهُ بِهِ، لَيْسَ هُوَ بِنَفْسِ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا تَفَرَّقَ الْآنَ بَيْنَ النِّظْرِ إِلَى وَلَدِكَ الَّذِي أَرْضَاكَ، وَالنِّظْرِ إِلَى وَلَدِكَ الَّذِي أَغْضَبَكَ، وَلَدِكَ الَّذِي أَرْضَاكَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرًا بَارِدًا، وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَنَّ عَيْنَكَ قَدَ قَرَّتْ بِهِ - قَرَّتْ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ غُلْظِ تَحْرِيمِ إِسْبَالِ الْإِزَارِ، رَقْمُ (١٠٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من القَرِّ، وليس من القَرَار، من القَرِّ وهو البرودة؛ ولهذا: أقرَّ الله عينك. أي: برَّدها ليست من أقرَّها سكنها حتى لا تتحرَّك-؛ والولد الذي غضبت عليه إذا نظرت إليه تكون عينك حارَّة حمراء، يظهر منها الشرر، يكاد يُعمي الولد.

وإن قيل: ألا يجوز التعبير إذا قلنا: إن هذا العمل أقرب إلى نظر رحمة الله.

فالجواب: لا يصحُّ «نظر رحمة الله»، الرحمة لا تُنظر، والصواب: «أقرب إلى رحمة الله».

فإن قال قائل: هل نفى الصفات كُفر؟

فالجواب: لا، نفى الصفات ينقسم إلى قسمين:

نفى جُحود، وهذا كُفر، ونفى تأويل، وهذا منه ما هو كُفر، ومنه ما هو دون ذلك.

فإذا قال القائل: إن الله لم يستو على العرش فهذا كُفر جُحود، جحد كذب الخبر، وإذا قال: إن الله استوى على العرش، ولكن معنى استوى استولى، فهذا جحد التأويل، قد يكون كُفرًا مُخرَجًا عن الملة، وقد يكون دون ذلك، حسب ما تقتضيه القواعد الشرعية.

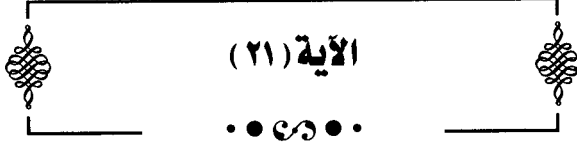
مسألة: ما هي أسماء الكتب التي تتحدث عن الأسماء والصفات؟

فالجواب: الكتب متعددة ومختلفة في المنهج، فمثلاً مجرد الإثبات - إثبات العقيدة - من أحسن ما يكون (العقيدة الواسطية)؛ لأنها كلها مبنية على آيات وأحاديث، أمّا من جهة المناقشة والمُحاجة فمن أحسن ما رأيت (الصواعق المُرسلة) لابن القيم، ومُختصره، هذا من أحسن ما يكون لطالب العلم في المناقشة، فهذا مُفيد

لأنه يذُكر رَحْمَةُ اللَّهِ أُمَّهَاتِ الْمَسَائِلِ التي فيها الخِلاف، ثُمَّ يُجَادِلُ هؤُلاءِ حتَّى يَتَبَيَّنَ الحَقُّ، و(مُخْتَصِرِ الصَّوَاعِقِ الْمُرْسَلَةِ) بهذا الاسم، للمَوْصِلِيِّ.







﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [غافر: ٢١].



قوله: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا النَّظْمُ موجود في القرآن كثيرًا، أن تأتي أداة الاستيفهام وبعدها حَرْفُ العَطْفِ ثم الجُمْلَةُ، وقد اختلفَ المُعَرِّبون في كيفية إعراب هذا النَّظْمِ وهذا التَّرْكِيبِ، فقال بعضهم: إن التَّقْدِيرَ: وألم يَسِيرُوا في الأرض؛ فتكون الواو عاطفة على ما سبق، وتكون الهمزة داخلة على جملتها، مُصَدَّرَةٌ الجُمْلَةُ بها، وهذا القول لا يحتاج إلى تقدير، لكنه يردُّ عليه أن الهمزة مُتَقَدِّمَةٌ على حرف العطف، فأجابوا عن ذلك بأن الهمزة مُتَقَدِّمَةٌ، وقالوا: إن تَقْدِيمَهَا في مثل هذا سائغ.

والقول الثاني للمُعَرِّبين: أن الهمزة داخلة على شيء مُقَدَّرٍ، وأن حرف العطف عاطف على ذلك المُقَدَّرِ، وحينئذٍ نحتاج إلى تعيين ذلك المُقَدَّرِ، ولا يُعَيِّنُهُ إِلَّا السِّيَاقُ؛ فيُقَدَّرُ ذلك المَحذُوفُ بحسب ما يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ، فمثلاً: يُقال: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا﴾ أفرطوا ولم يَسِيرُوا في الأرض، أو: أغفلوا ولم يَسِيرُوا في الأرض، أو ما يُؤدِّي إلى هذا المعنى.

وقوله: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل المراد سَيْرُ القُلُوبِ بالنظر والتأمل والتفكير، أو المراد سَيْرُ الأقدام، حتى يَقِفَ الإنسان على ما حصل للأمم السابقة بعيني رأسه؟

الجواب: كلاهما؛ فمن لم يتيسر له أن يسير بقدمه فليسير بقلبه، ولكن طريق سيره بقلبه أن يقرأ تاريخ الأمم السابقة، وحينئذ يثبت هذا التاريخ بطريقتين فقط: الطريق الأول: القرآن. والطريق الثاني: السنة الصحيحة عن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

فإن الله سبحانه وتعالى قال فيمن سبق: ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] وإذا كان لا يعلمهم إلا الله؛ فإن مصدر التلقي لأخبارهم من عند الله، أو من رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

أمّا ما حدثت به بنو إسرائيل عمّن سبق؛ فهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: ما شهد شرعنا به، أو ما شهد القرآن والسنة به؛ فهذا مقبول، لأنه خبر بني إسرائيل، ولكن لأن القرآن والسنة شهدت بصدقه. القسم الثاني: ما شهد القرآن والسنة بكذبه، فهذا مرفوض، ولا يجوز التحدث به إلا إذا أراد الإنسان بيان كذبه وبطلانه.

القسم الثالث: ما لم يشهد الوحي بصدقه ولا كذبه؛ أي: ما ليس في القرآن ولا في السنة تصديقه ولا تكذيبه، فهذا قال فيه النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»<sup>(١)</sup> فيكون من الكلام الذي يُباح نقله، لكن لا فائدة منه؛ فلا يُشتغل به عمّا هو أهمُّ منه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

وبهذا نعرف كيف تسير بقلوبنا في أخبار من سبق، فصار مصدر التلقي في أخبار من سبق، المصدر الأساسي الأكيد هو الكتاب والسنة، وأما ما وقع من أخبار بني إسرائيل، فعرفنا أنه على ثلاثة أقسام.

وقوله: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعض المعربين: إن (في) هنا بمعنى (على)؛ لأنه لا يمكن السير في جوف الأرض، بناءً على أن (في) للظرفية، والظرف مُحيط بالمظروف، كما إذا قلت: الماء في الإناء؛ فإن الإناء مُحيط به، والماء في جوفه، ولكن رُبَّمَا يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ هَذَا غَيْرُ مُتَعَيَّنٍ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: فِي مَنَاقِبِ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاقِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وتكون الظرفية هنا ظرفية الأجواء؛ أي: في جو الأرض، في أجواء الأرض، والأجواء ظرف لمن يسير فيها.

قوله: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ الفاء هنا قيل: إنها عاطفة، وعلى هذا فيكون السير مُتَّفِعِيًا، والنظر أيضًا مُتَّفِعِيًا، والتقدير على هذا القول: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فَأَلَمْ يَنْظُرُوا فِي كَيْفِ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، وقيل: إن الفاء للسببية؛ أي: فبسبب سيرهم ينظروا كيف كان. والمعنيان مُتَلَازِمَانِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَسِيرُوا لَمْ يَنْظُرُوا، وَإِنْ سَارُوا نَظَرُوا.

وقوله: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ﴾ هل النظر هنا نظر قلب وبصيرة، أو نظر عين وبصر؟

الجواب: يَبْنِي عَلَى مَا سَبَقَ فِي السَّيْرِ، إِنْ كَانَ سَيْرَ قَلْبٍ فَالنَّظْرُ نَظْرُ قَلْبٍ وَبَصِيرَةٌ، وَإِنْ كَانَ سَيْرَ قَدَمٍ فَالنَّظْرُ نَظْرُ عَيْنٍ وَبَصْرٌ. وقد قلنا: إِنَّ السَّيْرَ صَالِحٌ لِهَذَا وَهَذَا؛ فَيَكُونُ النَّظْرُ أَيْضًا صَالِحًا لِهَذَا وَهَذَا.

قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (كيف) اسمٌ استِفهام، وهو في محلِّ نَصْبٍ على أنه خبر (كان) مُقَدَّم، و﴿عَقِبَةُ﴾ اسمُها، ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: مآلهم، ماذا كان مآلهم؟ سيأتي ذكر المآل، لكن الله ذكر حالهم قبل أن يذكر مآلهم، قال: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿أَشَدَّ﴾ من الشُدَّة، وهي الصلابة والعِظَم.

و﴿مِنْهُمْ﴾ يقول المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [وفي قراءة «مِنْكُمْ»] فيكون في هذا التَّفَاتٍ من الغيبة إلى الخطاب، ومعلوم أنَّ الخطاب أَشَدُّ وَقَعًا في النَّفْسِ من الحديث بصيغة الغيبة، يَعْنِي إذا كُنْتَ تُخَاطَبُ الشَّخْصَ مُخَاطَبَةً فَهُوَ أَشَدُّ وَقَعًا في نَفْسِهِ، مِمَّا إذا كُنْتَ تَتَحَدَّثُ بصيغة الغيبة؛ ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿عَسَى وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١] بصيغة الغيبة، والعابِسُ والمُتَوَلَّى الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم يَقُلْ: عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ؛ لأنَّ الخطاب أَشَدُّ وَقَعًا من الغيبة. وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [وفي قراءة: «مِنْكُمْ»] اَعْلَمُ أَنَّ اصْطِلَاحَ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ إِذَا قَالَ: فِي قِرَاءَةٍ. فَهِيَ سَبْعِيَّةٌ، وَإِذَا قَالَ: وَقِرَى. فَهِيَ شَاذَةٌ لَيْسَتْ سَبْعِيَّةً.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ من مَصَانِعَ وَقُصُورٍ] فَهُمْ أَقْوِيَاءُ الْأَبْدَانِ، وَلَهُمْ مِنَ الْأَثَارِ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِمَّا عِنْدَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وَالشَّاهِدُ فِي هَذَا ظَاهِرٌ فِي دِيَارِ ثَمُودَ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ شَاهَدَهَا تَبَيَّنَ لَهُ كَيْفَ كَانَتْ قُوَّةُ الْقَوْمِ، وَكَذَلِكَ آثَارُ عَادٍ فِي الْأَحْقَافِ، الَّتِي اطَّلَعَ عَلَيْهَا، وَقَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧-٨] قُوَّةً عَظِيمَةً، حَتَّى إِنَّ عَادًا قَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فَمَاذَا كَانَتْ حَالُهُمْ؟

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [أَهْلَكَهُمْ] ﴿بُدُؤِهِمْ وَمَا كَانَ

لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿ هُوَ لَاءِ الْقَوْمِ الْأَشِدَّاءِ الَّذِينَ لَهُمْ مِنَ الْآثَارِ مَا يُبْهَرُ الْعُقُولَ، أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَذُنُوبِهِمْ مَكُونَةٌ مِنْ شَيْئِينَ: التَّكْذِيبِ وَالتَّوَلَّى، فَهُمْ مُكْذِبُونَ لِلْخَبَرِ، مُتَوَلُّونَ عَنِ الْأَمْرِ، فَكَذَّبُوا الْأَخْبَارَ، وَخَالَفُوا الْأُؤْمَرَ، وَقَعُوا فِيهَا مُهْوًا عَنْهُ، وَتَرَكَوْا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا مَا يَلْزَمُهُمْ تَصَدِيقَهُ ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وَالْبَاءُ هُنَا لِلْسَّبِيَةِ.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (مَا) نَافِيَةٌ وَ(مِنْ) مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿وَاقٍ﴾، وَ﴿وَاقٍ﴾ اسْمٌ (كَانَ) دَخَلَتْ عَلَيْهِ (مِنْ) الزَّائِدَةُ لِلتَّوَكِيدِ، وَأَصْلُ (وَاقٍ): وَاقِي، فَحُذِفَتِ الْيَاءُ لِلتَّخْفِيفِ؛ أَي: مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَحَدٍ يَقِيمُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

حتى إن ابن نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَقِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قُرْبُهُ مِنْ نُوحٍ، وَلَا دُخُولَهُ فِي الْعُمُومِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ أَنَّهُ مُنَجِّيه وَأَهْلَهُ -أَعْنِي: نُوحًا- فَلَمَّا أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَرَقَ، دَعَا ابْنَهُ أَنْ يَرْكَبَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، وَلَكِنَّهُ أَبَى، وَقَالَ: ﴿سَعَاوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] فَغَرِقَ، وَقَالَ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] وَقَدْ وَعَدَهُ اللَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ وَأَهْلَهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فَلَمْ يَقِ هَذَا الْإِبْنَ قُرْبُهُ مِنْ أَبِيهِ أَحَدٍ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنَ الرَّسْلِ، وَلَكِنَّهُ هَلَكَ فِيمَنْ هَلَكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الحثُّ على السير في الأرض، لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ هُنَا لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ.

الفائدة الثانية: أن السير في أرض المكذِّبين، وبيان ما أحلَّ الله بهم من النكال،

إذا كان على سبيل العبرة فلا بأس به، على سبيل العبرة بما جرى لهم من الهلاك، لا العبرة بما كان لهم من القوة، وبناءً على ذلك نعرف أن الذين يذهبون الآن إلى ديار ثمود للاطلاع على قوتهم، والاعتبار بصنعتهم على خطأ عظيم؛ لأنهم لم يسيروا في الأرض السير الذي أمر الله به، بل ساروا في الأرض السير الذي نهى عنه رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ، إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>.

فَمَنْ الَّذِي يَذْهَبُ الْآنَ إِلَى دِيَارِ ثَمُودَ، يَقِفُ يُشَاهِدُ آثَارَهُمْ وَهُوَ يَبْكِي؟

الجواب: لا أحد، إلا من هداه الله عز وجل وتبين له الحق، وإلا فإنهم يذهبون يتفرجون، والعجب أن بعض الجهال منا يرون أن هذا من الآثار المحترمة، فيقال: سبحان الله!! الآثار المحترمة! أيها الجهال! بل هي الكتاب والسنة، آثار الوحي، أما آثار المكذبين للرسل فليست محترمة.

ثم هل هي آثار آبائكم وأجدادكم؟! آثار قوم فنوا وأعقبهم أناس، ثم أناس، ثم قرون كثيرة. لكن هذا من الجهل والتقليد الأعمى، الذي يجعل القوم يتعلقون بالآثار المادية دون الآثار المعنوية.

وإن قال قائل: هل العبرة للإنسان إذا دخل في مكان كل قوم أهلكوا، أم أن الكفار الذين لم يتم عذابهم كذلك؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فالجوابُ: لا المراد الذين أهلكوا.

والإنسان الذي ذهب ليأخذ العبرة لا شك أنه سيتأثر، لكن أكثر الناس - أو كثير من الناس - يذهبون ليعتبروا بما عندهم من القوة، لا بأخذ الله لهم.

فإن قال قائل: هل قرى قوم لوط مثل قرى ثمود وعاد في عدم جواز زيارتها؟

فالجوابُ: العلماء يقولون: لا فرق، كل شيء تذهب ليتبين لك آثارهم وقوتهم وتُعجب بهذه القوة فهو لا يجوز. أمّا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَالَيْلِ﴾ [الصفات: ١٣٧-١٣٨]، هذه حكاية عن شيء واقع، كما قال الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»<sup>(١)</sup> هل معنى ذلك أن الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يفسح لنا المجال؟ أخبر عنه أنه واقع أو سيأتي، كما أخبر عن المرأة تذهب من صنعاء إلى حضرموت لا تحشى إلا الله<sup>(٢)</sup>.

الفائدة الثالثة: أن عاقبة الذين كانوا من قبلهم عاقبة سيئة؛ لقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾.

الفائدة الرابعة: أن هؤلاء الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة في الأبدان، وقوة في الصناعة، وقوة في الآثار، ومع هذا لم تمنعهم قوتهم هذه من أخذ الله لهم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «الترين الطعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله». وأخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢)، من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «والله ليطمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه».

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ قُوَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ كُلِّ قُوَّةٍ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ومع ذلك أخذهم الله عَزَّوَجَلَّ ذلك؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له: كُنْ. فيكون، لا يحتاج إلى أحد يُساعده، ولا يحتاج إلى صنْعٍ قَنَابِلٍ أو مَدَافِعَ، بل: كُنْ فيكون، انظروا إلى عاد افتخروا بقوتهم، فأهلكهم الله تعالى بِالطَّفِّ الْأَشْيَاءِ سَخَّرَ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ، ولم يُسَخِّرْهَا لهم، بل سَخَّرَهَا عَلَيْهِمُ، وَالرِّيحُ مِنَ الطَّفِّ الْأَشْيَاءِ، فَدَمَّرْتَهُمْ ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥]، حتى كانوا كأعجاز نخل خاوية.

يقولون: إن الرِّيحَ تَحْمِلُ الواحد منهم حتى يكون في عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَرُدُّهُ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَيَقْلِبُ مُنْحِنِيًّا كَأَنَّهُ عَجْزُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، وَأَعْجَازُ النَّخِيلِ إِذَا رَأَيْتُمُوهَا تَجِدُونَ النَّخْلَ قَدْ تَقَوَّسَتْ.

هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّاءَ أَقْوِيَاءَ يَقِفُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَصْبَحُوا كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

وهذا فرعونُ قال لقومه: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزُّحُرْف: ٥١] أَهْلَكَه اللهُ بِأَنْ أَخْرَجَهُ مِنْ مِصْرَ الَّتِي كَانَ يَفْتَخِرُ بِهَا بِاخْتِيَارِهِ، خَرَجَ مُخْتَارًا، بَلْ خَرَجَ وَكَأَنَّهُ غَانِمٌ، كَأَنَّهُ رَابِعٌ فِي الْمَعْرَكَةِ، ثُمَّ أَهْلَكَه اللهُ بِجِنْسِ مَا يَفْتَخِرُ بِهِ، أَهْلَكَه بِالْمَاءِ؛ لِتَبَيَّنَ أَنَّ الْقُوَّةَ قُوَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّ اللَّهَ أَشَدُّ مِنْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ؛ [الرعد: ١١]، لَا يَبْقَى



دون ما أراد الله، لا قُصورٌ، ولا مَدافعٌ، ولا طَائِرَاتٌ، ولا أيُّ شيءٍ ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾.

لكن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن أرسَلَ إلينا رسولا عَلَّمَنَا كيف نَتَوَضَّأُ، وكيف نُصَلِّي، ثُمَّ يَتَرْتَّبُ على هذا الوضوءِ والصلاة مَغْفِرَةٌ الذُّنُوبِ، إِذَا تَوَضَّأَ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ خَطَايَاهُ تَخْرُجُ مع آخِرِ قَطْرَةٍ من قَطْرِ المَاءِ، وَإِذَا صَلَّى؛ فَالصَّلَوَاتُ الحَمْسُ مُكْفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، وَإِذَا تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ وَأَسْبَغَ الوُضُوءَ، وَخَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَحِطَّ خُطْوَةً وَاحِدَةً إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً، أَحْصَى خُطُواتِكَ من بَيْتِكَ إِلَى المَسْجِدِ في اليَوْمِ والليلة خمسَ مَرَّاتٍ، كل هذا مِن فَضْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولولا أَنَّ اللهُ هَدانا هِدَايَةَ إرشادٍ - وَنَسَأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُتِمِّمَهَا بِهِدَايَةِ التَّوْفِيقِ - لولا ذَلِكَ هَلَكْنَا، ولم نَعْرِفْ كيف نَعْبُدُ اللهُ، وهذا من رحمة الله، أرسَلَ الرُّسُلَ للناسِ لِيُبَيِّنُوا لَهُم.

فإن قال قائل: هل الإنسان مأجور على خطواته إذا جاء إلى المسجد، وإذا عاد

منه؟

فالجواب: أي نعم، أمّا إذا جاء إلى المسجد، فقد تقدّم، وأمّا إذا رجع ففني قصبة صاحب الحمار الذي كان بعيداً من المسجد، فقيل له: ألا تشتري حماراً تركبه؟! فقال: يا رسول الله، إني أحتسب ممشاي إلى المسجد ورجوعي منه. فقال: «لَكَ مَا اِحْتَسَبْتَ»<sup>(١)</sup>. فإذا احتسب الإنسان هذا، فله ما احتسب.

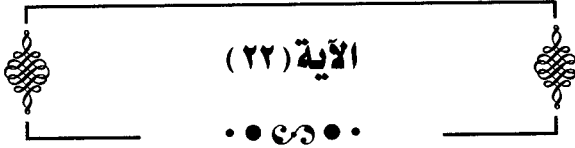
لكن أقول: إنه يفوتنا كثيراً الاحتساب، فنُصَلِّي ونُريد أن نُؤدِّي الصلاة التي علينا فقط، لكن لا نشعر بأننا نحتسب أجرها، وأنا سنجد أجر هذه الصلاة،

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، رقم (٦٦٣)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أو أجر هذا الوضوء، أو أجر هذه الخطأ، هذه تفوتنا كثيراً والاحتساب له أثره، لا من جهة الثواب، ولا من جهة أنه يحث المرء على العمل؛ لأنَّ الإنسان إذا عمل فجوزي يزداد عملاً؛ لكن إذا عمل على أنه فرض عليه يؤديه فقط صار كالذي يقضي الدين عن نفسه، فيعطيه الدائن؛ فلذلك أنا أحث نفسي وإياكم على هذه المسألة، مسألة الاحتساب.

ومعنى الاحتساب أن يُريد بعمله الأجر والثواب، قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، احتسب الأجر من الله عزَّ وجلَّ، ونسأل الله أن يُدكرنا ذلك ويُعيننا عليه.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢٢].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ذلك المشار إليه أخذ الله تعالى إياهم بذنوبهم، فهذه الذنوب أنه ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالمعجزات الظاهرات] ﴿ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ ﴾ جمع رسول، والرسول لكل أمة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [النحل: ٣٦]، والرسل جاؤوهم بالبيّنات، قال المفسر: [بالمعجزات] والصواب أن يُقال: بالآيات؛ لأن الله تعالى يُعبّر عنها هكذا: ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ والمراد بالآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهي نوعان: حسيّة ومعنوية وخلقية وخلقية، كلّها آيات بيّنات، ظاهرة واضحة قال النبيّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»<sup>(١)</sup>.

والحكمة من هذه الآيات أن البشر لا يمكن أن يقبلوا دعوة من شخص عاش بينهم، يعرفونه فيأتي ويقول: إنه نبيّ أو إنه رسول، فلا بُدَّ من آيات تدلُّ على صدقه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكما قلت لكم إن الآيات نوعان: آيات معنوية: وهي ما يتضمّنه الوحي الذي جاء به هؤلاء الرُّسل، وآيات حسّية: وهي ما يظهر من حوارق العادات؛ ولهذا قيل في تعريف الآية: إنها أمرٌ خارقٌ للعادة يُظهِره الله سبحانه وتعالى على يد الرسول تأييداً له.

هذه الآيات قال العلماء - أعني: الآيات الحسّية -: إنها تكون مناسبة للوقت الذي بُعث فيه الرسول، واستشهدوا لذلك بأن موسى عليه الصّلاة والسّلام أُعطي آياتٍ سحرية؛ أي: تُشبه السّحر، لكنها أقوى منه تغلبه؛ فيضع العصا - وهي من خشب - على الأرض فتقلب حيةً تَسرح، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء تلوّح من غير عيب، أي: من غير برص؛ وهذا لأنه في وقته كان للسّحر طور عالٍ مُرتفع، فجاء بآيات تغلب ذلك السّحر، ويظهر هذا حينما اجتمع مع السّحرة في اليوم الذي وعدهم فيه، فألقوا جبالهم وعصيّهم، حتى خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفةً موسى، فقال له الله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأمره أن يضع العصا، فوضعها، فإذا هي حيةٌ تلقف ما يافكون.

ثم عيسى ابن مريم بُعث في زمن ترقى فيه الطبُّ ترقياً عظيماً بالعاء؛ فجاء بأمرٍ يعجز عنه الأطباء، يرى الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله، بل يُخرج الموتى من قبورهم بإذن الله، يقف على صاحب القبر ويخطبه فيقول: اخرج. فيخرج، وهذا أعظم من الطبِّ الذي أتوا به.

أمّا محمد عليه الصّلاة والسّلام فقد بُعث في وقت بلغت فيه البلاغة أوجها، وصار الناس يتفاخرون أيهم أبلغ؛ فيأتي الشعراء، ويأتي الخطباء إلى أسواق الجاهلية عكاظ وغيره، يتبارون في أشعارهم وخطبهم؛ فجاء هذا القرآن قاضياً عليها كلها، وأعجزهم، وعجزوا عن أن يأتوا بآية منه، مع أنهم هم أمراء البلاغة.

المُهِمُّ: أنه لا بُدَّ لكل نبيٍّ من آية يُؤمِن على مثلها البَشَر؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكِيمٌ وَرَحِيمٌ؛ حَكِيمٌ لا يُرْسِلُ شَخْصًا إِلَى النَّاسِ يَقُولُ: أَنَا رَسُولٌ. بدون بَيِّنَةٍ، وَرَحِيمٌ حَيْثُ هُوَ لَئِذَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ نَبِيًّا لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَافِقُونَ، وَرَحِمَ الخَلْقَ فَجَعَلَ مَعَ الرُّسُلِ آيَاتٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ حُجَّةَ الرُّسُلِ مَقْبُولَةً لَدَيْهِمْ.

قوله: ﴿تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا﴾ الفاء عاطفة، وتدلُّ على مُبَادَرَةِ هَؤُلَاءِ بِالْكَفْرِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَأَمَّلُوا وَلَمْ يَنْظُرُوا، وَجِهَ ذَلِكَ أَنَّ الْفَاءَ تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ وَالتَّعْقِيبِ، ﴿فَاكْفَرُوا﴾؛ أَي: بِالرُّسُلِ وَبِالْبَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءُوا بِهَا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أَي: أَهْلَكَهُمْ، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَهْلَكَهُمْ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعَامَةِ إِلَّا مَنْ آمَنَ.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا الْأَخْذَ شَدِيدٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قَوِيٌّ أَرْوَاهُ وَأَبْدَأَ، فَلَمْ يَسْبِقْ قُوَّتَهُ ضَعْفٌ، وَلَا يَلْحَقُهَا ضَعْفٌ، أَمَّا الْبَشَرُ فَيَأْتِيهِمْ ضَعْفَاءُ أَوَّلًا وَنَهَاءً، وَمُنْتَهَى قُوَّتِهِمْ أَيْضًا لَيْسَ بِشَيْءٍ، حَتَّى وَإِنْ بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَشَدَّهُ وَبَلَغَ غَايَةَ قُوَّتِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، أَمَّا الرَّبُّ عَزَّجَلَّ فَإِنَّهُ قَوِيٌّ أَرْوَاهُ وَأَبْدَأَ.

﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى مَوْصُوفِهَا، الْمَعْنَى عِقَابُهُ شَدِيدٌ، الشَّدِيدُ يَعْنِي: الصُّلْبُ الْقَوِيُّ الَّذِي تَحْصُلُ آثَارُهُ عَلَى مَنْ عُوِِبَ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان سبب إهلاك الأمم، وأن ذلك بذنوبهم؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

الفائدة الثانية: إثبات عدل الله عزَّجَلَّ وأنه لا يؤاخذ أحدًا بدون ذنب؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ إِلَّا وَقَدْ جَاءَتْهَا رُسُلُهَا؛ لقوله: ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كُلُّ أُمَّةٍ جَاءَهَا نَذِيرٌ وَجَاءَهَا رَسُولٌ أَنْذَرَهَا وَيَبِّينُ لَهَا، وَقَدْ أَقْرَتْ هَذِهِ الْأُمَّمُ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ: ﴿كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا﴾ أَي: فِي النَّارِ ﴿فَوَجَّ سَاهُمْ حَزَنَهُآ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨-٩] ثُمَّ قَالُوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وهذا من تمام رحمة الله عزَّ وجلَّ وَحِكْمَتِهِ أَنْ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَلَا أَجَلَ مَصْلَحَةِ الْخَلْقِ، نَحْنُ لَوْ لَا رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا، لَا نَعْرِفُ كَيْفَ نَتَوَضَّأُ، لَا نَعْرِفُ كَيْفَ نُصَلِّي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِثُوا بِالآيَاتِ الْبَيِّنَةِ الظَّاهِرَةِ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِتَأْيِيدِهِمْ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، الَّتِي لَا تَدْعُ مَجَالَاً لِلشُّكِّ أَوْ لِلْإِنْكَارِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَلَ إِلَيْهِمْ، لَمْ يَشْكُرُوا النِّعْمَةَ، بَلْ بَادَرُوا بِالْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَوْ تَأَمَّلَ الْعَاقِلُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، مَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى كُفْرِهِ؛ لَكِنَّ غَالِبَ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ يُبَادِرُونَ بِالتَّكْذِيبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَبَطَ الْمُسَبِّبَاتِ بِأَسْبَابِهَا، وَهَذَا

يَدُلُّ عَلَى تَمَامِ حِكْمَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ عَزَّجَلَّ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا عَبَثًا، وَلَا لِمُجَرَّدِ الْمَشِيئَةِ، خِلَافًا لِمَنْ  
 قَالَ مِنَ الْجَبْرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لِمُجَرَّدِ الْمَشِيئَةِ، وَلَيْسَ لِلْحِكْمَةِ.  
 وَأَنْكَرُوا حِكْمَةَ اللَّهِ، وَقَالُوا: إِنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي النَّقْصَ. وَهَذَا مِنْ غَرَائِبِ الْأَفْهَامِ،  
 الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي النَّقْصَ!! قَالُوا: نَعَمْ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ غَرَضٌ، فَإِذَا فَعَلَ لِكُذًا، فَإِنَّهُ مُتَحْتَاجٌ  
 لِهَذَا الْغَرَضِ!!

فَيُقَالُ لَهُمْ: تَبًّا لَكُمْ وَلِأَفْهَامِكُمْ، الْحِكْمَةُ هِيَ غَايَةُ الْحُكْمِ؛ أَي: أَنَّ الْحِكْمَةَ أَكْبَرُ  
 مَا يَدُلُّ عَلَى الْبُعْدِ عَنِ السَّفَهِّ وَاللَّعِبِ، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّ الْحِكْمَةَ غَرَضٌ؛ فَإِذَا قُلْتُمْ:  
 إِنَّ اللَّهَ فَعَلَ كُذًا لِكُذًا. لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُتَحْتَاجًا إِلَيْهِ، فَيُقَالُ: الْحِكْمَةُ الَّتِي  
 يَشْرَعُ اللَّهُ الشَّرَائِعَ مِنْ أَجْلِهَا لَا تَعُودُ إِلَى نَفْسِهِ، إِلَّا مِنْ حَيْثُ الْكَمَالِ فَقَطُّ، أَمَّا الْمَصْلَحَةُ  
 فَالَّذِي يَنْتَفِعُ بِهَا الْخَلْقُ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ فَإِنَّ حِكْمَتَهُ لَا تَعُودُ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ سِوَى بَيَانِ كَمَالِ  
 صِفَاتِهِ عَزَّجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات القويِّ اسمًا من أسماء الله، وهو من الأسماء اللازمية،  
 وعلى هذا لا بُدَّ من إثباته وإثبات ما دلَّ عليه من الصِّفة وهي القوَّة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَلَكِنْ لِمَنْ عَصَاهُ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ قَوِيٌّ وَشَدِيدُ الْعِقَابِ، فَيَا  
 وَيْحَ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ سَيَتَعَرَّضُ لِشِدَّةِ الْعَذَابِ مِنْ ذِي قُوَّةٍ لَا يَلْحَقُهَا ضَعْفٌ  
 ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.



الآيتان (٢٣، ٢٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

•••••

الجملة هذه مؤكدة بعدة مؤكّدات: القسم المقدّر، واللام، و(قد)، والتقدير: «والله لقد».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ موسى هو ابن عمران، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأعظمهم وأشدّهم، وهو من أشدّ الأنبياء وأقواهم، ويدلّك على ذلك ما فعله قبل النبوة، وما فعله بعد النبوة.

فقبل النبوة مرّ برجل من قومه يخاصم رجلاً من عدوّه؛ فوكزه موسى فقضى عليه، وهذا يدلّ على قوّته وشِدّته.

وبعد النبوة لما رجع ورأى أنهم أشركوا بالله غضب غضباً شديداً؛ فألقى الألواح التي كتب الله بها التّوراة، ألقاها قال بعضهم: فتكسّرت؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] هارون وهو نبيّ من الأنبياء مشارِك لموسى في النبوة، ورسول؛ ألم يقولوا لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦]، أخذ برأس أخيه يجرّه إليه، فقال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذُ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنَّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: ٩٤]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ



عَنْ مُوسَى أَلْعَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴿ [الأعراف: ١٥٤]، هذا أيضًا يَدُلُّ على قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا من الحِكْمَةِ؛ لَأَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهُوَ فِرْعَوْنُ؛ وَلِهَذَا قَابَلَهُ بِالْقُوَّةِ؛ قَالَ لَهُ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هُنَا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وهذه قُوَّةٌ تَدُلُّ على قُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أُرْسِلَهُ اللهُ تَعَالَى أَيْضًا إِلَى قَوْمِ عُنْتَاةَ، وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ شَعْبٌ مِنَ الشُّعُوبِ فِيهَا نَعْلَمُ مِثْلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْعَتُوِّ وَالنُّفُورِ وَالِاسْتِكْبَارِ، إِلَى حَدِّ أَنَّهُ لَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ [المائدة: ٢٤]، وَلَيْسَتْهُمْ اِقْتَصَرُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾ سَنَقُودُ عَلَى الْفُرْشِ وَلَا نَتَحَرَّكُ، وَأَنْتَ وَرَبُّكَ اذْهَبْ فَقَاتِلَا ﴾ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾.

فلهذا كان من الحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّسُولُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الشُّدَّةِ؛ لِمُنَاسَبَةِ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ.

فإن قال قائلٌ: إذا ورد بنو إسرائيل في القرآن على سبيل التَّكْرِيمِ أَوْ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الدِّمِّ، وَإِذَا وَرَدَ الْيَهُودُ فَإِنَّهُ عَلَى سَبِيلِ التَّتَرِيعِ وَعَلَى سَبِيلِ الدِّمِّ. فهل هذا مُطَّرِدٌ فِي الْقُرْآنِ؟

فالجوابُ: لا، ليس بصحيح، الله يذكُر بنِي إِسْرَائِيلَ بِذُنُوبِهِمْ وَيَذُمَّهُمْ ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لَمْ يَقُلْ: مِنَ الْيَهُودِ. ﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧]، وآيات كثيرة.

وقوله: ﴿ بَنَاتِنَا وَسُلْطَنِنَ مُبِينٍ ﴾ «آياتنا» جَمْعٌ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعَهُ آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةً

وهو كذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴿[الإسراء: ١٠١] إلى آخره، فهو أوتِيَ آيَاتٍ أَعْظَمُهَا وَأَشَدُّهَا وَأَبْيُنُهَا حِسًّا آيَةَ الْعَصَا؛ فَإِنَّهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْحَسِيَّةِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ، عَصَا يَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِهِ، وَلَهُ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى، وَيَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، إِذَا أَلْقَاهَا صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً تَلْقَفُ كُلَّ مَا عَمِلُوا، وَإِذَا حَمَلَهَا عَادَتْ عَصَاً، وَإِذَا ضَرَبَ بِهَا الْحَجَرَ تَفَجَّرَ مَاءً.

هذه العصا آية من آيات الله عَزَّجَلَّ، تَأْمَلِ الْآنَ وَتَفَكَّرْ مَدَى كَثْرَةِ الْعِصِيِّ وَالْحِبَالِ الَّتِي أَلْقَاهَا السَّحَرَةُ وَتَنَوَّعَهَا، ثُمَّ أَلْقَى هَذِهِ الْعَصَا فَصَارَتْ تَلْقَفُ كُلَّ مَا تَعَثَّرَ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَتَعَجَّبُ أَيْنَ الْبَطْنُ الَّذِي يَسَعُ كُلَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، نَعَمْ؛ لَكِنْ آيَاتُ اللَّهِ تُبْهِرُ الْعُقُولَ، وَإِلَّا فَتَقُولُ: كَيْفَ أَتَمَّهَا حَيَّةٌ بِمِقْدَارِ الْعَصَا تَلْقَفُ كُلَّ مَا أَفْكَوا مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ، أَيْنَ تَذَهَبُ؟! نَقُولُ؛ لَا تَسْأَلُ أَيْنَ تَذَهَبُ، أَنْتَ صَدِّقٌ وَأَمِنْ بِهَذَا، وَكَيْفَ تَذَهَبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ إِذَا مَضَعْتَهَا صَارَتْ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ شَيْئًا صَغِيرًا.

فائدة: التَّسْعُ الْآيَاتِ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا مُوسَى هِيَ: الْعَصَا، وَالْيَدُ يُدْخِلُهَا فِي جَيْبِهِ، وَالطُّوفَانَ، وَالْجَرَادَ، وَالْقُمَّلَ، وَالضَّفَادِعَ، وَالذَّمَّ، وَانْفِلَاقَ الْبَحْرِ، وَالسَّنُونَ وَنَقْصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ: ضَرَبَ الْحَجَرَ بِالْعَصَا فَيَتَفَجَّرُ.

أَمَّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَدْخُلُ فَلَقَى الْبَحْرَ، وَكَذَلِكَ انْفِجَارُ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ، لَكِنَّ هَذِهِ الثَّنَيْنِ لَيْسَتْ لِأَلِ فِرْعَوْنَ، فَالْ فِرْعَوْنَ آيَتُهُمُ السَّنُونَ وَنَقْصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى السَّبْعِ السَّابِقَةِ.

فإن قال قائل: يَسْتَعْدِمُ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ إِذَا تَكَلَّمُوا فِي رَجُلٍ يَقُولُونَ: هَذَا الرَّجُلُ كَعَصَا مُوسَى، تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. وَبَعْضُ الْإِخْوَانِ يَمَزَحُ بِهَا

فَيَقُولُ لِلْآخِرِ: أَنْتَ كَعَصَا مُوسَى تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَهَلْ يَصِحُّ هَذَا؟

فَالْجَوَابُ: أَنَا أَرَى أَنَّهُ حَتَّى الْمُحَدِّثُونَ يَقُولُونَ هَذَا - نَسَأَلُ اللَّهَ لَهُمُ الْعَفْوَ - لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولُوا هَكَذَا؛ لِأَنَّهُ يُحْشَى أَنْ تُسْتَعْمَلَ اسْتِهْزَاءً، وَإِنْ كَانَ الْمُحَدِّثُونَ لَا يُرِيدُونَ هَذَا إِطْلَاقًا، فَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: هَذَا الرَّجُلُ مِثْلُ آيَةٍ، وَهَذَا الرَّجُلُ وَاسِعُ الْإِطْلَاعِ، وَهَذَا الرَّجُلُ وَاسِعُ الْعِلْمِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَنْ يَقُولُ: فُلَانٌ يَمْلِكُ عَصَا مُوسَى السَّحْرِيَّةَ. فَهَذَا أَيْضًا لَا يَجُوزُ، هَذَا أَشْرٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: عَصَا مُوسَى السَّحْرِيَّةَ. يَعْنِي: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ سِحْرٌ، وَهَذَا خَطِيرٌ.

وَقد أَرْسَلَ اللَّهُ مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ، وَالسُّلْطَانُ كُلُّ مَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بِهِ سُلْطَةٌ؛ أَي: حُجَّةٌ وَقُوَّةٌ، وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ السِّيَاقِ؛ فَالسُّلْطَانُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، فَالسُّلْطَانُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَبِ مَعَ أَوْلَادِهِ فِي التَّأْدِيبِ سُلْطَانٌ صَرَبٌ، وَالسُّلْطَانُ فِيمَنْ دُعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ سُلْطَانٌ بَيَانٌ، وَالسُّلْطَانُ أَيْضًا فِيمَنْ جُودِلَ سُلْطَانٌ حُجَّةٌ، وَهُوَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَوَاضِعِ.

المُهْمُّ: أَنَّهُ مَا كَانَ فِيهِ سُلْطَةٌ عَلَى الْغَيْرِ فَهُوَ سُلْطَانٌ.

وقوله: ﴿مُبِينٍ﴾ يُجْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنَ اللَّازِمِ وَيُجْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَعَدِّيِّ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَانَ الرَّبَاعِيِّ يَكُونُ لَازِمًا وَيَكُونُ مُتَعَدِّيًّا، فَتَقُولُ: أَبْنْتُ لَهُ الْحَقَّ. وَتَقُولُ: أَبَانَ الصُّبْحِ؛ أَي: بَانَ وَظَهَرَ، فَهِيَ رُبَاعِيَّةٌ صَالِحَةٌ لِلتَّعَدِّيِّ وَاللُّزُومِ.

فإن قال قائل: كيف يكون فعلاً واحداً صالحاً للتعددي واللزوم؟

قلنا: نعم يصلح، اللغة العربية واسعة، فمثلاً: «رَجَعَ» فِعْلٌ ماضٍ ثلاثيٌّ، يَكُونُ لَازِمًا وَيَكُونُ مُتَعَدِّيًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: ٨]،

هذا لازم، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٣]، هذا مُتَعَدٌّ، فلا مانع من أن يكون الفعل الواحد لازماً في سياق ومُتَعَدِّياً في سياق آخر، ومن ذلك «أبان».

فهل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ معناها بَيِّن، أو مُبِين مُظْهِرٍ لِلْحَقِّ؟ نَنْظُرُ أَيُّهُمَا أَبْلَغُ الْبَيِّنِ فِي نَفْسِهِ، أَوِ الْمُبِينِ لِغَيْرِهِ؟

الجواب: الثاني؛ لأنَّ الْمُبِينِ لِغَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيِّنًا فِي نَفْسِهِ، وَعَلَى هَذَا فَكَلِمَةُ ﴿مُبِينٍ﴾ مِنَ الْمُتَعَدِّيِّ، تَكُونُ أَشْمَلًا وَأَوْسَعَ مَعْنَى، وَمَا كَانَ أَوْسَعَ وَأَشْمَلًا مَعْنَى فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ بِهِ، وَلَا نَقُولُ: يُتْرَكُ الثَّانِي؛ لِأَنَّ الثَّانِيَّ دَاخِلٌ فِي الْأَوَّلِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تأكيد رسالة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمُؤَكَّدَاتِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آنفًا. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْتَدَوْا مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ.

الفائدة الثانية: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُكْرِّرُ ذِكْرَ قِصَّةِ مُوسَى، وَيَبْسُطُهَا تَارَةً، وَيُخْتَصِرُهَا تَارَةً، وَيُنَوِّعُهَا، فَهِيَ جَمَعَتْ بَيْنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّنْوِيعِ مِنْ حَيْثُ الْأَسْلُوبِ، وَالتَّنْوِيعِ مِنْ حَيْثُ الْبَسْطِ وَالِاخْتِصَارِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَاشَ فِي قَوْمٍ مُشْرِكِينَ أَوَّلَ الرِّسَالَةِ، وَفِي قَوْمٍ يَهُودٍ بَعْدَ الْهِجْرَةِ؛ وَهَذَا جَاءَتْ السُّورَةُ الْمَكِّيَّةُ يُذَكِّرُ فِيهَا قِصَّةَ مُوسَى بِبَسْطٍ وَاخْتِصَارٍ تَارَةً؛ لِأَجْلِ أَنْ يَتَهَيَّأَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - لِمُجَادَلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ سَتَكُونُ الْهِجْرَةَ إِلَى بَلَدٍ هُمْ سَاكِنُونَ فِيهِ؛ وَهَذَا لَا تَجِدُ قِصَّةَ نَبِيٍّ مِثْلَ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا فِي تَنْوُّعِهَا، وَلَا فِي تَكَرُّرِهَا، وَلَا فِي أُسْلُوبِهَا.

الفائدة الثالثة: فضيلة موسى ﷺ وذلك بما أكرمه الله به من الرسالة.

الفائدة الرابعة: أن موسى ﷺ أوتي آيات، وبين الله تعالى في آية أخرى أنها ﴿تَسَعَّ آيَاتٍ﴾.

الفائدة الخامسة: أن موسى أوتي سلطاناً؛ أي: سلطة وقوة في إقامة الحجّة، وفي غير ذلك؛ لقوله: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، وإذا أردت أن تعرف شيئاً من سلطانته الذي آتاه الله، فانظر إلى محاورته في سورة الشعراء مع فرعون، حيث أجمه وألقمه حجراً، وفي النهاية توعدّه بالقوة؛ فقال فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، هذه كلمة إرهاب، ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ أشد إرهاباً مما لو قال: لَأَسْجُنَنَّكَ. كأنه يقول: عندي أناسٌ سُجِنَاءُ كثيرون، وأنا قادرٌ على سَجْنِكَ، وسأجعلك من بينهم، فيكون هذا أشدّ في الإرهاب مما لو قال: لَأَسْجُنَنَّكَ.

الفائدة السادسة: ما أشرنا إليه في الآية التي قبلها أنه ما من رسولٍ أُرْسِلَ إِلَّا وَأُوتِيَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، وهذا من حكمة الله، ومن رحمة الله، ويأتي - إن شاء الله - بقیة الكلام على القصة.

وقد أكّد ذلك الحديث الثابت عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَا بَعَثَ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ»<sup>(١)</sup>.

ومعنى «مِثْلِهِ»: أي مثل الآيات التي جاء بها، عدداً وكيفية؛ على مثله يؤمن البشر، بحسب الذي أُرْسِلَ إليهم. يعني: معناها أن الآيات التي يأتي بها الرُّسُلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بحوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيثار، باب وجوب الإيثار برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُؤْمِنُ الْبَشَرَ عَلَى مِثْلِهَا، يَعْنِي: أَنَّهَا آيَاتٌ مُقْنِعَةٌ.

الفائدة السابعة: أَنَّ الْآيَاتِ سُلْطَانٌ وَحُجَّةٌ عَلَى مَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ - أَعْنِي: الرُّسُلَ - بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ عَطْفُ (سُلْطَانٍ) عَلَى (آيَاتٍ) مِنْ بَابِ عَطْفِ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ؛ لِبَيَانِ فَائِدَتِهِ وَثَمَرَتِهِ، فَالْآيَاتُ هِيَ السُّلْطَانُ.

الفائدة الثامنة: أَنَّ الْآيَاتِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُبَيِّنَةً مُظْهِرَةً لِلْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الفائدة التاسعة: أَنَّ الزُّعْمَاءَ يَقُومُونَ مَقَامَ الْآتِبَاعِ؛ لِأَنَّ الرِّسَالَهَ لَيْسَتْ إِلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ فَقَطْ؛ بَلْ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ كَلِّهِمْ، لَكِنِ الْأَسْيَادُ يَقُومُونَ مَقَامَ الْآتِبَاعِ.

الفائدة العاشرة: أَنَّ الْعَتَاةَ الْمُعَانِدِينَ لِلرُّسُلِ تَتَنَوَّعُ أَسْبَابُ عِنَادِهِمْ وَمُعَارَضَتِهِمْ لِلرُّسُلِ، قَدْ تَكُونُ السُّلْطَانَةُ، وَقَدْ تَكُونُ الْوِزَارَةُ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَالُ، وَقَدْ تَكُونُ الْقُوَّةُ الْبَدَنِيَّةُ؛ فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ: الْمَلِكُ، وَالثَّانِي: الْوِزَارَةُ، وَالثَّلَاثُ: الْمَالُ. وَفِي عَادِ: الْقُوَّةُ الْبَدَنِيَّةُ، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥].

الفائدة الحادية عشرة: مُكَابَرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ؛ حَيْثُ قَالُوا لِهَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ: إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَإِنَّهُ كَذَّابٌ.

الفائدة الثانية عشرة: أَنَّ مَا قَالُوهُ فِي رَدِّ الدَّعْوَةِ مُجَرَّدُ دَعْوَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُقِيمُوا عَلَى دَعْوَاهُمْ أَيَّ دَلِيلٍ مُجَرَّدًا قَالُوا: ﴿سَنَجِرُّكَ كَذَّابٌ﴾، وَهَذَا يَلْجَأُ إِلَيْهِ الضُّعَفَاءُ الْعَاجِزُونَ، إِذَا عَجَزُوا عَنْ مُدَافَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ذَهَبُوا إِلَى السَّبِّ وَالشَّتْمِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

الفائدة الثالثة عشرة: أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَأْتِي بِهَا الْأَنْبِيَاءُ يَعِجِزُ عَنْ مِثْلِهَا عَامَّةً

الناس؛ لقوله: ﴿سَاحِرٌ﴾ والساحِرُ مَنْ يَأْتِي بِأُمُورٍ تُعْجِزُ النَّاسَ، لكن الفَرْقَ بين الساحِرِ وبين النَّبِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ مُؤَيَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَا يَفْعَلُهُ هُوَ، بِمَعْنَى: أَنَّ السَّاحِرَ هُوَ الَّذِي يُعَالِجُ الشَّيْءَ حَتَّى يَأْتِيَ بِالْمُعْجِزَةِ، أَمَّا النَّبِيُّ فَإِنَّ الْآيَاتِ تَأْتِيهِ بِدُونِ أَيِّ عَمَلٍ مِنْهُ، بَلْ بِإِرَادَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

فإذا قال إنسان: إِذَنْ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْكِرَامَةِ وَآيَةِ النَّبِيِّ؟

قلنا: الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْكِرَامَةَ تَأْتِي لِمَتَّبِعِ النَّبِيِّ، وَأَمَّا الْآيَةُ فَتَأْتِي لِلنَّبِيِّ نَفْسَهُ، أَيَّ أَنْ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ كِرَامَةً مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، لَيْسَ يَقُولُ: إِنَّهُ رَسُولٌ، وَلَا إِنَّهُ نَبِيٌّ. وَلَكِنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ الْكِرَامَةَ تَأْيِيدًا لَهُ، أَوْ تَأْيِيدًا لِلْإِسْلَامِ، وَفِي ذَلِكَ أَيْضًا آيَةٌ لِلنَّبِيِّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ.

فإن قال قائل: هناك مَنْ يَقُولُ: إِنَّ فِي السَّابِقِ كَانَتِ الْمُعْجِزَاتُ الْحِسِّيَّةَ خَارِقَةً لِلْعَادَةِ، ثُمَّ حِينَ تَطَوَّرَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ وَبَلَغَ أَوْجَهَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَى الْقُرْآنَ؟

فالجوابُ: هَذَا رُبَّمَا نَقُولُ: هَذَا صَحِيحٌ. لَكِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحَمَّدٌ أَتَى بِمُعْجِزَاتٍ حِسِّيَّةٍ، وَمُعْجِزَاتٍ مَعْنَوِيَّةٍ، لَهُ مُعْجِزَاتٌ حِسِّيَّةٌ عَظِيمَةٌ؛ انشِقَاقُ الْقَمَرِ مُعْجِزَةٌ، نَبْعُ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ<sup>(١)</sup> مُعْجِزَةٌ، فُورَانُ الْمَاءِ مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي نَضَبَ مَأْوَاهَا لَمَّا مَجَّ فِيهَا شَيْئًا مِنْ فَمِهِ<sup>(٢)</sup>؛ كُلُّ هَذِهِ مُعْجِزَاتٌ حِسِّيَّةٌ.

أَمَّا السَّحْرُ وَالشُّعُودَةُ فَهِيَ كُلُّ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ يَظْهَرُ عَلَى يَدِ مُخَالَفِ الرَّسُولِ.

وقد أنكرت المعتزلة الكراماتِ وقالت: لو أننا أثبتنا الكراماتِ لاشتبه النبيُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب الوضوء من التور، رقم (٢٠٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٧)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالوَلِيِّ، والوَلِيُّ بالسَّاحِرِ! فيُقَال: هذه مُغَالَطَةٌ؛ لأنَّ النَّبِيَّ يَقُول: إنه نَبِيٌّ. والذي ظَهَرَ كَرَامَةٌ عَلَى يَدِهِ يَقُول: إنه وَلِيٌّ وليس نَبِيٌّ. والسَّاحِرُ لَيْسَ نَبِيًّا وَلَا وَلِيًّا، مَعْرُوفٌ بِأَنَّهُ فَاسِقٌ مُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ التَّبَاسُّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بِالنِّسْبَةِ لِبَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ فِي المَشَائِخِ، وَكَذَا يَقُولُونَ: إِنَّ الشَّيْخَ يَنْفَعُ وَيَضُرُّ، وَلَكِنْ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَتُرِيدُ رَدًّا حَاسِمًا عَلَيْهِمْ، يَقُولُونَ: هُمْ يَنْفَعُونَ وَيَضُرُّونَ، وَلَكِنْ بِإِذْنِ اللَّهِ.

فالجواب: نقول: أين الدليل على أن الله أذن لهم؟ فإن قيل: الدليل الحس، وهو كثرة حصول هذا الشيء. قيل: كثرة حصول هذا الشيء إما أن يكون شيئاً يدرّكه كل إنسان، فلا ميزة للمشايع مثل الدعاء يدعو فيستجيب الله، وإما أن يكون شيئاً لا يدرّكه الإنسان فهو من الشياطين، الشياطين تخدّم هؤلاء الشيوخ؛ لأنهم يضلّون عن سبيل الله، والشيطان لا يريد منّا إلا أن يوقع بيننا العداوة والبغضاء، ويصدّنا عن ذكر الله فنقول هذا، ولا شكّ أنهم يضلّون العوام، فيقولون: تعال تُريد أن تصير حماراً حصاناً، يدعو الله عزّوجلّ ظاهراً، والشيطان يُحوّل هذا الحمار إلى حصان بالرؤية، يعني نوع من السحر نوع بالتمويه، وهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

وأنا سمعت من بعض الجهات في إفريقيا المشايخ يقولون: إنه قد رُفِعَ عَنَّا التَّكْلِيفُ، لَا أَحَدَ يَصُومُ وَلَا نُصَلِّي وَلَا نُزَكِّي وَلَا شَيْءٌ، وَرُفِعَ عَنَّا كُلُّ المَحْرَمَاتِ؛ وَلهَذَا يَكُونُ الوَاحِدُ مِنْهُم مِثْلَ التَّيْسِ يَتَزَوَّجُ حَمْسِينَ امْرَأَةً أَوْ أَكْثَرَ بَعْدَ النِّكَاحِ، فَهُوَ وَلِيٌّ مَرْفُوعٌ عَنْهُ التَّكْلِيفُ، وَيَقُولُ: هَذِهِ التَّكَالِيفُ مَا هِيَ إِلَّا وَسَائِلٌ حَتَّى تَصِلَ إِلَى الغَايَةِ، إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الغَايَةِ بَطَلَتْ التَّكَالِيفُ، كَالرَّجُلِ يَتَأَهَّبُ إِلَى السَّفَرِ وَيَرْكَبُ السَّيَّارَةَ، أَوْ يَأْخُذُ عَصَا الجَمَلِ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى البَلَدِ رَمَاهَا - نَسَأَلَ اللَّهَ العَافِيَةَ -



والشياطين نخدمهم، حتى ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ<sup>(١)</sup> أن بعض الناس يقول: إني رأيتك أنت في عرفة، أنت يا ابن تيمية. وهو في الشام لم يَحْجَّ، يقول: هذا الشيطان يتمثل بي. يقول: أنا ابن تيمية. ويقول للذي يجيء إليه: يقول ابن تيمية: هذا حلال، وهذا حرام.

وقول الله تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِإِرسَالِنَا، وَفِرْعَوْنُ هُوَ حَاكِمُ مِصْرَ، الَّذِي مَلَكَهَا وَسُلْطَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَكَانَ يُقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ؛ أَوْ قَالَ لَهُ بَعْضُ الْكَهَنَةِ: إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يَكُونُ زَوَالُ مُلْكِكَ عَلَى يَدِهِ. هَذَا قَوْلٌ؛ وَقَوْلٌ آخَرُ: إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَهَانَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قُتِلَ الرَّجَالُ وَبَقِيَتِ النِّسَاءُ هَلَكَتِ الْأُمَّةُ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَقْوَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ مُعْتَمَدَهُ النَّقْلَ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّقْلَ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُصَدَّقُ وَلَا يُكذَّبُ، وَالْمَعْنَى الْمَعْقُولُ لِكَوْنِهِ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، هُوَ إِذْ لَالَ هَذَا الشَّعْبِ، وَهُوَ قَلَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَقْبَاطِ.

قوله: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ﴾ هَامَانُ وَزَيْرُ فِرْعَوْنَ، وَقَارُونُ تَاجِرُ آلِ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ قَارُونَ كَانَ غَنِيًّا غَنِيًّا عَظِيمًا، حَتَّى قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّنَهُ مِنَ الْكُفُورِ﴾ أَي: مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أَي: الَّذِي إِنْ مَفَاتِحَهُ ﴿لَسُنُوءًا بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] تَنَوَّعَ يَعْنِي: تَثَقَّلَ بِهِمْ؛ أَي: تَثَقَّلَ، الْعَصْبَةُ؛ أَي: الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ الْأَقْوِيَاءِ هَذِهِ مَفَاتِحُهُ.

إِذْنًا: فَالْحَزَائِنُ كَثِيرَةٌ وَعَظِيمَةٌ ﴿قَرُونٌ﴾ فَقَالُوا: الصَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الثَّلَاثَةِ، فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴿فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿سَحِرٌ﴾ خَبْرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ،

(١) انظر نحوه في: مجموع الفتاوى (١/٨٣، ١٣/٩٢).

قَدَّرَهُ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةً لِلَّهِ بِقَوْلِهِ: [هُوَ ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾].

وَالسَّاحِرُ اسْمٌ فَاعِلٍ مِنَ السِّحْرِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْحَرُ النَّاسَ؛ فَيُرِيهِمُ الْحَقَائِقَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ الْحَقَائِقَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ الْحَقَائِقَ إِلَّا الْخَالِقَ عَزَّجَلَّ، لَكِنْ يُرِي النَّاسَ الْحَقَائِقَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، مِثْلَ مَا فَعَلَ السَّحْرَةَ - سَحْرَةَ آلِ فِرْعَوْنَ - حِينَ أَلْقَوْا الْحِجَالَ وَالْعِصِيَّ؛ فَرَأَاهَا النَّاسُ وَكَأَنَّهَا حَيَاتٌ تَسْعَى، وَهِيَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ.

هُؤُلَاءِ قَالُوا: إِنْ مُوسَى سَاحِرٌ، كَيْفَ يُلْقِي الْعَصَا فَتَكُونُ حَيَّةً؟! كَيْفَ يُدْخِلُ يَدَهُ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ؟! لَيْسَ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ. ﴿كَذَّابٌ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَّابٌ﴾ أَي: كَاذِبٌ فِيمَا ادَّعَى مِنَ الرَّسَالَةِ، فَهُوَ فِي آيَاتِهِ سَاحِرٌ، وَفِي دَعْوَاهِ كَاذِبٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَّابٌ﴾ صِيغَةٌ مُبَالَغَةٌ أَوْ نِسْبَةٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ وَالنِّسْبَةِ أَنَّ النِّسْبَةَ وَصْفٌ مُلَازِمٌ، وَصِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ فِعْلٌ حَادِثٌ مُتَكَرِّرٌ. فَكَلِمَةُ النَّجَّارِ هَذِهِ نِسْبَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ صِيغَةٌ مُبَالَغَةٌ لِكَثْرَةِ نِجَارَتِهِ. وَأَمَّا إِذَا قِيلَ: فُلَانٌ أَكَّالٌ لِلطَّعَامِ فَهَذَا قَدْ لَا يَكُونُ نِسْبَةً، وَلَكِنْ لِكَثْرَةِ أَكْلِهِ سَمَّيْنَاهُ بِأَنَّهُ أَكَّالٌ.



## الآية (٢٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ فَلَـمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴾ [غافر: ٢٥].

•••••

قال تعالى: ﴿ فَلَـمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أرسله الله بالآيات؛ فقالوا: ساحر كذاب. قال المفسر رحمه الله: ﴿ فَلَـمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾: من عند الله عزَّجَلَّ وهو الوحي، حينما قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وما أشبه ذلك ممَّا جرت فيه المحاوره بينه وبين فرعون، وهذا مذكور في سورة الشعراء، وفي سورة الإسراء وغيرهما.

﴿ فَلَـمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ الذي عجزوا أن يقابلوه بالحجة الداحضة، توعَّد فرعون موسى فقال: ﴿ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وهذا وعيد، شيء آخر قالوا: ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا ﴾ [غافر: ٢٥]، قال المفسر رحمه الله: [استبقوا] ﴿ نِسَاءَهُمْ ﴾ وعلى هذا فيكون القتل لأبناء بني إسرائيل، واستحياء النساء يكون وقع مرتين؛ المرة الأولى قبل أن يُبعث موسى، والمرة الثانية بعد أن بُعث.

﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾؛ لئلا يبقى لهم شوكة، ولتزل هيبتهم؛ لأنه إذا لم يبق إلا النساء فالنساء ضعيفات، لا يدفعن عن

أَنْفُسِهِنَّ، وَلَا يُدْفِعْنَ عَنْ حُقُوقِهِنَّ، فَيَبْقَى مُوسَى وَقَوْمَهُ عَلَى أَسْوَأِ حَالٍ.  
 ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ قَالَ الْمَفْسَّر رَحْمَةُ اللَّهِ:  
 [هَلَاك] (ما) نَافِيَةٌ، وَ﴿كَيْدٌ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ اسْمُهَا؛ لِأَنَّ مِنْ شَرَطِ  
 عَمَلِ (ما) عَمَلٍ (ليس) أَنْ لَا يُتَقَضَّ النَّفْيُ. قَالَ ابْنُ مَالِكٍ رَحْمَةُ اللَّهِ:

مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبِ زُكْنِ (١)

فَإِذَا انْتَقَضَ النَّفْيُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ عَامِلَةً عَمَلِ (ما)، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرٌ  
 مِنْ هَذَا: ﴿مَا هَلَّا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وَلَمْ يَقُلْ: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرًا؛ لِأَنَّهُ انْتَقَضَ  
 النَّفْيُ، إِذْ ذُنَّ: (ما) نَافِيَةٌ، وَ﴿كَيْدٌ﴾ مُبْتَدَأٌ.

وقوله: ﴿كَيْدُ الْكٰفِرِينَ﴾ الْكَيْدُ وَالْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ، وَمَا أَشْبَهَهَا، كُلُّهَا كَلِمَاتٌ  
 مُتْقَابِرَةٌ، مَعْنَاهَا التَّوَصُّلُ إِلَى الْإِيقَاعِ بِالْخِصْمِ، مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، يَعْنِي: يَتَوَصَّلُ  
 إِلَى الْإِيقَاعِ بِخِصْمِهِ بِأَسْبَابِ خَفِيَّةٍ، لَا يَشْعُرُ بِهَا الْخِصْمُ؛ لِأَنَّ الْكَايِدَ وَالْمَاكِرَ وَالْخَادِعَ  
 لَا يَأْتِي بِالشَّيْءِ عَلَنًا هَكَذَا، بَلْ بِأَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ، فَهِيَ التَّوَصُّلُ إِلَى الْإِيقَاعِ بِالْخِصْمِ  
 مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ؛ أَي: بِأَسْبَابِ خَفِيَّةٍ؛ فَالْكَفَّارَ لَهُمْ كَيْدٌ عَظِيمٌ، يَكِيدُونَ عَلَى  
 الْإِسْلَامِ، وَليَسُوا يَكِيدُونَ لِلْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْكَيْدِ عَلَى الشَّيْءِ، وَالْكَيدِ  
 لِلشَّيْءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذٰلِكَ كٰذٰبًا لِيُؤَسِّفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، وَلَمْ يَقُلْ: عَلَى. لَكِنْ  
 الْكَيْدُ بِالْعَدُوِّ هَذَا يُسَمَّى كَيْدًا عَلَيْهِ، الْكَافِرُونَ لَهُمْ كَيْدٌ عَلَى الرُّسُلِ، يَكِيدُونَ كَيْدًا  
 عَظِيمًا، وَيَفْعَلُونَ كُلَّ سَبَبٍ يُدْحِضُونَ بِهِ حُجَّةَ الرُّسُلِ، وَلَكِنْ مَهْمَا عَمِلُوا؛ فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ  
 يَقُولُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ كَيْدُهُمْ فِي ضَلَالٍ؛ أَي: فِي هَلَاكٍ وَضِيَاعٍ. كَمَا  
 أَنَّ الضَّالَّ لَا يَهْتَدِي السَّبِيلَ كَذَلِكَ كَيْدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لَا يُوصِلُهُمْ إِلَى الْمَقْصُودِ.

## من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن موسى عليه الصلاة والسلام أتى بالحق إلى فرعون وهامان وقارون، وهذا يدل على أنه صدق به أمامهم.

الفائدة الثانية: أن هؤلاء المكذبين عجزوا عن رد الحق الذي جاء به؛ فلم يُقابل الحجة بمثلها.

الفائدة الثالثة: أن هؤلاء الثلاثة لجؤوا إلى القتل والتهديد، قالوا: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [غافر: ٢٥].

الفائدة الرابعة: أن الذي يحمي الديار ويدافع عنها هم الرجال، وأن المرأة ليست بذلك الذي يدافع عن البلد، أو يدفع العدو؛ دليل ذلك أن هؤلاء قالوا: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.

الفائدة الخامسة: التعصب التام للكافرين، يعني: أنهم متعصبون، فهم يقولون: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ يعني: وغير المؤمنين من بني إسرائيل لا تقتلوهم، اقتلوا أبناء الذين آمنوا.

الفائدة السادسة: أن الله تعالى قد يُسلط أعداءه على المؤمنين، امتحاناً وابتلاءً، والواقع كذلك، وقد يكون الإنسان كلما اشتد إيمانه اشتد إيداء أعداء الله له.

الفائدة السابعة: أن الكفار يكيدون للمؤمنين؛ لقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾.

الفائدة الثامنة: الحكم على هؤلاء الثلاثة بأنهم كفار، ولهذا لم يقل: وما كيدهم. بل أظهر في موضع الإضمار، إشارة إلى أن هؤلاء كفار، وقد سبق لنا أن الإظهار

في مقام الإضرار يُستفاد منه ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: الحكم على هؤلاء الذين حلَّ الضمير محلَّ ضميرهم بهذا الوصف.

والثانية: العموم والشمول.

والثالثة: إفادة التعليل ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾.

الفائدة التاسعة: البُشرى التامة للمؤمنين بأن الكفار مهما كادوا؛ فإن كيدهم ضائع وهالك لن ينفَعهم ولن يستفيدوا منه شيئاً، وإن استفادوا فإنها يستفيدون فائدة مؤقتة، ﴿وَالْعٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].



## الآية (٢٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

•••••

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أعودُ بالله! وقد كانوا اقترحوا أن يقتلوا أبناء بني إسرائيل، ويستحووا نساءهم، لكن فرعون قال: ﴿ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ اتركوني أقتل موسى. وإنما قال هذا؛ لأن موسى هو زعيم بني إسرائيل، ومعلوم أن قتل الزعيم يُوجب وهن الأتباع وضعفهم.

وفي قوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ اتركوني، دليل على تمويه فرعون، وأنه رجل مُوه كائد، خبيث كأنه يقول: إن الناس يُمسكوني عن قتل موسى، ولولا أن الناس يُمسكوني لقتلته. فيقول: اتركوني عليه، اتركوني أقتله. مع أنه لا أحد يستطيع أن يرده عن مراده؛ لأنه يقول لهم: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤]، لكن يُموه ﴿ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ و﴿ أَقْتُلْ ﴾ مجزوم على أنه جواب الأمر ﴿ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ وجواب الأمر يكون مجزوماً، وهل هو مجزوم به، أو بشرط مُقدَّر؟ على قولين:

القول الأول: إنه مجزوم به.

والثاني: إنه مجزوم بشرط مُقدَّر، والتقدير: إن تَدْرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى، والقاعدة

عندنا في التفسير، وفي الحديث: أنه إذا دار الكلام بين التقدير وعدمه فالأصل عدم التقدير، وعلى هذا فنقول: ﴿أَقْتُلْ﴾ فعل مُضارع مجزوم على أنه جواب الأمر، وعلامة جزمه السكون.

قال المفسر رحمه الله: [﴿أَقْتُلْ مُوسَى﴾؛ لأنهم كانوا يكفونونه عن قتله] بنى المفسر رحمه الله قوله هذا على ظاهر اللفظ، أنهم كانوا يكفونونه، ويقول: ذروني أقتله، ولكن الذي ترى: أنه كذاب لم يكفه أحد عن قتله، ولا يستطيع أحد أن يكفه عن قتله أبداً، لكن هو أراد أن يمؤه؛ لأنه لا يستطيع أن يقتل موسى؛ فادعى أنه - أو تظاهر بأنه - يكف عن قتله، ويقول: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾.

قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ تحذ - والعياذ بالله -، والواو حَرْفُ عَطْفٍ، واللَّام لام الأمر، و«يَدْعُ»: فعل مُضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف الواو، والضمة قبلها دليل عليه، وأصل «يَدْعُ»: «يَدْعُو».

وقوله: ﴿أَقْتُلْ﴾ و﴿وَلْيَدْعُ﴾ هذا تحذ سافر لموسى ومن أرسله سبحانه وتعالى، يعني: إن كان صادقاً؛ فليدع هذا الرب الذي أرسله، قال المفسر رحمه الله: [لِيَمْنَعَهُ مِنِّي].

وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ذكرنا لكم أن اللام لام الأمر، وهي ساكنة، فبعد الواو والفاء (ثم) تكون ساكنة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وهنا قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّهُ﴾ ولم يقل: رَبَّنَا؛ لأنه لا يعترف ظاهراً بربوبية الله، وإنما أضاف



الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى مُوسَى، مِنْ أَجْلِ التَّبَكُّيْتِ، يَعْنِي: كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَذَا رَبُّكَ الَّذِي زَعَمْتَ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَلْيَمْنَعَكَ مِنِّي.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ هذا الخوفُ حَقِيقِيٌّ، هُوَ يَخَافُ أَنْ مُوسَى بِمَا مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ يُبَدِّلَ دِينَ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّ دِينَهُمُ التَّعْبُدُ لِفِرْعَوْنَ، وَمُوسَى يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ؛ فَإِذَا جَاءَ بِالْآيَاتِ وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ بَدَّلَ الدِّينَ، فَصَارَ النَّاسُ بَدَلَ أَنْ يَتَّجِهُوا إِلَى فِرْعَوْنَ وَيَعْبُدُوهُ، يَتَّجِهُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ مِنْ عِبَادَتِكُمْ إِيَّايَ فَتَتَّبِعُونَهُ].

إِذْنًا: دِينَهُمْ هُوَ عِبَادَتُهُمْ فِرْعَوْنَ، فَإِذَا دَعَاهُمْ مُوسَى إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ انصَرَفُوا إِلَى اللَّهِ، فَتَبَدَّلَ الدِّينَ، وَاتَّبَعُوا مُوسَى.

فقوله: «وَأَنْ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ» الْفَسَادُ عَلَى زَعْمِهِ هُوَ: صَرْفُ النَّاسِ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، هَذَا وَجْهٌ.

وَجْهٌ آخَرٌ: تَفْرِيقُ النَّاسِ بَدَلَ أَنْ كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ، مَا بَيْنَ خَائِفٍ وَرَاغِبٍ، يَحْتَلِفُونَ؛ فَيَكُونُ بَعْضُهُمْ تَابِعًا لِمُوسَى، وَبَعْضُهُمْ لِفِرْعَوْنَ، وَتَفْرُقُ الْأُمَّةُ لَا شَكَّ أَنَّهُ فَسَادٌ، فَصَارَ إِظْهَارُ الْفَسَادِ يَدْعِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: تَغْيِيرُ الدِّينِ. وَالثَّانِي: تَفْرِيقُ الْأُمَّةِ.

قال المفسر رحمه الله: [«وَأَنْ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ» مِنْ قَتْلٍ وَغَيْرِهِ]، الْقَتْلُ

هَذَا غَالِبًا مِنْ لَازِمِ الْاِخْتِلَافِ، وَلَا زِمِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ الْأُمَّةِ أَنْ يَصِلَ بِهِمُ النَّزَاعُ إِلَى حَدِّ الْمَقَاتَلَةِ أَوْ غَيْرِهِ، وَمِنْهُ تَغْيِيرُ عِبَادَةِ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ فِرْعَوْنَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [وفي قراءة (أو)] إِذِنِ الشَّارِحِ شَرَحَ عَلَى الواو؛ لأنه قال: [وفي قراءة (أو)] وهذه القراءة سَبْعِيَّةٌ؛ بِنَاءٍ عَلَى الاصطِلاحِ الَّذِي تَقَدَّمَ، أَنَّهُ إِذَا قَالَ: وَفِي قِرَاءَةٍ، أَوْ قَالَ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ مِثْلًا؛ فَهِيَ سَبْعِيَّةٌ. وَإِذَا قَالَ: قُرِئَ فَهِيَ شَادَّةٌ.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [وفي أُخْرَى بَفَتْحِ الْيَاءِ وَالْهَاءِ وَضَمِّ الدَّالِ] «وَأَنَّ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ» ضَمُّ الدَّالِ عَلَى أَنَّ «الْفَسَادَ» فاعِلٌ «يَظْهَرُ».

وهذه القراءات تَخْتَلِفُ مَعْنَى مِنْ حَيْثُ الظاهر؛ لَكِنَّ مُؤَدَّاهَا وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ مُوسَى الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، ظَهَرَ الْفَسَادُ، فَيَكُونُ اخْتِلَافُ الْقِرَاءَاتِ فِيهِ فَائِدَةٌ: أَوَّلًا: الْفَائِدَةُ مِنْ (أَوْ) وَالْوَاوِ: إِذَا كَانَتْ (أَوْ) صَارَ أَنَّهُ خَافَ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ: أَنْ يُبَدِّلَ الدِّينَ، أَوْ أَنْ يُظْهَرَ الْفَسَادَ، وَالْوَاوِ ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ و﴿أَنْ يُظْهَرَ﴾ يَكُونُ خَافَ مِنْ اجْتِمَاعِ الْأَمْرَيْنِ؛ تَبْدِيلِ الدِّينِ، وَظُهُورِ الْفَسَادِ.

وَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ يُبَدِّلَ الدِّينَ، وَإِمَّا أَنْ يُظْهَرَ الْفَسَادَ، وَإِنْ لَمْ يُبَدِّلِ الدِّينَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ قَتْلٌ وَنِزَاعٌ، وَلَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ طَرَفٍ آخَرَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ تَبْدِيلِ الدِّينِ، وَظُهُورِ الْفَسَادِ، بِالنِّسْبَةِ (لِيُظْهَرَ) وَ(يُظْهَرَ) نَقُولُ: إِذَا قَصَدَ إِظْهَارَ الْفَسَادِ؛ فَقَدْ يَظْهَرُ وَقَدْ لَا يَظْهَرُ، فَإِذَا كَانَ «وَأَنَّ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ» صَارَ حُصُولُ مَا أَرَادَهُ مِنْ إِظْهَارِ الْفَسَادِ.

فَالْقِرَاءَاتُ مُؤَدَّاهَا وَاحِدٌ «وَأَنَّ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ».

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تَمْوِيهِ فِرْعَوْنَ، وَأَنَّهُ رَجُلٌ مَآكِرٌ مُخَادِعٌ يُظْهَرُ خِلَافَ الْوَاقِعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾.

الفائدة الثانية: شدة حنق فرعون على موسى؛ إلى حد أنه أراد قتله.

الفائدة الثالثة: شدة تحدي فرعون، حيث قال: دعوني أقتله، وليدع ربه؛ يعني: يتحداه إذا دعا ربه هل يفيدته أو لا.

الفائدة الرابعة: خوف الكفار من سلاح المؤمنين بالدعاء؛ لقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وإن كان المقصود التحدي، لكن لا شك أنه قد فهم أن الدعاء سلاح لموسى عليه الصلاة والسلام.

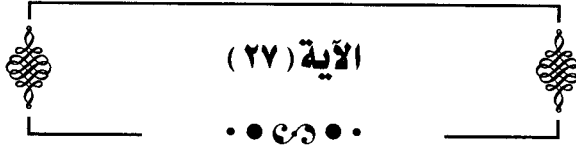
الفائدة الخامسة: تعصب الكفار لدينهم؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

الفائدة السادسة: أن قوم فرعون يدينون له بالعبادة، يعني: يتخذون تذللهم له عبادة؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

الفائدة السابعة: أن الكفار يرون أن الإيمان فساد في الأرض؛ لقوله: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وإذا كانوا يرون ذلك، فلا بد أن يحولوا بين الناس وبينه؛ حتى لا تفسد الأرض على زعمهم.

الفائدة الثامنة: أن الكفار يدعون ما هو كذب؛ لإبقائهم على ما هم عليه، وهو دعواه أن الناس إذا دانوا لله ظهر في الأرض الفساد، من أجل أن يبقى الناس على تدينهم لفرعون. والله أعلم.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لقومه وقد سمع ذلك ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ ...] إلى آخره.

قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ إِنِّي عُذْتُ ﴿ توجيه القول إلى قوم موسى ليس بصواب، بل قال موسى لفرعون: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ هذا إن كان فرعون قد قاله له مُوَاجَهَةً، يعني: قال: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ مُوَاجَهَةً، فإن موسى قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ مِنْكُمْ، ولكن قال: ﴿ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾، أما إذا كان فرعون يُتَحَدَّثُ مع قومه وسمع موسى ذلك؛ فعلى ما قال المفسر رحمه الله أن موسى لما سمع هذا قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾، ولكن الظاهر - والله أعلم - أن المعنى الأوَّل أَصَحُّ أنه قاله لفرعون حين قال: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ ﴿ عُذْتُ ﴾ بمعنى: اعْتَصَمْتُ بالله؛ لأن عيادة الشيء الاعتصام به، قال العلماء: ويُقال: العياد واللياذ الفرق بينهما أن اللياذ فيما يُرَجَى، والعياد فيما يُخْشَى.

فمعنى ﴿ عُذْتُ ﴾: اعْتَصَمْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ، بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ، هذه الربوبية العامة

والخاصّة، ربّي هذه رُبوبية خاصّة وربكم ربوبية الله لفرعون وقومه من الربوبية العامّة.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وهذا الوصفُ يَنْطَبِقُ تَمَامًا عَلَى فِرْعَوْنَ، فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ طَاغٍ عَاتٍ عَالٍ، وَالْمُتَكَبِّرُ هُوَ الْمُتَرْفِعُ كِبْرِيَاءً عَنِ الْحَقِّ، وَعَلَى الْخَلْقِ، لِأَنَّ الْكِبْرَ إِمَّا عَنِ الْحَقِّ وَإِمَّا عَلَى الْخَلْقِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمْطُ النَّاسِ»<sup>(١)</sup> «بَطْرُ الْحَقِّ» يَعْنِي: احْتِقَارَهُ وَازْدِرَاءَهُ، وَهَذَا التَّكَبُّرُ عَنِ الْحَقِّ، وَ«عَمَطُ النَّاسِ» يَعْنِي: احْتِقَارَهُمْ، وَهَذَا التَّكَبُّرُ عَلَى الْخَلْقِ، وَإِذَا اجْتَمَعَ فِي قَلْبِ الْمَرْءِ تَكَبُّرٌ عَلَى الْخَلْقِ، وَتَكَبُّرٌ عَنِ الْحَقِّ فَهُوَ الْهَالِكُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَدَلَ عَنِ قَوْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ؛ لِأَنَّ الْحِسَابَ أَشَدُّ خَوْفًا مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذَا قِيلَ لِلْإِنْسَانِ: إِنَّكَ سَوْفَ تُحَاسَبُ عَلَى مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَخَافُ وَيَوْجَلُ وَيَسْتَقِيمُ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْحِسَابَ دُونَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ أَشَدُّ تَخْوِيفًا؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ سَيُحَاسَبُ عَلَى عَمَلِهِ، فَسَوْفَ يَرْتَدِعُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيَقُومُ بِالْأَوْامِرِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: قُوَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَصَرَاحَتُهُ؛ حَيْثُ أَعْلَنَ أَمَامَ مُهَدِّدِيهِ بِالْقَتْلِ أَنَّهُ عَاذَ بِاللَّهِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٧].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: قُوَّةُ تَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حَيْثُ اعْتَمَدَ عَلَى اللَّهِ أَمَامَ هَذَا الطَّاغِيَةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الذي يسهل عليه أن يُنفذ ما توعدَّ به.

الفائدة الثالثة: وصف فرعون بهذين الوصفين الذميين: التكبر، وأنه لا يؤمن بيوم الحساب.

الفائدة الرابعة: العُدول إلى العموم دون الخصوص؛ لأنه لم يقل: إني عدت بربي وربكم من فرعون، ولكن قال: ﴿مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ [غافر: ٢٧]، ليعم فرعون وغير فرعون.

الفائدة الخامسة: أنه إذا جاءت بصيغة العموم وبالوصف انطبقت على فرعون، وبيئت أنه مُتَّصِفٌ بالاستكبار، وكذلك الكفر بيوم الحساب.

الفائدة السادسة: إثبات يوم الحساب، وهو يوم القيامة، والحساب ليس مُناقِشة الإنسان على عمله؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدِّبَ»<sup>(١)</sup>؛ لأن الله لو ناقشك لكانت نعمة من نعمه تُغطي جميع الحسنات التي قُمت بها، بل إن حسناتك التي قُمت بها نعمة من الله عزَّ وجلَّ تحتاج إلى شكر، ثم إذا وقفت لشكرها تحتاج إلى شكر آخر للتوفيق إلى الشكر، ثم هلمَّ جراً؛ ولهذا قال الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً      عَلِيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ  
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ      وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ

وهذا صحيح؛ فالحساب هو أن الله تعالى يخلو بعبده المؤمن، ويُقرِّره بذنوبه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب إثبات الحساب، رقم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا، عَمِلْتَ كَذَا؛ فَإِذَا أَقَرَّ قَالَ: قَدْ سَتَرْتَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا  
 أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، أَمَّا الْكُفَّارُ فَإِنَّهُمْ لَا يُحَاسِبُونَ مُحَاسَبَةً مَن تُوَزَّنَ حَسَنَاتُهُ، وَسَيِّئَاتُهُ؛  
 لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ حَسَنَاتٌ، وَلَكِنْ تُحْصَى أَعْمَالُهُمْ، وَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُجَزَّوْنَ بِهَا، يَعْنِي:  
 يُذَلُّونَ بِهَا، وَيُقَالُ: ﴿هَتُوْلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾  
 [هود: ١٨]؛ هَذَا هُوَ حِسَابُ الْكُفَّارِ، وَذَلِكَ حِسَابُ الْمُؤْمِنِينَ.



## الآية (٢٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨].

• • • • •

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ إلى آخره؛ لما سمع هذا الرجل المؤمن بتهديد فرعون لموسى بالقتل، قال ذلك؛ وتأمل سياق الآية، ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ ﴾ لم يُعَيِّنْهَ بِاسْمِهِ، بل قال: ﴿ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ ﴾ كتماناً له؛ لأنه ليس المقصود معرفة الاسم، إنما المقصود معرفة القضية، أمّا تعيين الأسماء فهي من فضول العلم، بمعنى: إن حصل فهذا طيب، وإن لم يحصل فليس ذا أهمية.

قوله: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ مؤمن بالله، وربما نقول: مؤمن بموسى أيضاً. ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَرَابَتِهِ؛ لِأَنَّ آلَ الْإِنْسَانِ قَرَابَتَهُ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ أَتْبَاعِهِ؛ لِأَنَّ الْآلَ تُطَلَّقُ عَلَى الْإِتْبَاعِ، وَأَيًّا كَانَ فَالرَّجُلُ لَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَلْ هُوَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، سِوَاءَ كَانَ مِنْ قَرَابَتِهِ، أَوْ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَنْتَمُونَ إِلَيْهِ، وَقَوْلُ الْمَفْسَّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [قيل هو ابن عمه] هذا قول أشار المفسر إلى ضعفه بكلمة: قيل.



قوله: ﴿يَكْفُرُ إِيمَانَهُ﴾ أي: يُخْفِيهِ وَيُسِرُّهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ، وفي قوله: ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ هذه ثلاث صفات: مؤمن، من آل فرعون، يكتُمُ إيمانه.

وقد قال علماء النحو: إِنَّ النِّكْرَةَ إِذَا وُصِفَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَإِنْ مَا بَعْدَهَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً، وَعَلَى هَذَا؛ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حَالًا، و﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ حَالًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صِفَةً ثَانِيَةً، و﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ حَالًا، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صِفَةً ثَانِيَةً، و﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ صِفَةً ثَالِثَةً، ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾؛ أي: يُخْفِيهِ عَنِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

قوله: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الاستِفْهَامُ هُنَا لِلْإِنْكَارِ، يَعْنِي: كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ؟! وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ (أَنْ) هَذِهِ مَصْدَرِيَّةٌ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ، وَهَذَا قَدَّرَهَا الْمَفْسِّرُ رَحْمَةً لِلَّهِ بِقَوْلِهِ: [أي: لِأَنَّ يَقُولَ] فَعَلَى هَذَا تَكُونُ (أَنْ) مَزْرُوعَةً اللَّامِ، الَّتِي لِلتَّلْعِيلِ؛ أَي: بِقَوْلِهِ رَبِّيَ اللَّهُ، لَا فِرْعَوْنَ. وَهَم يَرُونَ أَنَّ رَبَّهُمْ فِرْعَوْنُ.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ]، [﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْبَاءُ لِلْمُصَاحَبَةِ، وَالْبَيِّنَاتُ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ، وَتَقْدِيرُهَا -خِلَافًا لِلْمُؤَلَّفِ- الْآيَاتِ؛ أَي: جَاءَكُمْ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ؛ أَي: الظَّاهِرَاتِ الَّتِي تَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّهُ نَبِيٌّ.

قوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ هَذَا يُسَمَّى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَنْطِقِ (السَّبْرَ وَالتَّقْسِيمَ)؛ لِأَنَّ مُوسَى الْآنَ إِمَامًا

أن يكون صادقًا، وإمّا أن يكون كاذبًا، وليس هناك رُتبة بين الصدق والكذب؛ لأنه هو يقول: إنه رسول الله، إمّا أن يكون صادقًا في هذا، وإمّا أن يكون كاذبًا، وعلى كلِّ فإنه لا يُضُرُّكم أن تُصدِّقوه؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ] أي: ضرر كذبه، وسوف يُوقِعُ اللهُ به الحزبي والعار لو كذب على الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وأن الله تعالى يهتك سره ويبيّن كذبه؛ فيكون كذبه عليه.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ في أنه رسول وكذبتموه أنتم أصابكم بعض الذي يعدكم، قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [من العذاب عاجلاً]، وكذلك يُصِيبُكم في الآخرة أجلاً؛ فصار الآن الخطر عليه إن كان كاذبًا وأنتم سوف تسلمون، والخطر عليكم إن كان صادقًا، وهو سوف ينجو.

وهذا لا شك أنه من تمام نُصِجِه أن الرجل تنزل مع آل فرعون إلى هذا التنزل، لم يقل: إنه صادق مع أنه كان يؤمن به، لكن هذا من باب التنزل.

وهنا قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يقل: أقتلون موسى، إبعاداً للثهمة عن نفسه؛ لئلا يظن أحد أنه كان يعرف موسى وأنه يدافع عنه عن معرفة، ولكنه أتى بـ ﴿رَجُلًا﴾ النكرة إبهامًا للأمر وشدة في إخفائه.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز للحد، ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: ذو كذب، وهل هذه الجملة تعليلية؟ وهل هي تعود على موسى، أو تعود على فرعون؟

نقول: هي صالحة للأمرين، كل من كان مُسْرِفًا كَذَّابًا، فإن الله لا يهديه، وهذا

الْوَصْفُ يَنْطَبِقُ عَلَى فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ مُسْرِفٌ مُتَجَاوِزٌ لِلْحَدِّ، كَذَّابٌ، مُدَّعٍ مَا لَيْسَ لَهُ، يَقُولُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وكَذَّبَ فِي ذَلِكَ؛ فَهُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ؛ كَذَلِكَ أَيْضًا فِي مَقَامِ الْمُجَادَلَةِ وَالتَّنَزُّلِ تَنْطَبِقُ عَلَى مُوسَى لَوْ كَانَ كَاذِبًا؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُسْرِفًا مُتَجَاوِزًا لِلْحَدِّ، وَادِّعَاءَهُ الرِّسَالَةَ وَهُوَ كَاذِبٌ، وَكَذَلِكَ كَذَّابٌ لِأَنَّهُ ادَّعَى مَا لَيْسَ صَادِقًا فِيهِ.

وعلى كل حال: فالجُمْلَةُ هُنَا صَالِحَةٌ لِأَنَّ تَكُونَ مُنْطَبِقَةً عَلَى فِرْعَوْنَ، وَهِيَ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ، أَوْ عَلَى مُوسَى مِنْ بَابِ التَّنَزُّلِ مَعَ الْخُصْمِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ يَنْبَغِي الْعِنَايَةَ بِمَضْمُونِ الْقِصَّةِ، دُونَ عَيْنِ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ وَإِلَّا فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ، وَيَعْلَمُ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ، وَكُلَّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ إِهْمَامًا، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْمَهْمَّ مَضْمُونِ الْقِصَّةِ دُونَ عَيْنِ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي تَعْيِينِهِ مَصْلَحَةٌ، فَالْمَصْلَحَةُ ذَكَرَهُ وَتَعْيِينَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ صُلْبِ الْمُعَادِينَ مَنْ هُوَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ؛ لِقَوْلِهِ هُنَا: ﴿مَنْ آَلَ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨]، سِوَاءَ قُلْنَا: مِنْ قَرَابَتِهِ، أَوْ مِنْ أَتْبَاعِهِ عَلَى دِينِهِ؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ قَدْ يُقَيِّضُ أَوْ يُهَيِّئُ الْإِيمَانَ لِمَنْ كَانَ بَيْنَ قَوْمٍ مُنْغَمِسِينَ فِي الْكُفْرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوَازُ إِخْفَاءِ الْإِيمَانِ؛ إِذَا خَافَ الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَكْفُرُ إِيمَانُهُ﴾ [غافر: ٢٨]، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ مُؤْمِنًا إِلَّا

بِالْكِتْمَانِ، فَجَبَّ عَلَيْهِ الْهَجْرَةُ، فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَنْ مَنْ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ إِلَّا مُخْفِيًا دِينَهُ؛ فَإِنَّهُ تَجَبَّ عَلَيْهِ الْهَجْرَةُ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَيْهَا، فَإِنْ كَانَ عَاجِزًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (١٨) فَأَوْلِيكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ<sup>٤</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴿[النساء: ٩٨-٩٩].

الفائدة الرابعة: شدة إنكار هذا المؤمن على فرعون الذي هدد بالقتل؛ لقوله: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

الفائدة الخامسة: الإنكار على من عمل عملاً بدون سبب يقتضيه؛ يؤخذ من قوله: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وهذا ليس سبباً للقتل، بل على الأقل يترك شأنه، أما أن يقتل لهذا السبب فإن هذا منكراً، ولا يجوز إقراره.

الفائدة السادسة: العُدول عن التَّعيين خوفاً من التُّهمة، أو إن شئت فقل: استعمال المعارض؛ لقوله: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يقل: أقتلون موسى؛ لأنه لو عينه باسمه لاتهمه الناس بأن له صلة به، وفسد ما يريد، لكنَّه أبهمه وقال: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ إلى آخره.

فإن قال قائل: ما معنى المعارض؟

فالجواب: المعارض معناها: أن تُؤدِّي بشيءٍ خلاف الواقع، أي: يعيني كأن يقول: متى تجوز المعارض؟ تجوز المعارض إذا كان فيه مصلحة، أو دفع مضرّة، واستعمال المعارض على ثلاثة أوجه: الوجه الأوّل: الظلم. والثاني: دفع الظلم. والثالث: ما ليس فيه هذا ولا هذا.

الظُّلم: هو أن يَسْتَعْمِلَ الإنسانَ المَعَارِيضَ لِدَفْعِ حَقِّ عَلَيْهِ.  
وَدَفْعِ الظُّلمِ: أن يَسْتَعْمِلَ المَعَارِيضَ لِدَفْعِ ظُلمِ عَن نَفْسِهِ.  
وما ليس كذلك ولا كذلك: مثل أن يَسْتَعْمِلَهَا فِي الأُمُورِ المُبَاحَةِ.

مثال الأوَّل: تَخَاصَمَ زَيْدٌ وَعَمْرُوهُ عِنْدَ القَاضِي، وكان عِنْدَ عَمْرٍو لَزِيدٍ مِئَةٌ دِرْهَمٍ؛ فقال القَاضِي لِلْمُدَّعِي: أَلَكِ بَيِّنَةٌ؟ قال: لا. قال: لك اليمِينِ عَلى صَاحِبِكَ، فقال المُدَّعَى عَلَيْهِ: والله ما عِنْدِي لَهُ شَيْءٌ. ظَاهِرُ اللَّفْظِ النِّفْيِ، لَكِن هُوَ فِي قَلْبِهِ نَوَى الإِثْبَاتِ، وَنَوَى بـ(ما) الَّذِي، وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ عَلى نِيَّتِهِ: والله الَّذِي لَهُ عِنْدِي شَيْءٌ. وَهَذَا صَحيحٌ، لَهُ عِنْدَهُ شَيْءٌ، لَكِن هُوَ وَرَى بِأَنَّ (ما) نَافِيَةٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ، فَالقَاضِي سَوَّفَ يَحْكُمُ بِأَنَّها نَافِيَةٌ، حَسَبَ ظَاهِرِ الحَالِ، هَذَا هِيَ المَعْرُوضَةُ، نَقُولُ: إِنَّها حَرَامٌ؛ لِأَنَّهُ تَوَصَّلَ بِها إِلَى إِسْقَاطِ حَقِّ عَلَيْهِ.

وَكذلكَ أَيْضًا فِي الدَّعْوَةِ لَوْ قال لَهُ خَصْمُهُ: أَنَا أَرْضَى مَنكَ أَن تَحْلِفَ أَنَّ لَكَ عِنْدِي شَيْئًا، فَحَلَفَ مُورِيًّا؛ فَإِنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ.

أَمَّا دَفْعُ الظُّلمِ: فَمِثْلُ: أَن يَحْلِفَ عَلى دَفْعِ الظُّلمِ عَن نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ، مِثالُ ذلكَ: دَخَلَ عَلَيْهِ لِصٌّ، أَوْ جُنْدِيٌّ ظالِمٌ، يُرِيدُ أَن يَأْخُذَ مالَهُ فقال: افْتَحْ لِي هَذَا الصُّنْدُوقَ. فقال والله: ما فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ شَيْءٌ، المُخاطَبُ سَوَّفَ يَظُنُّ أَنَّ الجُمْلَةَ نَافِيَةٌ فَيَنْصَرِفُ، وَهُوَ يُرِيدُ بِها الإِثْبَاتِ، فَهَذِهِ التَّوْرِيَةُ لا شَكَّ فِي جَوَازِها، بَل إِذا كانَ المَالُ لِلغَيرِ مِثْلُ أَنَّ يَأْتِي شَخْصٌ وَيَقُولُ: فُلانٌ عِنْدَكَ لَهُ كذا وَكذا. فأقول: والله ما عِنْدِي لَهُ شَيْءٌ، أَعْرِفُ أَنَّهُ لَوْ أَقْرَرْتُ لِأَخْذِها.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى بِالآياتِ البَيِّنَةِ، الَّتِي يُؤْمِنُ عَلى

مثلها البَشَر؛ لقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

الفائدة الثامنة: قُوَّةُ إِيْمَانِ هَذَا الرَّجُلِ، حَيْثُ جَابَهُ هَؤُلَاءِ بِإِنْكَارِ رُبُوبِيَةِ فِرْعَوْنَ ضِمْنًا، يُؤَخِّذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فِجَابِهِمْ بِأَنَّ لَهُمْ رَبًّا سِوَى فِرْعَوْنَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ هَذَا الرَّجُلِ؛ أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ فَلَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ؛ لِأَنَّ رُبُوبِيَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِمُوسَى لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْإِنْكَارِ، لَكِنْ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وَاضِحٌ أَنَّهُ يُعَرِّضُ بِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ بِرَبِّ، وَأَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللَّهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ شَجَاعَةِ هَذَا الرَّجُلِ.

الفائدة التاسعة: اسْتِعْمَالُ السَّبْرِ وَالتَّقْسِيمِ، يَعْنِي: التَّرْدِيدَ بَيْنَ حَالَيْنِ أَوْ أَحْوَالٍ لَا يَزِيدُ الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا﴾، وَ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾.

الفائدة العاشرة: مُرَاعَاةُ الْحِصْمِ فِيْمَا يُؤَلِّفُهُ وَيُقَرِّبُهُ؛ لِأَنَّهُ بَدَأَ بِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ، وَهُوَ كَذِبُ مُوسَى، فَبَدَأَ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِالصِّدْقِ مِنْ أَجْلِ تَأْلِيْفِهِمْ، وَبَيَانَ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ عِنْدَهُ تَعْصَبٌ لِمُوسَى؛ وَهَذَا لَمْ يَبْدَأْ بِالصِّدْقِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْإِحْتِمَالَيْنِ.

الفائدة الحادية عشرة: جَوَازُ التَّوْرِيَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ صَادِقٌ، لَكِنَّهُ أَتَى بِهَذَا الْكَلَامِ تَوْرِيَةً بِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِهِ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ قَبُولِ كَلَامِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ شَعَرُوا بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ لَقَتَلُوهُ، مُؤْمِنٌ بِمُوسَى وَهُوَ مِنْ آلِهِمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَى بِالْكَلامِ الدَّالِّ عَلَى التَّوْرِيَةِ.

الفائدة الثانية عشرة: أَنَّ سُؤْمَ الْكَذِبِ يَعُودُ عَلَى الْكَاذِبِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ وَقَدْ فَضَحَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْكَاذِبِينَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ، فَضَحَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَسَيُفْضِحُهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ: قُوَّةُ إِيمَانِ هَذَا الرَّجُلِ؛ لِكَوْنِهِ يَعْتَقِدُ وَيُؤْمِنُ بِأَنَّ بَعْضَ الَّذِي وَعَدَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَوْفَ يُصِيبُهُمْ إِذَا كَانَ صَادِقًا وَقَدْ كَذَّبُوهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ الْمُسْرِفَ الْكَذَّابَ؛ أَي: الْمُتَجَاوِزَ لِلْحَدِّ بِفِعْلِهِ وَبِقَوْلِهِ، فَبِقَوْلِهِ: لِأَنَّهُ كَذَّابٌ، وَبِفِعْلِهِ لِأَنَّهُ مُسْرِفٌ، فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنَ الْهُدَايَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، وَحَيْثُ نَسَأَلُ هَلِ الْمُرَادُ هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ، أَوْ هِدَايَةَ الْبَيَانِ وَالْإِرْشَادِ؟

الْجَوَابُ: هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ لِلْمُسْرِفِ الْكَذَّابِ وَلِغَيْرِهِ، لَكِنْ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَخَذَلَ مَنْ شَاءَ.



## الآية (٢٩)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾﴾  
[غافر: ٢٩].

•••••

قال الله تعالى: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، تأمل حُسن خطاب هذا الرجلِ، كان بالأوّل يُنكر عليهم: ﴿أَنْفَتُلُونُ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ولما أراد أن يتودّد إليهم، وأن يُبيّن لهم نعمة الله عليهم، تَلَطَّفَ في الخطاب فقال: ﴿يَقَوْمِ﴾ وكأنّه واحدٌ منهم، وهذا اللُّطْفُ في الخطاب -في جانب الدَّعوة- من الأمور التي أمر الله بها شرعاً، والتي يهدي بها الله مَنْ شاء من عباده قدرًا؛ فقد قال الله لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

ثم إن القَدَرُ يُؤيّد هذا، فكم من إنسانٍ لَانَ بسببِ القولِ اللَّيِّنِ، وكم من إنسانٍ اعتدّى بسببِ العُدوانِ في القول؛ ولهذا نَجِدُ هذا الرجلَ من حِكْمَتِهِ أَنَّهُمْ لَمَّا هَدَّوْا مُوسَى بِالْقَتْلِ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَلَنًا ﴿أَنْفَتُلُونُ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ولما أراد أن يُبيّن لهم النِّعَمَ ويَدْعُوهم إلى الحَقِّ، قال: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿ظَاهِرِينَ﴾ أي: غَالِبِينَ، عَالِينَ عَلَى أَهْلِهَا.



وقوله: ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ يعني: أنتم الآن مالكون، وتأمل أيضا حُسن هذا الخطابِ والتَّحَرُّزِ، ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، يعني: والمستقبل لا يُعلم، قد يزول ملككم، لكن اليوم أنتم في نعمة، غاليين في الأرض، ظاهرين على أهلها، فيجب أن تشكروا هذه النعمة.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [أرض مصر] وعلى هذا ف(أل) في الأرض للعهد الذهني؛ أي: الأرض المعهودة أرضكم.

وقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [عذابه إن قتلتم أوليائه] ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾ (من) هذه استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد يَنْصُرُنَا، والنصر هنا بمعنى المنع؛ أي: فما الذي يمنعنا من بأسِ الله، والبأس هو العذاب. وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ يعني: إن نزل بنا، فهل أحدٌ يَنْصُرُنَا، حتى لو كُنَّا اليوم ظاهرين في الأرض، وكُنَّا ملوكًا فإنه إذا نزل بنا بأسِ الله فلا أحدٌ يمنعنا.

وقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [إن قتلتم أوليائه] قد يُقال: إن هذا الذي عيَّنه المفسر يدلُّ عليه السياق؛ لأنه أنكر عليهم أن يقتلوا موسى، وقد يُقال: إن المراد إن بَقِيْتُمْ على الكُفر والعدوان ومنه قتل موسى، وهذا أصحُّ وأعمُّ. يعني: ما الذي يَنْصُرُنَا من بأسِ الله إن جاءنا؟ لكوننا مُسْتَحِقِّينَ لهذا العذابِ بالكُفر وقَتْلِ أوليائه.

قال فرعونٌ مجيبًا لهذا الرجلِ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أكذبُ قولٍ في الأرض هو هذا، ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ يعني: ما أظهر لكم شيئًا حتى تروه إلا ما أرى، إلا ما أرى أنه الحقُّ، وهذه دَعْوَةٌ كاذبة؛ لأنه يعلم أن الحقَّ في أتباع موسى، كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هُنَا لِإِلَّا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُشْبِرًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، لكن جحدوا ظلمًا وعلوًّا.

فهو يقول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾؛ أي: ما أرى أنه صواب وأنه حق. وهذه الدَّعوةُ كاذبة، وإن كان أراد ما أريكم إِلَّا ما أرى أنه من مصلحتي؛ فهذا صادق لكنه غاش.

وعلى كل حال: فالجُملة مؤاخذ عليها؛ لأنها إمَّا كذب وإمَّا غش، إمَّا كذب إن كان يقول: ما أريكم إِلَّا ما أرى من الصَّواب، وإمَّا غش إذا كان يرى أن الحقَّ خلاف ما أراهم لكنه لمصلحته أراهم ما رأى.

قال المفسر رحمه الله: [ما أشير عليكم إِلَّا ما أشير به على نفسي وهو قتل موسى]، هذا أيضًا تخصيص في غير محله؛ لأن فرعون لا يهّمه أن يقولوا: اقتل موسى أو لا تقتله؛ لأنه مُصمَّم على ما يريد، لكنَّ أهمَّ شيء ألا يكفروا به، وألا يُبدل دينهم، وعلى هذا فالمقصود بقوله: ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ في بقائكم على دينكم، هذا معنى الآية، لأن أصل الإنكار على موسى والتَّهديد بقتله أصله أنه خاف أن يُبدل الدين.

قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يعني: ما أدلكم إِلَّا على سبيل الرَّشاد، والرَّشاد ضدُّ الغيِّ؛ ولهذا يُقال: رُشد وغيٌّ. ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فالرَّشاد هو ضدُّ الغيِّ، يعني: الصَّواب والسَّداد، وسبيل بمعنى: طريق، وهو أكذب الكاذبين؛ لأنه ليس يهديهم سبيل الرَّشاد، بل يهديهم سبيل الغيِّ والعناد والاستكبار والكُفر؛ فصار كاذبًا في الجُملتين ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ إذا قلنا: إن المعنى: إِلَّا ما أرى أنه صواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فهو أيضًا كاذب لأنه بلا شكَّ يهديهم سبيل الغيِّ والفساد.

## من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: حُسنِ خطابِ هذا الرجلِ المؤمن، حين تَلَطَّفَ في الدَّعوة إلى الله عزَّجَلَّ بقوله: ﴿يَقَوْمَ﴾.

الفائدة الثانية: أنه يَنْبَغِي للداعية أن يُذَكِّرَ المدعُوبين بِنِعْمَةِ الله عليهم، حتى يَخْضَعُوا وَيَشْكُرُوا هذه النِّعْمَةَ، بقوله: ﴿لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

الفائدة الثالثة: حُسنِ احتِرازِ هذا الرجلِ المؤمن؛ لقوله: ﴿لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ يعنى: وأما في المُستقبلِ قد يزول مُلكُكم، لكنِ اشكروا النِّعْمَةَ الحَاضِرَةَ.

الفائدة الرابعة: أنَّ الاعتبارَ في الحالِ بما هي عليه الآن، أمَّا المُستقبلُ فقد تَغَيَّرَ الأحوالُ، لكن نحن مُحاطَبون ومأمورون أن نَنظُرَ إلى الحالِ الحَاضِرِ الآن.

يَتَفَرَّعُ على هذه المَسْأَلَةِ مَسْأَلَةُ اجْتِمَاعِيَّةٍ: وهي أنَّ بعضَ الناسِ يَخْطُبُ ابنته رجُلًا غيرَ مُستقيمٍ يعنى: ليس كافرًا؛ لكن فاسقٍ يَشْرَبُ دُخَانًا، أو حَلَقَ لِحْيَتِهِ، أو رَبَّأ، أو ما أشبه ذلك؛ فيأخذُه الطَّمَعُ وَيَقْبَلُ الخِطْبَةَ، ثم يقول: لعلَّ الله يَهْدِيهِ، أو لعل هذه البِنْتُ الملتزمة تَسَعَى في هِدَايَتِهِ، فيقال: نحن لا نَنظُرُ للمُستقبلِ، المُستقبلُ له الله، بل رُبما أن هذا الرجلُ يُغْوِي المرأةَ، لأنَّه هو أقوى منها جانبًا؛ فأنت الآن مأمورٌ بالنَّظَرِ إلى الحالِ الحَاضِرَةِ، أمَّا المُستقبلُ فلست مأمورًا بالنَّظَرِ إليه، ولا يجوز أن تَنظُرَ إليه؛ لأنه مُستقبلٌ وَغَيْبٌ، فأنت الآن اعْرِفِ الحالَ التي أنتَ عليها، وتَصَرَّفْ على ما هي عليه الآن، هذه تأخذها من قول هذا الرجلِ المؤمنِ ﴿الْيَوْمَ﴾.

فإن قال قائل: قُلْتُمْ: إن الأبَّ لا يَنْبَغِي أن يُزَوِّجَ ابنته من فاسقٍ، فيقول:

لَعَلَّ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ. فلو حصل العكس أراد الرَّجُلُ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَةٍ لَيْسَتْ مُسْتَقِيمَةً، وَقَالَ: لَعَلَّ اللهُ يَهْدِيهَا بِي وَإِلَّا طَلَّقْتُهَا؟.

فالجواب: نفس الشيء، ليس هو (إِلَّا طَلَّقْتُهَا) فقد يكون الإنسان عنده عزم في هذا أوّل الأمر، ولكن إذا تزوّجها ورغب فيها عصفت به بعد، يعنى: جذب النساء للرجال ليس هو بالهين.

فإن قال قائل: فلو ظنّ فيها قبول الدعوة؟.

فالجواب: كلمة الظنّ هذه غير واردة في الواقع؛ ولذلك أنت غير مكلف إلا فيما بين يديك، حتى لو أخلفت الأمور فيما بعد، فأنت مجتهد ولا لوم عليك، ولا إثم عليك، لكن عليك إثم أنك تقدم على شيء تعرف الآن أنه غير صالح، لكن رجاء أن يصلح، هذا خطأ. والمرأة ربّما تغلب الرجل إذا أحبّها حبّاً شديداً، ربّما تقول: اسجد لي. فيفعل!! ألم تعلم أنه ذكر أحد العلماء قال: إن مؤذناً دعّت عليه أمه بدعوة وكان رجلاً صالحاً، فلما صعد إلى المنارة، يؤذّن وإذا بامرأة نصرانية في سطح بيتها جميلة، فأخذت بلبّه فأرسل إليها يحطّبها فقالت: لا يمكن إلا إذا كنت نصرانياً. فحاول، فقالت: أبداً. فتنصّر -والعياذ بالله- صار نصرانياً ارتدّ عن الإسلام الآن، فأعاد الخطبة، قالت: أنت لست مسلماً ولا نصرانياً فلا أحلّ لك، انظر هذا الرجل -نساء الله العافية- ارتدّ عن دينه وصارت هذه المرأة كيدها أعظم من كيده، وقالت له: لست مسلماً ولا نصرانياً، والنصرانية لا تحلّ إلا للمسلم أو النصراني ارجع وراءك. نساء الله العافية.

واعلموا أنني إذا قلت: حُسن خطابة الرَّجُلِ، أو احتِرَازات، أو ما أشبه ذلك،

ليس معناه أنني أُخبركم عن قصة مضت وتاريخ مضى، لا، بل أريد أن تأخذوا من ذلك عبرة تسيرون عليها؛ لأنه ما دام أننا نثني على هذا الرجل بخطابه ومُعالجته للأُمور؛ فإننا نحثُّ على اتباع طريقه.

مسألة: هل يجوز للكافر أن يتزوج مؤمنة؟

فالجواب: لا يجوز.

فإن قال: فرعونُ وزوجته!

فالجواب: هذا إشكال صحيح، يقول: هل يجوز للكافر أن يتزوج مؤمنة. فنقول: لا، فأورد علينا إشكالا وهو: أن امرأة فرعون كانت مؤمنة لا شك، وهو أكفر الكافرين.

والجواب: أن هذا شرع من قبلنا، أمّا شرعنا فلا.

وتُعرف القاعدة في الأصول: «أن شرع من قبلنا هو شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه»، هذا من وجه.

ومن وجه آخر قد يُقال: إن فرعون أكرهها على ذلك، وإنها لا تُحبُّه؛ ولهذا تقول: «رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَيْرٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخَيْرٍ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» [التحریم: ١١] لكن هو ظالم ولا يُبالي.

مسألة: هل لا يُستحبُّ للمسلم أن يتزوج المرأة غير مُلتزمة؛ لأنها قد ترجعه

إلى طريقتها؟

فالجواب: هذا صحيح؛ ولهذا قال الرسول عليه الصلوة والسلام: «تُنكحُ المرأةُ لأربعة»

ثُمَّ قَالَ فِي النَّهَايَةِ: «فَاطْفُرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»<sup>(١)</sup>.

الفائدة الخامسة: أن آل فرعون قد غلبوا في مصر، وظهروا عليها، ولم يكن لهم منازع؛ لقوله: ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، ومن ثم تكبر فرعون، ولم يخضع لموسى؛ لأن موسى من بني إسرائيل، وهم قلة أذلة في مصر، والغلبة للأقباط.

الفائدة السادسة: أن الظهور والغلبة قد يكونون سبباً للأشر والبطر، إلا من وفقه الله، فبعض الناس من أعطاه الله تعالى سبب رفعة لا يزيده ذلك إلا تواضعاً للحق وللخلق، وبعض الناس إذا أعطاه الله رفعة صار هذا سبباً في تعاليه على الخلق، واستكباره عن الحق، وهذه محنة يجب على المرء أن يعالج نفسه فيها، لا إذا أعطاه الله مالا يذم ويعلو ويستكبر؛ فإن الذي أعطاه هذا المال قادر على أن يتلفه عليه، لا يقول: إذا أعطاه الله علماً: أنا عالم، وأنا من أنا. ثم يتعالى عن الحق وعلى الخلق، بل يجب على الإنسان كلما آتاه الله علماً أن يزداد تواضعاً.

هذا ما أقوله، وأرجو أن أتصف به وإياكم، فعلى الإنسان أن يعرف هذه المسألة، وأن الله قد يبتلي الإنسان بالشيء الذي يكون داعياً لعلوه واستكباره عن الحق وعلى الخلق؛ فليحذر هذا الأمر.

الفائدة السابعة: قوة إيمان هذا الرجل؛ وأنه لا دافع ولا مانع لما أراد الله؛ لقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، وهذا يدل على كمال يقينه رحمه الله ورضي عنه حيث آمن بأنه إذا جاء بأس الله فإنه لا مرد له.

الفائدة الثامنة: التلطف بالخطاب، حتى يشعر الإنسان المخاطب وكأنه هو

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

أَوَّلَ مَنْ يُرَادُ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَوْ بِهَذَا الْخِطَابِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ ولم يُقَلْ: فَمَنْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَكُمْ، كَلَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَزُّلِ مَعَ هَؤُلَاءِ، وَإِشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ.

وقد يُقال: إن في هذا إشارةً إلى أَنَّ الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ يَعْصِمُ الصَّالِحَ وَالْفَاسِدَ؛ وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ يُرَادُ بِهِ حَقِيقَتُهُ؛ أَي: أَنَّهُ هُوَ سَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ، وَيَكُونُ هَذَا شَاهِدَهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّاسِعَةُ: أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ بَأْسُ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا مَرَدَّ لَهُ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، وَلَا يُسْتَنَى مِنْ هَذَا أَحَدٌ، فَكُلُّ مَنْ أَتَاهُمْ بَأْسُ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَنْجُوا وَلَوْ آمَنُوا.

فهل استثنى من هذا أحد؟

قال الله تعالى في قوم يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ يَعْنِي: إِذَا نَزَلَ بِهَا الْعَذَابُ ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ [يونس: ٩٨]، وَخُصَّ قَوْمُ يُونُسَ لِحِكْمَةِ -لَأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخْصَّ أَحَدًا بِشَيْءٍ إِلَّا بِحِكْمَةٍ، النَّاسَ عِنْدَهُ سَوَاءٌ ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَنَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣] - وَالْحِكْمَةُ: أَنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَرَجَ مِنْ قَوْمِهِ مُغَاضِبًا قَبْلَ أَنْ يُؤذَنَ لَهُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَكْمِلِ الدَّعْوَةَ، فَلَمْ تَقْمِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ الْكَامِلَةُ؛ وَهَذَا نَجَوْا حِينَ آمَنُوا بَعْدَ رُؤْيَا الْعَذَابِ، فَصَارَ إِنْجَاؤُهُمْ لَهُ حِكْمَةٌ، وَهُوَ خُرُوجُ نَبِيِّهِمْ مُغَاضِبًا قَبْلَ أَنْ يُؤذَنَ لَهُ؛ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَكْمِلِ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فَصَارَ فِي هَذَا نَوْعٌ عُدْرَ لَهُمْ؛ فَأَنْجَاهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

فإن قال قائل: يُشكِل على هذا: أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لِقَوْمِهِ: ﴿يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، فكيف قال: إنهم إذا آمنوا يعفّر لهم من ذنوبهم، ويؤخّرهم إلى أجلٍ مُّسَمًّى. ثمّ قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ كان من الأوّل يقول: ﴿وَيُوَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ والثاني يقول: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؟

فالجواب: يعنني: أحذركم من العذاب، فإنه إذا جاء لا يؤخّر، لكن إذا آمنتُم أخركم إلى أجلٍ مُّسَمًّى، وعلى هذا فلا تناقض في الآية.

الفائدة العاشرة: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ إلى آخره، في هذه الجملة والتي بعدها: دليل على تمويه فرعون وغشه وكذبه وضلاله؛ لأنه خدع قومه، بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ قطعًا، وكذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ على أحد الاحتمالين.

الفائدة الحادية عشرة: أن أهل الباطل قد يكون لديهم زُخْرُفٌ من القول غرور؛ لأنّ مثل هذا الزعيم الذي وصلت به الزعامة إلى أن جعلوه ربًّا إذا قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سوف يخدع قومه بلا شك، وعلى هذا فيجب علينا الحذر من خداع بعض الناس، إذا قالوا: نحن نريد كذا، ونريد كذا من الإصلاح؛ فيجب أن ننظر لأفعالهم، هل تشهد أفعالهم لأقوالهم، إن كان الأمر كذلك فهم صدقة بررة، وإن كانوا بالعكس فهم كذبة غششة، يخدعون بزُخْرُفِ القول غرورًا؛ ولهذا كان الإنسان الذي لديه فِرَاسَةٌ، لا يعترُّ بظاهر الأقوال، وإنما يقيس ما يقوله، أو يعتبر ما يقوله بما يفعله، فإذا رأى أن أفعاله تُخالف أقواله علم أنه كاذبٌ غشاش، وإذا رأى أن أفعاله تُصدّق أقواله صار صادقًا وصار مُخْلِصًا لموافقة باطنه لظاهره.



الفائدة الحادية عشرة: أن كل أحد يعرف أن الرُّشد مطلوب، وأن الغيِّ مكروه،  
يؤخذ ذلك من قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ قول فرعونَ  
لقومه في الجملة الثانية، إذن هم يعرفون أن الرشاد أمرٌ مطلوب، كلُّ إنسانٍ - حتَّى  
الكافر - يرى أن الرُّشد أمرٌ مطلوب، والرُّشد الحقيقيُّ هو اتباع الهدى، لكن التَّمويه  
مُشكِل.



### الآيتان (٣٠، ٣١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠-٣١].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ فِي الْأَوَّلِ قَالَ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾، وَهَذَا قَالَ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ ﴾ فَنَقُولُ: كَرَّرَ هَذَا الْوَصْفَ لِهَذَا الرَّجُلِ لَطُولِ الْحَدِيثِ وَالْفَضْلِ، قَالَ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ ﴾ أَمَّا اخْتِلَافُ الْجُمْلَتَيْنِ فَإِنَّ الثَّانِيَةَ تُؤَكِّدُ الْأُولَى، بَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ اصْطَبَحَ بِالْإِيمَانِ، وَحَقَّقَ الْإِيمَانَ.

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿ يَنْقُومِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّلَطُّفِ فِي الْمَقَالِ، ﴿ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ يَعْنِي: الطَّوَائِفِ السَّابِقَةَ، وَكَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ مُلْهِمٌ، عِنْدَهُ عِلْمٌ بِأَحْوَالِ الْأُمَّمِ السَّابِقِينَ، وَسِيَّاتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - الْكَلَامِ عَلَى فَائِدَةِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ.

وقوله: ﴿ يَنْقُومِ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿ يَنْقُومِ ﴾ مَعْرُوفٌ أَنَّ يَاءَ النَّدَاءِ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى نَكْرَةٍ مَقْصُودَةٌ، فَإِنَّهَا تُبْنَى عَلَى الضَّمِّ، كَمَا إِذَا دَخَلَتْ عَلَى مَعْرِفَةٍ، وَهَذَا لَمْ تَكُنْ مَبْنِيَّةً عَلَى الضَّمِّ، بَلْ أَخْرَجَهَا الْكُسْرُ، فَيُقَالُ: إِنْ أَصْلَهَا (يَا قَوْمِي)، وَلَكِنْ

حُذِفَتِ الْيَأُ لِلتَّخْفِيفِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يَقَوْمٍ﴾ تَلَطَّفَ بِدَعْوَتِهِمْ، وَإِلَّا فَهُمْ مُعَادُونَ لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَكِنْ مِنْ بَابِ التَّلَطُّفِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿يَقَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أَكَّدَ الْجُمْلَةَ، وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَقْرَّةً فِي نَفْسِهِ، لَكِنْ الْمُخَاطَبُ بِهَا فَعَلَهُ فِعْلَ الْمُنْكَرِ لَهَا.

قال المفسر رحمه الله: [﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: يوم حِزْبٍ بَعْدَ حِزْبٍ]، ثُمَّ أَبْدَلَ مِنْهُ قَوْلَهُ: ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ﴾: ﴿دَابِّ﴾ بِمَعْنَى: عَادَةٌ، وَذَكَرَ قَوْمَ نُوحٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ مُتَقَدِّمُونَ بَعِيدُوا الْعَهْدِ، قَبْلَ مُوسَى وَقَبْلَ فِرْعَوْنَ؛ فَهُمْ مِنْ أَوَائِلِ الرُّسُلِ. ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾، (عَاد) مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿قَوْمٍ﴾، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿نُوحٍ﴾؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿نُوحٍ﴾ لَكَانَ الْمَعْنَى مِثْلَ قَوْمِ عَادٍ، وَلَا يَسْتَقِيمُ الْكَلَامُ، بَلْ مِثْلُ عَادٍ وَهُمْ قَوْمٌ هُودٌ، وَثَمُودٌ قَوْمٌ صَالِحٌ.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (مِثْلُ) هَذِهِ بَدَلٌ مِنْ (مِثْلُ) الَّتِي قَبْلَهَا، ﴿مِثْلُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿مِثْلُ دَابِّ﴾ وَالْبَدَلُ أَحَدُ التَّوَابِعِ الْأَرْبَعَةِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَتَّبَعُ فِي الْإِعْرَابِ الْأَسْمَاءَ الْأُولَى نَعْتٌ وَتَوْكِيدٌ وَعَطْفٌ وَبَدَلٌ<sup>(١)</sup>

وَعلامَةُ الْبَدَلِ أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يَحِلَّ مَحَلُّ الْمُبْدَلِ مِنْهُ، يَعْنِي: يَصِحُّ أَنْ يُحْذَفَ الْمُبْدَلُ مِنْهُ وَيَحِلَّ مَحَلَّهُ الْبَدَلُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْفَائِدَةُ مِنْ أَنْ نَأْتِيَ بِالْمُبْدَلِ مِنْهُ ثُمَّ بِالْبَدَلِ، لِمَاذَا لَمْ نَأْتِ بِالْبَدَلِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ؟

فالجواب: لا بُدَّ أن يكون هناك فائدة، إمَّا تَفْصِيلٌ بعد إجمال، أو تَبْيِينٌ بعد إبهام، أو ما أشبه ذلك، ولا بُدَّ أن يكون للبدل فائدة.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ... إلى آخره. مثل دأبهم، هو لا يُريد مثل دأبهم، يُريد مثل جزاء دأبهم؛ لأن هناك دأبًا وهناك جزاءً؛ فالجزاء من الله، والدأب من الأمم، أو من الأحزاب، ﴿مِثْلَ دَابِّ﴾ يعني مثل جزاء دأبهم، ويُنَّ الله تعالى دأبهم بقوله: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٢] أو ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ﴾ [الأنفال: ٥٤] هذا هو دأبهم.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هؤلاء كلُّهم دأبهم التَّكْذِيبَ بالرُّسُلِ والكُفْرَ بهم، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح، وهم أول الأمم، وعاد، وسيأتي أن هُودًا أشار إلى يوسف بن يعقوب بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [مثل بدل من مثل قبله أي: مثل جزاء عادة من كفر]. فأفاد المفسر رَحِمَهُ اللهُ أن في الكلام تقديرًا أي: أن في الكلام شيئًا محذوفًا، وهو جزاء، أي: مثل جزاء دأبهم؛ لأن هذا هو الذي يُخاف منه أن ينال هؤلاء القوم عقوبة، كما نال هؤلاء.

فإذا قال قائل: كيف يُطلق العمل على الجزاء؟

قلنا: لأنه سببه، وهذا في القرآن كثير أن الله تعالى يُطلق العمل على الجزاء مثل: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، المعنى: ذوقوا جزاءه، لكن يُعبر به -أي: بالعمل- عن الجزاء، لأن الجزاء من جنس العمل، وحتى يحذر الإنسان من عمله، كما يحذر من عقوبة عمله.

يقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [مِثْلٌ بَدَلَ مِنْ مِثْلٍ قَبْلَهُ؛ أَي: مِثْلٌ جِزَاءَ عَادَةٍ مِنْ كَفَرٍ قَبْلَكُمْ مِنْ تَعْدِيهِمْ فِي الدُّنْيَا]، إِذَنْ مِثْلٌ دَابٌّ مَا هِيَ مِثْلُ عَادَتِهِمْ، إِلَّا إِذَا أُرِيدَ إِضَافَتُهَا إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ؛ أَي: مِثْلُ الْعَادَةِ الَّتِي أَوْقَعَهَا اللَّهُ بِهِمْ، لَكِنْ كَانَ الْمَفْسَّرُ جَعَلَهَا مُضَافَةً إِلَى الْفَاعِلِ، وَأَتَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ مِثْلِ جِزَاءِ عَادَةٍ؛ لِأَنَّ الْجِزَاءَ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَادَةَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ مِنَ الْأَحْزَابِ، الْعَادَةَ عَادَةِ الْأَحْزَابِ، وَالْعُقُوبَةَ عُقُوبَةَ اللَّهِ.

فِيمَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْكَلَامَ عَلَى تَقْدِيرِ: مِثْلُ عُقُوبَةِ عَادَةِ قَوْمِ نُوحٍ.. إِلَى آخِرِهِ، أَوْ نَقُولَ: مِثْلُ دَابٌّ قَوْمِ نُوحٍ؛ أَي: مِثْلُ الْعَادَةِ الَّتِي فَعَلَهَا اللَّهُ بِهِمْ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَخَافُ عَلَيْهِمْ مِثْلُ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي هِيَ عُقُوبَةُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (ما) نافية وهي حجازية؛ لأن هذا القرآن باللغة الحجازية، انظروا إلى قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ ولم يقل: ما هذا بشر؛ فنحمل كل ما كان على شاكلتها عليها، والصحيح أن ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ لا تتبين أنها حجازية أو تميمية؛ لأن الخبر جملة ليس مفردًا، يظهر فيه النصب؛ لكن يُحْمَلُ ما لا يظهر فيه الإعراب على ما ظهر فيه الإعراب، وهو قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾.

ثم اعلم أن القرآن إنما كتبت بلغة قريش، كما قال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للذين كتبوا المصاحف قال: إن اختلقتُم في شيء فاجعلوه على حرف قريش<sup>(١)</sup>. يعني: على لغتها.

فقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (ما) نافية، تعمل عمل ليس لتتام الشروط، ولفظ الجلالة اسمها، ويريد الجملة جملة هي خبرها، ولو كانت اسمًا لكان التقدير: وما الله مُريدًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش، رقم (٣٥٠٦)، من طريق أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ الظُّلْمُ يَتَنَاوَلُ شَيْئَيْنِ: إمَّا الزِّيَادَةَ فِي الْآثَامِ، وَإِمَّا النِّقْصَ فِي الْحَسَنَاتِ. وَكُلُّهُ مُتَمَتِّعٌ بِالنُّسْبَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرِيدَهُ؛ لِكَمَالِ عَدْلِهِ.

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: شِدَّةُ خَوْفِ هَذَا الرَّجُلِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ إِيْمَانِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخَافُ أَحَدًا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِهِ.

الفائدة الثانية: أَنَّ عِنْدَ هَذَا الرَّجُلِ عِلْمًا مِنْ نَبَأِ الْأَوَّلِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ ﴿ إِلَى آخِرِهِ.

الفائدة الثالثة: بَيَانُ نُصْحِ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ؛ حَيْثُ حَذَرَ قَوْمَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى التَّلَطُّفِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَعْمِلُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَاطِفَتَهُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ اسْتَعْمَلَ عَاطِفَتَهُ أَخَذَتْهُ الْغَيْرَةُ، فَفَعَلَ مَا لَا يُحْمَدُ عُقْبَاهُ، وَإِنَّمَا يُحْكَمُ الْعَقْلُ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْعَوَاقِبِ وَالتَّنَائِجِ، وَلَا ضَيْرَ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَهُ ذُلٌّ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، إِذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ طَيِّبَةً، وَلَا أَظُنُّهُ يَخْفَى عَلَيْكُمْ مَا حَصَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، مِنَ الشُّرُوطِ الَّتِي ظَاهَرَهَا الْإِهَانَةُ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ نَتِيجَتَهَا طَيِّبَةً، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّاهَا فَتْحًا: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ

الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ [الحديد: ١٠].

فَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ عِنْدَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُحْكَمَ الْعَاطِفَةُ، فَتَزِلَّ قَدَمُهُ، وَلَكِنْ يُحْكَمُ الْعَقْلُ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْعَوَاقِبِ وَالتَّنَائِجِ.

الفائدة الرابعة: بَيَانُ أَنَّ ذِكْرَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ يَتَشِيرُ فِي الْأُمَمِ اللاحقة؛ إمَّا بِوَاسِطَةِ

الكتب المنزلة، وإما بواسطة التاريخ المنقول. ويدل ذلك قوله: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾؛ لأنه لا يمكن أن يخوفهم بأمر لا يعرفونه، ولو كان الأمر كذلك، لقالوا: ما هذه الأيام؟ أو ما هذا الجزاء؟.

الفائدة الخامسة: أنه ينبغي للإنسان أن يكون عنده علمٌ بأحوال الأمم السابقة، من أجل أن يكون معتبراً بمن مضى فيمن بقي، وعلى هذا فعلم التاريخ علم مهم، ولكن يجب أن نعلم أن التاريخ أصابه شيء من الوضع - أي: من التحريف والتغيير، والكذب، والزيادة والتقص - فعلي الإنسان أن يتحاط في هذا، حتى لا ينقل أو لا يروي إلا الصحيح.

الفائدة السادسة: أن قوم نوح وعادًا وثمود كانوا أول الأحزاب؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

الفائدة السابعة: تحذير اللاحق أن يصيبه ما أصاب السابق؛ لقوله: ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) مثل داب قوم نوح.

ووجه ذلك: أن الله سبحانه وتعالى سنته في خلقه واحدة، هو لا يعدب هؤلاء لأنه يكرههم شخصياً، يعدب هؤلاء لأنه يكره عملهم، فإذا وجد عملهم في آخرين فالكرهه حاصلة، واذكر قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وحذر شعيب عليه السلام قومه أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

فالحاصل: أن الأمم لا بد أن يتعظ اللاحق بالسابق، بناءً على أن سنة الله واحدة. الفائدة الثامنة: انتفاء إرادة الله الظلم لعباده، وما الله يريد ظُلماً للعباد، ومعلوم

أَمَّا إِذَا انْتَفَتِ الْإِرَادَةُ انْتَفَى الْفِعْلُ فَنَفِيُ إِرَادَةِ الظُّلْمِ نَفِيٌ لِّلظُّلْمِ مِنْ بَابِ أَوْلَى، كَمَا أَنَّهُ جَاءَتْ آيَاتٌ صَرِيحَةٌ فِي نَفْيِ الظُّلْمِ عَنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَقَالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦]، وَقَالَ: ﴿مَا يُدُلُّ الْقَوْلُ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إِثْبَاتُ انْتِصَافِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنَّفْيِ؛ أَي: أَنَّ اللَّهَ يَنْتَصِفُ بِالصِّفَاتِ الْمُنْفِيَّةِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ، لِأَنَّ النَّفْيَ سَلْبٌ.

وَلَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلْ فِي النَّفْيِ ثَنَاءٌ وَمَدْحٌ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، فَصِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى كُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَالنَّفْيُ عَدَمٌ فَهَلْ يَكُونُ فِيهِ مَدْحٌ وَثَنَاءٌ؟

الْجَوَابُ: نَقُولُ: أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ، وَلَا عَلَى الْمَدْحِ؛ أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ فَيَتَعَيَّنُ أَنَّ يَكُونُ دَائِلًا عَلَى الْكَمَالِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ فَكُلُّ نَفْيٍ نَفَاهُ اللَّهُ عَنِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِكَمَالٍ؛ دَلِيلُنَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وَإِلَّا فَالنَّفْيُ الْمُجَرَّدُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ إِطْلَاقًا، بَلْ أَحْيَانًا يَدُلُّ عَلَى النِّقْصِ، فَقَوْلُ الشَّاعِرِ مَثَلًا:

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةِ  
وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ<sup>(١)</sup>

وَصَفَّهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ بِالْعَهْدِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَظْلِمُونَ، وَهَذَا فِي ظَاهِرِهِ مَدْحٌ؛ لَكِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ يَذْمُهُمْ بِأَنَّهُمْ نَاسٌ جُبْنَاءُ، وَضَعْفَاءُ، لَا يَغْدِرُونَ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) البيت ينسب للنجاشي الحارثي قيس بن عمرو، انظر: الحماسة الصغرى لأبي تمام (ص: ٢١٥-٢١٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٣١٩)، وخزانة الأدب للبغدادى (١/٢٣٢).



جُئِبْنَهُمْ، وَلَا يَظْلِمُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَضَعْفِهِمْ، وكذلك قولُ الشاعِرِ الآخِرِ<sup>(١)</sup>:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ      لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا  
يَعْنِي: لَيْسُوا هُمْ لِلشَّرِّ إِطْلَاقًا وَلَوْ هَانَ.

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً      وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ الشُّوءِ إِحْسَانًا  
ثُمَّ قَالَ:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا      شَتُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا

هنا يَدُمُّهُمْ مع أَنهم إِذَا ظَلَمُوا غَفَرُوا لَمَن ظَلَمَهُمْ، وَإِذَا أُسِيءَ إِلَيْهِمْ أَحْسَنُوا لَمَن  
أَسَاءَ إِلَيْهِمْ، وَهَذِهِ صِفَةٌ قَدْ تَبَدُّو مَطْلُوبَةٌ مَحْمُودَةٌ، لَكِن إِذَا كَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ  
ضُعَفَاءُ صَارَتْ مَذْمُومَةٌ.

وَقَدْ يَكُونُ النَّفْيُ لِعَدَمِ صِلَاحِيَةِ هَذَا الْوَصْفِ لِمَا نَفَيْ عَنْهُ، قَدْ يَكُونُ نَفْيُ الشَّيْءِ  
عَنِ الشَّيْءِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ وَغَيْرُ صَالِحٍ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِهِ، كَمَا إِذَا قُلْتَ: الْجِدَارُ لَا يَظْلِمُ.  
فَهَذَا لَيْسَ مَدْحًا لِلجِدَارِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ وَلَا صَالِحٍ لِلظُّلْمِ أَوْ عَدَمِ الظُّلْمِ، فَتَبَيَّنَ  
بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْفِي عَنِ نَفْسِهِ شَيْئًا إِلَّا لِكَمَالِ ضِدِّ هَذَا الْمَنْفِيِّ، لِأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ  
لَهُ، أَوْ غَيْرُ صَالِحٍ فِي حَقِّهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَهَذَا الظُّلْمُ الْمَنْفِيُّ عَنِ اللَّهِ لِكَمَالِ الْعَدْلِ جَائِزٌ؛ لَكِن كُنْهُ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى  
لِكَمَالِهِ؛ خِلَافًا لِلجَهْمِيَّةِ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الظُّلْمَ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ لِذَاتِهِ - لِذَاتِ  
الظُّلْمِ-؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَحِيلًا لِذَاتِهِ، لَمْ يَكُنْ مَدْحًا، الْمُسْتَحِيلُ لِذَاتِهِ لَا يَمْدَحُ مِنْ

(١) ذَكَرَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ (ص: ١١) عَنِ رَجُلٍ مِنْ بَلْعَبَرٍ يُقَالُ لَهُ: قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ.

استحال عليه على ذلك؛ لأنه مُستحيل، وهم يقولون: إنه مُستحيل لذاته؛ لأنَّ الخلق كله مُلكه ويفعل في مُلكه ما يشاء، ومن تصرّف في مُلكه؛ فإنه لا يُقال: إنه ظالمٌ ولو قدّم شيئاً على شيء، أو نقص شيئاً عن حقه، ولكننا نقول: إن الله تعالى صرح بأنه حرّم الظلم على نفسه، وهذا يدلُّ على أنَّ الظلم في حقه مُمكن عقلاً، لكنه حرّمه على نفسه لكَمالِ عدله.

والمُخالصة الآن: أنه لا يُمكن أن يُوجد في صفات الله تعالى نفْيٌ مُحضٌ أبداً؛ الدليل: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ والنَّفْيُ المُحض ليس من المثل الأعلى في شيء، ولكن إذا نفَى الله شيئاً عن نفسه، فالمراد إثبات كَمالِ ضده، يعنِي: أنه لُبتوت كَمالِ ضده انتفى عنه هذا الشيء؛ فُضدُ الظلم العدل، إذن نُثبت من نفْيِ الظلم عن الله كَمالِ عدله، وأنه جَلَّ وَعَلَا لعدله لا يظلم، لا لعجزه، هو قادر على أن يظلم، لكنه لا يظلم لكَمالِ عدله.

ولا يُوجد نفْيٌ في صفات الله إلا لكَمالِ ضده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ لكَمالِ قُوته؛ لا لأن اللُغوب لا يلحقه، لكن لكَمالِ قُوته لا يلحقه اللُغوب، وليس المعنى أنه ليس ممَّا يُمكن أن يلحقه اللُغوب، لا لكِنِّه مُستحيل لكَمالِ قُوته.

قال أهل العلم رَحِمَهُ اللهُ: وإِنَّا قُلْنَا بِذَلِكَ؛ لأن النَّفْيَ المُحض عدمٌ مُحضٌ، النَّفْيُ المُحض: نفْيُ الشيء معناه: أنه غيرٌ موجود، والعدم المُحض ليس بشيء، فضلاً عن أن يكون مدحاً؛ لأنه عدمُ العدم لا يُمدح عليه، وإمَّا أن يكون النَّفْيُ مُتضمناً لإثبات، هذا الإثبات قد يكون عَجْزاً.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»<sup>(١)</sup> لم يقل: يا عبادي، إني لا أستطيع أن أظلم. قال: «إني حرمت الظلم على نفسي» وهذا يدل على أنه قادر على أن يظلم، لكنه لا يظلم لكمال عدله، ولو كان غير قادر أن يظلم لم يكن انتفاء الظلم عنه مدحًا؛ لأنه عاجز، لكنه قادر، ولكنه لا يظلم، وأقول هذا؛ لأن الجهمية وغيرهم قالوا: إن الله لا يستطيع أن يظلم أبدًا، وإلى هذا أشار ابن القيم في النونية حين قال<sup>(٢)</sup>:

وَالظُّلْمُ عِنْدَهُمُ الْمَحَالُ لِذَاتِهِ  
.....

يعني: أنه مستحيل لذاته، لا لكمال الله لكن لذاته، لا يمكن أن يظلم، قال: لأن الظلم أن يتصرف الإنسان في ملك غيره، والله عز وجل يتصرف في ملكه فإذا ظلم لم يكن ظالمًا؛ لأن هذا ملكه، فيقال: تبا لعقولكم الفاسدة؛ إذا وعد المؤمن بشيء، ولكن على عمل معين، هو عمل هذا العمل ولم يعطه إياه، يكون ظلمًا ولا شك في هذا، وأنتم تقولون: يجوز أن يثيب العاصي الذي يعصي الله كل عمره، ويعاقب المطيع الذي يعمل بطاعة الله كل عمره، وأن الأمرين على حد سواء؛ لأنه لا يظلم حيث إنه يتصرف في ملكه، فنقول: هذا لا شك أنه سفه في العقل، وضلال في الدين والله عز وجل وعد العامل عملاً صالحًا بالثواب، والمخالف بالعقاب. كيف يجوز أن يخلف الله وعده.

المهم: هذا قول باطل، ولا شك في بطلانه، ومجرد تصوّره يعرف الإنسان أنه

باطل.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) النونية (ص: ٨).

فقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ نقول: نفي إرادة الظُّلم يستلزم كمال عدله، وهو أيضًا يستلزم نفي الظُّلم؛ لأنَّ مَنْ لا يريد الظُّلم لا يُمكن أن يفعل الظُّلم.



## الآيتان (٣٢، ٣٣)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣].

•••••

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ رضي الله عن هذا الرجل، خووفهم أولاً بالعقوبة الدنيوية؛ حين قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ثم خووفهم من العقوبة الأخروية، فقال: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بحذف الياء وإثباتها] «التَّنَادِي» هذا إثباتها، (التناد) هذا حذفها، أما إثباتها فعلى الأصل، وأما حذفها فللتنخيف، والياء دائماً تُحذف للتنخيف قِراءةً، مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧] أصلها: تَسْتَعْجِلُونِي، وليست التون هنا نون الرفع؛ لأنها مكسورة فهي نون الوقاية، وحذفت الياء تخفيفاً.

وقوله: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ كلمة ﴿يَوْمَ﴾ هنا هل هي ظَرْفٌ منصوبة على الظرفية، والتقدير: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ يَوْمَ التَّنَادِ، أو أَنَّ الْفِعْلَ مُسَلَّطٌ عَلَيْهَا فَهِيَ مَفْعُولٌ بِهِ؟ الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَأُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

فجعل الخوف مُسَلَّطًا عَلَى ﴿يَوْمَ﴾؛ لأن يوم تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا فِيهِ، وَأَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ، وَأَنْ تَكُونَ مُبْتَدَأً، وَأَنْ تَكُونَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ تَتَصَرَّفُ.

قال المفسر رحمه الله: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ بحذف الياء وإثباتها، أي: يوم القيامة، هذا هو المراد به، وأنا أشرت في كلامي على قواعد في التفسير، أن هناك تفسيراً لفظياً، والثاني: معنوياً، اللفظي يُفسر اللفظ، والمعنوي يُفسر المراد<sup>(١)</sup>؛ فهنا ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ تفسيرها اللفظي: أي: يوم يتنادى الناس بعضهم مع بعض، والمراد بها: يوم القيامة؛ فإذا قلنا: يوم التناد؛ أي: يوم القيامة، فهذا ليس تفسيراً لفظياً، بل هو تفسير معنوي للمراد بالآية.

يقول: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ [أي: يوم القيامة؛ يكثر فيه نداء أصحاب الجنة أصحاب النار وبالعكس، والنداء بالسعادة لأهلها والشقاوة لأهلها، وغير ذلك]. التنادي يوم القيامة يكثر، فينادي الله الناس، والناس يُنادي بعضهم بعضاً، وأهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار، والتنادي الحاصل يوم القيامة ليس كالتنادي الحاصل في الدنيا؛ لأنه بأصوات مُزعجة، وحزينة إذا كان أهل النار ينادون أهل الجنة، وما أشبه ذلك.

فهذا اليومُ ذَكَرَ هذا المؤمنُ قومه به؛ ليحذروا من عذاب يوم القيامة، ثم بين ذلك بقوله رحمه الله: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿مِنْ عَاصِرٍ﴾ مانع، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

وصف هذا اليوم بأوصاف:

أولاً: أنه يوم التناد، يُنادي الناس بعضهم بعضاً، والله تعالى يُناديهم أيضاً، ويتنادون بنداءات قد يكون بعضها مجهولاً لنا الآن.

(١) انظر: (ص: ٢٠-٢١).

الوصف الثاني: ﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ يوم هذه بدل من قوله: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ أو عطف بيان، ﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ مُدْبِرِينَ هذه حال، حال مؤكدة لعامِلها؛ لأن التَّوَيُّ هو الإدبار، وعلى هذا فهي حال مؤكدة لعامِلها، يعني: تُؤْلَوْنَ يوم القيامة حال كونكم مُدْبِرِينَ، يُؤْلَوْنَ إلى النار - والعِيَاذُ بالله - قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ۝٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿[مريم: ٨٥-٨٦]، فَهُمْ - والعِيَاذُ بالله - يُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِرٍ﴾ الجُمْلَةُ هذه جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ مَبْدُوءَةٌ بـ(ما) النافية، والمبتدأ فيها قوله: ﴿مِّنْ عَاصِرٍ﴾ لكن دَخَلَتْ عَلَيْهِ (مِن) الزائدة للتوكيد، وتقدير الكلام: لولا مِن ما لَكُمْ من الله عَاصِمٍ. وهنا نَسَأَلُ: هل هي تَمِيمِيَّةٌ أو حِجَازِيَّةٌ؟ والجوابُ: تَتَّفَقُ فِيهَا اللَّغَتَانِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَكُونُ حِجَازِيَّةً إِلَّا بِالترتيب، كما قال ابنُ مالِكٍ:

مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبِ زُكْنٍ<sup>(١)</sup> .....

وهنا لا ترتيب؛ لأن الخبر مُقَدَّمٌ، وعلى هذا فنقول: (ما) هنا اتَّفَقَتْ فِيهَا اللَّغَتَانِ، التَّمِيمِيَّةُ وَالْحِجَازِيَّةُ؛ ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِرٍ﴾ [غافر: ٢٣]؛ أي: من مانع.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ هذه الجُمْلَةُ؛ قد تُشَكِّلُ كَيْفَ خَتَمَ بِهَا الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟ لِأَنَّ مُقْتَضَى الْحَالِ أَنْ يَقُولَ: وَأَسْأَلُ اللَّهَ لَكُمْ الْهُدَايَةَ. فيقال: هل قوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ من كلام الرجل أو من كلام الله؟ لا بُدَّ أَنْ نَبْحَثَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، هل هي من كلام الله عَزَّوَجَلَّ لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَعَ قُوَّةِ الدَّعْوَةِ

(١) الألفية (ص: ٢٠).

لم يَسْتَفِيدُوا، أو هي من كَلامِ الْمُؤْمِنِ؟ إن كانت من كَلامِ الله فلا إشكال، إِلَّا أَنَّهُمَا حَالَتَ بَيْنَ الْكَلَامِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ، وَهَذَا لَا يُضَرُّ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْاِعْتِرَاضِيَةَ تَأْتِي كَثِيرًا، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كَلَامِ الرَّجُلِ فَهِنَا مَحَلُّ الْإِشْكَالِ.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (مَنْ) هذه شَرْطِيَّة، وَفِعْلُ الشَّرْطِ يُضِلِلُ، وَحُرْكَ بِالْكَسْرِ؛ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ جُمْلَةٌ: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وَقُرْنٌ بِالْفَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِعْلًا لِلشَّرْطِ، وَكُلُّ جَوَابٍ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِعْلًا لِلشَّرْطِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَقْتَرِنَ بِالْفَاءِ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

وَاقْرَأْ بِفَا حَتَّى جَوَابًا لَوْ جُعِلَ شَرْطًا لِإِنْ أَوْ غَيْرِهَا لَمْ يَنْجَعِلْ<sup>(١)</sup>

وَذَكَرُوا لَهُ سِتَّةَ ضَوَابِطَ مَجْمُوعَةً فِي قَوْلِهِ:

اسْمِيَّةٌ طَلِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالْتَّنْفِيسِ<sup>(٢)</sup>

فهذه الجُمْلَةُ السُّتُّ إِذَا وَقَعَتْ جَوَابًا لِلشَّرْطِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَقْتَرِنَ بِالْفَاءِ، وَهِيَ الْجُمْلَةُ هِيَ مُصَدَّرَةٌ بِ(مَا)، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: إِنَّهَا جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ، وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُوجَدَ سَبَبَانِ لِحُكْمٍ وَاحِدٍ.

وقوله: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ أَصْلُهَا: مِنْ هَادِيٍّ؛ بِالْيَاءِ، فَحُذِفَتِ الْيَاءُ لِلتَّخْفِيفِ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: إِنْ مَنْ يُضِلِلِ اللهُ أَي: مَنْ كَتَبَ اللهُ إِضْلَالَهُ فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ يَهْدِيهِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَهْدِي وَيُضِلُّ هُوَ اللهُ، بِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَلَكِنْ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَهْدِي أَحَدًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، وَلَا يُضِلُّ أَحَدًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، فَمَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْهَدَايَةِ هَدَاهُ، وَمَنْ كَانَ أَهْلًا

(١) الألفية (ص: ٥٨).

(٢) غير منسوب، وانظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).



للإضلال أَضَلَّهُ - وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ - وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَحْرِمُ فَضْلَهُ مَنْ أَرَادَهُ، إِنَّمَا يَحْرِمُ فَضْلَهُ مَنْ لَمْ يُرِدْهُ، وَدَلِيلٌ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فَجَعَلَ إِزَاغَةَ اللَّهِ لِقُلُوبِهِمْ مُتَرْتَبًا عَلَى زَيْغِهِمْ، أَمَّا مَنْ أَرَادَ الْهُدَى بِحِدِّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُسِّرُهُ لَهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيْرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧].

إِذَنْ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مُقَيَّدٌ بِمَنْ فَعَلَ مَا يَقْتَضِي إِضْلَالَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ.

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أَنَّ هَذَا الْمُحَدِّثَ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

الفائدة الثانية: أَنَّ مَا يَحْدُثُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ كَانَ مَعْلُومًا لِلنَّاسِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ الْقُرْآنُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، أَي: لَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ الْعِبَادُ مَا يَحْدُثُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِيَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ.

الفائدة الثالثة: أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ أَحْوَالٌ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وَهَذَا يُذَكِّرُ أَنَّهُ يَوْمٌ تَنَادٍ، وَالنَّدَاءُ هُوَ الصَّوْتُ الرَّفِيعُ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ هُوَ أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ أَحْوَالٌ؛ لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ النَّاسِ.

الفائدة الرابعة: نُصِّحَ هَذَا الرَّجُلَ لِقَوْمِهِ؛ حَيْثُ يُنَادِيهِمْ بِهَذَا النَّدَاءِ اللَّطِيفِ ﴿وَيَنْقُورِ﴾ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مُكَمَّلًا لِمَا ذَكَرَهُ هَذَا الْمُحَدِّثُ: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ هَذِهِ مَعْرُوفٌ أَنَّ إِعْرَابَهَا بَدَلٌ مِمَّا سَبَقَ، فَفِيهَا إِثْبَاتٌ أَنَّ آلَ

فِرْعَوْنَ يُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا، وَقَد بَيَّنَّ اللَّهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا، وَأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فَهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - سَيُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مُعَذِّبِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَعِصِمُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِ نُوحٍ لِابْنِهِ؛ لَمَّا قَالَ: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعِصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿[هود: ٤٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ الْهِدَايَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَهَا إِلَّا مِنْ اللَّهِ، الَّذِي بِيَدِهِ الْإِضْلَالُ وَالْهِدَايَةُ؛ فَلَا تَسْأَلُ الْهِدَايَةَ مِنْ غَيْرِهِ، بَلْ اسْأَلْهَا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَيُسْتَفَادُ مِنْهَا: تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.



(الآية ٣٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤].

•••••

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ هذا من كلام الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الْمُحْذَرِّ، قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الجُمْلَةُ هنا مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ؛ بِاللَّامِ، وَ(قَدْ)، وَالْقَسَمِ، وَكَلَّمَا جَاءَتْكَ صِيغَةُ كَهَذِهِ فَإِنَّهَا مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ، اللَّامُ وَ(قَدْ) وَالْقَسَمِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ: وَاللَّهُ لَقَدْ جَاءَكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُوسُفُ﴾ الْمُرَادُ بِهِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ.

فإن قال الإنسان: كيف يُخَاطَبُهُمْ فيقول: ﴿جَاءَكُمْ﴾ ويوسفُ بنُ يعقوبَ عليها الصلاة والسلام قبلهم بأزمان كثيرة؟

فيقال: إن ما حصل للأسلاف فهو للأخلاف؛ يعني: أن ما جاء أسلافهم فهو كالذي جاءهم.

ودليل ذلك أن الله يُخَاطَبُ بني إسرائيل في عهد النَّبِيِّ ﷺ بما حصل لأسلافهم في عهد موسى، وبينهم قرون كثيرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّلْبَةَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴿٥٧﴾ [البقرة: ٥٥-٥٧]، ومعلوم أن هذا كَلَّه لم يحصل لليهود في عهد النبي ﷺ، لكنه حصل لأسلافهم؛ فما كان من الأمة من أولها، فإنه ثابت للأمة في آخرها.

إِذَنْ: لا إشكال في هذه الآية، ما دُمنا نقول: إنه قد جاء أسلافهم، وأن ما يحصل من أسلافهم فيما سبق، يكون منسوباً إلى الجميع، إذا لم يخرجوا عن هذا المنهاج. قال المفسر رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٥٧﴾ أَي: من قبل موسى، وهو يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ...﴾ إلى آخره.

قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لماذا جرّها بالضمّ؟ والمعروف أنّ (مِنْ) حرف جرّ إذا دخلت على كلمة جرّتها -كسرتها- تقول: مِنْ زَيْدٍ. وهنا قال: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ حَذَفَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ وَنُويَ مَعْنَاهُ؛ لأنه إمّا أن يُوجَدَ الْمُضَافُ أَوْ يُحَذَفُ وَيُنَوَى مَعْنَاهُ، أَوْ يُحَذَفُ وَيُنَوَى لَفْظُهُ، أَوْ يُحَذَفُ وَلَا يُنَوَى لَا لَفْظُهُ وَلَا مَعْنَاهُ؛ فالأقسام أربعة: تُبْنَى فِي وَاحِدٍ مِنْهَا، وَالباقِي مُعْرَبَةٌ تُبْنَى إِذَا حُذِفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ وَنُويَ مَعْنَاهُ.

فإن قال قائل: ما هو الدليل؟

قلنا: الدليل أنها تكون مضمومة لأنها تُبْنَى عَلَى الضَّمِّ؛ فإذا كَلَّمْنَا مَنْ هُوَ عَالِمٌ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَبَنَاهَا عَلَى الضَّمِّ، عَرَفْنَا أَنَّهُ حَذَفَ الْمُضَافَ وَنُويَ مَعْنَاهُ.

قال المفسر رحمه الله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فِي قَوْلِ عُمَرَ إِلَى زَمَنِ مُوسَى، أَوْ يُوسُفَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ فِي قَوْلِ [حكى المفسر رحمه الله قولين في المراد بيوسف].

فقيل: إنه يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ، وَأَنَّهُ عُمَرُ إِلَى زَمَنِ مُوسَى، وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ لَا إِشْكَالَ. يَقُولُ: [عُمَرُ إِلَى زَمَنِ مُوسَى]، هَذَا قَوْلٌ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلْ هُوَ بَاطِلٌ؛

لأنه لو كان الأمر كذلك لكان يأتي موسى ويتصل به؛ لأن كليهما رسول.

القول الثاني: إنه يوسفُ وجدُّه يوسفُ بنُ يعقوبَ، يوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ، وهذا أيضًا لا دليل له، والصوابُ: أنَّ المراد به يوسفُ بنُ يعقوبَ، وأنه لم يُعمَّر إلى زمن موسى، وأنه مات في زمنه، لكنه جاء أسلافه؛ لأن يوسفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخَذَهُ المَارَّةَ الذين مَرُّوا بالبئر الذي أُلْقِيَ فيها، وذهبوا به إلى مصرَ، والقِصَّةُ معروفة في سورة كاملة.

وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ البيِّنات من بان يبين إذا ظهر، ومعلوم أنها وصف لموصوف محذوف؛ وذلك لأنه يجوز أن يُحذف النعت وأن يُحذف المنعوت إذا دلَّ عليه دليل؛ والموصوف المحذوف هنا تقديره الآيات، كما يُعبَّر به في القرآن كثيرًا بالآيات البيِّنات، ب: ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩]، وما أشبه ذلك.

وأما قوله رَحِمَهُ اللهُ: [بالمُعْجِزَاتِ] فإن هذا تعبير متأخر؛ لم يُعرف في عهد السلف، وهو تعبير ناقص؛ لأن كلمة (مُعْجِزَة) تشمل ما يفعله السحرة والمشعوذون من الأمور الخارقة للعادة، فإنها تُعْجِز مَنْ ليس منهم، ولكنه إذا قيل: آية بمعنى علامة، صارت أيبن وأوضح وأوفق لموافقتهما للتعبير القرآني، على أنه لا يمكن أن تكون آية لرسول إلا والناس يعجزون عنها؛ لأنهم لو كانوا يستطيعون أن يأتوا بمثلها لم تكن آية للنبي، كل واحد يأتي بها.

إذَنْ: تقدير الكلام بالآيات البيِّنات، ولكن حُذِفَ الموصوف لدلالة السِّياق عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِرٍ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] يعني: أن اعْمَلْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ.

فإن قال قائل: هل يصحُّ أن يُطلقَ لفظُ الدلائلِ على مُعْجِزاتِ الأنبياءِ أو آياتِ الأنبياءِ؟

فالجوابُ: أي نعم؛ لأن الدليل ما يهدي إلى غيره؛ ولهذا يُسمَّى الرَّجُلُ الذي يَدُلُّكَ الطريقَ يُسمَّى هادِيًا؛ فالآياتُ لا شكَّ أنها دليلٌ وبَيِّناتٌ.

ونحن نقول: الآيةُ دليلٌ، واللُّغةُ مُترادِفةٌ، فما دام اللَّفْظُ مُرادِفًا لِلآخَرِ ولا يَتَضَمَّنُ مَحْظُورًا فلا مانع أن نُعبِّرَ به.

قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ يعني: من وقتِ يُوسُفَ، إلى وقتِ مُوسَى، وآلِ فِرْعَوْنَ، وإن شئتُ فعبِّرَ بالقِبْطِ.

قوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ أي: في شكِّ مِمَّا جاء به يُوسُفُ؛ فلم يُؤْمِنُوا به إلايمانَ الواجبِ الخالي من الشكِّ.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [من غير بُرْهانٍ] ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ يعني: أنهم كانوا في شكِّ مِمَّا جاء به يُوسُفُ، ولم يُصدِّقوه، ولَمَّا هَلَكَ قالت لهم نفوسُهم: الآن استرحتم، فلن يبعث الله من بعده رسولاً، كُفِيتُم هَلْكَ مَنْ أُرْسِلَ، فكذبتموه فاطمئننوا لن يبعث الله من بعده رسولاً، قالوا ذلك بناءً على أُمْنِيَةِ كاذِبَةٍ؛ لأنهم قالوا: هذا الرسولُ الذي جاءنا وتوعدنا إن خالفناه فإنه مات -هَلَكَ- فلن يأتي من بعده رسولٌ، وحينئذٍ نكون قد استرحنا من الرُّسلِ ومشاكلهم -على زعمهم!-

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾؛ أي: فلن نزالوا كافرين بيوسُفَ وغيره]؛ لأنهم إذا قرروا في أنفسهم أن الله لن يبعث رسولاً، فسوف

يُكذِّبُونَ كُلَّ مَنْ جَاءَ مِنَ الرَّسُلِ بَعْدَ يُوسُفَ، بِنَاءٍ عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي أَصْلَوْهَا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إضلالكم ﴿يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشْرِكٌ ﴿مُرْتَابٌ﴾ شاكٌّ فيما شَهِدَتْ بِهِ الْبَيِّنَاتِ]، ﴿كَذَلِكَ﴾ قال المفسر: [أي: مثل إضلالكم ﴿يُضِلُّ اللهُ﴾]، وعلى هذا فتكون إعرابها: الكاف اسمٌ بِمَعْنَى (مثل)، وهي مفعول مطلقٌ مضاف إلى اسم الإشارة، وعامله قوله: ﴿يُضِلُّ﴾، عامله متأخر عنه، وهذا التعبير القرآنيُّ يكثر في كلام الله عزَّ وجلَّ، وإعرابه كما سمعتم: أن تقول الكاف اسمٌ بِمَعْنَى (مثل) مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَةِ الْمُطْلَقَةِ مضافَةٌ إِلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ، فَإِنْ قِيلَ: وهل الكاف تأتي اسمًا؟ قلنا: نعم، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَاسِعَةٌ، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ أَنَّ الْكَافَ حَرْفٌ، لَكِنْ تَكُونُ اسْمًا.

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ<sup>(١)</sup>:

شَبَّهُ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ  
وَاسْتُعْمِلَ اسْمًا وَكَذًا عَنْ وَعَلَى  
يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدٌ  
.....

استعمل يعني: الكاف اسمًا؛ أي: في اللغة العربية.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلكم يُضِلُّ اللهُ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ لا يُضِلُّ اللهُ تَعَالَى رَجُلًا مُؤْمِنًا مُقْتَصِدًا مُوقِنًا أَبَدًا، يُضِلُّ اللهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

(١) الألفية (ص: ٣٥).

يقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿مُسْرِفٌ﴾ مُشْرِكٌ] ولا شكَّ أَنَّ الشُّرْكَ مِنَ الإسْرَافِ؛ لأنَّ الإسْرَافَ مَعْنَاهُ: تَجَاوُزُ الحُدِّ، وَمَنْ جَعَلَ اللهُ شَرِيكًا فَقَدْ تَجَاوَزَ الحُدَّ بِلا شَكٍّ؛ لَكِنْ مَعْنَى الآيَةِ أَعْمٌ مِنَ المُشْرِكِ؛ فَالمُسْرِفُ مَنْ تَجَاوَزَ حُدَّهُ - هَذَا المُسْرِفُ - بِإفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ؛ لَكِنْ الغَالِبُ يَكُونُ بِالإفْرَاطِ؛ لِأَنَّهُ مُجَاوِزَةُ الحُدِّ زِيَادَةً، فَالمُشْرِكُ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُسْرِفٌ بِلا شَكٍّ، وَالمُسْتَكْبِرُ مُسْرِفٌ، وَالجَاحِدُ مُسْرِفٌ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

إِذَنْ: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِي تَفْسِيرِهَا: مَنْ هُوَ مُجَاوِزٌ لِحُدِّهِ؛ كَالْمُشْرِكِ.

وقوله: ﴿مُرْتَابٌ﴾؛ أي: شاكٌّ - نَسَأَلُ اللهُ أَنْ يُعِيدَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الشَّكِّ - المُرْتَابُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - الَّذِي يَطْمَئِنُّ لِلرَّيْبِ، لَا يَهْتَدِي بِيَقْيَ عَلَى ضَلَالِهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - أَمَّا إِذَا أَوْقَعَ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِكَ شَكًّا ثَمَّ حَاوَلْتَ أَنْ تَنْزِعَهُ مِنْ قَلْبِكَ، فَإِنَّ اللهَ يُعِينُكَ عَلَيْهِ وَيَهْدِيكَ، لَكِنْ البَلَاءُ كُلُّ البَلَاءِ أَنْ تَرَكْنَ إِلَى هَذَا الشَّكِّ، وَأَنْ لَا تُتَشَلَّ مِنْهُ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا مَا شَكَاهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا يَقَعُ فِي نُفُوسِهِمْ حَتَّى قَالُوا: نَوَدُّ أَنْ يَكُونَ الوَاحِدُ مِنَّا حَمِيمًا؛ أَي: فَحِيمًا مُحْتَرَقًا، وَلَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؛ فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرَكْنُونَ إِلَى مَا حَصَلَ، أَوْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ (١).

ولهذا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ شُجَاعًا إِذَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِكَ مِثْلَ هَذِهِ الأُمُورِ فَكُنْ شُجَاعًا لَا تَرَكْنَ، لَا تَسْتَرِيسِلْ مَعَهَا، كُنْ شُجَاعًا، اسْتَعْمِلْ مَعَهُ السَّلَاحَ الَّذِي أَعْطَاكَ إِيَّاهُ مَنْ هُوَ عَالِمٌ بِهِ، وَمَنْ عَالِمٌ بِإِصَابَتِهِ لِلْعَدُوِّ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ، وَذَلِكَ بِأَمْرَيْنِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٤٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.



فَقَطُّ: أَنْ تَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَتَنْتَهِيَ<sup>(١)</sup> - أَيْ تُعْرَضُ - فَاسْتَعِيدَ بِاللَّهِ ثُمَّ أَنْتَهَ. وَبِذَلِكَ يَزُولُ عَنْكَ هَذَا الْبَلَاءُ، أَمَّا إِنْ اسْتَرْسَلْتَ مَعَهُ فَالْأَمْرُ خَطِيرٌ جَدًّا؛ لِأَنَّهُ يَتَفَاعَلُ فِي نَفْسِكَ، وَيَقْوَى حَتَّى يَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ الشُّكِّ وَالْارْتِيَابِ، وَحِينَئِذٍ تُحْرَمُ مِنَ الْهِدَايَةِ، وَهَذَا لَا شُكَّ أَنَّهُ مِنْ حِكْمَةِ الْقُرْآنِ، مِثْلَ هَذَا التَّعْبِيرِ لئَلَّا يَقَعَ فِي نَفْسِكَ مِثْلُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَدَوِّأُوهُ بِهَدْيِ الْأَمْرِينِ.

لَوْ أَنَّ أَذْكَى الْعَالَمِ حَاوَلَ أَنْ يَجِدَ دَوَاءً لِهَذَا الْبَلَاءِ مَا وَجَدَهُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْمُخْتَصَرَةِ السَّهْلَةِ، قَالَ: «فَلَيْسْتَ عِيدُ بِاللَّهِ ثُمَّ لَيْتَهُ» اعْرِضْ عَنْ هَذَا، اشْتَغَلْ بِشُؤْنِكَ، وَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَاشْتَغَلْكَ بِشُؤْنِكَ وَإِعْرَاضُكَ عَنْهُ يُوجِبُ لَكَ أَنْ تَنْسَاهُ، وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ وَمُجَرَّبٌ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تمام نصح هذا الرجل حينما ذكر قومه بما سلف.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي للإنسان أن يكون لديه علم بما سبق؛ فإن التاريخ عبر، سواء في هذه المسألة الكبيرة، أو في المسائل الصغيرة، اقرأ التاريخ يتبين لك ما قدره الله على العباد، وأن سنة الله سبحانه وتعالى في السابقين ستكون في اللاحقين، أي: أنه ينبغي أن يكون عند الإنسان خبرة بما سبق.

الفائدة الثالثة: أن أعظم رسول أرسل إلى آل فرعون - بعد موسى - هو يوسف؛ ولهذا طوي ذكر من بعده، والظاهر - والله أعلم - أن الله تعالى لا يدع هذه

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْأُمَّة - أَعْنِي: أُمَّة فِرْعَوْنَ - لَا يَدْعُهُمْ بِمَا رَسُولٍ مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّذِي لَهُ أَرْزَاقٌ كَثِيرَةٌ، لَكِنَّهُمْ لَيْسُوا كَيُوسُفَ، فَتَوَّهَ بِذِكْرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الرُّسُلَ يَأْتُونَ بِالْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ وَنُبُوتِهِمْ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ لَوْ أَرْسَلَ اللَّهُ رَسُولًا لِلنَّاسِ لَيْسَ مَعَهُ آيَةٌ، وَقَالَ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، آمَنُوا بِي، وَإِلَّا فَلَکُمْ النَّارُ، فَلَنْ يُطِيعُوهُ أَبَدًا، نَقُولُ: هَذَا مَجْنُونٌ، يَعْنِي: لَا بُدَّ مِنْ آيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ»، فَلَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ آيَاتٌ بَيِّنَةٌ، لَا تَخْفَى إِلَّا عَلَى الْعُمَيَّانِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وَهُنَا رَكَّزَ عَلَى الْوَصْفِ دُونَ الْمَوْصُوفِ؛ لِأَنَّ الْوَصْفَ أَهَمُّ، وَهُوَ كَوْنُ هَذِهِ الْآيَاتِ بَيِّنَةً، لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ مَا زَالُوا فِي شَكٍّ حَتَّى مَعَ وُجُودِ يُوسُفَ فَهُمْ فِي شَكٍّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُقَدِّرْ هِدَايَتَهُمْ، فَبَقُوا حَيَارَى، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَانُ كَرَاهَةِ الشُّعُوبِ الْمُكذِّبَةِ لِلرُّسُلِ، لَمَّا جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ؛ كَأَنَّهُمْ انْتَهَزُوا الْفُرْصَةَ لَمَّا هَلَكَ يُوسُفَ، فَقَالُوا: ﴿أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَضَايِقُونَ غَايَةَ التَّضَايُقِ بِوُجُودِ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْإِيمَانَ بِوُجُودِ اللَّهِ لَا يَكْفِي فِي التَّوْحِيدِ وَالْحَلَاصِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ فَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُقَرَّرِينَ بِاللَّهِ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعَهُمْ إِقْرَارُهُمْ بِاللَّهِ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ الرُّسُلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقَرَّرُونَ بِاللَّهِ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١] مُؤْمِنِينَ

بالرُّبوبيَّة، تمامًا، وبأن المُدبِّر هو الله، ومع ذلك استَباح النَّبِيُّ ﷺ دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، ونِسَاءَهُمْ، وَذُرِّيَّاتَهُمْ، وَأَرْضَهُمْ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ الإِيْمَانِ باللهِ ليس إِيْمَانًا أَبَدًا، لا بُدَّ من الإِيْمَانِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ بوجوهه الأربعة المعروفة، وهي: الإِيْمَانِ بوجوده، وبرُّبوبيَّته، وبألوهيَّته، وبأسماؤه وصِفاته. لا بُدَّ من هذا، فَمَنْ لم يُؤْمِنْ كذلك فليس مُؤْمِنًا باللهِ.

الفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ إضلالَ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَكُونُ إِلَّا في حَلِّهِ؛ أي: فيمَنْ هو أَهْلٌ للإضلال؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

الفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أنَّ مَنْ لَزِمَ حَدَّهُ، وأيقنَ بما يَجِبُ الإيقانَ به؛ فإنه أَبْعَدُ النَّاسِ عن الإضلالِ، يُؤخَذُ هذا من المَفْهُومِ، إذا كان اللهُ يُضِلُّ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ، فإنه يَهْدِي مَنْ لَزِمَ حَدَّهُ وأيقنَ في أمره، وآمَنَ بذلك ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، واللهُ أَعْلَمُ.

فإن قال قائلٌ: هناك إشكال، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لماذا لم يُقَلَّ بعد هذا النَّصْحِ: نَسألُ الله لَكُمْ الهداية، أو شيئًا من هذا؟

فالجوابُ: جاء في تفسِيرِ (التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ): قوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿إِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لِتَضَمُّنِهَا مَعْنَى: إِنِّي أَرشَدْتُكُمْ إِلَى الحَدَرِ مِنْ يَوْمِ التَّنَادِي. وَفِي الكَلَامِ إِيجازٌ بِحَذْفِ جُمْلٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا الجُمْلَةُ المَعطُوفَةُ. وَالتَّقْدِيرُ: هَذَا إِرْشَادٌ لَكُمْ، فَإِنَّ هَدَاكُمْ اللهُ عَمِلْتُمْ بِهِ، وَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُ فَذَلِكَ لِأَنَّ اللهُ أَضَلَّكُمْ ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَعْنَى التَّنْذِيرِ. ولم يُقَلَّ لهم: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]؛ لِأَنَّهُ أَحْسَسَ مِنْهُمْ الإِعْرَاضَ وَلَمْ يَتَوَسَّسْ فِيهِمْ مَخَائِلَ الإِنْتِفَاعِ بِنُصْحِهِ وَمَوْعِظَتِهِ. وقوله هذا تفسِيرٌ.

فإن قال قائلٌ: قوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يَهْدِيهِ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ أَصْلًا، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَيْسُ مِنْ عَدَمِ قَبُولِهِمُ النَّصْحَ. فَقَالَ ذَلِكَ.

فالجوابُ: هذا هو الظاهر، أن الرجل قد أيس، وهذا كقول نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

فإن قال قائلٌ: في هذه الآية أن الإسراف يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ، هُنَا فَسَّرَ الْإِسْرَافَ بِالْمُشْرِكِ، وَآيَةٌ أُخْرَى: ﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا﴾ [الأعراف: ٣١] هُنَا أَيْضًا يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ؟

فالجوابُ: غَالِبُ الْأَشْيَاءِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ. يَعْنِي: أَكْبَرَ وَأَصْغَرَ وَمُتَوَسِّطٍ؛ فَلَيْسَ الْمُسْرِفُ فِي الْإِسْرَافِ كَالْمُسْرِفِ فِي خُبْزَةِ يَأْكُلُهَا.



## الآية (٢٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

•••••

قوله: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ المجادلة هي: المخاصمة، والمناظرة من أجل إفحام الخصم، مأخوذة من جدل الحبل، أي: قتله؛ فإن الحبل إذا قُتل احتكم وصار أقوى، فهذا المجادل تجده يحتكم ويتصلب من أجل أن يغلب مجادله.

وقوله: ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [مُعْجَزَاتِهِ] والصواب: أن يُقال: آياتُ الله يعنى: العلامات الدالة على ما يستحقه جل وعلا من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، والأحكام، وغير ذلك. هذا هو المراد، وقد سبق أنه لا ينبغي أن نُسَمِّي الآياتِ المُعْجَزَاتِ؛ لأن ذلك نقصٌ في التعبير، وليس مُحَدِّدًا للمعنى، ورُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ فِعْلُ الْمُشْعُودِينَ، وَالسَّحَرَةِ؛ لِأَنَّهُ مُعْجَزٌ.

وقوله: ﴿ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ هل هم يُجَادِلُونَ لإثبات الآيات، أو لنفي الآيات؟ الثاني لا شك؛ ولهذا قال: ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾؛ لأنهم لو كانوا يُجَادِلُونَ لإثبات الآيات، والإقرار بها، لكانوا على سلطان.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [بُرْهَان] أي: بغير دليل،

وذلك لأن السُّلْطَانَ كل ما يكون به السُّلْطَة، وَيَخْتَلِفُ بِحَسَبِ السِّيَاقِ؛ فالإمام الأعظم يُسَمَّى السُّلْطَانَ؛ لأنه ذو سُلْطَة. والدليل يُسَمَّى سُلْطَانًا؛ لأن الآخِذَ به ذو سُلْطَة.

وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿بِعَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: بغير دليل. وهذا النَّعْتُ أو الحال؛ لأن جُمْلَة: ﴿بِعَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حال من فاعِلِ ﴿يُجَادِلُونَ﴾ هذا الوَصْفُ وَصَفَ لبيان الواقع، وليس وَصْفًا مُقَيَّدًا، والفرق: أننا لو قلنا: إنه وَصَفَ مُقَيَّدَ صار الذين يُجَادِلُونَ بآيات الله لِإِبْطَالِهَا أحيانًا يكون معهم سُلْطَان، وأحيانًا لا يكون معهم سُلْطَان، والواقع أنه ليس لهم سُلْطَان، والقيد المبيِّن للواقع ليس له مفهوم، وهذا آتٍ في القرآن كثيرًا، وإنَّما المقصود به -أي: بالقيد المبيِّن للواقع - الاستدلال؛ يعني: فكأنه تعليلٌ للموصوف.

وانظرُ إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فقوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ مبيِّن للواقع وليس قيدًا؛ لأنه لا يُمكن أن يدعو أحدٌ مع الله إلهًا آخر له فيه برهانٌ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فإن هذا لا يعني أنه قد يدعوننا لما لا يُحيينا، بل هو لا يدعوننا إلَّا لما يُحيينا، فيكون هذا كالتعليل لموصوفه الذي صار قيدًا فيه.

إذن: ﴿بِعَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ﴾ هذا نقول: إنه وَصَفَ لبيان الحال والواقع، وأنه لا سُلْطَانَ لهم بذلك، وعلى هذا فيكون كالتعليل لموصوف، وأعني بالوصف هنا ما يشتمل الحال وغير الحال. وقوله: ﴿أَنْتَهُمْ﴾ الجُمْلَة صفة لـ ﴿سُلْطَانٍ﴾.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ هذه الجُمْلَةُ خَبَرُ المَبْتَدَأِ. وقوله: ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عَظُمَ، وَضُمَّتِ الباءُ حَتَّى صَارَ مِنْ بابِ فَعُلَ؛ لِأَنَّهُ أُريدُ بِهِ التَّعَجُّبُ، يَعْني: ما أَكْبَرَ مَقْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ! قال: ﴿مَقْتًا﴾ هذه تَمييزٌ، تَمييزٌ لـ ﴿كَبُرَ﴾ لِأَنَّ كَبُرَ المرادُ بِهِ الجِدالُ؛ يَعْني كَبُرَ جِدالَهُمْ مَقْتًا، فَهِيَ مُميِّزةٌ لِلفاعِلِ المَحذوفِ، بلِ الفاعِلِ المُستَترِ.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿كَبُرَ﴾ جِدالَهُمْ ﴿مَقْتًا﴾] الصواب أن يُقال: كَبُرَ مَقْتَهُمْ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ التَّمييزَ مُبيِّنٌ لِلفاعِلِ المُستَترِ، وقوله: ﴿مَقْتًا﴾ المَقْتُ هُوَ أَشَدُّ البُغْضِ.

وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿كَبُرَ﴾.

قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَعْني: وَكَذلِكَ المُؤْمِنُونَ يَكْبُرُ مَقْتَهُمْ هؤُلاءِ المُجادِلِينَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلطانِ الَّذِينَ يُريدُونَ إِذْحاضَ الحَقِّ، وإِظهارَ الباطِلِ.

وقوله: ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إِذا أُطْلِقَ الإِيمانُ فالمرادُ بِهِ ما يَشْمَلُ الإِسلامَ، وَإِذا أُطْلِقَ الإِسلامُ فالمرادُ بِهِ ما يَشْمَلُ الإِيمانَ؛ وَهَذا لو سئِلتَ وَقيلَ لَكَ: هَلِ الإِسلامُ وَالإِيمانُ مُترادِفانِ بِمَعْنَى واحِدٍ؟ فَقُلْ: هُما عِنْدَ الإِفرادِ مُترادِفانِ، وَأَمَّا عِنْدَ الإِقتِرانِ فَإِنَّهُ يُفسَّرُ الإِيمانَ بِأَعْمالِ القُلُوبِ، وَالإِسلامَ بِأَعْمالِ الجِوارِحِ؛ مِثالَ ذلكِ قولُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فَفَرَّقَ بَينَ الإِيمانِ وَالإِسلامِ؛ وَبيَّنَ أَنَّ الإِيمانَ لَمْ يَدْخُلْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّهُ قَريبُ الدُّخُولِ؛ لِأَنَّ (لَمَّا) تُفيدُ القُرْبَ، وَفي حَدِيثِ جَبْرِيلَ فَرَّقَ بَينَ الإِيمانِ وَالإِسلامِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الذاريات: ٣٥-٣٦].

ففرّق بين هذا وهذا، المُخْرَجُونَ مُؤْمِنُونَ، والبيت مُسْلِمٌ؛ لأن في البيت امرأة كافرة، وهي امرأة لوط؛ فهي في ظاهر الحال مُسْلِمَةٌ، مُسْتَسْلِمَةٌ؛ لأنها لا تُظْهِرُ أنها كافرة، كما قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، ولكن حينما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُنْجِيَ مَنْ يُنْجِي مِنْ قَوْمِ لُوطِ أَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَطُّ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَبَقِيَتْ مَعَ قَوْمِهَا وَهَلَكَتْ.

فإن قال قائل: ما الحكمة من بقاء زوجاتهم معهم؟ أي: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ و لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، هل لم يكونوا يعلمون ذلك؟

فالجواب: ما دام أن الله تعالى يقول: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، وقال له: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكًّا﴾، فهُمْ لم يكونوا يعلمون، وهذه لأجل الاعتبار بالنسبة لزوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذه السورة كلها نزلت شبه مُعَاتِبَةٍ لزوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] فالْمَقْصُودُ بِيَانُ عِنَايَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِرَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْكَمَا إِنْ تَظَاهَرْتُمَا عَلَيْهِ؛ فَهَلْ أَوْلِيَاءُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ نَعُودُ بِاللَّهِ، ﴿كَذَلِكَ﴾ تَقَدَّمَتْ قَرِيبًا، وَقُلْنَا: مِثْلُ هَذَا التَّرْكِيبِ يَكُونُ إِعْرَابُهُ كَالتَّالِي: الكافُ اسْمٌ بِمَعْنَى مِثْلٍ، وَهِيَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِلْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهَا، الْعَامِلُ فِيهَا الْفِعْلُ الَّذِي بَعْدَهَا، وَ﴿يَطْبَعُ﴾ هُوَ الْفِعْلُ الْعَامِلُ، وَعَلَيْهِ فَنَقُولُ: مِثْلُ هَذَا الطَّبَعِ يَطْبَعُ اللَّهَ.



وأما قول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [مثل إضلالهم] ففيه نظر، وإن كان يلزم من الإضلال الطَّبْع، لكن الأحسن أن يُفسر بها يُطابقِ العَامِلِ، فيقال: مثل هذا الطَّبْعِ يَطْبَعُ اللهُ.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿يَطْبَعُ﴾ يَخْتَمُ]، نَعَمْ؛ الطَّبْعُ بِمَعْنَى الخَتْمِ؛ كأن الله جعل على قلوبهم غِلافاً ثم خَتَمَ عليه، كما يُخْتَمُ على الوثائقِ، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا﴾ [النساء: ١٥٥].

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ﴾ بِالضَّلَالِ] ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [﴿يَطْبَعُ اللهُ﴾ بِالضَّلَالِ] يُقال فيها كما قيل فيما سبق؛ بأن المراد يَطْبَعُ اللهُ بالطَّبْعِ على القلوبِ على كل قلب مُتَكَبِّرٍ.

وقوله: [﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بتنوين قلب، ودونه] على كل قلب مُتَكَبِّرٍ، وعلى كل قلب مُتَكَبِّرٍ، والفرق أنه على قراءة التنوين يكون التَّكَبُّرُ وَضْفًا للقلب، وعلى قراءة الإضافة يكون الطبع على قلب المُتَكَبِّرِ، وليس القلبُ هو المُتَكَبِّرُ، والمعنى واحد؛ لأنه إذا تَكَبَّرَ القلبُ تَكَبَّرَتِ النَّفْسُ؛ لقول النَّبِيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»<sup>(١)</sup>.

قوله: [﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾ أو «قلب مُتَكَبِّرٍ» التَّكَبُّرُ معناه التَّرَفُّعُ، يَعْنِي: أَنَّ الإنسانَ يَتَرَفَّعُ، وهو نوعان: تَكَبُّرٌ على الخَلْقِ، وتَكَبُّرٌ عن الحَقِّ. وإلى هذا يُشير قول النَّبِيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «الْكِبْرُ بَطْرُ الحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»<sup>(٢)</sup> بَطْرُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة،

باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الحَقُّ يَعْنِي: رَدُّهُ، وَعَدَمُ الإِذْعَانِ لَهُ. وَغَمَطُ النَّاسِ يَعْنِي: احْتِقَارُهُمْ، فَيَرَى نَفْسَهُ أَنَّهُ فَوْقَ النَّاسِ، هَذَا هُوَ الكِبْرُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ غَمَطَ الحَقَّ وَازْدَرَاهُ فَإِنَّهُ لَا يَأْخُذُ بِهِ، إِذْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِشَيْءٍ يَرَى أَنَّهُ نَقِيصَةٌ، وَكَذَلِكَ مَنْ غَمَطَ النَّاسَ فَإِنَّهُ لَا يَعْدِلُ فِيهِ، بَلْ يُعَامِلُهُمْ بِالْكِبْرِيَاءِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَيَكُونُ الطَّبَعُ حَقِيقًا يُمَثِّلُ هَذَا القَلْبِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ<sup>(١)</sup>.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: كراهةُ الله سبحانه وتعالى للذين يُجادِلون في آياتِ الله لأجلِ إبطالها؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾. الفائدة الثانية: أنه لا سلطانَ لكل إنسانٍ جادلٍ لإدحاضِ الحَقِّ وإظهارِ الباطلِ، يُؤخَذُ من قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾.

الفائدة الثالثة: تقوية قلوب المُجادِلين بالحَقِّ؛ لأنَّ الجِدَالَ يكون من طرفين؛ فالْمُجَادِلُ في آياتِ الله لإبطالها هذا لا حُجَّةَ له؛ وَيَكُونُ الحُضْمُ المَقَابِلُ لِلآخِرِ يَكُونُ لَهُ حُجَّةٌ.

فإِذَنْ: إِذَا عُلِمَ المُجَادِلُ الَّذِي يُرِيدُ إِثْبَاتَ الحَقِّ وَإِبْطَالَ الباطلِ أَنَّهُ لَا سُلْطَانَ لِحُضْمِهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَقْوَى قَلْبُهُ، وَيَزْدَادُ ثَبَاتًا؛ فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ بِطَرِيقِ المَفْهُومِ أَنَّ المُجَادِلَ فِي آيَاتِ اللَّهِ لِإثباتها سَيَكُونُ مَعَهُ السُّلْطَانُ والقُوَّةُ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ مَعَهُ حُجَّةٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْتَجَّ بِهَا؛ قَدْ لَا يَسْتَطِيعُ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجَادِلَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بها؛ ولهذا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَ الْأَقْوَامِ مِنَ الْبَاطِلِ؛ لِيَتِمَكَّنَ مِنْ رَدِّهِ. أَمَّا كَوْنُهُ لَا يَقْرَأُ الْبَاطِلَ، وَيَقُولُ: أَنَا كُلُّ مَا وَرَدَ عَلَيَّ مِنْ بَاطِلٍ فَعِنْدِي قُدْرَةٌ عَلَى دِفَاعِهِ فَهَذَا قَدْ يُحْذِلُ الْإِنْسَانَ فِي مَكَانٍ يُحِبُّ أَنْ يَتَّصِرَ فِيهِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ الْبَاطِلَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ.

ولهذا نَرَى الْعُلَمَاءَ الْمُحَقِّقِينَ يَقْرَءُونَ كُتُبَ الْمَنَاطِقَةِ وَالْفَلَسِيفَةِ وَغَيْرَهَا؛ ثُمَّ يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي رَجُلٍ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي الْعِلْمِ، أَمَّا رَجُلٌ ابْتَدَأَ طَالِبًا، فَهَذَا لَا نُشِيرُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْرَأَ كُتُبَ أَهْلِ الضَّلَالِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ مَنَعَةٌ، فَيُخْشَى أَنْ يَتَأَثَّرَ بِهَذِهِ الْكُتُبِ فَيُضِلَّ؛ لَكِنَّ الرَّاغِبِينَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُ: اقْرَأْ حَتَّى تَعْرِفَ كَيْفَ تَرُدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنْ مَنْ جَادَلَ بِحَقِّ فُلَيْسَ بِمَذْمُومٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُمْ سُلْطَانٌ لَكَانُوا عَلَى حَقٍّ، لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: إِثْبَاتُ الْمَقْتِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ وَأَنَّهُ يَتَفَاوَضُ؛ فَيَكُونُ مَقْتُهُ عَلَى شَخْصٍ أَوْ طَائِفَةٍ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِهِ عَلَى شَخْصٍ أَوْ طَائِفَةٍ آخَرِينَ، يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وَهَلْ هَذَا الْمَقْتُ حَقِيقَةٌ أَوْ يُرَادُ بِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الْعُقُوبَةُ؟

الجوابُ: الْأَوَّلُ؛ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: كُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَهُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ لَكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُمَازِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَثْبَتَ وَنَقَى قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وَهَذِهِ حُذُهَا جَادَّةٌ عِنْدَكَ، سِرٌّ عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ، لَا تَقُلْ: هَذَا لَا يُرَادُ بِهِ ظَاهِرُهُ. كُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ يُرَادُ بِهِ ظَاهِرُهُ، لَكِنْ يُنَزَّهُ عَنْ مُمَازِلَةِ الْمَخْلُوقِينَ.

إِذِنَ: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمَقَّتْ، وَيُبْغِضُ، وَيَكْرَهُ، وَيُحِبُّ حَقًّا عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُبَايِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَذَهَبَ أَهْلُ التَّعْطِيلِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَلَى اللهِ بِعُقُوبِهِمْ، لَا بِكَلَامِهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ؛ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ يَجِبُ وَجُوبًا أَنْ تُؤَوَّلَ إِلَى لَوَازِمِهَا، فَيَقُولُونَ مِثْلًا: الْمَقَّتُ الْمُرَادُ بِهِ الْإِنْتِقَامُ وَالْعُقُوبَةُ، وَلَيْسَ الْبُغْضُ، أَوْ الْكِرَاهَةُ، أَوْ الْأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: إِذَا فَسَّرْتُمْ ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ ارْتَكَبْتُمْ مَحْظُورَيْنِ:

الْمَحْظُورِ الْأَوَّلَ: إِخْرَاجَ كَلَامِ اللهِ عَنْ ظَاهِرِهِ.

وَالْمَحْظُورِ الثَّانِي: إِثْبَاتَ مَعْنَى لَا يُرَادُ بِهِ.

وَهَكَذَا كُلُّ مُحَرِّفٍ نَقُولُ: إِنَّهُ ارْتَكَبَ مَحْظُورَيْنِ: الْمَحْظُورِ الْأَوَّلَ: إِخْرَاجَ الْكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَهَذِهِ جِنَايَةٌ لَا شَكَّ؛ حَيْثُ سَلَبَ اللَّفْظُ مَعْنَاهُ. وَالثَّانِي: إِثْبَاتَ مَعْنَى لَا يُرَادُ بِهِ؛ أَي: لَا يُرَادُ بِاللَّفْظِ، وَهَذَا عُذْوَانٌ أَيْضًا. فَكُلُّ مُؤَوَّلٍ فَإِنَّهُ يَرْتَكِبُ هَذَيْنِ الْمَحْظُورَيْنِ.

وَالْعَجَبُ: أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ أَهْلَ التَّأْوِيلِ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُمْ أَهْلُ التَّحْرِيفِ، لَكِنْ هُمْ تَسَمَّوْا بِهَذَا الْأِسْمِ تَلْطِيفًا لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ يُرَادُ بِهِ حَقٌّ، وَيُرَادُ بِهِ بَاطِلٌ، إِذَا أَوْلْنَا الْكَلَامَ بِمَا يُرِيدُهُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ، فَهَذَا حَقٌّ؛ لَكِنْ بِخِلَافِهِ هَذَا بَاطِلٌ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ عَدَلُوا عَنْ اسْمِ التَّحْرِيفِ إِلَى اسْمِ التَّأْوِيلِ.

وَانظُرْ إِلَى دِقَّةِ عِبَارَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ قَالَ: «مَنْ غَيْرَ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ»<sup>(١)</sup>. وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ غَيْرَ تَأْوِيلٍ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ

(١) العقيدة الواسطية (ص: ٥٧).

في العقائد، أو يكتبون في العقائد يقولون: من غير تأويل. ولكن ما قاله هو الصحيح؛ لأن كل تأويل لا يدلُّ عليه الدليلُ فهو تحريف.

إذَنْ: نحن نثبتُ لله بأنه يمقتُ ويكرهه ويُغضُّ حقًا على حقيقته، وأمَّا العقوبة فهي من لازِم ذلك.

ولهذا قال شيخ الإسلام<sup>(١)</sup> وغيره: قال: أنتم إذا أثبتتم أن الله تعالى يُعاقب فقد أثبتتم أن الله يكرهه، بطريق اللزوم. إذ لا يُعاقب إلا مَنْ يكرهه، لا يُمكن أن يُعاقب من يُحبه، فأنتم لما فررتم من إثبات الكراهة أو المقت، وقعتم فيه من وجهٍ آخر.

إذَنْ نقولُ: إذا أثبتتم العقوبة فلا عقوبةَ إلا بعد مقت وكرَاهة، هذا أمرٌ ضروريٌّ؛ لأنه لا يُمكن لأحدٍ يُحبُّ شخصًا أن يقوم ويضربه.

مسألة: كيف نجَمع بين قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وافقت ربي في ثلاث<sup>(٢)</sup>. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؟

فالجوابُ: يُوافق حُكم الله؛ لأنه يتكلَّم عنه حُكم الله عزَّ وجلَّ.

الفائدةُ السَّادسةُ: إثبات العندية لله عزَّ وجلَّ، عند الله، ثمَّ العندية نوعان: عندية وَصْف، وعندية قُرْب. فقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، هذه عندية قُرْب. وقوله هنا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥] عندية وَصْف؛ لأن المقت ليس شيئًا مُفصلاً بآئناً عن الله، حتى يكون عندية قُرْب، بل هذا عندية وَصْف، كما تقول للشخص: أنت عندي عزيز. تقوله

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، رقم (٤٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٣٩٩).

وهو بعيد منك، وليس معنى: أنت عندي عزيز. يعني: قريب، لا هذا عندي وصف؛ أي: أن عزتك عندي قائمة بي.

الفائدة السابعة: أن ما يكرهه الله عزَّجَلَّ فإن المؤمنين يكرهونه؛ لقوله: ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذه علامة الإيمان، خُذْهَا قِيَاسًا وَمِيزَانًا عَدْلًا، متى رأيت من نفسك أنك تكره ما يكرهه الله، وتُحِبُّ ما يُحِبُّه الله؛ فذلك الإيمان دَلٌّ عليه هذه الآية وغيرها من الآيات والأحاديث، ودَلٌّ عليه العَقْلُ أيضًا؛ لأن من كمال المحبة والإيمان أن تُحِبَّ ما يُحِبُّه مَنْ تُحِبُّ، وتكره ما يكرهه.

الفائدة الثامنة: فضيلة الإيمان؛ حيث يكون المؤمن دائرًا مع الله عزَّجَلَّ في محبة ما يُحِبُّ وكرهه ما يكره.

الفائدة التاسعة: التحذير من الكبر وأنه سبب للطبع على القلب - والعياذُ بالله -؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾.

الفائدة العاشرة: التحذير من الجبروت، وهو التعاطف على الغير، والشدة عليهم، وما أشبه ذلك؛ لقوله: ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

إذْنُ: في الآية التحذير من الكبر والجبروت.

الفائدة الحادية عشرة: الرَّدُّ على مَنْ قال: الكمال أن تتَّصِفَ بصفات الكامل؛ يعنون بذلك الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى. ولا أكمل من الله، ونقول: لا يُمكن لإنسان أن يُجَارِيَ الله تعالى في أوصافه؛ فالتكبر والجبروت والتعالي والتعاطف بالنسبة لله كمال، وبالنسبة لنا نقص، نقص وعيب وسبب للبلاء؛ وبهذا بطَّلت هذه القاعدة التي لا أساس لها من الصَّحَّة، حتى إنَّ بعضهم وضع حديثًا قال: تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ. أَعُوذُ بِاللَّهِ،

تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ؟! هل نُسَمِّي أوصافَ الله أخلاقًا؟! أبدأ لا نُسَمِّيها؛ لأنَّ كلمة أخلاق قد تُدُلُّ على خَلْقِ كَسْبِي، والأخلاق نَوْعان: غريزي وكَسْبِي، لا إشكال في هذا.

ولهذا لما قال الرسول ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ قال: «إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُجِبُهُمَا اللهُ؛ الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ» قال: يا رسولَ الله، أخلُقان تَخَلَّقْتُ بهما، أم جَبَلَنِي اللهُ عليهما؟ قال: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيَّهِمَا»<sup>(١)</sup> قال: الحمدُ لله الذي جَبَلَنِي على ما يُحِبُّ أو كلمة نحوها.

فالأخلاق كَسْبِيٌّ وغريزيٌّ، ولا يُمكن أن نُسَمِّي أوصافَ الله تعالى أخلاقًا له، بل نقول: أوصاف وصفات وما أشبه ذلك، على أن من العلماء من أنكر أن نقول: لله صفة، مثل ابنِ حزم رَحِمَهُ اللهُ قال: إِيَّاكَ أن تقول: لله صفة. الله ليس له صفة. ولا بأس بالأسماء. لكنه محجوج بقول الرجل الذي كان يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ قال: «إنها صفة الرَّحْمَنِ، وأَجِبُّ أن أقرأها»<sup>(٢)</sup>.

ونحن نقول: إن هذه الآية تُدُلُّ دلالة واضحة على كَذِبِ هذه القاعدة التي قَعَدَها مَنْ قَعَدَها من الناس، ونحن نقول لكل مؤمن: تَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأنَّ نَبِيَّنَا ﷺ لَنَا أُسْوَةٌ.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [بتنوين القلب ودونه، ومتى تكبَّرَ القلب تكبَّرَ صاحبه

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، من حديث زارع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان في وفد عبد القيس.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رقم (٧٣٧٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وبالعكس]، متى تكبر القلب تكبر صاحبه، وقوله: وبالعكس فيها نظر؛ لأنه يقتضي أن يتكبر صاحب القلب قبل القلب؛ لأنك إذا عكست العبارة متى تكبر القلب تكبر صاحبه، متى تكبر صاحب القلب تكبر قلبه، فهذا ليس بصحيح، لكن مراده رَحْمَةُ اللَّهِ أن تكبر القلب وتكبر النفس مُتلازمان، إن تكبر القلب تكبرت النفس؛ وإن تكبرت النفس كان ذلك دليلاً على أن القلب مُتكبرٌ.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [و﴿كُلِّ﴾ على القراءتين لعموم الضلال لجميع القلب

لا لعموم القلوب]

قوله: [لعموم القلوب] يَعُمُّ جميع أجزاء القلب، أي: جميع أجزائه، أي: لم يبق فيه محل يقبل الاهتداء. وقوله: لا لعموم القلوب أي: لا لعموم أفراد القلوب، وهذا الصنيع إخراج لها عن موضوعها من أنها إذا دخلت على نكرة مُطلقة أو على معرفة مجموعة تكون لعموم الأفراد، وإذا دخلت على معرفة مُفردة تكون لعموم الأجزاء، وهنا قد دخلت على النكرة، فكان حَقُّها أن تكون لعموم الأفراد لا لعموم الأجزاء؛ كما سلكه المفسر فليتأمل.

والمفسر يقول: إن الكليّة هنا تعود على الفرد لا على الأفراد، ﴿عَلَى كُلِّ

قَلْبٍ﴾ يَعْنِي: على كل القلب، لا بعضه؛ وليست لعموم القلوب، يَعْنِي: ليست لعموم كل قلب على حدة، ولكن ما ذهب إليه ليس بصواب، بل نقول: على كل القلوب، والعموم مُستفاد من كلمة يَطْبَعُ على القلب لا على بعضه؛ فإذا قلنا: إنها لعموم القلوب شملت عموم القلب، ولا عكس.

ثم إن ظاهر السياق على كل قلب مُتكبر، أو على كل قلب مُتكبر. إذا نظرنا إلى السياق ماذا نفهم؟ هل نفهم أن جميع القلوب المتكبرة يَطْبَعُ عليها؟ أو نفهم أن



الْقَلْبِ الْوَاحِدِ يُطَبِّعُ عَلَى جَمِيعِهِ لَا عَلَى بَعْضِهِ؟

الجواب: الأوَّل لا شكَّ، هذا ظاهرُ السياق، وهذا كما أنه ظاهرُ السِّياق فهو أشمَلُ في المعنى؛ لأنه إذا قيل: كذلك يَطَّبِعُ اللهُ عَلَى كُلِّ الْقُلُوبِ الْمُتَكَبِّرَةِ الْجَبَّارَةَ، وَالطَّبَّعَ عَلَى الْقَلْبِ يَشْمَلُ الطَّبَّعَ عَلَى جَمِيعِهِ، مَا لَمْ يُوجَدَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الطَّبَّعَ عَلَى بَعْضِهِ؛ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الصَّوَابُ عَكْسَ مَا قَالَ الْمَفْسِّرُ، فَالصَّوَابُ: أَنَّ هَذَا لِعُمُومِ الْقُلُوبِ وَليْسَ لِعُمُومِ الْقَلْبِ.

فإذا قلنا: إنها لِعُمُومِ الْقَلْبِ صَارَ الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يَطَّبِعُ عَلَى الْقَلْبِ كُلَّهُ، يَعْنِي: أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ يَطَّبِعُ عَلَى الْقَلْبِ كُلَّهُ لَا عَلَى جَمِيعِ الْقُلُوبِ، فَيُخْرَجُ بِذَلِكَ بَعْضُ الْقَلْبِ، لَا يَطَّبِعُ عَلَى بَعْضٍ، يَطَّبِعُ عَلَى الْقَلْبِ كُلِّهِ؛ لَكِنَّهُ مِثْلًا عَلَى قَلْبِ فُلَانٍ مِنَ النَّاسِ.

أَمَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّهَا لِعُمُومِ الْقُلُوبِ، صَارَ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَطَّبِعُ عَلَى جَمِيعِ الْقُلُوبِ الْمُتَكَبِّرَةِ فِي أَيِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ.

وَإِذَا قُلْنَا: لِعُمُومِ الْقَلْبِ صَارَتْ عَامَّةً لِلْقَلْبِ الْوَاحِدِ؛ يَعْنِي: وَالْقُلُوبِ الْأُخْرَى مَسْكُوتٌ عَنْهَا. هَذَا وَجْهُ الْفَرْقِ، الْقُلُوبِ الْأُخْرَى مَسْكُوتٌ عَنْهَا، وَلَكِنْ نَقُولُ: الصَّوَابُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾ يَعْنِي: مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، وَإِذَا قَالَ: طَبَّعَ عَلَى الْقَلْبِ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْقَلْبِ، مَا لَمْ يُنْصَرَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بَعْضَ الْقَلْبِ.

فإن قال قائل: لكن لماذا يقول: على جميع القلب؟

فالجواب: هذا معناه: لا على بعضه؛ ولذلك كلام المفسر فيه نظر من عدة

وجوه؛ كلما تأملت عرفت أن هناك خطأ، والمحشي - الذي هو الجمل - يقول: فيه تأمل. أو قال: فلي تأمل. وتأملناه فوجدناه غير صحيح.

فإن قال قائل: بالنسبة لقول الشارح: [لعموم القلوب] لم لم يقل: لعموم القلب، والقلب هذا كل من وصف بالتكبر والجبروت داخل؟

فالجواب: ليس هذا مراده، إنما مراده من القلب زيد وعمرو وبكر وخالد هذه القلوب؛ لكن إذا قلنا: عموم القلب. صار معناه: قلب زيد فقط، الطبع عام له.

فإن قال قائل: وهل كل من وصف بهذا الوصف التكبر مطبوع عليه؟

فالجواب: نعم، لكن لا نقول: لعموم القلب. نقول: لعموم القلوب؛ هذا عام في كل قلب متكبر، ففرق بين أن تقول: الكلية هذه للأجزاء أو للأفراد. إذا قلنا: لعموم الأجزاء. صار لعموم القلب، وإن قلنا: لعموم الأفراد. صار جميع القلوب، كل القلب متصف، لو كان مئات الملايين متصفاً بهذا فهو مطبوع عليه، ولا شك أن كلام المفسر رحمه الله ليس له وجه إطلاقاً، ولكن سبحان الله!



## الآيتان (٣٦، ٣٧)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنُ ابْنُ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾  
 أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ  
 سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿ غافر: ٣٦-٣٧.﴾

• • • • •

قال الله تبارك وتعالى في قصة موسى مع فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنُ ابْنُ لِي صِرْحًا  
 لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ فرعون هو ملك مصر؛ قيل: إنه اسم شخص، أو إنه علم  
 شخص، وقيل: إنه علم جنس، فإذا قلنا: إنه علم شخص صار اسمًا لشخص  
 معين، وإذا قلنا: إنه علم جنس صار اسمًا لكل من ملك مصر كافرًا.

وهذا هو الذي عليه الأكثر؛ لكن فرعون موسى علم شخص وعلم جنس  
 أيضًا: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنُ ابْنُ لِي صِرْحًا ﴾ هامن وزيره، وقوله: ﴿ ابْنُ لِي صِرْحًا ﴾  
 يعني: مر من بيني لي ذلك؛ لأنه من المعلوم أن الوزير لن يباشر بناء الصرح، ﴿ صِرْحًا ﴾  
 قال المفسر رحمه الله: [بناءً عاليًا] يعني: رفيعًا.

وقوله: ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ (لعل) هنا للتعليل، وهي تأتي للتعليل تارة  
 وللإشفاق تارة، وللترجي تارة؛ فمن مجيئها للتعليل هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا  
 أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] هذه للتعليل، وكلما جاءت (لعل) في  
 حق الله عز وجل فإنها للتعليل؛ لأن الرب عز وجل لا يترجى إذ إن كل شيء عليه هيئ،

وتأتي للإشفاق؛ مثل: أن تقول: لعلَّ الحبيب هالكٌ. يعني: أخشى أن يكون هالكًا.  
وتأتي للترجي: مثل: حضرت إلى الدرس فلعلِّي أفهم، لو قلت: لعلِّي أفهم؛  
احتمل أن تكون للتعليل، فإذا قلت: فد(لعلِّي) صارت للترجي، وتكون أيضًا  
للتوقع، كما لو قلت لشخص مخاطبه: لعلَّك فاهمٌ.

وهذه المعاني التي تأتي للحروف بل وللاسماء أيضًا وللأفعال، إذا كانت  
متعددة فالذي يعينها السياق وقرائن الأحوال.

قال: ﴿لَعَلَّ أَبْلَغُ الْأَسْبَبِ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ الأسباب جمع سبب، وهو  
كل ما يوصل إلى المقصود، فالسبب وسيلة والمسبب غاية، والأسباب هنا بينها  
بقوله: ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ ف﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ محلها مما قبلها عطف بيان، تُبين  
الإبهام الموجود في الأسباب.

فإن قال قائل: لماذا لم يقع الكلام مبيِّنًا من أول الخطاب، فيقال: لعلِّي أبلغ  
﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾؟

قلنا: إن الإبهام أولًا، ثم التفصيل والبيان ثانيًا؛ أوقع في النفس؛ لأن الشيء  
إذا جاء مبهمًا ثم بيِّن صار للبيان وقع عند تشوُّف النفس لمعرفة هذا المبهم؛ يعني:  
لو جاء الكلام مبيِّنًا من أول الأمر لكان سهلًا على النفوس، لكن إذا جاء أولًا مبهمًا  
تشوَّفت النفس لمعرفة هذا المبهم، ثم جاء البيان والنفس مُستعدة لقبوله مُتشفِّفة  
إلى الوصول إليه.

قوله: ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ قال المفسر رحمه الله: [طرقها الموصلة إليها] ﴿فَأَطَاعَ﴾  
بالرفع عطفًا على (أبلغ) وبالنصب جوابًا لـ (ابن)، يعني: أن فيها قراءتين سبعيتين

«فَأَطَّلِعُ»، ﴿فَأَطَّلِعُ﴾، أَمَا عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ؛ فَإِنَّهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى (أَبْلَغُ) يَعْنِي: لَعَلِّي أَبْلَغُ الْأَسْبَابَ، فَلَعَلِّي أَطَّلِعُ. وَأَمَا عَلَى قِرَاءَةِ النَّصْبِ؛ فَإِنَّهَا وَقَعَتْ جَوَابًا لـ (ابْنِ) وَ(ابْنِ) فِعْلٌ أَمْرٌ، وَفِعْلُ الْأَمْرِ يَقَعُ جَوَابَهُ إِذَا كَانَ مَقْرُونًا بِالْفَاءِ بِالنَّصْبِ (فَأَطَّلِعُ) فَتَكُونُ الْفَاءُ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ.

وَاعْلَمَ أَنَّ الْقِرَاءَتَيْنِ الْوَارِدَتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُمَا أَحَدُ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ الَّتِي نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، وَلَمَّا كَانَ فِي زَمَنِ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ الْقُرْآنُ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ هُوَ حَرْفُ فُرَيْشٍ؛ يَعْنِي: لَعْنَتُهَا؛ فَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ الْمَوْجُودَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْأَحْرُفُ السَّبْعَةُ، بَلْ هِيَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ. هَذَا وَاحِدٌ.

الثاني: اعلم أن القراءتين كلتاها صححت عن النبي ﷺ؛ لأنها نقلت بالتواتر.

الثالث: اعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يقرأ بين العامة بقراءة تُخالف ما في أيديهم من المصاحف؛ لأن ذلك يوجب التشويش والارتباك، واتهام القارئ، وربما تهبط عظمة القرآن في نفوسهم بسبب هذا الاختلاف. أَمَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ فَالْأَفْضَلُ أَنْ تَقْرَأَ بِهَذَا تَارَةً، وَبِهَذَا تَارَةً؛ بِشَرَطِ أَنْ تَكُونَ عَالِمًا غَيْرَ مُتَخَبِّطٍ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْأَفْضَلُ لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ قَدْ قَرَأَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَيَكُونُ هَذَا مِثْلَ الْعِبَادَاتِ الْوَارِدَةِ عَلَى وُجُوهِ مُتَنَوِّعَةٍ؛ كَالِاسْتِفْتَاخَاتِ وَالتَّشْهُدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لَكِنْ هَذَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ، أَوْ فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ إِذَا كُنْتَ تُعَلِّمُ طَلَبَةً.

قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يَعْنِي: أَصِلَ إِلَيْهِ وَأَنْظُرْ هَلْ هَذَا حَقٌّ أَوْ غَيْرَ حَقٍّ؛ ثُمَّ اسْتَدْرَكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ جُنُودِهِ: إِنَّهُ حَقٌّ. فَقَالَ: ﴿وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾.

قال المفسر رحمه الله: ﴿لَأُظَنَّهُ﴾ أي: موسى ﴿كَذِبًا﴾ في أن له إلهًا غيري؛ قال هذا تمويهًا على أصحابه؛ وخوفًا من أن يقع في نفوسهم شيء حين أمر وزيره أن يبني له صرحًا، قال: ﴿وَإِنِّي لَأُظَنَّهُ كَذِبًا﴾.

و فرعون في هذه المقالة كاذب، هو لا يظن أن موسى كاذب، بل يعلم أنه صادق؛ لقول الله تبارك وتعالى عن موسى أنه قال له -أي: لفرعون-: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، قال هذا الكلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ مؤكدًا إياه بالقسم واللام (قد)، ويخاطب هذا الرجل القادر على إنكار ما قاله موسى لو كان كاذبًا قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأُظَنُّكَ يَفْرَعُونَ مَثُورًا﴾ فرعون ليس له مانع يمنعه أن يقول: لم أعلم. هو قادر، لكنه إن قال ذلك يعلم أنه ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ هذه مفعول من أجله لـ ﴿وَجَحَدُوا﴾ بها ظلمًا.

المهم: أن قوله: ﴿وَإِنِّي لَأُظَنَّهُ كَذِبًا﴾ هذه الجملة كذب، هو يعلم أن موسى صادق، لكنه قال ذلك تمويهًا لقومه، وخوفًا من أن يقع في قلوبهم شيء من الشك، قال عن فرعون: ﴿وَإِنِّي لَأُظَنَّهُ كَذِبًا﴾ يقول المفسر رحمه الله: [قال فرعون ذلك تمويهًا].

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الفعل، أو مثل هذا التزيين أيها الذي على القاعدة؟

الجواب: الثاني. لأننا قلنا: إن (كذلك) تكون مفعولًا مطلقًا للفعل الذي بعدها؛ أي: مثل هذا التزيين الذي زين لفرعون، وهذا التمويه والترويح لقومه

زَيْنَ لَفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ، وَالَّذِي زَيَّنَ الشَّيْطَانُ وَالنَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ.

وقد يُقال: والله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فالله تعالى زَيَّنَهُ قَدْرًا، بمعنى أنه حَجَبَ عَنْهُ الْهُدَى، ثُمَّ زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ وَالنَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ أَنْ يَعْمَلَ هَذَا الْعَمَلَ.

وقوله: ﴿سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السبيل هنا فيها (أل) التي للعهد الذهني، عن السبيل الذي هو سبيل الهدى؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [طريق الهدى] وفيها قراءتان «صَدَّ» [بفتح الصاد وضمها] ﴿وَصَدَّ﴾ هذه بضم الصاد على أنها مَبْنِيَّةٌ لما لم يُسَمَّ فاعِله، أمَّا «صَدَّ» بفتح الصاد على أنها مَبْنِيَّةٌ على ما سُمِّيَ فاعِله، ولكن هل هي مُتَعَدِّية أو لازِمة، هل مَعْنَاهُ أَنْهُ صَدَّ بِنَفْسِهِ أَوْ صَدَّ غَيْرَهُ؟ تَشْمَلُ الْمَعْنَيْنِ؛ لأنها لفظ مشترك صالح للمعنيين جميعًا، والقاعدة في التفسير أن كل لفظ يَصْلُحُ لِمَعْنَيْنِ لَا يَتَنَافِيَانِ، فإنه يُحْمَلُ عليهما جميعًا، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي أَحَدِهِمَا مَا يُرْجِّحُهِ فَيُرْجَّحُ، فَيُعْمَلُ بِمَا يَتَرَجَّحُ.

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ما كَيْدُهُ إِلَّا فِي تَبَابٍ، والكيد والمكر والخداع وما أشبهها كلها كلمات مُتَقَارِبَةٌ، وَمَعْنَاهَا: أَنْ يَتَوَصَّلَ الْإِنْسَانُ بِالْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ إِلَى مَقْصُودِهِ بِخَصْمِهِ، كُلِّ إِنْسَانٍ يَقْصِدُ مِنْ خَصْمِهِ أَنْ يَكُونَ مَغْلُوبًا، فَيَتَوَصَّلُ إِلَى هَذَا بِأَسْبَابٍ حَقِيقِيَّةٍ لَا يَعْلَمُ بِهَا الْخَصْمُ لِلْوُصُولِ إِلَى هَذَا.

فِرْعَوْنُ كَادٌ كِيدًا فِي أَنْ يَقُولَ لَهُامَانَ: ابْنِ لِي صَرْحًا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرَقِيَ عَلَى هَذَا الصَّرْحِ، فَإِذَا وَصَلَ غَايَتَهُ نَظَرَ أَمَامَ النَّاسِ ثُمَّ نَزَلَ، وَقَالَ: لَمْ أَجِدْ رَبَّ مُوسَى. وَهَذَا تَمْوِيهِ، لَا سِيَّيَا عَلَى عَامَةِ كَالِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ قَدِ بَهَّرَهُمْ هَذَا الظَّالِمُ الطَّاعِيَةُ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ عِنْدَهُمْ حَقِيقَةً، لَكِنْ هَلْ هَذَا الْكَيْدُ يَنْفَعُهُ؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ❀ أي: إلا في خسارة، و(ما) هنا حجازية مُهملة، يعني: أنها لا تعمل، والذي أبطل عملها الإثبات، وابن مالك يقول:

إِعْمَالٌ لَيْسَ أَعْمَلَتْ مَا دُونَ إِنْ مَعَ بَقَا النَّفْيِ.....<sup>(١)</sup>

والنفي هنا لم يبق؛ ولهذا نقول: هي مُهملة لبطلان النفي وانتفائه بـ(إلا).

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: استعلاء فرعون وترفعه، وذلك بتوجيه الأمر إلى وزيره أن يبيّن له صرحاً، وتأمل قوله: ﴿أَبْنِ لِي﴾ ❀ ولم يقل: ابن؛ لأن هذا أعظم في الترفع والتعاضم؛ إذ لو قال: ابن. لكان لأيّ أحد يبيّن؟ ففيه إبهام، لكن إذا قال: لي؛ دلّ هذا على أنه استخدم هذا الرجل الذي هو الوزير استخدماً تاماً.

الفائدة الثانية: أن اتخذ الوزراء كان عرفاً قديماً، سواء كان وزيراً في الخير أو وزيراً في الشر، فمن وزراء الخير قول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ﴾ (٢٩) هَرُونَ أَخِي ❀ [طه: ٢٩-٣٠]، وقول عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حين سأله زعماء الشيعة - وهم الرافضة - عن أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فترحم عليهما، وقال في الثناء عليهما: هُما وزيرَا جَدِّي<sup>(٢)</sup>. يعنِي: النَّبِيَّ - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، فرفضوه؛ لأنهم قد زين لهم سوء عملهم بأن كل من أحبّ أبا بكر وعمر فقد أبغض عليّاً، وعلى هذا يكون النَّبِيُّ ﷺ مُبغِضًا لِعَلِيٍّ؛ لأنه سُئِلَ: أيُّ الرجال

(١) الألفية (ص: ٢٠).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٨٥).



أحبُّ إليك؟ قال: «أبو بكرٍ»<sup>(١)</sup> فعلى قاعدتهم يكون الرسول مُبَغِضًا لِعَلِيٍّ، فانظر كيف كانت عاقبة هذه القاعدة الفاسدة الباطلة.

الفائدة الثالثة: جواز نسبة الشيء إلى الأمر به دون فاعله، تُؤخَذ من قوله: ﴿أَبْنِ لِي صِرْحًا﴾ وهو لا يريد أن هامان يتولَّى البناء بنفسه، بل يأمر؛ لأنه وزير.

الفائدة الرابعة: إثبات علوِّ الله تعالى العلوِّ الذاتي للسرائع السابقة، يُؤخَذ من قوله: ﴿أَبْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ ﴿ فهذا يدلُّ على أن موسى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قد أبلغه بأن الله في السماء.

وعلوُّ الله الذاتي أمر لا يُنكر؛ لأنه دلَّت عليه جميع الدلائل: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كلُّها دلَّت على علوِّ الله عزَّ وجلَّ العلوِّ الذاتي، وأنه سبحانه وتعالى في السماء، وأنه لا يُمكن أن يكون في الأرض، ونحن نُركِّز على هذه النقطة لأهميتها؛ لأنها تتعلَّق بالعقيدة، أمَّا القرآن فما أكثر الأدلَّة المتنوعة الدالَّة دلالة قاطعة على علوِّ الله الذاتي! وكذلك السنة دلَّت على ذلك قولاً وفعلاً وإقراراً، فالنبيُّ عليه الصلوة والسلام أثبت علوَّ الله الذاتي بقوله وبفعله وبإقراره.

أمَّا بقوله فإنه عليه الصلوة والسلام يقول في سُجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»<sup>(٢)</sup>، وأمَّا في فعله فأشار إلى علوِّ الله تعالى في الوقوف بعرفة حين خطب الناس وقال: «اللَّهُمَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، رقم (٣٦٦٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٤)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أشهد<sup>(١)</sup>، وأمّا إقراره فبإقراره الجارية التي قالت: في السماء. لما سألتها: «أين الله؟»<sup>(٢)</sup> وأمّا الإجماع فقد أجمع السلف على ذلك، ما منهم أحدٌ قال: إن الله ليس في السماء. وما منهم أحدٌ قال: إن الله في الأرض. وما منهم أحدٌ قال: إن الله لا يُوصف بعلو ولا سُفول، ولا مُحايثة ولا مُجانبة. يعني: ما منهم أحدٌ قال: إن الله ليس فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا مُتصلاً بالخلق ولا مُنصلاً، كما قاله المعطلة.

فإذا قال قائل: نُسلم أنه لم يرد عنهم النفي، فما هو دليل الإثبات؟

فالجواب: دليل ذلك أنه كل نص في القرآن والسنة لم يأت عن الصحابة خلافة، فإننا نعلم علم اليقين أنهم يقولون به؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ويعرفونه، فإذا خوطبوا بهذا ولم يرد عنهم خلافة دل ذلك على أنهم قائلون به، وهذه نقطة مهمّة تنفعك عند المناظرة مع الخصوم إذا قال لك: أين قال الصحابة: إن الله في العلو مثلاً؟ تقول: قال الصحابة ذلك؛ لأن كل نص جاء بإثبات العلو، ولم يرد عن الصحابة خلافة فإنهم قائلون به قطعاً؛ لأنه نزل بلغتهم وعرفوه وفهموه على ما أراد الله عزّ وجلّ.

وأما العقل فلو سألت أيّ إنسان: هل العلو صفة كمال أو النزول؟ لقال لك: العلو. ولو قلت: العلو صفة أكمل أو المحاذاة؟ لقال: لك العلو.

إذن: فالعلو دلّ العقل على ثبوته لله عزّ وجلّ.

وأما الفطرة فلا تسأل، اسأل عجزاً من العجائز لم تقرأ في كلام المتكلمين المعطلين ماذا تقول لك؟ لو سألتها: أين الله؟ قالت: في السماء. ولا تعرف إلا ذلك،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن

والعجب أن نفس القائلين بالنفي إذا دعوا الله عزَّجَلَّ رفعوا أيديهم قهراً عليهم إلى السماء، وهذا شيء مُسَلَّم، وادَّعَاؤُهُمْ أنهم يقولون: إن السماء قِبلة الداعي كما أن الكعبة قِبلة المُصَلِّي. نقول: إِذَنْ أَنْتُمْ تَدْعُونَ السماء فَوْقَعْتُمْ فِي الشَّرْكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ.

فالحمدُ لله أن علوَّ الله أمرٍ فطري لا يحتاج إلى تعلُّم ولا إلى تكلفٍ!.

ومع ذلك جميع الأدلَّة دَلَّت عليه، ثم يَأْتِي أقوام أعمى الله تعالى بصائرهم، فيقولون: إن الله تعالى ليس في العلوِّ. ماذا يقولون؟ استمع: منهم مَنْ يقول: إن الله في كل مكان، -وهؤلاء حلولية الجهمية- الله في كل مكان، في المساجد، في الأسواق، في البيوت، في الجوّ، في السماء، -والعياذُ بالله- في المراحيض، في كل مكان، وهذا باطل كما تُبطل الشمس ظلمة الليل؛ لأنه يلزم منه واحد من أمرين ولا بُدَّ: إمَّا أن يكون الله مُتعدِّدًا، وإمَّا أن يكون الله مُتجزئًا؛ بعضه هنا، وبعضه هناك، أو مُتعدِّدًا واحدًا هنا وواحدًا هناك، هذا بقطع النظر عمَّا يلزم عليه من اللوازم الفاسدة التي تُوجب أن يكون الله في أقدر الأمكنة وأنتن الأمكنة.

والقول الثاني لمن يُنكرون علوَّ الله الذاتي يقولون: لا نقول: إن الله فوق ولا تحت، ولا يمينٌ ولا شمال، ولا مُتصلٌ بالعالم ولا مُنفصلٌ عن العالم. إِذَنْ هُوَ عَدَمٌ، يَعْنِي قال بعض العلماء: لو قيل: صِفوا لنا العدم. لم نجدَ وَصْفًا أَشْمَلَ مِنْ هَذَا، فَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ إِلَهٌ إِطْلَاقًا.

الفائدة الخامسة: أن من بلاغة المتكلم أن يسلك أقرب الطرق إلى جذب المخاطب، ومنها الإبهام ثم البيان؛ لقوله: ﴿لَعَلِّي أَتْلُعُ الْأَسْبَبَ﴾ (٣١) **أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ** ﴿ وهذا كثير في القرآن وفي كلام البشر.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن السَّمَوَاتِ جَمْعٌ وَعَدَدٌ؛ لقوله: ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وهي كما هو معروف سَبْعَةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا سِدَادًا﴾ [النبا: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وهذا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَالسَّمَوَاتُ هَذِهِ بَيْنَهَا فَجَوَاتٌ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ قَاطِعَةٌ حَدِيثُ الْمِعْرَاجِ<sup>(١)</sup>، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْرُجُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن رُؤَسَاءَ الضَّلَالِ وَأُيُومَةَ الضَّلَالِ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الضَّلَالِ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ، وَيُجَاوِلُونَ أَنْ يَحْوِلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَقِّ؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وقد بَيَّنَّا فِي التَّفْسِيرِ لِمَاذَا قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، فَلَا تَغْتَرَّ بِرُؤَسَاءِ الضَّلَالِ وَأُيُومَةَ الضَّلَالِ وَمَا يَقُولُونَ مِنَ التَّمْوِيهِ وَالِدَجْلِ، وَلَيْسَ هَذَا مَقْصُورًا عَلَى أُيُومَةِ السُّلْطَةِ الَّذِينَ لَهُمُ السُّلْطَةُ، بَلْ حَتَّى عَلَى أُيُومَةِ الدَّعْوَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى أَفْكَارِهِمُ الْهَدَامَةَ وَأَخْلَاقِهِمُ السَّافِلَةَ، تَجِدُ عِنْدَهُمْ مِنَ التَّمْوِيهِ وَالتَّضْلِيلِ مَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ فِخَا يَقَعُ فِيهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ بَصِيرَةٌ.

الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله عَزَّجَلَّ يَتَّبِعِي الْعَبْدَ فَيُزَيِّنُ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ؛ لقوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ وَيَدُلُّ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، فَاحْرِصْ عَلَى الْإِتِّبَاهِ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُزَيِّنُ لَهُ سُوءَ الْعَمَلِ، وَالتَّرْيِينَ نَوْعَانِ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَرَى الْإِنْسَانُ هَذَا السَّيِّئَ حَسَنًا، وَهَذَا أَعْظَمُ النَّوْعَيْنِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، رَقْمٌ (٧٥١٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، رَقْمٌ (١٦٢)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النوع الثاني: أن لا يراه سَيِّئًا فَيَمِيلُ إِلَيْهِ بِهَوَاهُ، وَيَقُولُ: هَذَا سَهْلٌ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، هَذَا مِنَ التَّزْيِينِ فِي الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَرَى السَّيِّئَ سَيِّئًا فَإِنَّهُ سَيَقَعُ فِيهِ إِمَّا رَغْبَةً فِيهِ؛ لِأَنَّهُ زَيْنٌ لَهُ، وَإِمَّا هَوًى فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَاهُ سَيِّئًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ يَصُدُّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ أَيْمَةِ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَكَارُثِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١] فَاحْذَرْ هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةَ لَا يَخْدَعُونَكَ، فَإِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَكِيدُ كَيْدًا لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ أَمَرَ بِبِنَاءِ هَذَا الصَّرْحِ مُكَابِدَةً لِاحْتِقَاقِهَا، وَإِلَّا فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ سَوْفَ يَحْسِرُ نَفَقَاتِ كَثِيرَةٍ عَلَى هَذَا الصَّرْحِ الْعَالِيِّ، لَكِنَّهُ لِعَرَضِهِ وَهَوَاهُ لَا يَهْتَمُّ بِذَلِكَ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ كَيْدَ الْمُضِلِّينَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي خَسَارٍ، كُلُّ مُضِلٍّ فَكَيْدُهُ فِي خَسَارَةٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَيْدُ هَذَا الطَّاعِنِ فِي خَسَارٍ فَمَنْ دُونَهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَلَا شَكَّ؛ وَلِهَذَا حَصَرَ كَيْدَهُ فِي الْخَسَارِ مَا هُوَ إِلَّا فِي خَسَارٍ، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۗ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]؛ أَي: كَيْدًا أَعْظَمَ مِنْ كَيْدِهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۗ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، وَهَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ الَّتِي تُفْرِحُ الْمُؤْمِنَ أَنْ كَيْدَ الْكَافِرِ يَجْعَلُهُ هُوَ الْمَكِيدُ، وَجَاءَ فِي الْآيَةِ بِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ وَبِضْمِيرِ الْفَضْلِ، إِشَارَةً إِلَى ثُبُوتِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَتَأَكُّدُهُ إِلَى ثُبُوتِهِ بِكَوْنِهِ جَاءَ بِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْأَسْمِيَّةَ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ تُفِيدُ الثُّبُوتَ وَالِاسْتِقْرَارَ، وَجَاءَ بِالْحَضَرِ عَنْ طَرِيقِ ضَمِيرِ الْفَضْلِ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.

وهذه الآيات - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - تُفْرِحُ الْمُؤْمِنَ، لَكِنَّ لِحِظُوا أَنَّ هَذَا وَعَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

وهو لا يُخْلِيفُ الميعاد، لِكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِ عَمَلٌ مُضَادٌّ، وَأَنْ الْمُؤْمِنِ إِذَا عَمِلَ الْعَمَلَ الْمُضَادَّ لِكَيْدِ الْكَافِرِينَ يَثِقُ بِوَعْدِ اللَّهِ وَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْكَيْدَ سَيَكُونُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي خَسَارَةٍ مِنْهُ، أَمَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ يَكِيدُ لَهُمْ وَهُمْ الْمَكِيدُونَ. وَلَكِنَّا نَنَامُ عَلَى فُرْشِنَا وَنَدْعُ السَّبَاعَ تَأْكُلُ الْغَنَمَ؛ فَهَذَا غَيْرُ صَاحِحٍ لَا بُدَّ مِنْ عَمَلٍ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: صَاحِحٌ أَنْ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ قَالَ: إِنَّ هَامَانَ لَمْ يَبْنِ لِفِرْعَوْنَ صَرْحًا؟ فَالْجَوَابُ: هَذَا لَا يَظْهَرُ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ يَقُولُ: ابْنِ لِي صَرْحًا. وَلَا يَبِينُهُ هَذَا بَعِيدٌ، إِذْ إِنَّهُ سَيَقُولُ وَالنَّاسُ يَسْمَعُونَ، إِمَّا أَنْ يَكُونُوا حَاضِرِينَ، أَوْ يَبْلُغُهُمُ الْخَبْرُ وَسَيَبْنِي الصَّرْحَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا نَقُولُ: إِنَّ فِرْعَوْنَ اسْتَفَادَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي السَّمَاءِ مِنْ مُوسَى، أَوْ لَا يَكُونُ هَذَا مِنْ فِطْرَتِهِ؟

فَالْجَوَابُ: سَوَاءٌ كَانَ يَفْطُرُهُ أَوْ بَدَعُوهُ مُوسَى، لَكِنَّهُ إِذَا قُلْنَا: بَدَعُوهُ مُوسَى. لَمْ يَبْقَ عَلَيْنَا شَيْءٌ، أَمَّا يَفْطُرُهُ فَقَدْ تَكُونُ انْحِرَافَتْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»<sup>(١)</sup> لَكِنَّ الشَّيْءَ الْمُوَكَّدَ لَدَيْنَا الْآنَ هُوَ قَوْلُ مُوسَى وَتَقْرِيرُهُ بِأَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ.



(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يَصِلُ عَلَيْهِ، رَقْمٌ (١٣٥٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْقَدْرِ، بَابُ مَعْنَى كُلِّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، رَقْمٌ (٢٦٥٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآيتان (٢٨، ٢٩)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُورِ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨-٣٩].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُورِ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ في أول هذه الآيات يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [غافر: ٢٨]، وهنا وما قبلها يقول: ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ ﴾ تحقيقاً لإيانه وأنه مؤمن حقاً ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُورِ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.

قوله: ﴿ وَيَنْقُورِ ﴾ سبق الكلام على إعرابها، وبيننا أنها مُنادى منصوبة مُقدَّرة على ما قبل ياء المُتَكَلِّمِ المحذوفة للتخفيف، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُورِ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [«أَتَّبِعُونِي» بإثبات الياء وحذفها] يعني أنها قِراءَتَانِ؛ «أَتَّبِعُونِي» و«أَتَّبِعُونَ» أمَّا على وجود الياء فالأمر ظاهر؛ لأنها ياء المُتَكَلِّمِ، وأمَّا على حذفها فهي محذوفة للتخفيف، وقوله: ﴿ أَتَّبِعُونَ ﴾ فعل أمر، و﴿ أَهْدِكُمْ ﴾ جواب فعل الأمر؛ ولهذا وقع مجزوماً بحذف الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، وأصل ﴿ أَهْدِكُمْ ﴾: أهديكُم، لكن

الفِعْلُ الْمُضَارِعُ إِذَا وَقَعَ جَوَابًا لِلْأَمْرِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مَجْزُومًا، قِيلَ: إِنَّهُ مَجْزُومٌ بِهِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مَجْزُومٌ بِشَرْطِ مُقَدَّرٍ، وَالتَّقْدِيرُ: إِنْ تَتَّبَعُونِي أَهْدِكُمْ. وَهَكَذَا يُقَالُ فِي كُلِّ مَا جَاءَ عَلَى هَذَا التَّرْكِيبِ ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أَي: طَرِيقَهُ، وَالهِدَايَةُ هُنَا هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَادَ بِهَا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، إِذْ إِنْ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ تَكُونُ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]؛ أَي: لَا تَهْدِي هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ، فَقَوْلُهُ: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يَعْنِي: أَدُلُّكُمْ عَلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَسَبِيلِ الرَّشَادِ ضِدُّ سَبِيلِ الْغَيِّ، وَالرَّشَادُ هُوَ حُسْنُ التَّصَرُّفِ، وَالْغَيُّ هُوَ الضَّلَالُ أَوْ ارْتِكَابُ الْخَطَا عَنْ عَمْدٍ.

قَوْلُهُ: ﴿يَقَوْمٍ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لَمَّا رَغِبَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ زَهَّدَهُمْ بِالدُّنْيَا؛ لِأَنَّ أَصْلَ ضَلَالِ بَنِي آدَمَ هُوَ الطَّمَعُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسُ إِنَّهَا يَكُونُ عَلَيْهَا؛ وَهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَحْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا فَنَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا -أَي: مَنْ قَبْلُنَا- فَتَهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»<sup>(١)</sup> فَهُوَ لَمَّا طَلَبَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ بَيْنَ لَهُمْ حَالِ الدُّنْيَا الَّتِي يَتَنَافَسُونَ فِيهَا وَالتِّي صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِهَا.

فَقَالَ: ﴿يَقَوْمٍ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أَدَاةُ حَضْرٍ، وَ﴿هَٰذِهِ الْحَيَاةُ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿مَتَّعٌ﴾ خَبْرُهُ؛ أَي: مَا هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ يَتَمَتَّعُ بِهِ الْإِنْسَانُ قَلِيلًا ثُمَّ يَزُولُ؛ وَهَذَا قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي التَّفْسِيرِ: [﴿مَتَّعٌ﴾ تَمَتَّعَ يَزُولُ].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ ﴿الْآخِرَةَ﴾ مَا بَعْدَ الدُّنْيَا هِيَ دَارُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



القرار، (هي) ضمير فصل، و﴿دَارُ الْفَكَارِ﴾ خبر (إن)، واعلم أن ضمير الفصل ضمير لا محل له من الإعراب لا يعرب مبتدأ ولا خبرًا، ولا أي شيء، لا محل له من الإعراب، واعلم أيضًا أن له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التوكيد.

والفائدة الثانية: الحصر.

والفائدة الثالثة: تمييز الخبر من الصفة.

ويظهر هذا بالمثال، فإذا قلت: زيدٌ هو الفاضلُ. فهو ضمير فصل استفدنا منه ثلاث فوائد: أولاً: التوكيد حيث أكدنا أن زيدًا هو الفاضلُ، بل حيث أكدنا أن زيدًا فاضلٌ، ثم الحصر؛ لأنك قلت: زيد هو. أي: لا غير زيد هو الفاضل، الفائدة الثالثة: التمييز بين الصفة والخبر، فإنك لو قلت: زيدٌ الفاضلُ. لاحتُمِلَ أن يكون (الفاضل) صفة لـ(زيد) وأن الخبر لم يأت بعد، فإذا قلت: هو الفاضلُ. تعيّن أن تكون الفاضلُ خبرًا، فبذلك يحصل التمييز بين الخبر وبين الصفة.

وضمير الفصل لا محل له من الإعراب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلْنَا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، فهنا جاءت ﴿الغالبين﴾ خبرًا لـ(كان)، ولو كان له محل من الإعراب لكانت: إن كانوا هم الغالبون. لكنه ليس له محل من الإعراب، إذن ما هي دار القرار؟

هي الدار الآخرة، وأكد ذلك بالإتيان بضمير الفصل، وأن الدار الآخرة هي دار القرار؛ أي: دار المستقر؛ ولهذا يؤتى بالموث على صورة كبش فيوقف بين الجنة والنار، ويقال: «يا أهل النار! فيشرَّبون ويطلِّعون، وكذلك يُقال: يا أهل الجنة!

فَيَشْرَبُونَ وَيَطَّلِعُونَ، فيُقال لهم: هل تَعْرِفونَ هذا؟ فيقولون: نَعَمْ هذا الموت، فيُذَبَّحُ أمامهم، ويُقال: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ ولا مَوْتُ ويا أَهْلَ النارِ خُلُودٌ ولا مَوْتُ».

إِذَنْ: هذا القَرَارُ ما دام ليس فيه انْتِقال عن هذه الدارِ فهي دار القَرَارِ.

إذا كان هي دار القَرارِ والدنيا مَتاع، فالأولى أن يَعْمَلَ له هي الآخِرَةُ؛ لأنها دار القَرارِ، أمَّا هذه فهي دار عُبُورِ دار مَتاع «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

### من فوائدِ الآيتينِ الكريمتين:

الفائدةُ الأولى: أوَّلًا تَلَطَّفَ هذا الداعي، هذا الرَّجُلُ المُؤْمِنُ الذي يَدْعُو إلى الله؛ لقوله: ﴿يَقُومِ﴾ فإن هذا لا شَكَّ من أساليب التَّلَطُّفِ.

الفائدةُ الثانيةُ: قُوَّةُ جَأَشِ هذا المُؤْمِنِ؛ حيث كان رَجُلًا واحدًا يَقولُ لهؤلاءِ الجماعة: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ وهذا - كما قلنا في التفسير - فِعْلُ أمرٍ.

الفائدةُ الثالثةُ: أنه يَنْبَغِي للداعية إذا دعا إلى شيء أن يُبيِّن ما يكون به التَّرغيبُ؛ أي: تَرْغيبُ المدعوِّ؛ حتى يَنْشِطَ وَيَفْعَلَ؛ لقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

الفائدةُ الرابعةُ: الإشارةُ إلى كَذِبِ فرعونَ حين قال لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَأَى وَمَا أهدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ففَرَّقَ بين قول فرعونَ وقولِ هذا المُؤْمِنِ، قول فرعونَ كَذِب، وقول هذا الرَّجُلِ حَقٌّ لا شَكَّ.

الفائدةُ الخامسةُ: أن السُّبُلَ تَحْتَلِفُ: سُبُلٌ ضَلال، وسُبُلٌ غَيِّ، وسُبُلٌ رَشاد، فالسَّبِيلُ المُوَصِّلُ إلى الله هذا سَبِيلُ الرَّشاد، والسُّبُلُ المُتَفَرِّقةُ هذه سُبُلٌ ضَلال،

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الفائدة السادسة: بيان حال الدنيا، وأنها متاع يتمتع بها الإنسان ثم تزول، إمامًا بزوال هذا التمتع، وإمامًا بزوال التمتع؛ ولهذا انظر مصارع الدنيا هل فيها أحد خلد؟ وهل فيها أحد خلد له ما بين يديه؟ كل ذلك لم يكن، فالدنيا إمامًا زائلة وإمامًا أن يزال عنها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَأَنْتَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

الفائدة السابعة: انحصار الدنيا في هذه الكلمة القليلة، وهي ﴿مَتَعٌ﴾ كل الدنيا متاع، لا تتحمل أكثر من ذلك.

الفائدة الثامنة: الاستعداد والرغبة في الآخرة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، فإذا اجتمع هذا إلى ما قبله صار متضمنًا لفائدتين: وهما الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.



## الآية (٤٠)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

ثم قال: ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هذا كالبيان لحال الآخرة، وكيف يُجَازَى الناس فيها، فقال: ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ ﴿ مَن ﴾ شَرْطِيَّة، و﴿ عَمِلَ ﴾ فِعْل الشَّرْطِ، وجملة: ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ هذه جوابُ الشَّرْطِ، وقوله: ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ (مِثْل) مَفْعُول ﴿ يُجْزَىٰ ﴾ الثاني، والمَفْعُول الأوَّل هو نَائِبُ الْفَاعِلِ الْمُسْتَتِرِ.

قوله: ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ السَّيِّئَةُ ما يَسُوء حَالًا أَوْ مَالًا، فما أَصَاب الإنسان من مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ عَاهَةٍ أَوْ ما أَشْبَهَ ذَلِكَ هذا سُوءٌ، لكنه في الحال، وما أَصَاب الإنسان من عُقُوبَةٍ على أَعْمَالِهِ فهذا سُوءٌ، ولكنه في المَالِ، وقد يَكُون في الحال قد يُعَاجِل الإنسان بالعُقُوبَةِ، فَالسَّيِّئَةُ كل ما يَسُوء حَالًا أَوْ مَالًا ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ السَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ مِثْلُهَا، حتى وإن كان الإنسان في مَكَّةَ، أَوْ في المَدِينَةِ، أَوْ في المَسْجِدِ، أَوْ في أَي مَكَانٍ، أَوْ في أَيِّ زَمَانٍ أيضًا، حتى ولو كان في الأشْهُرِ الحُرْمِ التي نَصَّ

الله تعالى على النهي عن الظلم فيها، فقال: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۗ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، فإن السيئة لا تزال.

ولكن اعلّموا أنها قد تكون أشدّ من حيث الكيفية لا من حيث الكمية. يعني: أننا نرى أن ضربة واحدة قد تكون أشدّ على الإنسان من عشر ضربات بشدتها وشدّة وقعها؛ ولهذا قال الله تعالى في الحرم المكّي: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاكِمِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وبهذا التقرير الذي دلّ عليه الكتاب والسنة تبين أن ما يذكر عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه خرّج من مكّة وقال: لا أبقّى في بلد سيئاته وحسناته سواء. فإن هذا لا يصحّ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وابن عباس أفقه وأعلم من أن يلتبس عليه هذا الأمر، مع أن الله قال في سورة الأنعام وهي مكّيّة: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ﴿وَمَنْ﴾ هذه شرطية، و﴿صَالِحًا﴾ يجوز أن نعربها صفة لموصوف محذوف، والتقدير: عملاً صالحاً، ويجوز أن نجعلها مفعولاً مطلقاً؛ لأن وصف المصدر المحذوف يصحّ أن يقع الإعراب عليه على أنه مفعول مطلق، أو على أنه صفة لموصوف محذوف، والتقدير: عملاً صالحاً. والعمل الصالح ما توافرت فيه شروط القبول، وذلك بأن يكون خالصاً لله على شريعة الله، بأن يجمع بين أمرين: الإخلاص لله، والمتابعة لرُسله عليهم الصلاة والسلام، هذا العمل الصالح.

إذن هو ما توافرت فيه شروط القبول وهما:

الأول: الإخلاص لله عزّ وجلّ.

والثاني: المتابعة لرُسل الله سواء مُحَمَّد أو غيره، لكن من المعلوم أنه بعد بعثة مُحَمَّد ﷺ لا يَصِحُّ اتِّباع غيره.

إذا فُقِدَ الإِخْلَاصُ فَلَيْسَ الْعَمَلُ صَالِحًا، بل هو مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرِكُهُ»، وَإِذَا فُقِدَتِ الْمَتَابَعَةُ لَمْ يَكُنِ الْعَمَلُ صَالِحًا وَكَانَ مَرْدُودًا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَفَى﴾ بَيَانٌ لـ(مَنْ) فـ(مَنْ) هُنَا بَيَانِيَةٌ بَيَانٌ لـ(مَنْ)؛ لِأَنَّ (مَنْ) اسْمٌ مَوْصُولٌ، وَاسْمُ الْمَوْصُولِ الْأَصْلُ فِيهِ الْإِبْهَامُ، فَإِذَا وُجِدَ بَعْدَهُ بَيَانٌ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُبَيَّنًا لِإِبْهَامِهِ ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هَذَا الشَّرْطُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا فَإِنَّ عَمَلَهُ الصَّالِحَ لَا يَنْفَعُهُ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ بِمَا يَتَعَدَّى نَفْعُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرِسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

فغَيْرُ الْمُؤْمِنِ لَا يَنْفَعُهُ عَمَلُهُ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَافِرًا أَصْلَحَ الطَّرِيقَ، وَمَدَّ أُنَابِيْبَ الْمَاءِ يَسْقِي النَّاسَ، وَبَنَى الْمَسَاجِدَ وَطَبَعَ الْكُتُبَ، وَكَسَا الْعُرْيَانَ، وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ فَلَا يَنْفَعُهُ هَذَا؛ وَلِهَذَا فَلَا يَنْفَعُ الْمُتَأَفِّقِينَ عَمَلُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ، وَبِهِ نَعْرِفُ أَنَّ الْإِيْمَانَ هُوَ الْأَصْلُ، آمِنٌ ثُمَّ أَعْمَلٌ، أَمَّا الْعَمَلُ بَدُونَ إِيْمَانٍ هَبَاءٌ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَلَّا يَجْلَعَ عَنَا وَعَنْكُمْ الْإِيْمَانَ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، لَا بُدَّ مِنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)،

من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإيمان أولاً، ثم إذا آمنت فاعمل، وإذا عملت فأخلص واتبع.

قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ جملة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ جواب الشرط، وهو ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ وهنا قال: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ باسم الإشارة الموضوع للبعيد، إشارة إلى علو مرتبتهم، كأنك تشير إليهم وهم فوق ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، قال المفسر رحمه الله: [بصم الباء وفتح الحاء «يَدْخُلُونَ»، وبالعكس] أي: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ فيجوز «يَدْخُلُونَ» أي: يدخلهم الله، ويجوز ﴿يَدْخُلُونَ﴾؛ أي: هم بأنفسهم لكن بإذن الله.

ومن المعلوم أن أهل الجنة لا يدخلون الجنة إلا بعد الشفاعة، بعد شفاعة محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في فتح الجنة؛ لأنهم يصلون إليها وبابها مغلق فيطلبون من يشفع لهم إلى الله عز وجل أن يفتح لهم الباب، فيشفع لهم النبي ﷺ وحده في أن يفتح لهم الباب فيفتح.

قوله: ﴿رِزْقُونَ فِيهَا بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿رِزْقُونَ﴾ الرزق بمعنى: العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾؛ أي: أعطوهم، فمعنى ﴿رِزْقُونَ﴾ إذن: يعطون، وقوله: ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير تبعة، يعني: لا يحاسبون عليه، ولا ينقدون له ثمنًا، في الدنيا لا تملك رزقًا إلا بثمن، لكن في الآخرة تُعطى الرزق بغير ثمن وبغير تبعة، لا تُحاسب عليه؛ لأن الثمن كان مُقدّمًا سلّمًا وهو نقد الثمن وتأخير الثمن، فهنا الثمن مُقدّم، الثمن كان في الدنيا حين عملوا بطاعة الله، فكان هذا هو العوض، فالقوم قد أسلموا في هذا المبيع وقدموا ثمنه؛ ولهذا قال: ﴿رِزْقُونَ فِيهَا بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن عمل السيئة لا يزداد إثمًا على قدر السيئة؛ لقوله هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

الفائدة الثانية: أنه في مقام التهديد ينبغي أن يبدأ بما يدلُّ على التهديد قبل أن يبدأ بما يدلُّ على التَّرعيب؛ لأنه هنا بدأ بالسيئة، ثم أعقب بالصالح.

وانظر إلى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي مَقَامِ ذِكْرِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ قَالَ: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وَلَمَّا أَرَادَ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ نَفْسِهِ وَيُبَيِّنَ كَمَالَ صِفَاتِهِ قَالَ: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، فلكلِّ مقام مقال.

فالإنسان ينبغي له أن يرتب المعاني حسب ما يقتضيه الحال، لا يلقي الحديث على عواهنه وفضل الله يؤتاه من يشاء، قد يريد الإنسان هذا الشيء، ويريد أن يرتب كلامه، وأن يبينه على ما يقتضيه الحال؛ ولكن يخونه التعبير، إلا أن الإنسان إذا استعان بالله سبحانه وتعالى واعتمد عليه يسر له الأمر.

الفائدة الثالثة: أنه لا يقبل العمل إلا إذا كان صالحًا ولا ينفع صاحبه إلا إذا كان صالحًا، وذكرنا أن الصالح من اجتمع فيه شروط القبول، وهما الإخلاص والمتابعة؛ فبفقد الإخلاص يكون الإنسان مُشركًا، وبفقد المتابعة يكون الإنسان مُبتدعًا؛ ولهذا لا يقبل العمل إلا الخالص الموافق للشَّرع، فبفقد الإخلاص يقع الإنسان في الشُّرك، وبفقد المتابعة يقع الإنسان في البدعة.

والأول أشدُّ، وقد يكون الثاني حسب المخالفة، لكن الشُّرك من حيث هو



أَعْظَمُ مِنَ الْبِدْعَةِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْبِدْعَةَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وَالآيَةُ بِالتَّدرِيجِ مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى، وَصَاحِبِ الْبِدْعَةِ يُضُرُّ نَفْسَهُ وَيُضُرُّ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ إِمَامًا يَدْعُو إِلَى مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ، وَالذِّي يَظْهَرُ أَنَّ الشَّرْكَ مِنْ حَيْثُ هُوَ شِرْكٌ أَعْظَمُ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ المُرْتَبُّ عَلَى الْبِدْعَةِ أَشَدَّ مِنَ المُرْتَبُّ عَلَى الشَّرْكَ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الذُّكُورَ وَالإِنَاثَ مُشْتَرِكِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَاقِبُ الأُنثَى أَكْثَرَ مِنْ عُقُوبَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الرَّجُلَ أَكْثَرَ مِنْ عُقُوبَةِ الأُنثَى، وَكَذَلِكَ لَا يَجْزِي الرَّجُلَ أَكْثَرَ مِنْ جِزَاءِ الأُنثَى، وَلَا الأُنثَى أَكْثَرَ مِنْ جِزَاءِ الرَّجُلِ؛ لِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى﴾، وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥].

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا مَبْنِيًّا عَلَى الإِيمَانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وَالجُمْلَةُ كَمَا تُعْرَبُونَهَا أَيُّهَا المُعْرَبُونَ، الجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الحَالِ يَعْنِي: وَالْحَالُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا نَسَأَلُ: هَلْ عَمَلُ المُنَافِقِ يَنْفَعُهُ؟

وَالجَوَابُ: لَا، لِقَدْرِ الإِيمَانِ فَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، وَهَلِ الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالقَدَرَ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، أَوْ هُوَ إِيْمَانٌ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟

الجَوَابُ: الثَّانِي، فَمَنْ جُمِلَ الإِيمَانُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مَبْنِيَّةً عَلَيْهِ أَنْ تُؤْمِنَ بِالثَّوَابِ عَلَى العَمَلِ؛ وَلهَذَا إِذَا عَمِلَ الإِنْسَانُ العَمَلَ الصَّالِحَ وَهُوَ يَرْجُو هَذَا الثَّوَابَ، لَا شَكَّ أَنَّهُ سَيَزِدَادُ رَغْبَةً فِي العَمَلِ، وَسَيَزِدَادُ إِحْسَانًا لِلعَمَلِ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ السَّلْعَةَ عَلَى قَدْرِ الثَّمَنِ، فَإِذَا كُنْتَ تَعْمَلُ وَأَنْتَ تَشْعُرُ بِأَنَّكَ سَتُجَازَى

على هذا العملِ مُجازاة تامَّةٌ فسوف تُحسِن العملَ لأجل أن يُحسَن لك الثوابُ  
والجزاء، وهذه مسألةٌ مهمَّةٌ يغفل عنها الإنسان كثيرًا؛ أي: يغفل الإنسان كثيرًا عن  
كونه ينوي بذلك الثوابِ الذي أعدَّه الله لعامِلِ هذا العملِ.

الفائدة السادسة: أن رِزق الجنة ليس فيه حساب، يعني: أنه لا يُطلب من  
الإنسان عوض، ولا يلحقه تبعه؛ لقوله: ﴿رِزْقُونَ فِيهَا بغيرِ حسابٍ﴾.



## الآيات (٤١-٤٣)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤١﴾ وَتَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

•••••

ثم قال هذا الرجل الذي آمن: ﴿وَتَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

هذا استنفهام تعجب وإنكار، كأنه يقول: عجباً لكم أدعوكم إلى الجنة وتدعونني إلى النار! وهذا والله محلُّ عجب، محلُّ العجب أن تدعو رجلاً إلى الجنة وهو يدعوك إلى النار، فتأتي إلى رجل تقول: يا فلان اترك شرب الخمر، شرب الخمر حرام، ولا يجوز، من شربه في الدنيا لم يشربه في الآخرة، هو أمُّ الحبائث مفتاح كل شرٍّ، فيقول لك: يا ولد لذة وطرب وأنس وسرور، اشرب حتى ترى، إذا شربت كأنك ملك الملوك، ثم يرغبك، ثم يقول له أيضاً يميني يقول: اشرب. وإذا شربت وحصلت لك اللذة والطرب، فاستغفر الله، الباب مفتوح، فالأحق بالإجابة الأول دون الثاني.

فهذا يقول: ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ وهذا الاستنفهام

- كما قلت لكم - استنفهم تعجب وإنكار، وهو محل التعجب ومحل الإنكار أيضًا، والله أعلم.

وجملة ﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، وليست استثنائية ولا حالية كما قيل به، بل هي معطوفة على ما سبق؛ لأن التعجب إنما يكون من اجتماع الأمرين أنه يدعوهم إلى النجاة، وهم يدعوونه إلى النار.

وقوله: ﴿إِلَى النَّجْوَةِ﴾ يعني: النجاة إلى النار ولم يقل: إلى الجنة مع أنه قال: ﴿وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾؛ لأنهم هم يدعوونه إلى الهلاك، يدعوونه إلى النار، فقابل دعوته بدعوتهم، فكأنه يقول: أنا أدعوكم إلى النجاة من النار وأنتم تدعونني إلى النار، والدعوة إلى النار ليس أن يقول القائل: هلموا إلى النار أيها الناس. لكنها الدعوة إلى عمل أهل النار، وليعلم أن النار حُفَّتْ بالشّهوات، وأن الجنة حُفَّتْ بالمكّارم، وعمل أهل النار مبنيٌّ على الشّهوات أو على الشّبّهات يعني: إمّا جهالات وضلالات كعمل النصارى، وإمّا شّهوات كعمل اليهود، وعلى هذين يدور عمل أهل النار الشّبّهات والشّهوات، والشّبّهات دواؤها العلم، والشّهوات دواؤها الحزم والإرادة التامة لما يُحِبُّه الله ويرضاه.

﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ ثُمَّ بَيْنَ بَعْدَ أَنْ أَجْمَلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ بَيْنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَدْعُوْنَهَا:

وقوله: ﴿تَدْعُونِي لِأَكْفَرُ﴾ اللّام هنا لبيان المدعوِّ إليه. يعني: تدعونني لهذا، وعلى هذا فـ﴿لِأَكْفَرُ﴾ منصوبة بـ(أن) مضمرة بعد اللّام على مذهب البصريين، أو بالّلام على مذهب الكوفيين، ﴿لِأَكْفَرُ بِاللّهِ﴾؛ أي: أجدّه وأنكره، والمراد إنكار وخذانيته بدليل قوله: ﴿وَأَشْرِكْ بِهِ﴾ وقد يُقال: إن المراد إنكار وجوده

بالكُليَّة، أو الإِشراك به مع الإقرار به، فيكونون يَدْعُونَهُ إِلَى شَيْئَيْنِ إمَّا إنكار الخالق عَزَّوَجَلَّ، وهذا مُستفاد من قوله: ﴿وَأَشْرِكْ بِهِ﴾؛ أي: أَجْحَدَهُ، أو إثباته مع وجود شريك له، وهذا مُستفاد من قوله: ﴿وَأَشْرِكْ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا قَيْدٌ مُبَيَّنٌ للواقع، وأن كل مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ بِلَا عِلْمٍ، بل بما يُعَلِّمُ بِالْفِطْرَةِ خِلَافَهُ، ولكن من المَعْلُومِ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ بِلَا عِلْمٍ فَإِنَّهُ لَا ثُبُوتَ لَهُ وَلَا أَصْلَ لَهُ.

فالصَّلَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾؛ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ كُلَّ قَيْدٍ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ أَوْ الْغَالِبِ أَوْ الْمُبَالَغَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا مَفْهُومَ لَهُ.

وقوله: ﴿وَأَشْرِكْ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ﴾ بدأ هنا بِاسْمِ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِيهِ؛ إِذْ إِنْ هُوَ لَاءِ أَقْبَاطٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْعِزَّةَ لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ ولم يَقُلْ: إِلَى الْغَفُورِ الرَّحِيمِ. بل قَالَ: ﴿إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ﴾ يَعْنِي: ﴿الْعَزِيزِ﴾ الْغَالِبِ، فَيُهْلِكُكُمْ إِذَا أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِهِ أَوْ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿الْفَقْرِ﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ مَا سَبَقَ إِنْ أَنْتُمْ آمَنْتُمْ بِهِ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ فَهْمِهِ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنْ الْمَقَامَ يَقْتَضِي: وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَفُورِ الرَّحِيمِ. لَكِنِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ الْمَقَامَ يَقْتَضِي ذِكْرَ اسْمِهِ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّ هُوَ لَاءِ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ فَوْقَ النَّاسِ، وَأَنَّ رَبَّهُمْ فِرْعَوْنُ، وَأَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمْ.

وقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَ﴿الْفَقْرِ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَالْغَفُورِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ.

وَلِيُعَلِّمَ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: الْأَوَّلُ مَا كَانَ مُشْتَقًّا مِنْ وَصْفٍ مُتَعَدِّدٍ، فَهَذَا لَا يَتِمُّ الْإِيْبَانُ بِهِ إِلَّا بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

الأول: إثباته اسماً لله، والثاني: إثبات الصفة التي دلَّ عليها، والثالث: إثبات الحكم المترتب على هذه الصفة.

والقسم الثاني غير مُتعدِّد، لا يَتِمُّ الإيمان به إلا بإثبات اثنين، إثباته اسماً من أسماء الله، وإثبات الصفة التي دلَّ عليها؛ لأن كل اسم من أسماء الله يدلُّ على صفة ليس لله اسمٌ يكون جامداً، خلافاً لمن قال: إن كلمة (الله) اسمٌ جامد غير مُشتقٍّ، وهذا ليس بصحيح، ما من اسمٍ من أسماء الله إلا وهو مُشتقٌّ؛ لأن الله وصفَ أسماءه بأنها حُسنَى، وما لا يَتَضَمَّن من وصفٍ ليس بحسن فضلاً عن أن يكون أحسن.

نَضْرِب أمثلة لهذا: (الحي) من اللازم تُؤمِّن به اسماً من أسماء الله، وبالحياء التي دلَّ عليها الاسم، و(السميع) مُتعدِّد تُؤمِّن بالسميع اسماً لله، وبالسمع صفة لله، وبأنه يسمع إثباتاً للحكم، وهو الأثر المترتب على هذه الصفة.

ثمَّ اعلم أن الاسم يَتَضَمَّن أحياناً صفة وأحياناً صفتين، وأحياناً أكثر؛ لأن أنواع الدلالة ثلاثة: مُطابِقة، وتَضَمَّن، والتزام.

فمثلاً من أسماء الله تعالى الخلاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦] والخلاق والخالق من أسماء الله، مثل الغفور وغازي الذنوب والغفار؛ فتؤمِّن بالخلاق اسماً من أسماء الله، وتؤمِّن بصفة الخلق التي تَضَمَّنها اسم الخلاق، وإيمانك بالاسم والصفة هذا إيمان بدلالة المُطابِقة، وإيمانك بالاسم وحده أو بالصفة وحدها إيمان بدلالة التَضَمَّن، ثمَّ إيمانك بأنه عليم قدير، إيمان بدلالة الإلتزام؛ لأنه ما من خلاق إلا وهو عليم، وما من خلاق إلا وهو قادر؛ لأنه إن كان جاهلاً فكيف يخلق، وإن كان عاجزاً فكيف يخلق؟! فدلالة الخلاق على العلم والقدرة دلالة التزام.

وهذه الدلالة - أعني: دلالة الإلتزام - يتفاوت فيها الناس تفاوتًا كثيرًا، فمن الناس من يعطيه الله تعالى فهما يُدرك به اللوازم التي تلزم على هذا الاسم، ومن الناس من هو دون ذلك، فتجد بعض الناس يستنبط فوائد عدة بدلالة النزول، وآخر لا يقدر، وفضل الله تعالى يؤتیه من يشاء.

والعزیز بمعنی: ذي العِزَّة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [الصفات: ١٨٠]، والعِزَّة قالوا: إنها ثلاثة أنواع: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناع، عِزَّة القَدْر بمعنی أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَزِيزٌ قَدْرًا؛ بحيث لا يكون مماثل له، وعِزَّة الامْتِناع يعنی: أنه عَزِيزٌ جَلَّ عَزِيزٌ، أي: يمتنع أن يناله السوء، والعزیز يأتي بمعنی الامتناع في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِيزٌ﴾ [إبراهيم: ٢٠]؛ أي: بممتنع، والثالث: عِزَّة القَهْر بمعنی: أنه الغالب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] العِزَّة يعنی: الغلبة، إذا كان العزیز بمعنی: الغالب فهو من الأسماء، عز أي: غلب فهو غالب، ومُقابله مغلوب، وإذا كانت عز بمعنی: امتنع أو بمعنی: كان ذا قدر عظيم فهو لازم.

إذن نقول: العزیز من جهة تكون من الأسماء المتعدية إذا كانت بمعنی: الغالب، ومن جهة أخرى تكون غير متعدية إذا كانت بمعنی: الامتناع أو بمعنی: القدر.

وهنا جملة معترضة؛ قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴿هل الجواب مطابق لقولهم، أو غير مطابق؟

الجواب: ﴿لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ المطابق أن يقول: والله أعز، والله أعزُّ والمؤمنون، لكن لم يذكر هذا، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ إشارة إلى

أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا عِزَّةَ لَهُمْ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: اللَّهُ أَعَزُّ. لَأَثْبَتَ لِلْمُنَافِقِينَ عِزَّةً، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ عِزَّةٌ، حَصَرَ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه من بلاغة القرآن، وإذا تأملت القرآن -سُبْحَانَ اللَّهِ- تَبَيَّنَ لَكَ أُمُورٌ تَبْهَرُكَ فِي دَلَالَتِهِ وَإِشَارَاتِهِ وَإِيَاءَاتِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿الْفَقْرُ﴾ اسمٌ من أسماء الله المتعدِّية؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

إِذْنُ: لَا بُدَّ أَنْ تُثَبِّتَ الْغَفَّارَ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ تُثَبِّتَ الصِّفَةَ وَهِيَ الْمَغْفِرَةُ ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]، وَتُثَبِّتُ أَنَّهُ يَغْفِرُ وَيُوصِلُ الْمَغْفِرَةَ مَنْ شَاءَ.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ، وَالْإِشْرَاقُ بِهِ ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾؛ أَي: لَيْسَ لَهُ اسْتِجَابَةٌ دَعْوَةٍ ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ وَلَا جَرَمَ أَيضًا أَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا]؛ يَعْنِي: أَنَّ مَعْنَى لَا جَرَمَ حَقٌّ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ (لَا) زَائِدَةً، وَ(جَرَمَ) بِمَعْنَى: حَقًّا، وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمَفْسِّرُ، وَالْمُعْرَبُونَ اخْتَلَفُوا فِيهَا، وَالصَّوَابُ فِي إِعْرَابِهَا أَنْ (لَا) نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، وَ(جَرَمَ) اسْمُهَا، وَمَعْنَى (لَا جَرَمَ): أَي لَا شَكَّ، أَوْ لَا بُدَّ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ وَالتَّرْكِيبُ وَاضِحٌ، وَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يُقَدَّرَ أَنْ (لَا) زَائِدَةٌ وَ(جَرَمَ) بِمَعْنَى: قَطْعٌ، وَأَنَّ مَصِيرَ الْجُمْلَةِ إِلَى أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا لِعَامِلٍ مَحذُوفٍ يَعْنِي: أَحَقُّ حَقًّا أَنْ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا، إِذَا قُلْنَا: لَا شَكَّ أَنْ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ إِلَى آخِرِهِ، لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ زَالِ الْإِشْكَالِ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ (جَرَمَ) اسْمٌ (لَا)، وَإِنَّمَا دَخَلَ فِي تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ خَبَرٌ (لَا)،



والمعنى يقول: لا شك ولا اذتياب أن الذي تدعونني إليه ليس له دعوة.

وقوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (ما) مربوطة بـ(أن)، والظاهر وحسب القواعد المعروفة أن تكون مفعولة، لأن المعنى: لا جرم أن الذي تدعونني إليه، وإذا كانت (ما) موصولة فإنها تُفصل عن (أن) كتابة، لكن رسم المصحف تمشي فيه العلماء على الرسم العثماني؛ احتراماً للقرآن أن يُغير؛ ولهذا نجدون الصلاة في المصحف مكتوبة بالواو، والزكاة بالواو، والربا بالواو، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] بالتاء المفتوحة، كلُّ هذا أتباعاً للرسم العثماني؛ احتراماً لكتاب الله أن يدخله التغيير.

وقد اختلف العلماء: هل يكتب القرآن حسب القواعد وفي كل وقت بحسبه، أو على الرسم العثماني؟ فقول: إنه يجوز أن يكتب على القواعد في كل وقت بحسبه؛ لأن المقصود أن يتلى كتاب الله على حسب ما نزل لا على حسب ما كتب، والقرآن نزل مقروءاً؛ إذن الكتابة ما هي إلا اصطلاحات تخضع لأعراف الناس.

والقول الثاني: إنه لا يجوز أن يُغير أبداً؛ سداً للباب، ومنعاً للتغيير؛ حتى لا يجروا أحد أن يُغير في كتاب الله عز وجل، وهذا لا شك أنه يرمي إلى قوة احترامنا للقرآن الكريم، والأول يرمي إلى قوة إيصال القرآن إلى الناس على وجه لا إشكال فيه.

والقول الثالث: إنك إن كتبت للدارسين المبتدئين، فلا بأس أن تكتبه حسب القواعد المعروفة؛ لأن الدارسين المبتدئين لا يعرفونه، وأما إذا كنت تريد أن تكتبه ليقرأ فهذا يكتب على حسب الرسم العثماني.

والظاهر أن هذا القول المفصل أرجح الأقوال الثلاثة.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ (أَنَّ) حَرْفٌ تَوْكِيدٌ يَنْصَبُ الْمُبْتَدَأَ وَيَرْفَعُ الْخَبَرَ، وَ(مَا) اسْمُهَا، وَ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ خَبَرُهَا الْجُمْلَةُ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ لِأَعْبَدَهُ]، وَلَكِنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ قَاصِرٌ، فَالَّذِي دَعَوْهُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفُرَ بِاللَّهِ وَيُشْرِكَ بِهِ، فَهُمْ دَعَوْهُ إِلَى أَمْرَيْنِ، وَالْمَفْسِّرُ قَصَرَ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ، وَهَذَا إِشْرَاكٌ.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أي: ليس له استجابة دَعْوَةٍ، والصواب أنه ليس له دَعْوَةٌ يُدْعَى بِهَا، وَلَا دَعْوَةٌ يُجِيبُهَا، فَمَعْنَى ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾: لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُدْعَى، وَهُوَ أَيْضًا لَا يَسْتَجِيبُ إِذَا دُعِيَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ يَنْفَعُواكُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، هَذَا الَّذِي تَدْعُوهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَبَدًا، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿هُمْ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَدْعُوعُونَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الدَّاعُونَ، وَالْهَاءُ فِي ﴿دُعَائِهِمْ﴾ يَجُوزُ عَوْدُهَا هَذَا، وَهَذَا حَسَبِ الضَّمِيرِ السَّابِقِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يُرِيدُ الدَّاعُونَ أَنْ يَنْتَفِعُوا بِالْمَدْعُوعِينَ ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] أي: الْمَوَدَّةُ وَالْمَحَبَّةُ الَّتِي كَانُوا يُضْمِرُونَهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا

لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴿البقرة: ١٦٧﴾.

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ يقول المفسر: [ليس له دعوة مُستجابة] يعني: لا يَسْتَجِيبُ الدَّعْوَةَ، والصواب أن لها مَعْنَيْنِ: لا يَسْتَجِيبُ، ولا يَسْتَحِقُّ، فهو لا يَسْتَحِقُّ أن يُدْعَى، ولو دُعِيَ لم يَسْتَجِبْ.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾ لا يَسْتَطِيعُ هذا لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالأصنام لا تَنْفَعُ عابديها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ ذَكَرَهُم بِالْحِسَابِ رَحْمَةً لِلَّهِ وَجَزَاهُ خَيْرًا، قال المفسر رَحْمَةً لِلَّهِ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا﴾؛ أي: مَرَجِعْنَا [إلى الله عَزَّجَلَّ في الدنيا والآخرة] فَإِنَّ نَنْزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿النساء: ٥٩﴾، فالمردُّ هو الله في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني: ولا جَرَمَ أَيضًا أَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ. يعني: هذه ثلاثة أشياء كُلُّهَا جُرْمٌ بِهَا جَزْمًا.

أَوَّلًا: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾.

والثاني: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾.

والثالث: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

والمُسْرِفُ اسمٌ فاعِلٌ من الإسراف، وهو تَجَاوُزُ الحَدِّ ويكون كُفْرًا، ويكون دون الكُفْرِ، فالإنسان الذي يَمَلَأُ بطنه من الطَّعَامِ والشَّرَابِ مُسْرِفٌ، لكنه ليس بكافر؛ لأن الله عَزَّجَلَّ قال: ﴿وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وكذلك الإسرافُ في اللباس وغيره لا يُؤدِّي إلى الكُفْرِ، لكن الإسراف في عِبَادَةِ اللَّهِ بأن تَتَجَاوَزَ عِبَادَةَ اللَّهِ إلى عِبَادَةِ غيره، هذا هو الكُفْرُ، وهذا هو مُراد هذا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (هم) ضمير فصل، وقد سبق لنا أن ضمير الفصل من حيث الإعراب لا محل له من الإعراب، فلا يؤثر فيما بعده ولا يؤثر فيه ما قبله، هذه واحدة.

وسبق لنا أن لضمير الفصل فوائد: التوكيد والحصر وتمييز الخبر عن الصفة، وضربنا لذلك مثلاً لا حاجة للإعادة.

### من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: إنكار هذا الرجل المؤمن على قومه بما يشهد العقل بصحته؛ حيث قال: ﴿وَيَقَوْمٍ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، وإذا كان العقل يدلل على صحته فهو محل عجب، كل إنسان عاقل يعجب أن يكون هذا الشيء، رجل يدعو قومه إلى النجاة ورجل يدعوهم إلى النار.

الفائدة الثانية: مراعاة الحال في الخطاب، وجهه أنه قال: ﴿إِلَى النَّجْوَةِ﴾ مع أنه يدعوهم إلى الجنة، لكن لما كانت دعوتهم إياه إلى الهلاك آثر أن يقول: إلى النجاة؛ ويلزم من النجاة من النار دخول الجنة.

مسألة: قول موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَسْجُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] هل يستدل بذلك على الإغلاظ في الدعوة؟

فالجواب: هذا الإغلاظ في محله؛ لأنه قال له كلمة أشد منها، قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْجُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] فهل يغلظه بالقول ويسكت، وموسى عليه الصلاة والسلام معروف بالقوة؟!

فإن قال قائل: من باب التلطف الداعية يقول أحياناً: وإني أكثركم تقصيراً،

فِيظَنُّ ضِعَافَ النَّفُوسِ وَالْجُهَّالِ أَنَّهُ مَا دَامَ هَذَا الدَّاعِيَةُ أَوْ هَذَا الشَّيْخُ كَثِيرَ التَّقْصِيرِ، نَحْنُ إِذْنُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، ثُمَّ يُصِيبُهُمْ مَا يُصِيبُهُمْ.

فالجواب: أن هذه الكلمة ينبغي للإنسان أن ينظر في مصلحتها، وإلا فقد قالها عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ في آخر خطبة خطبها، قال: إني لأقول لكم هذا وما أعلم أحدًا عنده من الذنوب أكثر مما عندي<sup>(١)</sup>. هي بالحقيقة يعني قد تكون مُشجِّعة وقد تكون مُخدِّلة.

قد يقول قائل: إذا كان هذا الرجل الداعية العابد مُقَصِّرًا فكيف بنا نحن؟ إِذْنُ فَلنُسَمِّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ. وقد تكون - كما قلت - سلاحًا ذا حَدَّين؛ فليُنظر إلى المصلحة، والإنسان أحيانًا يقول مثل هذا؛ لأنه يخشى على نفسه من العُجب.

الفائدة الثالثة: أن كلَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، أَوْ أَنْكَرَهُ كَفَرَ بِهِ، فَلَيْسَ لَهُ عِلْمٌ فِي ذَلِكَ مَهْمَا كَانَ، يُؤَخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرِكْ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

الفائدة الرابعة: أن الإشراك بالله كجحود الله، ويَدُلُّ لذلك قولُ الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشْرَكَهُ»<sup>(٢)</sup>.

الفائدة الخامسة: تذكير هذا الرجل المؤمن هؤلاء بعزة الله ومغفرته؛ ترغيبًا وترهيبًا؛ لقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ فالترهيب في قوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ والترغيب في قوله: ﴿الْغَفَّارِ﴾ والله أعلم.

(١) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم المصري (ص: ٤٣)، وتاريخ الطبري (٦/ ٥٧١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: هل أقوال الأنبياء والصالحين في القرآن هي بنصّها؟

فالجواب: ليست هي بلفظها، وإنما هي بالمعنى؛ ولهذا تجد العبارات مختلفة مما يدل على أن الله تعالى ينقلها بالمعنى، وإن أضافها إليهم قولاً، لكن بالمعنى، ثم هم لغتهم غير عربية.

فهي بالمعنى لا شك:

أولاً: لأن لغة هؤلاء ليست لغة عربية.

وثانياً: لو كان باللفظ لكان كلام البشر معجزاً؛ لأن الإعجاز يحصل بالآية والآيتين والثلاثة، وهذا الرجل المؤمن تكلم في كم من آية، والله هو الذي صاغه بنفسه، فنقله بالمعنى.

مسألة: بعض الآيات التي يحكي فيها الله عز وجل أن إنساناً أو أحداً، مثل قول الله عز وجل: ﴿أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] فهل يقول الإنسان: قال الله تعالى حاكياً عن رجلٍ، أو يقول: قال الله تعالى. على مثل ما رويت؟

فالجواب: الأحسن أن يقول: حاكياً؛ لأنه قد يؤهم أن الضمير يعود على الله.

وهذا يوصلنا إلى شيء: هل الحديث القدسي هو كلام الله بلفظه أو معناه؟

الجواب: فيه خلاف: منهم من يقول: تكلم الله به لفظاً. ومنهم من يقول: تكلم به معنى والصياغة من الرسول عليه الصلاة والسلام. ومنهم من يقول: قل: قال الله. ولا تقل: لفظاً ولا معنى. ما دمت في عافية فاسلك طريق العافية.

لكن أحياناً يخرج الإنسان، يقول: أعطني الفرق بين الحديث القدسي والقرآن،

وأما إذا أمكن الإنسان السلامة فالسلامة خير، لكن يأتيك بعض الناس، ويقول لك: أخبرني عن الفرق بين الحديث القدسي والقرآن.

فالفرق هو هذا: أن الحديث القدسي ليس لفظ الله عزَّوجلَّ؛ لأنه لو كان لفظ الله لكان مُعْجِزًا، ولتَّيَّبَتْ له أحكام القرآن، بحيث لا يَقْرُؤُهُ جُنْب، ولا يُمَسُّ إِلَّا بِطَهَارَةٍ، ولا أَحَدٌ يَقْدِرُ على تَحْرِيفِهِ، وما أَشْبَهَ ذلك، وهذا كُلُّهُ مُتَّيَّبٌ.

فإذا قال قائل: أليس الرسول يقول: قال الله؟

قلنا: بلى. أليس الله يقول: قال فرعون، قال موسى. وما أَشْبَهَ ذلك وهو بغير لُغْتِهِمْ، هذا لا يَمْنَعُ.

ثم لو قلنا: إنه كلام الله باللفظ، أشكل علينا إشكال عظيم، فإمَّا أن يكون بواسطة جبريل، أو بغير واسطة، فإن كان بغير واسطة كان أعلى سندًا من القرآن؛ لأنَّ القرآن بواسطة جبريل، وإن كان بغير واسطة، فأَيُّ إنسانٍ يقول: بغير واسطة. فإنه ربما نَحْنُقُهُ أو نُعْطِيهِ كَفًّا على الرأس.

وإذا جعله بواسطة والرسول حذف الواسطة صار عندنا إشكال وهو التَّدْلِيسُ، والرسول ﷺ مُنَزَّهٌ عن هذا.

فالمسألة كما قلت: أَحَدٌ يَقُولُ: إنه كلام الله لفظًا ومعنى. والثاني يقول: كلام الله معنى لا لفظًا، والثالث يَسْكُتُ يقول: نقول: قال الله. ونَسْكُتُ، وهذا إذا حصل للإنسان السلامة فهو أَسْلَمٌ، لكن كما قُلْتُ لكم، أحيانًا يقول لك: لازم! أعطني الفرق بين القرآن والحديث القدسي، نقول: هذا الفرق: القرآن كلام الله لفظًا ومعنى، والحديث القدسي كلام الله معنى لا لفظًا.

فإن قال قائلٌ: وحيتذُّ نطالِبكم بالفرق بين الحديث النبويِّ والقدسيِّ؛ لأنَّ الحديث النبويِّ كلام الرسول؟.

فالجواب: هذا سهل، الفرق بينهما أنَّ الحديث النبويَّ لا يُضيفه الرسول إلى الله، والحديث القدسيُّ يُضيفه إلى الله. فانتهى الإشكال في هذه المسألة!.

ثم اعلم أن هذه المقامات إذا حصلت السلامة فهي أسلم، ولكن إذا ابتلي الإنسان فلا بُدَّ أن يُفصل.

ومن ذلك مثلاً لفظ: الجِسم، معلومٌ أن جميع المعطلة بنوا تعطيلهم على مسألة الجِسم، حيث ادَّعوا أنهم إذا أثبتوا الوجه أو اليد أو ما أشبه ذلك فإنه يقتضي أن يكون الله جسماً، حتى الاستواء يقول: إذا أثبتنا أن الله استوى فهو جِسم. ونحن نقول لهم: ما هذا الجِسم الذي جعلتموه دُبوساً مُعلَقاً مَحْرِقون به كل سِياح لإثبات الصِّفات؟!.

إن أردتم أنه جِسم مُكوّن مخلوق يُمكن انفصال بعضه عن بعض، وبانفصال بعضه ينقص، وربما يهلك، فالله مُنزّه عن هذا ولا شك، ومن اعتقد هذا في ربه فهو كافر، وإن أردتم بالجِسم أنه ذو ذاتٍ يفعل ما يشاء، ويتكلم، ويحيى، وينزل، ويستوي، ويتَّصف بالصِّفات اللائقة به فهذا حقٌّ، لكن من جهة إثبات لفظ الجِسم أو نفيه فهذا ممنوع، لا تقلُّ إثباتاً: إن الله جِسم. ولا نفيًا: إن الله ليس بجِسم؛ لأنه لم يرد إثباته ولا نفيه.

فهذه مسائلٌ ينبغي لطالِب العلم أن يفهمها، فمثلاً: إذا جادلنا إنسان ويقول: ما تقول في الجِسم؟ أقول: أمّا باعتبار لفظه فالواجب الكفُّ عنه إثباتاً أو نفيًا؛ وأمّا من جهة معناه فنحن نستفصل.



الفائدة السادسة: أن كل ما يُدعى من دون الله فليس له دعوة استحقاقاً ولا استجابة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جِرَؤَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾.

الفائدة السابعة: أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها، سواءً دعوها دعوة مسألة، أو دعوة عبادة.

والفرق بين دعوة المسألة ودعوة العبادة: أن المسألة يطلب فيها الإنسان حاجة ما، ودعاء العبادة يتعبد لله، وإنما كانت العبادة دعاء؛ لأن العابد يدعو بلسان حاله أن يثاب على هذه العبادة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، فقال: ﴿ادْعُونِي﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدل هذا على أن الدعاء عبادة.

الفائدة الثامنة: إثبات الرجوع إلى الله عز وجل، وأن مردّ الأمور إليه في قوله: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ وهذه الآية لها نظائر؛ منها قوله تعالى: ﴿وَالَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، ومنها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [١٥] ثم إن علينا حسابهم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، ومنها: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، أن مرجع الخلائق إلى ربها عز وجل.

الفائدة التاسعة: تحريم الإسراف، وجه الدلالة من الآية: ﴿وَأَنْ أَمْسِرْفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

الفائدة العاشرة: أن الإسراف قد يصل إلى حد الكفر؛ لقوله: ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، ومتى وجدت أصحاب النار فهم الذين هم أهلها والذين هم مخلدون فيها.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قُوَّةُ إِيمَانِ هَذَا الرَّجُلِ، يُؤْخَذُ مِنْ أَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَذَكَرَهُمْ أَنَّهُ بَعْدَ دَعْوَتِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ صَدَعَ لِلْحَقِّ، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: اسْتِعْمَالُ التَّعْرِيفِ: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ لِأَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ هَؤُلَاءِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِذَلِكَ صَرِيحًا.

وَمُمْكِنٌ أَنْ نَقُولَ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِظْهَارٌ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ. وَمُمْكِنٌ أَنْ نَقُولَ: هَذَا تَوْرِيهٌ. فَالْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ مِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَلَهُ فَوَائِدٌ مِنْهَا:

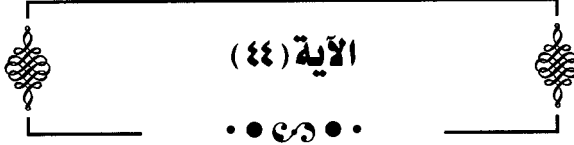
أ- إِرَادَةُ الْعُمُومِ: يَعْنِي: لِيَعْمَّ الْحُكْمَ مَنْ اسْتَعْمَلَ فِي حَقِّهِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَعْمِلِ.

ب- وَمِنْهَا بَيَانُ الْعِلَّةِ: التَّعْلِيلُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَاءَ الْوَصْفُ مُعَلَّقًا عَلَيْهِ حُكْمٌ مِنَ الْأَحْكَامِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عِلَّةِ هَذَا الْوَصْفِ.

ج- وَمِنْهَا التَّسْجِيلُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانَ مُقْتَضَى السِّيَاقِ أَنْ يُذَكَّرُوا بِالضَّمِيرِ بِمَا يَقْتَضِيهِ هَذَا الْوَصْفُ.

فَهَذِهِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ: إِرَادَةُ التَّعْمِيمِ، بَيَانُ الْعِلَّةِ، الْحُكْمُ عَلَى هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِهَذَا الْوَصْفِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

• • • • •

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَقِيَّةِ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٤٤].

السين وسوف كلاهما يَخْتَصَّانِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ وَمِنْ عِلْمَاتِهِ، وَإِذَا رَأَيْتَ كَلِمَةَ تَقْبَلُ السِّينَ وَسَوْفَ فِيهِ فِعْلٌ مُضَارِعٌ، لَكِنَّهَا يَفْتَرِقَانِ، السِّينُ تَدُلُّ عَلَى الْقُرْبِ، وَسَوْفَ تَدُلُّ عَلَى الْمُهْلَةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾؛ أَي: عَنْ قَرِيبٍ، وَهِيَ مَعَ إِفَادَتِهَا الْقُرْبُ تُفِيدُ التَّحَقُّقَ؛ يَعْنِي: أَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ إِذَا عَايَنْتُمُ الْعَذَابَ]، وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ؛ لِأَنَّ غَايَةَ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَنْ تَنْتَهِيَ آجَاهُكُمْ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ، ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾، وَحِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، كَمَا لَوْ نَصَحَكَ نَاصِحٌ عَنْ فِعْلِ شَيْءٍ، ثُمَّ لَمْ تَقْبَلْ نَصِيحَتَهُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ رَأَيْتَ عَاقِبَتَهُ وَخِيْمَةَ، فَإِنَّكَ سَتَذْكُرُ قَوْلَ النَّاصِحِ، تَذْكُرُهُ نَدْمًا وَحُزْنًا.

قال: ﴿ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الْوَإِ هُنَا لِلِاسْتِثْنَاءِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ عَاطِفَةً لَكَانَ الْمَعْنَى: وَسَأُفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ هَذَا

ليس المَعْنَى، بل المَعْنَى: وأنا أفوضُ أمري إلى الله، فالواو هنا للاستِثْناف، أفوضه إلى الله؛ أي: أكِّله إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿أَمْرِي﴾ هذا مُفْرَدٌ مُضَافٌ يَعْمُّ والمراد به الشَّأن، أي: شَأني كُلَّهُ، ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، وهذا غاية ما يكون من التَّوَكُّلِ، وسيأتي -إن شاء الله- في الفوائد.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ هذه الجُمْلَةُ التَّعْلِيلِيَّةُ لِلْحُكْمِ السَّابِقِ، وهو قوله: ﴿وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ كأن قائلًا يقول: لماذا فَوَّضَ أمره إلى الله؟ فأجاب بأن الله تعالى بصير بالعباد.

وقوله: ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ أي: بأحوالهم، وحاضرهم ومُستقبلهم، وجميع شُؤونهم، فهو جَلَّ وَعَلَا يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خلفهم، يَعْلَمُ كل أحوالهم.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [قال ذلك لما تَوَعَّدوه بِمُخَالَفَةِ دِينِهِ] يَعْنِي: كأنهم تَوَعَّدوه، فقال: أفوضُ أمري إلى الله. ولكن التَّوَعُّدَ ليس في الآية دليل عليه، والظاهر -والله أعلم- أنه لم يَقُلْ ذلك حين تَوَعَّدوه، ولكنه قال ذلك حين أيس من أن يمتثلوا لنصيحته، فقال كالمودع لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾، وأما أنا فأفوضُ أمري إلى الله؛ لأنني قُمتُ بما يلزمُني من نصيحة، وهذا أكثر ما يجب عليّ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان تحذير هؤلاء الذين ينصحهم المؤمن بأنهم سوف يذكرون كلامه، ويعرفون أنه الحق، لكن ذلك في حال لا تنفعهم هذه الذكرى.

الفائدة الثانية: قوة توكل المؤمن حيث قال: ﴿وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾، وهكذا يجب على كل مؤمن إذا أراد أن تُقضى أموره وتسهل فليفوض أمره إلى الله؛ لأن الله

تعالى قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال لنبِيِّهِ ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا  
النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ حَسْبَهُ فَهُوَ  
رَابِعٌ وَنَاجِحٌ.

الفائدة الثالثة: إثبات علم الله سبحانه وتعالى بكل عباده؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ  
بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وهذا - كما سبق - تفسير يشمل الأحوال والأعيان.



الآيتان (٤٥، ٤٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِكَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

•••••

قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكْرُوا ﴾ هذا أيضًا يدلُّ على ردِّ كلام المفسِّر؛ لأنهم لو توعَّدوه بالقتل لم يكن هذا مكرًا، إذ إن المكر هو الإيقاع بالغير من حيث لا يشعر، أمَّا لو توعَّدوه بالقتل لم يكن هذا مكرًا، بل كان هذا صريحًا واضحًا. وقوله: ﴿ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكْرُوا ﴾ أي: نَجَّاه من مكرهم السيِّء، ف﴿ سَيِّئَاتِ ﴾ هنا من باب إضافة الصِّفة إلى موصوفها؛ أي: المكر السيِّء، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِبُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله: ﴿ مَا مَكْرُوا ﴾ المكر والخذاع والغدر، وما أشبه ذلك؛ كلُّها ألفاظٌ مُتقاربة تدور حول شيء واحد، وهو أن تُوقع بغيرك من حيث لا يشعر، فالكيد والمكر والخذاع والغدر والمحال، وما أشبهها؛ كل هذه ألفاظٌ مُتقاربة.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ مَا مَكْرُوا ﴾ به من القتل] بيِّن في هذا أنَّ العائد على الصِّلة في قوله: ﴿ مَا ﴾ محذوف، والتقدير: ما مكروا به.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل ﴿ بِكَالٍ فِرْعَوْنَ ﴾ قومه معه ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾

الغرق] (حاق) بمعنى: نزل، لكن تشعر بأنها ليست بمعنى: نزل من كل وجه، وأن تفسيرها بالنزول تفسير تقريبي، (حاق): القاف قريبة من الطاء فكأن المعنى: حاط بهم، وهذا أشد من نزل، فالظاهر أن (حاق) بمعنى: نزل محيطاً بهم، وليست بمعنى: نزل على وجه مجرد بدون إضافة معنى.

وقوله: ﴿بِقَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قال المفسر رحمه الله: [قومه]، وقال غيره: أتباعه، والظاهر أن المعنى مُتقارب؛ لأن الذين أتبعوه إنما هم قومه، وأما بنو إسرائيل فإنهم لم يتبعوه، بل كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

وقول المفسر رحمه الله: [معه] ذكرها لئلا يظن الظان أن العذاب نزل بال فرعون دونه، ولكن هذا لا يمكن أبداً، إذا كان آل فرعون إنما نزل بهم العذاب؛ لأنهم كفروا بالله، وفرعون أكفر بالله من هؤلاء، ثم إن الظاهر أن الإنسان إذا قال: أكرم آل فلان. فإن فلاناً هو مقدمهم، ولا بد أن يدخل فيهم لغة.

وقوله: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ هذا أيضاً من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. أي المعنى: العذاب السيئ، وفسره المفسر بأنه الغرق، وهذا لا شك أنه من سوء العذاب، لكن هناك عذابات أخرى أصيب بها آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، كل هذا من سوء العذاب؛ الطوفان ليغرق ما بُدِر من نباتهم، والقمل لأجل أن يفسد ما ظهر، والضفادع لتفسد الماء؛ لأنهم صاروا كلماً أخذوا إناءً يشربونه وجدوا هذه الضفادع قد ملأته، والدم هو نزيف الدم إما من الأنف أو من غيره، فعوقبوا من كل وجه، ففي الزروع: غرق،

وفيما ما ادخره: قُمْل، وفي الماء: صَفَادِعُ، وبعد أن يَصِلَ إلى الجِسمِ وَيَتَغَدَّى به الجِسمِ: يَخْرُجُ يَنْزِفُ دَمًا، فَهَلَكُوا.

وهذا فيه الترتيب والدرجات: الطوفان غرق الزروع، والجراد تأكل الزرع، الطوفان يغرق ما بُدِر، والجراد يأكل ما ظهر، والقمل يفسد ما ادخر، والصفادع تفسد الماء، والدم وهو النزيف تذهب ما حصل من الغذاء بالطعام الذي يُقدَّر أنه سلِمَ من هذه الآفات، فهذا من سوء العذاب، والنهية هي الغرق: أن الله أغرق آل فرعون بالبحر.

وقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هذه الجملة مُستأنفة، ف﴿النَّارُ﴾ مُبتدأ، و﴿يُعْرَضُونَ﴾ الجملة خبرها.

وقوله: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، ليس معناها أنها تحرقهم؛ لأن الله لو أراد ذلك لقال: النار يصلونها غُدُوًّا وَعَشِيًّا، لكنهم يُعرضون عليها، فيأتيهم من سمومها وعذابها ما لا يطيقون -والعيادُ بالله- يُعرضون عليها غُدُوًّا في الصباح، وعَشِيًّا في المساء، والظاهر أن المراد الدوام، ويُحتمل أن المراد هذان الوقتان فقط.

فأما الأول: فقد يستدل له بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] يعني في كل الزمن.

وأما الثاني: فيمكن أن يقال: إن هذا ظاهر اللفظ؛ أي: في أول النهار وآخره، وأنهم يُعرضون على النار أول النهار، ثم إذا صُرفوا عنها أَمَلُوا أنَّها لا تعود إليهم فتعود إليهم، فيكون هذا أشدَّ من الاستمرار؛ لأنَّ كون الإنسان يُؤمِّل ارتفاع العذاب عنه ثم يعود أشدَّ من كونه مُستمرًّا آيسًا من زواله؛ ولهذا قال الله تعالى في أصحاب النار: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].



قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يُقال: «ادخلوا» يا ﴿آلِ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ هذه قِراءة [﴿ادخلوا﴾] أمر والمقصود به الإهانة والإذلال، بخلاف قوله تعالى لأهل الجنة: ﴿ادخلوها يسلمين﴾ [الحجر: ٤٦] هذه للإكرام، أمّا هذه: «ادخلوا آل فرعون» هذه للإهانة، والعياذُ بالله.

وقوله: ﴿آل﴾ فسرها المفسر بقوله: [يا آل] إشارة إلى أنها منصوبة بـ(يا) النداء المحذوفة، ادخلوا يا آل فرعون، قال رَحْمَةُ اللَّهِ: [وفي قِراءة بفتح الهمزة وكسر الخاء، أمر للملائكة]: ﴿ادخلوا آل فرعون﴾، يعني: ويوم القيامة يُقال للملائكة: ﴿ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عَذَابِ جَهَنَّمَ [نسأل الله العافية].

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكْفِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، فَيَحْمِيهِ مِنْ عَدُوِّهِ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾.

الفائدة الثانية: التحذير من أعداء المسلمين؛ لقوله: ﴿مَا مَكَرُوا﴾، وأن أعداء المسلمين قد لا يواجهونهم بالعداوة، ولكنهم يَمكرون بهم، فليحذر المؤمن مكر أعداء الله، وهذا في القرآن كثير، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُواكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوبًا﴾ [الطارق: ١٥-١٧].

ومن مكر أعداء الله أنهم لا يجابهون المسلمين بالعداوة؛ لكنهم يغزونها من

حيث لا يشعرون؛ بالأفكار المنحرفة، والأخلاق السيئة، كما تشهدون الآن وتسمعون ما يفعل أعداء المسلمين بالمسلمين، يجرون إليهم الأخلاق السافلة من وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة، يوفدون إليهم كل ما يخالف دين الإسلام في الملابس وغير الملابس، يُغرونهم بالأموال الطائلة؛ لإذهاب أوقاتهم سُدى بلا فائدة، كمسألة الرياضة وما أشبهها.

فالمهم: أن أعداء المسلمين يمكرون بهم مكرًا عظيمًا، والمسلمون إمّا أنهم لا يهتمون بهذا المكر، أو أنهم لا يعرفونه، ولكن الواجب علينا أن نحذر.

الفائدة الثالثة: أن الله تعالى يجازي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته، وتكون إجازة المسيء بإساءته في الحقيقة مجازاة للمحسن؛ لأن أخذ أعدائك بالعذاب هو في الحقيقة انتصار لك وأنت تفرح بذلك، يؤخذ ذلك من قوله: ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥]، فبين الله تعالى جزاء هذا وجزاء هؤلاء.

الفائدة الرابعة: إثبات عذاب القبر؛ لقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وعذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة والإجماع:

أمّا القرآن: ففي مثل هذه الآية: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا﴾؛ لأن قوله: (يَوْم) ظرف زمان متعلق بما بعده، المتعلق بالفعل «أَدْخِلُوا» أو «أَدْخِلُوا»، وهذا لا يكون إلا بعد يوم القيامة، وعرضهم على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا يكون قبل يوم القيامة، فيه إثبات عذاب القبر، قلت لكم: إنه ثابت بالقرآن والسنة والإجماع، أمّا القرآن ففي مثل هذا.

ومن أدلة القرآن قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] (اليوم) هنا (أل) للعهد الحُضوري، يعني: هذا اليوم الذي هو يوم موتكم، فدل ذلك على ثبوت عذاب القبر.

أما السنة: فهي متواترة في ذلك كثيرة على وجوه متنوعة عامة وخاصة: فمن الخاصة: قوله ﷺ حين مرَّ بقبرين يُعذبان: «إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»<sup>(١)</sup>.

وأما الإجماع: فكل المسلمين يقولون في صلواتهم: أعوذُ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر؛ وهذا أمر لا إشكال فيه وهو من عقيدتنا.

فإن قال قائل: هل العذاب يكون على البدن أو على الروح، أو عليها جميعاً؟ فالجواب: ظاهر السنة أن العذاب يكون على البدن حين مساءلة الملكين، فإن النبي ﷺ أخبر أن المنافق والمُرتاب يقول: «لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمِرزبة من حديد فيصيحُ صيحة يسمعها كلُّ شيءٍ إلا الثقلين الإنس والجنَّ فإنهم لا يسمعون، وكلُّ شيءٍ يسمعه»<sup>(٢)</sup>.

والمراد بذلك من قرب منها بحيث يسمع، أمّا مَنْ كان في أقطار الدنيا البعيدة فلا، وهذا يدلُّ على أن الذي يُعذَّب حين المساءلة البدن؛ لقوله: (فيضرب).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٨٧)، أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما بعد ذلك فالأصل أن العذاب على الروح، وقد تتصل بالبدن، كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(١)</sup> رَحِمَهُ اللهُ، وإن شئنا قلنا: هذا بحث لا طائل تحته، ولم يسأل عنه الصحابة، فنثبت عذاب القبر على حسب ما جاء في الكتاب والسنة لا نزيد ولا ننقص.

مسألة: بعض النصارى أرد أن يضع جهازًا في القبر، ويقول: نحن نريد أن نصدق هل كلامكم صحيح أيها المسلمون حينما تقولون: إن عذاب القبر ونعيم القبر ثابت؛ فما الرد عليه؟

نقول: لو أراد الله أن يسمعه بالمسجل لأسمعكم إياه بأذانكم، وما أنتم بمصدقين.

الفائدة الخامسة: وجود النار؛ لقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، ووجودها ثابت في القرآن والسنة، وقد رأى النبي ﷺ النار حين عرضت عليه وهو يصلي بالناس صلاة الكسوف<sup>(٢)</sup>، ورأى فيها من يُعذب، فالنار موجودة الآن.

الفائدة السادسة: إثبات قيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، ونحن نُؤمن بالساعة وأنها ستقوم، وسيبعث الناس، وبهذا نعرف أن ما يذكره بعض الناس اليوم حين يموت الرجل فيدفن يقولون مثلاً: إنهم ذهبوا به إلى مثواه الأخير. هذه الكلمة كلمة كفر، إذا قلت: إلى مثواه الأخير. فهذا يعني أنه لا بعث بعد ذلك، وأن هذا آخر مرحلة للإنسان، وليس الأمر هكذا؛ ولهذا نقول: إن من قال هذه الكلمة

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/٢٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهو يعرف معناها ويُرِيدُه فإنه كافر؛ لأنه مُنْكَرٌ لِلْبَعْثِ، أمّا مَنْ قالها وقال: إلى مَواهُ الأَخِيرِ. باعتبار الدُّنْيَا المُشَاهِدَةَ فهذا صحيح، لكن ظاهر العبارة الكُفْرُ؛ ولهذا يَجِبُ التَّحَرُّزُ منها، ويُقال مثلاً: ذهبوا به إلى قَبْرِهِ، ذهبوا به إلى مَحَلِّ زيارته.

الواقِعُ أَنَّ القَبْرَ زيارَةَ، قال اللهُ تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر: ١-٢]، ولَمَّا سَمِعَ أعرابيٌّ رَجُلًا يَقْرؤُها قال: والله إن الزائرَ ليس بمُسْتَقْرٍ. يَعْنِي أن هُنَاكَ شَيْئًا وراءَ هذا القَبْرِ، وصدق، الزائرُ ليس هو مُسْتَقْرًا، يزور ويمشي.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إهانة الكُفَّارِ؛ إهانة بدنية، وإهانة قلبية، تُؤخَذُ من توبيخهم وإهانتهم: ﴿أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ۝﴾، ولا شك أن قلوبهم تتأثر بهذا، وستجد الحسرة والنَّدَامَةَ -والعياذُ بالله-.

الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّبَكُّيتُ على آلِ فِرْعَوْنَ، كأنه قال: ادخلوا -آلَ فِرْعَوْنَ- وانظروا هل يَنْفَعُكم أن تكونوا من آلِهِ أو لا، ففيها نوعٌ تَبَكُّيتٌ لهؤلاء.

الفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ النارَ أَشَدُّ العَذَابِ، وأن كل ما قَبْلُها أهونٌ منها؛ لقوله: ﴿أَشَدُّ العَذَابِ ۝﴾، ولا شك أنها أَشَدُّ العَذَابِ، كذلك نقول بالنسبة للنَّعِيمِ: ما يَجِدُهُ المُؤْمِنُ من النَّعِيمِ في القَبْرِ، فليس بشيء بالنسبة لما يَجِدُهُ يومَ القِيَامَةِ، فأكْمَلُ النَّعِيمِ يكون بدخول الجنة وما قَبْلَهُ فهو كالتَّقديمِ بين يديه.

فإن قال قائل: هل يُسْتَدَلُّ على عَذَابِ القَبْرِ بما يَراهُ الإنسانُ في مَنامِهِ من الأحلام والمَنامات؟

فالجوابُ: لا يُسْتَدَلُّ، لكن يُسْتَدَلُّ به على دَفْعِ دَعْوَى أهل الإلحاد؛ حيث قالوا: إِنَّكُمْ تَقولون: إن الميِّتَ يُقَعَدُ في قبره ويُعَذَّبُ. ونحن نَحْفَرُ القَبْرَ ونَجِدُ أن الميِّتَ باقٍ على ما هو عليه.

فَنَزَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ هَذَا النَّائِمَ يَرَى أَنَّهُ مُعَذَّبٌ، وَأَنَّهُ مُنْعَمٌ، وَأَنَّهُ ذَهَبَ، وَأَنَّهُ جَاءَ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ لَمْ يَتَغَيَّرَ، حَتَّى اللَّحَافُ مَا سَقَطَ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَقُولُ: قَسِ الْغَائِبِ بِالْحَاضِرِ، ثُمَّ لَوْ كَانَ عَذَابُ الْقَبْرِ يُدْرَكُ بِالْإِطْلَاقِ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ إِيمَانًا بِالْغَيْبِ، لَكَانَ إِيمَانًا بِالشَّهَادَةِ، وَالْإِيمَانُ بِالشَّهَادَةِ لَا يَنْفَعُ، يَعْنِي: الْإِنْسَانُ إِذَا عَايَنَ الشَّيْءَ فَإِنَّ إِيمَانَهُ بِهِ لَا يَنْفَعُ، فَتَرَى الْكَافِرِينَ عِنْدَ حُضُورِ الْأَجْلِ يُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، فِرْعَوْنُ لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: ﴿ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

انظُرْ إِلَى هَذَا الْحَدِّ: اعْتَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ، ثُمَّ اعْتَرَفَ أَنَّهُ تَابِعُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ ذَلَّ حَتَّى صَارَ تَابِعًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُتَجَبِّرًا عَلَيْهِمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ تَعَزُّيَةُ الْمُسْلِمِينَ لِلْكَفَّارِ؟

فَالْجَوَابُ: الْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ: لَا بَأْسَ أَنْ يُعَزَّى الْكَافِرُ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: لَا يَجُوزُ. وَبَعْضُهُمْ فَصَّلَ قَالَ: إِنْ فَعَلُوا بِنَا ذَلِكَ فَعَلْنَا عِتْمَادًا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَمَحْيُوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾ [النساء: ٨٦] وَهَذَا أَقْرَبُ: أَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِنَا ذَلِكَ فَعَلْنَا، وَلَكِنْ هَلْ نَقُولُ: عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ، وَأَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاءَكَ، وَغَفَرَ لِمَيْتِكَ؟ لَا نَقُولُ هَذَا، نَقُولُ: هَذَاكَ اللَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَجَبَرَ مُصِيبَتَكَ. فَقَطُّ، وَمَيْتَهُ لَا نَقُولُ: غَفَرَ اللَّهُ لَهُ. لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.



## الآيتان (٤٧، ٤٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ ﴾ يعنني: يذكر إذ يتحاجون في النار؛ أي: يبدلي كل واحد منهم بحجته، و(إذ) ظَرْفٌ عامِلُهُ محذوفٌ قدره المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ بقوله: [اذكُرْ إِذْ يَتَحَاجُّونَ].

وحذف ما يُعْلَمُ كثيرٌ في القرآن وفي اللغة العربية، لكن الترتيب والزخلة هذا قليل، إلا أني قلت: إن الإخلال بالترتيب هنا أيسر للإنسان؛ لأنه أحياناً حقيقة ترد عليك آياتٌ لا تدري بما تُقَدَّر، إلا أن تقول: إن عرفت التقدير فاسلك الأَقْعَد، وإن لم تعرف فاسلك الأَسْهَل؛ لتكون مُتَبَعًا للرُّخَص - يعنني: رُخَص النحويين - فلا مانع في هذا، نحن قلنا قاعدةٌ مفيدة فيما إذا اختلفت النحويون في شيء فالصواب الأَسْهَل.

والمُحَاجَّةُ هي المُخَاصِمَةُ وإدلاء كلِّ بحجته على الآخر، وقوله: ﴿ فِي النَّارِ ﴾ يُفِيدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَخَاصِمِينَ هُمُ أَهْلُ النَّارِ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿ يَتَحَاجُّونَ ﴾.

ثُمَّ بَيَّن هَذِهِ الْمُحَاجَّةَ فَقَالَ: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ الضُّعَفَاءُ إِمَّا فِي الْمَالِ، وَإِمَّا فِي الشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ، وَإِمَّا فِي غَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا يُعَدُّ ضَعْفًا، وَالغَالِبُ أَنَّ الضَّعِيفَ يَتَّبِعُ الْقَوِيَّ وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾؛ أَي: تَكَبَّرُوا مِنَ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعِظْمَةِ، وَالسَّيْنِ وَالتَّاءِ فِيهَا لِلْمُبَالَغَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ يَعْنِي: فِي الدُّنْيَا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [جَمْعُ تَابِعٍ] أَي: مُتَّبِعِينَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ يَعْنِي: هَلْ تُجَاوِزُونَا عَلَى مُتَابَعَتِنَا إِيَّاكُمْ بِأَنْ تَتَحَمَّلُوا عَنَّا شَيْئًا مِنَ النَّارِ؟ وَقَوْلُهُمْ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [دَافِعُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ] جُزْءًا مِنَ النَّارِ.

انظُرْ كَيْفَ يَتَوَسَّلُ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ إِلَى الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، كَيْفَ يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِمْ بِمَا قَدَّمُوا مِنْ مُتَابَعَتِهِمْ؛ لِيَتَحَمَّلُوا عَنْهُمْ نَصِيبًا مِنَ النَّارِ، فَكَانَ جَوَابُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنْ أَرَادَ اللهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وَإِذَا كُنَّا كَلًّا فِيهَا فَكَيْفَ نُغْنِيكُمْ نَصِيبًا مِنَ النَّارِ؟! وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَيَانُ الْوَاقِعِ.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ أَرَادَ اللهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ حَكَمَ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْجَزَائِيِّ؛ لِأَنَّ أَحْكَامَ اللهِ عَزَّجَلَّ ثَلَاثَةٌ: قَدْرِيٌّ، وَشَرْعِيٌّ، وَجَزَائِيٌّ. وَالْجَزَائِيُّ مِنَ الْقَدْرِيِّ فِي الْوَاقِعِ، لَكِنْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَجْعَلُهُ مُنْفَصِلًا لِأَهْمِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْغَايَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ يَعْنِي: بَيْنَ النَّاسِ عُمُومًا، يَعْنِي: بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ فَالْعُبُودِيَّةُ هُنَا بِمَعْنَى الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ.

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: تعادي الكفار بعضهم مع بعض، وأن القوي منهم لا يرحم الضعيف لقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾.



الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَدَلُّوا بِمَعْرُوفٍ لِلْمَتَّبِعِينَ، وَهَمَّ أَنْهَمْ كَانُوا لَهُمْ تَبَعًا؛ لِيَتَوَسَّلُوا بِهِ إِلَى أَنْ يَأْخُذُوا عَنْهُمْ نَصِيبًا مِنَ النَّارِ، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَوَسُّلِ الْإِنْسَانِ بِجَمِيلٍ عَطَاءَهُ عَلَى الْغَيْرِ، وَلَكِنْ هَلْ يُعَدُّ هَذَا مِنَ الْمِنَّةِ؟

الجواب: الواقع أن الذي يُبين أنه توَّسل أو منَّة هو القرائن، قد يكون هذا منَّة، وقد يكون هذا توَّسلًا مثلما رَحِمْتَكَ وَأَعْطَيْتَكَ وَأَحْسَنْتَ إِلَيْكَ فَأَحْسِنُ إِلَيَّْ، فيكون هذا من باب التَّوَسُّلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الضَّعْفَاءَ دَائِمًا يَكُونُونَ أَتْبَاعًا لِلْأَقْوِيَاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَيَقُولُ أَلْضَّعَفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [غافر: ٤٧]؛ وَهَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا الْآنَ أَنَّ تَقْلِيدَ الْمُسْلِمِينَ لِلْكَفَّارِ يَعْنِي: ضَعْفَهُمْ أَمَامَهُمْ؛ لِأَنَّ الضَّعِيفَ دَائِمًا يُقَلِّدُ الْقَوِيَّ؛ لِضَعْفِ شَخْصِيَّتِهِ أَمَامِهِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِيزَةٌ خَاصَّةٌ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ ذَاتِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الْقُوَّةَ مَعَهُمْ، هَمَّ أَهْلُ الدِّينِ، هَمَّ أَهْلُ الْحَقِّ، وَهَمَّ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَيَاةَ، وَهَمَّ أَهْلُ الْحَيَاةِ فِي الْوَقَاعِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعِ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَأْخُذَ الْمَتَّبِعِينَ نَصِيبًا، وَلَوْ قَلِيلًا مِنْ عَذَابِ النَّارِ عَنْهُمْ، وَالِدَلِيلُ أَنَّهُ يُرِيدُونَ وَلَوْ قَلِيلًا قَوْلَهُمْ: ﴿نَصِيبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ يَعْتَدِرُونَ بِأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَكَيْفَ يَأْخُذُونَ نَصِيبًا عَنْهُمْ، نَعَمْ لَوْ كَانُوا لَيْسُوا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ثُمَّ يَسْقُطُونَ فِي النَّارِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُغْنُوا عَنْ هَؤُلَاءِ نَصِيبًا لَأَمَكَّنَ، لَكِنْ مَا دَامَ الْجَمِيعُ فِي النَّارِ فَإِنَّ طَلَبَ تَحْقِيقِ ذَلِكَ طَلَبُ شَيْءٍ مُسْتَحِيلٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ خُنُوعِ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كُلُّ فِيهَا﴾ يَعْنِي: الْآنَ لَيْسَ لَنَا فَضْلٌ عَلَيْكُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ فَضْلٌ عَلَيْنَا كُلُّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إقرار هؤلاء المُعَذِّبِينَ فِي النَّارِ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ حُكْمًا عَدْلًا؛ لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ إِذَا نَفَذَ حُكْمَ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ رَفْعَهُ وَلَا دَفْعَهُ؛ لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ﴾ وَفِي هَذَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ (ق): ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمُ إِلَيَّ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨-٢٩]، إِذَا انْتَهَى حُكْمُ اللَّهِ فَلَا مُعْطَلٌ لِحُكْمِهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إقرار هؤلاء المُعَذِّبِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَنَّهُمْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَكِنِ الْمُرَادُ بِالْعِبَادَةِ الْعِبَادَةَ الْعَامَّةَ، وَهِيَ الْعِبَادَةُ الْكُونِيَّةُ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ نَوْعَانِ: عَامَّةٌ وَهِيَ الْعِبُودِيَّةُ الْكُونِيَّةُ، وَخَاصَّةٌ وَهِيَ الْعِبُودِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ.

فَمَنْ خَضَعَ لِلَّهِ شَرْعًا فَهُوَ عَابِدٌ شَرْعًا وَكَذَلِكَ كَوْنًا، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ شَرْعًا فَهُوَ عَابِدٌ كَوْنًا وَلَيْسَ عَابِدًا شَرْعًا.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ، وَأَدْخَلَ الْكَافِرِينَ النَّارَ] الْمَعْنَى أَعْمٌ بِمَا قَالَه رَحِمَهُ اللَّهُ، حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَبَيْنَ أَهْلِ النَّارِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، وَحَكَّمَ حُكْمًا عَامًّا.

مسألة: ما هو الدليل على الشهادة لشخص بالجنة؟

فالجواب: الدليل إذا شهد رسول الله له بالجنة شهدنا له.

وَمَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِثْلَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَهَذَا نَقُولُ: هُوَ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا كَانَ حَاطِبٌ مَفْغُورًا لَهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَوْلَى مِنْ ذَلِكَ.

فإن قال قائل: ما رأيكم فيما ذهب إليه شيخ الإسلام؟

فالجواب: هذا رأي قوي لا شك، يعني: ما ذهب إليه شيخ الإسلام مؤيد بالحديث «أنتم شهداء الله في الأرض»<sup>(١)</sup> وإذا كانت الأمة - أو غالب الأمة - أجمعوا على ذلك، فهو كافٍ، لولا أنه يُخشى من مسألة، وهو أنه يأتي أهل الفرق الضالة ويقولون: نحن مُجمعون على الشهادة لفلان بكذا وكذا. وهو رأس بدعة، وهم يدعون أنهم أهل حق، لكن يُمكن الانفكاك عن هذا الإيراد، بأن نقول: هؤلاء لا تُقبل شهادتهم؛ لأنهم على باطل وعلى ضلال، والمراد شهادة أهل الحق.

ف«كُلِّ الصَّحَابَةُ فِي الْجَنَّةِ» على سبيل العموم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ [الحديد: ١٠].

مسألة: إذا قال قائل: إذا قُتل المسلم في المعركة قلنا: إننا نحسبه شهيداً ولا نُزكِّي على الله أحداً؟

فالجواب: لا تقل: أحسبه شهيداً. قل: من قُتل في سبيل الله فهو شهيد، كما قال عمر رضي الله عنه، عمر خطب الناس قال: إنكم تقولون: فلان شهيد، وفلان شهيد. وربما يكون فعل كذا وكذا، ولكن قولوا: من قُتل - أو مات - في سبيل الله فهو شهيد<sup>(٢)</sup>.



- (١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم (١٣٦٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب فيمن يشئ عليه خيراً أو شراً من الموتى، رقم (٩٤٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في الصداق، رقم (٥٩٥، ٥٩٦). وأخرجه الإمام أحمد (١/٤٠-٤١)، والنسائي: كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقة، رقم (٣٣٤٩)، ولفظه عندهما: «فهو في الجنة».

الآيتان (٤٩، ٥٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ  
عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ  
قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [أي: قَدْرُ يَوْمٍ ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾]، استمع إلى هذا النداء  
الدال على البؤس واليأس: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ جمع خازن، وهم  
الذين قاموا على خزانتها وحمايتها وحفظها؛ لأن النار لها خزنة، وكذلك الجنة لها  
خزنة، وكل أمر محكم، ويؤتى بجهنم يوم القيامة تُقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام  
يقوده سبعون ألف ملك، وما أدراك ما الملائكة وما قوتهم، فهذه النار مُحْكَمَةٌ لها  
خزنة، ولها قواد يقودونها يوم القيامة.

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ و جهنم اسم من أسماء النار، قيل:  
إنها عربية. وقيل: إنها عجمية. فعلى القول بأنها عربية تكون مأخوذة من الجهممة  
وهي الظلمة؛ لأن النار سوداء مُظْلِمَةٌ - أعادنا الله وإياكم منها - وعلى القول بأنها  
أعجمية يُقال بأن أصلها: كَهَنَام، ولكنها عُرِّبَتْ حتى صارت: جَهَنَّم، وهي من  
أسماء النار.

يقول: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ ويقولون هذا - والله أعلم -

حين يقولون لرَّبِّهم عَزَّجَلَّ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧) قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿[المؤمنون: ١٠٧-١٠٨] حَيْثُ يَتَوَسَّلُونَ بِغَيْرِهِمْ أَن يُكَلِّمُوا اللَّهَ، يَقُولُونَ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقولوا: ادْعُوا رَبَّنَا؛ لأنهم قد كَسروا من جهة رَبِّهم، قال لهم: ﴿اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ لَكِن تَوَسَّلُوا بَعْدَ ذَلِكَ بِدُعَاءِ بَطَلَبِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَن يَدْعُوا اللَّهَ لَهُمْ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

قوله: ﴿يُخَفِّفْ﴾ بالجزم جوابًا للأمر وهو قوله: ﴿ادْعُوا﴾ وأقول: للأمر باعتبار صيغته، وإلا فهو في الحقيقة دعاءً وسؤالًا ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ طلبوا تخفيفًا لا رفْعًا، وطلبوا يومًا لا دومًا؛ لأنهم آيسون، لكن قال: لعلَّ المسألة تنفع ولو بتخفيف يوم من العذاب، نسأل الله العافية.

ومقتضى هذا أنهم في أشدَّ ما يكون من العذاب، وأنهم طلبوا أن يستريحوا ولو يومًا.

قوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قال: المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: قَدْرَ يَوْمٍ] وإنما قال [قَدْرَ يَوْمٍ من العذاب]؛ لأنه في يوم القيامة ليس هناك يوم ولا ليل، الشمس والقمر مكوران في نار جهنم وكل شيء من أمور الدنيا مُنتَهٍ ليس هناك إلا أمر الآخرة، سبحانه الله!.

﴿قَالُوا﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الحزنة تهكمًا] هكذا قال المفسر [تهكمًا] ويحتمل أنهم قالوا ذلك تفريعًا وتوبيخًا وتنديمًا، ليس تهكمًا؛ لأن الأمر واقع فهم يُقرِّرونهم بشيء حاصل تنديمًا لهم؛ ليزدادوا حزنًا.

فإن قال قائل: ما الفرق بين التوبيخ والتفريع؟

فالجواب: لا أعرفُ بينهما فرقًا، اللهمَّ إلا أن يكونَ فرقًا قليلًا، أو يُقال: التَّوْبِيخُ على أمرٍ مَضَى، والتَّفْرِيعُ هو التَّنْذِيمُ هو على أمرٍ حَاضِرٍ.

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٥٠] قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [بالمُعْجِزَاتِ الظَاهِرَاتِ] لَيْتَهُ قَالَ: «بِالآيَاتِ الظَاهِرَاتِ»؛ لأن الرُّسُلَ جَاءُوا بِالآيَاتِ لَا بِالْمُعْجِزَاتِ، لَكِنَّ الآيَاتِ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، فَهِيَ مُعْجِزَةٌ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كِرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي التَّوْحِيدِ أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يُسَمَّى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى وَصْفِ رِسَالَتِهِمْ آيَاتٍ.

قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [أَي: فَكَفَرُوا بِهِمْ] ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ هذا التَّهَكُّمُ.

قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مثل هذا التَّعْبِيرِ يَقَعُ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ؛ أَي أَنْ الهمزة تأتي ثم يأتي بعدها حرف عطف، مثل ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعْنَا مِنْكُمْ بِهِ﴾ وما أشبه ذلك، فكيف نقول: في إعرابها؟  
نقول: في إعرابها وَجْهَانِ لِلنَّحْوِيِّينَ:

الوجهُ الأوَّلُ: أن الجُمْلَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا سَبَقَ، وَأَنَّ الْوَاوَ مُقَدِّمَةٌ عَلَى مَحَلِّهَا، وَأَنَّ التَّقْدِيرَ فِي ﴿أَوْلَمْ تَكُ﴾: وَأَلَمْ تَكُ، وَهَذَا الْوَجْهُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا دَعْوَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، لَكِنَّهُ سَهْلٌ يَعْنِي: يَسْهَلُ أَنْ تَقُولَ: هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى مَا سَبَقَ.

وقال بعضهم: إن الهمزة داخلة على جملة محذوفة، فالجملة مستأنفة هذه الجملة يكون تقديرها بحسب السياق، ففي قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا﴾ [الروم: ٩]، التَّقْدِيرُ: أَعْغَلُوا وَلَمْ يَسِيرُوا، وَهَذَا مِنْ حَيْثُ الْقَوَاعِدُ أَقْعَدُ، وَلَكِنْ تَوَاجَهَكَ أحيانًا

آيات لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْرِفَ مَا هُوَ الْمُقَدَّرُ، فصار هذا أَقْعَدَ، وذاك أَسْهَلَ.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، ويُقال: كَلَّمَا دَخَلَ الاستفهام على نَفِيٍّ فهو للتقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١]، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنًا﴾ [القيامة: ٣٧]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزُّمَر: ٣٧] وما أشبه ذلك، يقولون: كَلَّمَا دَخَلَ الاستفهام على النَّفْيِ فهو للتقرير، إِذْ نَحْنُ نَقُولُ: للتقرير، لكن هل يَخْرُجُ عَنِ مَعْنَى التَّحْقِيرِ، أَوْ يَضُمُّ إِلَى مَعْنَى التَّحْقِيرِ مَعْنَى آخَرَ بِحَسَبِ السِّيَاقِ؟

الجوابُ: نَعَمْ، ففي قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هو للتقرير؛ إظهارًا لِمِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ [غافر: ٥٠] للتقرير تَوْبِيخًا وَتَنْدِييًا.

قوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ جَوَابُ الاستفهام المَقْرُونِ بالنَّفْيِ، الإثبات بـ(بلى) وَجَوَابُ الاستفهام غير المَقْرُونِ بالنَّفْيِ الإثبات بنَعَمْ، وَجَوَابُ الاستفهام المَقْرُونِ بالنَّفْيِ فِي حَالِ النَّفْيِ نَعَمْ، وَجَوَابُ الاستفهام المَقْرُونِ بالإثبات فِي حَالِ النَّفْيِ لَا، اعْرِفُوا الفَرْقَ يُقَالُ: إِنْ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قَالَ: لَوْ قَالُوا: نَعَمْ. لَكَفَرُوا.

قال الفقهاء: لو قيل للرجل: أَلَسْتُ قَدْ طَلَقْتَ امْرَأَتَكَ؟ قال: نَعَمْ. لم تُطَلِّقْ، وَإِنْ قَالَ: بَلَى. طَلَّقْتَ.

فقول ابن عباس: لو قالوا: نَعَمْ. لَكَفَرُوا، وهذا مُسَلَّمٌ فِيمَا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْرِفُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ جَيِّدًا، وَأَمَّا الْعَامِّيُّ فَعِنْدَهُ (نَعَمْ) وَ(بَلَى) سَوَاءٌ؛ وَلِهَذَا لَوْ قِيلَ لِلْعَامِّيِّ: أَلَسْتُ طَلَقْتَ امْرَأَتَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فعلى القول الصَّحِيحِ تُطَلِّقُ، فَالْعِبْرَةُ

بالمعاني على أنه جاء في اللغة العربية جواب هذا بـ(نعم)، ومنه قول العاشق:

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو      وَإِيَّانَا فَذَاكَ لَنَا تَدَانِي  
نَعَمْ وَتَرَى الْهَيْلَالَ كَمَا أَرَاهُ      وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي<sup>(١)</sup>

فقال: نعم، لكن هذا الرجل قنوع، اكتفى أن يجمعه الليل مع معشوقته ولو كانت في المشرق وهو بالمغرب، وكذلك النهار، وترى الهلال كما يراه، هي في المشرق ترى الهلال، وهو في المغرب يرى الهلال.

فجواب الاستفهام المقرون بالنفي إثباتاً (بلى) ونفيًا (نعم)، والاستفهام مقرون بالإثبات إثباتاً (نعم) ونفيًا (لا)، بارك الله فيكم.

فإن قال قائل: هل يوجد حديث يدلُّ على ما جاء به البيت هذا من الشعر على أن (نعم) تكون في مكان (بلى)؟

فالجواب: هل يطلب الحديث دليلًا على إثبات مسألة لغوية؟ فإن قيل: نعم؛ لأن خير من تكلم بالفصحى الرسول ﷺ.

قيل: إذا جاء عن العرب فلا يحتاج دليلًا؛ لأن قول العرب هو الدليل، ألم تعلم أن بعض النحويين يقول: لا نستدلُّ بالحديث على اللغة العربية.

إذن: قال بعض النحويين: إنه لا يستدلُّ بالحديث النبوي على اللغة العربية؛ لأن الرواة يجوزون رواية الحديث بالمعنى، ومن المعلوم أن من بين الرواة من تغيرت لغته، الإمام أحمد قديم ومن أئمة الحديث وسمعتموه - وفي قواعد اللغة العربية -

(١) البيتان من شعر جحدر العكلي، انظر: الأملالي للقالبي (١/٢٨٢)، وخزانة الأدب (١١/٢٠٩).



يقول في أي شيء: نعم. وهكذا الرواة ربّما نقلوا بالمعنى على لغتهم التي يتكلمون بها، فحصل خطأ، أما القرآن فنعم؛ لأنه متواتر منقول بالتواتر، لكن كثيرًا من علماء النحو يقولون: إنه يُحتجُّ بالأحاديث على اللغة العربية؛ لأن الأصل عدم التغيير.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ بلى يعني: قد أتتنا، ولكنهم -والعبادُ بالله- كفّروا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ هذا الأمر للتّهكّم؛ لأن الملائكة تعلم أنه لا يقبل منهم، فقوله: ادعوا تهكّم بهم، والتهكّم هو الذي يُسمّى عندنا في العاميّة «الهكّ»، «هكّك عليه» يعني: لعبت بعقله.

فهنّا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ تهكّمًا بهم؛ لأن الملائكة تعلم أنهم لن يُجابوا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم فإنّا لا نشفع للكافرين؛ لأن الشفاعة للكافرين مضيعة وقت، إذ إن الكافر لا تنفع فيه الشفاعة، إلّا كافرًا واحدًا نفعت فيه الشفاعة بالتخفيف عنه، وهو أبو طالبٍ نفعت شفاعة الرسول عليه الصلوة والسلام فيه فقط، لو جاء أبو بكر أو عمرُ يشفع في أبي طالب رُدّ، لكن النبي ﷺ قبلت شفاعته في عمّه أبي طالب فخفف عنه العذاب<sup>(١)</sup>؛ لأن أبا طالب حصل منه خيرٌ كثير للرسول ﷺ، وحصل منه ما يُسمّى بالدّعاية العظيمة له حتى قال:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ  
مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَنَا<sup>(٢)</sup>

هذا قاله في الدين. وقال في الرسول ﷺ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.  
(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/١١١)، وخزانة الأدب (٧٦/٢)، وديوان أبي طالب (ص: ٨٧، ١٨٩).

لَقَدْ عَلِمُوا أَن ابْتِنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ<sup>(١)</sup>

ودافع عنه، وحُوصِرَ معه في الشُّعْب؛ فَلِذَلِكَ قَبِلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَفَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِيهِ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ.

أَمَّا شَفَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي أُمَّه فَمَنْعَهُ اللهُ فِي أُمَّه<sup>(٢)</sup>، وَهِيَ أَقْرَبُ مِنْ عَمِّهِ، لَمَّا اسْتَأْذَنَ اللهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهَا قَالَ: لَا. وَلَمَّا اسْتَأْذَنَهُ أَنْ يَزُورَ قَبْرَهَا أَذِنَ لَهُ فزار النَّبِيَّ ﷺ قَبْرَ أُمَّه، وَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَبْكِي، لَكِنْ لَا يَدْعُو لَهَا، وَأَبْكَى مَنْ مَعَهُ.

فَالْكَفَّارُ لَا تَنْفَعُ فِيهِمُ الشَّفَاعَةُ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ مَضِيْعَةٌ بِلَا فَائِدَةٍ، ثُمَّ هِيَ لَمْ يُؤْذَنَ فِيهَا مِنْ قِبَلِ اللهِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَبَدًا شَفَاعَةَ بَدُونِ إِذْنِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤] ﴿وَمَا دُعَاءُ﴾ (ما) نافية، و﴿دُعَاءُ﴾ اسمها، و(ما) هنا ليست حجازية؛ لِاتِّفَاقِ اللَّغَتَيْنِ لُغَةَ التَّمِيمِيِّينَ وَلُغَةَ الْحِجَازِيِّينَ فِيهَا، وَأَنَّهَا لَا تَعْمَلُ فِي هَذَا الْحَالِ.

قوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: وما طلب الكافرين ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ أي: في ضياع، وقول المفسر رحمه الله: [انعدام] فيه نظر، فالضلال الضياع وعدم الهدى، ف﴿مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، فلا تقبل دعوة الكافر أبداً إلا في حالين:

الحال الأولى: إذا كان مضطراً؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَأُظْلَمَ دَعَاؤُاُ اللهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ [لقمان: ٣٢]، وإنما أُجِيبَتْ دَعْوَةُ الْمُضْطَرِّ لِصِدْقِ

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص: ٨٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عزَّجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لجأه إلى الله؛ لأن المَظْطَرَّ صادق اللُّجُوء إلى الله.

الحال الثانية: إذا كان مَظْلُومًا فإنها تُقْبَل دَعْوَتُهُ على ظالمه؛ لقول الرسول ﷺ:

«أَتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»<sup>(١)</sup>، وهذا وإن كان يُخَاطَبُهُ في قوم أَسْلَمُوا لكنها عامَّة، وإنما أُجِيبَت دَعْوَةُ الْكَافِرِ إذا كان مَظْلُومًا؛ إقامة للعدْل؛ لأن الله لم يُجِبِ الْكَافِرِ حَبَّةَ لَهُ، ولكن إقامة للعدْل؛ لأنه الآنَ هُنَاكَ خَصْمَانِ مَظْلُومٍ وَظَالِمٍ، فلا إقامة العَدْلَ يَسْتَجِيبُ اللهُ تَعَالَى لِدَعْوَةِ الْكَافِرِ.

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: بيان شِدَّةِ حَسْرَةِ أَهْلِ النَّارِ؛ لقوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

الفائدة الثانية: أن أهل النار يَتَحَاوُونَ وَيُجَاجُونَ أَيضًا، يَتَحَاوُونَ فِيهَا سَبَقَ فِيهَا بَيْنَهُمْ، وكذلك يُجَاجُونَ غَيْرَهُمْ، أو يَسْأَلُونَ غَيْرَهُمْ؛ لقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾.

الفائدة الثالثة: بيان إْحْكَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمَخْلُوقَاتِهِ كَمَا أَحْكَمَ مَشْرُوعَاتِهِ، حيث جعل للنار خِزْنَةً يَحْفَظُونَهَا وَيَقُومُونَ عَلَيْهَا.

الفائدة الرابعة: شِدَّةُ حَجَلِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ مُخَاطَبَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ تَوَسَّلُوا بِقَوْلِ الْخِزْنَةِ أَنْ يَدْعُوا رَبَّهُمْ وَلَمْ يَقُولُوا: ادْعُوا رَبَّنَا. هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا بَعْدَ أَنْ قَالَ اللهُ لَهُمْ: ﴿قَالَ أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الفائدة الخامسة: أن أهل النار في أشد ما يكون من العذاب، يؤخذ من قوله: ﴿يُخَفِّفَ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ فهو يدلُّ على أن عليهم شدة، وأنهم يتمنون يومًا واحدًا فقط.

الفائدة السادسة: أن أهل النار يُعذَّبون عذابًا بدنيًا وعذابًا قلبيًا، يؤخذ من التقرير والتوبيخ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، فهذا يكون أشدَّ عليهم من عذاب البدن؛ ولهذا يقولون كما في سورة تبارك: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المك: ١٠]، قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [المك: ١١].

الفائدة السابعة: أن لكل أمة من أهل النار رسولًا؛ لقوله: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعَبُوا﴾، فكل أمة لها رسول. الفائدة الثامنة: أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا بآيات تدلُّ على أنه رسول الله حقًا؛ لقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

الفائدة التاسعة: أن الاهتمام بالوصف أشدَّ من الاهتمام من بالأصل؛ لأن الوصف هو الذي يبيِّن الأشياء، يؤخذ من قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ حيث أتى بالوصف وطوى ذكر الموصوف؛ لأن المهم هو الوصف.

الفائدة العاشرة: تهكم الرُّسل بهؤلاء -أي: بأهل النار- يؤخذ من قوله: ﴿قَالُوا فَاذْعَبُوا﴾ هذا من باب التهكم منهم؛ لأن الملائكة يعرفون أنهم لن يُجابوا.

الفائدة الحادية عشرة: أنه لا قبول لدعاء الكافرين؛ لقوله: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وذلك يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، والذي يُستثنى من دعاء المسألة في إجابة الكافر المضطرَّ والمظلوم، والدليل على استثناء المضطرَّ أنه

يُجَاب ولو كان كَافِرًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ وَالْحِكْمَةُ مِنْ إِجَابَةِ الْكَافِرِ فِي حَالِ الضَّرُورَةِ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَكُونُ مُخْلِصًا لِلَّهِ فِي الدُّعَاءِ مُظْهِرًا لِلْإِفْتِقَارِ إِلَيْهِ فَيُجِيبُهُ اللَّهُ.

أَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ يُجِيبُ دَعْوَةَ الْكَافِرِ الْمَظْلُومِ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِأَهْلِ الْيَمَنِ... الْحَدِيثَ، قَالَ لَهُ: «وَأَتَتْ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»<sup>(١)</sup>. وَالْحِكْمَةُ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ الْكَافِرِ طَالِبٍ: لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ.



(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ أَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، رَقْمُ (١٤٩٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَشُرَائِعِ الْإِسْلَامِ، رَقْمُ (١٩)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآية (٥١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١].

•••••

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ إلى آخره الجملة هذه مؤكدة بمؤكدتين أحدهما (إِنَّ) والثاني اللام، وقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ ﴾ أتى بصيغة التعظيم؛ لأن المقام يقتضيه إذ إن النصر لا بُدَّ أن يكون من قويٍّ، ولم يقل جَلَّ وَعَلَا: أنا أنصر. قال: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ ﴾؛ لأن المقام يقتضي العظمة والقُدرة والقُوَّة ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [غافر: ٥١] رُسُلنا جمع رسول، وهم كل الرُّسل؛ لأن (رُسُل) جمع مُضاف، وجمع المُضاف يكون للعموم.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ معطوف على ﴿ رُسُلَنَا ﴾؛ أي: وَنَنْصُرُ الَّذِينَ آمَنُوا بما يجب الإيمان به، والإيمان هو الإقرار المُستلزم للقبول والإذعان.

فَمَنْ أَنْكَرَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ أَقْرَّ وَلَمْ يَقْبَلْ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ أَقْرَّ وَلَمْ يُدْعِنْ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، فَأَبُو طَالِبٍ مَثَلًا مُقَرَّرٌ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ وَلَمْ يُدْعِنْ فَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا، فَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الَّذِينَ أَقْرَّوْا بِقُلُوبِهِمْ وَأَدْعَنُوا وَاسْتَسَلَمُوا بِجَوَارِحِهِمْ وَقَبِلُوا مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرَّسُلُ، هُوَ لِأَنَّ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

وقوله: ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ (نَنْصُرُ) أي: نَنْصُرُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ هذه معطوفة على ما سبق وهي متعلقة بـ(نَضْر) أي: ونضرمهم يوم يقوم الأشهاد وذلك يوم القيامة.

قال المفسر رحمه الله: [﴿الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد، وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب]، هكذا قال المفسر رحمه الله خصها بالملائكة، والصحيح أنها أعم من الملائكة، فالملائكة يشهدون وهذه الأمة تشهد على من سبق، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والجلود تشهد، والجوارح تشهد، فكل ما ثبتت شهادته فإنه داخل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وذلك يوم القيامة.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تأكيد نصر الله سبحانه وتعالى للرسل والذين آمنوا؛ لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾.

وفي هذه الآية شبهة استدلل بها النصراني يقول: إن الله ثالث ثلاثة. ولي عليكم دليل وهو قوله: ﴿إِنَّا﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ﴾ وقوله: ﴿نُرِيهِمْ﴾، وما أشبهها، مما يدل على الجمع، فإذا أنا أقول: يقول النصراني: إن الله ثالث ثلاثة ولي حجة. فنجيبه بقولنا: إنك بمن زاع قلبه؛ لأنك اتبعت المتشابه، والله عز وجل يقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] وتركت المحكم المؤكد بأن الله واحد لا شريك له، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ومثل قوله في تكذيب هؤلاء النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

فهذا النَّصْرَانِيُّ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ، وكذلك كلُّ مُبْطِلٍ يَحْتَجُّ بِآيَةٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِمَّنْ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَ حَكِيمٌ جَعَلَ فِي آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ وَآيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ أَيْضًا مَا يَكُونُ مُتَشَابِهًا؛ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، الْآنَ انظُرْ إِلَى الْقُرْآنِ وَانظُرْ إِلَى السُّنَّةِ تَجِدُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ مَا ظَاهِرُهُ التَّعَارُضُ، أَوْ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَوْ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ مَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ مَثَلًا، هَذَا إِنْ سَلَّمْنَا، وَأَنْ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ مَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ إِطْلَاقًا، لَكِنْ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَزُّلِ مَعَ الْحُضْمِ، نَقُولُ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ.

كَذَلِكَ فِي الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُصِيبُ النَّاسَ بِكَوَارِثٍ عَظِيمَةٍ تَمُوتُ بِهَا الْأَنْفُسُ، تُدْمَرُ بِهَا الْبِلَادُ يُفْسَدُ بِهَا الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ؛ حَتَّى يَبْلُغَ الْعِبَادَ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وَانْتَبِهْ لِهَذِهِ النُّقْطَةِ، وَهِيَ امْتِحَانُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعِبَادِ بِمَا يَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، إِذَنْ رَدَدْنَا عَلَى النَّصْرَانِيِّ الَّذِي ادَّعَى تَعَدُّدَ الْأَلْهَةِ مُحْتَجًّا بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا...﴾ إِلَى آخِرِهِ.

وَفِي الْآيَةِ إِشْكَالٌ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَأَيْنَ النَّصْرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِمَنْ قُتِلَ؟

وَالجَوَابُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ:

أ- إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالنَّصْرِ نَصْرٌ مَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الشَّرْعِ، وَبَيَانُ أَنَّهُ حَقٌّ، وَهَذَا ثَابِتٌ لِكُلِّ رَسُولٍ، وَتَأْيِيدٌ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ لَا شَكَّ أَنَّهُ نَصْرٌ لَهُ، وَحَيْثُ لَا يُسْتَنْبَى مِنَ الرَّسُلِ أَحَدٌ إِذَا قُلْنَا: إِنْ الْمُرَادُ بِالنَّصْرِ نَصْرٌ مَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

ب- وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِ﴿رُسُلَنَا﴾ الَّذِينَ أَمَرُوا بِالْجِهَادِ؛ لِأَنَّ النَّصْرَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هُنَا جِهَادٌ يَنْتَصِرُ فِيهِ أَحَدُ الطَّرَفَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالرُّسُلِ هُنَا



ليس جميع الرُّسل، بل مَنْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ.

وحيثَ يزول الإشكال، هذا باعتبار النَّصر في الحياة الدنيا، أمَّا باعتبار النَّصر يوم يقومُ الأَشهاد، فلا يُستثنى أحدٌ ولا إشكال فيه.

الفائدة الثانية: أن نصر الله العبد في الدنيا نعمة، يعني: للإنسان أن يفرح بما أعطاه الله تعالى من النَّصر، سواء نصرًا فعليًّا أو قوليًّا.

المهم: أن الإنسان إذا نصره الله عزَّ وجلَّ على مَنْ ناوأه يُعتبر هذا نعمة ومنته من الله عزَّ وجلَّ؛ فليفرح به الإنسان لقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

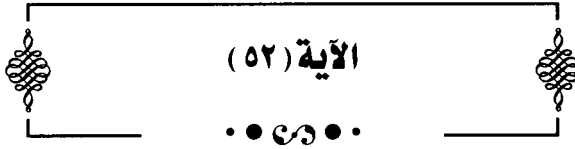
الفائدة الثالثة: إثبات الأَشهاد يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

الفائدة الرابعة: التَّحذير من مخالفة الرُّسل من ذلك اليوم الذي يقوم فيه الأَشهاد؛ لأن في ذلك اليوم لا يستطيع أحدٌ أن يكذب. يعني: لو أن الإنسان أنكر وكذب فستشهد عليه جوارحه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، يقولون هذا؛ لأنهم يُشاهدون المُخلصين يُنصرون يوم القيامة، فيقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاء أن ينجوا معهم، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤]، هم كذبوا على أنفسهم؛ لأنهم يقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهم مُشركون، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

الآن استدرَكنا على المفسر رحمه الله قصره: ﴿الْأَشْهَادُ﴾ على الملائكة، وقلنا:

إنها أعمُّ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ

الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

•••••

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالياء والتاء] بالياء ﴿يَنْفَعُ﴾ بالتاء «تَنْفَعُ»، إِذَنْ هُمَا قِرَاءَتَانِ سَبْعِيَّتَانِ؛ لِأَنَّ الْمَفْسَّرَ إِذَا أَتَى بِصِيغَةِ الْقِرَاءَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا قِرَاءَتَانِ سَبْعِيَّتَانِ، أَمَّا إِذَا قَالَ: وَقُرِئَ. فَهُوَ لِلشَّاذِّ قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ، بِالتَّاءِ لِأَنَّ (مَعذِرَةً) مُؤَنَّثَةٌ، فَالْفِعْلُ يَكُونُ مَعَهَا مُؤَنَّثًا، لَكِنْ بِالْيَاءِ نَقُولُ أَوَّلًا: إِنَّهُ فَصْلٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ، وَثَانِيًا أَنْ التَّأْنِيثَ هُنَا لَيْسَ حَقِيقِيًّا. وَابْنُ مَالِكٍ يَقُولُ:

وَإِنَّمَا تَلَزَمَ فِعْلٌ مُضْمَرٌ مُتَّصِلٌ أَوْ مُفْهَمٌ ذَاتِ حِرٍّ<sup>(١)</sup>

قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ الْمُرَادُ بِالظَّالِمِينَ هُنَا الْكَافِرُونَ، قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ يَعْنِي: عُدْرَتُهُمْ، قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [عُدْرَتُهُمْ لَوْ اعْتَدَرُوا]

يَعْنِي: عُدْرَتُهُمْ فِيمَا سَبَقَ، أَوْ اعْتِدَارُهُمْ فِيمَا لَحِقَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، هُمْ يَعْتَدِرُونَ لَكِنْ لَا يُقْبَلُ، لَا يُؤَدَّنْ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ.

(١) الألفية (ص: ٢٥).

وقوله: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ قال المفسر رحمه الله: [أي: البُعد من الرَّحمة] ولهم سوء الدار، هُمُ اللَّعْنَةُ، كيف قال: هُمُ اللَّعْنَةُ. هل اللَّعْنَةُ مَطْلُوبَةٌ حَتَّى تَأْتِيَ بِاللَّامِ؟

قيل: إن اللَّامَ هنا بِمَعْنَى (على) كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١] عليهم فاللَّامَ هنا بِمَعْنَى (على)، والصَّواب أن اللَّامَ على بابها، وأنها لَيْسَتْ بِمَعْنَى (على)، بل هي بِمَعْنَى الاستِحْقاق، يَعْنِي: أنهم يُلْعَنُونَ لَعْنًا يَسْتَحِقُّونَهُ، فهي أَبْلَغُ من قوله: عَلَيْهِمْ. من وَجْه، وتلك أَبْلَغُ من وَجْهِ آخَرَ.

المُهِمُّ: أن اللَّامَ هنا بِمَعْنَى (على) مَعْنَاهَا الْأَصْلُ الاستِحْقاق.

وهنا نقول لكم: إذا وَرَدَ تَفْسِيرَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ أَحَدُهُمَا يُؤَيِّدُهُ اللَّفْظُ وَالثَّانِي لَا يُؤَيِّدُهُ اللَّفْظُ فَتَأْخُذُ بِالْأَوَّلِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنَ الْمَعْنِيَيْنِ مُكْتَمِلًا، وَلَكِنْ مَا يُوَافِقُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ هُوَ الْأَوَّلَى.

قوله: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: البُعد عن الرَّحمة، وقوله: اللَّعْنَةُ. لَمْ يُبَيِّنْ مِمَّنْ فَتَعَمُّ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، وفي آية أُخْرَى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فَكُلُّ شَيْءٍ يَلْعَنُهُمْ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

قوله: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ قال المفسر رحمه الله: [الآخرة؛ أي: شِدَّةُ عَذَابِهَا] ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ؛ أَي: الدار السُّوء، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَابِهَا، وَالْمَعْنَى: لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ؛ أَي: السَّيِّئِ فِي الدَّارِ.

وعلى كل حال: المراد بسوء الدار؛ يقول المفسر: شِدَّةُ عَذَابِهَا، وَلَكِنْ لَوْ قِيلَ: إِنَّ سُوءَ الدَّارِ مَا يَسُوءُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَغَيْرِ الشَّدِيدِ لَكَانَ أَعَمًّا.

ثُمَّ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] إلى آخره، موضع ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ مِمَّا قَبْلُ نَقُول: هي بيان يَعْنِي: عَطْفُ بَيَانٍ من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الظالمين لا يَنْفَعُهُمُ العُذْرُ ولا الاعتذار يوم يقوم الأشهاد؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾.

الفائدة الثانية: أن الكافرين ظلمة، وهو كذلك، والشرك بالله أظلم الظلم، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين سُئِلَ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»<sup>(١)</sup>؛ وهذا حق، فالذي خَلَقَكَ وَأَعَدَّكَ وَأَمَدَّكَ ثُمَّ تُشْرِكُ بِهِ، هذا أظلم ظلم، إن الإنسان لو أهدى إليه شخص عشرة رياتٍ لا ستحيى أن يناله بسوء، فكيف بمن أهدى إليك حياتك كلها، كيف تُشْرِكُ بِهِ وتكفر به؟! إِذْهُ هُوَ -أَعْنِي: الشُّرْكُ- أَظْلَمُ الظُّلْمِ.

الفائدة الثالثة: أن الكافرين يوم القيامة يَعْتَدِرُونَ، ولكن لا يُقْبَلُ؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾.

فإن قال قائل: كيف الجَمْعُ بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ

﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجواب بصفة عامة: أن ما ورد عليك مما يكون يوم القيامة، أو من أوصاف يوم القيامة مما ظاهره التعارض فاعلم أنه لا تعارض فيه، سواء كان ذلك في وصف اليوم، أو في وصف المحشورين، أو في وصف العذاب؛ فإنه لا يمكن أن يكون فيه التعارض أبداً؛ لأن اليوم طويل مقداره خمسون ألف سنة، فيمكن أن تتغير فيه الأحوال، يكون أوله للناس حالاً وآخره للناس حالاً، وما أشبه ذلك.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾، هذا يدل على أنهم في ذلك اليوم سكوت لا يؤذن لهم بأي كلام فينتهزوا الفرصة بالاعتذار، لكن في موقف آخر يعتذرون ولكن لا ينفعهم الاعتذار، وهذا أولى من قول بعض العلماء: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ لو اعتذروا؛ لأنه على هذا التقدير يكون الكلام كلاماً فرضياً لا واقعياً لا ينفعهم لو اعتذروا.

فأيها أولى أن نحمل الكلام على أنه واقع، أو على أنه مفروض؟ الأول؛ على أنه واقع نحن نقول: يعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر.

الفائدة الرابعة: أن الكافرين مستحقون للعنة الله، فهل يعني: ذلك أنه يجوز أن نلعن الكافرين؟

الجواب: أمّا على سبيل العموم فنعم لنا أن نقول: لعنة الله على كل كافر، وكان من قنوت أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه يلعن الكفرة في قنوت الوتر<sup>(١)</sup>: اللَّهُمَّ الْعَنِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ كَذَّبُوا وَكَذَّبُوا رَسُولَكَ. هذا لا بأس به، وهل نلعن نوعاً معيناً من الكفرة، كاليهود والنصارى؟ نقول: اللَّهُمَّ الْعَنِ الْيَهُودَ، اللَّهُمَّ الْعَنِ النَّصَارَى؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل اللهم ربنا لك الحمد، رقم (٧٩٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، رقم (٦٧٦)، دون ذكر الوتر.

قال ﷺ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»<sup>(١)</sup>. لكن قال بعض الناس -إمّا اجتهادًا وإمّا محاباةً لليهود والنصارى-، قال: إن الرسول دعا عليهم باللّعة في حال مُعَيَّنَةٍ، حين اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ لَعْنَهُمْ، كأنه يقول: لأنَّهم اتَّخَذُوا. فيقال: التعليل لا يقتضي تخصيص المعلول، العلة لا تقتضي التخصيص، هم لعنوا من أجل هذا ومن أجل غيره أيضًا.

فالصحيح أنه يجوز أن نلعن اليهود والنصارى على سبيل التخصيص، فنقول: لعنة الله على اليهود والنصارى. سواء قرنا ذلك بفعل من أفعالهم يقتضي اللعن أو لا. إذن: لنا أن نلعن الكفار على سبيل العموم.

وهل نلعنهم على سبيل التعيين؟

الجواب: إن كان حيًّا فلا يجوز، لا يجوز أن لعن شخصًا مُعَيَّنًا، ولو كان أكثر الكفار ما دام حيًّا، والدليل أن النبي ﷺ لما صار يقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»<sup>(٢)</sup> مَن عَيْنَهُمْ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فنهاه وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وإذا كان رسول الله ﷺ ليس له من الأمر شيء فما بالك بمن دونه؟!!

وأما التعليل فإننا نقول: لا تلعنه، ادعُ الله له بالهداية؛ لأنك لا تدري ربًّا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣١)، من حديث عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، رقم (٤٠٦٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يكون هذا العدو للإسلام اليوم هو وليّ الإسلام في يومٍ آخر، ألم يكن عمراً من أعداء الإسلام؟ ألم يكن خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ممن اقتحموا الجبل في أحد ليقتلوا الرسول وأصحابه؟ ثم كانوا من قواد المسلمين، وكان عمراً خليفة الخليفة الثاني في هذه الأمة.

إذن: يا أخي لا تدع على شخص معين من الكفار باللعنة، لكن هل يجوز أن أدعو الله له بالهداية؟

الجواب: يجوز، يدعو لفلان وفلان، لا تريد أن نعين أن الله يهديه.

إذن: الهداية لا بأس بها، أمّا اللعن فلا.

فإن قال قائل: قلنا: إن الكافر لا يدعى عليه إذا كان حياً. فما القول إن كان ميتاً؟

فالجواب: إذا كان ميتاً فإنه يُنظر هل في ذلك مصلحة، إن كان فيه مصلحة فلا بأس. يعني: إذا كان فيه مصلحة وأنت ستغضب أتباعه فلا بأس، وإلا فقد قال: النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَفْضُوا إِلَى مَا قَدَّمُوا»<sup>(١)</sup>.

فإن قال قائل: هل يجوز الدعاء على الكافرين بالهلاك؟

فالجواب: الآن دعاء بالهلاك، ودعاء باللعنة، ودعاء بالهداية، وأحسنهم الهداية، والإنسان الذي يقول: اللهم أهلكه. بدل: اللهم اهد. لا يقوله إلا من شدة الغيرة أو الغضب عليه، ونحن نقول له: اهدأ!.

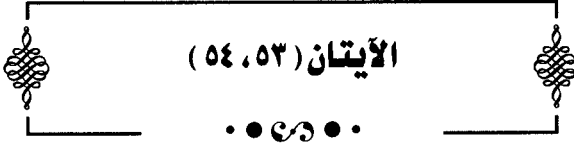
(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات، رقم (١٣٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الفائدة الخامسة: أن الظالمين - وهم الكافرون - لهم سوء الدار يوم القيامة، وهي جهنم - والعياذ بالله -؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

الفائدة السادسة: أن هذا العذاب - أي: هذا اللعن وهذا السوء - كان هؤلاء مُسْتَحِقِّينَ له؛ لقوله: ﴿هُمْ أَلْعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ والله أعلم.







﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].



قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾؛ هذه الجملة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات: الأول: القسم الذي دلَّت عليه اللام. والثاني: اللام. والثالث: قد. وهذه الصيغة تأتي في القرآن كثيرًا.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعنى: أعطينا، يُقال: آتينا. ويُقال: آتينا. آتينا بمعنى: جئنا، وآتينا بمعنى: أعطينا، وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول هنا موسى، والثاني الهدى، موسى هو ابنُ عمرانَ أحدُ أولى العزم الخمسة، وهم: مُحَمَّد، وإبراهيم، وموسى، ونوح، وعيسى.

وقوله: ﴿الْهُدَى﴾؛ أي: ما به الهدى، وهذا يشمل الهدى الذي أُوتيه حتى اهتدى، والهدى الذي يَهْتَدِي به الناس فيكون موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَادِيًا مَهْدِيًا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [التَّوْرَةُ وَالْمُعْجِزَاتُ]، أمَّا التَّوْرَةُ فظاهر أنه هُدًى؛ لأنها كتاب شرعيٌّ فيه الهدى، وأمَّا الْمُعْجِزَاتُ -والصواب أن يُقال: البَيِّنَاتُ أو الآيات- فإنها هُدًى؛ لأنه يَهْتَدِي به الناس، إذ إن الناس إذا رَأَوْا الآياتِ اهْتَدَوْا.

وقوله: ﴿وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: جعلناهم وارثين. ويقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [أي: من بعد موسى] ويمكن أن نقول: أَوْزَنَاهُ من بعد موسى ومن بعد فرعون، فيكون الله تعالى أَوْرَثَ بني إسرائيل الكتاب من بعد نبيهم ومن بعد فرعون، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْزَنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿الْكِتَابِ﴾ قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [التوراة] وَسُمِّيَتْ كِتَابًا؛ لأنها مكتوبة، وعلى هذا يكون كتاب بمعنى: مكتوب، وهذه الصيغة - أعني: فعالًا - تأتي في اللغة العربية بمعنى: مفعول في مواضع كثيرة، مثل بناء بمعنى: مبني، وغراس بمعنى: مغروس، وفراش بمعنى: مفروش، وهلمَّ جَرًّا.

﴿هُدًى﴾ يُحْتَمَلُ أن تكون كما قال المفسر مصدرًا بمعنى اسم فاعل منصوبًا على الحال؛ حيث قدرها بقوله: [هاديًا]، ويُحْتَمَلُ أن تكون مفعولًا من أجله، أي: من أجل ﴿هُدًى﴾ أي: من أجل اهتداء الناس.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ تَذِكْرَةٌ لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ [فهي هُدًى، وهي تَذِكْرَةٌ، هُدًى يَهْتَدِي بها الناس، وتَذِكْرَةٌ يَتَذَكَّرُ بها، ولكن لا يَتَذَكَّرُ بها إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ، فَأُولُو الْأَلْبَابِ، يَعْنِي: أَصْحَابِ الْعُقُولِ، وَسُمِّيَ الْعَقْلُ لُبًّا بِمَنْزِلَةِ اللَّبِّ مِنَ الْحَبِّ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ، وَهُوَ رُوحُ الْإِنْسَانِ.

وقوله: ﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ اجْمَعُهَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] يَتَبَيَّنُ لَكَ أن الذين يَتَفَعَّلُونَ بِالآيَاتِ الكونية كَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالآيَاتِ الشَّرعية هم أَصْحَابُ الْعُقُولِ؛ لِأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ، وَيَتَفَكَّرُونَ، وَيَقِيسُونَ الْأَشْيَاءَ حَتَّى يَهْتَدُوا.

## من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: مِنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مُوسَى ﷺ؛ حيثُ آتَاهُ الْهُدَى، وهذه أعظمُّ مِنَّةٍ يُمْنُ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُعْطِيَهُ الْهُدَى يَهْتَدِي بِهِ بِنَفْسِهِ وَيَهْدِي بِهِ غَيْرَهُ.

الفائدة الثانية: تَأْكِيدُ رِسَالَةِ مُوسَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وعلى هذا فيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لكن إلى قَوْمِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً»<sup>(١)</sup> لكن نُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ حَقٌّ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْهُدَى وَالنُّورِ.

الفائدة الثالثة: مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حيثُ قَالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾، وَلَكِنْ هَلْ هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ قَامُوا بِهِ؟

الجواب: لا، لم يقوموا به، بل كانوا عتاة ظلمة، حتى في عهد نبيهم لم يقوموا به، لما قال لهم: ﴿يَقْوَمُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبْنَا لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] إلى أن قالوا: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَقْتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، أمّا نحن فإننا قاعدون، مع أنه وعدهم بها، قال الأرض التي كتب الله لكم، لكنهم كذبوا الخبر واستكبروا عن الأمر، فهم - أعني: بني إسرائيل، ولا سيما اليهود منهم - أخبث أهل الأرض، وأعتى أهل الكفر، لم يشكروا نعمة الله عليهم بهذه النعمة، أمّا هذه الأمة فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ  
الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

الفائدة الرابعة: أن التّوراة مكتوبة؛ لقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾؛ كيف كتبتها؟ اقرأ  
قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ  
شَيْءٍ فَخَذَهَا يَاقُوتَ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].  
الفائدة الخامسة: أن التّوراة ذكّرى، لكن ليس لكل أحد، بل لأولي الألباب.  
الفائدة السادسة: أنه لا يتذكّر بالآيات الشرعية إلا أولو الألباب وكذلك  
الآيات الكونية.

الفائدة السابعة: الثناء على العقل؛ لأن أهله أهل تذكّر الذين ينتفعون بها  
سمعوا، والمراد بالعقل هنا هل هو عقل الإدراك أو عقل الرُّشد؟

الثاني عقل الرُّشد، أمّا عقل الإدراك فهو الذي يُنَاط به التّكليف الذي تجِدونه  
في كُتب الفقهاء من شروط الطّهارة العقل هذا عقل الإدراك الذي يُنَاط به التّكليف،  
أمّا عقل الرُّشد الذي به الاهتداء فقلّ مَنْ يَحْصُل عليه.

الفائدة الثامنة: أن كل مَنْ لم يتذكّر بآيات الله فإنه ليس ذا عقل.

فإن قال قائل: يرد عليكم أنّا نجد في أئمة الكُفر مَنْ هو على جانب كبير من  
الدّهاء والدّكاء.

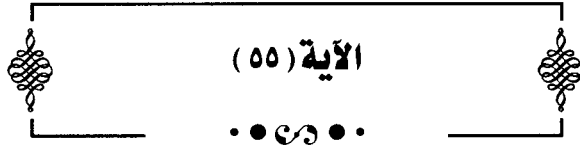
فالجواب: أن هناك فرقاً بين العقل والدّكاء؛ لأن العقل يعقل صاحبه عمّا  
يُصْرّه؛ ولهذا سُمّي بمنزلة العقال للبعير، لكن الدّكاء ليس كذلك، فالدّكاء غريزة،  
أو كسب يَجعله الله تعالى في الإنسان، وربّما يكون بعض الحيوانات أذكى من

الإنسان، فالغراب مثلاً أذكى من ابنِ آدَمَ الذي قَتَلَ أخاه؛ لأنه عَلَّمَهُ كيف يُواري سَوَاءَ أخيه، في الحيوانات ما هو أذكى من بني آدَمَ، النَّمْلُ هذا الذي تُشاهدون من أذكى الحيوانات إذا كان في أيامِ ثمارِ الحُبوبِ حَفَرَتْ لها جُحورًا وأودَعَتْ فيها الحُبوبَ، وَلِكِنَّهَا لا تُودِعُ الحَبَّةَ على ما هو عليه، بل تَأْكُلُ رأسَ الحَبَّةِ؛ لئَلَّا تَنْبُتَ؛ لأنها تَعْرِفُ إذا بَقِيَتِ الحَبَّةُ على ما هي عليه نَبَتَتْ وَخَرِبَتْ على نَفْسِهَا فتَأْكُلُ رَأْسَهَا حتى لا تَنْبُتَ، فإذا قَدَّرَ اللهُ عَزَّجَلَّ ونَزَلَ المَطَرُ وخَافَتْ أن يُعْفَنَ وَيَفْسُدَ أحرَجَتْهُ إلى الشمسِ حتى يَبْيَسَ وَيَجِفَّ، ثُمَّ أَدخَلَتْهُ، وَأَشْيَاءُ تُذَكَّرُ عن بعضِ الحيواناتِ غَرِيبَةٌ.

إِذَنْ: الذِّكَاءُ شيءٌ والعَقْلُ شيءٌ آخَرُ، وكم من ذَكِيٍّ قَادَهُ الذِّكَاءُ إلى النارِ - والعِيَاذُ باللهِ - وهذا شيءٌ مُشَاهِدٌ، الذِّكَاءُ إذا لم يَكُنْ مُقْتَرِنًا بعَقْلٍ وإِيمَانٍ، فالغالبُ أن صَاحِبَهُ يُدَمِّرُ وَيَهْلِكُ، وكم من أناسٍ كانوا أذكياءً وَتَوَقَّعَ فِيهِمْ بعضُ العُلَمَاءِ أن هَؤُلاءِ سَوْفَ يَنْحَرِفُونَ فصار الأمرُ كذلك.

إِذَنْ: لا يَرِدُ عَلَيْنَا أَننا نَجِدُ من أئِمَّةِ الكُفْرِ مَنْ هو على جَانِبِ كَبِيرٍ من الذِّكَاءِ والدَّهَاءِ؛ لأنَّ الذِّكَاءَ شيءٌ والعَقْلُ شيءٌ آخَرُ، قال العُلَمَاءُ: ولذلك لا يَجُوزُ أن تقولَ: إنَّ اللهَ عاقِلٌ؛ لأنَّ العَقْلَ يَحْجِزُ صَاحِبَهُ عَمَّا يَضُرُّهُ، والرَّبُّ عَزَّجَلَّ لا يُمَكِّنُ أن يَضُرَّهُ شيءٌ، ولا يُمَكِّنُ أن يَنْقُصَهُ شيءٌ.

وَمِنْ ثَمَّ ذَهَبَ بعضُ النُّحَوِيِّينَ إلى التَّعْبِيرِ بقولهم: (مَنْ) للعالمِ و(مَا) لغيرِ العالمِ. قالَ: لا يُمَكِّنُ أن تقولَ: للعاقِلِ؛ لأنها تأتي عَائِدَةً إلى اللهُ عَزَّجَلَّ فَقُلْ: (مَنْ) للعالمِ، و(مَا) لغيرِ العالمِ. وقد يُناقَشُ في هذه المَسْأَلَةِ، وَلَكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ هذا لتَعَلَّمُوا أَنه لا يَجُوزُ أن يُوصَفَ اللهُ بأنه العاقِلُ؛ لأنَّ العَقْلَ يَحْجِزُ صَاحِبَهُ عَمَّا يَضُرُّهُ واللهُ عَزَّجَلَّ لا يَضُرُّهُ شيءٌ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَسَيِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥].

• • • • •

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (اصْبِرِ) الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ اصْبِرْ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ، اصْبِرْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٤] وَتَأَمَّلُوا لَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ تَنْزِيلًا هَلْ قَالَ: فَاشْكُرْ نِعْمَةَ رَبِّكَ؟ بَلْ قَالَ: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾.

وَمَعْنَاهُ أَنْكَ كَلَّفْتَ أَمْرًا عَظِيمًا يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ الشَّرْعِيِّ، وَالثَّانِي الْكَوْنِيِّ، وَقَدْ لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ الْعَنَاءَ الْكَبِيرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَدَى قَوْمِهِ.

وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ هنا في الآية حَذْفٌ. وَالْمَحذُوفُ تَفْسِيرُهُ الْآيَاتُ الْأُخْرَى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ، وَلَا نَجِدُ أَحَدًا أَصْبَرَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، يُوعَكَ -يَعْنِي: يُمْرَضُ- كَمَا يُمْرَضُ الرَّجُلَانِ مَنَّا، يَشُدُّ عَلَيْهِ، شُدُّدٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَهُوَ يُحْتَضَرُ، شُدُّدٌ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يَشُدُّدْ عَلَى أَحَدٍ (١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب شدة المرض، رقم (٥٦٤٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، رقم (٢٥٧٠).

أُوذِيَ فِي اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ، وَقِصَّةُ إِذِاءِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ فِي مَكَّةَ وَغَيْرِ مَكَّةَ أَمْرٌ مَشْهُورٌ عِنْدَكُمْ وَمَعْلُومٌ ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] أَي: وَاللَّهُ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِـ (أَنْ) وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَعْدَ اللَّهِ بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخَذْلِ أَعْدَائِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] بَعْضُهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ الْإِذِيَاءَ وَالْبَلَاءَ فِي دِينِ اللَّهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ بَاطِلٌ. كَيْفَ نَرُدُّ عَلَيْهِمْ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، فَهَذِهِ غَيْرُ، فَالرَّسُولُ لَوْلَا أَنْ دِينَهُ حَقٌّ مَا أُوْذِيَ عَلَيْهِ، لَوْلَا أَنْ دِينَهُ حَقٌّ مَا أُوْذِيَ عَلَيْهِ، لَوْ تَبَعَ مَا عَلَيْهِ قَوْمُهُ مَا أُوْذِيَ؛ وَهَذَا كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ أَعْمَامَ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرْبَعَةُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا زَمَانَهُ أَرْبَعَةَ: اثْنَانِ كَافِرَانِ أَحَدُهُمَا أَذَاهُ وَالثَّانِي سَاعَدَهُ وَأَوَاهُ، وَاثْنَانِ أَسْلَمَا أَحَدُهُمَا تَقَدَّمَ إِسْلَامُهُ وَلَهُ مَقَامٌ صِدْقٍ، وَكَانَ شَهِيدًا، وَالثَّانِي بِالْعَكْسِ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ، لَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ لَهُ مَقَامَ صِدْقٍ. الَّذِي كَفَرَ وَأَذَاهُ أَبُو هَبَبٍ، وَالَّذِي كَفَرَ وَأَوَاهُ أَبُو طَالِبٍ، وَالَّذِي لَهُ مَقَامٌ صِدْقٍ وَسَبَقَ حَمْرَةُ، وَالرَّابِعُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَاللَّهُ حَكِيمٌ عَزَّجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَقٌّ﴾ وَالْحَقُّ هُوَ الشَّيْءُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ ﴿حَقٌّ﴾، وَأَنْتِ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ] نَعَمْ هُمْ عَلَى قِيَمَةِ الْأَوْلِيَاءِ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ قِيَمَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ انظُرْ كَيْفَ مُعَامَلَةٌ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَمُعَامَلَتُهُمْ مَعَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِيَسْتَنَّ بِكَ] «اسْتَغْفِرْ

لذَّنْبِكَ» أي: اطلب من الله المغفرة للذنب وهو الإثم أو المعصية، استغفر: اطلب المغفرة.

والمغفرة مُشْتَقَّةٌ من المِغْفَر، وهو الذي يُوضَع على الرأس أثناء القتال؛ لِيَتَّقِيَ به المقاتِلُ سهامِ المقاتِلين، هذا هو المِغْفَر.

إِذَنْ: فالمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، ليس مجرد الستر، ويدلُّ لهذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا حَاسَبَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنُ: «قَدْ سَتَرْتُمَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»<sup>(١)</sup>.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] إشارة إلى أنه لا ذنب للرسول، لكن أمر بالاستغفار لتستنَّ به الأمة فتستغفر لذنوبها، وهذا بناءً على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يُذنب وكذلك الرُّسُل، ولكن في هذا نظرٌ، هذا من العُلُوِّ بالنسبة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَرُبَّ مُذْنِبٍ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ فَكَانَ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الذَّنْبِ.

أَدُمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَصَى رَبَّهُ وَعَوَى، ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، قبل ذلك هل حصل له الاجتباء؟ لا، فصار بعد التوبة من الذنب خيرًا منه قَبْلَ الذَّنْبِ، والذنب لا يحدش في الإنسان، الذنب إذا عرف الإنسان نفسه وعرف قدر ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثُمَّ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَتَابَ وَنِدِمَ يَجِدُ فِي قَلْبِهِ إِيْمَانًا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ، يكون عنده حياءً من الله وَحَجَلٌ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: «لَوْلَا أَنْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَعْفِرُونَ اللَّهُ وَيَغْفِرُهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فنقول للمؤلف: عفا الله عنك؛ حيث ادّعت ما ليس بصحيح إذا كان الله يقول للرسول ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢] كيف نقول: إنه أمره بالاستغفار من أجل أن يستن به، لا من أجل أن له ذنبًا والله يقول صراحة: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [عمد: ١٩]!

ليس له ذنب، لكن استغفر؛ لئستن به، كيف يقول: الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَىٰ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحریم: ١-٢] ﴿تَبَغَىٰ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفر الله لك ذلك، كيف يقول الله عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]!

كل هذا يدل على أن مثل هذه الأمور تقع على الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لكن لا شك أن ما يُحِلُّ بالأخلاق أو يُحِلُّ بالرِّسالة لا يُمكن أن يقع منه، هذا شيء معلوم، لا يُمكن أن يقع منه فاحشة، ولا يقع منه خيانة، ولا يقع منه كذب، هذا مُستحيل؛ لأن هذا يُحِلُّ بالشرف ويُحِلُّ بمقام النبوة، أمَّا المعاصي البعيدة عن هذا فتقع، أليس موسى ﷺ قتل نفسه لم يؤمر بقتلها وهو من أولي العزم؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصل: أن قول المفسر: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] خطأ، ولكن «استغفر لذنبك» لأن لك ذنباً لكنه مغفور، ومن أسباب مغفرة ذنبك أن تستغفر، فالاستغفار من أسباب المغفرة، والطاعات من أسباب المغفرة، تغلب الطاعات على المعاصي وغير ذلك.

قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ ﴿وَسَبِّحْ﴾ يقول: المفسر رحمه الله: [صل] ولا شك أن الصلاة تسمى تسبيحاً، ومنه حديث: صلى النبي ﷺ في بيته سُبْحَةَ الصُّحَى<sup>(١)</sup>. ومنه قول ابن عمر: «لَوْ كُنْتُ مُسَبِّحًا لَأَتَمَمْتُ»<sup>(٢)</sup> يعني: مُصَلِّيًا نَافِلًا لَأَتَمَمْتُ. فلا شك أن الصلاة تسمى تسبيحاً.

ومن الأدلة على ذلك سابقاً ما ذكر - لكن أخرناه ترتيباً أو نسياناً - قوله عز وجل: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨] حيث قال بعض العلماء: إن هذه إشارة إلى أوقات الصلوات الخمس. لكن هل يتعين أن يكون التسبيح في كل مكان بمعنى الصلاة؟ لا؛ ولهذا نرى أن قوله تعالى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أشمل وأعم من إرادة الصلاة، يقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: تسبيحاً مقروناً بالحمد، فالتسبيح زوال الصفات التي لا تليق بالله، وفي الحمد إثبات صفات الكمال لله، فيكون ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ جامعاً بين التنزيه والإثبات، تنزيه الله عما لا يليق به، وإثبات ما هو أهله سبحانه وتعالى من الكمال في صفاته وأفعاله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ العشي ما بعد الزوال، ومنه حديث أبي هريرة في قصة ذي اليدين:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب تستر المعتسل بثوب، رقم (٣٣٦)، من حديث أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٩).

«صَلَّىٰ بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشِيِّ»<sup>(١)</sup>؛ فالعِشِيُّ ما بعد الزَّوال، والإِبْكَار ما قبل الزَّوال.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ]؛ لأن العِشْيَّ يَشْمَلُ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ، وَالْإِبْكَارَ الْفَجْرَ ﴿وَسَيِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ وَالصَّوَابُ مَا قُلْنَا: أَنْ الْمُرَادَ بِالتَّسْبِيحِ هُنَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ الصَّلَوَاتِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الْأُولَى: الأَمْرُ بِالصَّبْرِ، وَهُوَ هُنَا لِلرُّجُوبِ، وَالصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ - كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحْمَهُمُ اللَّهُ -: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلِّمَةِ؛ وَالْأَوَّلُ هُوَ الْأَكْمَلُ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثُ.

فَالصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِدُونِ تَضَجُّرٍ وَبِدُونِ تَكْرُهٍ، بَلْ وَمُسْتَسْلِمٍ لَهَا غَايَةَ الْإِسْتِسْلَامِ، هَذَا الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

أَمَّا الصَّبْرُ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَنْ يَحْبِسَ نَفْسَهُ عَنِ مُبَاشَرَةِ الْمَعَاصِي فَلَا يَفْعَلُهَا، بَلْ يَصْبِرُ وَلَوْ شَقَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وَالثَّلَاثُ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ؛ يَعْنِي: عَلَى مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْبَلَاءِ فِي بَدَنِهِ، أَوْ عَقْلِهِ، أَوْ فِكْرِهِ، أَوْ أَهْلِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ مُجْتَمَعِهِ يَصْبِرُ وَيَحْبِسُ نَفْسَهُ عَنِ التَّسَخُّطِ بِالْقَوْلِ، عَنِ التَّسَخُّطِ بِالْأَرْكَانِ أَوْ اللِّسَانِ أَوْ بِالْجَنَانِ، التَّسَخُّطُ بِالْجَنَانِ أَنْ يَكُونَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

في قلبه نوع اعتراض على الله عَزَّوَجَلَّ: لماذا قَدَّرَ عَلَيَّ كذا ولم يُقَدِّرْ على فلان؟! ولماذا ابتلاني الله؟! ثم بعد ذلك ربنا يكفر، نسأل الله العافية.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، التَّسَخُّطُ بِاللِّسَانِ أَنْ يَدْعُوَ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَالتَّسَخُّطُ بِالْأَرْكَانِ بِضَرْبِ الْحُدُودِ وَشَقِّ الْجُيُوبِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فَصَارَ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ يَتَضَمَّنُ حَبْسَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

فإن قال قائل: إن التَّسَخُّطَ الْقَلْبِيَّ مِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ: إِنْ هَذَا أَمْرٌ خَارِجٌ عَنْ طَاقَتِي، أَنَا أَكْرَهُ هَذَا لَكِنْ أَجِدُهُ فِي نَفْسِي وَأُدْفَعُهُ وَأَجِدُهُ وَأَجِدُهُ؟!!

فالجواب: هناك فرق بين كراهة المقدور وكراهة التقدير، كراهة المقدور من طبيعة الإنسان، كلُّ يكره أن يُصاب بأذى، لكن كراهة التقدير هذا هو المراد، أن تكره تقدير الله من حيث هو فعل الله، فيؤلِّد لك ذلك أنك ربِّما تُبغض الله عَزَّوَجَلَّ - أعودُ بالله - ربِّما تُبغض الله، كيف يُقَدِّرُ عَلَيَّ هَذَا الرَّبُّ هَذَا التَّقْدِيرَ؟! أمَّا كراهة المقدور فلا بُدَّ منها، كل إنسان يُصاب بها لا يُلائم طَبْعُهُ سَوْفَ يَكْرَهُ هَذَا الشَّيْءَ.

فإن قال قائل: هذه الكراهة تقع في القلب مع كراهة الإنسان ظاهراً لها، هو يدافعها لكن يجدها في قلبه.

فالجواب: لا أظنُّ، لا يوجد إنسان مؤمن يكره ما قَدَّرَ اللهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ تَقْدِيرٌ لِلَّهِ، أَبَدًا، وَمَاذَا يَكْرَهُ؟! أَنْتَ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ، كَيْفَ تَكْرَهُ هَذَا الشَّيْءَ؟ هَلْ أَنْتَ تَدْبِحُ بِعَيْرِكَ لِتَأْكُلَهُ وَالْبَعِيرُ يَكْرَهُ هَذَا الشَّيْءَ؟! هُوَ مِلْكُكَ، فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَحَدَزَ أَنْ تَكْرَهُ تَقْدِيرَهُ

من حيث هو تقديرٌ، أمّا من حيث هو مقدور - كما قلت لك - شيءٌ لا بُدَّ منه.

الفائدة الثانية: تسلية النبي ﷺ بقوله: ﴿إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾.

الفائدة الثالثة: تحذير المعارضين له؛ لأن الله وعده بالنصر وخذلان أعدائه ومعارضيه، فقوله: ﴿إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ كما أن فيه تسلية له فيه أيضًا تحذير لأعدائه.

الفائدة الرابعة: أن وعد الله سبحانه وتعالى لا بُدَّ أن يقع؛ لقوله: ﴿حَقًّا﴾ والحق هو الثابت الواقع، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ أَلْمِيعَادَ﴾ وذلك لتِمَامِ قدرته وصدق وعده لا يُخلف الميعاد؛ لأن إخلاف الوعد ناشئٌ عن كذب الواعد، أو عن عجزه عن الوفاء به، وكل ذلك مُحال في حق الله عزَّ وجلَّ.

الفائدة الخامسة: وجوب الاستغفار؛ لقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾.

الفائدة السادسة: جواز الذنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿لَذَنبِكَ﴾ والخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وإذا جاز الذنب على الرسول وهو أشرف الرُّسل فعلى غيره من باب أولى.

فإن قال قائل: أليس الأنبياء معصومين عن الذنوب؟

فالجواب: هذه الآية وأمثالها تدلُّ على أن الجواب بالنفي، لكنهم يُفارقون غيرهم في ذلك في وجهين:

الوجه الأول: أنهم معصومون من الكذب والخيانة، وما أشبه ذلك بما يُؤثر على الرسالة.

والثاني: أنهم معصومون عن كل ذنب يُحلُّ بالشرف.

الثالث: أنهم معصومون من الإقرار عن الذنوب، لا بُدَّ أن يُنبَّهوا عليها حتى يُوقَفوا للتَّوبَة منها.

فهذه فُروق ثلاثة بينهم وبين غيرهم من الناس، أمَّا غيرهم من الناس فإنَّهم ليسوا معصومين مِمَّا يُحِلُّ بالشَّرَف، وما يُحِلُّ بالأمانة، وليسوا معصومين عن الإصرار على المعاصي.

الفائدة السابعة: الأمر بالتَّسْبِيح بحمْد الله صباحًا ومساءً؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، فإن كان المراد بذلك الصَّلواتِ الحَمْسَ فالأمر هنا للوجوب، وإن كان المراد به التَّسْبِيح الذي هو الذِّكْر المعروف، فإن الأمر هنا للاستحباب.



## الآية (٥٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِدَّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦].

•••••

ثم قال عزَّوجلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ هذه (إِنَّ) واسمها وخبرها قوله: ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾؛ أي: ما في صدورهم إِلَّا كِبْرٌ.

قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ المُجَادَلَةُ: المُخَاصَمَةُ، وَسُمِّيَتِ المُخَاصَمَةُ مُجَادَلَةً؛ لأنَّ كُلَّ خَصْمٍ يَجْدُلُ الحُجَّةَ؛ لِيَغْلِبَ صَاحِبَهُ كَجَدُلِ الحَبْلِ وَهُوَ شَدُّهُ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الحَصْمِينَ يَجْدُلُ الحُجَّةَ لِنَفْسِهِ لِيُفْحِمَ خَصْمَهُ.

وقوله: ﴿ يُجَادِلُونَ ﴾ المُفَاعَلَةُ تَأْتِي فِي الغَالِبِ بَيْنِ اثْنَيْنِ، وَقَدْ تَأْتِي (فَاعَلٌ) بِدُونِ مُشَارِكٍ مِثْلَ سَافِرٍ، سَافَرَ عَلَى وَزْنِ فَاعَلٍ، عَلَى وَزْنِ جَادَلٍ، لَكِنهَا لَيْسَتْ بَيْنِ اثْنَيْنِ، لَكِنِ الغَالِبِ أَنْ (فَاعَلٌ) يَعْنِي: المُفَاعَلَةُ تَأْتِي مِنْ اثْنَيْنِ ﴿ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يُجَادِلُونَ أَهْلَ الحَقِّ وَيُنَظِرُونَهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ المُنَازَرةَ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ وَوَقَعَتْ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِي حَاجَّهُ فِي رَبِّهِ، وَمُجَادَلَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي القُرْآنِ وَفِي السُّنَّةِ، وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

قوله: ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [القرآن]، وهذا التفسيرُ قاصِرٌ؛ لأن آياتِ الله تشمل الكونية والشَّرعية، ثم تشمل أيضًا من يُجادل في هذه الأُمَّة، ومن يُجادل فيمن سبق، والذين يُجادلون فيمن سبق لا يُجادلون في القرآن، فالأولى أن نجعل الآية على العموم، يُجادلون في آياتِ الله الكونية والشَّرعية إن كانوا في هذه الأُمَّة، فالشَّرعية هي القرآن والسُّنة أيضًا، وإن كانوا من قَبْلِ الأُمَّة فالمُجادلة في التَّوراة من قوم موسى، وهكذا.

إِذْن: تفسير المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ قاصِرٌ؛ لأنه لم يُحيط بالمعنى، بل قصره على بعضه، لكن لو ادَّعى مُدَّع أن المفسر ذكر القرآن من باب التَّمثيل، لو ادَّعى مُدَّع ذلك لقلنا: هذا مُمكن مُحتمل، لكنه أخطأ في التعبير، إذ إن المراد يُقال: آياته الشرعية كالقرآن، حتى يكون الأمر واضحًا.

وقوله: ﴿يُحَادِثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، المُجادلة في الآياتِ الشَّرعية، منها اتِّباع المُتسابه، فيأتي مثلًا بآية من القرآن فيها اشتباه تُحتمل معنى حقًا، ومعنى باطلًا، وهي في الحقُّ أظهرٌ كما هو معلوم، فيريد أن يحملها على المعنى الباطل المرجوح، يأتي بآيات من القرآن ظاهرها التَّعارض يقول: القرآن مُتناقض كيف يقول: كذا، ثم يقول: كذا.

فمثلًا يقول: إن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْ لَهُمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] يودُّون ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فكتَموا، قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كانوا في الأول مُقرِّين تمامًا، فيأتي يقول: هذا القرآن مُتناقض، كيف يُثبت في مكان أنهم لا يكتُمون الله حديثًا وفي مكان



أنهم يُنكرون؟

فِيُجَادِلُ بِمِثْلِ هَذَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَى الْإِنْسَانِ سَيْفٌ يَقَطَعُ حُجَّةَ هَذَا، بَقِي  
الْإِنْسَانُ مُرْتَبِكًا، فَمَا هُوَ السَّيْفُ الَّذِي يَقَطَعُ حُجَّتَهُ؟ أُنْ نَقُولُ: إِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ  
سَاعَةٌ مِنْ زَمَنِ مِقْدَارِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَأَقْرُوا بِالْأَوَّلِ، وَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ  
يَنْجُونَ قَالُوا: نَكْتُمُ لَعَلَّنَا نَنْتَفِعَ. أَوْ أَنَّهُمْ كَتَمُوا فِي الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمَّا رَأَوْا جَوَارِحَهُمْ تَشْهَدُ  
عَلَيْهِمْ أَقْرُوا وَاعْتَرَفُوا.

وَأَنَا أَقُولُ: الْمُجَادَلَةُ فِي الْآيَاتِ فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا اتِّبَاعُ الْمُتَشَابِهِ، هَذِهِ الْمُجَادَلَةُ  
لَا شَكَّ.

وَكذَلِكَ أَيْضًا الْمُجَادَلَةُ فِي الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، يَأْتِي مَثَلًا بِأَشْيَاءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَقُولُ: لِمَاذَا خَلَقَ اللَّهُ هَذَا الشَّيْءَ؟ لِمَاذَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْرَبَ؟ لِمَاذَا خَلَقَ  
اللَّهُ الْحَيَّةَ؟ لِمَاذَا خَلَقَ اللَّهُ الْأَسَدَ؟ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، إِذَنْ مَا أَرَادَ اللَّهُ إِلَّا إِضْرَارَ الْخَلْقِ  
وَإِيذَاءَ الْخَلْقِ، انْتَبِهْ عِنْدَمَا يُورَدُ هَذَا السُّؤَالُ عَلَى عَامِّيٍّ مَاذَا يَقُولُ؟ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا  
يَدْرِي يُمَكِّنُ، فَيُجَادِلُ مَعَنَا نَعْلَمُ أَنَّ خَلْقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ مَصْلَحَةِ الْعِبَادِ،  
وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَجَالِسِ سَبَقَتْ أَنَّ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْمُؤْذِيَاتِ ثَمَانِ فَوَائِدَ تَظْهَرُ لِلْمُتَأَمِّلِ،  
وَبذَلِكَ نَعْرِفُ الْمُجَادَلَةَ فِي الْآيَاتِ تَكُونُ فِي الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ وَالْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ  
وَذَكَرْنَا مِثَالَيْنِ عَلَى ذَلِكَ.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بُرْهَان] ﴿أَتَنَّهُمْ﴾  
هَذِهِ صِفَةٌ لـ ﴿سُلْطَانٍ﴾ وَالسُّلْطَانُ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ الْبُرْهَانُ.

وَذَكَرْنَا فِيهَا سَبَقَ أَنَّ السُّلْطَانَ مَا يَكُونُ بِهِ سُلْطَةً، سِوَاءً كَانَ دَلِيلًا إِذَا كَانَتْ

المسألة تحتاج إلى دليل، أو سلطة تدبير كالسلطان الأعظم، وما أشبه ذلك، أو قوة وقُدرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

المهمُّ: أن السلطان ما يكون به السُّلطة للإنسان، وفَسْرَه في كل مكان بحسبه.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ هل يعنى: أنه لا يمكن أن تُجادل الإنسان بالباطل بسُلطان.

إذَنْ: هذا القيدُ بيان للواقع، وليس قيدًا احترازيًّا، بل هو قيدٌ مُبين للواقع أن كل مَنْ جادل في آيات الله، فإنه مُجادل بغير سلطان ولا يمكن أن يأتيه سلطان بذلك.

وقوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ (إِنْ) يقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [ما] يعنى: أنها نافية، وذلك أن (إِنْ) في اللغة العربية مُشتركة بين عدّة معانٍ، وما أكثر الكلمات التي يكون لها عدّة معانٍ، ولكن الذي يُعيّن المعنى السّياق وقرائنُ الأحوال، ومن ذلك: أنك متى وجدت إثباتًا بعد (إِنْ) فهي نافية ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا مُفْتَرٍوَن﴾، ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ وهلمَّ جرًّا، فمتى وجدت الإثبات في سياق (إِنْ) فاعلم أنها نافية، ويأتي - إن شاء الله - الكلام على بقیة معانيها، لكن هنا يقول: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾، والذي في الصُّدور هو القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وإذا تكبر القلب - والعياذ بالله - تكبر البدن، وإذا ذلَّ القلب لله ذلَّ البدن، قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا

فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»<sup>(١)</sup> وصدق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومثل أبو هريرة ذلك بالملك له جنود يأمر الجنود فيأتمرون<sup>(٢)</sup>، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٣)</sup> قال: إن تمثيل الرسول ﷺ أبلغ؛ لأن الملك قد يتمرد عليه الجنود؛ لكن القلب هل يمكن تتمرد عليه الجوارح، أبدا لا يمكن، فجعل الكبر في الصدور؛ أي: في القلوب؛ لأن الصدور محلها.

قال المفسر رحمه الله: [﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ تكبر وطمع أن يعلوا عليك].

﴿مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ جملة ﴿مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ الظاهر أنها مستأنفة، وليست صفة لـ ﴿كِبْرٌ﴾ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ ولهذا نقول: إذا قرأت فقل: ﴿إِنَّ الَّذِيك يُجْعِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ هذا الموقف الصحيح، ولا تقف على قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ﴾ لا تقف عليه؛ لأنك إذا وقفت على ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ﴾ فمعناه أنك وقفت على الكلام قبل التمام، ولكن قل: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، ثم قف وقل: ﴿مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾؛ لأنك إذا وصلت ﴿إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ صارت جملة ﴿مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ حسب القراءة صفة لكبر، وليس الأمر كذلك، بل هي جملة مستأنفة من الله عز وجل يقول: إنهم لن يبلغوا ما في صدورهم من التكبر عليك والعلو عليك، وقوله: ﴿مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ أضله بباليغينه، لكن أين ذهبَت النون؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه معمر في جامعه (١١/٢٢١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/١٨٧).

حُذِفَتِ النَّونُ لِلإِضَافَةِ؛ لِأَنَّ النونَ وَالتَّنوينَ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَ الإِضَافَةِ؛ وَهَذَا قَالَ أَحَدُ النَّاسِ يَصِفُ تَبَاعُدَهُ مَعَ صَاحِبِهِ:

كَأَيِّ تَنْوِينٍ وَأَنْتَ إِضَافَةٌ      فَأَيْنَ تَرَانِي لَا تَحِلُّ مَكَانِي<sup>(١)</sup>

وَالنُّونُ كَالتَّنوينِ تُحذَفُ مَعَ الإِضَافَةِ ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾.

قَالَ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَاسْتَعِذْ﴾ مِنْ شَرِّهِمْ ﴿بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَاهِمِ ﴿الْبَصِيرُ﴾ لِأَحْوَاهِمِ]، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ (اسْتَعِذْ) بِمَعْنَى: اسْتَجِرْ بِهِ وَاعْتَصِمْ بِهِ فَإِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا نِعَمَ المَعَادِ؛ وَهَذَا لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ. قَالَ: «لَقَدْ عُدَّتْ بِمَعَاذِ الحَقِيقِ بِأَهْلِكَ»<sup>(٢)</sup> وَتَرَكَهَا مَعَ أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا رَاغِبًا فِيهَا، لَكِنَّهَا اسْتَعَاذَتْ بِمَنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخْفِرَ جِوَارُهُ أَبَدًا، قَالَ: «الحَقِيقِ بِأَهْلِكَ».

فَاسْتَعِذْ بِاللهِ؛ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [مِنْ شَرِّهِمْ] وَالأوَّلَى أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ أَعَمًّا. أَي: اسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، فَلَا مَلْجَأَ لِلإنْسَانِ إِلاَّ إِلَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا عِيَاذَ إِلاَّ بِهِ، وَلَا لِيَاذَ إِلاَّ بِهِ أَيضًا، فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ نَفَرٌ مِنْهُ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴿خَتَمَ الآيَةَ بِالسَّمْعِ وَالبَصَرِ؛ لِأَنَّ مَا يُؤَدُّونَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ إِمَّا قَوْلَ فَيُدْرِكُ بِالسَّمْعِ، أَوْ فِعْلَ فَيُدْرِكُ بِالبَصَرِ. يَعْنِي: أَدْوُوكَ بِالقَوْلِ فَتَحْنُ نَسْمَعُ، بِالفِعْلِ فَتَحْنُ نُبْصِرُ، وَهَذَا فِيهِ مِنْ تَطْمِينِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يُعْلَمُ - إِنْ شَاءَ اللهُ - فِي ذِكْرِ الفَوَائِدِ وَاللهُ أَعْلَمُ.

(١) انظر: ذكريات علي طنطاوي (٢/٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب من طلق، رقم (٥٢٥٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ورقم (٥٢٥٥)، من حديث أبي أسيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: صحيح ما ذهب إليه بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ما تقدم قبل الرسالة، وأما المتأخر هو ترك الأولى من الرسول؟

فالجواب: هذا غير صحيح، الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعل أشياء عاتبه الله فيها بعد الرسالة ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فلا نُنزِهُ الرسولَ إِلَّا عَمَّا نَزَّهَهُ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ قَبْلَ قَلِيلٍ: قد يكون الإنسان بعد التَّوْبَةِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلُهَا وَضَرَبْنَا لَكُمْ مَثَلًا بِقِصَّةِ آدَمَ، فَدَعُوا النَّصُوصَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا أَبَدًا.

فَلَمَّا قَالُوا: إِنْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتَ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠] قَالُوا: إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي آدَمَ وَحَوَّاءَ أَنَّهَا حَمَلَتْ فَجَاءَهَا الشَّيْطَانُ فَقَالَ: سَمِيًّا وَلَدَكُمَا عَبْدُ الْحَارِثِ. فَأَبْيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ ثَانِيَةً فَجَاءَهُمَا وَقَالَ: لَتُطِيعَانِي أَوْ لِأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنِي أَيْلٍ - وَالْأَيْلُ نَوْعٌ مِنَ الْغَزْلَانِ قَرْنُهُ قَوِيٌّ كَالْحَرْبَةِ - فَيُخْرِجُ مِنْ بَطْنِكَ فَيَشُقُّكَ، فَأَدْرَكَهَا حُبُّ الْوَالِدِ فَسَمَّيَاهُ عَبْدُ الْحَارِثِ <sup>(١)</sup> عَبْدَاهُ لِغَيْرِ اللهِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ هَذَا مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١/٥)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، رقم (٣٠٧٧)، من حديث سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثم لو فرض أنه وقع هل يُمكن أن يذكر الله السوء ولا يذكر التوبة منه؛ لأننا نقول: إذا وقع فإمّا أن يكون قد تاب منه أو لم يتب، فإن لم يتب فقد مات على الشرك، فإن تاب فليس من عدل الله عزّ وجلّ أن يذكر السوء ولا يذكر الخلاص منه. فنحن نقول: بعض العلماء - عفا الله عنّا وعنهم - يتحايلون أو يتمحلون على العبارة الصحيحة، يتمحلون في تنزيه الرسل عمّا وصفهم الله به، لكن نحن نؤمن بأن الرسول يختلف مع غيره في مسألتين:

المسألة الأولى: أنه لا يمكن أن يفعل ما يُحِلُّ بالرسالة أو بالشرف.

المسألة الثانية: إذا فعل معصية فلا يمكن إلا أن يتوب منها، لا يُقره الله على معصية، نحن الآن جائز على بني آدم أن يفعلوا ما يُحِلُّ بالشرف، يأتون الفاحشة، يزنون، جائز عليهم أيضًا إذا فعلوا أن لا يتوب، فالرسل يختلفون عن غيرهم بهذين الأمرين.

فالمخالصة: أن بعض العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ يتمحلون بالنسبة للرسل عليهم الصلاة والسلام ونحن نقول: لا نتعدى القرآن والحديث أبدًا: «نبيّ من الأنبياء قرصته نَمْلَةٌ - النملة معروف - فأحرق قرية النمل كُلَّهَا - شبَّ عليها نارًا - فأوحى الله إليه هَلَّا نَمْلَةٌ واحدة، تقرصك نملة وتروح إلى كل القرية فتحرقها بسبب ذنب واحد»<sup>(١)</sup>؟

وهذا إشارة إلى أن الإنسان يجب عليه أن يتحرى، ثم هذا النمل لا يمكن أن يتأدب، هل تظنون أن إذا سمعت النملة الأخرى بهذه القصة أن تتوب عن قرص

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم (٣٠١٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، رقم (٢٢٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الناس؟ لا، وأقول لكم هذا؛ لئلا تُوردوا على أن الله تعالى قد يُهلك الطائعين بذنب العصاة ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأفعال: ٢٥]؛ لأن هؤلاء الطائعين مُكَلَّفون بإنكار المنكر، ثم إذا أُهلكوا تأدَّب بهم من سواهم بخلاف مسألة قرية النمل.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان حال الذين يُجادلون في آيات الله، وأنه ليس لهم دليل فيما يُجادلون به، ثم إن الجدال في آيات الله ينقسم إلى قسمين:

جدال لإثبات الحق وإبطال الباطل وهذا مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وجدال بالعكس لإثبات الباطل وإبطال الحق، وهذا هو المذموم، وعليه تنتزل مثل هذه الآيات الكريمة.

الفائدة الثانية: إثبات آيات الله عزَّجَلَّ وهي كما قلنا في التفسير شرعية وكونية.

الفائدة الثالثة: أن الحامل لهؤلاء المُجادلين هو الكبر والتعالي؛ لقوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

الفائدة الرابعة: أن هؤلاء لم يبلغوا مُرادهم بما يُجادلون به؛ لقوله: ﴿مَا هُمْ بِسَالِفِيهِ﴾ وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا في قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فتأمل هذه العبارات القويَّة ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ قذف وهو الرمي بشدة ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾؛ أي: يصل إلى أُمِّ دماغه فإذا هو زاهق فيموت في الحال؛ لأن (إذا) فجائية، و(إذا) الفجائية

تُدُلُّ على مُفاجأة الشَّيءِ.

وهذا يُدُلُّ على أن الحقَّ غالبٌ للباطل ولا محالة.

فإن قيل: إننا نجدُ المُجادلةَ من الكُفَّارِ أحيانًا لا تُدفعُ، يَعجزُ الإنسانُ عن دَفْعِها.

فالجواب: نعمَ هذا ربما يكون، لكن ليستِ العِلَّةُ من الحُجَّةِ، بل من المُحتجِّ، فالعِلَّةُ ليست من الحُجَّةِ، الحُجَّةُ قائمةٌ والحقُّ غالبٌ، لكن العِلَّةُ من المُحتجِّ قد يكون قليلَ العِلْمِ؛ ولهذا لا يَنْبَغِي أن تَدْخُلَ في مُجادلةِ غيرِكَ إلا ومَعَكَ عِلْمٌ، وقد يكون قاصِرَ الفِهْمِ لا يَفْهَمُ، هو عنده عِلْمٌ لكن لا يَفْهَمُ، وقد يكون سَيِّئَ القَصْدِ يُريدُ الغلبَةَ فقط انتِصارًا لقوله، لا انتِصارًا للحقِّ، وهذا يَخْذُلُ، وقد يكون لِجَبَّةِ، ومَعْنَى العِجْيِ أَنَّهُ ليس عنده من البَيانِ والفِصاحَةِ ما يُؤدِّي إلى الغلبَةِ؛ لأنَّ البَيانِ والفِصاحَةَ لهُما تأثيرٌ كبيرٌ في إثباتِ الحقِّ، بل قد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا»<sup>(١)</sup>.

فهذه الأُمُورُ الأربَعَةُ هي الَّتِي قد تَجْعَلُ الباطِلَ يعلُو ظاهِرًا على الحقِّ والأربَعَةُ هي واحد.

أما قِلَّةُ العِلْمِ هذه فهي الجُهْلُ، أو عِيَّةُ عن التَّعبيرِ عَمَّا في نَفْسِهِ، سُوءُ القَصْدِ، الرَّابِعُ قُصُورُ فِهْمِهِ. هذه الأربَعَةُ هي الَّتِي تَجْعَلُ من الباطِلِ مَنْارًا يعلُو ظاهِرًا على الحقِّ، وأما الحقُّ نَفْسَهُ فلا يُمكنُ إطلاَقًا أن يَغْلِبَهُ الباطِلُ.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكِبْرَ سَبَبٌ لِكُلِّ شَرٍّ؛ ولهذا لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.



مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ، ونوع هذا الكِبْرِ الذي في هَؤُلَاءِ المُجَادِلِينَ هل هو بَطْرُ الحَقِّ وغمط الناس، هذا الكِبْرُ - والعِيَاذُ بالله - جمع نوعي الكِبْرِ، وهو غمط الحَقِّ ورُدُّه، والثاني ازدراء الناس بَطْرُ الحَقِّ وغمط الناس.

الفائدة السادسة: تثبيت النَّبِيِّ ﷺ؛ لقوله: ﴿مَا هُمْ بِبَلِيغِيهِ﴾.

الفائدة السابعة: تبيس هَؤُلَاءِ المُجَادِلِينَ بأنهم لن يبلُغوا مرادهم.

الفائدة الثامنة: أن الاستعاذة بالله في مقام المُجَادَلَةِ مشروعة؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ وذلك أن المُجَادِلَ سَيُورِدُ مِنَ الشُّبْهِ مَا يُحْشَى أَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْهِ، فإذا استعاذ بالله واعتصم به أنجاه الله من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ في المُجَادَلَةِ أمر بالاستعاذة بالله، وعند الحُكْمِ أمر بالاستغفار ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ وأستغفر الله [النساء: ١٠٦]، وذلك لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين تبين الحَقِّ، وأمَّا في مقام المُجَادَلَةِ فالإنسان محتاج إلى مَنْ يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ وَيَعْتَصِمُ بِهِ؛ فلهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

الفائدة التاسعة: إثبات السَّمْعِ لِهَيْبَتِهِ وَتَعَالَى؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ وإثبات البَصَرِ؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿الْبَصِيرُ﴾ والسَّمْعُ ذَكَرَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ: الأوَّلُ: إدراك المسموع، والثاني: الاستجابة.

فأمَّا إدراك المسموع فيرد لمعانٍ مُتَعَدِّدَةً:

أوَّلًا: بيان سعة سَمْعِ الله عزَّ وجلَّ، مثاله قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]؛

ولهذا قالت عائشة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ»<sup>(١)</sup>.

الثاني: التهديد كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

الثالث: التأييد كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

أما السَّمْعُ الذي بمعنى الاستجابة فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ أي: مجيبه، وكقول المصلي: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. أي: استجاب لمن حمده، وأما البَصِيرُ فلها معنيان: المعنى الأول: المدرك ببصره كل شيء فيكون بمعنى الرؤية؛ والثاني: العلم، يعني: أنه عليم بكل شيء.

الفائدة العاشرة: إثبات السَّمْعُ والبَصَرُ معًا، وهو أدلُّ على الكمال من انفراد أحدهما، وذلك لأنَّ المُجَادِلَ قد يقول وقد يفعل، فهَدَّه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهذا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ لأنَّ المُسْتَعِيدَ بالله إِمَّا أَنْ يَسْتَعِيدَ مِنْ أَقْوَالٍ، وَإِمَّا أَنْ يَسْتَعِيدَ مِنْ أَفْعَالٍ.



(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١١٧/٩).  
ووصله الإمام أحمد (٤٦/٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

## الآية (٥٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

•••••

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ اللام هنا لام الابتداء، وتفيد التوكيد، و﴿ لَخَلَقُ ﴾ مبتدأ، و﴿ أَكْبَرُ ﴾ خبر المبتدأ، ﴿ السَّمَوَاتِ ﴾ هي السَّبْعُ الطَّبَاقِ ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ هي الأرض التي نحن عليها، وقد جاءت السنة بأنها سبع تصريحا، كما في قول النبي ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(١)</sup> وأومأ القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ لأن المماثلة هنا لا يمكن أن تكون في الصفة؛ لظهور المماثلة في السموات والأرض، لكنها مثلها في العدد.

وقوله: ﴿ أَكْبَرُ ﴾ خبر المبتدأ؛ أي: ﴿ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ يعني: من إيجاد الناس ابتداء، أو إعادة ابتداء، وإعادة إيجاد السموات والأرض أكبر من إيجاد الناس ابتداء وإعادة.

يقول: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول المفسر رحمه الله: [ونزل في

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُنْكَرِي الْبَعْثِ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ابْتِدَاءً ﴿أَكْبَرُ﴾ من خَلْقِ النَّاسِ مَرَّةً ثَانِيَةً [فَقِيْدَ خَلْقِ النَّاسِ بِالْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ [وَهِيَ الْإِعَادَةُ] بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مُنْكَرِي الْبَعْثِ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهَا هُوَ أَعْمٌ، نَزَلَتْ فِي مُنْكَرِي الْبَعْثِ وَفِي بَيَانِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وعلى هذا فنقول: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ابْتِدَاءً ﴿أَكْبَرُ﴾ من خَلْقِ النَّاسِ ابْتِدَاءً وَإِعَادَةً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: كُفَّارِ مَكَّةَ] ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَفِي هَذَا التَّفْسِيرِ قُصُورٌ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أَعْمٌ مِنْ كُونِهِمْ مِنْ مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهِمْ ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُمْ جَاهِلُونَ لَا يَعْلَمُونَ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي هَذَا إِثْبَاتِ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَعْظَمَ مِنَ الْبَشَرِ وَهَذَا وَاضِحٌ، بَلْ إِنَّ الْبَشَرَ جُزْءٌ مِنَ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُمْ خَلِقُوا مِنْ طِينٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى مُنْكَرِ الْبَعْثِ بِأَنَّكُمْ إِذَا أَقْرَرْتُمْ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لَزِمَكُمْ أَنْ تُقَرُّوا بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْأَعْظَمِ فَهُوَ عَلَى مَا دُونَهُ أَقْدَرُ، وَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ أَيْضًا أُدْلَةً كَثِيرَةً عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ مِنْهَا هَذِهِ الْآيَةُ، وَهِيَ الْاسْتِدْلَالُ بِالْأَعْظَمِ عَلَى الْأَدْنَى، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّومُ: ٢٧]، ﴿وَهُوَ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْإِعَادَةِ ﴿أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ وَهَذَا شَيْءٌ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَبِالْعَقْلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: إِثْبَاتِ الْبَعْثِ، وَجُهْ الدَّلَالَةِ قَوْلُهُ: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْآيَةِ تَقْرِيرَ الْبَعْثِ.

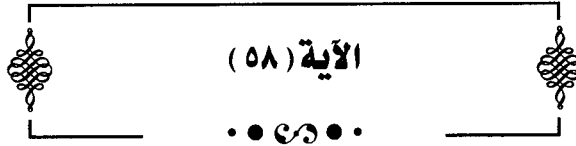
الفائدة الرابعة: أن أكثر الناس في غفلة وجَهْل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يُشْبِهُ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فأحرص على ألا تكون من هؤلاء الذين لا يعلمون.

الفائدة الخامسة: أن العلم في الناس قليل؛ لأنه إذا كان أكثرهم لا يعلم؛ لزم أن يكون الذي يعلم هو الأقل.

فإن قال قائل: هل المراد نفي العلم أو نفي فائدة العلم؟

فالجواب: المراد الأمران فأكثر الناس في جهل وأكثر الناس أيضاً، وعندهم علم لم ينتفعوا بعلمهم، ولم يستفيدوا منه.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

•••••

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ هذان المثلان بينهما الله عزَّجَلَّ: الأول: الأعمى والبصير لا يستويان، ولا أحد من الناس يقول: إنهما يستويان، ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء. يعني: إذا تقرر أنه لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء، لا يمكن.

تنبيه: ليس المراد ذم الأعمى والبصير حتى يقال: إنهما ليس لهما إرادة، المراد بيان حالهم أنها لا يستويان بالاتفاق.

قال المفسر رحمه الله: [فهم] أي: الذين لا يهتدون [كالأعمى ومن يعلمه كالبصير] جاء بذلك المفسر توطئة لبيان مناسبة الآية لما قبلها، ولكن قد يقال: إنها استئناف، بين الله بها أنه لا يستوي هؤلاء وهؤلاء ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾؛ أي: لا يتساويان ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال المفسر رحمه الله: [وهو المحسن] ﴿وَالْمُسِيءُ﴾ فيه زيادة اللام، وكأن التقدير على كلام المفسر: ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء، وهذا المعنى واضح، لكن قوله:

[وهو المحسن] يعيني: أن الذي آمن وعمل الصالحات مُحسِن؛ لقوله ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(١)</sup>.

وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿ءَامَنُوا﴾ بِالْقَلْبِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بِالْجَوَارِحِ، وذلك أن الإيمان متى وقر في القلب صدقته الأعمال، وقوله: ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ وَصَفَ لِمُوصُوفٍ مَحْذُوفٍ، والتقدير: الأعمال الصالحات، والعمل الصالح ما اجتمع فيه أمران:

الأول: الإخلاص لله عَزَّجَلَّ.

والثاني: المتابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فبفقد الأول يكون الشرك، وبفقد الثاني تكون البدعة، والله عَزَّجَلَّ لا يقبل عملاً أشرك فيه معه غيره، ولا يقبل بدعة ابتداعها أحد في دينه.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»<sup>(٢)</sup> وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(٣)</sup>.

إِذَنْ: فلا بُدَّ من إخلاص لا شريك معه، ومُتَابَعَةٍ لا ابتداع معها، وبذلك يكون العمل صالحًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله: ﴿وَلَا الْمُسَوِّءُ﴾ يعنِي: فاعِلُ السَّيِّئَاتِ، والسَّيِّئَاتِ هِيَ إِمَّا تَفْرِيطُ أَوْ إِفْرَاطٌ؛ أَي: إِمَّا تَفْرِيطُ بِالنَّقْصِ وَالْقُصُورِ وَإِمَّا إِفْرَاطٌ بِالزِّيَادَةِ، وَكِلَاهُمَا إِسَاءَةٌ. ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [يَتَّعِظُونَ؛ بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ؛ أَي: تَذَكَّرُهُمْ قَلِيلٌ جِدًّا] قَوْلُهُ: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أَي: يَتَّعِظُونَ وَفِيهَا قِرَاءَتَانِ: «يَتَذَكَّرُونَ» وَ«تَتَذَكَّرُونَ»، وَكِلَاهُمَا صَحِيحَتَانِ سَبْعِيَّتَانِ.

ثُمَّ أَشَارَ الْمَفْسِّرُ إِلَى إِعْرَابِ هَذَا التَّرْكِيبِ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: [أَي: تَذَكَّرُهُمْ قَلِيلٌ جِدًّا] وَعَلَى هَذَا تَكُونُ (مَا) مَصْدَرِيَّةً، أَي: تَذَكَّرُهُمْ تَذَكَّرٌ قَلِيلٌ، وَلَكِنِ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ؛ أَي: يَتَذَكَّرُونَ تَذَكَّرًا قَلِيلًا وَ﴿مَا﴾ هَذِهِ زَائِدَةٌ لِلتَّوَكِيدِ، تَوَكِيدُ الْقَلَّةِ؛ يَعْنِي: قَلِيلًا قَلِيلًا، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ مُرَكَّبَةً مِنْ فِعْلٍ وَفَاعِلٍ وَمِنْ مَفْعُولٍ مُطْلَقٍ الَّذِي هُوَ (قَلِيلًا)؛ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، وَمِنْ (مَا) الزَّائِدَةُ لِلتَّوَكِيدِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، وَهُوَ إِلْحَاقُ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، وَجْهٌ ذَلِكَ أَنَّ انْتِفَاءَ الْاسْتِوَاءِ فِي الْأَعْمَى وَالبَصِيرِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ، وَانْتِفَاءُ اسْتِوَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالمُسيءِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ.

الفائدة الثانية: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمُعَلِّمِ النَّاسِ أَنْ يَرِيبَ الْمَعْقُولَاتِ بِالْمَحْسُوسَاتِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى الْفَهْمِ وَأَدْعَى إِلَى التَّصْدِيقِ؛ إِذْ إِنَّ الْمَحْسُوسَ لَا يُنْكِرُ، لَكِنِ الْمَعْقُولُ قَدْ يُكَابِرُ فِيهِ مَنْ يُكَابِرُ وَيُنْكِرُهُ.

الفائدة الثالثة: نَفْيُ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ وَهَذَا مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ أَنَّهَا



لا تُساوي بين مُخْتَلِفِينَ، ولا تُجَمِّع بين مُفْتَرِقِينَ.

الفائدة الرابعة: أن من الناس من يُطَنِّطِن ويقول: إن الدين الإسلامي دين المساواة، وهذا خطأ، الدين الإسلامي دين العدل وليس دين المساواة، الذين يقولون: إنه دين المساواة يريدون أن يتحوَّلوا من هذا إلى التسوية بين الرجل والمرأة، وبين الشريف والوضيع، وهذا خطأ، فإن الله تعالى جعل لكل إنسان ما يليق به شرعاً وقدرًا؛ ولهذا لم يأت حرف واحد في القرآن فيه أن الناس سواءٌ أبدًا، أكثر ما يُوجد في القرآن نفي الاستواء أي: نفي المساواة، لكن العدل جاء في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

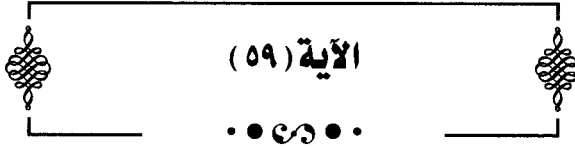
وذلك لأن العدل يعني: أن تُنزل كل إنسان منزله فإذا استوى إنسانان في منزلة سَوَيْنَاهُما في الحُكْم، أو ساوينا بينهما في الحُكْم، وإذا اختلفا فرقنا بينهما. والعجب أن كثيرًا من كُتِّب المتأخرين يقولون بذلك، وهذا أمر قد يدعو أيضًا إلى التسوية بين المسلم والكافر؛ لأن كلاً منهما إنسان بشر، لكن إذا قلنا: العدل صار الكافر لا يُمكن أن يلحق بالمسلم؛ لأن ذلك جور وظلم في حق المسلم، وغلو وإفراط في حق الكافر.

الفائدة الخامسة: فضيلة الإيثار والعمل الصالح وسوء العمل السيئ؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءِ﴾.

الفائدة السادسة: أن كثيرًا من الناس لا يتذكرون إلا قليلًا؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن في هذه الآية شاهداً؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ  
 مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ  
 وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

•••••

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين هما: (إِنَّ) واللام، ثم أكد هذا التأكيد وهو تأكيد معنوي، والأول تأكيد لفظي ﴿لَّا رَيْبَ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [شك] ﴿فِيهَا﴾ أي: في إتيانها ووقوعها، والمراد بالساعة اليوم الذي يُبْعَثُ فيه الناس، وسُمِّيَ ساعة؛ لأن الناس يُطْلَقُونَ الساعة على الأمر الذي يدهي الناس وَيَفْجَعُهُمْ حَتَّى لَا يَشْعُرُونَ بِهِ.

والرَّيْبُ فسره المفسر بالشك، وهو تفسير قريب، لكن نجد فرقا يسيرا لطيفا بينهما؛ أي: بين الرَّيْبِ والشك، وهو أن الرَّيْبَ شكُّ بافتراض وتردد، فقول القائل: ارتاب ليس بالتحديد كقوله: شك، بل الارتياب يحمل قلقا واضطرابا، فهو إذن أخص من الشك، فكلُّ رَيْبٍ شكٌّ، وليس كلُّ شكٍّ رَيْبًا، لكن العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ يفسرون الشيء بمقاربه.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يؤمن بإتيان الساعة؛ ولهذا أكد لهم إتيانها، ولما كان أكثر الناس لا يؤمنون بها كان أكثر الناس كافرين؛ لأن الإيِّان بالساعة له أثر عظيم في تحقيق الإيمان، فإن من لا يؤمن بالساعة لا يعمل،

لأَيِّ شَيْءٍ يَعْمَلُ وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ؟ وَمَنْ آمَنَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَنْجُوَ مِنْ وَبَالِ هَذَا الْيَوْمِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

### من فوائد الآية الكريمة:

**الفائدة الأولى:** ثبوت قيام الساعة ثبوتًا مؤكدًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَأَ رَيْبَ فِيهَا﴾.

**الفائدة الثانية:** التحذير من إهمال هذه الساعة وعدم العمل لها؛ لقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

**الفائدة الثالثة:** وجوب الإيمان بالبعث؛ لأنه خبرٌ من الله مؤكد، وكل أخبار الله تعالى صدق، وكلُّ وَعْدِ اللَّهِ حَقٌّ.

**الفائدة الرابعة:** النهي عن الازتياب في هذه الساعة؛ لأن قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا مُجَرَّدًا لِلتَّأْكِيدِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا بِمَعْنَى الْأَمْرِ؛ أَي: فَلَا تَرْتَابُوا فِيهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا بِمَعْنَى النَّهْيِ؛ أَي: فَلَا تَرْتَابُوا فِيهَا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَلَكْتُبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] فَإِنَّ فِيهِ تَفْسِيرَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ خَبْرٌ مَحْضٌ، وَالثَّانِي: أَنَّهُ خَبْرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ؛ أَي: لَا تَرْتَابُوا فِيهِ.

**الفائدة الخامسة:** أن أكثر الناس لا يؤمنون بهذه الساعة وينكرونها، يقولون: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

**الفائدة السادسة:** الردُّ على كلمة مشهورة، بل إبطال الكلمة المشهورة، وهي أن الإنسان إذا مات قالوا: عاد إلى مثواه الأخير. فإن هذه الجملة باطلة؛ لأن القبر

ليس المَثْوَى الأخير، المَثْوَى الأخير هو الجنة والنار، أمَّا القَبْرُ فإنه زيارة مَعْبَرٍ كما أن الدنيا مَعْبَرٌ كذلك القبر مَعْبَرٌ؛ ولهذا سَمِعَ أعرابيٌّ قارئاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكَاثُرَ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢] فقال الإعرابيُّ: (والله ما الزائرُ بمُقيمٍ، وإن هُنَاكَ شَيْئًا وراءَ القُبُورِ)؛ يُسْتَنْبَطُ من قوله: ﴿زُرْتُمُ﴾، فالزائرُ يَبْقَى مُدَّةً، ثُمَّ يَرْتَحِلُ.

إِذْنٌ: إذا سَمِعْنَا مَنْ يَقُولُ: إن هَذَا دُفِنَ فِي مَثْوَاهُ الْأَخِيرِ. أو ما أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّا نُنْكِرُ عَلَيْهِ وَنَقُولُ: اءَدِلْ عَن هَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ مَضْمُونُهَا لَوْ اءَعْتَقَدَهُ الْقَائِلُ لَكَانَ كَافِرًا.



## الآية (٦٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ  
عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

•••••

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السَّاعَةَ ذَكَرَ مَا يَكُونُ بِهِ الْوِقَايَةُ  
مِنْ وَبَالِهَا، وَهُوَ دُعَاءُ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي ﴾ وَأَتَى بِجُمْلَةٍ بَصِيغَةٍ  
الْغَيْبِيَّةِ تَعْظِيمًا لَهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَقُولُ، أَوْ قُلْنَا. أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ  
تَعْظِيمًا لِلَّهِ.

وقوله: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿ ادْعُونِي ﴾ أمر، و﴿ أَسْتَجِبْ ﴾ جوابه جواب  
الطلب، والدعوة هنا تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، فدعاء المسألة أن يقول  
الإنسان: يَا رَبِّ اغْفِرْ لِي. ودعاء العبادة أن يتعبَّد لله سُجَّادًا وَتَعَالَى بِمَا شَرَعَ، وَإِنَّمَا  
كَانَتْ الْعِبَادَةُ دُعَاءً؛ لِأَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لَطَلْبِ الْإِنْسَانِ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ،  
لَوْ سَأَلَتْ كُلَّ عَابِدٍ: لِمَ تَدْعُو اللَّهَ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَنْجُوَ مِنَ النَّارِ وَأَدْخُلَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ،  
إِذَنْ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِلدُّعَاءِ بِلِسَانِ الْحَالِ.

وقوله: ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ نُفَسَّرُهَا فِي مُقَابِلِ دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ بِإِعْطَائِكُمْ مَا سَأَلْتُمْ،  
وَنُفَسَّرُهَا بِدُعَاءِ الْعِبَادَةِ بِالْقَبُولِ. يَعْنِي: أَنْتَقَبَّلَ مِنْكُمْ. فَاسْتِجَابَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ  
أَنْ يُعْطِيَ السَّائِلَ مَا سَأَلَ، وَاسْتِجَابَتُهُ لِدُعَاءِ الْعِبَادَةِ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَ الْعَابِدِ.

قال المفسر رحمه الله: [أي: ادعوني أثبتكم بقرينة ما بعده] وهذا التفسير بناءً على تقدم يُعتبر تفسيرًا قاصراً، وأمّا ما بعده فليس قرينة لتخصيص هذا، بل نقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ تدلُّ على أن الدعاء عبادة؛ لأنه قال: ﴿ادعوني﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ولا شك أن الذي يستكبر عن دعاء الله ويرى أنه غني عن الله وليس محتاجاً إليه لا شك أنه مُستحقُّ لهذا الوعيد، وهو أنه سيدخل جهنم صاغراً.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ هذا من جملة المقول ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ قال المفسر رحمه الله: [بفتح الياء وضم الخاء وبالعكس] «يدخلون» وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان.

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ للنار، وهو اسمٌ مُعربٌ وأصله -على ما قيل- كهتّام، وقيل: بل هو عربيٌّ، والنون فيه زائدة وأصله من الجهمة يعنني: الظلمة، وأياً كان فهو علمٌ على النار، أجازنا الله وإياكم منها.

وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال المفسر رحمه الله: [صاغرين] الداخر: الصاغر.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات القول لله سبحانه وتعالى، وهذا القول هل هو قولٌ نفسيٌّ لا يظهر أو هو قولٌ ظاهر؟

الثاني قول ظاهر؛ لأن القول النفسي إذا أُريد قِيْد كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، ﴿يُحْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فإذا أُطلق القول صار المراد به الكلام المسموع، وهذا

قول السلف، وأئمة الخلف أن الله يتكلم، ويقول بقول مسموع وبحرف: أنك إذا ادعوني سأستجب لكم؛ وهذه كلمات مُرَكَّبَةٌ من حروف، إِذَنْ يَتَكَلَّمُ بحرف وصوت عَزَّوَجَلَّ.

وقول مَنْ قال: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وإن ما يُسَمَعُ عبارة عن كلام الله، خلقه الله لِيَسْمَعَهُ الناس، وإلَّا فإِنْ كَلَامِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطُّ، باطل؛ أي: هذا قول باطل؛ لأننا إذا فَسَّرْنَا القول بهذا صار مَعْنَاهُ العِلْمُ وليس القول.

والآن نريد أن نُقَارِنَ بين قولين، قول يقول: الذي في المصحف فهو كلام الله مخلوق. وقول آخر يقول: الذي في المصحف فهو عبارة عن كلام الله مخلوق. أيهما أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ؟

الجواب: الأوَّل، الأوَّل قول الجهمية والمعتزلة، والثاني قول الأشاعرة، فتبين الآن أن قول المعتزلة والجهمية في كلام الله خير من قول الأشاعرة، مع أنهم يدَّعون؛ أي: الأشاعرة أنهم من أهل السنة والجماعة، وكيف يكون هذا؟!!

إِذَنْ: نُثَبِّتُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْقَوْلَ لَلَّهِ تَعَالَى، وَالْقَوْلَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِنُطْقِ مَسْمُوعٍ وَبِحُرُوفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ عِظْمَةِ الرَّبِّ وَتَعَاظُمِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾، فَإِنَّ هَذَا الصَّيْغَةَ تَدُلُّ عَلَى عِظْمَةِ الْقَائِلِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: إِثْبَاتُ الرَّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ، وَهِيَ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، فَالْعَامَّةُ: الشَّامِلَةُ لِلخَلْقِ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ الخَلْقِ بِالنَّعْمِ وَتَغْذِيَّتِهِمْ بِالنَّعْمِ، وَالخَاصَّةُ: هِيَ تَرْبِيَةُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ حَيْثُ رَبَّاهُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى مَا يُحِبُّ، وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّوْعَانِ



في قوله تعالى عن السحرة آل فرعون: ﴿قَالُوا يَا مَنَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] فالعامّة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والخاصة: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

الفائدة الرابعة: وجوب دعاء الله تعالى، تُؤخذ من قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ لأنها تتضمّن: لا تدعوا غيري.

الفائدة الخامسة: أن الله تكفل ووعد الداعي بأنه يُجاب؛ لقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فإن قال قائل: ندعو كثيرًا ولا نرى إجابةً ونعمل كثيرًا، ولا نُحسّ بقبول، فما الجواب؟

الجواب أن نقول: الأسباب لا تُؤثر إلا إذا وجدت محلًا قابلاً، أرأيتم السكين إذا قددت بها اللحم فإنه ينقطع، وإذا قددت بها الحديد لا ينقطع مع أنها في اللحم بتارة، وفي الحديد لا تعمل شيئًا، فالسبب لا بُدَّ أن يكون له محلُّ قابل، وإلا فلا أثر له.

ففي العبادة يعبد الإنسان ربه ولا يشعر بقبول؛ لوجود سبب يمنع ذلك، إمّا فوات شرط أو ركن أو واجب، أو حدوث مُفسد، وإلا لو أننا أقمنا العبادات على ما طُلب منا لوجدنا لها أثرًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] مَنْ مِنَّا يشعر إذا صلى بكرَاهة الفحشاء والمنكر؟ والصلاة تنهى عن الفحشاء، فلماذا لا نشعر بهذا؟

الجواب: لأننا مُقصرّون.

ففي الدعاء دائمًا ندعو الله سبحانه وتعالى ولا نرى إجابة؛ فنقول فيها كما قلنا

في الأول-: أن السبب لا بُدَّ له من محلّ قابل، فإذا دعا الإنسانُ ربّه لكن قد فاتته شيء من آداب الدعاء الواجبة أو المستحبة، أو وُجد مانع يمنع من قبول الدعاء، فليس الخلل في الدعاء، بل الخلل في الداعي والمحلّ.

ولنضرب مثلاً بإنسان دعا وهو لا يشعر بالافتقار إلى الله عزّ وجلّ ولا يشعر بالفرار إلى الله، فهذا دُعاؤه ناقص جداً، إذا قلت: رَبِّ اغْفِرْ لِي. مثلاً لا بُدَّ أن تشعر أن هناك ذنباً تحتاج إلى المغفرة، وأنك في أشدّ ما يكون من الضرورة إلى مغفرة هذه الذنوب؛ لأن هذه الذنوب إذا لم تُغفر فيا ويلك! ذنب مع ذنب يكون كبيرة؛ ولهذا نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن مُحقرات الذنوب، وقال: «إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ فَجَمَعُوا حَطْبًا كَثِيرًا وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً»<sup>(١)</sup> مع أن الواحد منهم أتى بعُود واحد.

فالمهم: أنك لا بُدَّ أن تشعر حين الدعاء أنك في غاية الضرورة إلى الله عزّ وجلّ.

ثانياً: من الآداب التي فقدتها سبباً لمنع الإجابة أن يكون عندك شكٌّ في قبول الله عزّ وجلّ لدُعائك، أو في استجابة الله لدُعائك، مثل أن تستعظم المدعوّ به، تقول: هذا لا يحصل. هذا غلط هذا ممّا يمنع الإجابة، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قول القائل: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ. وقال: «لِيُعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ وَلِيُعْظِمَ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، رقم (٦٣٣٩). ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، رقم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كذلك أيضًا من أسباب منع الإجابة أن يدعو الإنسان بإثمٍ أو قطيعة رَحِمٍ، فيدعو بإثمٍ، مثل أن يدعو على شخص لا يستحقُّ الدعاء عليه، فهذا إثمٌ، كأن يدعو على وليٍّ أمرٍ أساء في مسألة من المسائل فيقول: اللَّهُمَّ لا تُوفِّقْهُ. وما أشبه ذلك اعتداء في الدعاء، إذا رأيت وليَّ أمرٍ صغيرًا كان أم كبيرًا أخطأ فليس علاجه: اللَّهُمَّ لا تُوفِّقْهُ. علاجه أن تقول: اللَّهُمَّ وَفِّقْهُ. يُصلِح ويُصلِح الله به، هذا من الاعتداء في الدعاء الذي لا يُقبل.

من الاعتداء في الدعاء قطيعة الرَحِم أن تدعو بقطيعة الرَحِم أيضًا لا يُقبل. دعاء الظالم على مظلومه لا يُقبل؛ لأنه إثمٌ.

ومثال الاعتداء في الدعاء: لو قال: اللَّهُمَّ إني أسألك أن تجعلني من الرُّسل الكرام. هذا مُعتدٍ في الدعاء، اللَّهُمَّ اجعلني لا أذنبُ ذنبًا. عُدوان في الدعاء، أما أن يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك أن تقلب هذا المسجد من ذهب وزُمرُد. فهذا الله على كل شيء قديرٌ: كُنْ فيكون، لكن هذا خلاف العادة، وهو أيضًا في الغالب لا فائدة منه.

ومما هو مُمكن لا شيء فيه: الله يجعلك كسبيوبه في النحو، وكابن تيمية في العلم، يقولون: إنه سُمع واحد يطوف في الكعبة فسمعه شخص وهو يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك نحوًا كنحو ابن هشام، وفقها كفقهِ شيخ الإسلام. فالله على كل شيء قديرٌ لعله يُعلمك.

رابعًا: أكل الحرام من موانع القبول؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبُّ يَا رَبُّ. كُلُّ هَذِهِ الْوُجُوهُ الْأَرْبَعَةُ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَمَطْعَمِهِ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُدِّيَ بِالْحَرَامِ قَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنِّي يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»<sup>(١)</sup> هذه كُلُّهَا تَمَنَع، أو تَحْوَل بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ قَبُولِ دُعَائِهِ وَاسْتِجَابَةِ اللَّهِ لَهُ، فَإِذَا لَمْ يُوجَدِ الْمَوَانِعُ، وَكَانَ الْمَحَلُّ صَالِحًا وَقَابِلًا بَقِي، لَكِنْ بَقِيَ شَيْءٌ وَرَاءَ ذَلِكَ، وَهُوَ مَشِيئَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ قَدْ يَدْفَعُ اللَّهُ عَنِ الْإِنْسَانِ مِنَ الشَّرِّ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا طَلَبَ، وَقَدْ يُجِيبُ مَا طَلَبَ، وَقَدْ يَدَّخِرُ ذَلِكَ لَهُ أَجْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، وَإِلَّا فَنَحْنُ وَاثِقُونَ غَايَةَ الثَّقَةِ مِنْ صِدْقِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ.

فإن قال قائل: هل ما يقول به بالقلب أو بالنفس يُسمَّى قولاً؟

فالجواب: لا، إلا إذا قيّد.

فإن قال قائل: إذا نطقنا به؟

فالجواب: لا، إلا إذا قيّد فقول: قال في نفسه ما حدثت به أنفسنا.

فإن قال قائل: قول الأشاعرة: ما يقول بالنفس. هل هذا صحيح؟

فالجواب: لا، ليس صحيحاً، هذا كلام باطل؛ ولهذا الآن وازناً بين قولهم وبين قول المعتزلة فصار قول المعتزلة أقرب إلى الصواب منهم؛ لأنهم يقولون: هذا الذي في المصحف كلام الله مخلوق، وهو كلام الله حقيقةً، ولكنه مخلوق، وأولئك يقولون: مخلوق وعِبارة عن كلام الله.

فإن قال قائل: قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا أَهْلَ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ

أَهْلَ هَمَّ الدُّعَاءِ<sup>(٢)</sup> هل يقصد أن الإنسان قد لا تتوفّر له أسباب القبول؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩٣/٨).

فالجواب: نعم؛ يقصد أن الإنسان قد لا تتوفّر له أسباب القبول، وأنتم الآن حاسبوا أنفسكم هل أنت إذا كنت في الصلاة وقّلت: رب اغفر لي وارحمني بين السجّدين، هل تشعر بأن هناك ذنوبًا ثقيلة تسأل الله الخلاص منها، أو أنها كلمة تقولها لتأني بالواجب؟ الواقع أننا إذا حاسبنا أنفسنا وجدنا عندنا نقصًا عظيمًا، الإنسان إذا دعا الله عزّوجلّ بمجرّد دعاء الله يستتير قلبه؛ لأن الدعاء عبادة، ولكن نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

الفائدة السادسة: أن الذين يستكبرون عن عبادة الله سيدخلون جهنم على وجه الذل والصغار؛ لقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

الفائدة السابعة: أنجزاء من جنس العمل يعني: العقوبة تُقابل الجرم؛ لأنهم لما استكبروا في الدنيا أدخلوا النار صاغرين، وفي الآخرة سيدخلون جهنم داخرين. الفائدة الثامنة: إثبات النار؛ لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الفائدة التاسعة: أن الدعاء من العبادة؛ لقوله: ﴿أَدْعُونِي﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.



## الآية (٦١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿﴾ [غافر: ٦١].

•••••

ثم قال الله تعالى مُبِينًا نِعْمَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿الَّذِي﴾ خَبْرُهُ، وَ﴿جَعَلَ﴾ بِمَعْنَى: صَيَّرَ، وَنَصَبْتَ مَفْعُولَيْنِ الْأَوَّلَ: ﴿لَيْلًا﴾، وَالثَّانِي: ﴿لَكُمْ﴾، وَالْجَعْلُ هُنَا جَعَلَ قَدْرِيٌّ وَلَيْسَ جَعْلًا شَرْعِيًّا ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ اللَّامُ هُنَا لِلتَّعْدِيَةِ مَعَ التَّعْلِيلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ وَالسُّكُونُ ضِدُّ الْحَرَكَةِ وَضِدُّ الْعَمَلِ، وَهُوَ شَامِلٌ لِسُكُونِ الْجَوَارِحِ، وَسُكُونِ الْقَلْبِ، وَسُكُونِ النَّفْسِ؛ وَهَذَا يَجِدُ الْإِنْسَانَ إِذَا تَعَبَ ثُمَّ نَامَ يَجِدُ أَنْ نَشَاطَهُ يَسْتَجِدُّ وَيَزِدَادُ.

وقوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يَعْنِي: وَجَعَلَ النَّهَارَ مُبْصِرًا، هَذِهِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿لَيْلًا﴾؛ أَي: جَعَلَ النَّهَارَ مُبْصِرًا، وَإِسْنَادُ الْإِبْصَارِ إِلَى النَّهَارِ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُهُ؛ أَي: مَوْضِعُ إِبْصَارِ النَّاسِ؛ وَهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [إِسْنَادُ الْإِبْصَارِ إِلَيْهِ مَجَازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ يُبْصِرُ فِيهِ] فَهُوَ زَمَنُ الْإِبْصَارِ ﴿وَالنَّهَارَ﴾ مَحَلُّ عَمَلٍ وَبَصَرِهَا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَكَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَوْنَهُ ذَا

فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ بِ﴿إِتِّكَ﴾ وَاللَّامِ، وَ(ذُو) بِمَعْنَى: صَاحِبِ، ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿فَضْلٍ﴾ بِمَعْنَى: إِفْضَالٍ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُتَفَضَّلُ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَنْهُ أَي: مَنْ فَضَّلَهُ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا.

وقوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ عَامَّةٌ تَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ سَكَنٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَالنَّهَارَ مُبْصِرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَعْنِي: مَعَ كَوْنِ اللَّهِ ذَا فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - أَكْثَرَهُمْ كَافِرٌ.

ولهذه الآية نظائر منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ حَيْثُ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «يَا آدَمُ أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتَسْعِينَ كُلَّهُمْ فِي النَّارِ»<sup>(١)</sup> مِنَ الْأَلْفِ وَاحِدٌ يَنْجُو.

وَالشُّكْرُ هُوَ الْاعْتِرَافُ لِلْمُنْعِمِ بِالنُّعْمَةِ بِاللِّسَانِ وَاللِّقَابِ وَالْجَوَارِحِ، الْاعْتِرَافُ بِالشُّكْرِ، وَالْاعْتِرَافُ لِلْمُنْعِمِ بِالنُّعْمَةِ بِاللِّسَانِ وَاللِّقَابِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتُكُمْ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً      يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا<sup>(٢)</sup>

«أَفَادَتُكُمْ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً»؛ يَعْنِي: أَنَّكُمْ مَلَكَتُمْ مِنِّي ثَلَاثَةً بِسَبَبِ نِعْمَائِكُمْ، يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قِصَّةِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، رَقْمٌ (٣٣٤٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ قَوْلِهِ: يَقُولُ اللَّهُ لِآدَمَ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتَسْعِينَ، رَقْمٌ (٢٢٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظُرْ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ لِلْخَطَّابِيِّ (١/٣٤٦)، وَالْفَائِقِ لِلزُّمَخْشَرِيِّ (١/٣١٤) غَيْرَ مَنْسُوبٍ.

أَمَّا الشُّكْرُ بِالْقَلْبِ فَهُوَ أَنْ تَعْتَرِفَ بِقَلْبِكَ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ بِكَ فَإِنَّهَا مِنْ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ﴾ [النحل: ٥٣]، وَأَكْبَرُ النِّعَمِ نِعَمَ الدِّينِ، ثُمَّ الْعَقْلُ، ثُمَّ تَتَلَوُهَا النِّعَمُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِحَسَبِ حَاجَتِهَا وَالضَّرُورَةَ إِلَيْهَا. وَأَمَّا بِالْيَدِ يَعْنِي: بِالْجَوَارِحِ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ السَّمْعِ أَوْ الْبَصَرِ، فَاسْتِعْمَالُ هَذِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، شُكْرُ الْجَوَارِحِ أَنْ تَسْتَعْمِلَهَا لَطَاعَةَ اللَّهِ، اللَّسَانَ كَذَلِكَ، شُكْرُ اللَّهِ بِاللِّسَانِ أَنْ تَعْتَرِفَ بِلِسَانِكَ بِأَنَّ مَا بِكَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، وَأَنْ تُحَدِّثَ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ، لَا فخرًا وَاحْتِيَالًا، وَلَكِنْ ائْتِقَارًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ثُمَّ تَسْتَعْمِلُ هَذَا اللَّسَانَ لَطَاعَةَ الْمُنْعِمِ.

إِذْنًا: صَارَ الشُّكْرُ حَقِيقَةً هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ: الْقَلْبُ، وَاللِّسَانُ، وَالْجَوَارِحُ؛ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّ الشُّكْرَ يَتَبَعُصُ، قَدْ يَشْكُرُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ عَلَى نِعْمَةٍ مِنَ النِّعَمِ دُونَ نِعْمَةٍ أُخْرَى، قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمَالِ فَيَشْكُرُ، وَيُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُنْعِمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ فَيَكْتُمُ، وَقَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ فَيَنْشُرُ الْعِلْمَ، وَبِالْمَالِ فَيَسْخَلُ، فَالشُّكْرُ يَتَنَوَّعُ كَمَا أَنَّ الْكُفْرَ يَتَنَوَّعُ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كَمَا أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِإِيْجَادِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ جَلَّ وَعَلَا، هَلْ يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ أَنْ يُرَدُّوْهَا فَتَعْرُبَ، وَإِذَا غَابَتْ أَنْ يُرْجِعُوهَا فَتَرْجِعَ؟ أَبَدًا، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فَأَقُولُ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ



للعباد لا يُمكن لأحد أن يُغيِّره إطلاقاً. ثم إذا نظرنا أيضاً إلى هذا الليل والنهار وتُعاقبه وولوجه بعضه ببعض فهو آية أخرى، أحياناً يزيد الليل، وأحياناً يزيد النهار، مَنْ يَسْتَطِيع أن يَفْعَلَ ذلك إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفائدة الثانية: تعليل أحكام الله القدريّة، كما هو ثابت في الأحكام الشرعية يعني: أن أحكام الله الكونية لا يُمكن أن تكون إِلَّا لحكمة، يُؤخذ ذلك من قوله: ﴿لَتَسْكُنُوا﴾ واللام قلت لكم: إنها للتعليل. إذن جعل الله ذلك لنسكن.

ذكرنا أن أحكام الله الكونية مُعلّلة كأحكامه الشرعية، لكن هل يلزم من تعليلها أن نَعْلَم بالعِلَّة؟ لا يلزم، إن فتح الله علينا ما فتح من ذلك فهذا خير منه وفضل، وإن حُرِمنا ذلك بذُنوبنا فنحن المُخْطِئُونَ، وما من شيء إِلَّا وله حكمة.

الفائدة الثالثة: بيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالليل والنهار؛ حيث جعل الليل سكناً وجعل النهار مُبْصِراً، يُؤخذ من قوله: ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ لولا هذا ما سكن الناس؛ ولهذا تَجِد الإنسان بطبيعته إذا جاء الليل أَحَبَّ السُّكُون، ولولا أنه في عَصْرنا هذا شاعت الأنوار، وشاعت الأضواء، وصار الليل كالنهار لوجدت ليل لذة عظيمة، ونحن أدركنا ذلك، تَجِد لذة ومحبّة للسُّكُون وسُكُون قلب وسُكُون بدن وسُكُون نفس، ثم إذا طلع الفجر وإذا هو كالرُّطْب يأتي بعد التَّمْر نَفْرَح به، جاء النهار.

الآن ما كأن هناك ليلاً ولا نهاراً؛ ولذلك لا تَجِد اللذة التي كُنَّا نَعْرِفها من قبل، ولعل منكم مَنْ أدرك ذلك، واخرُجوا إلى البادية، وخذوا لكم أسبوعاً، ابعثوا عن الأنوار تَجِدوا هذا، وهذا من فضل الله عَزَّجَلَّ أن جعل الليل للسكن والنهار للعمل.

الفائدة الرابعة: إن الله ذو فضل على الناس، يُؤخذ ذلك من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

لذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿ وفي آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فكَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ التَّعْمِيمِ وَالتَّخْصِيسِ؟  
الجواب: أن نقول: الفضل نوعان؛ عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ لجميع الناس والخاصُّ للمؤمنين.

الفائدة الخامسة: أن أكثر عباد الله لا يشكرون الله؛ لقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

الفائدة السادسة: التحذير من قياس الأحكام الشرعية بأعمال العباد؛ بمعنى: أننا إذا قلنا لشخص: هذا حرام. قال: كل الناس يفعلونه. فيجعل المعيار أعمال الناس، وهذا خطأ كل الناس يعملونه، ليست حجة، ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوا عن سبيل الله﴾ [الأنعام: ١١٦]، الحجة فيما قال الله ورسوله ﴿فإن ننزغنهم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء: ٥٩]، سواء كان الطائفة الأخرى أكثر من التي قبلها أو العكس.

إذن: لا يجوز أن نجعل أعمال الله معياراً للأحكام الشرعية.

الفائدة السابعة: وجوب شكر الله عز وجلّ والإشارة إلى أن يكون هذا الشكر من جنس الفضل، الشكر يكون من جنس الفضل، فشكر صاحب المال أن ينفقه في سبيل الله، وشكر العلم نشره وتعليمه للجاهلين، وشكر من أعطاه الله شجاعة وقوة بدنية والجهاد قائم أن يجاهد في سبيل الله.

إذن: الشكر من جنس النعم؛ لأنه قال: ﴿لذُو فَضْلٍ﴾؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].



الآيتان (٦٢، ٦٣)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [غافر: ٦٢-٦٣].

• • ❦ • •

وقوله: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ هذه الجملة تُريد أن تُعربها أوَّلاً (ذا) لا شكَّ أنها مُبتدأ، واللام للبعد، والكاف للخطاب، والميم للجمع. ﴿ اللَّهُ ﴾ هل نقول: إنها بدل، أو عطْف بيان من اسم إشارة، أو أنها خبر؟ الظاهر أنها الأوَّل ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبر المُبتدأ، و﴿ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ خبر آخر؛ لأن الخبر يتعدَّد؛ إذ إن الخبر وَصَف للمُخبر عنه، وإذا كان وَصفاً له فالأوصاف يجوز أن تتعدَّد، قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الْمَقْشُورُ الْوُدُودُ ﴾ ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٤-١٦] خمسة أخبار، فالخبر يتعدَّد؛ لأن الخبر وَصَف للمُخبر عنه، فإذا قلت: زَيْد قائمٌ. معناه وَصَف القيام، والأوصاف يجوز أن تتعدَّد على موصوف واحد.

إذْن نقول: ﴿ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ خبر ثانٍ ﴿ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لا يَشُدُّ عن هذه الجملة شيء أبداً، كُلية عامة خالق كل شيء من العيان والأوصاف والأحوال، كل شيء فالله خالقه من الأعيان والأوصاف والأحوال، العبد مخلوق، أحوال العبد من مرض وصِحَّة ومرض وجُنون، وما أشبه ذلك مخلوقة، أفعاله

مخلوقة، كل شيء فإنه مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ لا يَشُدُّ عنه- عن هذه الجُمْلَةِ - شيء أبدًا حتى العَجْز والكَيْس، وهو من الأَوْصاف، العَجْز يَعْنِي: أن الإنسان يكون غير حازم، والكَيْس أن يكون حازمًا.

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ أنه خَالِقُ كل شيء، وأنه لا خَالِقَ معه بِنَاءً على هذه الجُمْلَةِ الكَلِمَةِ بَيَّنَّ أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ كما أنه مُتَفَرِّدٌ في الخَلْقِ، فَيَجِبُ أن يُفَرَّدَ بِالْعِبَادَةِ.

«إله» بِمَعْنَى: مَأْلُوه، وَفِعَالٌ تَأْتِي بِمَعْنَى: مَفْعُولٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَثِيرًا، وَمِنْهُ غِرَاسٌ بِنَاءِ فِرَاشٍ كِتَابِ لِبَاسٍ، وَعَدَّ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

إذا قال قائل: كيف تَصِحُّ هذه الجُمْلَةُ مع قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، فَأَثَبْتَ آلِهَةَ دون الله؟

الجواب: تَصِحُّ هذه العبارة إذا عَرَفْنَا الخَبَرَ المُقَدَّرَ، وهو: لا إلهَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، دليل هذا ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَى اللهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢] الاستفهام هنا لِلتَّعْجُبِ وَالْإِنْكَارِ.

قال المفسر رحمه الله: [﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف نُصَرَفُونَ عن الإيمان مع قيام البرهان].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ هذا التَّكْيِيفُ يَأْتِي كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وقد تقدم كيف نُعْرِبُهُ، وَقُلْنَا: إن الكاف اسمٌ بِمَعْنَى: مِثْلُ، وهو مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ

للعامل بعده؛ أي: مثل ذلك الإثم يُؤفك، والإفك بمعنى: الصّرف، كذلك، أي: مثل ذلك الإفك - وهو الإشراف بالله وعدم شكر النعم - يُؤفك.  
قال المفسر رحمه الله: [أي: مثل إفك هؤلاء إفك].

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ﴾ إعرابها على أنها نائب فاعل ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: كانوا يكفرون بآيات الله. أي: يكفرون. والجحد هنا بمعنى الكفر؛ بدليل أنه تعدى بالباء، وقول المفسر: [﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مُعْجَزَاتِهِ] هذا لا شك أنه خطأ، بل نقول: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ دلالاته التي تدل على كماله سبحانه وتعالى واستحقاقه للعبودية، فهي آيات وليست مُعْجَزَاتٍ ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: بالدلالات التي تدل على كماله وعلى استحقاقه للعبودية وحده، وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: كونية وشرعية، فالمخلوقات كلها كونية آيات تدل على كماله:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ<sup>(١)</sup>

فكل ما في الكون فإنه شاهد بكمال الله عز وجل وقدرته وعزته وسلطانه وغير ذلك.

المهم: أن جميع المخلوقات آيات كونية تدل على خالقها وحكمته ورحمته، وغير ذلك من كمال الصفات.

وآيات شرعية وهي ما جاءت به الرسل من أحكام عادلة، وأخبار صادقة وقصص نادرة. هذه آيات شرعية التكليفات والأوامر والنواهي كلها عادلة،

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص: ١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

الأخبار كلها صادقة ليس فيها شيء كذب، القِصَصُ كلها نافعة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [يوسف: ٣].

### من فوائد الآيتين الكریمتين:

الفائدة الأولى: إثبات الربوبية لله عزَّجَلَّ على كل شيء، أنه ربُّ كل شيء؛ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الفائدة الثانية: الإشارة إلى وجوب طاعته وعبادته؛ لقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وإذا كان هو الربُّ فهو السَّيِّدُ، وإذا كان هو الربُّ فهو الذي له السُّلْطَانُ، وإذا كان هو الربُّ فهو الذي له الحَقُّ أن يُعْبَدَ، كل ما يُثَبِّتُ الربوبية فهو دليل على وجوب الألوهية؛ ولهذا يُسْتَدَلُّ اللهُ عزَّجَلَّ على المُشْرِكِينَ بِكَوْنِهِمْ يُشْبِهُونَ الربوبية ويُنْكِرُونَ الألوهية، فكلُّ مَنْ أثبت الربوبية لزمه أن يُثَبِّتَ الألوهية.

إذن: توحيد الربوبية مُسْتَلْزِمٌ لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية مُتَضَمِّنٌ لتوحيد الربوبية، إذ لا يُمكن لأحدٍ أن يعبد الله إلا وهو يعلم أنه ربُّ أهل للعبادة؛ ولهذا لو قال لك قائل: هل التَّوْحِيدَانِ مُتَلَازِمَانِ؟ فقل: أمَّا توحيد الربوبية فمُستلزمٌ لتوحيد الألوهية، وأمَّا توحيد الألوهية فمُتضمِّنٌ لتوحيد الربوبية.

الفائدة الثالثة: إثبات خلق الله سبحانه وتعالى لكل شيء؛ لقوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فلو قال قائل: استثنى العقل نفسه فليس خالقاً لها، فلا يصحُّ هذا القول؛ لأن نفسه لم تدخل أصلاً؛ لأن هناك فاعلاً ومفعولاً، والفاعل لا يُمكن أن يدخل في المفعول حتى يُسْتثنى منه، فنحن نقول: الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يدخل في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أصلاً في هذه الآية؛ لأن الخلق، أو إن شئت فقل: لأن المخلوق

بأئن من الخالق، فلا يُمكن أن يدخُل الخالق في المخلوق حتى نقول: استثنى العقل، والاستثناء إخراج الشيء من الشيء، وهنا لم يدخُل أصلاً.

وفي هذه الآية: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هل نقول: إلا ذاته بدليل العقل؟

نقول: لا؛ لأن الأصل لم يدخُل، فهو خالق كل شيء، هو فاعل وغيره مفعول، فهو لم يدخُل أصلاً حتى نقول: أخرج ما يستثنيه العقل في هذا الباب، وقد استدلل الجهمية والمعتزلة بأن كلام الله مخلوق لأن كلام الله شيء، فيكون داخلاً في العموم، ونقول: إذن يلزمكم أن تقولوا: إن الله مخلوق؛ لأن الله شيء ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾.

إذن قولوا: إن الله مخلوق أيضاً. فإن قالوا: لا يُمكن أن نقول؛ لأن الفاعل غير المفعول، قلنا: وصفات الفاعل كالفاعل، الصفات يُحذى بها حدو الذات، فإذا كان الرب عز وجل خالقاً وغير مخلوق، فصفاته أيضاً غير مخلوقة، فالقرآن ليس بمخلوق؛ لأنه كلام الله، وكلام الله من صفاته، وصفات الله كلها غير مخلوقة.

فإن قال قائل: إن الخلق ثابت للعبد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فأثبت أن هناك خالقين، وقال الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المصورين: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»<sup>(١)</sup> فأثبت أنهم خالقون.

فالجواب: أن الخلق الثابت لله عز وجل ليس كالخلق الذي أثبت للمخلوق، خلق المخلوق للشيء تحويله من حال إلى حال، وليس إيجاده، فالتجَار إذا صنع

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٩٦/٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الْحَشْبَةُ بَابًا هَل يُقَالُ: إِنَّهُ خَلَقَ الْحَشْبَةَ؟ حَوْلَهَا مِنْ خَشْبَةٍ إِلَى بَابٍ، وَلَمْ يَخْلُقْهَا، حَتَّى لَوْ قُلْنَا: إِنَّ صُنْعَهُ هَذَا خَلْقٌ. فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بِمَعْنَى: تَغْيِيرٌ وَتَحْوِيلٌ، وَلَيْسَ بِمَعْنَى: الْإِيحَادِ.

وَقَدْ تَحَدَّى اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالَّذِي يُدْعَى أَنَّهَا آلِهَةٌ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بِنَاءُ تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَةِ عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّجَلَّ بَعْدَ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أَي: لَا مَعْبُودَ إِلَّا هُوَ، أَي: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: الْإِنْكَارُ وَالتَّعَجُّبُ عَلَى أَوْلِيَاءِ الَّذِينَ صُرِفُوا عَنِ الْحَقِّ مَعُوضَةً وَبَيَانُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الْمُكْذِبِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَصْدُرُ مِنْهُمْ مَا يُقْضَى بِهِ الْعَجَبُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦٣].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الذُّنُوبَ تَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ رُؤْيَةِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا جَحَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ صُرِفُوا عَنْهَا وَهَذَا وَاقِعٌ، الذُّنُوبَ تَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ رُؤْيَةِ الْحَقِّ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا تَنَتَلَى عَلَيْهِ إِذْنُنَا قَالَكِ اسْطِيرِ الْأَوْلِيَاءِ﴾ [المطففين: ١٣]، هَلْ أَحَدٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ: هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَسَاطِيرُ الْأَوْلِيَاءِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] مِنْ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، حَتَّى رَأَوْا هَذَا الْحَقَّ الْمُنِيرَ فَجَعَلُوهُ أَسَاطِيرَ؛ وَهَذَا يَجِبُ أَنْ نَعَالِجَ أَنْفُسَنَا إِذَا رَأَيْنَا أَنَّ نَقَرْنَا الْقُرْآنَ وَكَأَنَّهُ حُرُوفٌ تُتَلَّى، نَرَجُو بَرَكَتَهَا وَثَوَابَهَا، إِذَا لَمْ تُؤَثِّرْ عَلَى الْقَلْبِ



باللّين والخُشوع، والرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فَإِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَرَضِ الْقَلْبِ، وَرَبِّمَا  
 نَقُولُ: عَلَى مَوْتِ الْقَلْبِ. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، ﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ  
 يَجْحَدُونَ﴾ نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ الْمُتَّبِعِينَ لِمَرْضَاتِهِ.



## الآية (٦٤)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً  
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ  
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ الجملة ﴿ اللَّهُ ﴾ مُبْتَدَأٌ، و﴿ الَّذِي ﴾ خبره يَعْنِي: الله هو الذي ﴿ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ إلى آخِرِهِ ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ هذه من أفعال التَّصْيِيرِ؛ أي: صَيَّرَ لَكُمْ، و﴿ قَرَارًا ﴾ بِمَعْنَى: ذات قرار؛ أي: مُسْتَقَرٌّ ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾؛ أي: فوق، وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى أنه سَقَفٌ، فالله جعل الأرض قرارًا؛ أي: مُسْتَقَرَّةً.

وهل معنى هذا القرار أنها لا تتحرك أو أنها لا تتمد بنا؟

يُقال: القرآن يُفسَّرُ بعضُه بعضًا فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَسِيكَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ [النحل: ١٥]، فبيَّن أن المراد بالقرار أنها لا تتمد بساكنينها؛ أي: لا تَضْطَرُّبُ، وليس المعنى أنها قارّة لا تَتَحَرَّكُ، كما سيأتي - إن شاء الله - في الفوائد.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾؛ أي: سقفاً عاليًا، والمراد بالسما هنا أي: السموات ذات الأجرام، وذلك؛ لأن السماء يُطلق على معنيين، المعنى الأوّل العلو،

والمعنى الثاني السماء السَّقْف، والذي يُعَيَّن أحد المعنيين هو السياق.

فقول الله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧] المراد بالسَّماء هنا العُلُو؛ لأن المطر ليس يَنْزِل من ذات السَّماء السَّقْف، بل يَنْزِل من العُلُو، ويدلُّ لذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فالسَّماء هنا بمعنى ذات السَّقْف، والمطر يَنْزِل من السَّحاب، فإذا كان مُسَخَّرًا بين السماء والأرض اقتضى ذلك ألا يكون المطر يَنْزِل من السماء ذات السَّقْف، ولكنه يَنْزِل من السماء التي بمعنى العُلُو، والذي معنا هنا ﴿ وَالسَّمَاءِ بِنَاءً ﴾ المراد به السَّماء ذات السَّقْف ﴿ وَصَوَّرَكُمُ وَأَحْسَنَ صُورَكُمُ ﴾؛ أي: جعلكم على صورة مُعَيَّنة، والصورة هي الشَّكْل، فشكْل الأدميِّ هو أَحْسَنُ شَكْلٍ في المخلوقات، وَأَحْسَنُهُ وَأَقْوَمُهُ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، فلا صورة أَحْسَنُ من صورة الأدميِّ، ولا شَكْل أَحْسَنُ من شَكْلِهِ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَحْسَنَ صُورَكُمُ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ فبيَّن الله في هذه الآية أربعة أشياء، الأرض التي هي مَحَلُّ الشُّكْنِ، والسماء التي هي مَحَلُّ الظِّلِّ، والتَّصْوِيرُ الذي هو الهَيْكَلُ الإنساني، والإمداد لهذا الهَيْكَلِ وهو قوله: ﴿ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾.

وقوله: ﴿ وَرَزَقَكُمُ ﴾؛ أي: أعطاكم ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ ﴾ هنا ما طاب ولذَّ، واعلم أن الطيب تارة يُراد به الحلال، وتارة يُراد به الحَسَن، وتارة يُراد به اللذيذ، ويُعَيَّن ذلك السِّياق، فقول الله تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ المراد بـ﴿ الطَّيِّبِ ﴾ هنا الحَسَن، والمراد بـ﴿ الْخَبِيثِ ﴾ الرَّذِيءُ، والمراد بقوله تعالى: ﴿ كُلُوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ المراد بها الحلال؛ لقوله: ﴿ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾؛ لأنه لو قيل: المراد اللذيذ لكان قوله: ﴿ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ لا معنى له، ولا يُمكن إقامة الشُّكْرِ إلَّا إذا تناول الإنسان

الشيء الحلال، والمرادُ بقوله هنا: ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾ المرادُ بها ما طاب ولذَّ، وإنما قلنا بذلك؛ لأن رِزْقَ الله عَزَّجَلَّ بِالْمَعْنَى العامِّ يَشْمَلُ الحلال والحرام؛ ولهذا نقول: إن الإنسان إذا اكتسب مالا محرِّمًا عن طريق الربِّا مثلاً فإنه مَرزوق لا شَكَّ، لكنه رِزْقٌ فِيهِ التَّبِعَةُ.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿ذَلِكُمْ اللهُ﴾ اسم الإشارة مُبتدأ، وما بعده عَطْفٌ بَيَانٌ أو نَعْتٌ، و(رب) خَبَرٌ المُبتدأ يَعْنِي: هذا الذي أَمَدَّكُمْ بهذه الأشياءِ الأربَعِ هو الله لا أَحَدَ غَيْرِهِ، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ يَعْنِي: جل وعلا رَبُّ عِبَادِهِ الذي هو الخالق المالك المُدبِّر؛ لأن الربَّ يَجْمَعُ ثلاثة أوصاف: الخلق، والملِكُ، والتدبير.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ قيل: مَعْنَاهُ: تَعَالَى وتَعَاطَمَ، وهذا المَعْنَى قَرِيبٌ، ولكن فِيهِ أن (تَبَارَكَ) أَخْصَصَ من ذلك، وَمَعْنَى (تَبَارَكَ)؛ أي: أنه ذو البركة العظيمة الثابتة؛ ولهذا لا يُطَلَقُ على غير الله بهذا المَعْنَى أي: بِمَعْنَى أنه ذو البركة العظيمة الثابتة؛ لأن هذا الوصف لا يَلِيقُ إِلَّا بالله عَزَّجَلَّ، وَأَمَّا ما يَقُولُهُ بعض الناس - كما سَيَأْتِي إن شاء الله في الفوائد - فَسَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ.

وقوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿رَبُّ﴾ هذه عَطْفٌ بَيَانٌ أو صِفَةٌ لِلْفَظِّ الجلالة، والعالمون كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ، كل الخلق عالمون، وَسُمُّوا بذلك؛ لأنهم عالم على خالقهم، ففي كُلِّ الخلق آية من آيات الله، كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهٗ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ<sup>(١)</sup>

والربوبية هنا الربوبية العامة؛ لأنه أضافها إلى العالمين، فهي عامة شاملة.

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص: ١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

## من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله تعالى هو خالق الأرض؛ لقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾.

الفائدة الثانية: نعمة الله عزَّوجلَّ علينا؛ لكون الأرض ذات قرار؛ أي: مُستقرَّة لا تميد.

الفائدة الثالثة: أن الأرض لا تتحرك؛ لقوله: ﴿قَرَارًا﴾، هكذا قال بعض العلماء، ولكن إذا قارنَّا هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] تبين أن الاستدلال بهذه الآية على أن الأرض لا تتحرك فيه نظر فيقال: إذن من فوائد هذه الآية أن نعمة الله عزَّوجلَّ علينا بكون الأرض لا تميد بنا ولا تضطرب بنا.

ومن ثمَّ نعرِّف الحُكْم على اختلاف الناس اليوم ما بين مؤيِّد ومُفند، هل الأرض تتحرك أو لا تتحرك، فمن المعروف عند علماء الفلك أنها تتحرك، وهذا عندهم بمنزلة الأمور البدهيات اليقينيَّات التي لا تقبل الجدل، يقولون: إن الأرض تتحرك وتدور بذاتها دورانًا يتخلَّف به الليل والنهار، وتدور دورانًا محوريًّا، به يتخلَّف الفصول، وليس عندهم في ذلك شكٌّ، ولا يُجادلون في هذا، ومن العلماء من قال: لا، إنها لا تدور، بل هي ساكنة قارة، وإن اختلاف الليل والنهار إنما يكون بسبب دوران الشمس على الأرض لا بسبب دوران الأرض.

والذي يظهر لي أن القرآن الكريم ليس فيه شيءٌ صريح بأنها تدور أو لا تدور، وهو إلى كونها تدور أقرب من كونها لا تدور؛ لأن نفي الأخصَّ في قوله: ﴿أَنْ

تَعِيدَ بِكُمْ ﴿ يَقْتَضِي وجود الأعم؛ كما قلنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ  
الْأَبْصَارُ ﴾: إن هذه الآية تدلُّ على ثبوت رؤية الله عزَّ وجلَّ؛ لأن نفي الإدراك يدلُّ  
على ثبوت أصل الرؤية، نفي الميدان يدلُّ على وجود أصل الحركة.

لكن الأمر خطير فيما أرى، هل الشمس هي التي تدور على الأرض عند  
الطُّلوع والغروب أو لا؟ نحن نعتقد أنها هي التي تدور، ولا مانع من أن يكون  
هناك دَوْران للأرض ودَوْران للشمس؛ لأن ظواهر الكتاب والسنة كلها تدلُّ على  
أن الشمس هي التي تَطْلُع وتَغْرُب وتَمِيل وتَزُول وتَزِيغ، وما أشبه ذلك، فقد قال  
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ  
تَقْرُبُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ [الكهف: ١٧] فهذه أربعة أفعال كلها أُضيفت إلى الشمس،  
والأصل أن ما أُضيف إلى الشيء فهو فِعْله، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة (ص):  
﴿ وَإِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢]، وقال تعالى في  
سورة الكهف: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ [الكهف: ٨٦]. وقال النبي ﷺ لأبي ذرٍّ  
حين غربت الشمس قال: «أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟» قال: الله ورسوله أعلم<sup>(١)</sup>.

فكُلُّ هذه الأفعال مُضافة إلى الشمس نفسها، فكيف نعدل عن ظاهر هذا  
اللفظ إلى معنى آخر بدون أمر قطعي يكون لنا حُجَّة عند الله عزَّ وجلَّ أن نُخالف  
ظاهر كلامه.

لكن مَنْ تبيَّن له الأمر تبيُّناً واضحاً ورأى أنه أمر قطعي يقينيٌّ بدهيٍّ كما  
يقولون؛ فإنه يُمكن أن تُؤوَّل الآيات بأن نسبة الطلوع إلى الشمس والغروب

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)،  
ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

والذَّهَابُ بِاعْتِبَارِ رَأْيِ الْعَيْنِ، لَا بِاعْتِبَارِ الْوَاقِعِ، لَكُنِّي إِلَى الْآنَ لَمْ يَتَبَيَّنْ لِي أَنْ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَكُونُ بِدَوْرَانِ الْأَرْضِ، بَلْ هُوَ يَكُونُ بِدَوْرَانِ الشَّمْسِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بِأَنَّ الشَّمْسَ تَسْجُدُ كُلَّ غُرُوبٍ عِنْدَ الْعَرْشِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فِي أَنْ تُشْرِقَ فَيَأْذَنَ لَهَا»<sup>(١)</sup>، وَمِمَّا قَرَّرَهُ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ أَنَّ الشَّمْسَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَغْرُبَ أَبَدًا، فَهِيَ كُلَّ لِحْظَةٍ إِمَّا أَنْ تُشْرِقَ عَلَى نَاسٍ، أَوْ تَغْرُبَ عَلَى آخَرِينَ، وَأَنَّ فِي شِمَالِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ الشَّمْسُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ كَامِلَةٍ لَا تَغْرُبُ، وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ كَامِلَةٍ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ.

فَالْجَوَابُ: نَحْنُ ذَكَرْنَا قَاعِدَةً، أَنَّ الْأُمُورَ الْعَيْبِيَّةَ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا الْحِسُّ تَبْقَى عَلَى ظَاهِرِهَا، وَلَا يُقَالُ: كَيْفَ نَجْمَعُ؟ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا نُدْرِكُهُ حَتَّى نَجْمَعَ، فَتَقُولُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَتَمَّهَا إِذَا غَرَبَتْ تَسْجُدُ»، وَلَمْ يَقُلِ الرَّسُولُ كَلِّمَا غَرَبَتْ فِي أَيِّ مَكَانٍ، قَدْ يَكُونُ سُجُودُهَا إِذَا غَرَبَتْ عَنِ هَذَا الْوَجْهِ - وَجْهِ الْأَرْضِ - الَّذِي فِيهِ الْحَرَمَانُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا غَابَتْ عَلَى وَجْهِ آخَرَ، لَا نَدْرِي، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنُقَيِّدُ الزَّمَانَ بِمَا قَيَّدَهُ الرَّسُولُ، يَعْنِي: إِذَا غَابَتْ عَنِ الْمَدِينَةِ حَصَلَ هَذَا، وَهَذَا أَمْرٌ مُمَكِّنٌ مُحْتَمَلٌ؛ لِأَنَّ أَفْضَلَ وَجْهِ الْأَرْضِ هُوَ هَذَا الْوَجْهُ الَّذِي فِيهِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، وَالْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ، وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ السَّمَاءَ مَبْنِيَّةٌ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وَهُوَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بِنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ، بَابُ صِفَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِحِسَابِ، رَقْمُ (٣١٩٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الزَّمَنِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ فِيهِ الْإِيمَانُ، رَقْمُ (١٥٩)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَيَّنَّهَا بِأَيْدِيهِ ﴿ [الذاريات: ٤٧] إِذْنٌ فِيهِ أَجْرَامٌ، وَلَا شَكَّ فِي هَذَا، وَهِيَ أَجْرَامٌ مَحْفُوظَةٌ لَا يُمَكِّنُ الْوُلُوجَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ إِذْنٍ، وَيَدُلُّ لِهَذَا أَنَّ أَفْضَلَ الرُّسُلِ الْبَشَرِيَّةِ مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَفْضَلَ الرُّسُلِ الْمَلَكِيَّةِ جِبْرِيْلَ؛ كِلَاهُمَا لَمْ يَدْخُلِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا وَمَا بَعْدَهَا إِلَّا بَعْدَ اسْتِئْذَانٍ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ حِفْظِهَا.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: مِنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا نَحْنُ الْبَشَرُ أَنْ صَوَّرَنَا هَذَا التَّصْوِيرَ الْبَدِيعَ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الصُّوْرِ فَقَالَ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحْرِيْمُ التَّصْوِيرِ، نَقُولُ: إِنْ مَنَ صَوَّرَ فَقَدْ نَازَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا هُوَ مِنْ اخْتِصَاصِهِ وَهُوَ الْخَلْقُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُقَالُ لِلْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»<sup>(١)</sup> وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ أَنَّ التَّصْوِيرَ حَرَامٌ، بَلْ هُوَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ فَاعِلَهُ<sup>(٢)</sup>.

ولكن هنا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الصُّورَةُ التَّمَثَالِيَّةُ بِمَعْنَى أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ مِنَ الطِّينِ، أَوْ الْخَشَبِ، أَوْ الْحَدِيدِ شَيْئًا عَلَى شَكْلِ صُورَةٍ، هَذِهِ لَا شَكَّ فِي تَحْرِيمِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي حَدِيثٍ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَنَّهُ قَالَ: لِأَبِي الْهَيَّاجِ: «أَلَا أْبَعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَنْ لَا تَدْعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا تَمَثَّلَا إِلَّا طَمَسْتَهُ»<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٩٦/٢١٠٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من لعن المصور، رقم (٥٩٦٢)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، رقم (٩٦٩).



ولا أعلمُ نزاعاً بين العلماء في تحريم ذلك.

الثاني: ما كان بالرّم - أي: التصوير بالرّم - بمعنى أن الإنسان يُصوّر بيده صورة، فهذه اختلف فيها السلف والخلف، فمنهم من قال: إنها لا تحرم؛ لقوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ»<sup>(١)</sup> وهذا رقم في ثوب، فلا يحرم؛ ولأن هذا ليس شيئاً مجسماً حتى يُطابق ما خلق الله عزَّ وجلَّ، إنما هو شكل فقط، والصورة التي صورها الله هي جسم محسوس ملموس يُشاهد بالعين، وأمّا هذا فهو مجرد تلوين، فلا يدخل في الحديث، ولكن الجمهور على أنه داخل في الحديث، بدليل حديث النمرقة حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن الرسول ﷺ جاء إلى بيته فلم يدخل من أجل صورة كانت في نمرقة جعلتها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(٢)</sup>.

وهذا هو الصحيح أن التصوير برسم اليد حرام، ودخل في اللعن، ولا يحلُّ لأحد أن يقوم به.

الثالث: ما كان تصويراً بالالتقاط، وليس باليد، وذلك ما يُعرف بالتصوير الفوتوغرافي الذي ليس للإنسان فيه أي عمل، بل هو شيء يتمثل أمام هذا الضوء المُعَيَّن فينطبع، وليس للإنسان فيه أي عمل سوى تحريك الآلة التي تقوم بالتقاط هذه الصورة، فهذا اختلف فيه اختلافاً كبيراً بين المتأخرين؛ لأنه لم يظهر إلا أخيراً، فاختلّفوا فيه، والذي يتبين لي أنه لا يدخل في التصوير؛ لأن هذا لم يخلق بيده كما

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة، رقم (٥٩٥٨)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٦)، من حديث أبي طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.  
(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٩٦/٢١٠٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

خلق الله عَزَّجَلَّ لم يُشكَل العَيْن، ولا الأنف، ولا الفم، ولا الشفة، ولا أي شيء، غاية ما هنالك أن هذا الضوء انعكس على هذه الصورة، فانطَبعت فهو بمنزلة ما لو شاهدت المرأة فرأيت صورتك فيها، إلا أن الفرق أن هذا يَثْبُت، وما في المرآة يزول بزوالك، ولهذا نُسمِّي صورة الناظر في المرآة نُسمِّيها صورة، وهي بالاتفاق لا تدخل في التصوير المنهِي عنه، لكن يبقى النَّظَر لماذا صوِّر هذه الصورة؟

إِذْنِ الْآنَ: تَقَرَّرْ عِنْدِي هَذَا التَّصْوِيرُ مُبَاحٌ.

لكن لماذا صوِّر؟ نقول: نُجْرِي على هذا ما نُجْرِيه على سائر المُباحات، وهو أنه إذا كان لغرض مقصود فهو مُباح، وإذا كان لغرض مُحَرَّم فهو حرام، فلو أن إنساناً صوِّر صورة امرأة أجنبية من أجل أن يتلذذ برؤيتها كلِّما سنحت له الفرصة؛ لقلنا: هذا حرام لا شك. ولو أراد أن يُصوِّر صورة عظيم لِيُعلِّقها في بيته؛ قلنا: هذا حرام. ولو أراد أن يُصوِّر صورة أبيه أو أخيه أو عمه أو صديقه من أجل أن يتسلى به عند المصائب؛ قلنا: هذا حرام. فيكون هذا المُباح حُكْمُهُ حُكْمُ الغرض الذي من أجله صوِّر، هذا ما يظهر لي حول هذه المسألة، والناس فيها بين مُتْهاون وبين مُتَشَدِّد، والذي يظهر - والله أعلم - هو هذا.

فإن قال قائل: أحياناً لا يتمكّن الخاطب من رؤية مخطوبته، وفي الغالب صورة لها فهل تقوم مقام النظر؟

فالجواب: من السنة أن ينظر الخاطب إلى مخطوبته بالشروط المرعية المعروفة عند العلماء، والصورة لا تقوم مقام النظر، ولا فائدة منها؛ أولاً لأنك كثيراً ما ترى صورة شخص ما في مجلّة أو صحيفة، ثم إذا رأيت الرجل نفسه وجدته يَحْتَلِف، وهذا شيء مُجَرَّب ومُشَاهَد، هذه واحدة.

الشيء الثاني: ربما تكون هذه المرأة عند التقاط الصورة لها على أحسن تجميل بمكياج وكحل، وما أشبه ذلك، فتصوّر على هذا الوجه وتُعطى الخاطب، فإذا نظرها على الطبيعة - كما يقولون - وجد خلاف ذلك، وجد أن لا عين ولا وجه، وحينئذ يحصل البلاء، فالذي نرى أنه يحرم أن يتبادل الخطيبان الصور، ثم إن هذه الصورة قد تبقى عند الخاطب أو عند المخطوبة أيضًا، ولو بعد إطلاق الخطبة، يتمتع بالنظر إليها متى شاء، وهي أيضًا تتمتع بالنظر إليه متى شاءت.

مسألة: بالنسبة لحبس الضوء في الكاميرا، هناك عملية تُسمى بالرتوش، وهذه العملية يدخل فيها المصور بقلم رصاص يُغيّر في الصورة إذا أراد؛ فما حكمها؟

فالجواب: الظاهر أن هذه تدخل في التحريم؛ لأن له عملاً في شكل الصورة.

فإن قال قائل: بعض صغار السن يعني: غير المكلفين يرسمون رسومات للناس، هل لنا أن نحرم هذا عليهم كما يحرم على الكبار، على القاعدة المطردة؟

فالجواب: أي نعم، فما يحرم على الكبار يحرم على الصغار، لكن الصغير لا يؤاخذ عليه، وإنما يؤاخذ عليه وليه؛ حيث لم يمنعه منه، ثم هناك أشياء يمكن أن يتسلل بها الإنسان غير صور الحيوان: شجر، جبال، نجوم، شمس، أنهار، بناء، ثمكين، لكن الشيطان زين للناس سوء العمل، أمرهم أن يصنعوا هذا الشيء المشتبه، أو الذي هو محرم بالاشتباه، ويعدلوا عن شيء مباح.

الآن في بعض المصنوعات ما هو جميل، والإنسان يتمتع بالنظر إليه وهو مصنوع: سيارة، قلم، ساعة، وغير ذلك، فلماذا تعدل إلى الشيء الذي فيه اشتباه، أو إلى شيء محرم لا اشتباه فيه عن شيء مباح؟!

تنبيه: نحن نتكلم عن التصوير من حيث هو تصويرٌ، لا عن المصوّر، المصوّر هو ونيته، إذا كانت نيته سيئة فهو حرام وإذا كانت غير سيئة فهو حلال.

**الفائدة السابعة:** منّة الله عزّ وجلّ علينا برزقه إيانا من الطيبات؛ لقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ذكرنا أن المراد بـ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ هنا اللذائذ؛ ليشمل الرزق العام والخاص، وليعلم أن الرزق ينقسم إلى قسمين: رزق عام، ورزق خاص. فالعام كل ما ينتفع به الإنسان فهو رزق، كما قال السفاريني رحمه الله:

والرزق ما ينفع من حلال أو ضده.....<sup>(١)</sup>

وهو الحرام، هذا رزق عامٌ يستوي فيه المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمكتسب عن طريق حلال والمكتسب عن طريق الحرام، كل هذا رزق، وعلى هذا فالمسروق بالنسبة للمسارق رزق، لكنه رزق، وإن تمتع به في الدنيا فيكون عليه وبالاً في الآخرة.

أما النوع الثاني من الرزق فهو الرزق الطيب الحلال، وهذا هو الرزق الخاص، وهو الطيب الحلال، وهو خاصٌ بالمؤمن، وعلى هذا فالكافر ليس له رزق خاصٌ إطلاقاً حتى لو اكتسبه عن طريق الحلال، فليس رزقاً خاصاً، بل هو داخل في العموم؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولغير الذين آمنوا ليست لهم؛ ولهذا نقول: الكافر يُحاسب على كل لقمة وكل شربة، كل لقمة أكلها وكل شربة شربها يُحاسب عليه يوم القيامة، بل إن من الخطر أن يُحاسب

(١) العقيدة السفارينية (ص: ٦٤).



إِذَنْ: الثَّوَابُ الَّذِي حَصَلَ وَتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ الَّذِي حَصَلَ هُوَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَذْيَا وَهَذِهِ الْأَضْرَارِ، فَتَكُونُ بِذَلِكَ رَحْمَةً، فَلَا تُخْرَجُ عَنْ نِطَاقِ الرَّحْمَةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيَانُ عِظَمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَقَدْ اسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ هَذَا أَنَّ اسْمَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ تُنَالُ بِهِ الْبَرَكَةُ وَاسْتَشْهَدُ لَذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِإِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَتَمُّ»<sup>(١)</sup> وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الرَّكَاعَةِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عُمُومُ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وَيَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَقْوَى اعْتِمَادُ الْإِنْسَانِ عَلَى اللَّهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ مُسَيِّطِرٌ عَلَى كُلِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ السُّلْطَانُ عَلَى كُلِّ الْعَالَمِينَ.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا مَسْأَلَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: اللَّجُوءُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِنْدَ حُصُولِ الْمَضَائِقَاتِ مِنْ بَنِي آدَمَ أَوْ غَيْرِ بَنِي آدَمَ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِيَدِهِ الْأَمْرُ، فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَعْصِمَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْأَسَدِ الضَّارِي الْمُهَاجِمِ، وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ بِمُجَرَّدِ قُدْرَتِهِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَصْرِفُهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إِثْبَاتُ رُبُوبِيَّةِ الْعَامَةِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَهَنَّاكَ رُبُوبِيَّةَ خَاصَّةً، وَرُبُوبِيَّةَ أُخْصُصُ، وَقَدْ اجْتَمَعَ النُّوعَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ سِحْرَةِ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿قَالُوا يَا أَمَنَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١-١٢٢].

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٢/٣٥٩)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِلَفْظٍ: «بِذِكْرِ اللَّهِ».

إِذَنْ: رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ الْعَامَّةُ شَامِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، الرَّبُوبِيَّةُ الْخَاصَّةُ  
لِلْمُؤْمِنِينَ، الرَّبُوبِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَحْصُ لِلرُّسُلِ وَلِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وَهَذَا  
نَعْرِفُ أَنْ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَكُونُ عَامًّا، وَخَاصًّا، وَأَحْصُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: أَنْ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ آيَةٌ عَلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ وَقَدْ  
قُلْنَا: إِنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا عَلَى خَالِقِهِمْ جَلَّ وَعَلَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



## الآية (٦٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ جملة خبرية تُفيد الحَضْرَ وهذا الحَضْرُ حَضْرٌ إِضَافِيٌّ؛ لأنَّ المُرَادِبَ ﴿الْحَيُّ﴾ هنا الحَيُّ حَيَاةً كَامِلَةً، أَمَّا مُطْلَقَ الحَيَاةِ فَيَكُونُ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [المُلْك: ٢]، أَمَّا الحَيَاةُ الكَامِلَةُ فَهِيَ اللهُ عَزَّجَلَّ.

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (لا) نافية للجنس، و(لا) النافية للجنس نصٌّ في العُموم، و﴿إِلَهَ﴾ بِمَعْنَى: مَأْلُوهُ؛ لأنَّ فِعَالًا يَأْتِي بِمَعْنَى: مَفْعُولٌ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَهُوَ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ: مِثْلُ: غِرَاسٍ، وَبِنَاءٍ، وَفِرَاشٍ، وَمَا أَشْبَهَهَا.

إِذْنُ: ﴿إِلَهَ﴾ بِمَعْنَى: مَأْلُوهُ، وَالْمَأْلُوهُ مَعْنَاهُ: الَّذِي تَأَلَّهُ الْقُلُوبُ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا؛ أَي: تَهَوَّاهُ وَتَمِيلُ إِلَيْهِ؛ مَحَبَّةً لَهُ وَتَعْظِيمًا لَهُ، فَبِالْمَحَبَّةِ يَكُونُ فِعْلُ المَأْمُورِ، وَبِالتَّعْظِيمِ يَكُونُ تَرْكُ المَحْظُورِ.

وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ (إِلَّا) أداة حَضْرٍ، وَالْحَضْرُ إِثْبَاتُ الحُكْمِ فِي المَحْضُورِ فِيهِ، وَنَفْيُهُ عَمَّا سِوَاهُ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ بَقِيَ فِيهِ إِشْكَالٌ؛ أَنْكَ إِذَا قُلْتَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وَقُلْتَ: إِنَّ ذَلِكَ لِلْحَضْرِ، وَرَدَّ عَلَى قَلْبِكَ، أَوْ أوردَ عَلَيْهِ أَنْ هُنَاكَ آلِهَةٌ



دون الله بنص القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

والجواب عن ذلك أن يُقال: إن خبرَ (لا) محذوف، وتقديره (حق)؛ أي: لا إله حقٌ إلا الله، وإذا كان هذا هو التقدير لم يرد الإشكال الذي ذكرنا؛ لأن الآلهة التي سوى الله كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وما قررناه هنا في هذه الكلمة - كلمة الإخلاص - هو الذي تطمئن إليه النفس، وإلا قد اختلف فيه العلماء - علماء العربية، وعلماء التوحيد - على أقوال متعددة تبلغ نحو ستة أقوال، ومما ذكر أن الخبر محذوف تقديره موجود، لا إله موجود، وهذا لا شك أنه باطل؛ لأنك إذا قلت: لا إله موجود إلا الله. لزم من ذلك أن تكون الآلهة التي تُعبد من دون الله هي الله، وأن تكون عبادتها حقاً، وألوهيتها حقاً.

إذن: المتعين ما دلَّ عليه القرآن أن الخبر محذوف تقديره (حق)؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قال المفسر رحمه الله: [﴿فَاذْعُوهُ﴾ اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾] وهذا التفسير يُعتبر قاصراً؛ لأن المراد بالدعاء هنا دعاء العبادة ودعاء المسألة، فالذي يدعى دعاء مسألة هو الله، والذي يدعى دعاء عبادة هو الله.

كأن المفسر رحمه الله اقتصر على العبادة؛ لقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ لأن

الدِّين هو العَمَل، ولكن يُقال: إن الدُّعاء من العَمَل، ولا بُدَّ فيه من إخلاص، فالصواب أن قوله: ﴿فَكَادَعُوهُ﴾؛ أي: اعْبُدُوهُ واسأَلُوهُ، فهو دُعَاء عِبَادَةِ دُعَاء مَسْأَلَةٍ.

إذا قال قائل: دُعَاء الْمَسْأَلَةِ واضِح أنه دُعَاء، تقول مثلاً: يا ربِّ اغْفِرْ لي، يا ربِّ يَسِّرْ أَمْرِي وإخواني المُسْلِمِينَ؛ لكن كيف كانت العِبَادَةُ دُعَاءً؟.

فالجواب: العابد يدعو الله بلسان الحال؛ لأنك لو سألته لماذا عبدت الله لقال: أرجو ثوابه، وأخشى عقابه. إذن فهو داع بلسان الحال، ﴿فَكَادَعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ اسم فاعل، وفعله: أَخْلَصَ، وَمَعْنَى أَخْلَصَ؛ أي: نَقَّى الشَّيْءَ من غيره، أَخْلَصَهُ يَعْنِي: جَعَلَهُ خَالِصًا لَا شَائِبَةَ فِيهِ، إِذَنْ فَمَعْنَى مُخْلِصِينَ؛ أي: مُنْقِيَنِ الْعِبَادَةَ وَالِدَعْوَةَ لَهُ وَحْدَهُ.

فإن قال قائل: التَّفْرِيقُ بَيْنَ دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءِ الْعِبَادَةِ، أَلَيْسَ جَمِيعُ الدُّعَاءِ يُعْتَبَرُ مِنَ الْعِبَادَةِ؟

فالجواب: بلى، لكن فَرَقَ بَيْنَ أَنْ أَقُومَ أُصَلِّيَ، أَوْ أَقُولَ: يَا رَبِّ اغْفِرْ لي، الثَّانِي سُؤَالَ صَرِيحٍ.

والعِبَادَةُ سُمِّيَتْ دُعَاءً؛ لِأَنَّ الْعَابِدَ يُرِيدُ الثَّوَابَ وَالنَّجَاةَ مِنَ الْعِقَابِ، فَهُوَ دَاعٍ بِلِسَانِ الْحَالِ. أَمَّا الدُّعَاءُ الصَّرِيحُ فَهُوَ بِلِسَانِ الْمَقَالِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي وارْحَمْنِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

والكل يُطَلَقُ عَلَى الْعِبَادَةِ، لَكِنْ هَذَا عِبَادَةٌ، وَالدُّعَاءُ عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّكَ تَتَعَبَّدُ لِلَّهِ، وَتَتَذَلَّلُ لَهُ بِالسُّؤَالِ، وَالْعِبَادَةُ مَعْرُوفَةٌ، وَكُلُّهَا أَيْضًا يُسَمَّى مَسْأَلَةً؛ لِأَنَّ الْعَابِدَ سَائِلٌ.

قوله: ﴿لَهُ الدِّينَ﴾، الدِّينُ يُطْلَقُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى مَعْنَيْنِ: الْمَعْنَى الْأَوَّلُ الْعَمَلُ، وَالْمَعْنَى الثَّانِي الْجِزَاءُ، فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا عَمَلَ فِيهِ، فَيَوْمَ الدِّينِ يَعْنِي: يَوْمَ الْجِزَاءِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الْعَمَلَ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أَي: مُخْلِصِينَ لَهُ عَمَلَكُمْ، وَهُوَ الدُّعَاءُ.

وقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [مِنَ الشُّرْكَ] مُتَعَلِّقٌ بِ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ أَي: مُنْقِيْنِ لَهُ مِنَ الشُّرْكَ؛ بَحِيْثٌ لَا يَكُونُ فِي عَمَلِكُمْ إِشْرَاكٌ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هَذِهِ جُمْلَةٌ تَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعُمُومِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَالْحَمْدُ مَصْدَرٌ حَمْدٌ يَحْمَدُ حَمْدًا، وَهُوَ -أَعْنِي: الْحَمْدَ- وَصْفُ الْمَحْمُودِ بِالْكَمَالِ عَلَى وَجْهِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ.

فقولنا: «وَصَفُ الْمَحْمُودِ بِالْكَمَالِ» خَرَجَ بِهِ الْقَدْحُ؛ لِأَنَّ الْقَدْحَ وَصْفُ الْمَوْصُوفِ بِالنَّقْصِ.

وقولنا: «عَلَى وَجْهِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ خَرَجَ بِهِ الْمَدْحُ»؛ لِأَنَّ الْمَدْحَ الْمَجْرَدَ قَدْ لَا يَكُونُ لِلْمَحَبَّةِ وَلَا لِلتَّعْظِيمِ، قَدْ يَكُونُ لِلخَوْفِ، فَرَبِّيًا يَمْدَحُ الرَّجُلَ سُلْطَانًا جَائِرًا لَا لِمَحَبَّتِهِ وَلَا لِتَعْظِيمِهِ، وَلَكِنْ لِلخَوْفِ مِنْهُ، أَمَّا الْحَمْدُ فَلَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنِ مَحَبَّةٍ وَتَعْظِيمِ.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ»<sup>(١)</sup> الْمُرَادُ بِالْمَدْحِ هُنَا الْحَمْدُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم (٥٢٢٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم (٢٧٦٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿اللَّهُ﴾ اللام هنا للاختصاص والاستحقاق، للاختصاص لأن الحمد المطلق لا يصح إلا لله وحده، والاستحقاق لأن المستحق للحمد حقيقة هو الله عز وجل، المخلوق وإن استحق الحمد لكنه ليس استحقاقاً حقيقياً؛ لأن كل شيء يأتيك من المخلوق، أو كل كمال في المخلوق فمن الله، فأنأحمد المخلوق عندما يُحسن إليّ، أو عندما أرى فيه صفات كمال أحمدّه، لا لأنه هو المستقلّ بذلك ولكن لأنه السبب.

إذن: اللام هنا ﴿اللَّهُ﴾ للاستحقاق والاختصاص.

وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرَّبُّ هو الخالق المالك المدبّر، يعني: كلمة (رب) المضافة إلى الله عز وجل أو التي وُصف بها الله تتضمّن ثلاثة معانٍ: الخلق، والملك، والتدبير، فالله عز وجل هو الخالق لكل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو المدبّر لكل شيء، حتى المشركون يُقرّون بهذا ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ فسيقولون الله ﴿[يونس: ٣١].

وقوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ قال العلماء: العالم كل من سوى الله، وسُموا عالمًا؛ لأنهم علم على خالقهم جلّ وعلا، إذ إن في كل شيء من هذه المخلوقات آية تدلّ على عظمة الربّ وقدرته، وغير ذلك ممّا تقتضيه معاني الربوبية.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: ثبوت الحياة المطلقة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾، وحياة الله سبحانه وتعالى كاملة من كل الوجوه، فهي كاملة؛ لأنها لم يسبقها عدم، كاملة

لأنها لا يلحقها فناء، كاملة لأنها مُتَضَمِّنَةٌ لجميع أوصاف الكمال، كاملة لأنها مُنَزَّهَةٌ عن كل صفات النقص، فكما لها من وجوه أربعة: من جهة أنه ليست تُسَبِّقُ بعدم، ومن جهة أنه لا يعترها الفناء، ومن جهة أنها كاملة مُتَضَمِّنَةٌ لجميع أوصاف الكمال، ومن جهة رابعة مُنَزَّهَةٌ عن كل نقص، كما قال تعالى: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، انظر ﴿الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ صفة كمال، ونفي نقص.

فإن قال قائل: الحي من الأسماء اللازمة أو المتعدية؟

فالجواب: من الأسماء اللازمة، وقد ذكر العلماء في كتب التوحيد أن أسماء الله عز وجل إن كانت متعدية فإنه لا يتم الإيذان بها إلا بأمور ثلاثة: إثباتها اسم الله، وإثبات ما دلّت عليه من الصفات، وإثبات ما يترتب على هذه الصفات.

وأما إذا كان الاسم لازماً فإنه يتضمّن شيئين: إثبات ذلك الاسم لله عز وجل، والثاني إثبات ما دلّ عليه من الصفات فقط.

مسألة: هناك قاعدة علمية أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، ورأينا أن الذي يعتد مدلولها فهذا كفر، كل شيء فإنّ إلاً وجه الله، كل شيء هالك إلا وجهه، ومعنى هالك: قابل للهلاك، وقد يجعله الله مؤبداً كالجنة والنار، لكن الذي أوجد قادر على الإعدام، والإعدام أهون من الإيجاد، وقولهم أيضاً: لا تستحدث، معناه: حكموا بأنها أزلية، أزلية أبدية، لا يقول هذا مؤمن.

الفائدة الثانية: انتفاء الألوهية عما سوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهي تأله العبد لله عز وجل محبة وتعظيماً.

الفائدة الثالثة: وجوب الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة والدعاء؛ لقوله:

﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

الفائدة الرابعة: إثبات كمال الله عزَّوجلَّ في ذاته وفي إنعامه؛ لقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالله أثنى على نفسه بذلك لكمال صفاته.

الفائدة الخامسة: عموم ربوبية الله عزَّوجلَّ لكل شيء؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الفائدة السادسة: أن المستحقَّ للحمد هو الله عزَّوجلَّ، والمختصَّ بالحمد المطلق هو الله سبحانه وتعالى.



## الآية (٦٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي  
الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦].

•••••

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٦٦] إلى آخره.

﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يُخَاطَبُ الْمُشْرِكِينَ، أَمْرٌ أَنْ يُخَاطَبَ  
الْمُشْرِكِينَ فَيَقُولُ: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي  
نُهَيْتُ﴾ الجملة هنا مؤكدة بـ(إِنَّ)، و﴿نُهَيْتُ﴾ فعل ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعله،  
وحذف الفاعل للعلم به، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]،  
حذف الفاعل للعلم به؛ لأنه لا أحد يُنازع في أن الخالق هو الله.

وهنا المسألة مسألة شرعية نهية، فلا نزاع في أن الذي له الأمر والنهي هو  
الله، كما أنه الذي له الخلق. إذن يكون النهي هو الله عَزَّوَجَلَّ، والنهي: طلب الكفِّ  
على وجه الاستِعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ(لا) الناهية، هذا تعريف النهي في  
أصول الفقه.

فقولنا: «طلب الكفِّ» خرج به الأمر، وخرج به المباح.

وقولنا: «على وجه الاستِعلاء» خرج به الدعاء، مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾؛

لأننا لا ندعو الله على وجه الاستِعلاء، بل على وجه الاستِضعاف، نَسْتَضْعِفُ أَنْفُسَنَا  
أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

وخرج بقولنا: «بصيغة المضارع المقرون بـ(لا) الناهية» خرج به نحو قولك:  
انتَه عن كذا، اجْتَنِبْ كذا، هذا نهيٌ لكنه ليس نهيًا اصطلاحيًا، بل هو أمرٌ بالاجتناب.  
فلو قال لك قائل: اجْتَنِبِ الرَّجْسَ من الأوثان. فهذا أمرٌ باجتنابه الرَّجْسِ  
من الأوثان، لكن إذا قلت: لا تَقْرَبِ الرَّجْسَ من الأوثان. صار نهيًا.

فائدة: النهي المعنوي غير النهي الاصطلاحِي، ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ  
الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] هذا ليس نهيًا اصطلاحيًا، فالنهي في الاصطلاح هو طلب  
الكفِّ على وجه الاستِعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ(لا) الناهية، هذا تعريفه عند  
العُلَمَاءِ، أمَّا النهي بمعنى العام فهو ما دلَّ على نهي، حتى الاستِفْهَامُ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ  
يَدُلُّ على النهي، حتى لو قلت لواحد فعل شيئًا غير مرغوب فيه: أَتَفْعَلُ هذا؟ مع  
أنك مُسْتَفْهِمُ الْآنَ، لكنه مُتَضَمِّنٌ لِلنَّهْيِ، نحن لا نَتَكَلَّمُ عن الاصطلاح، تعريفه  
اصطلاحًا وارد، ولسنا نتكلم عمَّا يُفِيدُ النَّهْيَ، ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ لو قلت:  
إن هذا نهيٌ. قلنا: غلط، بل نقول: هذا أمرٌ بالاجتناب.

فقوله: ﴿نُهِيتُ﴾ هذه صيغة فعلٍ ماضٍ، لكن ليست صيغة نهي، إخبار بأنه  
نُهِي، فما صيغة النهي؟! فالنهي بالصيغة المُصْطَلَحِ عليه هو طلب الكفِّ على وجه  
الاستِعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ(لا) الناهية، هذا النهي، وأمَّا ما دلَّ على  
النهي بغير هذه الصيغة فهو لا يُسَمَّى نهيًا اصطلاحًا، وإن كان نهيًا بالمعنى، ولكن  
ليس نهيًا بالاصطلاح.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ العبادة



هي التَّذَلُّلُ لِلْمَعْبُودِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا.

وقوله: ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

قال المفسر رحمه الله: [تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾] وهذا أيضًا فيه شيء من القُصُور، والصَّوَابُ أَنْ الْمُرَادُ تَدْعُونَ؛ أَي: تَعْبُدُونَ وَتَسْأَلُونَ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يَسْأَلُونَ أَصْنَامَهُمْ، وَيَتَذَلَّلُونَ لَهَا بِالسُّؤَالِ، فَهِيَ أَعْمٌ مِمَّا ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أَي: مِنْ سِوَى اللَّهِ.

وقوله: ﴿لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظَرْفُ زَمَانٍ بِمَعْنَى: حِينَ، وَ(لَمَّا) تَأْتِي فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ:

الوجه الأول: أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (حِينَ) كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

والوجه الثاني: أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (إِلَّا) كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، مَعْنَى ﴿لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

الوجه الثالث: أَنْ تَكُونَ أَدَاةَ جَزْمٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٍ﴾ [ص: ٨] أَي: بَلْ لَمْ يَدُوُّوا عَذَابِي، وَلَكِنَّهُ قَرِيبٌ.

الوجه الرابع: أَنْ تَكُونَ حَرْفَ وُجُودٍ لَوْجُودٍ؛ كَقَوْلِكَ: لَمَّا جَاءَ زَيْدٌ جَاءَ عَمْرٌو.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي﴾ أَي: حِينَ جَاءَنِي، وَالْبَيِّنَاتُ صِفَةٌ لِمُوصُوفٍ مَحْذُوفٍ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ.

قال المفسر رحمه الله: [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ] وَالْمَعْنَى أَعْمٌ مِمَّا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَلْ هِيَ دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ، وَدَلَائِلُ الْقُدْرَةِ، وَدَلَائِلُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

المهم: أنه جاءه البيّنات من الله سبحانه وتعالى وأنتم ترون في القرآن العزيز كلمة البيّنات دائماً محذوف موصوفها، وذلك للعلم به، والشيء المعلوم يجوز حذفه كما قال ابن مالك في الألفية:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ ..... (١)

وهذه قاعدة عامّة في كل شيء، ليس في المبتدأ والخبر فقط، بل في كل شيء. وقوله: ﴿مِنْ رَبِّي﴾ متعلّق بـ(جاء) أي: جاءني من الله عزّ وجلّ، ولكنه ذكره باسم ربوبية؛ لأن هذه ربوبية خاصّة يرّبي بها الله عزّ وجلّ أنبياءه ورسله.

﴿وَأَمَرْتُ﴾ مقابل: ﴿نَهَيْتُ﴾، ﴿نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأمر الله، والأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء بصيغة الأمر، أو غيرها ممّا يدلُّ على الأمر.

وقوله: ﴿أَنْ أَسْلِمَ﴾ ﴿أَنْ﴾ مصدرية، و﴿أَسْلِمَ﴾ فعل مضارع منصوب بها، ومعنى ﴿أَسْلِمَ﴾: أسّسلم لربّ العالمين، والمراد بالإسلام هنا الإسلام الشرعي؛ لأنه هو الذي بطاقتنا، وهو الذي يُمكن أن نفعله أو لا نفعله، وهو الذي لا يكون إلا من المؤمن.

أمّا الإسلام الكونيّ فليس بطاقتنا ولا يُمكننا أن نُدافعه، ويكون من المؤمن والكافر.

إِذَنْ: يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الْإِسْلَامَ يَأْتِي عَلَى وَجْهَيْنِ أَوْ لَهُ مَعْنَيَانِ:

المعنى الأوّل: الإسلام الكونيّ.

(١) الألفية (ص: ١٨).

والثاني: الإسلام الشرعي، فالإسلام الكونيُّ القَدْرِيُّ، والثاني الإسلام الشرعيُّ الدِّينيُّ.

فمن الأوَّل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] الإسلام هنا كونيُّ؛ لأنه قال: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والإسلام الشرعيُّ لا يكون بالإكراه، والإسلام الشرعيُّ لا يكون عامًّا لكل شيء، فالإسلام هنا كونيُّ قَدْرِيٌّ، وهنا قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ المراد به الإسلام الشرعيُّ الدِّينيُّ، يَعْنِي: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾؛ أي: أَسْتَسْلِمُ تَعَبْدًا وَتَذَلُّلاً لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

وقوله: ﴿لَرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نقول فيها ما قلنا في مثل الآيات السابقة، لكن لو قال قائل: لماذا لم يَقُل: أن أُسْلِمَ لله؟ قلنا: ليكون ذلك دليلاً على وجه الإسلام يَعْنِي: لماذا أَسْلَمْتُ؟ لأن الله ربُّ العالمين، وربُّ العالمين أَحَقُّ أن يُسَلَّمَ له، وأن يُتَعَبَّدَ له عَزَّجَلَّ، فهو كالدليل للحكم السابق الذي هو الإسلام.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن النبي ﷺ عبدٌ مأمورٌ منهيٌّ، يُؤخَذُ ذلك من قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: بطلان دعوى مَنْ يَقول: إن النبي ﷺ له الأمر والنهي في السموات والأرض؛ لأنه لا يُمكن أن يكون كذلك وهو مأمورٌ منهيٌّ.

الفائدة الثانية: وجوب الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ وهذا حقيقة الإخلاص.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: الإشارة إلى القاعدة المشهورة، وهي أن التَّخْلِيَةَ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، لَيْسَتْ تَحْلِيَةَ الْمَاءِ، التَّحْلِيَةَ يَعْنِي: التَّرْزِينَ، التَّخْلِيَةَ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ فَهَذِهِ تَحْلِيَةٌ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ﴾ هَذِهِ تَحْلِيَةٌ، وَوَجْهُ كَوْنِ التَّخْلِيَةِ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ أَنَّ التَّحْلِيَةَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَى مَحَلٍّ غَيْرِ نَظِيفٍ صَارَتْ نَاقِصَةً مُتَلَوِّثَةً، فَأَنْتَ طَهَّرَ الْمَحَلَّ أَوَّلًا ثُمَّ حَلَّهُ ثَانِيًا. وَهَكَذَا كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ (لَا إِلَهَ) نَفْيٌ (إِلَّا اللَّهُ) إِثْبَاتٌ، الْأَوَّلُ تَحْلِيَةٌ وَالثَّانِي تَحْلِيَةٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَطْلَانُ عِبَادَةِ مَا سِوَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي الْبَطْلَانَ وَالْفُسَادَ، فَلَمَّا نُهِينَا عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَى اللَّهِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا بَاطِلَةٌ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَعْبْرَةٌ يَحْتَاجُ إِلَى الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي هَذَا إِشْكَالٌ كَبِيرٌ، وَهُوَ كَيْفَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَعْلَمْ بِبَطْلَانِ هَذِهِ الْأَلِهَةِ إِلَّا حِينَ جَاءَهُ النَّهْيُ، مَعَ أَنَّ بَطْلَانَ هَذِهِ الْأَلِهَةِ مَرَكُوزٌ فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ؛ أَمَّا كَوْنُهُ مَرَكُوزًا فِي الْفِطْرِ فَلِقَوْلِهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ»<sup>(١)</sup>، وَالْفِطْرَةُ هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ؛ وَأَمَّا الْعُقُلُ فَلَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتَدَلَّ عَلَى بَطْلَانِ الْأَلِهَةِ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]؟

قُلْنَا: إِنْ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَمُ هَذِهِ الْأَلِهَةَ، لَكِنَّهُ أَسْنَدَ هَذَا الْعِلْمَ إِلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يَصَلِّي عَلَيْهِ، رَقْمٌ (١٣٥٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْقَدْرِ، بَابُ مَعْنَى كُلِّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، رَقْمٌ (٢٦٥٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيات البيّنات؛ لإثبات الرّسالة، فتكون الرّسالة مؤيّدَةٌ لما تَقْتَضِيهِ الْفِطْرَةُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو آياتٌ بيّناتٌ ليس فيها خَفَاءٌ؛ لقوله: ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾، والعَجَبُ أن المُشْرِكِينَ كانوا يَتَرَدَّدُونَ إلى مَنْزِلِ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خِيفَةً يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ؛ لأنه أَخَذَ بِالْبَاهِمِ وَعَقُولِهِمْ، لَكِنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يُنْكِرُونَ اسْتِكْبَارًا وَمُكَابَرَةً.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّحذِيرُ من خَفَاءٍ ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِمَعْنَى أن الذي لَا يَرَى ما جاء به الرسول مُتَضَمِّنٌ لِلآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فَلْيَعْلَمْ أن على قَلْبِهِ غِشَاوَةٌ؛ لأن القَلْبَ النَّظِيفَ النَّزِيهَ لَا بُدَّ أن يَعْرِفَ أن ما جاء به الرسول حَقٌّ بَيِّنٌ، لَكِنْ قد تَتْرَاكُمُ الذُّنُوبُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- على القُلُوبِ، فلا تَعْرِفُ الْحَقَّ، قال الله تعالى: ﴿إِذَا نُنُلِّي عَلَيْهٖ آيَاتِنَا قَالَ أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣-١٤]، فصاروا يَرَوْنَ هذا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَرُونَهُ أَسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ، نَسَّالَ اللهُ أن لَا يُعْمِي قُلُوبَنَا وَقُلُوبَكُمْ، فالْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ، إذا لم تَجِدْ قَلْبَكَ مُسْتَنِيرًا بهذا الْقُرْآنِ، أو بِعِبَارَةٍ أَعَمَّ بِهَا جاء به الرسول، فاعْلَمْ أن في القَلْبِ بَلَاءٌ، فداوِ القَلْبَ ما دام في أوَّلِ المَرَضِ، حتى لَا يَسْتَشْرِي المَرَضُ فيَقْضِي على القَلْبِ، فلا تَتَمَكَّنَ من إِصْلَاحِهِ بَعْدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عِنَايَةُ اللهُ تعالى برسوله مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وذلك في إِثْبَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّي﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجُوبُ الْإِسْلَامِ لَللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإِشَارَةُ إلى أنه لَا بُدَّ للقَلْبِ من حَرَكَةٍ، فإِذَا إلى باطلٍ وإِذَا

إلى حَقٍّ؛ لقوله: ﴿نُهِيتُ﴾، وهذا تفرُّغ، فهذا الفراغ لا بُدَّ أن يكون له ما يملؤه وهو الإسلام؛ لأن كل شيء إذا لم يكن له بديل سبقي الأمر حاوياً، فإذا خلا المكان من الباطل وجب أن يُملاً بالحق، وهكذا أيضاً إذا تأملت وجدت كل شيء باطلاً، إذا لم يخلفه حقُّ بقِي الأمر حاوياً فيتذبذب الإنسان، لما قال الله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ ماذا قال؟ ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فلا بُدَّ من قول، فإذا أُبطل الباطل فلا بُدَّ أن يخلفه حقٌّ.

الفائدة الحادية عشرة: أن ما سوى الله لا يستحقُّ أن يُسلم له؛ لقوله: ﴿لَرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فمن كان ربَّ العالمين فهو الأحقُّ بالإسلام له، ولا يُوصف ربُّ العالمين إلا الله عزَّ وجلَّ.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات عموم الربوبية لله؛ لقوله: ﴿لَرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. الفائدة الثالثة عشرة: مراعاة الوصف المناسب وإن كان فيه عدول عن الأشهر؛ لقوله: ﴿لَرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عدولاً عن (الله) مع أن الله هو الأشهر، لكن اعتبار الوصف المناسب أولى، والله أعلم.



## الآية (٦٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِن قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

•••••

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى آخره ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: ابتداء خلقكم، والخلق بمعنى: الإيجاد مع التقدير، قال الشاعر:  
فَلَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا نَقُولُ وَبَعْضُ  
النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي<sup>(١)</sup>  
فهو إيجاد بتقدير.

﴿مِن تَرَابٍ﴾ قال المفسر رحمه الله: [بخلق أبيكم آدم منه]، فالأصل أننا من تراب من هذه الأرض ﴿مِنهَا خَلَقْتَكُمْ وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، فالأرض هي الأول والآخر بالنسبة لبني آدم إلى يوم البعث.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال المفسر رحمه الله: [مني]، وهذا باعتبار نسل آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا الطور الثالث، والثاني باعتبار نسل آدم، والعلقة قال المفسر رحمه الله: [دم غليظ]، مثل الحيط ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، وطوى الله تعالى ذكر المضغة،

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص: ٣٢).

وإنشاء الخلق الآخر إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ قال المفسر رحمه الله: [بمعنى: أطفالاً]، وإنما قال: [بمعنى: أطفالاً]؛ لأنها حال من الكاف في ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ وهي جمع، وطفل مفرد، وعلى هذا فيتعين أن يكون (طفل) بمعنى: (أطفالاً)، وقيل: إن ﴿طِفْلًا﴾ بمعنى المفرد، وأن المعنى: ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً. فيكون ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ جمعاً باعتبار المجموع؛ أي: أن كل واحد منّا يخرج طفلاً، وعلى هذا فلا حاجة إلى تأويل طفل بمعنى: أطفال.

﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ قال المفسر رحمه الله: [ثم يقيقكم لتبلغوا] وإنما قدر ذلك؛ لأن اللام تحتاج إلى متعلق، وعلى هذا فمتعلقها محذوف، والتقدير: ثم يقيقكم ﴿لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ قال المفسر رحمه الله: [تتكامل قوتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين]، هذا بلوغ الأشد، أقوى ما يكون الإنسان من ثلاثين سنة إلى أربعين، ثم يبدأ بالانحدار شيئاً فشيئاً، ولكن قد يكون هناك عوامل توجب أن تبقى قوته مدة من الزمن أكثر، وقد تكون هناك عوامل توجب أن تنهدم قوته قبل تمام الأربعين، لكن في الأصل أنه إذا تمَّ الإنسان أربعين سنة بدأ بالضعف.

﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي: كامل قوتكم، ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شِيُوخًا﴾ قال المفسر رحمه الله: [بضم الشين وكسرها] يعني: ﴿شِيُوخًا﴾ و«شِيُوخًا» والقراءتان سبعتان. وهذه طريق المفسر إذا ذكر الوجهين جميعاً فمعناه أن القراءتين سبعتان.

﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شِيُوخًا﴾ يعني: كباراً. يعني: تبلغوا سنَّ الشيوخة، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ﴾. قال المفسر رحمه الله: [أي: قبل الأشدَّ والشيوخة، فعل ذلك بكم لتعيشوا ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾]. والمفسر رحمه الله يقدر ذلك لوجود حرف العطف، وهو قوله: ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، ولعلَّ ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قال المفسر: [وَقَتًا



محدودًا]، والمسمى بمعنى: المعين، وهو بمعنى: المحدود ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تكونوا من ذوي العقول، وتفهموا حكمة الله عزَّجَلَّ في تقديره وتشريعه.

فأنتم ترون الآن أن القدر يكون فيه المقدر شيئاً فشيئاً حتى يكمل، وهكذا الشرع تكون فيه الشرائع شيئاً فشيئاً حتى تكمل، وهذه من سنة الله تعالى الكونية وسنته الشرعية؛ أن الأمور لا تأتي دفعة واحدة، بل تتطور حتى تبلغ الكمال، وهذا من حكمته البالغة.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ليس المراد بذلك عقل الإدراك، بل المراد بذلك عقل التدبير والرُّشد؛ لأنَّ العقل عقْلان: عقل إدراك تتوقف عليه التكاليف الشرعية؛ ولهذا يُقال: من شروط صحَّة الصلاة العقل، والمراد به عقل الإدراك، وعقل التدبير والرُّشد، وهو حُسن التصرف؛ ولهذا نقول: إن الكفار لا يعقلون، مع أنهم بالنسبة لعقل الإدراك أقوىاء أشدَّاء أذكىاء، لكن عقل التدبير والتصرف هم خالون منه.

قوله: ﴿وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في هذه الآيات بين الله سبحانه وتعالى منشأ بني آدم، وغاية بني آدم.

### من فوائد الآية الكريمة:

**الفائدة الأولى:** بيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا وحدَه، وأنه لا خالق إلا الله، وقد قال الله عزَّجَلَّ في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] جوابنا أنه لم يخلق من غير شيء، وليس هم الخالقين، إذن فلهم خالق.

**الفائدة الثانية:** بيان أن أصل بني آدم هو التراب؛ لقوله: ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ والتراب

مَعْرُوفٌ أَنَّهُ يَخْتَلِفُ، وَمِنْ ثَمَّ اخْتَلَفَتْ طَبَائِعُ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَلَفَتْ أُلُوانُ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَلَفَتْ أَلْسِنَةُ بَنِي آدَمَ كَمَا اخْتَلَفَ أَصْلُهُمْ، فَالْتُّرَابُ مِنْهُ الرَّمْلُ وَالطِّينُ وَالسَّبَّاحُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

الفائدة الثالثة: انتقل هذا الأصل إلى أصلٍ آخر، وهو الماء النُّطْفَةُ المُنِّيُّ؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥-٧]، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني: غليظ، لا يندفع ولا يجري؛ لأنه غير سائل ليس كالماء المائع الذي يسيل، بل هو ﴿مَاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف لا يتحرك.

الفائدة الرابعة: تطوّر خلق الإنسان في بطن أمه، وهنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى إلا النُّطْفَةَ والعَلَقَةَ؛ لأن النُّطْفَةَ هي الأصل والعَلَقَةَ هي الأصل، والعَلَقَةُ هي أصل مادة الحياة، إذ إن الحياة لا تكون إلا بالدم، وهو أصل المادة، ولهذا لو تفرغ دم الإنسان لهلك.

الفائدة الخامسة: بيان قدرة الله عز وجل أنه بعد هذا الجنين، أو بعد هذه الحال في بطن أمه يخرج طفلاً متكاملًا.

الفائدة السادسة: أن الله تعالى قَسَمَ الناس بعد خروجهم أطفالاً إلى أقسام: القسم الأول: أن يبلغ الإنسان أشدّه ثم يموت.

والثاني: أن يبلغ الشيخوخة.

والثالث: أن يموت قبل ذلك؛ أي: قبل أن يبلغ وقبل الشيخوخة، وعلى أيّ أساس يكون هذا؟ نقول: هذا محض مشيئة الله سبحانه وتعالى، ليس له أساس معلوم، لكنه محض المشيئة، لكن مع كونه محض المشيئة قد يُقدّر الله تعالى أسباباً كونية

وأَسبابًا شرعية بها يطول العُمر، وتَبَقَى الصِّحَّة، وقد يُقدَّر اللهُ أسبابًا على العكس من ذلك.

فمن أسباب الشَّرعية ما ذَكَرَهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»<sup>(١)</sup> فهذا دليل على أن صلة الرَّحِمِ من أسباب سَعَةِ الرِّزْقِ، وطول العُمر، فيُيسِّرُ اللهُ تعالى لهذا العبدِ أن يَصِلَ رَحِمَهُ فيَطول عُمره، وهذا شيء مَكْتُوب، ولكننا لا عِلْمَ لنا به، فحَثَّنَا النبيُّ ﷺ عليه بهذه الطَّرِيقَةِ.

وأَمَّا الأسباب الكونية فهو تَوْقِي الأسباب الضارَّة في الصِّحَّة، وهذا شيء لا نِهْيَاةَ له، وهو أمرٌ معلوم وأكثرُ مَنْ يَعْرِفُهُ الأَطِبَّاءُ، فيُيسِّرُ اللهُ تعالى للإنسان من أسباب الصِّحَّة من دواءٍ وغذاءٍ وهواءٍ ما يكون به طول العُمر.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الأَجَلَ مَهْمَا طَالَ بالإنسان فإنه مَحْدُودٌ، له غاية مع أن الإنسان في نَفْسِهِ يَمُدُّ أَمَلًا بَعِيدًا جَدًّا، يَظُنُّ أنه سَيَبْقَى عَشْرَاتِ المِائَاتِ، ولكنه في الواقع مَهْمَا بَلَغَ فإن الأَجَلَ مَحْدُودٌ، والشْيء المَحْدُود المَعْدُود غَايَتُهُ النِّهْيَاةُ؛ لأن كل يوم يَمْضِي يَنْقُصُ العُمرَ، قال الشاعِرُ:

والمَرْءُ يَفْرَحُ بِالأَيَّامِ يَقْطَعُهَا  
وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الأَجَلِ<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم (٥٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره الأَصْمَعِيُّ في قصة له مع أعْرَابِي، انظر: نثر الدر في المحاضرات (٦/٣٧)، وزهر الآداب (٢/٤٥٦). وقريب منه بيت أبي العتاهية:

تظل تفرح بالأيام تقطعها  
وكل يوم مضى يدني من الأجل

انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٢/٣٩٦).

وهذا صحيح، فالمرء يفرح بالأيام يقطعها، يقول: ما شاء الله عمري طويل، ومُتَّعت كثيرًا. لكن كل يوم يمضي وكل يوم مضى يَدِينِي من الأجل، إِذْنُ يطول من وَجْهٍ وَيَقْصُرُ من وَجْهِ آخَرَ، ثُمَّ عند انْتِهَاءِ الأَجْلِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقس ما يُسْتَقْبَلُ بما مَضَى الآن، مِمَّا مَنَ عُمُرُ سِتِّينَ سَنَةً، أو خَمْسِينَ، أو عِشْرِينَ سَنَةً، أو ما أَشَبَّهُ ذلك، هذه الأَيَّامُ التي مَضَتْ كأنها ساعة. يَعْنِي: أنت اليوم كَأَنْتِ بِالْأَمْسِ، وَأَنْتِ بِالْأَمْسِ كَأَنْتِ قَبْلَ أَمْسٍ، كأنها ساعة، كأنها أَحْلَامٌ؛ ولذلك ﴿وَلْيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

الفائدة الثامنة: بَيَانُ نِعْمَةِ الله عَلَيْنَا بِالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ؛ لأن ذلك سَبَبٌ لِبُلُوغِ الغَايَةِ فِي الْعَقْلِ، وذلك لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الفائدة التاسعة: إِبْتِاطُ تَعْلِيلِ أَحْكَامِ الله؛ أي: أن أَحْكَامَ الله تَعَالَى مُعَلَّلَةٌ بِحِكْمَةٍ، وهل هذا مُقْتَصِرٌ عَلَى الأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، أو عَلَى الأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ؟ الجواب: الثاني، فَكُلُّ أَحْكَامِ الله الكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ كُلُّهَا مُعَلَّلَةٌ، كُلُّهَا لِحِكْمَةٍ، لَكِنَّ هَذِهِ الْحِكْمَةَ قَدْ تَكُونُ مَعْلُومَةً لَنَا، وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي هَذَا اخْتِلَافًا عَظِيمًا مُتْبَايِنًا، مِنْهُمْ مَنْ يُطَّلِعُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى أَسْرَارِ خَلْقِهِ وَأَسْرَارِ شَرْعِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُطَّلِعُ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَيْنَ ذَلِكَ.

وكذلك أَحْكَامِ الله الشَّرْعِيَّةِ كُلُّهَا لِحِكْمَةٍ، كُلُّهَا مُعَلَّلَةٌ، وما يَذْكُرُهُ الفُقَهَاءُ مِنْ أن هَذَا الحُكْمَ تَعْبُدِيٌّ لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ عِلَّتَهُ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ لَنَا، فَنَحْنُ لَيْسَ لَنَا إِلَّا مُجَرَّدُ التَّعْبُدِ؛ وَهَذَا لَمَّا سَأَلَتِ المَرَأَةُ أُمَّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا بَأَلِ الحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ قَالَتْ:

كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ<sup>(١)</sup>. هذه الْحِكْمَةُ، إِذْ نِ الْحِكْمَةُ شَرَعَ اللهُ، شَرَعَ اللهُ كُلُّهُ حِكْمَةً، لَكِنْ لَوْ أَرَادَ إِنْسَانٌ أَنْ يَلْتَمِسَ لِذَلِكَ حِكْمَةً مَعْقُولَةً فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ.

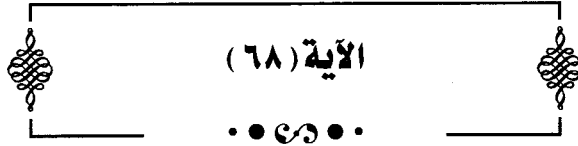
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الثَّنَاءُ عَلَى أَهْلِ الْعَقْلِ؛ أَي: عَلَى الْعُقَلَاءِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ غَايَةً فَقَالَ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذَكَرْنَا الْآنَ أَنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ الْكُونِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ لَهَا حِكْمَةٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَاذَا تُجِيبُونَ عَنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]؟

الْجَوَابُ: إِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ: لَا حِكْمَةً لِمَا يَفْعَلُ. بَلْ قَالَ: ﴿لَا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ فَهُوَ حِكْمَةٌ لَا يُسْأَلُ عَنْهُ، نَعْلَمُ أَنَّهُ مَا فَعَلَهُ إِلَّا لِحِكْمَةٍ فَلَا يُسْأَلُ عَنْهُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨].

•••••

ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ هذا كالأولِ جُملة استثنائية تُبَيِّنُ كَمالِ قُدرةِ اللهِ عَزَّجَلَّ ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾؛ أي: يَجْعَلُ الحَيَاةَ في المِيتِ، والموتَ في الحَيِّ، هو الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ وحده، لا أَحَدٌ يُحْيِي وَيُمِيتُ؛ ولهذا قال إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلَّذِي حَاجَّهُ في رَبِّهِ: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فلا يُمكنُ أن يُحْيِي أَحَدٌ مِيتًا، ولا أن يُمِيتَ حَيًّا، فإن قيل: أليس عيسى ابنُ مريمَ يُحْيِي الموتى؟ قلنا: بلى، ولكن بِإِذْنِ اللهِ بِنَفْسِ الآيَةِ يُحْيِي الموتى بِإِذْنِ اللهِ، فإن قيل: أليس الرَّجُلُ يَقْتُلُ الآخرَ وهو حَيٌّ فيَموتُ؟ قلنا: بلى، لكن ما فَعَلَهُ فهو سَبَبُ الموتِ، وليس هو الإِمامة، وكثيرًا ما تُقَطَّعُ أوداجُ الإنسانِ وَيُسْقَى بَطْنُهُ ثُمَّ يَبْقَى حَيًّا وَيَحْيَا.

فالحاصلُ: أن الإِحياءَ والإِمامةَ بيَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا قَضَىٰ أَمْرًا أَرَادَ إِيجادَ شيءٍ فيَقولُ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ، أَمْرًا هُنا بِمَعْنَى: شَأْنٌ؛ أي: فهو واحِدُ الأُمورِ، وليس

واحد الأوامر أي: إذا قضى شأننا من الشؤون فقدّره فإنه لا يُعجزه أن يُوجده.  
 ونُجيبه بالكلمة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ  
 مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ ولهذا فِعِيسَى يُوصَفُ بِأَنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ؛ أي: كان  
 بكلمته.

فالحاصل: أنه إذا أراد شيئاً، إذا قضى أمراً وقدره قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، وهل  
 المراد الموجودات أو المعدومات أو الكل؟

الجواب: الكل حتى لو أراد إعدام شيءٍ قال له: ﴿كُنْ﴾ فينعدم، فقول المفسّر  
 رَحْمَةُ اللَّهِ: [إيجاد شيءٍ] لو زادها: «أو إعدامه» لكان خيراً؛ لأنه إذا قضى أمراً من  
 إيجاد أو إعدام قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أما غير الله عزّ وجلّ فلو أرادت أن تهدم بيتاً تبقى أياماً وأنت تهدمه، لكن الله  
 إذا أراد أن يهدم هذا البيت أو القرية كلها بكاملها ماذا يقول: كُنْ. فيكون تنهدم،  
 تكون هباءً.

فإذن نقول: إذا قضى أمراً بإيجاد شيءٍ أو إعدامه، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾،  
 قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] كلُّ شيءٍ بقدر، الصغير والكبير،  
 المتعلّق بأفعاله وأفعال عبادته، كلُّ شيءٍ خلقه فهو بقدر ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾  
 ويتأخّر المأمور؟

الجواب: ﴿كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ﴾ لمح البصر ليس شيءٌ أسرع منه واحدة بدون  
 تكرار.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ الفاء للتعقيب، وقال تعالى في بعث الناس: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ

وَحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿﴾ [النازعات: ١٣-١٤] سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللَّهِ! كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ بِهَا تَكُونُ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا، كَمَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ تَكُونُ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ، وَلِيُتَّبَعَ لِلنُّقْطَةِ الْأَخِيرَةِ: «تَكُونُ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ» وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمَأْمُورُ لَا يَعْلَمُ بِهِ لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ؛ فَلَمَّا قَالَ الْقَلَمُ: رَبِّي مَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَاذَا فَعَلَ؟ كَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ، لَكِنْ أَمْرٌ فَلَا بُدَّ أَنْ يَمْتَثِلَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿﴾ [فُصِّلَتْ: ١١]، لَا إِكْرَاهَ، بَلْ طَوْعًا.

إِذَنْ نَقُولُ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أَي: بِإِجَادِ شَيْءٍ، أَوْ إِعْدَامِ شَيْءٍ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الْفَاءُ فِي قَوْلٍ: ﴿فَإِنَّمَا﴾ رَابِطَةٌ لِلْجَوَابِ -جَوَابٌ إِذَا- وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى التَّعْقِيبِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بَدُونَ تَأْخِيرٍ؛ لِأَنَّ الْفَاءَ هُنَا لِلتَّعْقِيبِ، قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [بِضْمِّ النُّونِ وَفَتْحِهَا بِتَقْدِيرِ (أَنْ)].

إِذَنْ فِيهَا قِرَاءَتَانِ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ «كُنْ فَيَكُونُ» فَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى تَكُونُ الْفَاءُ لِلِاسْتِثْنَاءِ، وَعَلَى الثَّانِي تَكُونُ الْفَاءُ فَاءَ السَّبَبِيَّةِ الَّتِي يَنْتَسِبُ بَعْدَهَا الْفِعْلُ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي عِلْمِ النَّحْوِ، قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [بِتَقْدِيرِ (أَنْ) أَي: يُوجَدُ عَقِبَ الْإِرَادَةِ الَّتِي هِيَ مَعْنَى الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ]، اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ هَذَا الْمَفْسَّرِ، يَقُولُ: عَقِبَ الْإِرَادَةِ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ، يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ بِذَلِكَ الْقَوْلِ يَعْنِي: أَنْ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ؛ لِأَنَّهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ. يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَإِنْ مَذْهَبُهُ مَذْهَبُ الْأَشَاعِرَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنْ الْكَلَامُ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ، وَليْسَ شَيْئًا يُسْمَعُ، وَليْسَ تَوْجِيهًا يُصَدَّرُ إِلَى الْمَوْجَّهِ إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّ الْآيَةَ صَرِيحَةٌ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ قَوْلٌ صَرِيحٌ مَصْدَرٌ، نَعَمْ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ نَقُولُ: مَعْنَى



﴿يَقُولُ لَهُ﴾ على كلامه. أي: يريد أن يكون فكان، ولا شك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه، نسأل الله تعالى أن يعفو عمن حرّفه بحسن نيّة، والمفسّر لا نعتقد فيه -إن شاء الله- إلا الخير، لكنه أخطأ في هذا، والصواب أنه يقول قولاً مسموعاً يسمعه الموجه إليه، فيمثّل أمر الله عزّ وجلّ.

فإن قال قائل: البعض يقول: سبحان من أمره بين الكاف والنون، فهل هذا صحيح؟.

فالجواب: ليس بصحيح، فأمره بعد الكاف والنون ﴿كُنْ﴾ فهو يكون بعد الكاف والنون. يعني: أمره هنا بمعنى: مأمور، فإن كان الأمر هو الفعل فهو قبل الكاف والنون، وإن كان الأمر هو مأموره فهو بعد الكاف والنون.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُحيي ويميت، وهذا من تمام رُبوبيته.

الفائدة الثانية: أن الإحياء والإماتة ليست صعبة عليه؛ لقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

الفائدة الثالثة: الردّ على مُنكري البعث الذين قالوا: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وجهه أنه إذا قضى البعث يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴿[يس: ٧٧-٨٠]،

إلى أن قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ولنأت على بيان الأدلة الدالة على قدرة الله عزَّجَلَّ على إحياء الموتى في هذه الآيات، لقد ذكر الله تعالى ثمانية أوجه على قدرته على إحياء الموتى:

الدليل الأول: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وجه الدلالة على قدرته على إحياء الموتى من هذه الجملة؛ لأن الذي قدر على إنشائها أول مرة قادر على إعادتها؛ لأن الإعادة أهون ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

الدليل الثاني: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وجه الدلالة: الذي يخلق المخلوقات عالمٌ بما خلق. يعني: هو لا يخفى عليه الخلق، فإذا كان لا يخفى عليه الخلق فما الذي يعجزه وهو على كل شيء قديرٌ.

الدليل الثالث: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ وجه دلالة هذه الجملة على قدرة الله على إحياء الموتى أنه يوجد شجر معروف في الحجاز إذا ضربته بالقدح هكذا اشتعل نارًا فخرجت النار من ضدها، فالذي أخرج الضد من ضده قادر على أن يحيي الموتى، فالشجر الأخضر فيه الرطوبة والبرودة، والنار فيها اليبوسة والحرارة، فيخرج هذه المادة الحارة اليابسة من مادة رطبة باردة، وهذا من تمام القدرة، وقوله: ﴿فَإِذَا أُنْتَمِرْتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ هذا للتأكيد، لتأكيد أنه خرج هذا وأوقدتموه.

الدليل الرابع: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ الذي خلق السموات والأرض يقدر على إحياء الموتى، وجه الدلالة كما أنه خلق السموات والأرض على عظمتها فخلق الإنسان من باب أولى أو إعادته؛

لأن خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أكبرُ من خَلَقَ الناسَ، فالقادر على الأكبرَ قادرٌ على ما دونَه.

الدليل الخامس: ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ فإذا كان الخَلَّاقُ العَلِيمُ فهو قادرٌ على أن يَخْلُقَ كُلَّ شيءٍ، ومنه إعادة الموتى.

الدليل السادس: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ وجهُ الدَّلالة أن (شيئًا) نَكِرَةٌ في سياق الشرط فتَعَمُّ كل شيء حتى إحياء الموتى، أن يقول له: كُنْ. فيكون لا يحتاج إلى أعوان، ولا إلى ترُدُد.

الدليل السابع: ﴿فَسَبَّحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه الجُملة، وجهُ الدَّلالة منها:

الوجهُ الأوَّل: إذا كان مالِكًا لكل شيء -من عُموم ﴿كُلِّ﴾-، فإنه إذا كان مالِكًا لكل شيء فالبعث يدخل ضمن العُموم.

الوجهُ الثاني: (سُبْحان) تنزيهُ الله عن النَّقائص.

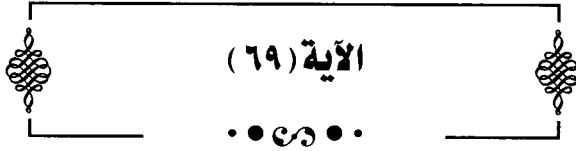
الوجهُ الثالثُ: كون الله تعالى مالِك كل شيء هو خالِقُه، خالق كل شيء، وخالق الشيء مالِك له.

الدليل الثامن: قوله: ﴿وَالَّذِينَ تُرْجَعُونَ﴾ وجهُ الدَّلالة فيه: لولا هذا الرجوعُ لكان الخَلْقُ عبثًا، فكوننا لا بُدَّ أن نرجع إلى الله، إذَنْ فلا بُدَّ من الإحياء، وإلَّا لكانت الحياة كُلُّها عبثًا، فانظرُ إلى تقرير الله عَزَّجَلَّ الإحياءَ بعد الموت؛ لأنه يَنْبني عليه العمل، لو أن أحَدًا لا يُؤمن بيوم الحِساب لم يَعْمَل، ما دام ليس في إلَّا الحياة الدنيا نَموت ونَحيا فلايُّ شيءٍ يَعْمَل، إذَنْ إنسان يَعْمَل في الدنيا يَنْهَب، وَيَسْرِق، وَيَزِين،

وَيَشْرَبِ الْحَمْرَ، وَيَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ وِرَاءَ هَذِهِ الدُّنْيَا شَيْءٌ.

فلا يُمكن أن نَسْتَقِيمَ إِلَّا بِالْإِيْمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَلِهَذَا تَجِدُونَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقْرُنُ الْإِيْمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ بِالْإِيْمَانِ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، رَبِّهَا لَوْ أَحْصَيْنَاهَا لَوَجَدْنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ الْإِيْمَانِ بِهِ وَبِالرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الْإِيْمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَيْهِ أَسَاسُ الْعَمَلِ، وَنَحْنُ لَوْلَا أَنَا نَعْتَقِدُ وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ أَعْمَالَنَا أَمَامَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَا حَرَّضْنَا عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّهُ يَذْهَبُ هَبَاءً؛ فَلِهَذَا الْإِيْمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ أَعْظَمِ الْبِوَاعِثِ عَلَى الْاسْتِقْرَارِ، أَمَّا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَلَا بِالْبَعْثِ، فَهَذَا سَيَكُونُ عَمَلُهُ كُلُّهُ هَبَاءً.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرِفُونَ ﴾﴾

[غافر: ٦٩].

• • • • •

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هذا الاستفهام للتفكير؛ لأن همة الاستفهام إذا دخلت على النَّفْيِ صارت مُقَرَّرَةً له، فَمَعْنَى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: رأيت، والخِطَابُ إمَّا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أو لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الخِطَابُ، وهذا الخِطَابُ يَرِدُ كثيرًا في القرآن.

وقد بيَّنا أن الخِطَابَ المُوَجَّهَ إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو الذي ظاهره أنه مُوجَّه إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْقَسِمُ إلى ثلاثة أقسام:

القِسْمُ الأوَّلُ: ما هو مُخْتَصٌّ به قطعًا.

القِسْمُ الثاني: ما هو عامٌّ له وللأُمَّة قطعًا.

والقِسْمُ الثالث: ما لا يَتَبَيَّنُ فيه هذا ولا هذا.

أَمَّا الأوَّلُ: وهو الخاصُّ بالرَّسُولِ قطعًا، فهو خاصٌّ به، ولا إشكال في ذلك مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الشرح: ١-٢]، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٦-٧]، وما أشبهها، الخِطَابُ هنا للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خاصَّةً ولا يشمل الأُمَّة.

وأما الذي له ولغيره قطعاً، فمثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ لم يقل: إذا طَلَّقْتِ النِّسَاءَ. فدلَّ هذا على أن الخطاب الخاص به له وللأمة؛ لأنه خاطبه أولاً بالنداء، ثم وجه الخطاب إلى الأمة عموماً فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فدلَّ هذا على أن الخطاب الخاص به بالنداء ليس خاصاً به، بل هو له وللأمة.

وأما ما ليس كذلك -يعني: ما ليس هذا ولا هذا- فقد اختلف فيه العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ هل هو خطاب خاص بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا يشمل الأمة إلا حكماً على سبيل التأسّي به، أو أنه عامٌّ للرسول ﷺ ولغيره، ويكون الخطاب فيه لمن يصحُّ خطابه، والخلاف في مثل هذا يكاد يكون لفظياً؛ لأن الجميع متفقون على أن هذا الحكم ثابت للرسول ولغيره، لكن إذا قلنا: إنه خاصٌّ. به صار بالنسبة لغيره عاماً على وجه التأسّي والقُدوة، لكن الحكم لا يختلف في الواقع؛ لأنه إن لم يشمل الأمة لفظاً فقد شملها حكماً؛ للأمر بالتأسّي به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فهذا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بما يدخله الاحتمال أنه خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو عامٌّ لكل من يتوجّه إليه الخطاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [القرآن] وهذا التفسير يُعتبر قاصراً؛ لأن آيات الله أعظم من كونها كونية أو شرعية، وأعظم من كونها في القرآن، أو التوراة، أو الإنجيل، أو غيرها من الكتب المنزلة على الرُّسل، فالصواب أن نقول: في آيات الله الكونية والشرعية، وأولى ما يدخل فيها القرآن.

والمجادلة هي المنازعة مع الخصم من أجل صرفه عما كان عليه من المجادلة، مأخوذة من الجدال، وهو قتل الحبل حتى يحتكم ويكون قوياً، هؤلاء الذين يجادلون

في آيات الله يُجادِلون الرُّسُلَ وأتباعهم، فالمُجادلة بين الرُّسُلِ وأتباعهم كانت مُنذُ أن أُرسل الرُّسُلُ إلى يَوْمنا هذا، ولا تَسْتَعْرِبُ أن يُوجَدَ مَنْ يُجادِلُ في آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الزَّمَنِ؛ لأن هذا سُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ مُنذُ أُرسلَ الرُّسُلُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وإذا كان له عَدُوٌّ من المُجرِمين فلا بُدَّ أن يُجادِلَ، وبالتالي أن يُجادِلَ بالسُّيوفِ، المُجادلة في آياتِ الله الكونية أن يُنكَرَ أن يَقولَ: الله هو الخالق. وقد وُجِدَ هذا فِعْلاً، وُجِدَ مَنْ يَنْسُبُ ما يَحْدُثُ لِلْكَوْنِ إلى الأمور الطَّبيعية دون أن يَكُونَ لها مُدَبِّرٌ وقال: هذه طَبِيعَةٌ تَتَفَاعَلُ وَيَنْتُجُ منها ما يُشَاهَدُ.

ويُوجَدُ مَنْ يُجادِلُ في آياتِ الله الكونية بالأمور التي دون ذلك مثل أن يُثبِتَ شيئاً من الأسباب لم يَجْعَله الله سبباً؛ كما يَحْدُثُ لأهل الجاهلية من التَّشاؤُمِ بالطيور والأماكن والأزمان، وما أشبه ذلك، فهُمُ يَتَشَاءَمُونَ في الأزمان بِشَهْرٍ صَفَرٍ، يَقولون: إن هذا الشَّهْرَ شَهْرٌ شَرٌّ. يَتَشَاءَمُونَ أيضاً بالطَّيرِ: بنوع الطير، أو بكَيْفِيَةِ طَيْرانه، أو بِاتِّجاهه، أو ما أشبه ذلك، يَتَشَاءَمُونَ أيضاً بالأشخاص، يَرى الإنسان الرَّجُلَ أوَّلَ ما يَرى فَيَتَشَاءَمُ به؛ حتى كان هذا مَوْجوداً إلى قريب عَصْرنا فيما يَظْهَرُ؛ بعض الناس في جِهَة ما من المَمْلَكَة إذا أتى لِيَفْتَحَ دُكَّانَه ثُمَّ قابله شَخْصٌ قَبِيحُ المَنْظَرِ مثلاً قال: اليَوْمَ شُومٌ ليس هناك يَبِيعُ ولا شِراءَ، هذا تَشَاؤُمٌ بالأشخاص. هذا أيضاً من المُجادلة في آياتِ الله الكونية.

أمَّا المُجادلة في آياتِ الشَّرعية فحدِّثُ ولا حَرَجَ، يُكذِّبون بآياتِ الله الشرعية، يُنكَرونها، يُجادِلون في بعض الأمور فيها يَقولون: فيها تَناقُضٌ، وفيها كِذابٌ، وفيها كِذابٌ. وأنواع الجَدَلِ كثيرةٌ.

يقول: ﴿أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿أَنِّي﴾ كَيْفَ ﴿يُصْرَفُونَ﴾] عن الإيمان [يَعْنِي]: كَانَ هَذَا اسْتِفْهَامَ تَعَجُّبٍ وَإِنْكَارٍ، كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْإِيمَانِ مَعَ أَنَّهُ وَاضِحٌ بَيْنَ، فَهُمُ يُصْرَفُونَ عَنْهُ، وَيُجَادِلُونَ فِيهِ.





## الآيات (٧٠-٧٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِإًآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَآلُ فِي آعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠-٧٢].

•••••

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِإًآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ ﴾ أو عطف بيان، والفرق بينهما أن عطف البيان يُشبه الصفة في بيان المبدل منه، وأمَّا البدل فقد يكون بدلًا مجردًا عن الصفة، فمثلًا إذا قلت: جاء زيد أخوك. أخوك هنا بدل لم يستفد منها شيئًا كثيرًا، لكن إذا جاء عطف البيان مثل هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ فقد استفدنا منها معنى هو إلى الصفة أقرب منه إلى البدلية؛ فلهذا يُسمونه عطف بيان ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ ﴾؛ أي: قالوا إنه كذب. والكتاب هنا محلُّ بـ(أل)، فهل هي للعهد، أو للاستقرار، أو للجنس؟ أقرب شيء أنها للجنس، والمفسر رحمه الله جعلها للعهد فقال: [القرآن] ولا شك أنه لا يجوز العدول عن الجنس أو بيان الحقيقة، لا يجوز العدول عن ذلك إلا بدليل.

فما هو الأصل في (أل) أن تكون لبيان الحقيقة أو لبيان الجنس أو للعهد؟

الجواب: لبيان الجنس؛ لأن بيان الجنس يعني: الاستغراق، وهذا هو الأصل،

فإذا جعلتها للعهد فقد عدلت بمعناها العام إلى معنى خاص، وكذلك إذا جعلتها للحقيقة، ونحن نضرب ثلاثة أمثلة؛ ليتبين الأمر، إذا قلت: الرجل خير من المرأة. فهي ليست للعموم؛ لأن من النساء من هو خير من الرجال؛ إذن: هذا لبيان الحقيقة.

فإذا أورد عليك مُورد ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ لأي شيء هذا؟ للجنس -يعني: للعموم، يعني: خلق كل إنسان ضعيفًا-.

وإذا أورد عليك قول الله تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴿[المزم: ١٥-١٦] فهي للعهد الذكريّ.

قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا أيضًا للعهد؛ أي: العهد الذهنيّ.

هنا قال المفسر رحمه الله: حمل قوله: «الكتاب» على العهد الذهنيّ، وقال: إنه [القرآن]، والصواب أنه عامٌّ، وأن المراد به جنس الكتاب، وذلك لأن التوراة كذبت بها أناسٌ، والإنجيل كذب به أناس، وكذلك الزبور وبقيّة الكتب، وأخرها القرآن.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ قال المفسر رحمه الله: [من التوحيد والبعث وهم كفار مكة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾].

قوله عز وجل: ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ عطفها على قوله: ﴿بِالْكِتَابِ﴾ بإعادة العاقل؛ لأن العطف يكون بإعادة العاقل وبغير إعادة العاقل، فتقول: مررت بزيد وعمرو. هذا عطف بدون إعادة العاقل، مررت بزيد وعمرو وهذا عطف

بإعادة العاِمِل، ويُفِيد إعادة العاِمِل استِثْلال المعطوف عن المعطوف عليه؛ لأنه ليس تابِعاً له من كل وَجِه بدليل إعادة العاِمِل، فقوله: ﴿وَيْمًا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ يَدُلُّ على أن ما أُرْسِلت به الرُّسُل كأنه مُسْتَقِلٌّ عن الكِتَاب؛ ولهذا كَانَتِ السُّنَّة بِمَثَابَةِ الكِتَاب في الدَّلالة بِوُجُوب العَمَل بها.

وقوله: ﴿وَيْمًا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [من التَّوْحِيد والبَعث وَهُم كُفَّار مَكَّة] التَّوْحِيد يَعْنِي: تَوْحِيد الله عَزَّجَلَّ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ والعبادة والرَّبوبية، وَأَمَّا البَعثُ فَهُوَ إِخْرَاج النّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ.

وقوله: [وَهُم كُفَّارٌ مَكَّة] هذا لا وَجِهَ له؛ لأن هذا الوَصْفَ التَّكْذِيبَ بالكِتَابِ، وبِما أُرْسِلَ بِهِ الرُّسُلُ لا يَخْتَصُّ بِأَهْلِ مَكَّةَ هُمْ وَغَيْرِهِمْ، فَالأَوَّلَى أَنْ يُجْعَلَ هذا عَامًّا فِي كُلِّ مَنْ كَذَّبَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، بَلْ قُلْ: عَامًّا لِكُلِّ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ انْتِهَى.

لكن إذا قال قائلٌ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أَلَا تَدُلُّ بِذَلِكَ على أن المراد بِذَلِكَ الكُفَّارَ الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ؟

الجوابُ: لا؛ لأن قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تَهْدِيدٌ بِمَا سَيَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا سَيَكُونُ فِي الآخِرَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وَالْأَغْلَالُ لا تَكُونُ فِي الْأَعْنَاقِ إِلَّا يَوْمَ القِيَامَةِ.

قال المفسر: [﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عِقُوبَةٌ تَكْذِيبِهِمْ ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ﴿إِذِ﴾ بِمَعْنَى: إِذَا، ﴿وَالسَّلْسِلُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿الْأَغْلَالُ﴾ فَتَكُونُ فِي الْأَعْنَاقِ، أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ؛ أَي: فِي أَرْجُلِهِمْ، أَوْ خَبَرُهُ ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أَي: يُجْرُونَ بِهَا].

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هُوَ تَهْدِيدٌ بِلا شَكٍّ؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، فقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي

أَعْنَقِهِمْ ﴿ فيقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: إن [ إِذٍ بِمَعْنَى: إِذَا ]، ومن المعلوم أن (إِذٍ) تأتي للحاضر وتأتي للماضي، و(إِذَا) تكون للمستقبل، فما الذي جعل المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ يَصْرِفَ مَعْنَاهَا إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ؟

الذي جعله يَصْرِفُ ذَلِكَ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ أَنْ الْأَعْلَالُ لَا تَكُونُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ.

ولكننا نقول: لا حاجة إلى ذلك، بل هي (إِذٍ) على بابها، ولكنها حكاية حال، وحكاية الحال هي التي تجعل المستقبل كأنه حاضر، وهذا أبلغ في التهديد. يعني: كأن الأعلال الآن حاضرة؛ لأنها أمر مؤكد، ولا بُدَّ أن تكون الأعلال في الأيدي، كما قال الله تعالى: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]، والسلاسل تكون في الأرجل، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مُقرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٠]، لكن هنا يقول: ﴿إِذِ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ تقتضي أن يكون ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ في الأعناق في محلِّ الأعلال، ولكن في احتمال آخر بينه رَحْمَةُ اللَّهِ بقوله: [عطف على ﴿الْأَعْلَالُ﴾ تكون في الأعناق] أي: مُبتدأ خبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، وإذا كانت مُبتدأ نقول: الواو للاستئناف، و(السلاسل): مُبتدأ وخبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، أو خبره ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ويكون العائد محذوفاً، والتقدير: يُسْحَبُونَ بها ﴿وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ بها، فهنا صار في إعراب (السلاسل) ثلاثة أوجه:

الوجه الأوَّل: أنها معطوفة على ﴿الْأَعْلَالُ﴾ فتكون والسلاسل في الأعناق يعني: معناه: تُعَلُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ بِسَلَّاسِلٍ.

والثاني: أن تكون السلاسل بالأرجل، والخبر محذوف؛ أي: في أرجلهم.

والثالث: أن تكون السلاسل في الأرجل، والخبر قوله: ﴿يُسْحَبُونَ﴾، والمعنى: أنهم يُسحبون بهذه السلاسل، وهذا المعنى هو أقربها لظاهر القرآن كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]، فهم إذا سُحبوا على وُجوههم فتكون السلاسل في الأرجل، فهذا أقرب الاحتمالات التي ذكرها المفسر رحمه الله.

وقال المفسر رحمه الله: ﴿فِي الْعَمِيمِ﴾؛ أي: جهنم] ووصفت بذلك لأنها شديدة الحرارة، ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [يوقدون]؛ لأن النار وقودها الناس والحجارة.

### من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: العجب من حال هؤلاء المكذبين بالكتاب وبما جاءت به الرُّسل؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا فَيُكْفِرُونَ بِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، واللعن على هؤلاء المكذبين، ﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أءِذَا كُنَّا تُرَابًا أءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وإن قال قائل: في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فسرتهم الاستفهام أنه استفهام تقييري، ثم قلت: من فوائده التعجب، فهل هذا التعجب ليس استفهاماً؟

فالجواب: من قوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾، فقوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ استفهام.

الفائدة الثانية: أن الإنسان يُصرف عن الحق مع بيانه ووضوحه، وهذا يؤدي إلى فائدة أخرى، وهي خوف الإنسان من أن يُصرف عن الحق، وينتج عن ذلك فائدة ثالثة، وهي سؤال الإنسان ربه دائماً أن يُثبتَه؛ ولهذا كان من دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، فينبغي للإنسان أن يكون دائماً على خوف وأن يسأل الله الثبات دائماً.

الفائدة الثالثة: تهديد هؤلاء المكذبين بهذه العقوبة، أن تُغلَّ أيديهم يوم القيامة،

وأن تُسلسل أَرْجُلَهُمْ، وأن يُسحبوا في النار على وُجُوهِهِمْ، وكل هذا يُوجِبُ لِلإنسان أن يُصدِّقَ بِالكِتَابِ وبما جاءت به الرُّسُلُ عليهم الصلاة والسلام.

الفائدة الرَّابِعَةُ: أن الإنسان لا يَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ حتى يُشاهد ما أَخْبَرَتْ به الرُّسُلُ؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ ﴿٧١﴾﴾ وفي ذلك الوقت يُقَرُّونَ بِالْحَقِّ ويقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿الأعراف: ٥٣﴾﴾، لكن هذا لا يُمكنهم ولا يُمهِّلُ لهم في ذلك، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴿الأنعام: ٢٨﴾﴾.

الفائدة الخَامِسَةُ: إثبات النار، وأنها في أشد ما يكون من الحرارة؛ لقوله: ﴿فِي الْحَمِيمِ نُرٍّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿هذا العذابُ لا يُخْفَى علينا جميعاً أنه عذاب بدنيٌّ جسديٌّ.﴾



## الآيتان (٧٣، ٧٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ [غافر: ٧٣-٧٤].

•••••

هناك عذاب قلبي بيَّنه في قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ تَبَكُّيًّا ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ معه وهي الأصنام ]، والاستفهام هنا لا شك أنه للتوبيخ والتنديد والتعجيز، كلها يتضمَّنُها هذا الاستفهام وهذا ألم قلبي؛ لأن الإنسان يندم أشدَّ الندم إذا كانت هذه الأصنام التي كان يعبدها لتقربه إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما يدَّعي، ثم تضلُّ عنها الآن ولا توجد، كما لو أمسكت عبدًا الآن وعدَّته وقلت: أين سيِّدك الذي تدَّعي أنه يحميك؟ هذا يكون أشدَّ ندماً له.

إِذَنْ: هُوَ لَاءِ يَنْدَمُونَ هَذَا التَّنْذِيمَ فَيُقَالُ: ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ أَي: مع الله وهي الأصنام، وحينئذٍ يتحسرون حسرةً ليس فوقها حسرة؛ ولهذا يقولون إقرارًا، إقرار المكره في الواقع: ﴿ قَالُوا ضَلُّوا ﴾ غابوا ﴿ عَنَّا ﴾ فلا نراهم، إِذَنْ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَنْ تَنْفَعَهُمْ وَأَنَّهَا غَابَتْ عَنْهُمْ فِي أَشَدِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا فِيهِ، بَلْ قَالُوا: ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ! يَعْنِي: أَنْكُرُوا أَنْ يَكُونُوا أَشْرَكَوا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ<sup>٤</sup> وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ [الأنعام: ٢٣-٢٤].

فالحاصل: أنهم يندمون هذا الندم العظيم ثم ينكرون يقول عزَّجَلَّ: ﴿بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ ﴿نَدْعُوا﴾ بمعنى نعبُد؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما مُتلازمان فدعاء المسألة عبادة، كما جاء في الحديث: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»<sup>(١)</sup> ودعاء العبادة دعاء مسألة؛ لأنك لو سألت العابد لماذا عبَدت الله؟ لقال: رجاء ثوابه وخوف عقابه. فهو داع بلسان الحال؛ ولذلك صار الدعاء بمعنى العبادة، والعبادة بمعنى الدعاء، وانظر إلى ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

لكن دعاء المسألة دعاء صريح في السؤال يقول القائل: رب اغفر لي وارحمني.. إلى آخره، ودعاء العبادة دعاء باللازم؛ لأن الإنسان إنما يعبد الله خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

ودعاء المسألة عبادة باللازم؛ لأن السائل مُتدَلِّل للمسؤول، فهو مُتعبَّد له.

قال المفسر رحمه الله: ﴿بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أنكروا عبادتهم إياها ثم أحضرت، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ؛ أَي: وقودها﴾.

وتمام الآية: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩]، فهؤلاء أنكروا، كذبوا على أنفسهم، ظنوا أن

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٦٧/٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



هذا سَيَنْفَعُهُمْ، كما لو أن الجاني في الدنيا أَنْكَرَ جِنَايَتَهُ رُبَمَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، لكن في الآخرة لا يَنْفَعُ، حتى إنهم إذا أَنْكَرُوا خُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، فَتَكَلَّمُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ وَالْجُلُودُ وَالْأَلْسُنُ بِمَا تَعْمَلُ، وَحِينَئِذٍ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

قال سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف حَرْفٌ، لكنها اسمٌ في الواقع، فهي مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: مثل ذلك الإِضْلالِ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ، فهي حَرْفٌ صَوْرَةٌ، لكنها بِالْمَعْنَى اسْمٌ، هذا الاسمُ مَحَلُّهُ مِنَ الْإِعْرَابِ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِلْفِعْلِ الْآتِي بَعْدَهُ، وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ يَأْتِي كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ، وَإِعْرَابُهُ كَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّ الْكَافَ حَرْفٌ بِمَعْنَى (مِثْلُ)، وَأَنَّ إِعْرَابَهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِلْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهَا، وَالتَّقْدِيرُ فِي كُلِّ سِيَاقٍ بِحَسَبِهِ، لَكِنْ فِي الْآيَةِ الَّتِي مَعَنَا: مثل ذلك الإِضْلالِ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: يَجْعَلُهُمْ فِي ضَلَالٍ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: مثل إِضْلالِ هَؤُلَاءِ الْمُكذِّبِينَ ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾].

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أن هَؤُلَاءِ الْمُكذِّبِينَ بِالْكِتَابِ وَبِهَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ الرُّسُلَ يُعذَّبُونَ عَذَابًا جَسَدِيًّا بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّحْبِ فِي النَّارِ، وَيُعذَّبُونَ عَذَابًا قَلْبِيًّا بِالتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّنْذِيمِ، فيقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ.

مسألة: إثبات القول لله عَزَّجَلَّ هل يُمكن أن يُؤخَذَ مِنَ الْآيَةِ؟

الجواب: الآية لا تُدَلُّ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّ الْقَائِلَ لَمْ يُبَيِّنْ، بَلْ قِيلَ لَهُمْ، وَلَكِنِهَا فِي آيَةٍ أُخْرَى تُدَلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ

تَزْعُمُونَ ﴿الَّذِي يُنَادِيهِمْ اللهُ؛ لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ يُنَادُونَ مِنْ قِبَلِ اللهُ، وَيُنَادُونَ أَيْضًا مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ وَكَّلَهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ. أَوْ يُقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُنَادِيهِمْ، وَلَكِنْ مُنَادَاتُهُمْ أُضِيفَتْ إِلَى اللهُ؛ لِأَنَّهُ الْأَمْرُ بِهَا كَمَا أَضَافَ اللهُ الْوَفَاةَ إِلَيْهِ؛ مَعَ أَنَّ الَّتِي تَتَوَقَّى الْأَنْفُسُ مُبَاشَرَةً هِيَ الرُّسُلُ، وَلَكِنْ نَقُولُ: هَذِهِ احْتِمَالَاتٌ لَا نُورِدُهَا مَعَ وجودِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ يُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى صَرْفِهِ عَنِ الظَّاهِرِ، فَإِذَا كَانَ اللهُ يَقُولُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ صَرِيحٌ بِأَنَّ الْمُنَادِيَ هُوَ اللهُ، وَيَبْقَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَيُحْمَلُ مَا كَانَ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ عَلَى أَنَّ الْمُنَادِيَ هُوَ اللهُ عَزَّجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ اللهُ تَعَالَى يُضِلُّ الْكَافِرَ لِكُفْرِهِ، وَجَهُّ الدَّلَالَةِ: أَنَّ الْحُكْمَ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ كَانَ ذَلِكَ الْوَصْفُ عِلَّةً لَهُ، فَمَا الَّذِي عُلِّقَ عَلَى الْكُفْرِ هُنَا؟ الْإِضْلَالُ. إِذَنْ: الْكُفْرُ سَبَبُ الْإِضْلَالِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

يَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ الضَّالَّ إِذَا ضَلَّ فَإِنَّهُ هُوَ السَّبَبُ فِي ضَلَالِهِ؛ لِأَنَّ اللهُ تَعَالَى لَوْ عَلِمَ فِيهِ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ تَعْنِي أَنَّ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَكُونُ الرِّسَالَةُ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، وَكَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ أَثَرُ الرِّسَالَةِ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، وَأَثَرُ الرِّسَالَةِ الْهُدَايَةُ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: الرَّدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ﴾ وَجَهُّ ذَلِكَ: أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ لَيْسَتْ مَخْلُوقَةٌ لَلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا عِلَاقَةٌ لَلَّهِ بِهِ، لَكِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهُ عَزَّجَلَّ هُوَ الَّذِي يُضِلُّهُمْ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ رَدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ.

يَبْغِي بِهذِهِ الْمُنَاسِبَةِ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذَا الْبَابِ إِلَى طَرَفَيْنِ  
وَوَسْطٍ، -أَيَ: فِي أَفْعَالِ الْعِبَادِ-:

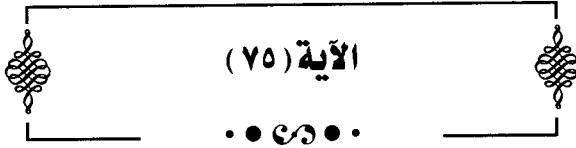
فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ، وَالْعَبْدُ مَجْبُورٌ عَلَيْهَا وَلَيْسَ لَهُ  
إِرَادَةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ هُوَ الْخَالِقَ فَالْإِنْسَانُ لَيْسَ لَهُ تَدْبِيرٌ.  
وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالْعَكْسِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ فَاعِلٌ بِاخْتِيَارِهِ وَلَيْسَ لِلَّهِ عِلَاقَةٌ بِهِ.  
هَذَا طَرَفَانِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ فَاعِلٌ بِاخْتِيَارِهِ لَكِنْ فَعَلَهُ مَقْرُونٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ،  
وَهَذَا هُوَ الْوَسْطُ.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَسْبَابَ الضَّلَالِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى  
النُّصُوصِ مِنْ زَاوِيَةٍ وَاحِدَةٍ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَأْخُذُ نَصًّا وَيَدَعُ نَصًّا:  
فَالْجَبْرِيَّةُ رَأَوْا عُمُومَ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَعُمُومَ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ،  
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَقَالُوا: إِذَنْ الْإِنْسَانُ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ وَلَا اخْتِيَارٌ، وَفَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ  
الْإِجْبَارِ.

وَالْقَدْرِيَّةُ رَأَوْا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَفْعَلُ وَلَا يُحْسِنُ أَنْ أَحَدًا مُكْرَهُ لَهٗ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ  
أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِذَنْ  
هُوَ مُسْتَقْتَلٌ بِعَمَلِهِ لَيْسَ فِيهِ عِلَاقَةٌ، فَأَخَذُوا مِنْ جَانِبٍ وَتَرَكَوا مِنْ جَانِبٍ آخَرَ.

وَهَكَذَا جَمِيعٌ خِلَافَ الْعُلَمَاءِ إِذَا رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ مُحْتَلِفِينَ عَلَى طَرَفَيْنِ وَوَسْطٍ،  
فَاعْلَمْ أَنَّ الطَّرَفَيْنِ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَخَذَ بِجَانِبٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَتَرَكَ جَانِبًا آخَرَ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥].



قال رَحِمَهُ اللهُ: [ويُقال لهم أيضًا: ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾] ﴿ذَلِكُمْ﴾ المُشار إليه العذاب، والمُخاطَب أولئك الكافرون؛ ولهذا جاءتِ الكاف بضمير للجماعة، وجاءتِ اسم إشارة بالإشارة لمُفرد مُذَكَّر؛ لأن العذاب مُفرد مُذَكَّر، واعلم أن اسم الإشارة وكاف الخطاب تارة يَتَّفِقان وتارة يَخْتَلِفان، فاسمُ الإشارة يكون بحسب المُشار إليه، وكاف الخطاب بحسب المُخاطَب، وليتنبه للقاعدة.

فإذا قيل لك: أشر إلى مُفرد مُذَكَّر مُحاطِبًا جماعة نساء. تقول: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لَمُننِي فِيهِ﴾، وإذا قيل: أشر إلى مُثنى مُذَكَّر مُحاطِبًا مُثنى مؤنثًا تقول: ذانكما. وإذا قيل: أشر إلى مُفردة مؤنثة مُحاطِبًا جماعة ذكور. تقول كما في القرآن: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

المهم هذه القاعدة: اسمُ الإشارة بحسب المُشار إليه وكاف الخطاب بحسب المُخاطَب قد يَتَّفِقان وقد يَخْتَلِفان.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ﴾ الباء للسببية، و(ما) مصدرية، وعلامة (ما) المصدرية

أَنْ يَصِحَّ تَحْوِيلُ مَا بَعْدَهَا إِلَى مَصْدَرٍ، فَمَثَلًا قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ﴾ إِذَا حَوَّلْنَا مَا بَعْدَهَا إِلَى مَصْدَرٍ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: ذَلِكُمْ بِكُونِكُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ مَعْلُومٌ أَنْ (كَانَ) هَذِهِ لِلْمَاضِي أَي: قَبْلَ الْمَوْتِ ﴿كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي: تَفْرَحُونَ بِالْبَاطِلِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِالشَّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَكُلُّ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي إِثْمِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِهِ.

وقوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مِنَ الْإِشْرَاقِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ]، وَهَذَا فِي الْوَاقِعِ قُصُورٌ، إِلَّا إِذَا كَانَ يُرِيدُ بِهِ التَّمَثِيلَ، وَإِلَّا فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَعْمٌ مِنَ الشَّرْكِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ، فَهَمَّ يَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ مِنَ الشَّرْكِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ، وَالْعُدْوَانِ، وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ، وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، كَالسَّائِبَةِ، وَالْوَصِيلَةِ، وَالْحَامِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

المُهِمُّ: أَنْ قَوْلَ الْمَفْسَّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ: [بِالْإِشْرَاقِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ] هَذَا قُصُورٌ مَا لَمْ يُرِدِ التَّمَثِيلَ، فَإِنْ أَرَادَ التَّمَثِيلَ فَإِنَّ التَّمَثِيلَ لَا يُفِيدُ الْحَضَرَ.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَتَوَسَّعُونَ فِي الْفَرَحِ]، الْوَاوُ حَرْفُ عَطْفٍ وَالْبَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا بِإِعَادَةِ الْعَامِلِ الَّذِي هُوَ الْبَاءُ، وَالْعَطْفُ بِإِعَادَةِ الْعَامِلِ يَعْنِي: أَنَّ الثَّانِيَّ مُسْتَقْبَلٌ عَنِ الْأَوَّلِ، فَهُمْ يُعَذَّبُونَ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: يُعَذَّبُونَ عَذَابًا خَاصًّا بِالْفَرَحِ، وَعَذَابًا خَاصًّا بِالْمَرْحِ، وَالْبَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَتَوَسَّعُونَ فِي الْفَرَحِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الأسباب، يُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ لِأَنَّ

الباء هنا للسببية.

واعلم أيضًا أن الناس اختلفوا في الأسباب على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط، طرف من الناس أثبت الأسباب، وأنها فاعلة بنفسها يعني: أنه إذا وُجد السبب لزم وجود المسبب ولا بُدَّ، وطائفة أخرى أنكرت تأثير الأسباب وقالوا: الأسباب لا تُؤثر؛ لأنك لو جعلت هذا مُتأثرًا بسبب لأثبتت لله شريكًا في الإيجاد، وهذا شرك.

الطائفة الثالثة: قالت: الأسباب مؤثرة بلا شك، لكن لا بنفسها، بل بما أودع الله فيها من القوة التي صارت بها مؤثرة، ما هي بنفسها غير مؤثرة، لكن الله تعالى أودع فيها قوَى تُؤثر، ولو شاء الله تعالى لسلب تلك القوَى فلم تُؤثر.

وهذا قول وسط، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الذي يوافق السمع والعقل.

وأضرب لك مثلًا: رجل رمى زُجاجة بحجر فانكسرت، مُثبتو الأسباب يقولون: الذي كسرها الحجر بذاته. وناقو الأسباب يقولون: الحجر لم يكسر الزُجاجة، لكن انكسرت الزُجاجة عند رميها بالحجر، وليس بالحجر، وإنما الحجر أمانة فقط، أمانة حصل الشيء عندها، وكذلك بقية الأسباب. والوسط يقولون: الحجر كسر الزُجاجة، فهو السبب بما جعل الله تعالى في الحجر من قوّة، وبما جعل في الزُجاجة من قابلية تقبل الانكسار، وهذا هو الحق.

ثم إذا ألقينا في النار ورقة فاحترقت، مُثبتو الأسباب الذين يقولون: إن الأسباب تُؤثر بنفسها. يقولون: النار أحرقت الورقة، ولا بُدَّ. وناقو الأسباب يقولون: إن النار لم تُحرق الورق ولكن احترقت الورقة عند إلقائها في النار لا بالنار. والوسط يقولون: احترقت الورقة بالنار بما جعل الله تعالى في النار من قوّة الإحراق،

وبها جعل في الورق من قابلية ذلك.

ولهذا يُوجد الآن موادٌ تُضادُّ النار، تُلقى في النار ولا تُحترق؛ لأن هناك مانعاً يمنع من تأثير السبب، وهذا القول هو الراجح، ألم تروا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أُلقي في النار العظيمة التي لم يستطع ملقوه أن يقربوا منها حتى ألقوه في المنجنيق ورموه فيها رمياً؛ لم يحترق مع أن النار سبب للإحراق، لكن الله قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت بردًا وسلامًا عليه، قال العلماء: لو قال الله كوني بردًا، ولم يقل: كوني سلامًا. لكانت بردًا مُهلكًا، لكن الله قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، فكانت بردًا وسلامًا وكأنه لم يكن في نار.

إذن نقول: الأصح من أقوال العلماء في تأثير الأسباب أنها مؤثرة لا لذاتها، ولكن بما جعل الله فيها من القوى المؤثرة في المحلات القابلة.

الفائدة الثانية: أن الفرح بغير الحق سبب للعذاب والإضلال، يؤخذ من قوله: ﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

الفائدة الثالثة: أن الفرح بالحق محمود؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»<sup>(١)</sup>، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرح بالحق محمود، والفرح بغير الحق مذموم، والفرح بما ليس حقًا ولا باطلاً ليس محمودًا ولا مذمومًا؛ لأنه من اللغو، ولكن عباد الرحمن إذا مروا باللغو مروا كرامًا.

ثم اعلم أن الفرح يكون طبيعيًا، الإنسان إذا أتاه ما يسره لا بُدَّ أن يفرح

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/١٨)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَنْفَعِلُ بِدُونِ إِرَادَةٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَا يُؤَاخِذُ بِهِ الْإِنْسَانَ إِلَّا إِذَا كَانَتْ طَبِيعَتُهُ مُنْحَرِفَةً بِحَيْثُ يَفْرَحُ بِالسُّوءِ دُونَ الْخَيْرِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قُلْنَا: الْفَرَحُ بِالْحَقِّ مَدْمُوحٌ، فَمَا ضَابِطُ الْحَقِّ الَّذِي يُفْرَحُ بِهِ؟  
فَالْجَوَابُ: إِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ خَيْرًا فَهَذَا حَقٌّ، فَإِذَا فَرِحَ بِذَلِكَ فَهُوَ حَقٌّ، إِذَا فَرِحَ بِالْمَطَرِ فَهَذَا حَقٌّ، إِذَا فَرِحَ بِأَنَّ اللَّهَ أَيَّدَهُ بِشَيْءٍ فَهَذَا حَقٌّ؛ وَهَذَا فَرِحَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ أَفْتَى الرَّجُلَ بِالْتَّمَتُّعِ فِي الْحَجِّ فَرَأَى فِي مَنْامِهِ رَجُلًا يَقُولُ لَهُ: عُمْرَةٌ مُتَقَبَّلَةٌ وَحَجٌّ مَبْرُورٌ. فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَفَرِحَ بِهَا، وَقَالَ: انْتَظِرْ حَتَّى نُعْطِيكَ مِنَ الْعَطَاءِ<sup>(١)</sup> أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَرِحَ قَارُونَ الَّذِي ذَمَّ عَلَيْهِ، هَلْ هُوَ بِالْبَغْيِ أَوْ بِالْمَالِ الَّذِي أُوتِيَ؟

فَالْجَوَابُ: بِكِلَا الْأَمْرَيْنِ

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَكِنَّ الْفَرَحَ بِالْمَالِ ذَاتَهُ لَيْسَ مَدْمُومًا.

فَالْجَوَابُ: لَا، قَدْ يَكُونُ مَدْمُومًا وَقَدْ يَكُونُ مَدْمُوحًا، إِذَا فَرِحَ بِالْمَالِ لَيْسَتْ عَيْنُ بِهِ عَلَى حَقٍّ، يَعْنِي: إِنْسَانٌ يُرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ كُتُبًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ فَرَزَقَهُ اللَّهُ الْمَالَ فَيَفْرَحُ لِيَشْتَرِيَ الْكُتُبَ، لَكِنَّ إِنْسَانًا يُرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ آلَةَ هُوَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ فَرَزَقَهُ اللَّهُ الْمَالَ فَاشْتَرَى بِهِ آلَةَ هُوَ، فَالْفَرَحُ هُنَا مَدْمُومٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يُثَابُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْفَرَحِ؟

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ «فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»، رَقْمٌ (١٦٨٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ جَوَازِ الْعُمْرَةِ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، رَقْمٌ (١٢٤٢). وَقَوْلُهُ أَنَّهُ أَعْطَاهُ عَطِيَّةً أَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي مَسْنَدِهِ رَقْمٌ (٢٨٧٢).



فالجواب: أي نعم؛ لأنه يدلُّ على حُسْن نِيَّةٍ وَقَصْدٍ، إِذَا فَرِحَ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ يُثَابَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ يُرِيدُ الْحَقَّ.

الفائدةُ الرَّابِعَةُ: أن الأسبابَ تَتَوَارَدُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ قَدْ يَرِدُ عَلَى الشَّيْءِ سَبَبٌ، يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، وَالْمَرَحُ أَشَدُّ الْفَرَحِ، وَهَكَذَا الْأَسْبَابُ الشَّرْعِيَّةُ تَتَوَارَدُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِ سَبَبَانِ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا يُوجِبُ الْحُكْمَ، فَإِذَا اجْتَمَعَا صَارَ كُلُّ وَاحِدٍ يُقَوِّي الْآخَرَ.

فإن اختلفَ مُوجِبِ السَّبَبَيْنِ فهل نقول: إننا نأخذ بأحد السببين دون الآخر، أو نأخذ بالسببين ونعمل بموجبهما؟

الجواب: الثاني ما لم يكن أحدهما أقوى فيندرج به الأصغر، فإذا اجتمع سببان واختلفت موجبهما، أخذنا بموجب كل منهما ما لم يكن أحدهما أقوى فيؤخذ بالأقوى.

مثال ذلك: ابن عمِّ هو زوج ماتت امرأته، هنا اجتمع في حقِّ هذا الزوجِ جهة فرض وجهة تعصيب، فهل يرث بالفرض أو بالتعصيب أو بهما؟

الجواب: بهما، فنقول: هذا الزوج له النصف فرضاً، والباقي تعصياً، فهنا ورث بالفرض وبالتعصيب.

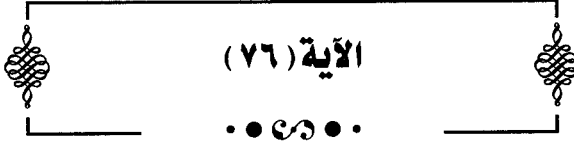
ورجل ملك أمة ثم تزوجها فهل يصح هذا الزواج ليملك بضعها أو لا يصح؟  
الجواب: لا يصح؛ لأن الملك أقوى؛ ولهذا لا يصح على السيد أن يعقد النكاح على أمته، لكن يستمتع بها بملك اليمين.

ورجل بالٍ وتغوط، هنا سببان موجبان للوضوء هل نأخذ بكُلِّ واحدٍ منهما؟  
الجواب: هنا لم يتخلف الموجب هنا؛ لأن الموجب هو الوضوء فلا يتخلف،

لكن يَقْوَى المُوَجِّب بتَعَدُّد المُوَجِّب، لكن لَمَّا لم يَحْتَلِف فنَقول: نَأْخُذُ بِهِمَا جَمِيعًا؛  
لأن لا فائِدَةً من ذلك.

إِذْنُ: إِذَا اجْتَمَعَ مُوَجِّبان فَإِذَا اتَّحَدَ مُوَجِّبُهُمَا أَخَذْنَا بِوَاحِدٍ وَكَفَى، وَإِنْ اِخْتَلَفَ  
المُوَجِّب أَخَذْنَا بِهِمَا مَا لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَقْوَى، فَيُؤْخَذُ بِالْأَقْوَى وَيُتْرَكُ الْأَضْعَفُ





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا ﴾﴾

[غافر: ٧٦].

• • • • •

قال تعالى: ﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ﴿ أَدْخُلُوا ﴾ فِعْلُ أَمْرٍ، وَالْأَمْرُ هُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَالْأَمْرُ يُرَادُ بِهِ لِإِهَانَةٍ، لَيْسَ أَمْرٌ إِكْرَامٍ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ إِهَانَةٌ وَإِلْزَامٌ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ جَمْعٌ، وَعَدَدُ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٤]، و﴿ جَهَنَّمَ ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا ذَاتُ جُهِمَةٍ، إِذَا قُلْنَا: إِنَّ جَهَنَّمَ اسْمٌ عَرَبِيٌّ زِيدَتْ فِيهِ النَّونُ. وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ اسْمٌ غَيْرُ عَرَبِيٍّ وَلَكِنَّهُ عُرْبٌ، فَلَا حَاجَةَ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْجُهِمَةِ الَّتِي هِيَ الظُّلْمَةُ أَوْ القَعْرُ، وَإِنَّمَا كَانَ فَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قُلْتُمْ: إِنَّ العَدَدَ لَا مَفْهُومَ لَهُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup> قُلْتُمْ: هَذَا العَدَدُ لَا يَدُلُّ عَلَى الحَضَرِ، وَإِنَّ لِلَّهِ أَسْمَاءَ أُخْرَى فَلِمَ إِذَا نَقُولُ بِالْحَضَرِ، أَوْ بِإِفَادَةِ العَدَدِ الحَضَرِ فِي أَبْوَابِ جَهَنَّمَ وَأَبْوَابِ الْجَنَّةِ؟

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ: كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ إِلَّا وَاحِدًا، رَقْمٌ (٧٣٩٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ، بَابُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلٍ مِنْ أَحْصَاهَا، رَقْمٌ (٢٦٧٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجوابُ: نقول: أمّا الأوّل وهو قوله: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا» فإنّا قلنا: إنها لَيْسَتْ لِلْحَضَرِ بَدَلِيلٍ وهو حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي حَدِيثِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ، قَالَ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»<sup>(١)</sup>، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ مُسْتَأْثَرًا بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُدْرِكَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اسْتَأْثَرَ بِهِ، فَمَنْ ثَمَّ قُلْنَا: إِنْ الْعَدَدُ لَا مَفْهُومَ لَهُ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا» وَأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا قُلْنَا: ﴿أَدْخُلُوا﴾ تَأْتِي لِلْإِهَانَةِ وَتَأْتِي لِلْإِكْرَامِ أَفَلَا يَكُونُ فِيهَا رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنْ الْقُرْآنُ فِيهِ مَجَازٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّنا نقول: كُلُّ كَلِمَةٍ فِي مَوْضِعِهَا فَهِيَ حَقِيقَةٌ فِيهَا.

فالجوابُ: نَعَمْ، رَبِّمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى نَفْيِ الْمَجَازِ؛ وَهَذَا كَانَ الصَّوَابُ مَا اخْتَارَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ<sup>(٢)</sup> رَحِمَهُ اللَّهُ «أَنَّهُ لَا مَجَازَ فِي اللَّغَةِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ». وَالْعُلَمَاءُ اخْتَلَفُوا عَلَى هَذَا فِي أَقْوَالٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا مَجَازَ لَا فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي غَيْرِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا مَجَازَ فِي الْقُرْآنِ وَيَجُوزُ فِي اللَّغَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْمَجَازُ فِي الْقُرْآنِ وَاللُّغَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ الْكَلَامِ مَجَازٌ. وَأَظُنُّ هَذَا رَأْيَ ابْنِ جَنِّي<sup>(٣)</sup>، أَنَّ جَمِيعَ الْكَلَامِ كُلِّهِ مَجَازٌ، حَتَّى إِذَا قَالَ: ضَرَبْتُ زَيْدًا. قَالَ: هَذَا مَجَازٌ. قُلْتُ: خَيْرًا. قَالَ: هَذَا مَجَازٌ. وَهَكَذَا، لَكِنِ الرَّاجِحُ أَنَّ لَا مَجَازَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي يُعَيَّنُ مَعْنَى

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (١/ ٣٩١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: كتاب الإيهان (ص: ٧٣).

(٣) انظر: المزهري في علوم اللغة للسيوطي (١/ ٢٨٧)، ومنع جواز المجاز للشنقيطي (ص: ٥).

الكلمة هو السياق والقرائن؛ ولهذا ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ القرينة تدلُّ على أن الأمر للإهانة ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْمٍ ءَامِنِينَ﴾ القرينة تدلُّ على أنه للإكرام.

فائدة: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَهْلِ النَّارِ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر بدخول النار أمر الله عَزَّوَجَلَّ، والمراد به يوم القيامة هو الإهانة، وقوله تعالى في أهل الجنة: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْمٍ ءَامِنِينَ﴾ المراد بالأمر الإكرام؛ إذ نأخذ من هذا أن الكلمات يَخْتَلِفُ مَعْنَاهَا بِاخْتِلَافِ السِّيَاقِ، وهذه فائدة عظيمة لطالب العلم أن الكلمات يَخْتَلِفُ مَعْنَاهَا بِاخْتِلَافِ السِّيَاقِ، فَكَمْ كَلِمَةٍ كَانَ لَهَا مَعْنَى فِي سِيَاقٍ وَلَهَا مَعْنَى آخَرَ فِي سِيَاقٍ آخَرَ.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ﴾ هذه حال من الفاعل في قوله: ﴿أَدْخُلُوا﴾ والخلودُ هل هو طول المكث أو هو التأبید؟

نقول: اللغة العربية يأتي فيها الخلود مرادًا به طول المكث، ويأتي مرادًا به التأبید، والمراد به هنا الثاني يعني: أنهم خالدون فيها أبدًا.

ودليل ذلك أن الله تعالى صرَّح في القرآن الكريم بأن أهل النار خالدون فيها أبدًا في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

والآية الثالثة: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وبهذه الآيات الثلاث يتبين ضعف - بل بطلان - قول من يقول: إن النار ليست مؤبدة، وإنما تفتنى. فإن هذا القول منكر؛ لأنه مخالف لصريح القرآن، ولا يمكن لإنسان يخالف صريح القرآن لمجرد تعليقات يُعلّلها، مثل أن يقول: إن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، وإن هؤلاء ما لهم إلى أن يفتنوا هم والنار. يُقال: نعم رحمة الله سبقت غضبه، لكن وعد الله حق، وإذا كان وعد الله حقاً، فإنهم يُخلّدون فيها أبداً.

فإن قال قائل: نحن قلنا بأن القول: إن النار ليست مؤبدة مخالف لصريح القرآن؛ فإن قيل: هذا وعيد، وإخلاف الوعيد جائز!

فالجواب: نقول: هذا لا يمكن؛ لأننا لا نقول: إخلاف الوعيد جائز، إلا في أمر ضروري لا بُدَّ منه مثل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣].

وهذه بعض الأجوبة التي أُجيب عن هذه الآية بها، أن هذا الوعيد، وإخلاف الوعيد كرم، وهو ثناء ومدح للمخلف، لكن هذا الجواب في الواقع جواب يهز ليس جواباً راسخاً؛ لأننا نقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١] أي: ما وعد به من عقوبة أو كرامة، وأمّا الآية: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في آية القتل فيحمل الخلود على المعنى الثاني وهو المكث الطويل، وبهذا ليس هناك تناقض.

فإن قال قائل: التخليد الأبدي في هذا العذاب الأليم كيف يكون جزاء لإنسان لم يبق في الدنيا إلا مئة سنة، أو مئتي سنة، أو ألف سنة، فيكون هنا العذاب أكثر

من زمن العمل؛ لأنه لا أحد بقي في الدنيا أبد الآبدين فيقتضي هذا أن يكون فيه ظلم؛ لأن الجزاء صار أكثر من العمل بكثير، ولا ينسب له، كما قلت لكم يعني: لتفرض أن أحداً من الناس عاش ألف سنة، أو ألفي سنة، أو عشرة آلاف سنة، لكنه عاش إلى أمد ثم نقول: عذابه مؤبد. يكون هذا ظلماً؟

فيقال: إن هذا أمضى حياته الدنيا كلها في محادثة الله ورسله فيمضي حياته الأخرى كلها في العذاب، وهذا عدل، ثم إن هذا الذي عذب أبداً قد قيل له في الدنيا ويبيّن له أن جزاءه العذاب الأبدي، فلماذا يُقدم على شيء يعرف أن هذا جزاءه، وحينئذ لا ظلم، ولا عذر للكافرين.

فالمهم: أن قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يُراد به الخلود الأبدي.

فإن قال قائل: ما قولكم في ما ورد: «يبلغ المرء بنيتّه ما لا يبلغ بعمله»؟

فالجواب: أولاً هذا ليس حديثاً صحيحاً عن الرسول ﷺ، وثانياً مراد قائله أن الإنسان يُدرك بنيتّه ما لا يُدرك بعمله، هذا المعنى، فالإنسان المريض الذي يتمنى أنه صحيح يقوم بما أوجب الله عليه، هذا أدرك بالنية ما لم يُدرك بالعمل، وكذلك أيضاً بالنسبة للشرّ، الإنسان إذا نوى الشرّ وهو عاجز عنه يُعاقب مُعاقبة الفاعل لكن بالنية، دليل ذلك قول النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الرَّجُلِ الْفَقِيرِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ، وَكَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ آخَرُ يُنْفِقُ الْمَالَ فِي غَيْرِ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَقَالَ الرَّجُلُ: «لَوْ أَنَّ لِي مَالٌ فَلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ عَمَلٌ فَلَانٍ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنباري.

وقوله: ﴿فَيْتَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هذه الجملة جملة إنشائية يُراد بها الذمُّ، ويُقابل هذا في المدح: ﴿وَلَنَعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿فَيْتَسَ﴾ هنا فعل إنشائي يُراد به الذمُّ، والمعنى: أن هذه الدار كلها ذمُّ كلها بلاءٌ؛ ولهذا وُصفت بأنها ﴿فَيْتَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إهانة الكفار، وهو عذاب قلبي؛ لأن العذاب القلبي قد يكون أشدَّ من العذاب البدني.

الفائدة الثانية: أن لجهنم أبواباً؛ لقوله: ﴿أَبْوَابَ﴾ وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

الفائدة الثالثة: خلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ والصواب الذي لا شك فيه أن الخلود مؤبد للآيات الثلاث التي سُقناها قبل قليل.

الفائدة الرابعة: تناول القذح على نار جهنم؛ لقوله: ﴿فَيْتَسَ مَوَى﴾.

الفائدة الخامسة: التحذير من التكبر؛ لقوله: ﴿فَيْتَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»<sup>(١)</sup> فالكبر - والعياذ بالله - سبب لدخول النار.

لكن قد يكون سبباً لدخولها مع الخلود، وقد يكون سبباً لدخولها للتطهير فقط، فإن كان هذا التكبر تكبراً عن الحق ورداً له فهذا سبب لدخول النار على

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



التأييد، وإن كان التكبر دون ذلك، مثل أن يتكبر على الخلق مع القيام بحق الخالق أو يتكبر عن بعض الأشياء ولا أظنُّ أحدًا يتكبر عن أمر من أمر الله إلا وهو كافر كُفْرًا مطلقًا؛ لأن إبليس تكبر عن شيء واحد وكفر وهو السجود، لكن من تكبر على الخلق دون الحق فهذا لا يُجَلَّد في النار، يُعاقب بمثل ما فعل من ذنب.

تنبيه: أنا أحبُّ من طالب العلم أن يكون قويًّا في استنباط الأحكام من الأدلة؛ لأن القادر على استنباط الأحكام من الأدلة يحصل على علم كثير من أدلة قليلة، كم من إنسان يستنبط من آية واحدة عشرين فائدة ويأتي إنسان آخر ولا يستنبط إلا خمس فوائد مثلاً، الأول حصل على ثلاثة أضعاف ما حصل عليه الثاني، وذلك بالاستنباط، ولكن هنا مسألة، لا تُفَرط في الاستنباط؛ لأنك إن أفرطت فيه حملت النصوص ما لا تحتمل، فكن وسطاً وإذا دار الأمر بين أن يكون هذا الحكم مُستنبطاً من آية أو حديث أو لا يكون فما هي السلامة؟

إن قلت: لا يكون. قال لك الآخر: السلامة أن يكون؛ حتى لا تبطل دلالة النص، لكن نقول: الأول أرجح؛ لأنك إذا لم تتيقن أن الآية دلت عليه وسكتت فقد سلمت؛ لأنك لم تنف.

والسكوت درجة بين النفي والإثبات فأنت إذا سكتت لم تكن قلت على الله بغير حق، لكن إذا أثبتت في النص ما لا يدلُّ عليه فقد قلت على الله بغير حق.

إذن: فالسلامة فيما إذا شككت هل النصُّ دلَّ على هذا أو لا، السلامة أن تسكت، ولكن لا تنف؛ لأنه قد يكون دالًّا عليه في نفس الأمر، ولكن فهمك لم يدركه.



الآية (٧٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ  
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧].

•••••

قال تعالى: ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ﴿ فَأَصْبِرْ ﴾ الخطاب هنا للرسول  
صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو فعل أمر، والأمر الأصل فيه الوجوب كما سيأتي، أما معنى  
الصبر لغة فهو الحبس، ومنه قولهم: قُتِلَ فلان صبرًا. أي: حبسًا؛ أي: أمسك ثم  
قُتِلَ، لكنه في الاصطلاح الشرعيّ أخص من مُطلق الحبس، فهو حبس النفس عما  
يُسخط الله تعالى فيما يرضي الله.

ومن ثم قال العلماء: إن الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله  
وهو أعلى الأقسام، وصبر عن معصية الله وهو الثاني في المرتبة، وصبر على أقدار  
الله المؤلمة وهو الثالث في المرتبة أيضًا.

الأول: صبر على طاعة الله، بأن يصبر الإنسان نفسه على طاعة الله بأن يقوم  
بالواجب، وأن يكمل ذلك بالمستحب، وهذا يحتاج إلى صبر وإلى عناء، ولا سيما  
مع ضعف الإيمان، فإن ضعف الإيمان يشق عليه فعل الطاعات، فيحتاج إلى أن  
يصبر وأن يحبس نفسه على فعل الطاعة، ويعدها بالخير والثواب، ويقول: إن  
الوقت ماضٍ وذهابٌ، فإما أن يكون في طاعة الله، وإما أن يكون في معصية الله،

وإمّا أن يكون لغواً فيحملها ذلك على القيام بطاعة الله.

والصبر على طاعة الله شاقٌّ من وجهين: من وجه إلزام النفس بالقيام به، ومن وجه تعب البدن بالقيام به، فهنا عناءان: الآن الأول مع النفس، والثاني مع الجوارح؛ ولهذا كان هو أعلى أقسام الصبر، مثال ذلك الصبر في الجهاد، هذا صبر على طاعة الله، وهو أشقُّ أنواع الطاعة التي يُصبر عليها؛ ولهذا جعلها النبي ﷺ ذروة سنام الإسلام؛ لأنه أشقُّ ما يكون.

الثاني: صبر عن معصية الله؛ يعني: أن الإنسان قد يهوى المعصية، ولكن يحبس نفسه عنها، فهذا صبر عن معصية الله عزَّ وجلَّ ويتضمَّن هذا الصبر حبس النفس مع الكفِّ، ففيه عناءٌ واحد، وهو حبس النفس عن المعصية، لكن ليس فيه تعب بدني؛ إذ إنه كفُّ بلا فعل، والكفُّ بلا فعل أهونٌ من الفعل؛ يعني: ليس فيه مشقة بدنية، غاية ما فيه أن مُعانة قلبية للصبر عن هذه المعصية.

والقسم الثالث: الصبر على أقدار الله عزَّ وجلَّ المؤلمة، هي التي لا تُلائم النفس إمّا بوفاة محبوب، وإمّا بحصول مكروه فيحس الإنسان نفسه في هذا الأمر، وهو أقلُّ أقسام الصبر رتبةً؛ لأنه يأتي بغير اختيار الإنسان. انتبه الصبر على الطاعة باختيار الإنسان، وعن المعصية باختياره، لكن على الأقدار لا، ليس بملكك أن تمنع ما قدر الله عليك من وفاة محبوب، أو حصول مكروه؛ ولهذا قال بعض السلف: عند حلول المصائب إمّا أن تصبر صبر الكرام، وإمّا أن تسلو سلو البهائم. وقس نفسك إذ تأتيك المصيبة اليوم أكبر من الجبال وأحرَّ من النيران، ثم تخفُّ شيئاً فشيئاً حتى لا تكاد تذكرها.

إِذَنْ: إمَّا أَنْ تَصْبِرَ وَتَحْتَسِبَ، وَإِمَّا أَنْ تَسْكُتَ حَتَّى لَوْ تَسَخَّطْتَ، فَاَلْمَالَ إِلَى نِسْيَانِهَا، وَإِمَّا أَنْ يَسْلُوَ الْإِنْسَانَ سَلَوَ الْبَهَائِمِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا»<sup>(١)</sup> مَا يَقَعُ فِي الْقَلْبِ أَثْنَاءَ الْمَصَائِبِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ هَلْ هَذَا يُنَافِي الصَّبْرَ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، الْحُزْنَ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُنَافِي الصَّبْرَ، الَّذِي يُنَافِيهِ أَنْ يَقَعُ فِي قَلْبِهِ التَّسَخُّطُ عَلَى اللَّهِ، وَمَا يَقَعُ فَتَجِبُ مُدَافَعَتُهُ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ حَكِيمٌ، وَقَدْ يُرِيدُ اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ خَيْرًا إِذَا ابْتَلَاهُ، فَإِذَا كَانَ هَجَمَ عَلَى قَلْبِهِ فَالْوَاجِبُ أَنْ يُدَافِعَ، لَكِنْ لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ مُؤْمِنًا يَتَسَخَّطُ عَلَى رَبِّهِ، نَعَمْ يَكْرَهُ مَا حَصَلَ، صَحِيحٌ كُلُّ إِنْسَانٍ يَكْرَهُ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْبَلَاءِ، لَكِنْ كَوْنُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ ظَلَمَهُ، وَأَنَّ هَذَا عُدْوَانٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا لَا أَظُنُّ أَحَدًا يَفْعَلُهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا عَلَامَةُ الْإِنْسَانِ الَّذِي لَمْ يَبْلُغِ الصَّبْرَ؟

فَالْجَوَابُ: إِذَا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ التَّسَخُّطَ، وَفِي قَلْبِهِ التَّسَخُّطَ.

وهذا القسم الثالث من أقسام الصبر: الصبر على أقدار الله عز وجل المؤلمة؛ يكون بالأمر الآتية: حبس اللسان عن التسخط، لا تسخط تقول: أصابني الله بكذا، ولم يصب فلاناً، أصابني بالفقر والناس أغنياء، أصابني بالمرض والناس أصحاء. وما أشبه ذلك ما يقول هذا، لا يقول: واويلاه واثبوراها وانقطاع ظهراه. وما أشبه ذلك لا يقول هذا؛ لأن هذا منافي للصبر، الإخبار بما أصاب الإنسان

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنت ناسيا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من مُصيبة دون التَّشْكِي، وَقَعَ هذا من النَّبِيِّ ﷺ؛ حيثُ قال: «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاءُ»<sup>(١)</sup> ولا حَرَجَ؛ يَعْنِي هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ شَخْصٍ يَتَكَلَّمُ بِهَا أَصَابَهُ تَسْخُطًا أَوْ شِكَايَةً لِمَخْلُوقٍ، وَبَيْنَ شَخْصٍ يُخْبِرُ عَمَّا أَصَابَهُ، فَقَطُّ مُجَرَّدُ خَبَرٍ، وَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ.

الثاني: حَبَسَ الْجَوَارِحَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ عَنِ فِعْلٍ مَا لَا يَجُوزُ وَمَا يُنْبِئُ عَنِ الْغَضَبِ؛ مِثْلُ: شَقَّ الْجُيُوبَ، لَطَمَ الْخُدُودَ، نَتَفَ الشُّعُورَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. هَذَا أَيْضًا مُنَافٍ لِلصَّبْرِ؛ وَهَذَا تَبَرُّاً لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ فَاعِلِهِ فَقَالَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ، وَلَطَمَ الْخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»<sup>(٢)</sup>.

الثالثُ: وَهُوَ حَبَسَ الْقَلْبَ عَنِ كِرَاهَةِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهَذَا أَعْظَمُهَا وَأَدْقُهَا، قَدْ يَرَى الْإِنْسَانَ الضَّعِيفَ الْمَخْلُوقَ الْمَمْلُوكَ الْمُدَبَّرَ، قَدْ يَرَى أَنَّ رَبَّهُ ظَلَمَهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَدُونَ أَنْ يَفْعَلَ، لَكِنْ قَلْبُهُ مَمْلُوءٌ عَلَى اللَّهِ سُخْطًا، مِنْ السُّخْطِ وَرُؤْيَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ظَلَمَهُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. هَذَا يَجِبُ أَيْضًا أَنْ يَتَخَلَّى الْقَلْبُ عَنْهُ، وَهَذَا أخطرُ مَا يَكُونُ بِالنَّسْبَةِ لِلصَّبْرِ عَلَى الْأَقْدَارِ، أَتَى قَوْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] ﴿حَرْفٍ﴾ يَعْنِي: طَرَفٍ، لَيْسَتْ عِبَادَةٌ رَاسِخَةٌ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

وهذا يَشْمَلُ فِتْنَةَ الْمَصَائِبِ وَفِتْنَةَ الشُّبُهَاتِ، مِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَرَضِيِّ، بَابُ قَوْلِ الْمَرِيضِ: إِنِّي وَجَعٌ، رَقْمٌ (٥٦٦٦)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ لَيْسَ مِنَّا مِنْ شَقِّ الْجُيُوبِ، رَقْمٌ (١٢٩٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ تَحْرِيمِ ضَرْبِ الْخُدُودِ وَشَقِّ الْجُيُوبِ وَالِدَعَاءِ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، رَقْمٌ (١٠٣)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآخر، لكنه على طرف إن أصابه خيرٌ ولم يُناقِشه أحدٌ أو يُجادِله أحدٌ مَشَى، وإن جاء أحدٌ يُشكِّكُه في هذا الأمرِ شكًّا، فانقلَبَ على وجهه؛ خسر الدنيا والآخرة.

ومن الناس أيضًا مَنْ يكون في نعمة، قد أنعم الله عليه بالأموال والأولاد وما يحتاج إليه من الدنيا أو يكملها، فأصيب بحادثٍ فقدَّ أهله به كلهم.

فمن الناس مَنْ إذا كان يعبد الله على حَرْفٍ يَسْخَطُ على الله، ويكره قضاء الله، كراهة سَخَطٍ، ليس كراهة أنه يَتَمَنَّى ما لم يُصِبْه، لا، إنما يَتَسَخَطُ على ربِّه، وهذا من جهل الإنسان، أنت ملكٌ لله عَزَّجَلَّ هذا الربُّ الكريم الذي إذا أصابك بسراء فشكرت أثنابك، وإن أصابك بضرٍّ فصبرت أثنابك. كيف تسخط على هذا الربِّ الكريم وأنت ملكه وعبده، يتصرَّف فيك بما شاء، وله الحكمة فيما فعل؟! وظيفتك الصبر عند البلاء، والشكر عند الرِّخاء.

فالمهمُّ: أن الصبر الآن تبيَّن أنه ثلاثة أقسام:

الأوَّل - أعلاها وأتمُّها - وهو الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله.

فأفضلها الأوَّل، ثم الثاني، ثم الثالث.

يُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُصِيبَ بِبَلَاءٍ فِي خُلُقِهِ وَبِلَاءٍ فِي جَسَدِهِ، صَبَرَ عَلَى هَذَا وَهَذَا، دَعَتْهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ فِي مَكَانٍ مُغْلَقٍ، وَهِيَ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ عِنْدَهَا مِنَ الْحُلِيِّ وَالزَّيْنَةِ - وَرَبِّمَا مِنَ الْجَمَالِ - مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهَا، وَهُوَ فَتَاهَا أَيْضًا، لَيْسَ هُوَ أَكْبَرَ مِنْهَا شَرَفًا عِنْدَهَا، دَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا فِي مَكَانٍ خَالٍ وَهَمَّ أَنْ يَفْعَلَ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ قَدْ يَغِيبُ

عنها مُلَا حَظَةً أَمْرُ الرُّبُوبِيَّةِ، فَهَمَّ بِهَا لَكِنَّ هِيَ السَّابِقَةُ: هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ هَمَّ رَأَى بُرْهَانَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، أَرَاهُ اللَّهُ الْبُرْهَانَ الْآيَةَ، كَأَنَّهَا رُؤْيَا عَيْنٍ، فَامْتَنَعَ وَقَالَ: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ هَذَا صَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَصَبْرٌ عَظِيمٌ، فَتَى شَابٌّ مَعَ سَيِّدَتِهِ الْجَمِيلَةِ، فِي مَكَانٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَمَعَ هَذَا كَفَّ عَنْهَا.

وَأُوذِيَ فِي جَسَدِهِ، فَحَسِبَ، سُجْنَ وَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ صَبَرَ؛ حَتَّى إِنْ الْمَلِكُ لَمَّا قَالَ: ﴿أَتُونِي بِهِ﴾ أَبِي أَنْ يَخْرُجَ حَتَّى تُسْأَلَ النِّسْوَةُ مَاذَا حَصَلَ؛ لِتَبَيَّنَ بَرَاءَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ، وَهَذَا لَا شَكَّ صَبْرٌ عَظِيمٌ، لَكِنْ أَيُّ الصَّابِرِينَ أَعْظَمُ؟

الجوابُ: الأوَّلُ الصَّابِرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّ السَّجْنَ حَاصِلٌ حَاصِلٌ، صَبَرَ أَوْ لَمْ يَصْبِرْ، وَلَيْسَ بِاخْتِيَارِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هُوَ الْفَرْقُ إِذَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ شَيْءٌ مِنَ الْخَوْفِ قَالَ: قَدَّرَ اللَّهُ مَا شَاءَ فَعَلَ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؟

فالجوابُ: يَجُوزُ هَذَا وَهَذَا، قَدَّرَ اللَّهُ. هَذَا فِعْلٌ مَاضٍ، وَقَدَّرَ اللَّهُ. خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: هَذَا قَدَّرَ اللَّهُ.

فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يَتَضَمَّنُ كُلَّ الْأَقْسَامِ؛ وَهَذَا كَانَ نَبِيَّنَا ﷺ أَصْبَرَ النَّاسِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ، وَأَصْبَرَ النَّاسِ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، قَالَ: إِنْ مَا أَصَابَ الرَّسُلَ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالتَّعْذِيبِ أَشَدُّ مِمَّا أَصَابَ يُوسُفَ مِنْ اتِّهَامِهِ بِمَا اتُّهِمَ بِهِ؟

فالجوابُ: لِكُلِّ شَيْءٍ حُكْمٌ، فَيُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اتُّهِمَ بِمَا اتُّهِمَ بِهِ، وَعُذِّبَ

عليه، وسُجِنَ مع بَرَاءتِهِ وظُهُور بَرَاءتِهِ في النِّهَايةِ، وهؤلاء المُكذِّبِينَ بَعْضُهُم فُعل به أَكثَرَ مِمَّا فُعل بيُوسُفَ، من التعذيب، بل بَعْضُهُم قُتِلَ، فلكل شيء وجهٌ، ولا يُمكن المُقارَنَة بين هذا وهذا.

فإن قال قائلٌ: عَلِمْنَا أَنَّ فِرْعَوْنَ وهامانَ وقارونَ قد أَهلَكَهُم اللهُ عَزَّوَجَلَّ هل هلكوا كُلُّهُم مرَّةً واحِدةً، أم كل واحد على حِدة؟

فالجوابُ: أمَّا قارونُ فالله عَزَّوَجَلَّ بيَّن أَنَّهُ خُسِفَ به وبيداره الأرض، فليس مِمَّنْ هَلَكَ بالغرق، وأمَّا هامانُ فالظاهرُ أَنَّهُ هَلَكَ مع فِرْعَوْنَ.

فإن قال قائلٌ: هل سبب هلك قارونَ أَنَّهُ أَتى بامرأة غانية فافتَرَّت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ زنى بها؟

فالجوابُ: افتخاره بهاله هو الذي خَسَفَ به الأرض.

وقوله: ﴿إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ هذه جُملة مُؤدَّة بـ(إِنَّ) وَعَدَ اللهُ حَقًّا. ويقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [إِنَّ وَعَدَ اللهُ بَعْدَهُمْ حَقًّا] وهذا قُصور من المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ، بل إن وَعَدَ اللهُ بَعْدَهُمْ وَنَضَرَكَ حَقًّا، بل لو قُلْنَا بأنه أَعَمُّ من ذلك أيضًا، لولا أَنَّهُ في سِياق المُحاجَّة مع الكُفَّار لَقُلْنَا: إنه أَعَمُّ. إن وَعَدَ اللهُ حَقًّا في كل شيء؛ في عذاب هؤلاء، وَنَضَرَهُ، وفي الجَنَّة، وفي كل شيء.

وقوله: ﴿حَقًّا﴾؛ أي: أمر ثابت واقِع، فكلُّ ما وَعَدَ اللهُ به فهو حَقٌّ ثابت واقِع؛ لكَمال صِدْقِهِ وكَمال قُدْرَتِهِ؛ لأنَّ إخلاف الوَعْد يَأْتِي من أَحَد أمرين: إمَّا كَذِب الواعِد، وإمَّا عَجْزُهُ عن تَنفيذ ما وَعَدَ به، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُخْلِف المِيعاد؛ لكَمال صِدْقِهِ وكَمال قُدْرَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.



﴿فَكَيْفَ تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعُدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْتَنكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَكَيْفَ مَا تُرِيدُكَ﴾  
يقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ فِي إِعْرَابِهَا: [فيه (إِنْ) الشَّرْطِيَّةُ مُدْغَمَةٌ و(مَا) زَائِدَةٌ تُؤَكِّدُ مَعْنَى  
الشَّرْطِ أَوَّلَ الْفِعْلِ وَالنُّونُ تُؤَكِّدُ آخِرَهُ...] إِلَى آخِرِهِ.

﴿فَكَيْفَ مَا تُرِيدُكَ﴾ الْفَاءُ هَذِهِ عَاطِفَةٌ، وَ(إِنْ) شَرْطِيَّةٌ، وَ(مَا) زَائِدَةٌ لِلتَّوَكِيدِ،  
وَهِيَ كَزِيَادَتِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيُّ مَا تَدْعُونَ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿أَيُّ مَا﴾  
(مَا) زَائِدَةٌ، لَوْ حُذِفَتْ: وَقِيلَ: أَيُّ مَا تَدْعُونَ. اسْتَقَامَ الْكَلَامُ، لَكِنْ يُؤْتَى بِحُرُوفِ  
الرِّبَاذَةِ لِلتَّوَكِيدِ. ﴿فَكَيْفَ مَا تُرِيدُكَ﴾ لَوْ حُذِفَتْ (مَا) وَقَالَ: إِنْ تُرِيدُكَ. اسْتَقَامَ، لَكِنْهَا  
تَأْتِي لِلتَّوَكِيدِ.

﴿فَكَيْفَ مَا تُرِيدُكَ﴾ (نُرِي) فِعْلٌ مُضَارِعٌ، لَكِنَّهُ بُنِيَ عَلَى فَتْحِ آخِرِهِ، وَهِيَ الْيَاءُ؛  
لِاتِّصَالِهِ بِنُونِ التَّوَكِيدِ، وَالنُّونُ لِلتَّوَكِيدِ، وَالكَافُ مَفْعُولٌ بِهِ. التَّوَكِيدُ هُنَا فِي آخِرِ  
الْفِعْلِ، وَ(مَا) فِي أَوَّلِهِ، فَصَارَ هَذَا الْفِعْلُ -الَّذِي هُوَ الْإِرَاءَةُ- مُؤَكَّدًا بِمُؤَكِّدَيْنِ: (مَا)  
الزَّائِدَةُ فِي أَوَّلِهِ، وَنُونُ التَّوَكِيدِ فِي آخِرِهِ، وَالكَافُ هَذِهِ مَفْعُولُ أَوَّلِ، وَ﴿بَعْضَ﴾  
مَفْعُولُ ثَانٍ، وَ(نُرِي) الرَّؤْيِيَّةُ هُنَا بَصْرِيَّةٌ، لَكِنْ لَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهَا هَمْزَةُ التَّعْدِيَّةِ صَارَتْ  
نَاصِبَةً مَفْعُولَيْنِ، تَقُولُ: فُلَانٌ رَأَى النُّجْمَةَ. نَصَبَتْ مَفْعُولًا وَاحِدًا. فُلَانٌ أَرَى رَأَيْتَهُ  
النُّجْمَةَ. مَفْعُولَيْنِ. مِنْ أَجْلِ دُخُولِ الْهَمْزَةِ، عَلَى (رَأَى). هَذِهِ مِثْلُهَا؛ لِأَنَّ (نُرِي)  
رُبَاعِيٌّ أَصْلُهَا أَرَى يُرِي وَنُرِي.

﴿فَكَيْفَ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعُدُّهُمْ﴾ يَعْنِي: فَأَنْتَ تَرَاهُ. قَالَ الْمَفْسَّرُ: [﴿فَكَيْفَ مَا﴾  
تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعُدُّهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي حَيَاتِكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ أَي:  
فَذَلِكَ]، أَيْنَ جَوَابُ الشَّرْطِ (إِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَيْفَ مَا تُرِيدُكَ﴾؟ يَعْنِي: إِنْ أَرَيْنَاكَ بَعْضَ  
الَّذِي نَعُدُّهُمْ فَقَدْ رَأَيْتَهُ بِعَيْنِكَ وَأَقْرَبَ اللهُ عَيْنَكَ بِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ يَعْنِي: قَبْلَ أَنْ نُرِيَنَّكَ ﴿فَالِئِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ وَسُنْرِيكَ بِهِمْ، هَذَا تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ هَذِهِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ وَهِيَ قَسِيمٌ قَوْلُهُ: ﴿فَكَيْمًا نُرِيَنَّكَ﴾ يَعْنِي: إِمَّا أَنْ تَرَى الْعَذَابَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَإِمَّا أَنْ نَتَوَفَّاكَ ثُمَّ نُعَذِّبُهُمْ بَعْدَ الرَّجُوعِ إِلَيْنَا، وَهَذَا أَشَدُّ؛ فَإِنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى؛ وَهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup> عُوِّبَ فِي الدُّنْيَا بِمَالِهِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ مُجْتَمَعِهِ، وَإِلَّا تَرَكَهُ حَتَّى يُوَأْفَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَقِينَا وَإِيَّاكُمْ عَذَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَرْزُقَنَا الْعَافِيَةَ.

قال المفسر: [﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ فإلينا يرجعون ﴿فنعذبهم أشد العذاب﴾، فالجواب المذكور للمحذوف فقط]، أين المحذوف ﴿﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾﴾ يَعْنِي: إِذَا تَوَفَّيْنَاكَ فإلينا يُرْجَعُونَ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب الصبر؛ لأن الله تعالى أمر به في قوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ ووجه كونه واجباً: الأصل في الأمر الوجوب، وهذه المسألة اختلف فيها الأصوليون: هل الأصل في الأمر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الوجوب أو الأصل الندب؟ إن قلنا: الأصل الوجوب كان هذا المأمور به ملزماً به، وإذا قلنا: الندب؛ صار الإنسان بالخيار: إن فعله فهو خير، وإن تركه فلا شيء عليه.

وهذا محل إشكال في الواقع: عند التطبيق، وعند التدليل أيضاً فيه نظر.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨٧/٤)، وابن حبان رقم (٢٩١١)، من حديث عبد الله بن المغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أقول: الأصوليون اختلفوا في هذه الأمر هل هو للوجوب أو للندب؟ يعني: هو المراد الأمر المطلق المجرد عن القرينة، أمّا ما دلت عليه القرينة؟ فالأمر فيه واضح، إن دلت على الوجوب فهو واجب، وإن دلت على الاستحباب فهو مستحب، وإن دلت على الإباحة فهو مباح، وإن دلت على التهديد فهو للتهديد.

قوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ هل المعنى أن الإنسان يعمل ما يشاء، أو أن هذا تهديد؟ الجواب: تهديد. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾، لكن المراد الأمر المجرد عن كل قرينة؛ هل هو للوجوب أو للاستحباب؟ من العلماء من قال: إنه للوجوب، ولهم أدلة. ومنهم من قال: إنه للاستحباب، ولهم أدلة.

القائلون بالوجوب يستدلون بمثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قالوا: هذا يدل على الوعيد فيمن خالف أمر الله عز وجل فبدل إذن على أن الأمر للوجوب. وقالوا أيضًا: إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»<sup>(١)</sup> وهذا أيضًا يدل على الوجوب؛ لأنه قال: «فَأَتُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ» مثل هذا التعبير إنما يكون في الواجب «وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»؛ ولأنه يقبح عادة أن يقول السيد لعبده: افعل كذا. ثم يخالف، فتكون مخالفة الأمر قبيحة، والقبيح منهى عنه مكروه.

أمّا القائلون بأن الأصل في الأمر الاستحباب فيقولون: إن كونه مأمورًا به يدل على فعله، والأصل براءة الذمة، فلا تؤثم الإنسان إذا ترك ما أمر به إلا بدليل؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأن الأصل براءة الذمّة، ولأننا وجدنا مسائل كثيرةً وأدلة كثيرة فيها الأمر، أجمع العلماء على أنها للاستحباب، وهذا يؤهن القول بأن الأمر للوجوب.

توسّط قوم فقالوا: إذا كان الأمر في عبادة فهو للوجوب، وإذا كان في آداب فهو للاستحباب. وهذا أقرب من الإطلاق بأنه للوجوب، أو الإطلاق بأنه للاستحباب. يعني: هذا التفسير هو أقرب ما يكون، ومع هذا فليس بمنضبط، بل قد تأتي أوامر في الآداب وهي واجبة.

فنقول: الأصل أقرب ما يُقال في هذه المسألة: أن الأصل في الأوامر في التّعبد الوجوب؛ لأننا خلقنا للعبادة وأمرنا بها فتعبد. والأصل في الأوامر في غير العبادة -كالآداب مثلاً- للاستحباب، ومثل ذلك يُقال في النهي: هل هو للتّحريم أو للكره؟

الفائدة الثانية: إثبات وقوع وعد الله سبحانه وتعالى وأنه حق، ولا بُدّ أن يقع؛ لقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذه جملة مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾ تدلّ على أن وعد الله لا بُدّ أن يقع، ووعده كذلك حق، ولا بُدّ أن يقع، إلا أن يمين الله سبحانه وتعالى بالعفو، وإلا فالأصل أن وعده واقع. لا يُقال كما يقول بعض الناس: الوعيد ليس بواقع، وليس بحق، وأمّا الوعد فهو حق، نقول: كلّه حق، لكن الوعيد قد يعفو الله عزّ وجلّ عنه، والعفو كرم.

الفائدة الثالثة: أن وعد الله حق ثابت لا بُدّ أن يقع، وهو كذلك، ولقد صرح الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾.

الفائدة الرابعة: تهديد هؤلاء المكذّبين للرسول عليه الصلاة والسلام بأحد أمرين: إمّا بعقوبة عاجلة قبل أن يتوفّى، وإمّا بعقوبة آجلة في يوم القيامة؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ

تُرِيَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَقَّفَتِكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾.

الفائدة الخامسة: أن مرجع الأمور كلها إلى الله، وليست باختيار أحد، فهو الذي يُقدِّر ما شاء، سواءً في الدنيا أو في الآخرة؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَوَقَّفَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَقَّفَتِكَ﴾.

الفائدة السادسة: أن عذاب العدو يشفي غليل عدوه؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ تَرِيَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ فإن الإنسان إذا رأى عذاب الله تعالى لعدوه فلا شك أنه يشفي غليله.

الفائدة السابعة: أنه لا بأس أن تفرح إذا أصاب الله عدونا بمصيبة؛ لأن الظاهر أن قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَرِيَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ لأجل أن تقر عينه بذلك، فإذا أصيب أعداؤنا بخسف أو صواعق أو فيضانات، أو ما أشبه ذلك، وفرحنا بهذا، فلا لوم علينا؛ لأنهم أعداؤنا يفرحون بما يُصيبنا، فالجزء من جنس العمل.

الفائدة الثامنة: إثبات رجوع الخلق إلى الله؛ لقوله: ﴿فَالِئِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ وهذا عام في كل شيء، في الأحوال، والأوقات، وفي كل شيء، المرجع إلى الله وحده.

الفائدة التاسعة: إثبات كلام الله، أن الله يتكلم، يُؤخذ من قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾؛ لأن الوعد يكون بالقول، ولا شك أن الله تعالى يتكلم، وأنه لا نفاذ لكلماته، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] ﴿الْبَحْرُ﴾ اسم جنس يعُمُّ كل البحار، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله، سبحانه الله، لو كان حبرا يكتب به البحار كلها لنفدت قبل أن تنفد كلمات الله.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ يعني: لو أن الذي في

الأرض من الشجر كان أقلامًا ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ يعني: وكتب بالأقلام بمداد البحر، قال: ﴿مَا نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وهذا يدل على عظمة الرب عز وجل؛ لأنه مُدبر الكون، وإذا أراد أمرًا فإنها تقول له: كُنْ فيكون، ولا مُنتهى لإرادة الله.

وهل قول الله عز وجل قول مسموع بصوت، قول الله تعالى بصوت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، ولا نداء ومناجاة إلا بصوت، وورد الصوت صريحًا فيما ثبت عن النبي ﷺ أن الله تعالى يقول: «يَا آدَمُ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ - فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ اللهُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْنًا إِلَى النَّارِ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْنًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْتُ النَّارِ...» إلى آخره<sup>(١)</sup>. هذا صريح بأن الله يتكلم بصوت.

وهنا في هذه المسألة مذاهب، نذكر منها المذاهب المشهورة الثلاثة:

الأول: أنه يتكلم بصوت مسموع وحرف غير مخلوق؛ لأنه كلامه، وهذا مذهب السلف وأئمة الخلف أن الله يتكلم بصوت مسموع وحرف غير مخلوق، فكلامه عز وجل هو اللفظ والمعنى.

والقول الثاني: أن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع وحرف مخلوق، والكلام كلامه، وهذا مذهب الجهمية الذين يقولون: إن القرآن كلام الله ولكنه مخلوق؛ لأن كل كلام الله عندهم مخلوق.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والثالث: مَنْ يَقُولُونَ: إنه لا يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ ولا بِحَرْفٍ مَخْلُوقٍ، إِنَّهَا كَلَامُهُ هو المَعْنَى القَائِمُ فِي نَفْسِهِ، لَكِنْ يَخْلُقُ شَيْئًا يُعَبِّرُ عَنْ هَذَا الَّذِي فِي نَفْسِهِ، فَيُسْمَعُ هَذَا المَخْلُوقُ، وَيُضَافُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِضَافَةٌ تَكْرِيمٌ وَتَشْرِيفٌ، وَهَذَا مَذْهَبُ الأَشَاعِرَةِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الكَلَامِ.

والَّذِينَ يَقُولُونَ: هُمُ الَّذِينَ دَافَعُوا المَعْتَزِلَةَ عَنِ البَاطِلِ، وَهُمُ الَّذِينَ انْتَصَرُوا للإِسْلَامِ، وَهُمُ فِي الحَقِيقَةِ لا للإِسْلَامِ انْتَصَرُوا، وَلا لِحَرْبِ الإِسْلَامِ كَسَرُوا، بَلْ قَدْ نَقُولُ: قَوْلُهُمْ فِي الكَلَامِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الجَهْمِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ مَا يُسْمَعُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ مَخْلُوقٌ، وَعَلَى أَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ؛ لَكِنْ الجَهْمِيَّةُ يَقُولُونَ: مَخْلُوقٌ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ. وَهَؤُلاءِ يَقُولُونَ: مَخْلُوقٌ، وَلَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْهُ.

إِذَنْ: أَيْنَ كَلَامُ اللَّهِ؟ قَالَ: المَعْنَى القَائِمُ بِنَفْسِهِ، وَالحَقِيقَةُ أَنَّ المَعْنَى القَائِمَ بِنَفْسِهِ لَيْسَ كَلَامًا وَإِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ، عِلْمٌ بِمَا سَيُخْلَقُ مِنْ كَلَامٍ، فَيَقُولُ: هَذَا هُوَ كَلَامُهُ. وَالعَجِيبُ أَنَّهُمْ اسْتَدَلُّوا بِآيَةٍ وَشِعْرٍ نَظْمٌ، أَمَّا الآيَةُ فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨] فَأَثَبَتِ القَوْلَ النَّفْسِيَّ. أَمَّا الشُّعْرُ فَقَالُوا: إِنَّ الشَّاعِرَ قَالَ:

إِنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلًا<sup>(١)</sup>

الفُؤَادُ يَعْنِي: القَلْبَ.

فَنَقُولُ لَهُمْ: أَمَّا الآيَةُ فَلَا دَلَالَهَ فِيهَا لَكُمْ، بَلْ هِيَ عَلَى رُؤُوسِكُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

(١) البيت نسبة البعض إلى الأخطل، وليس في ديوانه، انظر: الموشى لأبي الطيب الوشاء (ص: ٨)، وتمهيد الأوتل لأبي بكر الباقلاني (ص: ٢٨٤)، والفصل في الملل والنحل للشهرستاني (٣/١٢٢)، ومجموع الفتاوى (٧/١٣٨).

لم يُطْلَقِ القَوْلُ، بل قَيَّدَ فقال: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا كَقَوْلِ الرِّسُولِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنِ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»<sup>(١)</sup> وَحَدِيثِ النَّفْسِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ حَدِيثٌ. وَلَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ قَوْلٌ إِلَّا بِقَيِّدٍ؛ وَلِهَذَا لَوْ حُذِفَتْ ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وَقِيلَ: وَيَقُولُونَ: لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ. يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ كَلَامُ اللِّسَانِ. لَكِنْ هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ يُقَدِّرُونَ، يَقُولُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ إِذَنْ مَا نَقَوْلُهُ حَقٌّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُعَذِّبْنَا، هَذَا يُقَدِّرُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ.

أَمَّا الشُّعْرُ فـ«إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ» فَهُوَ قَوْلُ الْأَخْطَلِ الشَّاعِرِ النَّصْرَانِيِّ، قَالَهُ بَعْدَ تَغْيِيرِ الْأَلْسُنِ، وَعَلَى فَرَضِ أَنَّهُ يُوَافِقُ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الْكَلَامَ الْمُعْتَبَرَ هُوَ مَا يُقَدَّرُ أَوَّلًا فِي الْفُؤَادِ ثُمَّ يَنْطِقُ بِهِ اللِّسَانُ؛ وَلِهَذَا لَا يُعْتَبَرُ الْكَلَامُ الَّذِي يَسْبِقُ عَلَى اللِّسَانِ كَلَامًا، وَلَا يُؤَاخَذُ بِهِ، فَالْكَلامُ الْحَقِيقِيُّ الرَّصِينُ الْمُعْتَبَرُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ أَوَّلًا فِي الْقَلْبِ ثُمَّ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ، هَذَا مَعْنَى الْبَيْتِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمُخَاطَبَةِ الْمَخْلُوقِ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، قَدْ يَتَكَلَّمَ بِمَا يُثْنِي بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: أَنَا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كَمَا يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ لَا يُجِيبُ أَحَدًا، فَيَقُولُ: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [غافر: ١٦].

وَنَقُولُ: الْكَلَامُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِالْكَمَالِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ مَوْصُوفًا بِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَيَّامِ وَالنَّذُورِ، بَابُ إِذَا حَنَثَ نَاسِيَا فِي الْأَيَّامِ، رَقْمُ (٦٦٦٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْأَيَّامِ، بَابُ تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنِ حَدِيثِ النَّفْسِ وَالْخَوَاطِرِ بِالْقَلْبِ، إِذَا لَمْ تَسْتَقِرْ، رَقْمُ (١٢٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



مُحَاطَب، وكذلك الأفعال، فالذين أثاروا مثلاً مسألة التَّسْلُس، وما أشبه ذلك، هم بَعِيدُونَ عن النُّصُوصِ فِي الْوَاقِعِ، وَإِلَّا لَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالْ فَعَالًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مُعْطَلًا عَنِ الْفِعْلِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْفِعْلِ الْمَفْعُولُ؟ حَتَّى نَحْنُ لَا يَلْزَمُ مِنْ فِعْلِنَا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَفْعُولٌ، قَدْ يَتَحَرَّكُ الْإِنْسَانُ وَلَا يُتَبَّعُ شَيْئًا، لَكِنَّ الْفِعْلَ يُقَالُ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَمُرَّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى زَمَانٌ مِنَ الْأَزْمِنَةِ وَهُوَ مُعْطَلٌ عَنِ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُقَالَ: تَعَطَّلَ هَذَا عَنْ عَجْزٍ، أَوْ عَنْ غَيْرِ عَجْزٍ. فَإِنْ قُلْنَا: عَنْ عَجْزٍ. فَهَذَا بَلِيَّةٌ، وَإِنْ قُلْنَا: عَنْ غَيْرِ عَجْزٍ. نَقُولُ: مَا الَّذِي يَمْنَعُهُ؟

إِذَنْ: فَالتَّسْلُسُ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ فِي الْمَاضِي، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مَمْنُوعًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، مَعَ أَنِّي أَنَا أَكْرَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي هَذَا؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ السَّلْفُ يَقُولُونَ بِهِ، لَكِنْ جَاءَنَا أَهْلُ الْكَلَامِ وَأَدْخَلُونَا فِي هَذِهِ الْمَعْمَعَةِ، وَصَارَ مَا كَانَ.



الآية (٧٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِنَايَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر: ٧٨].

•••••

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ إلى آخره. الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: اللّام، و(قد)، والقسم المحذوف، والتقدير: والله لقد أرسلنا رُسُلًا من قبلك، والرسول هو بشرٌ، يُوحى إليه بشرع، ويُؤمر بتبليغه؛ ولهذا سُمي رسولاً؛ أي: مدفوعاً من قبل الله عزَّوجلَّ ليبلغ، وأمّا النبيُّ فإنه بشرٌ أُوحى إليه بشرع، ولكنه لم يُكلّف بتبليغه، بمعنى: أنه يُجدد شرع من قبله إن كان قبله رسولٌ حتى يُحيي همّ الناس فيقتدوا به، وإذا لم يحتج الناس إلى رسول لم يُرسل إليهم أحداً، فإن آدم عليه الصلوة والسلام كان نبياً ولم يكن رسولاً، هو نبيٌّ يتعبّد لله تعالى بما أوحاه الله إليه، ولكن لم يُرسل؛ لأن الناس لم يختلّفوا بعد، كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فالرُّسل إنما أرسلوا بعد الاختلاف؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن تقدير الآية الكريمة: كان الناس أُمَّةً واحدةً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين. وقال: إن في الآية إيجاز حذف؛ أي: حُذِفَ منها ما دلَّ السِّياق على حذفه.

فَالرَّسُولُ بَشَرٌ أَوْحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

فإن قال قائل: في تعريف النبيّ أنّه الذي أمر بوحي ولم يُبلّغه؛ فكيف نُوفّق بينه وبين قول النبيّ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ خَيْرَ مَا يَعْرِفُهُ وَيَحْذَرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْرِفُهُ»<sup>(١)</sup>؟

فالجواب: هذا المراد بالنبيّ الرسول، المراد به الرسول؛ ولهذا تجد الآن في القرآن الكريم أنبياء هم رسل، لكن تُذكر بلفظ الأنبياء ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، ثم قال في الأخير: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهؤلاء الرسل كان يرسلون إلى أممهم فقط، كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث جابر: «وكان النبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً ويُبعث إلى الناسِ عامّةً»<sup>(٢)</sup> ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَّا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ كما قال الله عزّ وجلّ كلُّ أمةٍ أرسل الله إليها رسولاً لتقوم الحجة.

قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (من) هذه تبعية؛ أي: بعضهم قصصناهم عليك وأخبرناك بهم، وبعضهم لم نقصصهم عليك. قال أهل العلم: وإنما قصّ الله على رسوله ﷺ من كانوا من الجزيرة العربية وما حولها؛ لأن أخبار هؤلاء له بقية في العرب؛ فلهذا قصّه الله، أمّا من كانوا في

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أمريكا، أو في شرق آسيا، أو ما أشبه ذلك من الأماكن البعيدة فهؤلاء لم يقص علينا من نبئهم شيئاً.

قال المفسر رحمه الله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾  
 رُوِيَ أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ ثَمَانِيَةَ آلَافِ نَبِيٍِّّ؛ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ  
 مِنْ سَائِرِ النَّاسِ [وَجَدِيرٌ بِالْمَفْسَّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ يَقُولَ: [رُوِيَ] بِصِيغَةِ التَّمْرِيضِ؛ لِأَنَّ  
 هَذَا لَا يَصِحُّ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُتَأَخَّرُونَ عَنْ أُمَّمٍ كَثِيرَةٍ أَرْبَعَةَ  
 آلَافٍ، وَمَنْ سَائِرِ النَّاسِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ؟! هَذَا بَعِيدٌ، بَلْ إِنْ اللَّهُ أَرْسَلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ  
 وَحِينَ مَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ عَدَدِ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ قُلْنَا: لَنَا فَإِنَّهُ  
 لَيْسَ عَلَيْنَا، يَعْنِي: لَوْ قِيلَ لَنَا أَنْ نَبْحَثَ لِلإِطْلَاعِ لَمْ يَكُنْ سَائِغًا أَنْ نَقُولَ: عَلَيْنَا أَنْ  
 نَبْحَثَ. بَلْ نَقُولَ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ، مَنْ عَلِمْنَا مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ نَعْلَمْ.

قال المفسر رحمه الله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛  
 لِأَنَّهُمْ عِبِيدُ مَرْبُوبُونَ. قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ﴾ ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ، وَ﴿كَانَ﴾ فِعْلٌ مَاضٍ نَاقِصٌ،  
 وَ﴿لِرَسُولٍ﴾ خَبْرُهُ، وَ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ اسْمٌ (كَانَ)؛ أَي: وَمَا كَانَ إِتْيَانُ أَحَدِهِمْ  
 بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: أَنْ الرُّسُلَ  
 عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آتَاهُمْ آيَاتٍ، لَكِنْ هَلْ هُمُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ هَذَا؟

الجواب: لا، هذا من عند الله، ولكن الله تعالى بيّن أنه ما من رسولٍ إلا وأوتِيَ آية.

وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي: بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، حَتَّى يُؤْمِنَ الْبَشَرُ، وَحَتَّى لَا يَكُونَ  
 لَهُمْ حُجَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَوْ بَعَثَ رَسُولًا هَكَذَا إِلَى النَّاسِ وَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ،  
 وَلَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ، فَإِنَّ النَّاسَ لَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَإِلَّا لَأَمْكَنَ كُلُّ كَاذِبٍ أَنْ يَدَّعِيَ الرِّسَالَةَ،

لكن لا بُدُّ من آيات، آيات بيِّنات واضحة على أنه رسول، ومع هذا لا يُمكن لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله.

وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الإِذْنُ الكَوْنِي، فإذا أذن الله كَوْنًا أن يأتي الرسول بآية أتى بآية، والرسول قد يأتي بآية ابتداءً وقد يأتي بآية بطلب من المرسل إليهم، كما قيل: بل قد جاء في الحديث الصحيح: إِنَّ قُرَيْشًا قَالُوا لِلرَّسُولِ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: أَرِنَا آيَةً. فَأَشَارَ إِلَى الْقَمَرِ، فَانْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا عَلَى الصَّفَا، والثانية على المروة<sup>(١)</sup>، وشاهد الناس ذلك، ولكن مع ذلك ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمَرٌّ﴾ [القمر: ٢٠] قالوا: إن مُحَمَّدًا سَحَرَنَا، والقمر لم يتصدع، ولكن لما لم يُعِينُوا الآية التي طلبوها لم يُؤَاخِذُوا بِالْعِقَابِ؛ لأن الأمم إذا عَيَّنُوا الآية التي طلبوها ثم لم يُؤْمِنُوا عاجلهم الله بالعقوبة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ ﴿بِآيَةٍ﴾ أي: علامة على صدقه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهنا قال: (آية) ولم يقل: بمُعْجِزَةٍ، وقد جرى على ألسنة كثير من العلماء رَحْمَهُمُ اللَّهُ تسمية آيات الأنبياء بالمُعْجِزَات، ولكن هذه التسمية غير سديدة، بل الأولى أن نُعَبِّرَ بِآيَةٍ، نقول: آية النبي، ولا نقول: مُعْجِزَةٍ؛ أوَّلاً لأن هذا هو التعبير القرآني، وثانياً لأن المُعْجِزَةَ تأتي من الرسول، وتأتي من الساحر، وتأتي من الشياطين، يأتي من هؤلاء ما يعجز عنه البشر.

فالتعبير السليم أن نُعَبِّرَ بِآيَةٍ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، رقم (٣٦٣٦)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأول: لموافقة القرآن.

والثاني: لأن المعجزة تكون من الرسول وغيره.

والثالث: أن كلمة (آية) فيها إشارة إلى أن ما جاء به هذا الرسول مما يعجز البشر آية، علامة.

فهذه ثلاثة أشياء تُبَيِّنُ رُجْحَانَ التَّعْبِيرِ بآية على التعبير بمُعْجِزَة.

قال المفسر رحمه الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ﴿بُنُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ ﴿فُضِيَ﴾ بين الرُّسُلِ ومُكذِّبِهَا ﴿بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] أي: ظهر القضاء والخسران للناس، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك].

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ﴿أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى الْكَوْنِيَّ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَوْنِيٍّ، وَشَرْعِيٍّ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ﴿بُنُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَنُزُولِ النَّصْرِ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

وقوله: ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ والقاضي هو الله عزَّ وجلَّ، وحذف الفاعل هنا للعلم به؛ لأن الله تعالى هنا هو الذي يقضي بالحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]، ويحذف الفاعل أحياناً للعلم به، كما في قوله: ﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وكما في هذه الآية، وقد يُقال: إنه حذف الفاعل هنا للتعميم؛ ليكون القاضي هو الله، وكذلك القاضي بالحق هم الرُّسُلُ وأتباعهم؛ لأنهم قضوا بالحق بالانتصار على عدوهم، لكن الأول أولى، أن يكون الفاعل واحداً، ولكن حذف للعلم به: ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾.

﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ هنا الحُسران: فوات الرِّيح، و(هنا) اسم إشارة للمكان، والمراد به الزَّمان؛ ولهذا قال المفسِّر: [في كل وقت] المعنى: حَسِرَ في ذلك الوقتِ المُبْطِلون.

فإذا قال قائل: أَلَسْتُمْ تقولون: إن (هنا) إشارة إلى المكان؟

قلنا: بلى، لكن قد تُستعار إشارة للزَّمان. واللَّام في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ للبعد، والكاف حَرْفِ خِطَابٍ ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين وقَعوا في الباطل؛ لأنَّ القَضَاءَ بالحقِّ يَقتَضِي زوال الباطل، وإذا زال الباطل حَسِرَ أهله، والباطل ضدُّ الحقِّ، ويُفسَّر في كل مَوْضِعٍ بحسبه، فالباطل في الكلام الخَبْرِيُّ هو الكذب، والباطل في الحُكْمِ الجور، والباطل في المعاملة العِشُّ، وما أشبه ذلك.

المهمُّ: أن الباطل يُفسَّر في كل مَوْضِعٍ بحسبه.

وقول المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [وهم خاسرون في كلِّ وقت] احتِرازًا من الإشارة في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ لئلا يَظُنَّ ظانُّ أنهم خاسرون حين نُزول العذاب فقط، مع أنهم خاسرون كلِّ وقت، وقد يُقال: لا حاجة إلى ذلك -يعني: لا حاجة إلى ما قال المفسِّر- لأن المقصود: وحَسِرَ هُنَالِكَ، أي: ظَهَرَت خَسارتهم وبناتٌ؛ لأنه قبل أن يُؤتوا بالعذاب ربما يقول القائل: إنهم ربحوا، كما قال أبو سُفيان في يوم أُحد، قال: يَوْمَ بَدْرٍ، والحَرْبُ سِجَالٌ<sup>(١)</sup>. فظنَّ أنه ربح في ذلك اليوم، فالأوَّلُ أن تَبَقَى الآية على ظاهرها، وألَّا يُستَدْرَك القرآن، فيقال: ﴿حَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: ظَهَرَ حُسْرانهم وبنان.

أمَّا حُسْرانهم قبل نُزول العذاب فهو ليس بيِّن، إذ قد يقول القائل: إنهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم

(٣٠٣٩)، من حديث البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يَرَبِحُونَ فِيهَا إِذَا أَدَّاهُ لَمْ يَكُنْ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْإِسْلَامِ إِدَالَةً غَيْرَ مُسْتَقَرَّةٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ اللهُ يُدِيلُ الْكُفْرَ عَلَى الْإِسْلَامِ إِدَالَةً مُسْتَقَرَّةً، بَلْ مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ هَذَا فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنًّا سَوِيئًا، لَكِنَّ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الرُّسُلِ السابقين؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾.

الفائدة الثانية: عدل الله عَزَّوَجَلَّ فِي عِبَادِهِ؛ حَيْثُ لَمْ يُعَاقِبِهِمْ إِلَّا بَعْدَ إِسْرَائِلِ الرُّسُلِ، وَتَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ.

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى أَنَّهُ لَا رَسُولَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: سُرِّسِلْ. وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ فِي الْوَاقِعِ لَيْسَتْ بِتِلْكَ الْقَوِيَّةِ؛ يَعْنِي: مَأْخُوضَةٌ مِنَ الْآيَةِ، لَوْلَا الْوَاقِعُ مَا أَخَذْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَتَحَدَّثُ عَنْ شَيْءٍ مَضَى.

الفائدة الرابعة: أَنَّ مِنَ الرُّسُلِ مَنْ قَصَّه اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْصِهِ؛ لقوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَّصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

الفائدة الخامسة: إثبات كلام الله؛ لقوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَّصْنَا﴾ وَالْقِصُّ فِي الْأَصْلِ: تَتَّبِعُ الْأَثْرَ، وَأَمَّا فِي الْكَلَامِ فَهُوَ ذِكْرُ أَخْبَارٍ مِنْ سَلْفٍ، وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ، وَلَكِنْ هَلْ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ أَوْ لَا؟ نَعَمْ، يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ.

الفائدة السادسة: إثبات حكمة الله عَزَّوَجَلَّ فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ حَيْثُ قَسَمَ إِلَى مَنْ قُصَّ عَلَيْنَا نَبُوهُمْ وَمَنْ لَمْ يَقْصَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحِكْمَةِ عَظِيمَةٍ بِالْغَةِ.



الفائدة السابعة: أن الرُّسُلَ عليهم الصلاة والسلام أيدهم الله تعالى بالآيات؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

الفائدة الثامنة: أن الرُّسُلَ لا يملكون إيجاد الآيات مَهْمَا بَلَغَتْ مَنْزِلَتَهُمْ؛ فإنهم لا يملكون أن يأتوا بآية واحدة؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

الفائدة التاسعة: تسليية الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ الْكُفَّارَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ آيَاتٍ، ولكن الله تعالى يقول: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يُسَلِّي الرَسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأن هذا الأمر ليس إليك، بل هو إلى الله، إذا شاء أن يُؤْتِيكَ آيَةً أَتَاكَ، وَإِلَّا فَهُوَ الْحَكِيمُ.

الفائدة العاشرة: إثبات الإِذْنِ لِهَذَا عَزَّجَلَّ، وَالِإِذْنَ نَوْعَانِ: إِذْنٌ شَرْعِيٌّ، وَإِذْنٌ كَوْنِيٌّ، فَالِإِذْنَ الْكَوْنِيُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَإِيجَادُهَا، وَإِعْدَامُهَا، وَتَغْيِيرُهَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَالِإِذْنَ الشَّرْعِيُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَشْرُوعَاتِ؛ فَلِنَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا﴾ [يونس: ٥٩]، شَرْعِيٌّ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كَوْنِيًّا، لِأَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلُوهُ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] أي: لم يَأْذَنْ بِهِ شَرْعًا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِذْنَ هُنَا إِذْنًا كَوْنِيًّا؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا شَرْعًا هُوَ لِإِذْنًا كَوْنِيًّا.

وقال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. هو يوم

القيامة، لكن أين الشَّرْعُ؟

الجواب: الشَّفَاعَةُ؛ إِذْ يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ يُخَفِّفَ الْعَذَابَ عَنْ شَخْصٍ

أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أَوْ يَرْفَعُ دَرَجَاتِهِ، وَهَذَا إِذْنٌ كَوْنِيٌّ لَا شَكَّ.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات أفعال الله الاختيارية؛ يعني: أن الله تعالى قد يحدث من أمره ما شاء؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ و(إذا) هنا شرطية للمستقبل، إذن الأمر لم يأت بعد.

وهذا يدلُّ على أن الله سبحانه وتعالى مُتَّصِفٌ بالأفعال الاختيارية خلافًا للأشاعرة ونحوهم الذين قالوا: إن الله تعالى لا يُوصَفُ بالأفعال الاختيارية، كيف يُوصَفُ بالأفعال الاختيارية؟! إذا قلنا: يُوصَفُ، قالوا: هذا يقتضي أحد أمرين: إمَّا أن يكون الله حادثًا، وإمَّا أن يكون ناقصًا.

أمَّا كونه يستلزم أن يكون الله حادثًا فلأنَّ الحوادث لا تقوم إلا بحادث، فإذا أثبتُّم أن الحوادث تقوم به لزمكم أن يكون الله حادثًا؛ لأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، هذه واحدة.

أمَّا النقص فنقول: إذا كان هذا الفعل الذي فعله الآن كما لا فلماذا لم يتَّصِفْ به من قبل؟ إذا كان كما لا فلماذا يحدث بعد أن لم يكن؟ وإن لم يكن كما لا فهو نقص يجب أن يُنزَهَ الله عنه. وهذا لا شك أنه تلييس. أمَّا الأوَّل فقولهم: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث. نقول: من أين أتاكم هذا؟ أم من جيوبكم، أم من آرائكم الفاسدة؟

مَنْ قال: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث؟ الحوادث تحدث قبل أن تكون ونحن سابقون عليها، فكذلك ما يحدثه الله عزَّ وجلَّ يحدثه وهو سابق عليه، وسبقه أزلِّي، فدعواكم هذه باطلة تحتاج إلى دليل، ولا دليل، بل الدليل على نقضها.

وأمَّا قولكم: إن كان كما لا فلماذا لم يتَّصِفْ به من قبل؟ وإن لم يكن كما لا فهو نقص، فيجب نفيه، نقول: هذا أيضًا باطل؛ لأننا نقول: إن فعل الله الذي يحدثه هو

كَمَالٍ حَالِ إِحْدَاثِهِ، وَلَيْسَ كَمَا لَآ حَالِ عَدَمِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُتَّصِفٌ بِالْكَمَالِ، فِي حَالِ عَدَمِهِ لَا يَكُونُ كَمَا لَآ، وَفِي حَالِ وُجُودِهِ يَكُونُ هُوَ الْكَمَالُ، وَهَذَا وَاضِحٌ، فِعْلُ الْإِنْسَانِ أَحْيَانًا يَكُونُ مُنَاسِبًا وَفِي مَحَلِّهِ، وَأَحْيَانًا يَكُونُ غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَتَكُونُ الْحِكْمَةُ أَلَّا يَفْعَلَهُ.

وَبِذَلِكَ نَعْرِفُ أَنَّ الرَّجُوعَ إِلَى الْعَقْلِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَزُلُّ وَقَدْ يَهِنُ، فَالرَّجُوعُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا ثَالِثَ لِهَمَا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِجْمَاعُ السَّلَفِ أَيْضًا يُرْجَعُ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ مَصْدَرُ التَّلَقِّيِّ فِي الْعَقِيدَةِ وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ثَلَاثَةٌ: الْقُرْآنُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ، لَكِنَّا نَقُولُ: لَا حَاجَةَ إِلَى قَوْلِ إِجْمَاعِ السَّلَفِ؛ لِأَنَّ إِجْمَاعَ السَّلَفِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةٌ: تَهْدِيدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ وَوَجْهُ التَّهْدِيدِ أَنَّ عُلَمَاءَ الْبَلَاغَةِ يَقُولُونَ: إِنْ (إِذَا) تُفِيدُ وَقَوْعَ الشَّرْطِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا إِذَا قُلْتَ لَكَ: إِذَا جَاءَ زَيْدٌ فَأَكْرِمْهُ. تَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ زَيْدًا سَوْفَ يَأْتِي، لَكِنَّهُ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ مُتَأَخِّرًا، بِخِلَافِ (إِنْ)، فَإِنْ (إِنْ) شَرْطِيَّةٌ لَكِنِ لِلْمُحْتَمَلِ: إِنْ جَاءَ زَيْدٌ فَأَكْرِمْهُ. إِذْ مَجِيئُهُ لَيْسَ مُحَقَّقًا، لَكِنِ: إِذَا جَاءَ فَأَكْرِمْهُ، يَكُونُ الْمَجِيءُ مُحَقَّقًا، لَكِنَّهُ مَرْبُوطٌ بِزَمَنِ مُسْتَقْبَلٍ. هَذِهِ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ تُفِيدُ أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ.

وَأَمْرُ اللَّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَوْنِيٌّ، وَشَرْعِيٌّ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] شَرْعِيٌّ، وَلَيْسَ كَوْنِيًّا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَوْنِيًّا لَكَانَ كُلُّ النَّاسِ يُؤَدُّونَ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، إِذَنْ هُوَ شَرْعِيٌّ؛ وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ﴾

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ كَوْنِي، فصار الأمر الآن يكون كونياً ويكون شرعياً.

الفائدة الثالثة عشرة: أن ما قضى الله تعالى من عقاب أو عذاب فإنه حق؛ لقوله: ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ وعلى هذا ينتهي بذلك أن يكون الله تعالى ظالماً لمن عاقبه.

فإن قال قائل: أليست العقوبة تنزل بالأمّة وفيهم الصالحون؟

فالجواب: بلى، تنزل العقوبة على الأمّة وفيهم الصالحون؛ لكنها تكون عقوبة على المسيء ورفعة درجات وتكفير سيئات على الصالح؛ ولهذا لما قالت إحدى أمّهات المؤمنين: أمهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثرت الخبث»<sup>(١)</sup> فإذا غلب الخبث على الطيب حلت العقوبة على الجميع.

الفائدة الرابعة عشرة: أن المبطل خاسر إذا نزل به العذاب؛ لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ وإذا كان المبطل خاسراً فالمصلح رابح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]؛ ولهذا إذا كان الأهل مصلحين فإن الله لا يهلك الأمّة، لكن إذا كانوا صالحين فقد تهلك الأمّة إذا كثرت الخبث، وهذه نقطة قد لا يتفطن لها كثير من الطلبة، انتفاء الإهلاك إذا كان الأهل مصلحين ومحاولين للإصلاح، أمّا إذا كانوا صالحين فإنه قد يقع الإهلاك إذا كثرت الخبث، أمّا مع الإصلاح ولو كثرت الخبث ما دامت الأمّة تُحاول الإصلاح وتسعى به فإنها لن تهلك، وهذه نقطة - كما قلت لكم - قد لا يتفطن لها كثير من الناس، نسأل الله أن يُصلح أحوالنا وأحوالكم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، رقم (٧١٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن، رقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فإن قال قائل: قلنا: من عدل الله عز وجل أنه لا يُعذّب العباد إلا بعد أن أرسل إليهم الرُّسل، في هذه الأيام هل هناك ضابط للعُذر بالجهل في الذين يَقعون في الباطل وعلى اعتقادهم أن هذا صوابٌ؛ فهل يُعذرون بجهلهم هذه الأيام؟

فالجواب: والله، قد يُعذرون بجهلهم؛ لأن من العوامِّ من لا يعرف الحقَّ إلا عن طريق ناس مُعيَّنين، وهؤلاء الأناسُ المُعيَّنون مُنحرفون، فيُعذرون، وربما أناس في الغابات البعيدة لا يسمعون إذاعات، ولا يقرؤون صحفًا، ولا يعرفون شيئًا.

فإن قال قائل: أورد بعض المُستشرقين على قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] على أن هناك فترات بين الأنبياء.

فالجواب: لا، هذا غلط؛ لأنه إذا جاء النذير ليس معناه أن النذير يبقى نذيرًا ما دام حيًّا فقط، قد تبقى الرسالة، أليست رسالة إسماعيل وإبراهيم عليه الصلاة والسلام بقيت في العرب إلى قُرب بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام أول ما دخل الشرك على العرب من عمرو بن لُحيِّ فهو متأخر.



الآيتان (٧٩، ٨٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قيل: الإبل خاصة هنا، والظاهر: والبقر والغنم].

قوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ ﴾، ﴿ جَعَلَ ﴾؛ أي: سَيَّرَهَا مُسَخَّرَةً لَكُمْ، وَالْجَعَلَ هُنَا جَعَلَ كَوْنِيًّا؛ لِأَنَّ الْجَعَلَ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَكُونُ كَوْنًا وَيَكُونُ قَدْرًا، يَعْنِي: يَكُونُ جَعْلًا كَوْنِيًّا وَيَكُونُ جَعْلًا قَدْرِيًّا شَرْعِيًّا؛ فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣]، هَذَا الْجَعْلُ شَرْعِيٌّ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ هَذَا جَعْلٌ كَوْنِيٌّ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى هُنَا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ ﴾ جَعَلَ كَوْنِيٌّ.

والأنعام جمع نَعَمٍ. قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قيل: الإبل خاصة. والظاهر والبقر والغنم]، بل والظاهر ما هو أعمُّ من ذلك، وهو ما أنعم الله به علينا من الحيوان الذي سخره لنا من إبل وبقر وغنم وفيلة وغيرها، وكل شيء.

وقوله: ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ قَسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَنْعَامُ

إلى قِسْمين: قِسْم تُرْكَب، وقِسْم تُؤْكَل ولا تُرْكَب. وعلى هذا تكون ﴿مِنْ﴾ في المَوْضِعين للتَّبْعِيض، وعلامة (مِنْ) الَّتِي للتَّبْعِيض أن يَحِلَّ مَحَلَّهَا كَلِمَةً (بَعْض)، فهُنَا احْدَفَ ﴿مِنْ﴾ وَقُلْ: «لَتَرْكَبُوا بَعْضَهَا، وَبَعْضَهَا تَأْكُلُونَ» يَسْتَقِيمُ الكَلَامُ، فَهَذِهِ عَلَامَةٌ (مِنْ) التَّبْعِيضِيَّة، أن يَحِلَّ مَحَلَّهَا كَلِمَةً (بَعْض).

وقوله: ﴿مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذا التَّقْسِيمُ لا يَعْنِي الانْقِسَامَ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ أن يُوجَدَ مِنَ الأَنْعَامِ مَا يُؤْكَلُ وَمَا يُرْكَبُ؛ مِثْلُ: الإِبِلِ؛ فَإِنِهَا تُؤْكَلُ وَتُرْكَبُ.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ قال المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [مِنَ الدَّرِّ والنَّسْلِ والوَبَرِ والصُّوفِ]، يَعْنِي: والشَّعْرَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ المَنَافِعِ، كَنَقْلِ البَضَائِعِ وَغَيْرِهَا؛ وَهَذَا جَاءَتْ كَلِمَةٌ «مَنَافِعُ» جَمْعَ (مَنْفَعَةٍ) بِصِيغَةٍ مُتَّهَى الجُمُوعِ، وَصِيغَةٌ مُتَّهَى الجُمُوعِ مَا كَانَتْ عَلَى وَزْنِ (مَفَاعِلِ) أَوْ (مَفَاعِيلِ).

قوله: ﴿وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [هِيَ حَمَلُ الأَثْقَالِ إِلَى البِلَادِ] ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى أَفْئِكَ تُحْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ فَسَّرَهَا المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ بِأَنَّهَا حَمَلُ الأَثْقَالِ، وَلَكِنِ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا غَيْرُ ذَلِكَ، وَأَنَّهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ﴾ يَعْنِي: مَا يَكُونُ فِي قَلْبِ الإنسانِ مِنَ مَحَبَّةِ الفَخْرِ والحَيَلَاءِ وَغَيْرِهَا، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الحَاجَاتُ قَدْ تَكُونُ مَمْنُوعَةً كالفَخْرَ والحَيَلَاءِ، لَكِنِ لا شَكَّ أن هَذِهِ حَاجَةٌ لِكُلِّ إنسانٍ، أَنَّهُ يَجِدُ فَرَحًا وَسُرُورًا إِذَا غَنِمَ كَثِيرًا مِنَ المَوَاشِي، مِنَ الإِبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ والطَّبَّاءِ والأَرانِبِ، وَغَيْرِهَا، يَجِدُ الإنسانُ لِهَذَا طَعْمًا فِي نَفْسِهِ، وَيُمَكِّنُ أن يُقَالَ أَيضًا: وَمِنَ الحَاجَاتِ فِي النَفْسِ الأَثْقَارِ

بها، فإن بعض الناس يَتَّجِرُ بهذه الأنعام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ نوع الحاجة، فيشْمَل كل ما يَقَع في القَلْب من مثل هذه الأُمُور.

وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرِّ، ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ السُّفُن في البَحْر: ﴿تُحْمَلُونَ﴾]. يَبَيِّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن هذه الأنعام تُحْمَل عليها، وكذلك السُّفُن كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٣) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

#### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: يَبَيِّنُ نِعْمَةَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْنَا بهذه الأنعام؛ حيث جعلها لنا مُسَخَّرَةً مُذَلَّلَةً.

الفائدة الثانية: جَوَّاز رُكُوب الأنعام وأكلها، ومن المَعْلُوم أن هذا ليس على إطلاقه؛ فإن الذي يُرَكَب لا يُرَكَب على وَجْهٍ يَشُقُّ عليه، لو أراد إنسان أن يَرَكَب على بهيمة وهي لا تُطِيق أَكْثَرَ من واحد فأردف عليها، قلنا: هذا لا يَجُوز؛ لما في ذلك من المَسَقَّة. وكذلك أيضًا: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ليس على إطلاقه؛ إذ من هذه الأنعام ما لا نَأْكُلُه؛ مثل: الحُمُر؛ فإنها لا تُؤْكَل، ولكنها تُحْمَل عليها وتُرَكَب.

الفائدة الثالثة: أن الأَصْل جَوَّاز كل ما يُتَفَقَّع به من وُجُوه الانتِفَاع في هذه الأنعام ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ وبنَاءً على ذلك يَجُوز أن يُرَكَب ما لا يُرَكَب عادة إذا لم يَشُقُّ عليه؛ لأن ذلك من المَنَافِع، فلو كان مع الإنسان بَقَرَةٌ واحتاج إلى أن يَرَكَب عليها - لأن بعض الحيوان الذي لم يَعْتَد أن يُرَكَب يَشُقُّ عليه هذا، حتى وإن كان



يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَهُ - قُلْنَا لَهُ: ارْكَبْ؛ لَأَنْ هَذِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَطْلَقَ الْمَنَافِعَ مَا لَمْ يَشُقَّ عَلَيْهَا، فَإِنْ شَقَّ عَلَيْهَا كَانَ مَمْنُوعًا؛ لَأَنْ إِذْءَاءَ الْحَيَوَانَ مُحْرَمٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بَعْضُ النَّاسِ يَسْتَخْدِمُونَ هَذِهِ الْأَنْعَامَ فِي مَا يُسَمَّى بِالسَّيْرِكِ أَوْ الْأَلْعَابِ الْبَهْلَوَانِيَّةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مِمَّا يَكُونُ فِيهِ الْمَوْسِيقَى وَأَشْيَاءُ أُخْرَى، هَلْ هَؤُلَاءِ النَّاسُ آثِمُونَ؟

فَالْجَوَابُ: مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا هُوَ مُحْرَمٌ قَصْدًا أَوْ ذَاتًا؛ هَذَا لَا يَجُوزُ، حَتَّى لَوْ رَكِبَ هَذِهِ الْأَنْعَامَ لِيَصِلَ إِلَى بَلَدٍ يُفَعَّلُ فِيهِ الْفَوَاحِشُ، أَوْ يُلْعَبَ فِيهِ الْقَهَارُ؛ كَانَ هَذَا حَرَامًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوَازُ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ مِنَ الْفَرَحِ وَالسَّرُورِ بِهَذِهِ الْأَنْعَامِ؛ بِشَرَطِ الْأَلَّا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى الْكِبْرِيَاءِ وَالْحَيْلَاءِ، فَمَا دَامَ هَذَا الْفَرَحُ فِي نِطَاقِ الْأَمْرِ الْمُبَاحِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُلَامُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مِمَّا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: بَيَانُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِحَمْلِنَا عَلَى هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَعَلَى الْفُلْكِ؛ يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَنَا مَا نَرَكِبُهُ فِي الْمَاءِ وَمَا نَرَكِبُهُ فِي الْبَرِّ. وَهَذَا تَسْخِيرٌ ثَالِثٌ حَدَثَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ مَا نُحْمَلُ عَلَيْهِ فِي الْجَوِّ، فَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِمَرَائِبِ جَوِّيَّةٍ وَبَحْرِيَّةٍ وَبَرِّيَّةٍ.



## الآية (٨١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ [غافر: ٨١].

•••••

﴿ وَيُرِيكُمْ ﴾؛ أي: يُظهِرُهَا لَكُمْ حَتَّى تَرَوْهَا، وعلى هذا ف(يُرِي) من الرُّبَاعِي لا من الثَّلَاثِي؛ لأنها من (أَرَى) (يُرِي)؛ أي: أَظْهَرَ الشَّيْءَ حَتَّى يَرَاهُ الْإِنْسَانُ. وقوله: ﴿ آيَاتِهِ ﴾ جَمْعُ (آيَةٍ)، والآية هي العَلَامَةُ على الشَّيْءِ، كما قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس: ٤١]، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، أي: عَلَامَةٌ. فما هي العَلَامَةُ؟ الآيَةُ عَلَامَةٌ على ما يَخْتَصُّ بِهَا من صِفَةٍ؛ فمثلاً: إذا نَزَلَ الْغَيْثُ وَأَنْبَتَتِ الْأَرْضُ فَهُوَ آيَةٌ على رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، إذا اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا، أو خُسِفَتْ بِأَهْلِهَا فَهُوَ آيَةٌ على سَخَطِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ وعلى قُدْرَتِهِ؛ حيث يُزَلِّزُ هَذِهِ الْأَرْضَ الْكَبِيرَةَ الْعَظِيمَةَ فَيَكُونُ هَذَا آيَةً على ما يَخْتَصُّ بِهِ.

فَالآيَاتُ إِذْنُ آيَاتٍ على ما يَخْتَصُّ بِهِ من صِفَةٍ، لا نَقُولُ: إنها كُلُّهَا آيَةٌ على شَيْءٍ وَاحِدٍ، بل نَقُولُ: منها ما يَكُونُ آيَةً على الرَّحْمَةِ، وآيَةً على الْعِزَّةِ، وآيَةً على الْحِكْمَةِ، وآيَةً على الْقُدْرَةِ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

إذن: ﴿ آيَاتِ ﴾ نَقُولُ: جَمْعُ (آيَةٍ) وَهِيَ الْعَلَامَةُ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ لَا تَدُلُّ كُلُّهَا على شَيْءٍ مُعَيَّنٍ، بل لِكُلِّ آيَةٍ ما يَخْتَصُّ بِهَا.

﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ﴿ فَأَيَّ ﴾ هنا اسْتِفْهَامِيَّةٌ مَنْصُوبَةٌ على أنها مَفْعُولٌ

مُقَدَّم لقوله: ﴿تُنْكِرُونَ﴾. وأسألکم: لو كانت الآية تُنْكِرُونها أو تُنْكِرُونه فهل تُنْصِب (أي) أو تُرْفَعها؟

الجواب: تُرْفَعها، ويجوز النَّصْب؛ لأن هذا يكون من باب الاشتغال، وأضرب لكم مثلاً من عندي حتى لا نتصَّرف في كلام الله، لو قلت: (زَيْدًا أَكْرَمْتُ) هنا يَتَعَيَّن النَّصْب على أنه مَفْعول مُقَدَّم، ولو قلت: (زَيْدٌ أَكْرَمْتُهُ) فهنا يجوز الِوَجْهان، والرَّفْع أرجح؛ لأنه الأصل، أمَّا النَّصْب فيكون على سبيل الاشتغال، وعليه فإذا جاء مَعْمولٌ مُقَدَّم وعاملٌ مُؤَخَّر لم يَسْتَوْفِ عَمَله فإنه يَجِب أن يكون هذا المَعْمولُ السَّابِقُ حَسبها يَقْتَضِيه هذا العَامِلُ.

قال المفسر رحمه الله: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالَّة على وَحْدَانِيَّتِهِ [يَعْنِي: لو قال المفسر: ما هو أَعْمٌ. لكان أَحْسَنَ؛ لأنها ليست آياتٍ دالَّة على وَحْدَانِيَّة فقط، بل على الِوَحْدَانِيَّة وعلى ما يَخْتَصُّ بِتِلْكَ الآية.

قال المفسر رحمه الله: ﴿تُنْكِرُونَ﴾ اسْتِفْهَام تَوْبِيخٍ [يَعْنِي: قوله: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ وهو أيضًا اسْتِفْهَام تَحَدٍّ، فهو جامع بين التَّوْبِيخ والتَّحَدِّي، يَعْنِي: هذه آياتٌ ظاهرة لا يُمكنكم أن تُنْكِرُوها، قال رحمه الله: [وتذكير (أي) أشهر من تأنيثها]؛ لأنه يُقال: (آية) ويُقال: (أي) وعلى كلام المفسر يكون التَّذْكِيرُ أَشْهَرَ من التَّأْنِيثِ ولو كان المُشارُ إليه مُؤنَّثًا؛ ولهذا قال: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾، و﴿آيَاتِ﴾ مُؤنَّث، ولم يُقل: (فأية آيات الله) لكن في غير القرآن لو قيل: (فأية آيات الله) لكان هذا سائغًا، إلا أنه مرجوح.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده بإراءاتهم الآيات الدالة عليه، ولو شاء الله لأخفى عنا ذلك، ووكلنا إلى ما في نفوسنا وفطرنا، ولكن من رحمته أنه يُظهر الآيات حتى يكون هذا عوناً على ما في الفطرة من معرفة آيات الله عز وجل.

الفائدة الثانية: جواز تحدي الإنسان بما يعترف به لولا الجحد؛ لقوله: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾.

وهل تعرف أن أحداً جحد الآيات مع تيقنه بها؟

الجواب: فرعون وقومه؛ فإنهم جحدوا بآيات الله مع أن أنفسهم مستيقنة بها.



## الآية (٨٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَأْتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

•••••

ثم قال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ إلى آخره.

قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا الاستفهام يُحتمل أن يكون للحث؛ وعليه فيكون بمعنى الأمر؛ أي: سيروا في الأرض، ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾. ويحتمل أن يكون للتوبيخ؛ أي: توبيخ هؤلاء عن عدم السير في الأرض.

والسير هنا يشمل السير بالقدم، والسير بالقلب، أما السير بالقلب فمرجه إلى الأخبار الصادقة؛ بحيث يُقرأ الإنسان عن الأمم السابقة ولا شيء أصح من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث عن الأمم السابقة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٩]، فلا شيء أصح في الأخبار مما جاء به الكتاب العزيز وصحت به السنة، نقول: هذا سير بالقلب. والسير بالقدم أن يمسي الإنسان لينظر ما صنع الله تعالى بالمكذِّبين.

مثال ذلك: أن يسير الإنسان إلى ديار ثمود؛ لِيَنْظُرَ ماذا صنعَ اللهُ بهم، ولكن كما قال النبي ﷺ: «لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا وَهُوَ بَاكٍ»<sup>(١)</sup> خَوْفَ أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ.

وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ إِلَيْهَا لِتَنْزِهِ وَالْفُرْجَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ، كَمَا يَصْنَعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَذْهَبُونَ إِلَيْهَا لَا عَلَى سَبِيلِ الْعِظَةِ وَالْإِعْتِبَارِ، وَلَا يَدْخُلُونَهَا وَهُمْ بَاكُونَ، بَلْ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاعِ فَقَطُّ عَلَى آثَارِ السَّابِقِينَ، وَعَلَى سَبِيلِ التَّزَهُةِ، وَهَذَا حَرَامٌ وَلَا يَحِلُّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَنْ ذَهَبَ إِلَى دِيَارِ ثَمُودَ لِلْعِبْرَةِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْكِيَ فَهَلْ يَتَبَاكَى؟

فَالْجَوَابُ: لَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا مَرَّ بِهَا قَنَعَ رَأْسَهُ يَعْنِي: غَطَّاهُ وَخَفَضَهُ وَأَسْرَعَ نَاقَتَهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَنْ نَقُولُ: ابْكُ أَوْ ارْجِعْ.

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، نَقُولُ: ابْكُ أَوْ ارْجِعْ، إِمَّا أَنْ تَبْكِيَ وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ، فَإِنَّ لَمْ تَبْكِ وَأَنْتِ مَرَّرْتِ بِالْبَلَدِ فَعَجَّلْ وَقَنِعْ رَأْسَكَ، كَمَا فَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَنْ نَقُولُ بَعْدَ جَوَازِ مَنْ يُصَوِّرُ هَذِهِ الصُّوْرَ وَيُرِيهَا النَّاسَ يَنْشُرُهَا؟

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ نَزُولِ النَّبِيِّ ﷺ الْحِجْرِ، رَقْمُ (٤٤١٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، رَقْمُ (٢٩٨٠)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالجواب: أي نعم، الظاهر أنه للمنع أقرب؛ وذلك لأنه إنما يُريهم إياها لبيان قُوَّة القَوْم، لا لبيان أن الله أهلكهم مع قُوَّتهم، هذا هو الظاهر من هؤلاء المصوِّرين.

فإن قال قائل: هل يشمَل هذا كلُّ الآثار القديمة أو التي عُذبت فقط؟

فالجواب: نحن قرأنا آية تُدَلُّ على المراد ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾.

فإن قال قائل: بعض القوم السابقين دمرهم الله سُبحانه وتعالى خارج ديارهم، مثل الفراعنة، هل نقول: لا ندخل آثارهم كديار ثمود؟

فالجواب: لا، وعلى هذا نقول: لنا أن ندخل المكان الذي أُعْرِق فيه فرعون، ولنا أن ندخل مصر أيضًا؛ لأنه لم يهلك فرعون في مصر.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ إعراب الجُمْلتين أن نقول: إن (لم) حَرْف نفي وجزم وقلب، حرف نفي؛ لأنها تنفي، وجزم لأنها تجزم، قلب لأنها تُحوِّل المضارع إلى الماضي، والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ عاطفة لا شك، لكن: هل هي عاطفة على مُقدَّر محذوف، أو عاطفة على ما قبلها من الجُمْل؟

في ذلك قولان:

القول الأوَّل: أنها عاطفة على محذوف مُقدَّر بعد الهمزة، ويُقدَّر بما يُناسب المقام، وعلى هذا فترتيبها بعد الهمزة ترتيب طبيعي.

والثاني: أنها عاطفة على الجُمْلَة السابقة، وبناءً على ذلك تكون الفاء هنا مُرَحَلَّة عن مَوْضِعها؛ إذ إن مَوْضِعها يكون قبل الهمزة.

والقولان معروفان لأهل العِلْم بالنحو، على التقدير الأوَّل أنها عاطفة على

مُقَدَّرٌ بَعْدَ الْهَمْزَةِ يَكُونُ الْمَعْنَى: أَغْفَلُوا فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض؛ لأن ﴿فِي﴾ للظرفية، ولو جعلنا ﴿فِي﴾ للظرفية في هذا السياق لكان معنى الآية: أن يدخلوا في جوف الأرض، وهذا غير مُرَادٍ قَطْعًا، فتكون ﴿فِي﴾ بِمَعْنَى (على)؛ كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] أي: من على السماء، وليس المراد أن الله في جوف السماء؛ لأن ذلك مُسْتَحِيلٌ فَقَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.

وقوله: ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ الفاء عاطفة على ﴿يَسِيرُوا﴾ وعلى هذا يكون المعنى: أفلم يسيروا فلم ينظروا. ويُحْتَمَلُ أن تكون منصوبة بعد فاء السببية؛ أي: انتفى سيرهم ﴿فَيَنْظُرُوا﴾، كما تقول: لم تترني فأكرمك... وما أشبه ذلك من الكلام.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ هذه اسم استفهام، وهي محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّمًا، و﴿عَاقِبَةُ﴾ اسمها. ﴿عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والعاقبة ذكرها الله تعالى في سورة القتال في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَالُهُمْ﴾ [محمد: ١٠].

هذا هو فائدة النَّظَرِ: أن هؤلاء القوم المكذبين كانوا أشد من هؤلاء قوّة، ومع ذلك دمّرهم الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: في العدد. ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: في الكيفية. فصاروا مُتَمَيِّزِينَ عَنْهُمْ في العدد والكيفية.

﴿وَأَشَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعنى: من العمران والقصور وغيرها، ومع ذلك لم تنفعهم هذه الكثرة ولا هذه القوّة، قال المفسر رحمه الله: [أي: المصانع والقصور]، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (ما) نافية، و﴿أَغْنَى﴾ فعل ماضٍ ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (ما) اسم موصول فاعل ﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ صلة الموصول، ويُحْتَمَلُ أن



تكون (ما) استِفهامية والمعنى: فما الذي أغنى عنهم ما كَسَبُوا، والاستِفهامية أبلغ؛ لأنها تتضمن النَّفي مع التَّحدي؛ أي: أي شيء أغنى عنهم كَسِبهم حين دَمَّرهم الله؟ إن كانت نافية فالمعنى: ما أغنى عنهم كَسِبهم شيئاً، وإن كانت استِفهامية، فالتقدير: ما الذي أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، ونظير ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]؛ أي: أي شيء أغنى عنهم، أو أن المعنى نفي الإغناء.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الحثُّ على النظر في أحوال الأمم السابقة، يُؤخذ من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وجه الدلالة أن الله وبَّخهم على عدم السير.

الفائدة الثانية: أن السير في الأرض بالقدم إذا لم يصحبه النظر والاعتبار فإنه لا ينفع؛ لقوله: ﴿يَسِيرُوا﴾ ﴿فَيَنْظُرُوا﴾.

يتفرع على هذا: ما يفعله كثير من الناس اليوم من السير إلى ديار ثمود؛ حيث يسرون بأبدانهم، لكن لا يسرون بقلوبهم، ولا يعتبرون، بل يذهبون إلى هنالك للاطلاع على مآثر القوم، بل على آثار القوم الدالة على قوتهم، وهذا لا يجوز، الواجب على من سار إلى تلك الديار أن يدخلها وهو باك؛ لقول النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»<sup>(١)</sup> ولا ينفع التباكي؛ لقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، ولم يقل: فتباكوا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرفاق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِذَنْ: مَنْ لَمْ يُوطَّنْ نَفْسَهُ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي رُخِّصَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ لِلدُّخُولِ فِي دِيَارِ ثَمُودَ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ، وَغَالِبُ النَّاسِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ الْآنَ إِنَّمَا يَذْهَبُونَ لِلْفُرْجَةِ وَالتُّزْهِةِ فَقَطْ، وَهَذَا حَرَامٌ.

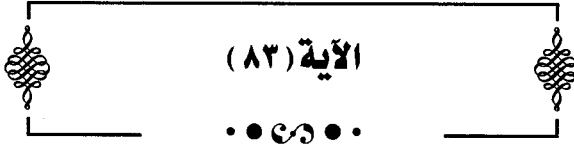
الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ مِنَ الْأُمَّمِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَثَارًا مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ قُوَّةُ الْعَدُوِّ، وَلَا كَثْرَةُ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِ، وَهَلِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِذَا أَرَادَ إِهْلَاكَهُمْ يَكُونُ إِهْلَاكُهُمْ مُمْتَدًّا لِمُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ؟

الجواب: لا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَنْظَرِ﴾ [القمر: ٣١]، ﴿صَيْحَةً وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَنْظَرِ﴾ ﴿الْحَنْظَرِ﴾ يَعْنِي: الَّذِي أَحَاطَ أَرْضَهُ بِحِظَارٍ، وَالْحِظَارُ مُرْكَبٌ مِنْ أَعْوَادِ خَفِيفَةٍ أَوْ مِنْ سَعَفِ النَّخْلِ، وَتَأْكُلُهُ الشَّمْسُ وَالْهَوَاءُ بِسُرْعَةٍ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ قُوَّةَ الْإِنْسَانِ وَكَثْرَةَ عَدَدِهِ لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.





## الآية (٨٣)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

•••••

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ هذا الذي أتى بعد ذكر تدميرهم هو في الحقيقة عود إلى شرح ما حصل، فإن الله أرسل إليهم الرُّسُلَ بالبيِّنَات الواضحة، وأنزل الكتب، ولكن ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [المُعْجِزَاتِ الظَاهِرَاتِ]، والصواب أن يقول: الآيات البيِّنَات. هو رَحِمَهُ اللهُ جعلَ البيِّنَاتِ بِمَعْنَى: الظَاهِرَاتِ، وهذا حقٌّ، وجعلَ البيِّنَاتِ صِفَةً لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: المُعْجِزَاتِ، وهذا فيه نظرٌ، بل يُقَدَّرُ: الآياتِ، وذلك لأنَّ المُعْجِزَاتِ لم تَرِدْ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ مَحَلَّ الآياتِ أَبَدًا.

وأيضًا المُعْجِزَاتِ تكون من الرُّسُلِ وغير الرُّسُلِ، فالسِّحْرَةُ مَثَلًا تَأْتِي لَهُم الشَّيَاطِينُ بِالْمُعْجِزَاتِ، لكن الآيات يَعْنِي: العَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِهِمْ. هذه أبلغُ؛ ولهذا إذا وَجَدْتُمْ فِي الكِتَابِ - وما أكثرَ ما تَجِدُونَ المُعْجِزَاتِ، أو مُعْجِزَاتِ الأنبياءِ، أو ما أشبه ذلك - فاضربوا عنها صَفْحًا وقولوا بدلها: الآياتِ. كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الآياتِ. والآياتُ - كما قُلْتُ - أدقُّ من كَلِمَةِ المُعْجِزَاتِ؛ لأنَّ المُعْجِزَاتِ يَدْخُلُ فِيهَا ما يَعْجِزُ البَشَرَ مِمَّا تَصْنَعُهُ الشَّيَاطِينُ مع السِّحْرَةِ وغيرهم.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَرِحُوا﴾ أي: الكُفَّار ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ أي: الرُّسُل من العِلْم فرح استهزاء وضحك مُنكرين لها].

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا﴾ الواو فاعل فَمَنْ الفارِحُ؟ يقول رَحِمَهُ اللهُ: [أي: الكُفَّار]، وهذا صحيح فرح الكُفَّار ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ﴾.

وقوله: ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ الضمير يعود على الرُّسُل على حدِّ تفسير المفسر بما عند الرُّسُل من العِلْم؛ أي: بما جاؤوا به من البيِّنات، لكن هل هذا الفرَح فرَح استبشار أو فرَح استهزاء؟ يقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: إنه فرَح استهزاء وضحك وسُخرية؛ ولكن هذا التفسير إذا تأملته وجدته تحريفاً وليس تفسيراً؛ لما فيه من البُعد المعنوي واللفظي.

أمَّا البُعد اللفظي فلأنَّ فيه تشبُّه الضَّائِر؛ لأن قوله: ﴿فَرِحُوا﴾ الواو للكُفَّار ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ الهاء للرُّسُل، هذا تشبُّه للضَّائِر، والهاء في قوله: ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ إذا جعلنا الكلام نَسَقًا واحدًا لا شكَّ أنها تعود على الكُفَّار؛ أي: بما عند الكُفَّار من العِلْم.

وأمَّا البُعد المعنوي؛ فلأن الفرَح في الأصل استبشار، فإذا صرفناه عن معناه الظاهر إلى أن يكون فرَح استهزاء كان هذا إخراجًا للمعنى عمَّا يدلُّ عليه ظاهر اللفظ.

والحاصل: أن هذا التفسير الذي ذكره المفسر تفسير ضعيف جدًّا، بل هو تحريف، والصواب أن المعنى: فرح الكُفَّار بما عندهم؛ أي: بما عند الكُفَّار من العِلْم، وقالوا: نحن أعلم بما يصلحنا وما يصلح دُنيانا وديننا الذي نحن عليه، فأنتم أيها

الرُّسُلَ سَحَرَةَ مَجَانِينُ، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذريات: ٥٢]، وإذا كانوا يَعْتَقِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ، أو يَقُولُونَ بِاللِّسْتِهِمْ ما لا يَعْتَقِدُونَ من أن الرُّسُلَ سَحَرَةَ مَجَانِينُ فَإِنَّهُمْ لا شَكَّ سَيَجْعَلُونَ ما عِنْدَهُمْ من العِلْمِ هو العِلْمَ الحَقِيقِيَّ فيَقْرَحُونَ به.

وعلى هذا فنقول: الفرح هنا فرح بطر واستبشار فيما يظنون أنهم على علم أعلى من علم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، ويعجب الإنسان أحياناً فيما يذهب إليه بعض العلماء من تفسير الآيات أو الأحاديث، الآن لو قرأت هذه الآية على إنسان عامي ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فعلى أي شيء يَنْتَزِلُ الضمير في قوله: ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ عند هذا العامي؟

الجواب: على الكفار ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ والإنسان يفرح بما عنده لا بما عند غيره.

قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿وَحَاقَ﴾ قال المفسر رحمه الله: [نزل]، لكنها - أعني: ﴿حاق﴾ - ليست كـ (نزل) من كل وجه؛ لأن (نزل) تكون بالخير وبالشر ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ هذا خير، لكن (حاق) لا تأتي إلا في الشر، فلا يُقال: حاق به القرآن، أو حاق عليه القرآن. كما يقال: نزل عليه. فـ (حاق) هنا بمعنى: (نزل)، لكنها لا تُستعمل إلا في نزول الشر، وهو شرٌّ بالنسبة لمن نزل به، وقد يكون خيراً بالنسبة لغيره.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿مَا﴾ فاعل ﴿حاق﴾، و﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: فيما سبق؛ أي: أنهم لما جاءهم بأس الله عز وجل ونزل بهم حاق

بهم ما كانوا يَسْتَهْزِئُونَ به فيما سَبَقَ، حيث كانوا يَسْتَهْزِئُونَ بالرُّسُلِ، وبما جاؤوا به، وبالشَّرَائِعِ، بل ربما يَسْتَهْزِئُونَ بالله عَزَّجَلَّ.

انظُرْ إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَيْدِي اللَّهِ وَأَيْدِيهِمْ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ نَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، يَبَيِّنُ لك أن الكُفَّارِ يَسْتَهْزِئُونَ بالله، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِالرُّسُلِ.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [أي: العذاب] أي: حاق بهم العذاب الذين كانوا يَسْتَهْزِئُونَ به حين تَوَعَّدْتَهُم الرُّسُلُ به، فجعلوا يَسْتَهْزِئُونَ: أين العذاب الذي تقولون؟ أي: كانوا يَسْتَفْهَمُونَ استهزاءً.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وذلك أنه جعل الآيات التي تأتي بها الرُّسُلُ آياتٍ بَيِّنَاتٍ؛ حَتَّى لَا يَبْقَى حُجَّةٌ.

الفائدة الثانية: أن الكُفَّارِ يَفْخَرُونَ بما عندهم من العِلْمِ، ولو كان باطِلًا؛ لقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وهذا الذي كان فيما سَبَقَ مَوْجُودَ الْآنَ، فإن بعض أولئك القوم الذين آتاهم الله من عِلْمِ الدُّنْيَا ما آتاهم تَجِدُهُمْ يَفْرَحُونَ بها ويقولون: هي خَيْرٌ من عِلْمِ أولئك الْمُتَفَوِّعِينَ على أَنْفُسِهِمْ، وَيَعْتُونَ بِهِمْ عُلَمَاءَ الشَّرِيعَةِ.

الفائدة الثالثة: التَّحْذِيرُ الْبَالِغُ من رَدِّ ما جَاءَتْ به الرُّسُلُ؛ لقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

الفائدة الرابعة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَلَ الرُّسُلَ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى

صِدْقِهِمْ.

وَيَتَفَرَّعَ عَلَى هَذَا فَاثِدَّتَانِ أَوْ أَكْثَرَ، وَهُمَا: رَحْمَةُ اللَّهِ بِالْعِبَادِ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي فِعْلِهِ:

أَمَّا رَحْمَةُ اللَّهِ بِالْعِبَادِ فَلَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلًا بَدُونَ آيَاتٍ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ تَكْلِيفٌ بِهَا لَا يُطَاقُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُصَدِّقَ بِرَسُولٍ بَدُونَ آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ وَإِلَّا لَأَمَكَّنَ كُلَّ كَاذِبٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ رَسُولٌ.

وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فَظَاهِرَةٌ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أَرْسَلَ الرَّسُلَ لَمْ يَتْرُكْهُمْ هَمَلًا، بَلْ أَعْطَاهُمْ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ نَبِيُّنَا ﷺ أَنَّ اللَّهَ مَا بَعَثَ رَسُولًا إِلَّا آتَاهُ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَالَّذِي أُوتِيَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الْوَحْيُ الْقُرْآنُ؛ وَهَذَا قَالَ: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ آيَةٌ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ تَعَالَى بِفَسَادِ الْعَالَمِ، أَمَّا آيَاتُ الرَّسُلِ فَعَالِيهَا تَنْقِضِي فِي زَمَانِهِمْ، لَكِنْ آيَةُ الرَّسُولِ بَاقِيَةٌ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ آيَاتِ الرَّسُلِ بَيِّنَةٌ لَا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَالَمِ الَّذِي يَنْشُرُ شَرِيْعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا نَشَرَهَا بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونَ نَشْرُهُ إِيَّاهَا عَلَى وَجْهِ بَيِّنٍ لَا اشْتِبَاهَ فِيهِ:

أَوَّلًا: اقْتِدَاءً بِالرُّسُلِ. وَثَانِيًا: لِيَزْدَادَ الْمُخَاطَبَ طُمَأْنِينَةً؛ لِأَنَّ الطُّمَأْنِينَةَ لَهَا أَثَرٌ فِي قَبُولِ مَا يُلْقَى فِي الْقِيَامِ بِهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ لَهُ الْحَقُّ عَلَى وَجْهِ تَحْصُلِ بِهِ الطُّمَأْنِينَةَ تَجِدُهُ يَمْشِي، أَوْ يَأْخُذُ بِالْحَقِّ وَهُوَ مُتَرَدِّدٌ، لَكِنْ إِذَا زِيدَ طُمَأْنِينَةً انْتَفَعَ بِذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيذان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: هل النبي لا بُدَّ له من أتباع؟

فالجواب: لا، قال الرسول ﷺ: «وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»<sup>(١)</sup>.

مسألة: عاد الله سبحانه وتعالى أمدَّ لهم في العذاب؛ لأنهم يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟! فأرسل الله عليهم الريح التي هي أخفُّ وألطفُ ما يكون، فأهلكتهم، قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، «فيها»: هذه المدة قد يكون بعضهم هلك في أوَّل يوم، وبعضهم في ثاني يوم، تبعًا لما يكون من الملاجئ أو غيره.

فإن قال قائل: هل هذا مُستثنى من العقوبة؟

فالجواب: لا؛ لأنه أرسل عليهم العقوبة على هذا الشكل. ويُقال: إن هذه وإن امتدَّت فهي من حين ابتداء العذاب هلك من هلك.

فإن قال قائل: ما ورد عن الأمم السابقة بما ذكره الله أنهم كانوا يتخذون من الجبال بيوتًا، هل يُقال: إن عندهم آياتٍ يصنعون بها هذه الأشياء؟

فالجواب: يُحتمل أنها آياتٌ، أو يُحتمل أنها لكثرتهم كل واحد يُمسك عملاً ويقوم به، وتعرف أن الإنسان إذا اعتاد على عمل مُعيَّن ولو كان شاقًا صار سهلًا عليه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



## الآيتان (٨٤، ٨٥)



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ. وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].



﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا﴾ قال المفسر رحمه الله: [أي: شدة عذابنا]. ﴿رَأَوْا﴾ يعني بأبصارهم، يعني: رأوه رؤية العين، والبأس أشد العذاب.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ﴾؛ أي: دون شركائنا ودون ما كنا نعبده، وهذا غاية الإخلاص، ثم أكدوا هذا بقولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جرّ متعلّقة بـ ﴿وَكَفَرْنَا﴾، و﴿بِهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْسَّبِيَةِ؛ أي: بما كنا بسببه مشركين، وأن تكون متعلّقة بـ ﴿مُشْرِكِينَ﴾ تعلق الجارّ بعامله، المعنى: أنهم لما رأوا عذاب الله آمنوا، ولكن هل يَنْفَعُهُمْ هذا الإيمان؟ لا، إن فرعون لما غرق وأدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن قيل له: ﴿ءَأَلْتَنَ﴾ يعني: أتؤمن الآن؟! ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، فلم يَنْفَعَهُ إِيْمَانُهُ، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلْتَنَ﴾ [النساء: ١٨]، هذا لا تَنْفَعُهُ التَّوْبَةُ؛ لأنه رأى وشاهد، شاهد ما كان غيبًا يكفر به، والإيمان عن مشاهدة لا يُفِيدُ؛ لأن

كل إنسان يؤمن بما يُشاهد، ولو كان أكفَرَ الناس، وإنما الذي يُحمد عليه الإنسان ويُنجيه من عذاب الله أن يؤمن بالغيِّب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ ﴿فَلَمْ يَكْ﴾ أصلها: (لَمْ يَكُنْ)، لكن حُذفت النون تخفيفاً، وقد جاء الحذف والإبقاء في آيتين من كتاب الله، فقال تعالى في إبراهيم: ﴿وَلَمْ يَكْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وهذا الحذف تخفيف، وله شروط معروفة في كتب النحو.

﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ إيمان هل تُعربونها على أنها اسم (يَكُنْ) مؤخر، أو على أنها فاعل (يَنْفَع) واسمها مُستتر؟

الجواب: الثاني، والتقدير على هذا: فلم يَكْ إيمانهم يَنْفَعهم. أمّا على الأوّل فيكون (يَنْفَع) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾، فيكون اسمها ضمير الشأن اسم ﴿يَكْ﴾ محذوف.

وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ ﴿لَمَّا﴾ هنا ظُرف بمعنى: حين، واعلم أن (لَمَّا) تأتي في اللغة العربية على أوجه:

الأوّل: أن تكون ظرفاً بمعنى (حين) كما في هذه الآية، فإن معنى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: حين رَأَوْا بَأْسَنَا. وتأتي جازمة، مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾، وهي للنفي أيضاً ﴿لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾ جازمة ونافية، لكن الفرق بينها وبين (لَمْ) أن ﴿لَمَّا﴾ تُفيد قُرب مدخولها ﴿لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾، ولكن سيذوقونه قريباً، بخلاف (لَمْ) فتأتي للنفي المطلق، وتأتي (لَمَّا) شرطية، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾، وتأتي بمعنى: (إلا) كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فهذه أربعة معانٍ في (لَمَّا).

قال تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ ﴿سُنَّتَ﴾ يقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [نَصْبُهُ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ مِنْ لَفْظِهِ] ﴿سُنَّتَ﴾ بِمَعْنَى: طَرِيقَةٌ؛ أَي: هَذِهِ طَرِيقَةُ اللَّهِ، وَ﴿سُنَّتَ﴾ فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَرْفُوعَةٌ؛ أَي: «سُنَّةُ اللَّهِ» عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ؛ أَي: هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَنْصُوبَةٌ، وَالْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ يَقُولُ: إِنَّهَا مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ مِنْ لَفْظِهِ؛ أَي: سَنَّ اللَّهُ بِهِمْ سُنَّةَ اللَّهِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا عَامِلَةً مَحذُوفَةً، لَكِنَّهُ مُقَدَّرٌ مِنَ الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ بِمَعْنَى مَا قَبْلَهَا تَمَامًا، يَعْنِي: سُنَّةُ اللَّهِ، بِمَعْنَى مَا قَبْلَهَا وَهِيَ أَخْذُ الْمُكْذِبِينَ بِالْعَذَابِ، فَتَكُونُ مَنْصُوبَةٌ بِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ لَا بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، وَمَا ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ وَجَهٌ لَا شَكَّ، وَالْمُهْمُّ أَنْ السُّنَّةَ بِمَعْنَى: الطَّرِيقَةَ، وَطَرِيقَةَ اللَّهِ تَعَالَى إِهْلَاكُ الْمُكْذِبِينَ وَتَعْذِيبُهُمْ، وَأَتَمُّ لَوْ آمَنُوا بَعْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ لَمْ يَنْفَعَهُمْ.

فإن قال قائل: في رسم القرآن هنا ﴿سُنَّتَ﴾ التاء فيها مفتوحة والقاعدة أنها مربوطة؛ لأنها المفرد.

فالجواب: إن الرسم العثماني ليس على القواعد المعروفة الآن، بل هو توقيف، وقد اختلف العلماء رَحْمَهُمُ اللَّهُ: هل يجب أن يرسم القرآن بالرسم العثماني أو لا يجب، أو يفصل بين أن يُلْقَنَ التلاميذ الصغار أو الكبار؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنه لا يجوز أن يرسم القرآن إلا بالرسم العثماني على كل حال، حتى وإن كنت تعلم الصبيان فعلى الرسم العثماني، فتكتب: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] تكتب: ﴿الصَّلَاةَ﴾ بالواو، حتى وإن كنت تُدَرِّسُ صَبِيًّا اتِّبَاعًا لِلرَّسْمِ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ﴿الزَّكَاةَ﴾ بالواو، و﴿الصَّلَاةَ﴾ بالواو؛ لأن هذا هو الرسم العثماني.

وقال بعضهم: بل لا يجب؛ لأن الرّسم العثمانيّ حين رُسم المصحف صادف أنه على هذا الوجه، ولو كان الرّسم العثمانيّ على غير هذه القاعدة لكتب بحسب القاعدة التي كانت في ذلك الوقت، فالمسألة ليست توفيقية، لكن صادف أن الرّسم في ذلك الوقت على هذا الوجه فرُسم القرآن عليه؛ وذلك لأن القرآن لم ينزل مكتوباً حتى نقول: لا بُدّ أن يكون كما كتب. بل نزل مقروءاً، وقاعدة الرّسم تختلف من حين لآخر، وهذا القول له وجه قوي؛ لأننا نعلم علم اليقين أنه لو كانت قاعدة الرّسم على غير هذا الوجه في ذلك العهد؛ لكتب بمقتضى القاعدة المعروفة في ذلك العهد.

والقول الثالث: يقول: إن كان القرآن مكتوباً للصبيان لتعلم فكتبه على القاعدة المعروفة بينهم، وإن كان للكبار يعني: يكتب الإنسان مصحفاً فليكتبه على حسب الرّسم العثمانيّ، وهذا فيه جمع بين القولين؛ لأنك لو ترّسم القرآن للصبيّ على حسب الرّسم العثمانيّ لحرفه؛ لأن القاعدة التي بين يديه تُخالف الرسم فيحرفه، فيقرأ مثلاً: ﴿الزُّكُوَّةُ﴾ الزُّكُوت، و﴿الصَّلَوَةُ﴾ الصَّلوات، و﴿الرِّبْوَا﴾ الربو، وهلمّ جراً.

فأنا أميل إلى أنه لا بأس أن يكتب بمقتضى القاعدة الحاضرة بالنسبة للمتعلّم، لا شك في ذلك بالنسبة لغيره في احتمال، ولكن القول بالمنع فيه نظر.

﴿الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾ قال المفسر رحمه الله: [في الأمم أن لا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب]، هذه واحدة، والثانية: أن يُعذّب المكذّبين. فالسنة التي استفدناها من هذه الآية شيان:

أولاً: إهلاك المكذّبين، والثاني: أنه لا ينفعهم إيمانهم إذا رأوا العذاب.

قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَخَسِرَ﴾ فسرّها المفسّر رَحْمَةُ اللَّهِ بِمَعْنَى: [تَبَيَّنَ خُسْرَانَهُمْ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَهُمْ خَاسِرُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ قَبْلَ ذَلِكَ].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ مَعْلُومٌ أَنَّ ﴿هُنَالِكَ﴾ ظَرَفَ مَكَانٍ، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، فَهِيَ اسْمٌ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَكَانِ.

وَقَدْ تُسْتَعَارُ إِشَارَةٌ لِلزَّمَانِ، فَتَقُولُ هُنَالِكَ؛ أَي: فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَمِنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ انْتِبَهْ، الْآنَ إِذَا قُلْتَ: فُلَانٌ هُنَاكَ. هَذَا ظَرَفٌ مَكَانٍ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وَلَوْ قُلْتَ مِثْلًا: قَدِمَ فُلَانٌ هُنَاكَ. تُشِيرُ إِلَى الْوَقْتِ صَارَتْ إِشَارَةٌ لِلزَّمَانِ، لَكِنْ هَذَا خِلَافُ الْأَصْلِ، بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ يُقَالَ: خَسِرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْكَافِرُونَ. أَلَيْسَ الْكَافِرُونَ خَاسِرِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ؟ بَلَى، لَكِنْ تَبَيَّنَ خُسْرَانَهُمْ وَظَهَرَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ رَاحُونَ؛ وَهَذَا فِرْحَانٌ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، لَكِنْ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ظَهَرَ لَهُمُ الْخُسْرَانُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] وَفِي آخِرِ السُّورَةِ قَالَ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ فَمَا فَائِدَةُ التَّغْيِيرِ؟

فَالْجَوَابُ: الْفَائِدَةُ مِنْ هَذَا هُوَ بَيَانُ أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ هُوَ مُبْطِلٌ لَيْسَ مَعَهُ حَقٌّ، وَكُلُّ مُبْطِلٍ لَا يَقُولُ إِلَّا الْبَاطِلَ فَهُوَ كَافِرٌ يَعْنِي: الْمُبْطِلُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ فَهُوَ كَافِرٌ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ، وَالْكَافِرُ مُبْطِلٌ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ أَيْضًا، فَاخْتِلَافُ التَّعْبِيرِ لَزِيَادَةِ الْمَعْنَى، كَمَا يَكُونُ أَيْضًا فِي اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ أَحْيَانًا، كَقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾، وَفِي قِرَاءَةِ أُخْرَى: «تَسْتَأْذِنُوا»، ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنِإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: «فَتَتَّبِعُوا»، فَتَكُونُ الْقِرَاءَةُ هَذِهِ مُفْسَّرَةً لِلْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ.

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أن أولئك القوم المكذبين للرُّسل إذا رأوا العذاب قالوا: آمنا، والمثال على ذلك: فرعون لما أدركه الغرقُ قال: ﴿ءَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾.

الفائدة الثانية: أن هؤلاء الذين يؤمنون بعد أن نزل بهم العذاب لا يستفيدون من إيمانهم شيئا؛ لقوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

الفائدة الثالثة: أن سنة الله عزَّجَلَّ في العباد واحدة، فإنه لا يُجَازِي أَحَدًا لِعِنَاهُ، أو لِفَقْرِهِ، أو لغير ذلك، بل إن أكرم الخلق عند الله أنقاهم؛ لقوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

الفائدة الرابعة: التحذير من تكذيب الرُّسل، وأن من كذب الرُّسل فإنه سيناله ما نالهم من العذاب سيناله ما نالهم؛ أي: ما نال الأمم السابقة من العذاب.

الفائدة الخامسة: ظهور الحُسران هؤلاء المكذبين قبل أن يموتوا؛ لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: حين جاءهم البأس تبين لهم الحُسران ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾.



## فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة



الحديث

- ٩..... «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»
- ١٠..... «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»
- ١١... «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِرَاعًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ»
- ١٥..... «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»
- ١٦..... «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»
- ٢١..... «إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ»
- ٢٦..... «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأِيهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»
- ٢٨..... «الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»
- ٣٣..... «إِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ...»
- «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»
- ٤٩، ٣٦.....
- ٣٧..... «كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرٌ»
- ٤٩..... «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»
- ٨١..... «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»
- ٥٣..... «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»
- ٥٥..... «كَفَّارَةٌ مِنْ اغْتَبَتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»

- «أَنْ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَتَابَ، ثُمَّ أَذْنَبَ فَتَابَ، ثُمَّ أَذْنَبَ فَتَابَ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: عِلْمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، فَذَغَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»..... ٥٧
- «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» ..... ٥٨
- «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»..... ٥٩
- «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» ..... ٦١
- «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ..... ٦١
- «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ» ..... ٦٤
- «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ..... ٧١
- «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ إِذَا أَكَلَّ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» ..... ٩٢
- «اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْبَبِي إِذَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي» ..... ٩٥
- «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» ..... ٩٥
- «فَأَنِّي يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» ..... ٩٨
- «رَغِمَ أَنْفُ أَمْرِي ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ» ..... ١٠٢
- «حَوْهَمَا نُدْنِدُنْ» ..... ١١٤
- «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ..... ١١٤
- «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةً وَجِلَّةً، عَلَانِيَةً وَسِرَّةً، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» ..... ١١٦
- «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ...» ..... ١١٩
- «أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ؟ فَتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحَرِّمُونَهُ؟» ..... ١٢٩
- «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ» ..... ١٣١



- «أَنْ عَلَى يَمِينِ آدَمَ أَسْوَدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، فَإِذَا رَأَى إِلَى الْيَسَارِ بَكَى» ..... ١٣٣
- «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» ..... ١٣٧
- «ثَلَاثَةٌ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَهَمَّ عَذَابُ أَلِيمٍ» ... ١٣٨
- «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ..... ١٣٩
- «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» ..... ١٣٩
- «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ..... ١٣٩
- «أَيْنَ اللَّهُ؟» ..... ١٤٠
- «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ» ..... ١٤٩
- «أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ  
وَشُرْكَاهُ» ..... ٤٠٧، ٣٣٣، ٣١٨، ١٥٣
- «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ..... ١٥٤
- «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً كَفَّتِ الْغَيْبَةَ عَنْ نَفْسِهِ» ..... ١٥٥
- «عَلَى رِسَالِكُمْ، إِنَّهَا صَفِيَّةٌ» ..... ١٥٥
- «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» ..... ١٥٦
- «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي بِالرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ» ..... ١٥٧
- «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ...» ..... ١٦٧
- «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ..... ١٧١
- «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» ..... ١٧٢
- «حُجِّي عَنْهَا» ..... ١٧٢
- «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ  
يُتَّفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ..... ١٧٣

- «مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ إِلَّا يَكُونُ ازْدَادًا، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ إِلَّا يَكُونُ اسْتَعْتَبَ» ..... ١٧٣
- «من جاء في الساعة الأولى في يوم الجمعة» ..... ١٧٨
- «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ» ..... ١٩٨
- «حَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» ..... ٢٠٢
- «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ، إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ» ..... ٢٠٦
- «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ..... ٢٠٧
- «لَكَ مَا اخْتَسَبْتَ» ..... ٢٠٩
- «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ» ..... ٢١١، ٢٢١
- «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ» ..... ٢٣٧
- «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدَّ» ..... ٢٣٨
- «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعَةٍ» ..... ٢٥٤
- «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ..... ٢٦٧
- «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ..... ٢٦٧
- «فَلَيْسَتَعِدُّ بِاللَّهِ نَمَّ لَيْتِهِ» ..... ٢٨٨
- «مَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ» ..... ٢٨٢
- «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ..... ٢٨٩
- «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» ..... ٢٨٩
- «إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ؛ الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ» ..... ٢٩٥

- ٢٩٥ ..... «إنها صفة الرحمن، وأحبُّ أن أقرأها»
- ٣٠٥ ..... «أيُّ الرِّجال أحب إليك؟ قال: أبو بكرٍ»
- ٣٠٥ ..... «سُبْحانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»
- ٣٠٥ ..... «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»
- ٣٠٦ ..... «أَيْنَ اللهُ؟»
- ٣١٠ ..... «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»
- ٣١٢ ..... «وَاللَّهُ مَا الْفَقْرُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ»
- ٣١٣ ..... «يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ وَلَا مَوْتٌ ويا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتٌ»
- ٣١٤ ..... «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرَ سَبِيلٍ»
- ٣١٨ ..... «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»
- ٣٤٧ ..... «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»
- لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين الإنس والجن فإنهم لا يسمعونه، وكل شيء يسمعه»
- ٣٤٧ ..... «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»
- ٣٦٥، ٣٦٣ ..... «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»
- ٣٧٢ ..... «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»
- ٣٧٤ ..... «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»
- ٣٧٤ ..... «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا»
- ٣٧٥ ..... «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَنْفُسُوا إِلَى مَا قَدَّمُوا»

- «وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً» ..... ٣٧٩
- «قَدْ سَرَّهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ..... ٣٨٤
- «لَوْلَا أَنْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَعْفِرُونَ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَهُمْ» ... ٣٨٥
- «لَوْ كُنْتُ مُسَبِّحًا لِأَتَمَّمْتُ» ..... ٣٨٦
- «صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشِيِّ» ..... ٣٨٧
- «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ..... ٣٩٤
- «لَقَدْ عُدَّتْ بِمَعَاذِ الْحَقِّي بِأَهْلِكَ» ..... ٣٩٦
- «نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَحْرَقَ قَرْيَةَ النَّمْلِ كُلَّهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ هَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ، تَقْرُصُكَ نَمْلَةٌ وَتَرُوحُ إِلَى كُلِّ الْقَرْيَةِ فَتُحْرِقُهَا بِسَبَبِ ذَنْبٍ وَاحِدٍ» ..... ٣٩٨
- «إِنَّ مِنَ الْبَيَانَ لَسِحْرًا» ..... ٤٠٠
- «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ» ..... ٤٠٢
- «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّفَهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» ..... ٤٠٣
- «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ..... ٤٠٧
- «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ..... ٤٠٧
- «إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ فَجَمَعُوا حَطْبًا كَثِيرًا وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً» ..... ٤١٨
- «لِيُعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ وَلِيُعْظِمَ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَعْطَاهُ» ..... ٤١٨
- «فَأَنِّي يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» ..... ٤٢٠
- «يَا آدَمُ أَخْرِجْ مِنْ دَرَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ» ..... ٤٢٣

- «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» ..... ٤٤٠، ٤٣١
- «أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟» ..... ٤٣٨
- «أَنَّ الشَّمْسَ تَسْجُدُ كُلَّ غُرُوبٍ عِنْدَ الْعَرْشِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فِي أَنْ تَشْرِقَ فَيَأْذَنُ لَهَا» ..... ٤٣٩
- «أَلَا أْبْعُثُكَ عَلَى مَا بَعْثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَنْ لَا تَدَعَّ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا تَمْتَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ» ..... ٤٤٠
- «إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ» ..... ٤٤١
- «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِإِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَتَمُّ» ..... ٤٤٦
- «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ» ..... ٤٥١
- «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ» ..... ٤٦٠
- «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُسْطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ..... ٤٦٧
- «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ» ..... ٤٨٨
- «مَنْ سَرَّنَتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ» ..... ٤٩٥
- «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» ..... ٥٠٠، ٤٩٩
- «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» ..... ٥٠٠
- «يَبْلُغُ الْمَرْءُ بَيْنَتَهُ مَا لَا يَبْلُغُ بِعَمَلِهِ» ..... ٥٠٣
- «لَوْ أَنَّ لِي مَالٌ فَلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ عَمَلَ فَلَانٍ» ..... ٥٠٣
- «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» ..... ٥٠٤
- «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا» ..... ٥٠٨

- ٥٠٩ ..... «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاءُ»
- ٥٠٩ ..... «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجِيُوبَ، وَلَطَمَ الْخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»
- ٥١٤ ..... «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا»
- ٥١٥ ..... «مَا أَمَرْتُمْكُمْ بِهِ فَأَتَوْا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُمْكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»
- ٥١٨ ..... «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ دَرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ»
- ٥٢٠ ..... «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثْتَ بِهِ أَنْفُسَهَا»
- ٥٢٣ ..... «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ خَيْرَ مَا يَعْرِفُهُ وَيُحَذِّرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْرِفُهُ»
- ٥٢٣ ..... «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»
- ٥٣٢ ..... «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْحَبْثُ»
- ٥٤٢ ..... «لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا وَهُوَ بَاكٍ»
- ٥٤٥، ٥٤٢ ..... «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»
- ٥٥١ ..... «فَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»
- ٥٥٢ ..... «وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»



## فهرس الفوائد

## الفائدة



## الصفحة

- ٧..... الإنسان في طلب العلم كالمجاهد في سبيل الله في إعداد العدة.
- ٩..... مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُحِبَّ إِلَيْهِ الْعِلْمُ.
- ١٣..... الحِرْصُ عَلَى نَشْرِ الْعِلْمِ بِالْوَسَائِلِ الْمُنَاسِبَةِ.
- ١٥..... يَنْبَغِي لَطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَحْفَظَ وَقْتَهُ عَنِ الضَّيَاعِ.
- ١٧..... العلوم التي يحسن لطالب العلم البدء بها.
- القرآن كنوز عظيمة، كلّمَا أَخَذْتَ آيَةً وَصِرْتَ تَتَأَمَّلُهَا انْفَتَحَ لَكَ مِنَ الْعُلُومِ فِيهَا مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.
- ٢٠.....
- ٢٢..... إِلَى مَنْ يُرْجَعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ؟
- ٢٥..... إِنْ اخْتَلَفَتِ الْحَقِيقَةُ اللَّغَوِيَّةُ وَالْحَقِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ، رَجَعْنَا إِلَى الْحَقِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ.
- ٢٦..... هَلْ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُفَسِّرَ الْقُرْآنَ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى كَلَامِ الْعُلَمَاءِ؟
- ٢٦..... التَّفْسِيرُ بِالرَّأْيِ مُحَرَّمٌ وَمِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.
- ٢٧..... أَهَمِّيَّةُ التَّفْسِيرِ.
- ٢٩..... المراد بكون المغازي، والسّير، والتفسير ليس لها سند.
- ٣٢..... التَّقْلِيدُ لَا يَجُوزُ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَعِنْدَ الْعَجْزِ.
- ٣٢..... أَحْسَنُ شَيْءٍ فِيهَا أَرَى مِنَ التَّفَاسِيرِ الَّتِي تَعْتَنِي بِالْأَثَرِ، تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ.
- ٣٣..... إِذَا وَجَدْنَا كَلِمَةً لَمْ تُفَسَّرْ بِالْقُرْآنِ وَلَا بِالسُّنَّةِ، وَلَا بِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، نَرْجِعُ إِلَى اللُّغَةِ.

- الذي يُفسّر القرآن برأيه لم يَجْتَهِد ..... ٣٣
- كل السُّورِ المُبتدأة بحروف الهجاء مَكِّيَّة إِلَّا البقرة وآل عمران ..... ٣٤
- المَكِّيُّ ما نزل قبل الهجرة، وما نزل بعدها فهو مدَنِيٌّ ..... ٣٤
- البِسْملة: آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ مُستَقَلَّةٌ ..... ٣٤
- أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غيرُ مَحْصُورَة بعدد ..... ٣٦
- قال النَّحْوِيُّونَ: «الله هو أَعْرَفُ المَعَارِفِ» ..... ٣٧
- أحكام البِسْملة ..... ٣٧
- الحروف المقطعة ليس لها معنَى ..... ٣٩
- عِزَّةُ الله تَنَقَّسِمُ إلى ثلاثة أقسام ..... ٤١
- القاعدة المتَّبعة عندنا فيما إذا وَرَدَ خِلاف بين النَّحْوِيِّينَ أن تَتَّبِعَ الأَسْهَلَ ..... ٤٨
- كيف نَجْمَعُ بين القول بأنَّ أسماء الله تعالى لا تُحْصَى، وبين قول النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ
- تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا» ..... ٤٩
- ما ذَكَرَ اللهُ أنه نَزَّلَهُ يَنقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ ..... ٥١
- لماذا وَصَفُ الْقُرْآنِ الكَرِيمِ بِالْكِتَابِ؟ ..... ٥١
- الله جَلَّ وَعَلَا يَذْكَرُ من أسائه ما يُناسِبُ المَقَامَ ..... ٥٢
- الأسباب التي تكون بها المَغْفِرَة ..... ٥٣
- التوبة الجارية على مُقْتَضَى الشريعة هي ما جَمَعَتْ خَمْسَةَ أمور ..... ٥٣
- الغالب أن الصَّدَقَة أَوْلَى من بيت المال ..... ٥٤
- من اغْتَبْتَهُ لا يَلْزَمُ اسْتِحْلالَهُ بل يَكْفِي أن تَسْتَغْفِرَ لَهُ ..... ٥٥
- من يَكُونُ عَلَيْهِ حَقٌّ مَالِيٌّ لِشَخْصٍ، ثُمَّ يَتُوبُ الفاعِلُ، وَيَذْهَبُ إلى صاحِبِ الحَقِّ،
- ويَقُولُ: خُذْ حَقَّكَ. فَيَأْبَى أن يأخذه، فماذا يَصْنَعُ؟ ..... ٥٦



- ٥٦..... إن مات صاحب الحق هل يلزمه أن يُعطيَه الورثة؟
- ٥٨..... الإنسان إذا تكرر منه الذنب وهو يستغفر يُغفر له
- ٥٩..... التوبة من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر
- ٦٠..... الزنا يشترك فيه الفاعل والمفعول به
- ورَد في حديث النَّبِيِّ ﷺ أن الإنسان يكتب في بطن أمه شقي أو سعيد، فلماذا
- ٦١..... يعمل؟
- ٦٢..... أقسام التوحيد ثلاثة: توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات
- ٦٣..... وجوب التحاكم إلى شريعة الله
- ٦٣..... الجَمْع بين الخوف والرجاء في السير إلى الله
- ٦٩..... ينبغي لنا أن نعرف معايب الكفار وأقوالهم حتى يُمكننا أن نجادلهم
- ٧٢..... كل كافر في النار، لكن من لم تبلغه الدعوة فلا نجزم له بجنة ولا نار
- ٧٣..... مسألة فعل ما يكفر
- ٧٣..... ليس في القرآن ولا في السنة تقسيم الدين إلى أصل وفرع
- ٧٥..... الذين ذكروا من الأنبياء في القرآن كلهم رُسل
- ٧٨..... نوح هو أول الرُّسل، ومن زعم أن إدريس قبل نوح فإنه خاطئ
- ٧٩..... الناس في الأسباب ثلاثة أقسام: طرفان ووسط
- ٨٣..... من عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع وبخرف
- ٨٤..... هل يكفر من يقول: إن القرآن مُحدث؟
- ٨٤..... ليس هناك دليل قطعي يطمئن الإنسان إليه بأن القرآن كُتب في اللوح المحفوظ
- ٨٥..... أخصَّ رُبوبية تكون للمربوبين هي رُبوبية الرُّسل، ولا سيمًا أولي العزم منهم

- العَرْشُ: هو أكبرُ المخلوقات، وأعظَمُها، وأوسَعُها، وأشرفُها فيما عدا المكلَّفين ..... ٨٧
- الإقرار بالقلْب واللسان وليس هو مجرد التصديق فقط ..... ٨٨
- الصَّراط يُضيفه تعالى أحيانًا لنفسه وأحيانًا للمؤمنين ..... ٩٠
- الملائكة مكلَّفون ..... ٩٣
- معنى الوسيلة وحكمها ..... ٩٤
- الوسائل لا بُدَّ أن تكون معلومة: إمَّا بالشرع، وإمَّا بالحس ..... ٩٤
- سبعة أقسام من التوسُّل الجائز ..... ٩٥
- الوسائل ليست هي الوسائط ..... ٩٨
- التوسُّل بمحبَّة الرسول ﷺ ..... ٩٨
- حُكم التوسُّل إلى الله بمحبَّة الصالحين والعلماء ..... ٩٩
- حُكم تخصيص العالم بعينه في التوسُّل بمحبته ..... ٩٩
- التوسُّل الممنوع ..... ٩٩
- الضابط في الفرق بين الوسيلة الشَّركية والوسيلة البدعية ..... ١٠٠
- شرك الطاعة وشرك الأتباع ..... ١٠٠
- أحسن ما يُقال في حد الطاعات ..... ١٠
- الإنسان مأمور بالصلاة على النبي ﷺ، إمَّا وجوبًا، وإمَّا استحبابًا ..... ١٠٢
- الذرية الذين لم يبلغوا منازل آبائهم أنهم يُرفعون حتى يكونوا في منازل آبائهم ..... ١٠٩
- ينبغي للإنسان في الدعاء أن يحتز من التعميم الذي قد يتناول من لا يستحق ..... ١٠٩
- الدعاء ..... ١٠٩
- إذا خالف الوصف الدعاء، هل يكون اعتداءً ..... ١١٠

- ١١٠ ..... الترتيب الوجودي في الأشياء
- ١١١ ..... الفعل المثل هو: الذي أوله حَرْفٌ عِلَّةٌ، والناقص: الذي آخره حَرْفٌ عِلَّةٌ
- ..... ضمير الفصل من حيث الإعراب لا محل له من الإعراب، أمّا من حيث المعنى فله
- ١١٣ ..... ثلاث فوائد
- ١١٥ ..... مقام الدعاء ينبغي فيه البسط لثلاثة أسباب
- ١١٨ ..... النداء: هو الكلام من بعيد، والمناجاة الكلام من قريب
- ١٢٤ ..... ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ في هذه الآية إعرابٌ مُشكِل
- ١٢٥ ..... (ذلك) اسم الإشارة بحسب المشار إليه، والكاف بحسب المخاطب
- ..... لا يمكن لأحد عاقل - وأريد بالعاقل من سوى المجنون - أن ينكر أن لهذا العالم
- ١٢٧ ..... خالقًا أبدًا
- ١٣٠ ..... علو الله سبحانه وتعالى علوًا معنويًا، وهو علو الصفة أمر مجمع عليه
- ١٣٠ ..... علو الذات هو محل الصراع بين أهل السنة والجماعة، وبين أهل التعطيل
- ..... إذا وردت آيات متعارضة، وأحاديث متعارضة، فلا تُوردوها على أنفسكم على
- ١٣٢ ..... أنّها متعارضة
- ١٣٥ ..... هل يجب على الإنسان أن يبلغ الناس أنه يجب عليهم أن يبحثوا؟
- ١٣٦ ..... حكم الله تعالى ينقسم إلى قسمين: كونيٌّ وشرعيٌّ
- ..... الحكم بالقوانين المخالفة للشريعة قد يكون كفرًا، وقد يكون ظلمًا، وقد يكون
- ١٣٦ ..... فسقًا
- ..... أدلة علو الله سبحانه وتعالى الذاتي خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل،
- ١٣٩ ..... والفطرة
- ١٤٣ ..... آيات الله سبحانه وتعالى نوعان: آيات كونية وآيات شرعية

- ١٤٦ ..... ما تَتَغَدَّى به الرُّوحُ أَهْمٌ مَّا يَتَغَدَّى به البدن.....
- ١٤٧ ..... الإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ سَبَبٌ لِكَثْرَةِ الرِّزْقِ .....
- ١٤٨ ..... مَنِ اسْتَحَلَّ الحُكْمَ بغير ما أَنْزَلَ اللَّهُ فهو كَافِرٌ، سواءَ حَكَمَ به أم لم يَحْكَمْ.....
- اجعلوا اعتقادكم وحُكْمكم على الشيء تَابِعًا لِلنُّصُوصِ، لا تَجْعَلُوا النُّصُوصِ
- ١٥٠ ..... تَابِعَةً .....
- ١٥٢ ..... وجوب الإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ .....
- لو أَنَّ الرَّجُلَ حَسَّنَ عِبَادَتَهُ لِتَعْلِيمِ النَّاسِ، وَأَنَّ يَتَّخِذُوا مِنْهُ أُسُوةً، فَهَذَا لا يَدْخُلُ
- ١٥٥ ..... فِي الرِّيَاءِ .....
- ١٥٥ ..... هل من الرِّيَاءِ أَنْ يُظْهِرَ الإِنْسَانُ بَعْضَ ما عِنْدَهُ لِأَجْلِ الأَلَمِّ؟ .....
- ١٥٦ ..... التَّمَنِّيُّ هل يَدْخُلُ فِي الرِّيَاءِ؟ .....
- ١٥٦ ..... هل يَجُوزُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى رَجُلٍ عاصِ لِأَدْعُوهُ؟ .....
- يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَقُومَ بِالوَاجِبِ وَلَوْ كَرِهَ ذَلِكَ غَيْرَهُ، وَلا يُجَابِي أَحَدًا فِي هَذَا
- ١٥٧ ..... الفَرْقُ بَيْنَ المُدَارَاةِ وَالمُدَاهَنَةِ .....
- ١٦٤ ..... العُلَمَاءُ لَهُمُ حَظٌّ وَنَصِيبٌ مِنَ الرُّوحِ الَّتِي يُلْقِيهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الرُّسُلِ .....
- ١٦٤ ..... الأَدِلَّةُ المُثَبِّتَةُ لِحِكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيما يَفْعَلُ لا تُحْصَى .....
- ١٦٥ ..... يَنْبَغِي لِمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا أَنْ يَكُونَ مُنْذِرًا .....
- ١٦٧ ..... هل يُسْتَشْنَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ هُمْ بِنُزُورٍ﴾ أَحَدٌ؟ .....
- ١٦٩ ..... (لا) نَافِيَةٌ الوَحْدَةِ، وَنَافِيَةٌ الوَحْدَةِ تَعْمَلُ عَمَلِ (لَيْسَ) .....
- ١٧١ ..... إِيْهَادُ القُرْبِ لِلغَيْرِ .....
- ١٧٤ ..... كَيْفَ يَكُونُ الحِسابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ .....

- ١٧٥ ..... يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشْعُرَ حِينَ نَعْمَلُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ أَنَّا سَوْفَ نُجَازِي عَلَيْهِ .....
- ١٧٨ ..... السَّاعَةُ تُطَلَّقُ عَلَى الزَّمَنِ الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، إِلَّا إِذَا فُصِّلَتْ .....
- ١٩٠ ..... اللهُ تَعَالَى قَدْ يَجْعَلُ الشُّفَاءَ عَقِبَ دُعَاءِ صَاحِبِ الْقَبْرِ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا.....
- رَبِّمَا يَبْتَلِي اللهُ الْإِنْسَانَ بِوِظِيفَةٍ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْرِقَ فِيهَا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، إِمَّا سَرِقَةً حَقِيقِيَّةً وَإِمَّا سَرِقَةً غَيْرَ مُبَاشِرَةٍ.....
- ١٩١ ..... الفَرْقُ بَيْنَ الْفِعْلِ الْإِلْزَامِ وَالْمُتَعَدِّيِّ.....
- ١٩٣ ..... السَّمِيعُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ، لَكِنِ الَّذِي يَحْدُثُ الْمَسْمُوعُ.....
- ١٩٣ ..... هل هُنَاكَ أَحَدٌ أَنْكَرَ الْأَسْمَاءَ؟.....
- ١٩٤ ..... قَاعِدَةُ الْمُعْتَرِلةِ إِثْبَاتُ الْأَسْمَاءِ وَإِنْكَارُ الصِّفَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ.....
- ١٩٥ ..... اللهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِصِفَاتِهِ، وَلَا يُوجَدُ ذَاتٌ بِلَا صِفَاتٍ إِطْلَاقًا.....
- إِذَا كَانَ الْأِسْمُ مُتَعَدِّيًّا الْأَثَرُ أَوْ الْحُكْمُ، فَمِثْلُ السَّمِيعِ، لَا بُدَّ أَنْ تُؤْمِنَ بِسَمْعِ يَتَعَدَّى لِلْغَيْرِ.....
- ١٩٥ ..... نَظَرَ الرَّحْمَةَ هَلْ هُوَ نَفْسُ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّجَلَّ؟.....
- ١٩٨ ..... نَفْيُ الصِّفَاتِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: نَفْيِ جُحُودٍ، وَهَذَا كُفْرٌ، وَنَفْيِ تَأْوِيلٍ.....
- ١٩٩ ..... الْكُتُبُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.....
- ٢٠٢ ..... مَا حَدَّثَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَمَّنْ سَبَقَ؛ فَهَذَا يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ.....
- السَّيْرِ فِي أَرْضِ الْمُكْذِبِينَ، وَيَبَيِّنُ مَا أَحَلَّ اللهُ بِهِمْ مِنَ النَّكَالِ، إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْعِبْرَةِ فَلَا بَأْسَ بِهِ.....
- ٢٠٥ ..... هل قُرَى قَوْمٍ لَوْ طُ مِثْلُ قُرَى تَمُودَ وَعَادٍ فِي عَدَمِ جَوَازِ زِيَارَتِهَا؟.....
- ٢٠٧ ..... يَفُوتُنَا كَثِيرًا الْإِحْتِسَابُ، فَنُصَلِّيْ وَنُرِيدُ أَنْ نُؤَدِّيَ الصَّلَاةَ الَّتِي عَلَيْنَا فَقَطُّ، لَكِنِ لَا نَشْعُرُ بِأَنَّ نَحْتَسِبُ أَجْرَهَا.....
- ٢٠٩ .....

- لا بُدَّ لكل نبيٍّ من آيةٍ يؤمن على مثلها البشر ..... ٢١٣
- أنَّ الله تعالى ربُّ المُسبِّبات بأسبابها ..... ٢١٤
- التَّسْعُ الآيات التي أُرْسِل بها موسى ..... ٢١٨
- بعضُ علماء الجرح والتَّعديل إذا تكلموا في رجلٍ يقولون: هذا الرجلُ كعصا  
مُوسى ..... ٢١٨
- مَنْ يقول: فلان يملك عصا موسى السَّحرية! ..... ٢١٩
- كيف يكون فعلاً واحداً صالحاً للتَّعديِّ واللُّزوم؟ ..... ٢١٩
- الفرق بين الكرامة وآية النبيِّ ..... ٢٢٣
- الذي يحمي الديار ويدافع عنها همُ الرِّجال، وأن المرأة ليست بذلك الذي يدافع  
عن البلد ..... ٢٢٩
- أحكامُ التَّورِيَّة ..... ٢٤٦
- شُوم الكذب يعودُ على الكاذب ..... ٢٤٦
- نحن مُحاطَبون ومأمورون أن ننظر إلى الحال الحاضرِ الآن ..... ٢٥١
- الظُّهور والغلبة قد يكونون سبباً للأشْر والبَطْر ..... ٢٥٤
- أهل الباطلِ قد يكون لديهم زُخرفٌ من القَوْل غرور ..... ٢٥٦
- كل أحدٍ يعرف أن الرُّشد مطلوب، وأن الغيَّ مكروه ..... ٢٥٧
- علامة البدل أنه يصحُّ أن يحلَّ محلَّ المُبدل منه ..... ٢٥٩
- أنَّ القرآن إنما كُتِب بلُغة قُرَيْش ..... ٢٦١
- انتفاء إرادة الظُّلم عن الله عزَّوجلَّ ..... ٢٦٢
- من قواعِد الأسماء والصفات أنه لا يوجد النفيُّ المحضُ في صفات الله ..... ٢٦٦
- يُجِب على الإنسان إذا أراد أن يسأل الهداية أن لا يسألها إلا من الله ..... ٢٧٤

- ٢٨١ ..... يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ عِلْمٌ بِمَا سَبَقَ؛ فَإِنَّ التَّارِيخَ عِبْرٌ
- ٢٨١ ..... أَعْظَمَ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ - بَعْدَ مُوسَى - هُوَ يُوسُفُ
- ٢٨٢ ..... الإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ لَا يَكْفِي فِي التَّوْحِيدِ وَالْحَلَاصِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
- ٢٨٩ ..... الإِنْسَانُ يَتَرَفَّعُ، وَهُوَ نَوْعَانِ: تَكَبَّرَ عَلَى الْخَلْقِ، وَتَكَبَّرَ عَنِ الْحَقِّ
- ..... الْعُلَمَاءُ الْمُحَقِّقُونَ يَقْرَأُونَ كُتُبَ الْمَنَاطِقَةِ وَالْفَلَسِيفَةِ وَغَيْرَهَا؛ ثُمَّ يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ،
- ٢٩١ ..... وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي الْعِلْمِ
- ٢٩١ ..... كُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَهُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ
- ..... دِقَّةُ عِبَارَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ قَالَ: مَنْ غَيْرَ
- ٢٩٢ ..... تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ
- ٢٩٣ ..... إِثْبَاتِ الْعِنْدِيَّةِ لِلَّهِ، عِنْدَ اللَّهِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: عِنْدِيَّةٌ وَصَفٌ، وَعِنْدِيَّةٌ قُرْبٌ
- ٢٩٤ ..... الرَّدُّ عَلَى مَنْ قَالَ: الْكَمَالُ أَنْ تَنْصِفَ بِصِفَاتِ الْكَامِلِ
- ٢٩٥ ..... الْأَخْلَاقُ كَسْبِيٌّ وَعَرِيزِيٌّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسَمِّيَ أَوْصَافَ اللَّهِ تَعَالَى أَخْلَاقًا لَهُ
- ٢٩٨ ..... هَلْ كُلُّ مَنْ وُصِفَ بِهَذَا الْوَصْفِ التَّكَبُّرُ مَطْبُوعٌ عَلَيْهِ؟
- ٣٠١ ..... لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْرَأَ بَيْنَ الْعَامَّةِ بِقِرَاءَةِ مُخَالَفٍ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَصَاحِفِ
- ٣٠٥ ..... جَوَازِ نِسْبَةِ الشَّيْءِ إِلَى الْأَمْرِ بِهِ دُونَ فَاعِلِهِ
- ..... كُلُّ نَصٍّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَأْتِ عَنِ الصَّحَابَةِ خِلَافَهُ، فَإِنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ
- ٣٠٦ ..... أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِهِ
- ٣٠٨ ..... الإِنْسَانُ قَدْ يُزَيَّنُ لَهُ سُوءُ الْعَمَلِ، وَالتَّزْيِينُ نَوْعَانِ
- ٣٠٩ ..... صَمِيرُ الْفَضْلِ صَمِيرٌ لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ، وَلَهُ ثَلَاثُ فَوَائِدَ
- ٣١٧ ..... الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا تَوَافَرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْقَبُولِ

- الذكور والإناث مشتركون في الثواب والعقاب ..... ٣٢١
- أسماء الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين ..... ٣٢٥
- هل يكتب القرآن حسب القواعد وفي كل وقت بحسبه، أو على الرسم العثماني؟ ..... ٣٢٩
- هل الحديث القدسي هو كلام الله بلفظه أو معناه؟ ..... ٣٣٥
- ما يتقوله الله عز وجل عن الأمم السابقة هل هو بالمعنى أو باللفظ؟ ..... ٣٣٥
- الفرق بين الحديث النبوي والقدسي ..... ٣٣٦
- الفرق بين دعوة المسألة ودعوة العبادة ..... ٣٣٧
- استعمال التعريض ..... ٣٣٨
- الإظهار في موضع الإضمار من أساليب اللغة العربية، وله فوائده ..... ٣٣٨
- عذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة والإجماع ..... ٣٤٦
- هل العذاب يكون على البدن أو على الروح، أو عليهما جميعاً؟ ..... ٣٤٧
- هل يجوز تعزية المسلمين للكفار؟ ..... ٣٥٠
- هل يطلب الحديث دليلاً على إثبات مسألة لغوية؟ ..... ٣٦٠
- لا تقبل دعوة الكافر أبداً إلا في حالين ..... ٣٦٢
- أين النصر في الحياة الدنيا لمن قُتل من الأنبياء؟ ..... ٣٦٨
- هل يجوز أن نلعن الكافرين؟ ..... ٣٧٤
- هل يجوز أن أدعو الله للكافر بالهداية؟ ..... ٣٧٥
- كل من لم يتذكر بآيات الله فإنه ليس ذا عقل ..... ٣٨٠
- هناك فرق بين العقل والذكاء ..... ٣٨٠
- الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المولمة ..... ٣٨٧



- جَوَازُ الذُّنُوبِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..... ٣٨٩
- إِذَا تَكَبَّرَ الْقَلْبُ تَكَبَّرَ الْبَدَنُ، وَإِذَا ذَلَّ الْقَلْبُ ذَلَّ الْبَدَنُ ..... ٣٩٤
- الرُّسُولُ يَخْتَلِفُ مَعْ غَيْرِهِ فِي مَسْأَلَتَيْنِ ..... ٣٩٨
- أَرْبَعَةٌ أُمُورٌ تَجْعَلُ مِنَ الْبَاطِلِ مَنَارًا يَعْلُو ظَاهِرًا عَلَى الْحَقِّ، وَأَمَّا الْحَقُّ نَفْسُهُ فَلَا يُمَكِّنُ  
إِطْلَاقًا أَنْ يَغْلِبَهُ الْبَاطِلُ ..... ٤٠٠
- الْكِبْرُ سَبَبٌ لِكُلِّ شَرٍّ ..... ٤٠٠
- إِدْرَاكُ الْمَسْمُوعِ فَيَرِدُ لِمَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ ..... ٤٠١
- الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا اجْتَمَعَ فِيهِ أَمْرَانِ ..... ٤٠٧
- ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، وَهُوَ إِلْحَاقُ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ ..... ٤٠٨
- نَفْيُ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ وَهَذَا مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ ..... ٤٠٨
- إِبْطَالُ الْكَلِمَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ قَالُوا: عَادَ إِلَى مَثْوَاهُ الْأَخِيرِ ..... ٤١٢
- إِثْبَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ ..... ٤١٥
- لَا بُدَّ أَنْ تَشْعُرَ حِينَ الدُّعَاءِ أَنَّكَ فِي غَايَةِ الضَّرُورَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ ..... ٤١٨
- مِنَ الْأَدَابِ الَّتِي فَقَدَهَا سَبَبٌ لَمَنْعِ الْإِجَابَةِ ..... ٤١٨
- مِنَ مَوَاقِعِ الْقَبُولِ ..... ٤١٩
- الشُّكْرُ هُوَ الْإِعْتِرَافُ لِلْمُنْعِمِ بِالنِّعْمَةِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ ..... ٤٢٣
- التَّحْذِيرُ مِنْ قِيَاسِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ ..... ٤٢٦
- الذُّنُوبُ تَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ رُؤْيَةِ الْحَقِّ ..... ٤٢٦
- أَحْكَامُ التَّصْوِيرِ ..... ٤٤٠
- التَّصْوِيرُ الْفُوتُوغْرَافِي ..... ٤٤١

- ٤٤٤ ..... الرِّزْقُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: رِزْقٍ عَامٍّ، وَرِزْقٍ خَاصٍّ
- ٤٤٥ ..... رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الرَّحْمَةِ
- ..... رُبُوبِيَّةُ الْعَامَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَهَنَّاكُ رُبُوبِيَّةُ خَاصَّةٍ، وَرُبُوبِيَّةُ
- ٤٤٦ ..... أَحْصُ
- ٤٥٥ ..... النَّهْيُ: طَلَبُ الْكُفِّ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِعْلَاءِ بِصِيغَةِ الْمُضَارَعِ الْمَقْرُونِ بِـ(لَا) النَّاهِيَةِ ...
- ٤٥٧ ..... (لَمَّا) تَأْتِي فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ
- ..... الْإِسْلَامُ يَأْتِي عَلَى وَجْهَيْنِ أَوْ لَهُ مَعْنَيَانِ: الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: الْإِسْلَامُ الْكُونِيُّ، وَالثَّانِي:
- ٤٥٨ ..... الْإِسْلَامُ الشَّرْعِيُّ
- ٤٦٠ ..... التَّخْلِيَّةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ
- ٤٦٦ ..... قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ أَطْفَالًا إِلَى أَقْسَامٍ
- ٤٦٨ ..... أَحْكَامُ اللَّهِ تَعَالَى مُعَلَّلَةٌ بِحِكْمَةٍ
- ٤٧٧ ..... الْخِطَابُ الَّذِي ظَاهِرُهُ أَنَّهُ مُوجَّهٌ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ
- ٤٨٥ ..... يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا عَلَى خَوْفٍ وَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ الثَّبَاتَ دَائِمًا
- ٤٨٨ ..... دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ عِبَادَةٌ بِاللَّازِمِ
- ٤٩١ ..... النَّاسُ انْقَسَمُوا فِي أَعْمَالِ الْعِبَادِ إِلَى طَرَفَيْنِ وَوَسْطٍ
- ..... إِذَا رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ مُخْتَلِفِينَ عَلَى طَرَفَيْنِ وَوَسْطٍ، فَاعْلَمْ أَنَّ الطَّرَفَيْنِ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
- ٤٩١ ..... أَخَذَ بِجَانِبٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَتَرَكَ جَانِبًا آخَرَ
- ..... اسْمُ الْإِشَارَةِ بِحَسَبِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ وَكَافِ الْخِطَابِ بِحَسَبِ الْمُخَاطَبِ قَدْ يَتَّفِقَانِ
- ٤٩٢ ..... وَقَدْ يَخْتَلِفَانِ
- ٤٩٤ ..... النَّاسُ اخْتَلَفُوا فِي الْأَسْبَابِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: طَرَفَانِ وَوَسْطٍ

- الفرح بالحقِّ محمود، والفرح بغير الحقِّ مذموم، والفرح بما ليس حقًّا ولا باطلًا  
 ليس محمودًا ولا مذمومًا ..... ٤٩٤
- صرَّح في القرآن الكريم بأن أهل النار خالدون فيها أبدًا في ثلاثة مواضع ..... ٥٠١
- الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام ..... ٥٠٦
- هل قول الله عزَّ وجلَّ قول مسموع بصوت؟ ..... ٥١٨
- الآيات أدقُّ من كلمة المعجزات ..... ٥٤٧
- السَّير في الأرض بالقدم إذا لم يصحبه النظر والاعتبار فإنه لا ينفع ..... ٥٤٥
- ينبغي للعالم الذي ينشر شريعة الله عزَّ وجلَّ إذا نشرها بين الناس أن يكون نشره  
 إياها على وجه يبيِّن لا اشتباه فيه ..... ٥٥١





## فهرس آيات السورة

الآية		الصفحة
تقديم	.....	٥
مقدمة	.....	٧
سورة غافر	.....	٣٤
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَمَّ ①﴾ تَزِيلُ الْكَذِبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ②﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ③﴾	.....	٣٩
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ④﴾	.....	٦٦
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑤﴾	.....	٧٤
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ⑥﴾	.....	٨٢
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑦﴾	.....	٨٧
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑧﴾	.....	١٠٥

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٠﴾ ..... ١١١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ ..... ١١٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتِنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا آتِنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿١١﴾ ..... ١٢٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ ﴿١٢﴾ ..... ١٢٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾ ..... ١٤٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ..... ١٥١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿١٥﴾ ..... ١٥٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿١٦﴾ ..... ١٦٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٧﴾ ..... ١٦٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ ..... ١٧٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٩﴾ ..... ١٨٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا

- ١٨٦..... ﴿١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٠﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١١﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿١١﴾
- ٢٠١..... ﴿١١﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾
- ٢١١..... ﴿١٢﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٣﴾
- ٢١٦..... ﴿١٣﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٤﴾
- ٢٢٧... ﴿١٤﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٥﴾
- ٢٣١..... ﴿١٥﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾
- ٢٣٦..... ﴿١٦﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿١٨﴾
- ٢٤٠..... ﴿١٨﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٩﴾ يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَضُرْنَا مِن بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ
- ٢٤٨..... ﴿١٩﴾

- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اِيْحَ اَخَافُ عَلَيْكُمْ يَمَثَلُ يَوْمِ الْاَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلُ دَابِ قَوْمِ نُوْحٍ وَعَادٍ وَثَمُوْدَ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيْدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ ٢٥٨
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقَوْمِ اِيْحَ اَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِيْرِيْنَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِيْمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَا لَهٗ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ ..... ٢٦٩
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهٖ حَقٌّ اِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهٖ رَسُوْلًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ ..... ٢٧٥
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِيْنَ يُجَدِّلُوْنَ فِيْ ءَايَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطٰنٍ اٰتٰهُمْ كُتُبًا مَّقٰمًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلٰى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ ..... ٢٨٥
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يٰنَهْمَنُّ اٰبِيْ لِيْ صِرْحًا لَعَلِّيْ اَتَّبِعُ الْاَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ اَسْبَابَ السَّمٰوٰتِ فَاَطَّلِعُ اِلٰى اِلٰهِ مُوسٰى وَاِنِّيْ لَاطْنُهٗ كَذِبًا وَكَذٰلِكَ زِيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سُوْءِ عَمَلِهٖ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيْلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ اِلَّا فِيْ تَبٰبٍ ﴿٣٧﴾﴾ ..... ٢٩٩
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِيْ ءَامَنَ يَقَوْمِ اَتَّبِعُوْنَ اِهْدِيْكُمْ سَبِيْلَ الرِّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ اِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَاِنَّ الْاٰخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِكَرِ ﴿٣٩﴾﴾ .. ٣١١
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزِيْ اِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صٰلِحًا مِّنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْفًى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَاُوْلٰئِكَ يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُوْنَ فِيْهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ ..... ٣١٦
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقَوْمِ مَا لِيْ اَدْعُوْكُمْ اِلَى النَّجْوٰى وَتَدْعُوْنِيْ اِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُوْنِيْ لَآكْفُرُ بِاللّٰهِ وَاَشْرِكُ بِهٖ مَا لَيْسَ لِيْ بِهٖ عِلْمٌ وَاَنَا اَدْعُوْكُمْ اِلَى



- الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي  
 ٣٢٣ ..... الْأُخْرَى وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ  
 ٣٣٩ ..... بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فِرْعَوْنُ سُوءَ  
 الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ  
 ٣٤٢ ..... فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ  
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْضًا فَمَهِّلْ أَنفُسَ الْمُغْتَابِ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾
- ٣٥١ ..... قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْمَةَ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا  
 يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى  
 ٣٥٦ ..... قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ  
 ٣٦٦ ..... الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ  
 ٣٧٠ ..... ﴿٥٢﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ  
 ٣٧٧ ..... ﴿٥٣﴾ هُدًى وَزَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَسَخِّحْ بِحَمْدِ  
 ٣٨٢ ..... رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾

- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ  
إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ  
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ..... ٣٩١
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ..... ٤٠٣
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ..... ٤٠٦
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ..... ٤١١
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ  
عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ..... ٤١٤
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا  
إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ..... ٤٢٢
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَاقٌ  
تُؤَفِّكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ..... ٤٢٧
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً  
وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ  
فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ ..... ٤٣٤
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ  
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ..... ٤٤٨
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي

- ٤٥٥ ..... ﴿٦٦﴾ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾
- ٤٦٣ ..... ﴿٦٧﴾
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾
- ٤٧٠ ..... ﴿٦٨﴾
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّىٰ يُصَرَّفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ... ٤٧٧
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآلِكَتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْعَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾
- ٤٨١ ..... ﴿٧٢﴾
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ... ٤٨٧
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾
- ٤٩٢ ..... ﴿٧٥﴾
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾
- ٤٩٩ ..... ﴿٧٦﴾
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ تَوَفِّيكَ وَآلِيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾
- ٥٠٦ ..... ﴿٧٧﴾
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾
- ٥٢٢ ..... ﴿٧٨﴾

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ..... ٥٣٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ ..... ٥٣٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ..... ٥٤١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ..... ٥٤٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ..... ٥٥٣
- فهرس الأحاديث والآثار ..... ٥٥٩
- فهرس الفوائد ..... ٥٦٧
- فهرس آيات السورة ..... ٥٨١

